

الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة الجوائز
106

أندريا ليڤي

رواية

جزيرة صغيرة

ترجمة: فاطمة أسامة

مراجعة: د. أماني توما

ليفى، اندريا.

جزيرة صغيرة: رواية/ أندريا ليفى، ترجمة: فاطمة أسامة: مراجعة: أمانى توما. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.

٧١٢ص؛ ٢٤ سم.

تدمك ٢ ٨٣٨ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص العربية.

أ ـ أسامة، فاطمة (مترجم)

ب ـ توما، أمانى (مراجع)

ج ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٧١٢/ ٢٠١٤

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 838 - 2

جزيرة صغيرة

«رواية»

أندريا ليفى

ترجمة: فاطمة أسامة

مراجعة: د. أمانى توما

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٤

• الكتاب: جزيرة صغيرة
Small Island

• تأليف: أندريا ليفى
Andrea Levy

• ترجمة: فاطمة أسامة

• مراجعة: د. أمانى توما

• الطبعة الأولى ٢٠١٤.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

افتتاحية

كويني

اعتقدتُ أنى ذهبت إلى إفريقيا. أخبرت كل الفصل بأننى كنت هناك. أوقفتنى معلمتنا، إرلى بيرد، أمام العلم البريطانى ـ وما كانت تسمح لأحد بأن يطلق عليه يونيون جاك(*) فقط، "**إنه علم الإمبراطورية وليس مجرد مقطوعة موسيقية.**" وعندئذ وبكل جرأة وقفتُ أمام العلم وقلتُ بصوت عالٍ كآلة نفخ نحاسية: "**أنا ذهبت إلى إفريقيا عندما جاءت إلى ويمبلى.**" وعلى إثر ذلك كانت إرلى بيرد هى من أخبرتنى بعد ذلك بأن إفريقيا هى اسم بلد. "**أنتِ لست غالباً فتاةً سخيفةً يا كوينى بوكستون،**" وأكملتْ قائلة: "**ولكنك لم تذهبى إلى إفريقيا، أنت ذهبتِ إلى معرض الإمبراطورية البريطانية لا غير، مثلك مثل آلاف آخرين.**"

(*) Union Jack علم المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا الشمالية، يعود لعام ١٨٠١ عام اتحاد بريطانيا وأيرلندا. (المترجمة).

كانت رحلة تابعة لجمعية الجزارين. ففى كل عام تُنظم رحلة للجزارين ومعهم زوجاتهم وأولادهم وأيضًا لعمالهم المفضلين. إنه يوم نقضيه خارج البيت. تحب أمى أن تذهب. فكانت تقول لوالدى "إنها بمثابة عطلة رسمية."

وكان يهمهم مع نفسه قائلاً: "إنها حماقة ومضيعة للوقت." ولكنه مع كل هذا الامتعاض كان يذهب.

فى بعض الأعوام كان يذهب كل من يعمل فى مزرعتنا تقريبًا إلى هناك. البنات اللواتى يعملن بالبيت فى مساعدة أمى فى خبز الفطير. والبنات اللواتى يعملن بالخارج فى المزرعة فى إطعام الخنازير والطيور. حتى الأولاد الأغبياء، الَّذين يساعدون والدى فى الحظيرة، بدلوا ملابسهم الملطخة ولبسوا للرحلة أحسن ما عندهم من البدل البالية غير المناسبة. كنا دائمًا نرتدى أحسن ما عندنا لركوب البدال فى البحر فى بلاكبول، أو ركوب الحافلة الحمراء للسير حول ميدان بيكادلى، أو الضحك على القرود فى حديقة الحيوان. ثم بعد ذلك يأتى ميعاد الرجوع إلى البيت. فيغفو الرجال من كثرة شرب البيرة، ويبكى الأولاد بعد أن ضُربوا لاتساخ ملابسهم أو بسبب التصاق قطع من الحصى بشعرهم. وكثيرًا ما كانت إحدى بنات المزرعة تختفى مع أحد أولاد المزرعة، ثم يظهرا لاحقًا فجأة خجلَيْن ومرتبكَيْن كالغنم، شَعِثا الشعر وغير مهندمَيْن.

فى العام الذى ذهبنا فيه إلى معرض الإمبراطورية لم تكن الحرب العظمى قد انتهت فقط، بل قد نُسيت تقريبًا. حتى والدى أقرَّ بأن معرض الإمبراطورية هذا يستحق الزيارة؛ فقد وصفه الملك بأنه "الإمبراطورية كلها مصغرة". أمى اعتقدت أن ذلك يعنى أنه

نموذج ماكيت للإمبراطورية، أى مثل دمية للسكة الحديد أو نموذج صغير لقرية. حتى أخبرها بعض الأشخاص بأنهم قد رأوا ستيفنسون روكت(*) بمقاسه الحقيقى فى المعرض. قلتُ: **"لابد أن يكون كبيراً تماماً مثل العالم،"** فضحك الجميع على كلامى.

كان يجب أن نترك أشقائى بيلى وهارى وجيم فى المنزل. لقد كانوا صغارًا جدًا، واتفق الجميع مع أبى عندما قال إن الأولاد الصغار الشُقر قد يبتلعهم الزحام. **"أنا لا أخاف أن أؤكل،"** قالها بيلى وهو يبكى بكاءً متقطعًا. كانوا جميعهم يبكون بغصّة وهم متشبثون فى معطف أمى. ولهذا اضطرتْ أمى أن تعدهم بأنها ستحضر لهم شيئًا طريفًا عند عودتها ـ نموذجًا لدمية عسكرى أو آلة. تركتهم مع مولى الفتاة التى تعمل فى البيت، والتى وقفت عند النافذة تنظر إلينا بامتعاض وغضب مكتوم، نظرةً تُخَثِّر اللبن.

لبستُ فستانًا أبيض من الأورجانزا به شريطة زرقاء متدلية من الأمام، ولُفَّت ضفيرتى وزيّن شعرى بشريطة بيضاء كبيرة. وطوال الرحلة كان أبى وأمى يتحدثان فى القطار مع الجزارين وزوجاتهم عن كل شىء، وخاصة عن انزعاجهم من ثقل وطأة عملية القتل الرحيم للحيوان على أنفسهم بعصا الفأس الطويلة. فجلستُ بين اثنين ممن يساعدوننا فى المزرعة، وهم إملى وجراهم، اللذان أمضيا وقتهما يقهقهان معًا ويتغازلان من فوق رأسى.

إملى هى الفتاة التى تعمل فى الخارج بمزرعتنا منذ شهرين، وحظيت بأم طيبة بالتبنى، تعيش فى كينت وترسم لوحات جميلة

(*) (Stephenson's Rocket) من أوائل القطارات بالبخار، وصمم بواسطة شركة روبرت ستيفنسون عام ١٨٢٩ ويعد تصميمه المثال القياسى لتصميم القطارات. (المترجمة).

لزهور الصيف، وأب وعمّين يعيشون فى لندن، كانوا دائمًا ثملين ولم يكونوا أبدًا على يقظة كافية للمشاركة فى الحرب. أما جراهم فيساعد والدى فى الحظيرة. يعتنى بأمر النار تحت وعاء النحاس الذى توضع فيه بقايا الأطعمة للخنازير، ويأخذ الفطير المصنوع من لحم الخنزير إلى المخبز عندما يلزم الأمر، وعمومًا كان ينفذ أى شىء يطلبه والدى منه هنا وهناك ولكن ليس بالسرعة المطلوبة. كان أبى يناديه جيم. ففى أول يوم لجراهم فى المزرعة أخبر والدى باسمه، فنظر إليه نظرة ازدراء ثم قال له: "**لن أزعج نفسى باسم هكذا، سوف أناديك جيم.**" وبالتالى أصبح بعض الناس ينادونه جيم والبعض الآخر ينادونه جراهم، وتعلم هو بأن يُجيب على الجميع. إلا أن كل طموح جراهم، على قدر ما أستطيع قوله، هو أن يشعر بملمس صدر إملى.

مئات المئات من الناس كانوا يتدفقون من بوابة المعرض، مارين على الحدائق والبحيرات، أو يتمشون ويختلطون بعضهم ببعض، يثرثرون. والأطفال يُسحبون ليُسرعوا من خطواتهم. ونساء يُشرْن والعجائز يبحثون عن مقاعد: "**هنا! كلا. هنا.... من هنا أحسن.**" إنها الإمبراطورية بأجمعها مصغرة. هنا قصر الهندسة، وقصر الصناعة، مبانٍ ومبانٍ كلها تضم جميع الدول التى نمتلكها نحن البريطانيين. بعضها يبدو مثل القلعة الفخمة، وبعضها بأسطح مدببة مضحكة، وبعض المبانى الأخرى ـ كنت على يقين بذلك ـ لها نصف حلقة من البصل على قمتها. بالفعل، إنه العالم كله ماثلٌ هناك لنتفرج عليه.

"**يجعلك فخوراً بنفسك،**" قال جراهم لوالدى.

فى تلك اللحظة صوَّب أبى نظره إلى الولد من أسفل إلى أعلى ثم قال: **"وهل هو من ستصغون إليه؟".**

كانت ثمة مناقشات حول ماذا يجب أن نراه ـ إنه العالم بأسره وأمامنا يوم واحد فقط لكى نشاهده. لم تكن أمى مهتمة بأنواع الخشب المختلفة من بورما، أو متحمسة لغنائم الصيد التذكارية من مالايا. قالت: **"ممكن لاحقًا،"** لقهوة من جامايكا. **"آه، كلا،"** للسكر من برابادوس. **"لأي شيءٍ هذا؟"** للشوكولاتة من جرينادا. وأيضًا قالت: **"ما هذا بحق السماء؟"** لجزيرة سرواق. كان يوجد فى كندا نموذج لأمير ويلز بمقاسه الطبيعى من الزبد الأصفر. كان لابد لى أن أجاهد حتى أصل إلى الصفوف الأمامية لأفوز برؤية جيدة. ألصقتُ وجهى فى الزجاج فأتت أمى وسحبتنى للخلف. **"أمسكى يد إملى،"** قالت لى أمى. **"لا أُريدك أن تتوهى."** ثم زمجرتْ فى إملى بصوت غاضب أمام الزحام، الذين جاهدوا ليلقوا نظرة على التمثال متخطين أمى والفتاة التى احمرت خجلاً، والكلُّ كان يردد: **"أهو زُبد؟! حقًا زُبد؟ مستحيل."** قالت أمى لإملى إنها أحضرتها فقط معها لتعتنى بى وإذا فقدتنى فى الزحام فستقع فى مشكلة ـ مشكلة كبيرة بالفعل. وبالتالى ألصقتْ إملى نفسها بى مثل التصاق هباب الفحم بعامل المنجم. وأينما ذهبت إملى كان يتبعها جراهم.

تفوح رائحة التفاح من أستراليا. تفاحٌ ناضجٌ أخضر ومقرمش، ذو رائحة حادة وحلوة جعلت أسنانى تصطك. **"سوف نأخذ بعضًا منها،"** قال والدى وهو يقف فى الطابور ليشترى كيسًا بنيًا صغيرًا من الفاكهة. احتفظت أمى بنصيبها لتأكله لاحقًا، أما أنا فأكلتُ نصيبى وأعطيتُ البذر لإملى، حينئذ أخبرنا جراهم بأنه سيذهب

للعيش فى أستراليا. "**أستراليا ـ أنت؟ أيها المتسول السخيف،**" قال أبى ضاحكًا.

وعدونى بأننى سوف أرى الخروف وصوفه يُجزُّ فى نيوزيلندا، ولكننا وصلنا ورأينا الحيوان المسلوخ المجرد من صوفه يترنح فى مشيته بالحظيرة، وجِزَّة الصوف على الجانب. كانت رائحة هونج كونج عطنة، أما الهند فكانت مليئة بالنساء اللواتى كن يلبسن أقمشة غريبة وطويلة، ألوانها زاهية ومبهجة. وجميعهن يضعن نقطة حمراء فى وسط جبينهن. لم يستطع أحد أن يخبرنى لماذا هذه النقط. قالت لى إملى: "**اذهبى واسألى إحداهن.**" ولكن أمى منعتنى لئلاَّ تعنى تلك النقط مرضهن، أو خوفًا من العدوى.

رائحة الشاى من سيلان جعلت أمى تبلع ريقها بمشقة وقالت: "**إنى أتشوق لكوب من الشاى والجلوس. آه يا قدمىَّ!**" فى ذلك الوقت بدأ أبى يتبرم ساخطًا بأنه لم ير بعد ماكينات صنع البسكوت أو تعبئة السجائر. وبكيتُ لأنى كنت أريد أن أرى المزيد من البلدان. نادتنى إملى بالمدام الصغيرة فأخبرتها أمى بأن تنتبه لألفاظها. وأعطى أبى توجيهات لجراهم ـ الذى لابد أن يكرر عليه ما يقوله مرتين ليتأكد أنه فهِم ـ بأن يقابله وأمى لاحقًا فى قاعة الاستراحة عند معرض الغاز. ثم انطلق أبى وأمى ليتفحصا الماكينات الحديثة والمبردات، بينما مضيتُ أنا وإملى، وطبعًا، جراهم الأحمق فى رحلتنا حول العالم وحدنا.

حينئذ تهنا فى إفريقيا. ورحنا نتسكع، متتبعين رائحة السكر البنى للشوكولاتة. كانت إملى تمشى فى أثر جراهم وتنظر إلى من حين إلى آخر وتصرخ: "هيا بسرعة." كنت أتوق لكوبٍ من الكاكاو

الذى يستمتع به كل واحد فى المعرض، إلا أنها بدلاً من ذلك جذبتنى من إحدى ضفائرى وحثتنى على المشى بسرعة. وإذا بنا نجد أنفسنا فى قرية إفريقية، وجراهم يتلفت حوله وهو يحك رأسه مخبرًا إملى بأنه يريد أن يذهب إلى المرحاض.

كنا فى الأدغال. أحاطت بنا أكواخٌ من الطين بأسطح مدببة من كل جنب. وفى أحد الأكواخ جلست سيدة متربعة على أرض متربة، وكانت بشرتها سوداء تمامًا مثل سواد الحبر فى المحبرة على طاولتى فى المدرسة. وكأنها الظل دبَّت فيه الحياة. كانت تنسج خيوطًا بسيطة التصميم على النول. "**لدينا الآن آلات تصنع هذا.**" قال جراهم، فلكزته إملى ليصمت. "**لا تستطيع أن تفهم ما أقوله.**" وضَّحَ جراهم، "**ليسوا متحضرين. هم فقط يفهمون الطبول.**" استمرت المرأة فى عملها وكأنها لا تسمع أحدًا يتحدث ـ أخذت تدفع العصا خلال عُقد الخيوط.

سألها جراهم: "**هل رأيتِ المرحاض؟**" ولكنها لم تفهم ما قاله أيضًا.

"**أريد أن أذهب،**" قلتُ، حيث إنى لم أجد شيئًا مسليًا أنظر إليه. إلا أنه فجأة كان هناك رجل. رجلٌ إفريقى. رجل أسود كأنه نُحت من شوكولاتة ذائبة. فتشبثتُ فى إملى لكنها هَشَّتْنى بعيدًا. كان واقفًا بجانبى، قريبًا منى لدرجة أنى استطعت أن أراه يتنفس. إنه رجلٌ قرد رائحة عرقه مثل كرة النفتالين. كان أكثر سوادًا من أن تُلطخ وجهك بالفلين المُسخّم. وذرات العرق على جبينه تبرق وتلمع مثل الجواهر. وشفتاه كانتا بنيتين، وليستا ورديتين كما ينبغى أن تكونا، وكانتا منتفختين بالهواء مثل إطار دراجة، أما شعره فكان

خشنًا كصوف خروف أسود مجزور، ولدى أنفه الخرشوفية المفلطحة فتحتان كبيرتان كفتحتى نفق القطار. وكان ينظر أسفل إلىَّ.

قال جراهم: **"هل تريدين أن تعطيه قبلة؟"** لكزنى وغاظنى ودفعنى للأمام صوب ذلك الرجل الأسود. وقهقهت إملى قائلة: **"هيا يا كوينى، قبليه، أعطيه قبلة."**

ظلّ ذلك الرجل ينظر إلىَّ. كنت أشعر بالدم يتدفق إلى وجهى حتى أصبح لونه قرمزيًا، حينها ابتسم وظهرتْ صفوف من الأسنان ناصعة البياض. وكان فمه ورديًا من الداخل، وأخذ وجهه يقترب أكثر من وجهى. كان بوسع ذلك الزنجى الكبير أن يبتلعنى. ولكن، بدلاً من ذلك قال بإنجليزية سليمة: **"ربما نستطيع أن نتصافح عوضًا عن ذلك؟"**

اختفت الابتسامة من على وجه جراهم. فى حين صافحتُ أنا رجلاً إفريقيًا. وجدتُ يديه دافئتين ومبللتين بالعرق قليلاً، تمامًا مثل أى شخص آخر. صافحته لعدة ثوانٍ. ثم مال برأسه كتحية لى وقال: **"شىءٌ لطيف أن أقابلك."** ثم حرر يدى وتنحى جانبًا لكى نستطيع المرور. مازالت إملى تقهقه وتنظر إلى جراهم وعيناها تلفان فى حدقتيهما. أمسكتْ مرفقى وجذبتنى بقوة بعيدًا بينما كرر جراهم ثانيةً بأنه يريد الذهاب إلى المرحاض. ولابد أن ذلك الإفريقى قد فهم ما قيل لأنه أشار بيده وقال: **"هناك بجانب الشجرة بيت للراحة، أعتقد أنك ستجد فيه ما تريد."**

لكن جراهم لم يجد المرحاض. فتبول مختبئًا وكنت أنا وإملى نراقب له الطريق.

أخبرنى أبى لاحقًا بأن ذلك الإفريقى الذى صافحته قد يكون رئيس قبيلة أو أميرًا فى إفريقيا. ويتضح حين يتحدثون الإنجليزية أنهم تعلموا كيف يكونون متحضرين ـ على الأرجح تعلموا الإنجليزية من الرجل الأبيض أو البعثات التبشيرية. ولهذا أخبرنى والدى بألا أنزعج لمُصافحته؛ لأن هذا الإفريقى على الأغلب رئيس لقبيلة أو أمير له مكانة بين عشيرته.

وعدنى والدى بأن يأخذنى فى رحلة لمشاهدة المناظر الطبيعية بالقطار لكى أنسى تلك الواقعة. أراوغ والدتى حتى أقنعها: **"هيا بنا. سنرى المناظر الطبيعية لأميال هناك."** فقد كانت مترددة وقلقة من أن أتقيأ على الناس فى القطار. دعاها والدى بالحمقاء، ثم وعدها بأنها سترى أروع المناظر فى حياتها. لوّحتُ بيدى إلى إملى وجراهم حيث بدأت عربتنا الصغيرة بالتحرك إلى أعلى أسرع فأسرع. وقفا فى المؤخرة ـ إملى تمضغ حلوى الطوفى وجراهم يدخن سيجارة. إلا أنهما اختفيا بغتة. فقالت أمى وهى تتنهد: **"سيظهران لاحقًا."**

أخذنا فى الارتفاع لأعلى نحو السماء حتى أصبح الناس فى الأسفل كالنقط. وعندما تعلقنا فى الأعلى —اختلطت الأنوار المتلألئة مع النجوم ـ قال لى والدى شيئًا لن أنساه أبدًا. قال: **"انظرى هنا يا كوينى. انظرى حولك. فالعالم كله عندك تحت قدميك، يا بنت."**

١٩٤٨

الفصل الأول

هورتنس

أعادت لى تلك اللحظة ذكريات الماضى. سيليا لانجلى. هاهى سيليا لانجلى واقفة أمامى، يداها على أردافها رافعة رأسها عاليًا فى السحاب. وهى تقول: "آه، يا هورتنس، عندما أكبُر..." كانت تبدأ كل أحلامها بعبارة: "عندما أكبُر، يا هورتنس، سوف أترك جامايكا، وسوف أعيش فى إنجلترا." عندئذ أصبح صوتها كصوت أبناء الطبقة العليا وأنفها شامخًا عاليًا فى الهواء ـ حسنًا، على قدر ما يستطيع أنفها المستدير المفلطح أن يرتفع ـ وأخذتْ تتمايل وهى تتخيل الصورة فى ذهنها. "يا هورتنس، سيكون لى بيت كبير فى إنجلترا له جرس عند الباب الأمامى، وسوف أقرع الجرس." ثم قلَّدتْ صوت الجرس، دينج ـ لينج ـ دينج ـ لينج. "سوف أقرع الجرس فى هذا المنزل عندما أكون فى إنجلترا. هذا ما سيحدث لى عندما أكبُر."

فى كل مرة كنت لا أتفوه لها بشىءٍ. اكتفيتُ بهز رأسى وقلتُ: "بالتأكيد سوف تذهبين، يا سيليا لانجلى، بالتأكيد ستذهبين." لم

أجرؤ بأن أحلُم بأننى فى يوم من الأيام أنا من ستذهب إلى إنجلترا. وسأكون أنا من ستبحر فى يوم من الأيام فى سفينة كبيرة بحجم العالم، وسأشعر بأشعة الشمس القائظة تتغير تدريجيًا على وجهى حتى تغازلنى بملمسها. ولكن ها أنا هناك! واقفة أمام باب منزل فى لندن أدقُّ الجرس. أزحتُ إصبعى لأسمع دينج ـ لينج ـ دينج ـ لينج. آه، يا سيليا لانجلى، أين أنتِ وأحلامكِ الكبيرة وأنفكِ الشامخ فى الهواء؟ هل تستطيعين رؤيتى؟ هل تستطيعين رؤيتى هنا فى لندن؟ هورتنس روبرتس متزوجة ولديها خاتم ذهب وفستان زفاف فى صندوق السفر. حرم السيد جوزيف. حرم السيد جلبرت جوزيف. ما رأيك فى ذلك، يا سيليا لانجلى؟ هذه أنا هنا فى إنجلترا أقرع جرس إحدى أطول البنايات التى رأيتها فى حياتى.

ولكن عندما قرعتُ جرس الباب لم أسمع صوته. لا يوجد دينج ـ لينج ـ دينج ـ لينج. ضغطتُ عليه مرة ثانية تحسبًّا بأنه لا يعمل. كان المنزل ـ أستطيع أن أرى ذلك ـ فى حالة رثة. عليك ملاحظة ذلك بنفسك، لقد كان رثًا إلى حدٍ كبير. أنا متأكدة بأن ذلك المنزل قد كان بيتًا لطبيب أو لمحامٍ أو ربمًا لصديق صديق الملك. إن المنزل الوحيد الذى يملكه شخص من الطبقة الراقية هو الذى فقط لديه أعمدة عند مدخله. أعمدة مزخرفة ضُفِّرت بتصاميم فى غاية العناية والكمال. وطُبعت على زجاجه صورٌ ملونة كالتى تُطبع على زجاج الكنيسة. فى الحقيقة بعض الزجاج غير موجود، واستبدل بورق مقوًى وخطوط من الشريط اللاصق الأبيض. لكن من يدرى ماذا كانت تحمل قنابل السيد هتلر من أعمال شيطانية خلال الحرب؟ قرعتُ جرس الباب مرة أخرى عندما تبين أن لا أحد يجيبنى. رفعتُ إبهامى وألصقتُ أذنى بالنافذة. ظهر نور الآن

وسمعتُ امرأة تصيح: "**حسنًا، حسنًا، أنا قادمة! أعطنا دقيقة يا من بالخارج.**"

رجعتُ خطوتين للخلف تجنبًا لكومة صغيرة من فضلات كلب مُلقاة على بعض المخلفات وأوراق شجر. عدلتُ وسويتُ معطفى وضممتُه جيدًا ولسوء حظى فقدتُ زرًا. عدلتُ قبعتى خوفًا من أن تكون قد تهدلت من الهواء وجعَلتْ شكلى مضحكًا. ووقفتُ مستوية الظهر.

أجابت سيدة إنجليزية على الباب. كانت سيدة إنجليزية شقراء، خدودها وردية وعيناها شديدة الزرقة كانتا أبهج شىء فى الشارع. نَظرتْ إلى وجهى، وحركتْ شفتيها الرقيقتين وقالت: "نعم؟"

"**أليس هذا العقار الخاص بالسيد جلبرت جوزيف؟**"

"**عفواً؟**"

فقلتُ ببطء: "**جلبرت جوزيف؟**"

"آه، جلبرت. **ومن أنت؟**" نطقتْ اسم جلبرت بطريقة غريبة، انشغل تفكيرى لدقيقة هل أكون قد وصلت إلى رجلٍ آخر.

فقلت: "**السيد جلبرت جوزيف يكون زوجى، وأنا زوجته.**"

بدتْ الحيرة والسرور على وجه المرأة فى آنٍ واحد. نظرتْ إلى داخل البيت رافعةً رأسها. ثم التفتتْ إلىَّ وقالت: "**ألم يذهب لمقابلتك؟**"

"**لم أرَ جلبرت،**" ثم أكملتُ لأسألها: "**لكن ربما هذا هو البيت الذى يسكن فيه؟**"

فردَّتْ تلك المرأة الإنجليزية قائلة: "**ماذا؟**" قطبتْ حاجبيها ونظرتْ إلى صندوق سفرى من فوق كتفى، وقد استقر على الرصيف حيث وضعه سائق التاكسى.

"هل هذا لكِ؟" استفسرتُ.

"هو كذلك."

فقالتْ: "إنه فى حجم جزيرة وايت(*) كيف أحضرتِه إلى هنا؟" ثم ضحكتْ قليلاً. مرَّت قهقهة رقيقة على عينيها وفمها. أنا أيضًا ضحكتُ حتى لا أعطيها انطباعًا بأنى لا أعرف ماذا كانت تقصد بخصوص تلك "الجزيرة البيضاء." قلت: "أوصلتنى سيارة الأجرة، وأكد لى السائق بأن هذا هو العنوان الصحيح. هل هذا هو بيت جلبرت جوزيف؟"

وقفتْ المرأة لبرهة قبل أن تجيبنى قائلة: "انتظرى هنا. سأذهب لأرى هل هو فى غرفته." ثم أغلقتْ الباب فى وجهى.

وتساءلتُ كيف لشخص طوله خمس أقدام وست بوصات (خمس أقدام وسبع بوصات عندما أرتدى حذاء بكعب عال)، كيف يتسنى لهذا الشخص أن يصل إلى قمة هذا المبنى الطويل؟ الحبال ودولاب رفع الأثقال هما كل ما أستطيع أن أتخيله. حبال أو بكرة لترفعنى لأعلى. لدينا دَرَج فى جامايكا. حتى فى بيوتنا ذات الطابق الواحد لدينا دَرَج يوصل الضيوف إلى الشرفة، ودَرَج يأخذهم إلى المطبخ.

كان هناك دَرَج فى جامعتى يؤدى إلى الطابق الأعلى عند غرف النوم التى تأوى الطالبات فى طابقين منفصلين. أنا معتادة على استخدام الدَرَج. إلا أن الصورة التى استطعتُ استحضارها فى ذهنى عندما نظرتُ لأعلى إلى ذلك المنزل الطويل هى الحبال

(*) بالإنجليزية (Isle of Wight) هى جزيرة ومقاطعة وايت بالإنجليزية، تقع فى أقصى شمال القناة الإنجليزية (المترجمة).

ودولاب رفع الأثقال. من الواضح أننى أمضيت وقتًا طويلاً على السفينة.

وعدنى جلبرت جوزيف فى خطابه الأخير بأنه سيكون هناك فى انتظارى عند وصول السفينة إلى رصيف الميناء فى إنجلترا. فقد كتب صفحتين من التعليمات يخبرنى فيهما كيف سيقابلنى. فقد كتب: "**سأكون هناك.**" "**سترينني ألوح بيدى بفرح لعصفورتى الصغيرة التى أتتْ أخيرًا إلى إنجلترا، وسأقفز عاليًا وسأنادى على اسمك وصوتى كله شوق لك.**" اتضح لى فعلاً، حيث إننى لم أر جلبرت لستة أشهر، أنه نسى وجهى. إن الطريقة الوحيدة التى سيتأكد من معرفة عصفورته بها هى النظر فى وجه امرأة عبوس خجلى من تلك القفزات، وهى تلوِّح لهذا البهلول الذى قد تزوجته.

ولكن الأمر ليس بالمهم؛ فلم يكن متواجدًا هناك. لم يكن هناك شخص يتناسب مع أوصافه. فكل القفزات والتلويحات كانت تأتى فقط من قبل الجامايكيين الواصلين والمغادرين للسفينة. نساءٌ يرتعشن وهن فى أفضل الفساتين التى يذهبن بها للكنيسة ـ فساتين من القطن بالدانتيل وأربطة متدليَّة، وبدت قبعاتهن وقفازاتهن البيضاء زاهية فى الليل الرمادى. رجالٌ فى بدلٍ وربطات عنقٍ وقبعاتٍ أنيقة. يقفزون ويلوحون. يقفزون ويلوحون للناس الّذين أتوا لمقابلتهم. رجالٌ سودٌ فى معاطف سوداء ذات رقبة جلد وعليها كوفيّة نُسجتْ يدويًا. منكمشون من البرد. مغمضون أعينهم نصف إغماضة وهم يشدون أعناقهم ليحددوا بأعينهم مكان حقيبة أو حذاء أو صوت أو وجه قد يتعرفون عليه. والّذين بدا عليهم القلق ـ فتتسع أعينهم قليلاً ـ وهم يلاحقون الأمتعة التى حُملت عبر المحيطات، والتى يجب الآن أن يحملوها عبر شوارع لندن. يحيون

أقرباءهم المتحمسين بتكرار العبارات نفسها قائلين: **"هل أحضرتم معكم بعض الجوافة، وبعض الروم؟ ألديكم بعض البطاطا الحلوة في هذه الحقيبة؟"**

وبوطأة قدمي على أرض إنجلترا اقتربتْ مني امرأة إنجليزية. كانت متقطعة النفس. تلهج ومحمرة الوجه. أدارتني بقوةٍ مما تسبب بقطع أحد أزرار معطفي، فاندفع بسرعة باتجاه الزحام كاندفاع طلقة الرصاص. **"هل انتِ شوجار"**[*] سألتني. مازلتُ أحاول أن أتتبع زراري المسكين أملاً أن أسترجعه لاحقًا لأن المعطف كلفني مالاً كثيرًا. إلا أن تلك المرأة الإنجليزية اقتربتْ من وجهي واستجوبتني:

- **"هل انتِ شوجار؟"**

استقمتُ وأخبرتها: **"كلا، أنا هورتنس."**

تأففتْ وكأن هذه المعلومة أزعجتها بعض الشيء. أخذتْ نفسًا عميقًا وقالت: **"هل رأيتِ شوجار؟ هي واحدة من أبناء بلدتكم. أتتْ لكي تعمل مربية لديّ، وأنا تأخرتُ عليها قليلاً على ما أعتقد. لابد أنك تعرفينها. شوجار. شوجار؟"**

اعتقدتُ أنه يجب عليَّ أن أحاول نطق الحروف المتحركة في كلمة شوجار التي تجعل من الكلمة لا تنتهي. نطق إنجليزي سليم. شوجاااار. وأخبرتُ تلك المرأة بأدب: **"كلا أنا آسفة، أنا لا أعرف..."** ولكنها هزت رأسها وقالت: "آوو" قبل أن تتسنى لي الفرصة بنطق أحد حروفي المتحركة.

وانخرطتْ المرأة الإنجليزية بعد ذلك في الزحام، وهناك أدارتْ امرأة أخرى بسرعة، لدرجة أن تلك السيدة الجامايكية التي وصلتْ

(*) الأصل Sugar أي سكر (المترجمة).

حالاً، وتجد نفسها تقف على بعد بوصة من سيدة إنجليزية تصرخ: **"شوجاار، شوجاار"** فى وجهها، أطلقَتْ فجأة صرخةً عالية.

مرت ساعتان وأنا أنتظر جلبرت. ساعتان مضتا وأنا أُراقب فيهما أُناسًا يحضنون أقارب وأصدقاء تائهين. وآخرين ضاحكين، يجففون بالمناديل عيونًا بالدموع. يتجادلون على من سيذهب أين. رجالاً يرفعون أمتعة على أكتافهم وهم ينفخون ويتصببون عرقًا. ونساء مشغولات البال بالقبعات وشدّ القفازات. وكلهم يمشون فى الليل الدامس البارد خلال الممر المقوس الذى بدا وكأنه فمٌ مفتوح. بحثتُ عن زرارى فى الأرض عندما قلَّ الزحام. ولكن كان من المستحيل أن يجد المرء شيئًا بهذا الصغر فى ذلك النور الباهت.

كان هناك رجلٌ أبيض يعمل، يقوم بدفع عربة تورولى ـ أحيانًا فارغة، وأحيانًا ممتلئة. يصفّر، وهو يمشى، مصدرًا نغمة جعلته يهز رأسه معها. فكرتُ، قد يكون لدى هذا الرجل الأبيض فكرة عن كيف أستطيع الذهاب إلى وجهتى المقصودة. لفتُّ انتباهه برفع يدى. **"بعد إذنك، سيدى، أريد الذهاب إلى شارع نفيرن. ربما تعرف أين يقع؟"**

حكَّ هذا الرجل الأبيض رأسه، ونتف فتحة أنفه اليسرى قبل أن يقول: **"لا أستطيع أن أحملك على عربة التورولى كل هذه المسافة، يا حبوبة."** اتضح لى أننى لم أوضح له ما أعنى، وإلا ما كان هذا الرجل الأبيض ليعتقد أننى غبية لهذه الدرجة لكى أتوقع منه أن يأخذنى فى شوارع لندن بعربته ذات الدولابين هذه، ماذا ـ هل أتشبث فى ظهره ورجلى حول وسطه؟! **"عليك أن تأخذى تاكسى،"** قال لى، بعد أن انتهى من الضحك على نكتته.

قلتُ وأنا محدقة فى وجهه: "**شكراً لك، هل يمكنك أن تدلنى على المكان الذى أجد فيه تلك العربات؟**"

بدتْ الحيرة على وجهه، وكأننى أتكلم بلسان غريب، وقال: "**أنتِ ماذا؟ يا حبوبة.**"

حاولت كثيرًا إخبار سائق التاكسى عن العنوان قبل أن يضىء وجهه بأسارير المعرفة. "**أُريدُكَ أن تأخذنى إلى رقم واحد وعشرين شارع نفيرن، التابع لمكتب بريد خمسة جنوب غرب. واحد وعشرون شارع نفيرن. ش - ا - ر - ع، ن - ف - ى - ر- ن.**" شددتُ على نطقها بأحسن لكنة عندى. إنها اللكنة التى جعلتنى أكون الأولى فى الفصل فى مسابقة الآنسة ستيورت لنطق الإنجليزية السليمة. فلحسن إلقائى لقصيدة "أغنية لطائر العندليب" نلتُ نجمة الاستحقاق وشرف قرع جرس المدرسة لمدة أسبوع.

ومع ذلك مازال سائق التاكسى لا يفهم ما أقوله. "**كلا، آسف، عزيزتى. هلا كتبتِ لى العنوان أو أى شىء من قبيل ذلك على ورقة؟**" أظهرتُ له خطاب زوجى، المشار فيه إلى العنوان بوضوح. "**آه، شارع نيفرن - واحد وعشرون. فهمتُكِ الآن.**"

القمر طالع. أحيانًا يكون ظاهرًا، وأحيانًا تغطيه الغيوم. وفى تلك الليلة كان القمر بارزًا، كان ضوءُه متغيرًا ومعوَّجًا تمامًا مثل تغبُّش بخار نفسى على زجاج العربة. "**هذا هو المكان الذى تريدينه يا عزيزتى. واحد وعشرون شارع نيفرن.**" قال سائق التاكسى. "**فقط اقرعى الجرس. تعرفين الجرس ومقرعة الباب؟ هل لديك مثلهما من حيث أتيتِ؟ اذهبى واقرعى الجرس وسيُجيبك شخص ما.**" ثم أنزل صندوق سفرى على جانب الطريق. "**أنا متأكد بأن هناك من**

سيساعدك فى حمل هذا، عزيزتى. فقط اقرعى الجرس." تفوه بآخر كلمة ببطء مبالغ فيه، عادةً ما أستخدم هذه الطريقة أثناء تدريسى للأطفال الصغار. فاتضح لى أن الرجال البيض يُجبرون للعمل عندما يكونون أغبياء.

لم أر ماذا مرَّ الآن من خلال الباب، فقد مرَّ سريعًا. من الطريقة التى قفز ووثب بها علىَّ، قد يكون كلبًا كبيرًا. وعند سماعى لاسمى: "هورتنس،" يخرج من فمه أدركتُ لحظتها فقط أنه زوجى. "**هورتنس، أنت هنا! أنت هنا أخيراً، هورتنس!**"

ربعتُ ذراعى، وجلستُ على صندوقى، وحولتُ نظرى عنه. وقف أمامى. ومازالت يداه مفتوحتين ينتظر أن أجرى إليهما. "**لا تنادنى هورتنس، يا جلبرت جوزيف.**"

استقرت ذراعاه ببطء ونزلت إلى جانبيه وقال: "**ألستِ مسرورة برؤيتى، يا هورتنس؟**"

اقتبستُ من خطابه بالضبط: "**سأكون عند رصيف الميناء لمقابلتك. سترينني هناك أقفز وألوح وأنادى على اسمك والشوق فى صوتى.**"

"**كيف تجدين هذا المكان، يا هورتنس؟**" هذا كل ما قاله الرجل.

فأجبته: "**بدون مساعدتك، يا جلبرت جوزيف، هكذا وجدتُ هذا المكان. بدون أى مساعدة منك. أين كنت؟ لماذا لم تأتِ لمقابلتى؟ لماذا لم يكن هناك أى تلويح ومناداة لاسمى والشوق فى صوتك؟**"

كان متقطع النفس عندما بدأ الكلام قائلاً: "**يا هورتنس، دعينى أخبرك. لقد وصلتُ لرصيف الميناء ولم أجد السفينة. ولهذا**

نصحونى بالرجوع إلى أن تصل السفينة. فرجعتُ إلى البيت واستفدتُ من الفرصة لتنظيم وترتيب المكان لقدومك..."

لم يكن قميصه قد زرِّر بشكل مناسب. فطرف ياقته لأعلى والطرف الآخر مقلوب للداخل. هناك زُراران تائهان لا توجد فتحتان لهما. ضبَّ القميص فى البنطلون من الأمام فقط، وتركه خارجًا من الخلف مثل طالب مدرسة مشاغب. ولم يربط أحد أربطة حذائه. كان رث الهيئة. أين ذلك الرجل الذى أتذكره؟ كان جميلاً: بدلته بصفين من الأزرار، شعره مفروق يلمع بالكريم، حذاؤه نظيف، أظافره قصيرة، وشاربه مرتب وأنفه ممشوق. أما الرجل الذى يقف يتهته أمامى فهو قذر وفظ. لكنه كان جلبرت، أستطيع أن أميزه. أستطيع أن أتبين ذلك بطريقة هذا الأحمق وهو مستشيط غضبًا عند تقديم مبرراته.

"كنتُ أنوى الذهاب إلى الميناء مرة أخرى. ولكن ها انتِ هنا. تقفين عند الباب. آه، يا رجل، يا لها من مفاجأة لى! هورتنس! أنت هنا أخيرًا!"

حينها لاحظتُ أن المرأة الإنجليزية التى أجابت الباب ما زالت واقفة تنظر إلينا من أعلى الدرجات. نادتْ بصوتٍ عالٍ: **جلبرت، من فضلك، هل أستطيع غلق الباب الآن، فذلك يسمح بدخول تيار هواء رهيب."**

وردَّ عليها بنبرة صوت ليس بها أى تكلُّف: **"سآتى حالاً."**

فهمستُ له: **"حسنًا، هل تريد كل واحد فى إنجلترا أن يعلم شؤوننا؟"**

مازالت تلك المرأة الإنجليزية تنظر إلىَّ عندما دخلتُ البهو. تُطالعنى بطريقة وكأننى لست هناك لأراها وهى تحدق بى. أومأتُ لها برأسى وقلتُ: "**شكراً لكِ لمساعدتى للوصول لزوجى. أرجو ألا أكون قد أزعجتكِ كثيراً.**" كنت أرجو عند مخاطبتى لها مباشرة أن تتحوّل ببصرها عنى وأن تذهب لشؤونها. ولكنها لم تفعل. إنما اكتفت فقط بأن رفعت كتفيها بما يدل على عدم الاكتراث واستمرت بالتحديق بى. أستطيع أن أسمع جلبرت وهو يسحب صندوق سفرى. كلانا وقف يسمعه ينفخ ويلهث كقطار بخار معطل.

ثم دخل مسرعًا من الباب، قائلاً: "**هورتنس، ماذا لديك فى هذا الصندوق؟ ـ أمك؟**" وبما أن المرأة الإنجليزية مازالت تنظر إلينا تبسمتُ بدلاً من أن أسبهُ وقلتُ: "**لدى كل ما سأحتاجه فى هذا الصندوق، شكراً لك يا جلبرت.**"

"**احضرتِ أمك معك، إذاً.**" قال جلبرت. استمر فى ضحكه الذى أتذكره: صوت شخير غريب يخرج من آخر أنفه، مما يجعل أسنانه الذهبية تبرق. كنت مازلتُ أبتسم عندما فركَ كفيه وقال: "**طيب، أتمنى أن يكون لديكِ جوافة ومانجو والرُّوم و...**".

"**آملُ ألا تكونى قد أحضرت شيئًا فى البيت له رائحة نفَّاذة؟**" قاطعتنا السيدة الإنجليزية.

محا ذلك السؤال الابتسامة من على وجهى. والتفتُّ إليها وقلتُ: "أحضرتُ فقط ما أنا.." ـ

لكن جلبرت أمسك بمعصمى. وقال: "**تعالى، يا هورتنس.**" وكأن المرأة لم تنطق بكلمة. "**تعالى، دعينا نطوف بالمكان.**"

صعدتُ وراءه الدرجات الأولى وسمعتُ المرأة تقول بصوتٍ عالٍ: **"ماذا عن الصندوق، يا جلبرت؟ لا تستطيع تركه هنا فى مكانه هذا."**

نظر جلبرت من فوق كتفى وأجابها مبتسمًا: **"لا تقلقى يا كوينى، سآتى حالاً، ياه، يا رجل"**.

كان لابد أن أقبض على الدرابزين وأسحب نفسى لأعلى درجة بعد درجة. بالكاد كان هناك ضوء. إنها فقط لمبة واحدة وضوءها خافت جدًا لدرجة أنه من الصعب تحديد ما إذا كانت تعطى ضوءًا أو تمصه. عند كل انعطافة للدرج كانت هناك مجموعة أخرى من الدرجات شديدة الصعود، بدتْ أمامى مثل أرفف كتب فارغة. اشتقتُ إلى الحبال والدولاب الرافع الذى تخيلته سابقًا. تحسستُ طريقى مثل رجلٍ أعمى فى حين لا يوجد شىء يضىء الطريق أمامى إلا صوت جلبرت وهو يتقدمنى فى الصعود. **"يا هورتنس، كدنا نصل،"** نادى بصوتٍ عالٍ، مثل (النبى) موسى وهو فى أعلى الجبل. كان قلبى يخفق بشدة عندما وصلتُ للباب الذى وقف عنده جلبرت متشدقًا بابتسامته قائلاً: **"ها نحن وصلنا."**

"يالها من سلالم كثيرة. ألم تستطع ان تجد مكانًا آخر بسلالم أقل؟"

دخلنا الغرفة. اندفع جلبرت وفرش بطانية فوق السرير غير المنظم. مازال دافئًا، أنا متأكدة. كان واضحًا لى بأنه قام من عليه للتو. لوَّح جلبرت بذراعيه حوله وكأنهُ يرينى منظرًا رائعًا. ثم قال: **"هذه هى الغرفة."**

كل الذى رأيته كان عبارة عن حوائط بنية مظلمة. وهناك كرسىٌّ مكسور أُسندت رجله المكسورة على الكتاب المقدس. ونافذة وستارة ممزقة، وبدلة جلبرت ـ ذات الصفين من الأزرار ـ معلقة على معلاق بالحائط.

"حسنًا،" قلتُ. "أرنى باقى المكان، إذن، يا جلبرت." حدق فىَّ الرجل. "أرنى الباقى، هاه. أنا متعبة من طول الرحلة." حكَّ رأسه. "بقية الغرف، يا جلبرت. الغرف التى كنت مشغولاً فى ترتيبها لى حتى نسيتَ أن تأتى إلى رصيف الميناء."

تكلم جلبرت بصوت خافت بالكاد استطعتُ سماعه. قال: "لكن هذا كلُّ شىء."

"عفواً؟" قلتُ.

"هذا كلُّ شىء، يا هورتنس. هذه هى الغرفة التى أعيش فيها."

ثلاث خطوات وأصل إلى جانب الغرفة. وأربع خطوات تؤدى بى إلى الجانب الآخر من الغرفة. ويوجد حوض فى الزاوية، ويخرج من فوقه من الحائط صنبور أكله الصدأ. وهناك مائدة وكرسيان بجانب السرير. أحد الكرسيين له ظهر مكسور - وعلِّق على الكرسى ذى الذراعين حقيبة التسوق، والقطعة العلوية للبيجاما، وبراد الشاى. وعند المدفأة كان الغاز يهسهس بلهب أزرق.

"هذا فقط كل شىء؟" جلستُ على السرير. انهارت قدماى. لم يكن هناك أى ارتداد من تحتى وأنا أسقط على السرير. "هذا فقط كل شىء؟ هذا هو المكان الذى تعيش فيه؟ هذا هو؟"

"نعم، هذا هو كل شىء." أرجح ذراعيه حوله مرة أخرى، وكما لو كانت غرفة فى قصر.

"هذا هو فقط؟ هذا هو فقط؟ أحضرتنى كل هذه المسافة لمجرد هذا فقط؟"

مص الرجل أسنانه ورشقنى بنظرة غضب فى وجهى. "ماذا تتوقعين، يا امرأة؟ نعم، هذا فقط كلُّ شىء! ماذا تتوقعين؟ الكلُّ

يعيش هذه العيشة. كانت هناك حرب. بيوتٌ دُمرت بالقنابل. أعرف الكثير من الناس يعيشون فى أسوأ من ذلك. ماذا تريدين؟ يجب أن تبقى مع ماما إذا كنت تُريدين مكانًا أجمل. كانت الحرب مندلعة هنا. الكل يعيش هذه العيشة."

نظر إلى أسفل باتجاهى، وكان صدره الذى زرَّره بطريقة سيئة ينهج بشدة. كانت السجادة عارية من الخيوط فى رقعة فى المنتصف، وكانت هناك قطعة خبز ترقد عليها. مص أسنانه بشدة مرة أخرى وخرج من الغرفة. سمعت صوت خَبْط قدميه وهو ينزل درجات السلم. لقد تركنى وحدى.

تركنى وحدى أحدق حولى فى المكان.

الفصل الثانى

جلبرت

"**أهكذا يعيش الإنجليز؟**" كم من مرة سألتنى هذا السؤال؟ فقدتُ القدرة على متابعة العدّ. "**أهكذا يعيش الإنجليز؟**" أصبح هذا السؤال كعويل كئيب، يصدر كتنهيدة على كل شىء تراه. "**أهكذا يعيش الإنجليز؟**" فأخبِرها: "**نعم.**" "**هذه هى الطريقة التى يعيش بها الإنجليز... كانت هناك حرب... الكثير من الإنجليز يعيشون فى أسوأ من ذلك.**"

هامتْ فى مشيتها نحو الشباك، وعلى وجهها بدت علامات التساؤل حول المكان، وفركتْ لوح الزجاج بيديها اللتين ترتديان قفازات، وتفحصته قبل أن تقول مرة أخرى: "**أهكذا يعيش الإنجليز؟**"

وفى الحال، كان الرجل النبيل بداخلى يهز ضلوعى ويضربُ على صدرى، يريد أن يعرف: **جلبرت، ماذا بحق الله فعلت فى نفسك؟ ألا تفهم، يا رجل؟ ياه، أنت متزوج من هذه المرأة!**"

كانت كوينى لا تزال واقفة بجانب الباب المفتوح حين تشجعتُ لإحضار صندوق السفر الذى عبرتْ به هورتنس المحيط. **"هل كل شىء على ما يرام، يا جلبرت؟"**

قلتُ لها: **"نعم، شكراً.**

"ما اسمها الذى أخبرتنيه؟"

"هورتنس."

"اسم مضحك."

"ماذا، هل هو مضحك أكثر من كوينى؟"

ضحكتْ ضحكة خفيفة بالرغم من أنى لم أقل نكتة. **"عليك بحمل هذا الصندوق. أحتاج أن أغلق الباب. قد يأخذه شخص ما إذا لم تحترس."**

"إذا استطاعوا رفعه، فهو لهم،" غمغمت قبل أن أضيف قائلاً: **"أنا أحمله الآن يا كوينى."**

كانت فكرتى هى أن أسحب الصندوق على الدرج إلى أعلى. الآن، ربما أستطيع أن أفعل ذلك حتى أول درجة ـ أو درجتين إذا استطعت أن أضع قدمى على الدرجة الرابعة. ولكن هذا الصندوق رُفع مثل تابوت رجل سمين تحول إلى حجارة. علىَّ طلب المساعدة من أحد الشباب. ولهذا طرقتُ على غرفة وينستون.

حسنًا، الرجل الذى فتح الباب لم يكن وينستون. صحيح، هو يشبه وينستون تمامًا، يتكلم مثل وينستون، ويرتدى مثل وينستون. ولكن وينستون كان النصف الآخر لتوءم. توءم متطابق مثل ليمونتين على شجرة. هذا أخوه كينيث. حتى تميزهما، حاول أن تقْتَرض

شلنًا. وينستون سوف يساعدك، ولكن يضجرك بكثرة إلحاحه وملاحقتك فى لندن كلها حتى يسترده منك. أما كينيث، من الناحية الأخرى، فسيراوغك حتى تسلفه أنت القرش، مؤكدًا لك بأنه سوف يرده جنيهًا قبل نهاية الأسبوع. منزل كينيث فى نوتينج دال وتعيش معه امرأة أيرلندية تدعى نورين. عرفتُ أنه ليس صديقى وينستون، بعد أن طلبتُ مساعدته فى رفع صندوق زوجتى، عندها قال الرجل الذى أمامى: **"إذًا أنت تقول لى إنها وصلت من بلدها الآن؟ هل تعلم ماذا أحضرت فى الصندوق؟"**

"كلا يا رجل."

قال: **"تعال، دعنا نفتحه. المانجو ستأتينا بسعر مناسب. هل تعتقد بأن لديها الروم؟ أعرف أحد الشباب أعطانى نصف أجره لينال لحسة من الجوافة."**

قلت: **"إن ما يخص زوجتى من أشياء فى هذا الصندوق."**

"لا أستطيع أن أصدق ما تسمعه أذناى. إنك رجل. لقد وصلت للتو، يجب أن تفهمها من القائد هنا. وفى الحال حتى لا تبدأ بعض العادات السيئة. على الزوجة فعل ما يأمرها به زوجها. اسأل قاضيًا. اسأل شرطيًا. جميعهم سيخبرونك بذلك. كل ما فى هذا الصندوق هو لك. كل ما تملك هى فهو ملكك، وإذا لم يعجبها ذلك فبعض الضرب سيجعلها مطيعة."

سألت ذلك الرجل الفصيح: **"ماذا حدث لتكون فى غرفة وينستون؟ هل طردتك نورين مرة أخرى؟"**

كنّا سخيفين تمامًا مثل مهرجان التمثيل الصامت ونحن نجاهد فى رفع هذا الصندوق، ولكن على وتيرة ثابتة. استمررنا على هذه

الوتيرة، حتى انفلت الصندوق من على سلسلة كاملة من الدرج إلى أسفل عندما صمم كينيث، تاركًا إياه، على أن سيجارة ـ والتى قدمتها أنا له ـ هى الشىء الوحيد الذى سيساعده فى التقاط أنفاسه. كم يلزمنا من وقت لنصل إلى الغرفة؟ لا أعرف. لقد كنت رجلاً صغيرًا فتيًا عندما بدأنا، وعندما وصلنا أخيرًا إلى القمة كنت كرجل هرم، لصوت تنفسه أزيز. وها هى هورتنس كانت لاتزال تجلس بدلال على السرير، الآن مشيرة بإصبعها فى القفاز الأبيض تقول: "**ممكن أن تضعوه تحت الشباك، ومن فضلكما كونا حذرين.**"

أنا وكينيث، متفقان بصمت، ألقينا الصندوق اللعين عند مكان وقوفنا، داخل الغرفة.

ليس الجامايكيون فقط هم الّذين يحبون أن يستجوبوا الغرباء بسيل من الأسئلة حتى يصل بهم الحال للدوار. إلا أن الجامايكى هو السيد بدون منازع والأكثر مهارة فى هذا الفن. ومن هنا بدأ كينيث. تكاد تتحرك عقارب الساعة عندما انهال على هورتنس بوابل من الأسئلة، مثل: من أى مكان هى فى الجزيرة، كم هم عدد أفراد عائلتها، ما هى وظيفة والدها، متى ذهبت للمدرسة وأى مدرسة كانت، ما هى السفينة التى أبحرت بها، هل قابلت رجلاً على السفينة من بف باى اسمه كلينتون، وماذا ـ طبعًا ـ لديها فى الصندوق؟ حسنًا، هو لم ينتظر الرد على أسئلته، وهورتنس، بالرغم من أنها كانت تنصتُ بأدب فى البداية، إلا أنها أخذتْ تدريجيًا تنظر إلى كينيث كما لو كان شيئًا أُلصق بحذائها.

قلتُ: "**شكرًا لمساعدتك، يا كينيث،**"

قال كينيث: "**آه، لديك ستائر هنا،**"

"إلى اللقاء" أخبرته.

قال: "هل أنت ذاهب، يا رجل؟"

ولهذا اضطررت أن أرمقه بتلك الإشارة. الإشارة التى كلنا، نحن الشباب الجامايكيين، نعرفها. وهى عندما يريد الرجل أن يخلو مع امرأة، لأسباب ينبغى فقط للعقل أن يتخيلها، فالرأس تميل قليلاً إلى جانب وتتسع العين ومن ثم تدور مشيرة بسرعة نحو أقرب مخرج. حتى أغبى جامايكى يفهم هذه الإشارة ولن يتجاهلها أبدًا فى حالة احتياجه لها فى المرة القادمة. "آوه!" قال كينيث. "على الذهاب. ولا تنس ما أخبرتك به، يا جلبرت. وينستون يعرف أين يجدنى."

وعندما غادر الغرفة استدارت هورتنس نحوى وقالت بازدراء: "هل هو صديقك؟"

أغلقتُ الباب. والآن حتى أدخل الغرفة يجب أن أتخطى هذا الصندوق.

"ماذا تفعل؟" قالت.

"ذلك الشىء فى طريقى."

"إنه صندوق عتيق."

"ماذا؟ هل تريدين أن أنام فى البهو؟ ألا ترين أننى أستطيع أن أخطو من جانبه؟ ألم تقل لكِ ماما بأن ما تسيرين من جانبه يجب أن تتخطيه؟"

فركَتُ الصندوق كما لو كنت قد خدشته.

"ياه، إنه عبر المحيط. وتقولين بأن ذلك الرجل الجاميكى النحيل سيهرسه! ماذا يوجد بداخله على أية حال؟"

جلستْ ممشوقة الظهر على الصندوق محوِّلة نظرها عنى، رافعة ذقنها عاليًا وكأن هناك شيئًا تنظر إليه باهتمام فى السقف المتشقق. كانت متحجرة وصامتة مثل تمثال من ميدان ترافلجار. وبدأتُ أتوق مرة أخرى إلى سماع صياحها بالسؤال **"هل هكذا يعيش الإنجليز؟"**

"هل تريدين خلع معطفك؟" قلتُ، فنظرتْ إلى وكأنها نسيتْ أننى موجود. **"لن تحتاجِى إلى هذا المعطف الكبير - النار مشتعلة."**

ياه! هل تصدق بأن النار اختارت هذه اللحظة حتى تنطفئ؟ أعرف بأن لدىَّ شلنًا فى مكان ما، ولكن أين؟ ابحث فى جيبك قلتُ (لنفسى)، **"آه علىَّ أن أجد بعض النقود لعداد الغاز."** حينها لاحظتُ أن قميصى لم يزرَّر بشكل مناسب. لم أزرر قميصى بذلك الإهمال منذ كنت ولدًا صغيرًا - تدلى قميصى خارجًا مثل قميص الصعلوك. وهى الآن تراقبنى، عيناها الواسعتان البنيتان منتبهتان مثل عينى الحنش. إذا غيرت زرار القميص سأبدو وكأنى أخلع من علىَّ ملابسى. وهذا، ما عرفته بالخبرة، سيفزعها. ولهذا ضببتُ القميص كما هو فى البنطلون وكأن هذا الوضع المنغص الكريه الذى أنا فيه هو أحدث صيحة فى لندن.

سأقول الحقيقة. كنتُ نائمًا قبل وصولها. لكننى ذهبتُ إلى رصيف الميناء. كما تعلم، لقد أخبرتنى بأنها ستصل فى السابعة، وأعلم بأنها تبحر ومعها موز، لأنها ستأتى فى مركب المنتجين، إلى

رصيف ميناء جامايكا. كل شيء كان على ما يرام ـ أنا أعمل في الوردية المتأخرة في مكتب البريد، وعندما انتهيتُ من عملي الساعة السادسة صباحًا ذهبتُ إلى الميناء. كانت الشمس مشرقة وجميلة مثل لوحة فنان، والبواخر تبحر ببطء خلال سحاب رقيق من ضباب الصباح باتجاه النهر. وبطريقة رومانسية، يستحضر ذهني صورة تلويحها البهيج لي، وكتفيَّ، اللذين بفعل شمس الصباح رُسما بطريقة رجولية كصورة ظليّة، متحفزة لاستقبال انحناءات جسمها المليح وهي تجري نحو ذراعي. كل ما قالوه لي، كلا. ستصل هي والموز في السابعة مساء. هل عليَّ أن أنتظر اليوم كله هناك؟ عليَّ أن آكُل شيئًا، فذهبتُ إلى البيت حتى إنني رتبتُ المكان قليلاً. ثم تمددت على السرير لأغفو قليلاً ـ غفوة قصيرة فقط. ولكنني كنت أعمل لمدة اثنتي عشرة ساعة، وذهبتُ إلى الميناء —يا رجل، بل كنتُ مهندمًا! هل هو إثم أنني نمت؟

قد يكون الشلن سقط من جيب البنطلون على السرير. وهي، الآن تراقبني وعليَّ أن أبحث عنه تحت غطاء السرير. **"هل تحتفظ بنقودك على السرير؟"**

ياه، كنت أعلم أنها ستقول ذلك. علمتُ ذلك تمامًا. **"كلا، إنه، فقط، وأنا نائم..."**

فقالت: **"آوو، إذًا، كنت نائمًا."**

"كانت فقط استرخاءة لبضع دقائق، ويظهر أنني.."

"حسنًا، ولماذا لم تكن هناك لمقابلتي؟"

"كلا، أتيت ولكن.."

"أعلم، لقد أخبرتنى، كنت ترتب المكان." ثم جالت بنظرها فى المكان وقالت: **"انظر كم هو مرتب!"**

لم أكن أحمق لكى أقول: **"اخرسى يا امرأة،"** ولكن كنت متكدر البال لأفكر فى ذلك. ولكن بدلاً من ذلك أخرجت الشلن وأخبرتها: **"سأضع هذا فى العداد."** شدَّت رقبتها وهى تنظر إلىَّ لترى إلى أين أتحرك، قلتُ لها: **"تعالى، دعينى أريكِ كيف تضعين النقود فى العداد"**.

"أتعلَّم ماذا؟" قالت.

"أتعتقد أننى لا أعلم كيف أضع النقود فى العداد؟" ثم عادت تنظر إلى الشقوق الرائعة فى السقف، وهى تطبطب على خصلات شعرها السوداء الملتوية إنْ تجرأت بعض الخصل على الخروج من مكانها.

ولكنه عدادٌ مخادع. فى بعض الأحيان يكون سلسًا مثل الحصّالة وأحيانًا يتعطل. واليوم، اختار أن يتعطل. واضطررت أن أرجع للوراء وأركله حتى تسقط العملة المعدنية. ولكن، آه، ركلة واحدة لا تكفى. أسمعها وهى تمص أسنانها بعصبية عند ضربتى الثانية. كيف يبدو كل شىء أفعله فظًا؟

عندما أشعلتُ النار مرة أخرى قلت: **"اخلعِى معطفك، هاه؟"** إن للفوز لحلاوة، أخيرًا نفذتْ شيئًا طلبته منها. انظر بنفسك، لم تخلع قبعتها والقفاز الأبيض الموقر. لم يكن لدى علاَّقة أعلق عليها المعطف. **"هل تشربين كوبًا من الشاى؟"** كنت أنوى أن أشترى علاَّقة أخرى. العلاَّقة الوحيدة التى عندى علقت عليها سترتى. **"سأملأ براد الشاى،"** قلت. كنت سأرمى المعطف على السرير ولكننى، لست أحمق، بدلاً من ذلك علّقته على سترتى فى اللحظة المناسبة.

هى الآن تتمشّى فى الغرفة. تنظر إلى العداد. تتأمل المائدة، ترجرج ظهر الكرسى. وكنت أملأ البراد، عندما كانت تمرر يدها على رفّ المدفأة. ثم نظرت إلى يدها. يا رجل، حتى أنا أصابتنى الدهشة: قفازها الأبيض أصبح أسود.

"**كل شىء وسخ،**" أخبرتنى.

"**حسنًا، كُفى عن لمس كل شىء بقفازك الأبيض.**"

"**هل نظفت هذا المكان من قبل؟**"

"**نعم، أنظفه باستمرار.**"

"**طيب، لماذا كل شىء متسخ؟**"

"**إنه قفازك الأبيض. إذا لمست ملكًا بقفاز أبيض فسيتحول إلى أسود.**"

راحت تتحسس كل شىء ـ الحائط، مقبض الباب، عتبة الشباك، الستائر. أخبرتها: "**الآن أنت توسخين كل شىء؛ تلك القفازات فيها وساخة.**" ظهرت ابتسامة على وجهى ولكنها طاردتها مرة أخرى بقسوة. "**تعالى،**" قلتُ وربتُّ على الكرسى ذى الذراعين، مقربًا إياه إلى المدفأة، "**اجلسى هنا، سأعد لك كوبًا لذيذاً من الشاى الإنجليزى.**"

آوه، لماذا فسد اللبن القليل الذى لدىَّ، والكوبان ليسا نظيفين، والبراد أخذ وقتًا طويلاً على شعلة الموقد ليغلى؟ وتساءلت مع نفسى ماذا أستطيع أن أقول لها كنوع من الدردشة، وحينها قالت: "**من هى تلك المرأة بالدور الأسفل؟**" دعنى أقول بأننى انشرحتُ لهذا الحوار.

"آوه، كوينى ـ إنها مالكة البيت."

"هل تعرفها؟"

"طبعاً، إنها تملك البيت. هى صاحبة العقار."

"متزوجة؟"

"زوجها فُقِد فى الحرب."

"هى تعيش وحدها؟"

"أجل."

"هل أنت على علاقة صداقة ودية معها؟"

يا سلام! ودود. كل رجل جامايكى يعرف عندما تُنْطق تلك الكلمة بواسطة سيدة جامايكية فهى كمصيدة تستطيع أن تطبق عليه. تقدم بحذر، يا ولد، وإلا ستعتقد أن تلك المرأة تخبئ ثلاثة أطفالٍ منك.

"عرفتها فى فترة الحرب،" قلت. "كانت طيبة معى والآن هى مالكة العقار. وأنا محظوظ لمعرفتى بها؛ فمن الصعب الحصول على مكان، وخاصة للشباب الملون."

"يبدو أنها تعرف كل شىء عن شؤونك."

"كلا،" قلت.

والآن، لماذا اختارت كوينى هذه اللحظة لتطرق الباب، قائلة بصوت عال: "هل كل شىء على ما يرام بالداخل، يا جلبرت؟" طبعاً، تعثرت بالصندوق اللعين لأصل إلى الباب. فتحته فتحةً صغيرةً. "أستطيع أن أشم رائحة غاز" قالت كوينى.

"كنت منذ قليل بالخارج. لكن سأرى ما الأمر. هل تريدين شيئًا؟"

"تأكد فقط بأن كل شيء على ما يرام."

"حاضر، شكراً لك،" قلت ثم أغلقتُ الباب.

وعندما رجعتُ وجدتُ هورتنس قد اختفت وراء البخار المتصاعد من البراد. وكسيدة في ضباب خفيف، جلستُ هناك والبخار قد ابتلعها. تعثرتُ بذلك الصندوق اللعين مرة أخرى.

"ألا ترين البراد يغلي؟"

"حسنًا، هي فعلاً لا تريد أن تعرف شؤونك؟"

كنت متكدر البال لدرجة أني نسيتُ أن أستخدم قطعة قماش لأرفع بها البراد اللعين من على شعلة الموقد. "اللعنة،" ألقيته بسرعة حيث لذعني بشدة، "هذا الشيء ساخن." قلتُ لها.

"لماذا لا تستخدم قطعة قماش؟" قالت.

يقول المنطق إذا لم أقتل تلك المرأة يجب أن آخذ نفسًا عميقًا. "أتأسف لسوء لغتي." قلتُ بينما هي تنظر إلى كما لو أنني الصديق المفضل للشيطان. "تعالى، سأريك كيف تستخدمين شعلة الموقد هذه."

"لماذا؟"

"تحتاجين معرفة ذلك لكي تعدي الطعام."

"سأطبخ في المطبخ."

"هذا هو المطبخ."

"أين؟"

"هل ترين هذه الشعلة وهذا الحوض، هذا هو المطبخ. وغرفة الطعام هناك حيث ترين المائدة والكرسيين."

"هل تقول بأنك تطبخ على هذا الشيء؟"

"أجل، هذا تماماً ما أقوله لك."

"هذه الشعلة الوحيدة الصغيرة فقط؟"

"أجل، لهذا دعيني أريك كيف تعمل."

فعادت تجول بنظرها في الغرفة، فاغرةً فمها مثل فم الوطواط.

"أتراقبينني؟ عندما تطبخين يجب أن تشعلي..." توقفتُ عن الكلام. نظرتْ نظرة فيها استهزاء وتساءلتُ هل أنا أتحدث بلغة أجنبية. "أنت تطبخين، أليس كذلك؟" سألتها.

"تعلمت كيف أطبخ في مادة علوم التدبير المنزلي في المدرسة." أخبرتني.

"لسنا بحاجة إلى علوم، إنه طعام. أتخبرينني بأنك لا تعرفين كيف تطبخين..."

وقفتْ. "أين المرحاض؟ أظن أن هناك حماماً؟"

"بالطابق الأسفل" قلتُ لها، تخطتْ الصندوق لتترك الغرفة ومرتْ بسرعة كأنها ضباب مرَّ أمام عينَيّ.

وبينما أنا أعدُّ الشاي في البراد الصغير سمعتُ: "قد يكون مكاناً قذراً، يا عزيزتي، لكنك لن تتبولي هنا. ماذا دهاكم أنتم جميعاً؟ هل يبدو هذا مرحاضاً حقيراً؟"

أنـزلُ درجـات الـسـلم الآن بـسـرعـة. لا تحب الـسـيـدة جـين، الـتى تـسـكن فـى الـغـرفـة الـسـفـلـية، أن يـزعـجـهـا أحـد فـى ذلـك الـوقـت من الليل قبل أن تستعد للذهـاب إلـى العمل. كانت واقفة أمام عتبة بابها مرتـديـة شـبـشـبًـا زهـريًـا ومـلابـسـهـا الـداخـليـة فـقـط. نـصـف شـعـرهـا بـه بكرات تصفيف الشعر، والنصف الباقى فى مرحلة التصفيف حيث غرست فيه المشط مثل بلطة.

وتـسـألـهـا هـورتـنـس بـإنـجـلـيـزيـة بـطـيـئـة ومـتـأنـيـة عـادةً مـا تـسـتـخـدم للصم قائلة: **"هل تفضلتِ وأخبرتنى أين أجد الحمام؟"**

قـالـت جـين وهـى عـابـسـة: **"مـاذا؟ مـاذا؟ هـذا لـيـس الـحـمـام،"** ثـم رأتنى، **"الحمد لله! جلبرت هل تستطيع أن تساعدنى؟ إنها تعتقد أنى ذلك المرحاض اللعين."** ثم ضحكت جين فجأة، بقهقهة تشبه تساقط فقاعات الصابون من على لوحة المغسلة. وفيما هى تميل بالقرب من هورتنس واضعةً يدها على كتفها أخذت تشمشم كما لو كانت تشم رائحةً ما. **"اللعنة ـ وصلَتْ حديثًا من السفينة، أستطيع أن أشم رائحة البحر."** ومازالت هورتنس مبتسمة بأدب وعيناها واسعتان إلى أن شعرت بالباب يغلق فى وجهها.

وبصوت خافت صرخت هورتنس فىَّ باهتياج قائلة: **"قُلتَ لى إن المرحاض فى الطابق الأسفل. وهذا هو الطابق الأسفل."** التقطيبة التى عُقدت على جبينها كانت مثل التى لدى طفلة صغيرة محتارة.

لمستُ يدها. وسحَبَتها هى بعيدًا. فقلتُ: **"حسنًا ـ أنا مرض، انتبهى أن أعديكِ."** خطوتُ بعيدًا عنها. **"فقط اتبعينى."** ذهبتُ بها إلى المرحاض، الذى يقع فى الأسفل عكس باب المدخل. **"تستطيعين الرجوع؟"** سألتها.

"طبعاً،" قالت، "أخطأتُ خطأ صغيراً ولكنى لست غبية." ومثل الضجيج العالى الذى يصدر من آلة الأرغن سمعتُها وهى عائدة من أسفل، متقطعة النفس، ومع ذلك كان لديها النفس الكافى لكى توبخنى. **"أتقصد أنه فى كل مرة أحتاج الذهاب إلى المرحاض عليَّ نزول وصعود كل هذا الدرج؟"**

أعرف أن الكثير من الشباب قد يخبرونها بأن تُخرج مؤخرتها النحيفة من النافذة إذا لم يعجبها الأمر. إنما أنا فأخبرتها: **"كلا، بل تستطيعين استخدام هذا."** جلستُ القرفصاء وتحسستُ تحت السرير لأجد القصرية. ياه، ياه، يا رجل كم كنت مسرورًا لوجود هذا الحل حتى إنى أحضرتُ الوعاء بدون تفكير. وما إن وضعته بالقرب من أنفها حتى سألت نفسى، يا جلبرت، لأى سبب ملعون لم تفرغه قبل أن تأتى هورتنس؟ انسكبتْ محتويات القصرية على الجوانب وسقطتْ على حذائها الأنيق.

فقفزتْ كقفزة البرغوت. **"مقرف، انت مقرف،"** صرختْ. **"هذا المكان مقرف. كيف أحضرتنى إلى هنا؟"**

والآن يجب عليَّ تهدئتها، فرفعتُ إصبعى إلى شفتيَّ لأُسكتها. **"لا أصدق أنك أحضرتنى إلى مكانٍ مثل هذا. لقد أخبرتنى بأن لديك مكاناً يصلح أن نعيش فيه. أتريدنى أن أعيش هذه العيشة؟"** كانت تحرك وتلوح بيديها لدرجة أن قفازيها الأبيضين يستطيعان إهباط طائرة إلى الأرض بسلام. فقلتُ وأنا مازلت أحمل القصرية: "اسمعى، اسكتِى **الآن يا هورتنس. أنا آسف."** ولكن ذلك السائل أخذ ينسكبُ منه المزيد وأنا أحاول أن أهدئها.

"ابتعد عنى،" قالت. **"لا أستطيع أن أصدق بأنك أحضرتنى إلى هنا. أنت تعيش كالحيوان..."**

لا يوجد مكان لإنزال القصرية ووضعها عليه، وازداد الأمر سوءًا بملاحقتى لها بها وانسكابها على الأرض. فلهذا ألقيتُ محتويات الوعاء فى الحوض. آآه، لماذا مازال الكوبان فى الحوض؟! بالتأكيد كنت قد غسلتهما من أجل إعداد الشاى الإنجليزى اللذيذ. وللحظة مباركة صمتتْ. تعرف، سمعتُ ساعة تدق وامرأة تقهقه فى الشارع قبل أن تبدأ الحديث بهدوء قائلة: **"انتظر برهة. أفهم من ذلك أنك تغسل أكوابك فى نفس المكان الذى ألقيت فيه نفاياتك؟"**

"كلا، كلا، لا أفعل ذلك،" قلتُ. **"إنى آخذه أسفل إلى الحمام، ولكن.."**

إنها لا تسمع. وقالت بغضب شديد: **"تغسل فى هذه القذارة! هذا المكان مقرف. لا أستطيع أن أصدق بأنك أحضرتنى كل هذه المسافة لأعيش هذه العيشة. أحضرتنى لأعيش مثل الحيوان؟"**

يا رجل، هذه المرأة مصدر إزعاج لى تمامًا كالشوك تحت الجلد - تزعجنى جدًا لدرجة أننى فقدتُ أعصابى. وقلت لها: **"نعم، وتعرفين ماذا أيضًا، يا آنسة يامتكبرة يامتغطرسة، ينبغى عليك غسل طبقك وخضراواتك ومؤخرتك فى الحوض أيضًا. هذه الغرفة هى التى فيها ستنامين، وتأكلين، وتطبخين، وتلبسين، وتكتبين لأمك لتخبريها كيف أن الوطن الأم رائع. ويا آنسة من الطبقة الراقية، هذا شىء واحد مما لا تعرفينه بعد عن إنجلترا لأنك وصلت للتو من المركب. أنتِ محظوظة."**

الفصل الثالث

هورتنس

مازال لذكر اسم والدى وقعٌ فى أى مكان حتى بعد فترة طويلة من رحيله عن سفانا ـ لآ ـ مار. كل الأجيال فى مقاطعتنا تعرف من هو والدى ووظيفته كموظف بالحكومة عبر البحار. صورته كانت معلقة على حائط الأبريشية ـ قصاصات صور له من صحف أمريكا، وكندا، وإنجلترا. كان أبى رجلاً ذا منزلة، رجلاً ذا شخصية، رجلاً ذا فطنة. كان نبيلاً إلى حدٍ جعل منه أسطورة. "**لوفلَ روبرتس**،" يتهامسون. "**هل سمعت عن لوفلَ روبرتس؟**"

وعندما تكون طفلاً لشخصٍ مثله، فهناك بعض الأمور متوقعة منك وليست بالضرورة متوقعة ممن هم دون ذلك. وكان هذا هو الحال معى.

وُلِدتُ من أم اسمها آلبيرتا. أرضعتنى حتى أصبحتُ قوية بما فيه الكفاية لأرضع من بقرة. أستعيد إلى الذاكرة رائحة اللبن المغلى الدافئ. أتذكر وأنا أتهدهد فى الشمس بأغنية رقيقة "**يا غصن**

زهرتى" تهمس بها أمى فى أذنى، حتى تستسلم عيناى للنوم. أستحضر ببالى رفرفة التنورة بالنسيم، وقدمين حافيتين سوداوين تحجلان على الصخور. لا أتذكر لون عينيها أو شكل شفتيها أو ملمس بشرتها. كانت آلبيرتا فتاة قروية لا تقرأ ولا تكتب ولا حتى تستطيع أن تحسب مسألة بسيطة من جدول الضرب. كنت أنا كُلّ ما حصلت عليه من زواجها، ومن الجحود أن أقول غير ذلك. إلا أنها هى من ولدتنى فى كوخٍ من الخشب. وهى من اشترتْ لى حذاءً للرحلة التى كنت سأبتدئها وأنا ممسكة بيد أُمِها، آنسة جويل.

كبرتُ وأنا أشبه والدى. فلون بشرتى فاتح مثل أبى؛ لون العسل الدافئ. وليس كالشوكولاتة المرّة كلون آلبيرتا وأُمِها. وبتلك الملامح هُيئت لى الفرصة لحياة ذهبية. وما عسى آلبيرتا، بعد هذا، أن تقدم؟ قدمان حافيتان تحجلان فوق الصخور. ولكننى إذا ما ذهبت لأنشأ عند أولاد عم أبى، لاستطعتُ أن أتعلم وأكتب وأحسب جدول الضرب. وأكثر من ذلك، لأصبحتُ سيدة تليقُ بأبى، أينما يكون.

يكاد يكون السيد فيليب روبرتس رجلاً مهما مثل أبى. إنه قصير القامة سمين عند البطن من أكل الموز، وفطائر العجين المسلوق فى المرق المفضلة لديه. منزله يقع على فدانين من الأراضى الخضراء، التى تليق بمركزه كتاجر جملة لخضار المقاطعة. كل زمام أمور البضائع تحت إشرافه. لذا كان موثوقًا به لحد أن الناس من الطبقة الفقيرة حولنا تأتى إلى بابه تطالب بتسوية أى خلاف يظهر فى الحى. لم يكن يمثل القانون ولكنه كان حجة، ومن ثقل المسئولية تدلى خدان ملحمان من وجهه.

تُعرف مارثا روبرتس فى كل المقاطعة بعينيها الرماديتين الباهتتين، لونٌ نادر فى وجه اتفق الجميع على أنه لا يصلح أن يكون

بهذا السواد. هى أطول من السيد فيليب ببوصتين، انحنتْ بنية جسمها، على مر السنين، تفضلاً منها فأصبحت أقصر قامة منه لكى توفر لزوجها تلك الكرامة. لديها ثلاثة أبناء: بنتان وولد. وبين عشية وضحاها تحول لون شعرها من الأسود إلى الأبيض عندما ماتت ابنتاها الغاليتان ـ فى الوقت نفسه، يفصل بين موتيهما بضعة أيام فقط ـ بسبب الحصبة. بقى للسيد فيليب والآنسة مآ، كما سُمح لى أن أنادى أولاد عم أبى، طفل واحد لتربيته ومراعاته. ألا وهو ابنهم الغالى، مايكل.

لبستْ آنسة جويل، أم آلبيرتا، قبعتها الجيدة التى تملكها وأفضل قميص عندها، اقتادتنى إلى بيت أولاد عم أبى. وأنا، فتاة نحيلة، أتعثر فى خطواتى بجانبها مرتدية حذائى الشامباتا[١]. وكانت "ماما" و"نانا" هما كل مفرداتى (كنت أعتقد أن «نانا» تعنى بنانا[٢]). أتذكر تحديقى فى حذاء أبيض ورباط مشدود، وركبتين دمويتين، وولد مبتسمٍ ابتسامة عريضة، حاملاً برصًا فى راحة كفه لكى أراه.

لقد تم الاتفاق على كل شىء بإيماءة بالرأس تدل على الموافقة وبضمان بأن يرسل أبى النقود. فعلى آلبيرتا الرحيل من جامايكا لتتسلم عملاً فى كوبا، وأما آنسة جويل فستنتظر كخادمة عند أولاد عم أبى. سترعانى وأنا أكبر. وخلال تلك الأعوام قامت بمهام نظافتى، وإلباسى، وإطعامى أنا ومايكل. كانت تناديه ماسا مايكل وتنادينى آنسة هورتنس. (تنادينى آنسة هورتنس عندما يسمعنا أحد، وغصن زهرتى عندما لا يوجد أحد)

---

(١) شامباتا (بالإنجليزية sham-patta) صندل يلبس في جاميكا نعله من الجلد أو الخشب، وأحيانًا يصنع من مطاط عجل السيارات، ويربط حول القدم برباط. (ت)

(٢) بنانا (بالإنجليزية Banana) فاكهة الموز. (ت)

جلستُ منتبهة داخل عشَّة الدجاج. منتظرة. أراقب الدجاج وهو يضع البيض، فأراه ينزلق بسلاسة وهدوء على القش.

"**هورتنس، أين أنتِ؟**" يمشى مايكل حولى بالخارج بحذائه ذى النعل المطاطى. يتراقص ظله على الألواح الخشبية للحائط وهو يلعب. ينظر بعينه ـ ذات الرموش الطويلة مثل رموش البنات ـ من خلال ثقب فى ألواح الخشب. "**اخرجِى يا هورتنس.**" خبّط براحة كفه على الحائط، مما أدى إلى رجّ هذا العالم الصغير وهجر الدجاج لبيضه. كان مايكل يحب أن يرى الدجاج يرفرف بأجنحته، ويتفرق خوفًا، ويقوقئ بصوتٍ عالٍ، ثم لا يفعل شيئًا إلا الضحك وتغطية أذنيه من شدة الصياح.

دفعته جانبًا ثم حملتُ الدجاج الذى باض للتو داخل العشَّة، وهو يقفز حولى قائلاً: "**دعينى أرى يا هورتنس، دعينى أرى.**"

"**كلا،**" قلت، "**فأنت لست صبوراً، يا مايكل روبرتس، لتجلس وتراقب البيض يخرج. ولهذا لا داعى أن تنتظر البيض.**"

شكرتْ الآنسةُ مآ مايكلَ على البيض الذى أحضرتُه أنا للبيت. ضمتْ يداها يدىَّ، فشعرتُ بدفء لمستها وهى تسحب تدريجيًا البيض من يدى. يضىء حُبها وتعلقها بمايكل فى عينيها الباهتتين وهى تنظر إلى وجهه. ومثل الديك نفخ صدره وقال: "**هل أحضر لك المزيد يا ماما؟**"

اكتفت بالنظر فقط وقالت: "**لا أريدك أن تدخلى العشَّة مرة أخرى، يا هورتنس. اتركى الدجاج فى حاله. هل تسمعين، هاه؟**"

"**أنتَ مصدر إزعاج لى، يا مايكل روبرتس،**" أخبرته. إنه صبى أكبر منى بعام وقدمه أصغر من قدمى ويسبب لى الأذى. وكان من

جهة أخرى غير مفترض أن أتسلق الشجرة. أخبرنى السيد فيليب بأنه لا يصح للفتاة أن تتسلق الشجر مثلما تفعل القردة. ولا يصح الرجوع إلى المنزل مبللة من جدول المياه، كانت بطوننا ممتلئة بالتفاح، والتوت البرى، والمانجو، وتنورتى ترتفع كاشفةً عن ساقى وأنا أجرى، ومايكل خلفى فى يده سمكة تتلوَّى. غير مسموح لى أن أصطاد العقارب، أو أن أنقرها فى الجحور، أو أعذبها بالعصا. وغير مسموح لى أن ألبس الماعز البونيه (غطاء للرأس) ثم أشدُّه من تحت ذقنها وأحاول ركوبها مثل الحصان.

كنت أقول يوميًا لهذا الولد الشرير: "**دعنى وشأنى يا مايكل. تستطيع أن تلعب طوال اليوم ولكن أنا عندى عمل يجب على إنجازه.**" كان لدىَّ غسيل فى الحوض خارج البيت، أنظف الهباب من على لمبات الكيروسين. كنت مسئولة عن إبقاء المكان خاليًا من القاذورات تحت شجرة التمر الهندى، والحفاظ عليه كمكانٍ ممتع للجلوس فيه. ولكنه دائمًا كان يقول: "**تعالى، يا هورتنس، هيا، ياهورتنس. دعينا نرى عش نقار الخشب.**" كان يتلوَّى من تحتى غير صابرٍ عندما أقف على أكتافه أحاول أن أرى داخل الثقب الذى طار منه الطائر. "**ألا ترين شيئًا بعد؟ انزلى، يا هورتنس، إنه دورى.**" يرمينى على الأرض فى اللحظة التى كنت سأنظر فيها على العُش.

"**لماذا فعلت ذلك، يا مايكل؟ كنت على وشك النظر.**"

"**إنه دورى، يا هورتنس، تنحى جانبًا.**" هذا الولد، الذى يكبرنى بسنة واحدة، يتسلق على ظهرى، ويعترض كثيرًا: "**قفى ثابتة، ستجعليننى أقع، ياه.**" ويقول: "**أعتقد أننى أرى. اثبتى مكانك. أعتقد أننى أرى شيئًا.** وعندما طار نقار الخشب من الثقب الذى

نقره سقط على رأسه. آه، كم صرخ هذا الولد من الجرح الصغير الذى أصابه من نقار الخشب.

إذا علم السيد فيليب بالأعمال الشيطانية التى احتلتُ عليه بها؛ لأرسلنى بعيدًا عن هنا. الفتيات الصغيرات لا يتسلقن الأشجار! كان يقول همسًا "**النظام**" عند كل وجبة. "**يجب أن نتبع جميعًا النظام. كل واحد منًا سيقف ويُسأل ـ صغاراً وكباراً متذللين أمام عرش الله القوى.**"

وبعد أن يبارك الطعام بصلاة الشكر التى تطول أحيانًا مسببة تيبسًا فى رقبتى، يبدأ السيد فيليب شعائر صلاته: "**الحياة ما هى إلا استعداد لليوم الذى سننظر فيه إلى وجه الله، خالقنا.**" وينهض من على مقعده قابضًا بشدة على الكتاب المقدس كما لو كان سلاحًا. "**أنا الطريق، والحق، والحياة.**"

فى بعض الأحيان يخبط على المائدة ـ وتبدو آنسة مآ متوترة، تتابع ذبذبات الصحن أو رجرجَة الماء فى الجرَّة. "**إنه من خلالك يا سيدى يا رب سنصل إلى ملكوت السماوات.**"

وقف السيد فيليب وبدا أضخم من الجبل، ينظر إلى أسفل ممررًا بصره بيننا أنا ومايكل. لم يحاول مايكل النظر فى عينى مخافة أن نبدأ فى القهقهة. لم تصدر أية كلمة من أفواهنا، ولا كلمة واحدة. حتى إن لعابى أحيانًا يكون على خدى ولا أجرؤ أن أمسحه. أو النظر فى وجه السيد فيليب، أخاف أن تظهر علىَّ الدهشة من الكلمات التى يلفظها فيتحرك جبينه متأثرًا بعظمة النص الدينى. وضعتْ آنسة مآ الطعام فى صحن السيد فيليب، وهى تهز رأسها بالموافقة، ثم مدت يدها لتضع الطعام لى ولمايكل.

أبقينا رؤوسنا منخفضة لنأكل كما علمتنا آنسة مآ آداب الطعام. **"أبعدى مرفقك من على المائدة وأنت تأكلين. يا هورتنس، ولو سمحت اجلسى مستقيمة. وأنت يا مايكل لا تضع الكثير من الطعام فى فمك. الحصان فقط يمضغ وهو يفتح فمه."**

انزويت فى المائدة، فى وقت العشاء قبل مغادرة مايكل للالتحاق بالمدرسة الداخلية. أغرس أظافرى فى يدى إلى أن يظهر الدم من الوخز. لا أريد أن أبكى. لا أريد أن أركع عند المائدة وأتوسل إليهم لكى أذهب معه. لقد أُخْبِرتُ بأنه عندما يكون هناك الكثير من الألم لا تذرف الدموع.

"تذكر الآن خالقك فى أيام شبابك،" بدأ السيد فيليب فى نصحه. **"ألا إنها الأيام التى تُسلِّم فيها أعمال الصبا. امش على طريق ربك كرجل."**

أعطيت لمايكل زجاجة المياه المعطرة الخاصة بى لينظف بها لوح الحجر فى المدرسة. لا أريد أن تصدر رائحة نتنة من لوحته مثل الرائحة التى تنبعث من لوح الأولاد فى مدرستى الحكومية.

أخذها، وقال: **"سأتعلم كل شىء عن العالم، يا هورتنس. وأنت ستبقين فى مدرستك دون المستوى هذه، تفوتين حصص الشعر المملة وتعدين الضفادع تحت الشجرة."**

ضغطتُ على أذنى بأصابعى وغنيتُ: **"ما هى الطينة التى صنُع منها الأولاد؟ إنها من الطحالب والحلزونات وأذيال الكلاب الصغيرة..."** أخرج لسانه وأعاد لى الزجاجة. سقطتْ على الأرض وأخيرًا بكيتُ عندما ابتلعت الأرض السائل ذا الرائحة العطرة.

عاد السمك الصغير يسبح فى النهر بدون مشاكل. ويذهب نقار الخشب إلى حال سبيله. والماعز يبدو كالماعز. وبقيت العقارب فى جحورها مختبئة. حتى السيد فيليب لم يطل فى قراءة الكتاب المقدس، طالبًا أن يُصب الماء فى كوبه قبل أن تعطينى آنسة مآ أية تعليمات عن آداب الطعام. وبدون مايكل، جلستُ فى عش الدجاج بدون إزعاج.

كل يوم بعد المدرسة تناديني آنسة جويل قائلة: "**يا آنسة هورتنس، لقد رحل الولد، فتعالى لمساعدتى، هاه.**" تعصر بيديها الضخمتين ذواتى الجلد المجعد فتنزل شلالات من ماء الغسيل. ثدياها يترجرجان: ثمرتان متدليتان حوصرتا برباط الوسط فى التنورة. لديها ساقان مقوستان.

"**آنسة جويل،**" سألتها، "**لماذا تقوست قدماك هكذا؟**"

ظهرت عليها علامات الجدية، ومصتْ أسنانها وقالت: "**أنا لا أعرف، يا آنسة هورتنس. عندما حملت بى أمى قالوا هناك من عمل لها أوبه(*) قليلاً من السحر، كما تعلمين.**" ثم غنَّت وهى تغسل: "**السيد روبرتس يغسل جوربه فى الليل. يجلس على الأرض.**"

"**كلا، يا آنسة جويل،**" أخبرتها، "**أنت تغنينها بكلمات غير صحيحة. الأغنية الصحيحة هى "بينما الراعى يحرس القطيع فى الليل،"**"

"**ماذا تقصدين بالراعى، يا آنسة هورتنس؟**"

(*) أوبه (Obeah) ديانة شعبية من أصل إفريقى. والمصطلح (Obeah spell) يعنى فى جزر الهند الغربية (منطقة جزرالكاريبى)، وخاصة الكاريبى الإفريقى: السحر الشعبى وبعض الممارسات الدينية. (المترجم).

"الراعى هو رجل يرعى الغنم."

"غنم؟ ليس لدينا منها هنا فى جاميكا؟"

"كلا، إنها فى إنجلترا حيث يوجد الراعى، يا آنسة جويل"

"آوه، إنجلترا. آه، هكذا إذن السيد ذهب إلى إنجلترا."

"بالطبع. وفى إنجلترا الغنم يعيش فى كل مكان. يلبس الناس الصوف لكى يقيهم من برد الشتاء."

كانت تلجأ لى فى جمع معرفتها بإنجلترا.

"آنسة جويل،" أخبرتها، "يجب أن تتعلمى كيف تتحدثين بطريقة لائقة تماماً مثلما يتحدث ملك إنجلترا. وليس بهذه الطريقة الفظة القروية."

"علمينى، هاه، يا آنسة هورتنس؟"

علمتها قصيدة وليم وردورث التى تعلمتُ إلقاءها فى المدرسة:

همتُ وحيداً مثل الغيوم

تسبحُ عالياً فوق الوديانِ والتلالِ

وحينئذ فجأة رأيت زحاماً

حشداً من زهور الدافوديلز الذهبى

وبالرغم من أنها سألت: "قُلتِ ما اسمها - دافوديل؟" ولم تتوقف عن إزعاجى حتى رسمتُ الزهرة فى التراب، وتعلمت كل كلمة. كانت تراقب شفتىَّ كطفلٍ أُخذ بمجامع قلبه، محركة شفتيها لتقلد حركاتى نفسها. تُكرر كل كلمة كاملة ورافعةً ذقنها وطاويةً ذراعيها تحت صدرها.

ولكن ما لبثت وأن بدأت تتدرب على نسختها الخاصة بالقصيدة وهى تقضى يومها فى العمل: **"أنا أمشى تحت السحاب، ثم أسبح فوق المرض. وأرى الآنسة هورتنس وهى تنظر على الدافوديل."**

كانت مدرستى الحكومية العليا على وشك أن تفقد تلميذتها المميزة عندما بلغت الخامسة عشرة. وقرب رحيلى ضُغط علىَّ من قبل آنسة مآ وآخرين بأن أُكمل تحسين أوضاعى بالمعاونة فى تدريس الأطفال (أبناء العائلات المحترمة) فى مدرسة خاصة. كنت أُصحح الإملاء، أضع خطًا تحت أية كلمة كُتبتْ خطأ، وأُشرف عليهم وهم يعيدون كتابة الكلمات ست مرات. أُسمع لهم جدول الضرب، أُصلّح للأولاد النابغين، وأُشجع المتخلفين للتقدم خلال إعادة أخطائهم. كانت من مهامى المفضلة توزيع الكتب فى أول الفصل الدراسى. لدى هؤلاء الأطفال كتب جديدة، تفوح منها رائحة أريج الشمس على الخشب العطر عند تقليب الورق؛ عطر المعرفة. وليست عطنة الرائحة من برى الزمن كتلك التى تنبعث من عند زاوية الصفحات المطوية فى كتب نستفيلدز لقواعد النحو فى مدرستى الحكومية.

يدير هذه المدرسة الخاصة الزوجان السيد والسيدة ريدر، اللذان باعا كل شىء يملكانه فى أمريكا لإنشاء المدرسة.

"من أجل هؤلاء الفقراء جئنا لنفعل هذا،" أخبرنى السيد ريدر بذلك عند لقائنا الأول.

وأشارت السيدة ريدر، بلكنتها التى تشبه نجوم السينما، قائلة: **"يجب على أحد أن يساعد هؤلاء الأطفال الزنوج. التعليم هو كل ما لديهم."**

يتساءل الكثير من الناس إذا كان السيد والسيدة ريّدر على دراية بأن مدرستهما لا تقبل إلا الأطفال الأغنياء، النظيفين، من الطبقة العالية فى المقاطعة. أم أن هؤلاء التلاميذ مع كونهم مهذبين نظيفين ويحسنون التحدث ـ مازالوا فى نظرهم فقراء.

كان الزوجان ريدر يتبعان الكنيسة الإنجليكية، وليس لدى السيد فيليب وقت للإنجليكيين. لم تعجبه طريقة تأثر الناس بروح الرب بأن يرموا أنفسهم فى الأرض والاهتزاز والجعجعة عند الخُطب مثل الوحوش. لم يتقبل فكرة رؤية هؤلاء الأشخاص أنفسهم، عند اقتراب القدّاس من الانتهاء، يصافحون الكاهن بأدب وهم يغادرون الكنيسة. قال: "**روح الرب لا تستطيع أن تأتى وتغادر الناس بهذه السرعة.**" طلبتُ منه أن يستثنى السيد والسيدة ريدر؛ حيث دائمًا ما تؤثر فيهم الروح فقط بأن يرفعوا أعينهما للسماء ويترنحا تضرعًا.

السيدة ريدر، بدون شك، هى أبيض امرأة رأيتها فى حياتى. شعرها الأشقر القصير كان جافًا حول رأسها مثل هالة النور. كانت بشرتها الرقيقة شفافة، لدرجة أن عروقًا دقيقة زرقاء متشابكة تظهر فى أماكن متفرقة منها. وبدا فمها وكأنه لم يكتمل بعد ـ فهناك فتحة فى وجهها ولا يوجد بها شفاه لتزين تلك الفتحة. ولدى السيد ريدر القليل من الشعر حتى إن ولدًا مشاغبًا فى المدرسة زعم أنه قد عدَّ خصلات شعره المتبقية. خمس وستون خصلة شعر هو الرقم الذى تسرب خارجًا من ساحة المدرسة إلى المدينة. كانت رأسه المسكينة اللامعة الصلعاء تمامًا تحمر مثل حبة التوت التى كادت تنفجر من النضج، وعندما تضربها الشمس فيصيبه هياجٌ يظهر النمش عليها.

كانا يملكان سيارة، الشىء الذى يحسدهم عليه كل رجل أسود يمشى فى الحقل وهو يرتدى شبشبًا ذا إصبع. حتى السيدة ريدر تقود هذه السيارة، جالسة وراء عجلة القيادة مرتدية قبعة مزينة بريشة طائر بنية طويلة. وتجذب تلك السيارة أنظار المارة فيلتفتون إليها كلما مرت بجوارهم. ولهذا لم يكن موضع استغراب من أحد أن تتبع الإشاعات آل ريدر فى كل مكان: فى المحلات، تحت ظل الشجرة، عند منعطفات الشوارع، على مائدة الطعام، يناقش الناس باستغراق متى كانت آخر مرة رأوا فيها السيد ريّدر فى مكان لا يجب أن يكون موجودًا فيه. وإذا وضعت سيدة صغيرة جميلة طفلاً فاتح اللون أصلع الرأس تمامًا، يبدأ الرجال الجالسون يلعبون الدومينو يمصون أسنانهم ويتهامسون بأن السيد ريّدر ينشر ما هو أكثر من العلم فقط. والبعض ينظر إلى السيدة ريدر بأسى وهى تتنزه وحدها بدون رفقة. بالرغم من أن العديد من الشباب قد يترك لعب الدومينو ويندفع لمرافقتها.

عند رجوع مايكل، ارتديتُ فستانًا عليه زهور وردية أعطته لى السيدة ريدر. لم تكن فى حاجة إليه فطلبتُ منها أن آخذه لكى أرتدى شيئًا جميلاً عند عودة مايكل. وجلست ليلاً على ضوء الشمعة الخافت المرتعش أضيق الصدر ليناسب مقاسى، أضيف له شريطة، وأمص مكان وخزة الأبرة حتى لا يتلوث الفستان بالدم.

تجمعنا كلنا فى الشرفة فى الصباح الذى سيصل فيه مايكل. السيد فيليب والسيدة مآ تململا بعصبية عندما علا صوت جرش الحصى تحت إطارات شاحنة جريدة دايلى جلينر عند الممر.

لقد أتى مايكل عدة مرات من قبل للمنزل فى الإجازات. فلقد أتى ذات مرة عندما أُصيب السيد فيليب بالحمى. وأخذ يقرأ لوالده من

الكتاب المقدس، ويكلم أمه ليواسيها بهدوء فى أذنها حتى هدأت، ورحل عندما طلب السيد فيليب فطائر العجين المسلوقة فى المرق. ولكنه فى كل مرة كان يزورنا فيها يتغير فيه شىء.

"**يا مايكل روبرتس، ماذا حدث لصوتك؟**" قلت له لأغيظه. كنا جالسين على شجرة التمر الهندى نؤرجح أرجلنا.

"**تستطيعين أن ترى كوبا من هنا،**" قال. كان صوته يطقطق مثل آلة أحبالها مهلهلة.

"**صوتك مضحك. يبدو هكذا،**" وغنيتُ بصوت عالٍ مثل فتاة وبصوت منخفض مثل رجل، وأحيانًا مثل نعجة. ثم قلت: "**ماذا دهاك؟**"

فقفز صامتًا من على الشجرة ولم يتكلم إلى أن جاء وقت رحيله. لم أُميز الصوت العميق المزعج الذى يخرج من فمه عند رؤيتى له فى المرة الثانية.

"**تعالى، يا هورتنس.**" قال بهمهمة عميقة، "**قفِى على كتفى وانظرى إلى عش نقار الخشب.**" كان ثابتًا وصلبًا تحتى. "**هل تستطيعين الرؤية؟**"

قلت: "**نعم أستطيع،**" وأنا أنظر فى الثقب الخالى. وعندما نزلت من عليه نظرت متأملة وجهه، أدركَ مثلما أدركتُ أنا فى اللحظة نفسها أنه من المحال أن يقف على ظهرى ليلقى نظرة. فقد يقسمنى إلى نصفين.

هل هى البدلة، والقميص الأبيض المجعد، ورابطة العنق المخططة بالبنى والأخضر الممسوكة بالدبوس فى مكانها؟ هل هى قبعته الملبوسة بعوجة على رأسه؟ هل هو شاربه الرفيع، ربما، أم

هى ابتسامته المعقوفة التى تضىء وجهه؟ هل هما عيناه؟ قد تكون عيناه السوداوان اللتان تلمعان وتنعكس فيهما صورة ولد شقى يضحك، أو ربما يكون تعليق السيدة مآ الرائع: **"انظر إليك، ياولدى. أُرسلت إلى المدرسة الداخلية ولداً صغيراً، وانظر ماذا ردوك إلى - رجلاً!"**

نزل من الشاحنة بحذاء المدينة الزاهى. صافح السيد فيليب وأحنى رأسه احتراماً له، كرجل ذى منزلة، رجل ذى شخصية، رجل ذى فطنة. بدا فى غاية النبل لدرجة أننى أردتُ أن أصرخ قائلة: **"مايكل روبرتس! هل رأيت مايكل روبرتس؟"** أو ربما أردت أن أصرخ من تلك النظرة التى ألقاها علىَّ فى تلك اللحظة. فلقد نظر على انحناءات جسمى، على صدرى، حول شفتى وهو يقول: **"لقد كبرتِ، يا هورتنس."** وأيًا كان السبب فقد عرفتُ ـ منذ اللحظة التى رأتْ بها عيناى ذلك الوسيم المهندم، الرجل الذى صُنع من جديد ـ أننى وقعت فى غرامه.

أخذ مايكل يتأملنى فى تلك الليلة ونحن جالسون فى أماكننا المعتادة على مائدة الطعام لتناول العشاء. تتمنى عيناه أن تلتقطا عينىَّ. نظرتُ إليه ـ نظرة خاطفة. ابتسم ابتسامة عذبة كدت أفقد وعيى بسبب حلاوة طعمها على شفتيه. وصلت آنسة جويل الغرفة حاملة طبق دجاج محمر. أغلق مايكل عينيه وهو يستنشق الرائحة التى تفوح فى الجو. **"آه، يا آنسة جويل،"** قال، **"كم اشتقتُ إلى دجاجك الحريف"**. أُجفل السيد فيليب فرفع نظره إليه كأن هناك عصفورة قد دخلت من النافذة. فهناك صوتٌ على المائدة ـ تجرأ ابنه وتكلم على المائدة. ولكن وبكل بساطة طبطب مايكل على بطنه وكأنه لم يلاحظ تخطيه للأوامر.

وبعد أن انتهينا من الطعام، رفع السيد فيليب كتابه المقدس كما يفعل عند كل وجبة على ما أتذكر. وخبَّطتْ آنسة مآ بلطف على يدى لأقف عن اللعب فى شعرى حين بدأ السيد فيليب. **"قال الرب: "كن للنور" فخُلق النور. ورأى الرب أن النور خير؛ وفرق الرب بين النور والظلام. سمى النور النهار وسمى الظلام الليل."**

توقف السيد فيليب بعد ذلك لثانية قصيرة ـ كافية ليصفى بها حنجرته. وتأهبت شفتاه ليكمل موعظته، حينها تحدث مايكل قائلاً: **"تعلمتُ أن الأرض تدور حول الشمس، وبسبب هذا الدوران..."**.

انزعجت الآنسة مآ، وبسرعة قاطعت الكلام قائلة: **"إنه من قلة الأدب أن تتكلم على مائدة الطعام، يا مايكل."**

"آوو، أمى أنا رجل كبير الآن ـ ولست طفلاً." كانت صدمة للسيد فيليب جعلته يصمت فى هذا الموقف. بينما أكمل مايكل حديثه قائلاً: **"إنه دوران الشمس هو الذى يسبب اختلاف الليل والنهار."**

قالت الآنسة مآ: **"ولداً أو رجلاً، لن يكون هناك حديث على المائدة مرة أخرى. ستصمت الآن."**

راح السيد فيليب يرمق مايكل بنظرات سريعة من فوق الكتاب المقدس، نظرات تشتاط غضبًا وهو يكمل قراءة الوصايا العشر كلها. وفى منتصف القراءة قاطع مايكل السيد فيليب لثانية واحدة. الرب خلق الإنسان على هيئته، وكما هو الحال فى مواضع أخرى، ولكن هذه المرة قُطِعتْ أعمال الرب عندما تدخل مايكل وقال: **"قل لى يا بابا، ما رأيك فى النظرية التى تقول إن الإنسان كان أصله قرداً؟"**

نهضت الآنسة مآ على قدميها تصرخ: **"مايكل، هذا يكفى."**

وقال السيد فيليب بصوت كالرعد: "**هل تشكك فى الإله ربك؟ هل تقترح التشكيك فى تعاليم الرب القوى، ملك الملوك، رب الأرباب، خالقك؟**"

"**كلا، يا والدى،**" قال مايكل بهدوء عادةً ما يسبق العاصفة. "**أنا أسألك فى موضوع يرى فيه أساتذتى أنه يساعد على تنويرى. إنه، اعتقد، رأى علمى متعارف عليه وهو أن الإنسان ينحدر من ...**".

قفزتُ فوقفتُ بقدمىّ على الكرسى عندما صاح السيد فيليب قائلاً: "**هذا يكفى!**" سقط كرسيه خلفه ـ كان لصوته صلصلة مخيفة: "**لن أسمح بالكفر بالله فى بيتى، لن أسمح بالكفر على مائدتى.**" وتأهب السيد فيليب لضرب مايكل، فارتفع كفه عالياً فى الهواء مستعداً ليلطم رأس مايكل، حينها صدرت منى ضحكة عالية ـ لم أكن فرحانة ولكنى ضحكت بسبب غرابة الموقف. ابتعد مايكل من اتجاه الضربة بينما شعرتُ أنا بقوة ضربة كف السيدة مآ جانب أذنى. أخذتْ تناشد: "**رجاءً، احسنا التصرف كلاكما.**" ولكن مايكل نهض وكان يناهز أباه طولاً، نظر إلى العالم كله وكأنه يريد أن يجلده.

السيد فيليب لم يصبح كالجبل بعد ذلك، بل رجلاً قصيراً وسميناً غير قادر على تقبل الخوف الكامن بداخله. هل كان طنين أذنى هو الذى أدى إلى هذا النقر الشديد فى رأسى؟ أم السعادة من تحديق مايكل فى وجه أبيه قائلاً: "**أُفضل أن نُناقش الموضوع، يا بابا.**" والسيد فيليب ـ صامتًا ـ يرفع كتابه المقدس ويقود الآنسة مآ خارج الغرفة.

يجب أن نضع الإشارات الصغيرة نصب العين عند الشعور بالحب. عندما تسلق روميو الحائط ليس لدىّ أى شك بأن جوليت

شعرت بنشوة ما، عرفتها أنا بعد ذلك. حتى الآنسة جويل لديها خاطب يتودد إليها بالنوم ليلاً تحت الشجرة حتى يكون بالقرب منها منذ بزوغ النهار(بالرغم من أنها أساءت فهم ذلك ـ تعتقد أنه سكران وغير قادر على الحركة). إعلان الحب يكون فقط فى الأفلام الأمريكية أو الكتب التى لا يقرؤها المتعلمون. رفض مايكل أن يصاحبنى إلى فيلم تشيرلى تمبل. فبينما أنا أمدح عذوبة صوتها ورفرفة تموجات شعرها، نظر إلى مايكل نظرة كلها عمق وثبات وقال: **"تشيرلى تمبل فتاة صغيرة، وأنا أفضل المرأة الناضجة، يا هورتنس."** العالم كله يعتبر المشاكسة إحدى الإشارات. وهو يحب أن يغيظنى بعلمه، ويلح على أن أمتحنه فى كل عواصم البلدان. أستراليا، نيوزيلندا، كندا. يعرفها جميعها. **"اسألينى فى شئٍ أصعب. بالتأكيد تستطيعين سؤالى فى شئٍ أصعب من ذلك؟"**

"لأى شئ تعتبر شيفلد مشهورة؟"

"كلا. اسألينى فى معلوماتى فى الجغرافيا، وليس فى هذه السخافات. اسألينى فى بحيرات أوكس باو(*) والصخور الرسوبية أو مناطق الصيد عند المنحدر القارى. هيا، امتحنينى فى معلوماتى. اسألينى فى هيئة الأمم المتحدة أو اطلبى منى شرح المسألة الأيرلندية."

هو يعلم أنى لا أفقه شيئًا عن كل هذا، لكن أسلوب التباهى لإثارة الإعجاب مستخدم منذ الأزل منذ أن نظر آدم إلى حواء. كانت هناك بعض الأوقات التى أردتُ لكمه فيها بسبب زهوه بنفسه،

(*) بحيرات أوكس باو (بالإنجليزية Ox-bow lakes) مسطحات مائية على شكل U تنفصل عن النهر بسبب تعوجات شديد فيه.

وإخباره بأن الصبيان الصغار قد خلقوا من طحالب المستنقع والحلزونات وذيول الجراء.

ولكن عندما كان يطبطب على رأسى تختفى كل تلك الأفكار المحسوسة. أخشى أن يسمع دقات قلبى وهى تدق بسرعة عندما يقترب منى؛ فى الأيام التى أمشى بجواره فى الظل، كنت أثب حتى تلحق خطواتى خطواته؛ أو عند اللحظة التى تندمج فيها صورتا وجهينا ونحن ننظر فى صفحة الماء الصافى، فتصبحان صورة واحدة.

لكن لم أستطع لعب لعبة الحب طوال اليوم. فلقد صمَّمت الآنسة مآ أن أرجع للعمل. "لكن،" سألتُ، **"ماذا سيفعل مايكل؟"**

"يستطيع مايكل ان يمضى قُدماً بدونك." قالت. **"أنتما لستما طفلين؛ أصبح رجلاً وليس ولداً صغيراً. سوف يساعد والده."** تحجر وجه السيد فيليب منذ وصول ابنه. نُقش عليه تعبير: "لا أحتمل أكثر من ذلك". لم أسمعه ينطق بكلمة لم تكن من كلمات الرب منذ أن صرخ: "كفى، على مائدة الطعام. كان يبدو عليه الألم لدرجة أننى تمنيتُ أخذ يده ومراقصته.

"هل يمكن أن أساعد هنا فى مهام البيت، يا آنسة مآ؟" سألت.

فقالت: **"ماذا، هل تعتقدين الآن أنك أصبحت امرأة بيضاء - سيدة مُرفهة؟"** لم يكن لدىَّ أى خيار.

ولكن هل ستشرق شمس الصباح دون أن أنظر فى وجه مايكل؟ هل ستشرق إذا لم أسمعه ينادى على اسمى؟ لا داعى لأن يضيق صدرى، فعندما خطوتُ إلى الشرفة فى ذلك النهار الكئيب الصامت وجدتُ مايكل واقفًا عند الدرج فى أحسن هيئة، مستعدًا أن

يصطحبنى إلى مبنى المدرسة. "**مايكل روبرتس**،" قلتُ، "**أرجو ألا تكون قد أهملت مهامك من أجلى؟**"

وبالرغم من تغيّبه عن المكان بسبب الدراسة إلا أن مايكل كان محبوبًا ومقدَّرًا فى البلدة مثل والده. كان يعرف الجميع. فمع كل خطوة خطوناها كان يردد قائلاً: مرحبًا، يوم سعيد، نهار سعيد. حتى السيدة ريّدر كان يعرفها.

"**ألم نتقابل فى الكنيسة، يا مايكل؟**" قالت السيدة ريدر، عندما سألتهما عن أول مقابلة لهما.

رفع مايكل يديه الاثنتين فى الهواء وهز رأسه. علِمتُ أنه لا يتذكر. ولهذا قلتُ: "**كلا، ربما أنتِ مخطئة؛ فمايكل لا يذهب لنفس الكنيسة التى تذهبان إليها أنتِ والسيد ريدر.**"

"**آوه، إذن فى محل البقالة.**" قالت السيدة ريدر على استعجال. كانت مرتبكة ــ احمرَّ خدها الأبيض.

ولكن زاد مايكل الشرير الموقف سوءًا عندما ضحك على صاحبة عملى قائلاً: "**هل كان ذلك فى محل البقالة؟**" توهجتْ كالقنديل.

هز السيد ريدر رأسه عندما سألته إذا كان يعرف مايكل. "**أنا لا أعتقد أننى قابلت ابن السيد روبرتس منذ عودته. بالرغم من أننى سمعتُ الناس تتحدث عنه.**" وبعد ذلك، وبدون أى كلمة رجع لختم الكتب عندما أشرت بأن السيدة ريدر تعتقد بأنها قابلت مايكل فى الكنيسة.

"**آوه، يا هورتنس! وماذا يهم أين تعرفتُ على المرأة أول مرة؟**" كان متكدر البال عند رجوعنا إلى البيت. "**هذا ليس من شأنك. فقط اصمتى الآن.**"

رافقنى مايكل تكرارًا وصاحبنى عند الشارع المترب من البلدة. كان يقدم بعض الأعذار الواهية ليكون معًى لقضاء بعض المهام الصغيرة، أو بعض الحوائج. كان أحيانًا يمدُّ لى مرفقة بكياسة حتى أسحب ذراعى، وقد نلاحظ أعين الناس الَّذين يعتقدون أننا زوجان رائعان وهى تحدق فينا. وفى أوقات أخرى أجده يختبئ ويتظاهر بأنه لم يأت لرؤيتى إطلاقًا. قد ينتفض من المفاجأة عندما أخبط على كتفه أو ألوح له من بعيد، وأجعله ينتظر، وأنا أقهقه لظرافة الموقف.

يستطيع الإعصار أن يطير الأبقار، يستطيع أن يقلع الأشجار من الأرض، يقذف بها فى الهواء ويلقى بها بعيدًا، يمكنه أن يقلع البيت من مكانه، وتتفكك حوائطه الأربعة، ويلف الأسقف، وكل شىء يتبعثر فى لعبة إلهية كلعبة الاستغماية. قد تستطيع وحشية الرياح أن تحمل "الصخور العتيقة" عاليًا فى الهواء وتسبح طائرة بخفة مثل جناح طائر.

لكن لا يأتى الإعصار بدون تحذيرات. فأخبار تجمع العاصفة قد تكتسح الجزيرة برشاقة كالنسيم، ذلك النسيم الذى ينشر الإشاعات عن سرعته، واتجاهه، ومقدار الهواء. كنت وقتها بعيدة عن البيت لكى أرجع بسلام فى يوم الإعصار، وكانت السيدة ريدر تحتاج لمساندتى. ومن حسن الحظ أن الأطفال لم تصل بعد للصف الدراسى، ولكن يجب أن يكون المبنى مستعدًا لهذه الهجمة العنيفة. ولم يمكن العثور على زوجها فى أى مكان. "**سيكون فى مكان ما آمن - أعرف ذلك.**" أخبرتنى السيدة ريدر بلا مبالاة. "**سيكون هذا أول إعصار لى ولا أتردد فى إخبارك، يا هورتنس، بأنى أجده مثيرًا للغاية.**" كانت تقفز مثل بنت طائشة، تتزلج خلف النافذة وهى

تضحك. تدندن بأغنية وهى تركم الكراسى والطاولات قبل أن تُؤمن الخزائن. ثم نظرت فى المرآة، ومشطت شعرها، قبل أن نؤمن الأبواب. وبعدها التفتت إلىَّ وقالت: "**أليس ممتعًا أن نقف فى الإعصار، ونستشعر قوة الرب فى كل ما أوتى من قوة؟**" ولكنى كنت أصلى بأن يبقى سقف مبنى المدرسة ثابتًا فى مكانه ولا يتأثر بفكرة سخيفة مثل هذه الفكرة.

لم تكن مفاجأة لى عندما دقَّ مايكل باب مبنى المدرسة. فكيف يتسنى له أن يبقى فى البيت أثناء الإعصار؟ فبعد إرسال الماعز والدجاج المفزوع بأمان، والذى كان يُشَدُّ بجهد، إلى داخل الزريبة، وبعد تأمين النوافذ، هزَّها بقوة شديدة بقدر ما يستطيع الرجل من قوة، وهزَّها مرة أخرى ـ ومرتين وثلاث مرات؛ وبعد قيادة الآنسة جويل والآنسة مآ لجمع المصابيح، والشوكولاتة، والمياه، قد يجلس بثقة مع السيد فيليب فى الغرفة خالية النوافذ وسط المنزل. وقد ينفجر الغضب الداخلى بعنف بقدر عنف العاصفة بالخارج. لهذا ركض مايكل مسافة ميلين ليكون معى فى يوم الإعصار. ميلان خلال صمت الطيور المخيف الذى ينشر الفزع تمامًا مثل العاصفة التى تتبع هذا الصوت.

هل كان قميصه مبللاً من المطر أم من أثر العرق بسبب الركض؟ التصق القميص بعضلات جسمه، يشف بعض أجزاء من عضلاته، ويظهر بشرته الناعمة البنية من تحته. كان صدره يرتفع وينهج مع كل نفس قوى يخرج من رئته. يتصبب جبينه عرقًا إلى ذقنه وحول شفتيه. "**مايكل روبرتس**،" قلتُ عند الباب، "**أستطيع أن أعتنى بنفسى وحدى. لا داعى أن تأتى كل مرة لتحمينى.**" سحب قميصه الملصوق بجسده ونتره برفق ناظرًا فى عينى بدون أن ينطق أى كلمة. ومسح بيده عند رقبته، وعلى جبينه، وانتظر ليهدأ صدره.

ولكنه لمح السيدة ريدر من فوق كتفى وبدا عليه القلق. واتجه إليها مباشرة دافعًا إياى، بفظاظة، جانبًا. أسرع إليها بسرعة لدرجة أنى خفت أن يحتضنها. ناداها بـ ستيلا ـ اسم رُفعت منه الكُلفة حتى إن السيد ريدر لا يناديها به فى حضورى. "ستيلا،" قال، "**لقد رأيت زوجك فى السيارة واعتقدتُ أنك يمكن...**" تردد، ناظرًا إلى قبل أن يكمل كلامه أن"... **تكونى وحدك.**"

جلسنا نحن الثلاثة مثل حشرات محبوسة فى قبضة ولد صغير، ووابل المطرِ ينزلق على الحوائط. بدا الخوف يظهر على عين السيدة ريدر. حماسها الطائش للإعصار بدأ يتلاشى فى كل لحظة يتأرجح فيها السقف مثل الجلد المترهل. هناك أوقات تدق الرياح الباب، لم يكن نداؤها مخيفًا أكثر من كونه نافد الصبر. وفى بعض الأوقات الأخرى تصيح بشدة مثل صيحة العذاب المخيفة للمنشدين فى الكنيسة. ولم يكن مهمًا كم يبعد عنا، إلا أن هذا الخبط، والرقع، والتحطيم، والدق العنيف جعل السيدة ريدر تنوح قائلة: "آآه، **يا مايكل، أشكر الله أنك هنا.**"

وطوال الوقت كنت أتساءل، كيف عرف مايكل أن اسمها ستيلا؟

اندفعت النافذة وفُتحت من قوة الرياح. وهبتْ عصفة ريح إلى داخل الغُرفة. وفجأة دبت الحياة فى كل شىء ـ من الكتب، والأوراق، والكراسى، والملابس ـ وتدفقت ترقص فى ذلك السيل غير المرئى. وطار حذاء من خلال الفتحة بسرعة وارتفع عاليًا، وقُذف بسرعة عاليًا مصطدمًا بالسبورة السوداء. جاهد مايكل لإغلاق النافذة، ونظرتْ السيدة ريدر إلى الحذاء البالى وصرختْ. أخذ مايكل يقاوم لإغلاق النافذة حتى عمَّ الهدوء نوعًا ما الغرفة.

ولكن كانت السيدة ريدر تشهق من شدة البكاء. تجعَّد شعرها الأشقر بعض الشيء ولكن بقيت خدودها بيضاء، ومازالت بشرتها رقيقة تشف عند العروق الزرقاء المتشابكة، ومازال صوتها، عندما قالت، "**آو، يا مايكل، أنا خائفة،**" يشبه صوت نجمة في السينما. لم يتردد عندما ذهب إليها ليطوِّق كتفيها بذراعه.

"**أضيئي مصباحًا آخر، يا هورتنس،**" هذا هو كل ما استطاع قوله لي. عكس الضوء ظلالنا على الحائط. في أي ساعة في أي يوم سمحت هذه المرأة المتزوجة لمايكل بأن يناديها بـ ستيلا؟ كان يتكلم برقة معها. بـ ستيلا، كان يهدئها. بـ ستيلا، كان يعانقها تحببًا. في أي محل بقالة هذا أعطت السيدة ريدر الحرية لمايكل أن يتحدث معًا بهذه الألفة مثل زوجها؟

"**يا سيدة ريدر،**" قلتُ بهدوء، "**هل تفكرين أين قد يكون زوجك؟**" نظرتْ إليَّ بعينين مغرورقتين بالدموع ولكنها لم ترد. وضع مايكل يده على السيدة ريدر، سلَّ أصابعه برفق بين أصابعها حتى تشابكتا. ألقت بعينيها الزرقاوين الساحرتين عليه وعصرتْ أصابعه بشدة.

عندما تعتقد بأنك لا تستطيع أن تتحمل أكثر من ذلك، أثناء الإعصار، فستجده يزدادُ قوة. كان من الواضح أنه أنا من يحتاج إلى أحد ليرعاني ـ آنسة صغيرة غير متزوجة محبوسة في غرفة مظلمة وحدها مع رجل وسيم، ومن يعلم إلى متى. كان من المفترض أن تكون أنا من تخشى الكلام الذي يخرج من فم الفضوليين. كان يجب على امرأة متزوجة مثل السيدة ريدر أن تراعي سلامة سمعتي. وألا يحدث ما يحدث ـ مع كل صوت كانا يقتربان من بعضهما البعض. كل همسة كانت تقربهما من بعضهما البعض. إلى

أن تعانق ظل رأسيهما ورسم شكل قلب على الحائط. وفى هذه اللحظة شعرتُ بأننى أريد أن أنصرف مسرعةً خارج الغرفة، أن أندفع بقوة من الشباك، أن أخترق الحوائط، وأن أهرب لأحضان الإعصار الجديرة بالثقة.

لا ينبغى لأى مخلوق أن يرى الجزء السفلى للشجرة. إنها الجذور ـ التى تجعدتْ، وتعقدت، فتشابكت الجذور المدببة فى فوضى هابطة باطن الأرض بجموح بحثًا عن الغذاء. وحينما خرجتُ مسرعة من مبنى المدرسة بعد انتهاء الإعصار، كانت الدنيا مقلوبة رأسًا على عقب. والحقول عن يمينى وعن شمالى تعلو وتنخفض بفوضى، سوداء كئيبة. فالأشجار اقتُلعت من الأرض التى حملتها برسوخ لسنوات. والغصون التى ينبغى عليها أن تتحسس النور تغوص فى الوسخ، وقد تناثرت ثمارها كطلقات الرصاص. وتبعثرت الأسقف الصفيح على الأرض، بينما عجلات العربات المقلوبة استمرت فى الدوران فى الهواء مصدرة صريرًا، كان كل شىء مقلوبًا عاليه سافله. تعثرتُ وأنا أمشى خلال تلك الأراضى الزراعية الغريبة، مفزوعة تمامًا مثل رجل أعمى رُدَّ إليه بصره للتو.

رأيت أربعة أشخاص فى بادئ الأمر قد تجمعوا عند شجرة منتصبة يشيرون ويهزون رؤوسهم. ثم لحقهم آخرون ـ خمسة، ستة، سبعة. ركض بعضهم لعبور الحقل. ونادى البعض الآخر بصوت عال على الآخرين ليأتوا. الكل وقف يحدق عند وصولهم إلى الشجرة العتيقة. وبعد ذلك رأيت ـ من بين ساقَى رجلٍ طويل، ومن فوق رأس طفلين صغيرين، ومتخطيةً امرأة تمسح الدموع من عينيها بمنديل أبيض ـ جسد السيد ريدر.

كان ميتًا. كان ملفوفًا حول قاعدة الشجرة كقطعة قماش. عموده الفقرى فُتِل وكُسِر فى مواضع كثيرة جعلته ينثنى للخلف. كان عريانًا، فملابسه تقطعت بسبب الرياح، ومازالت قطعة من كمٍّ قميصه فى المكان. كان فمه مفتوحًا جدًا ـ هل كانت ضحكة أم صرخة؟ وحوله انتشرت أعضاؤه الداخلية المذبوحة ـ التى لا ينبغى أن تُرى ـ مثل باقة من الزهور القرمزية فى وضح النهار.

أعتقد أننى ربما صرخت. أعتقد أننى قلتُ صارخة: "**إنه ربٌّ غيور.**" ربما أمسكت رأسى وندبتُ قائلة: "**لا تَزْنِ، لا تشتهِ زوجة جارك،**" لأن ذلك الحشد القليل نظر إلى لبرهة، عابسين، قبل أن يرجعوا إلى نحيبهم قائلين: "**أين السيدة ريدر؟.. يجب أن تعرف السيدة ريُدر... ينبغى أن يُحضر أحد السيدة ريدر.**" لا أستطيع أن أتأكد أننى كنت أسمع العويل فى رأسى وحدى. ولكننى كنت متأكدة مما قلته بعد ذلك. أنا على يقين مما قلته، بصوتٍ عالٍ ليسمعه الجميع. أستطيع أن أسترجع ما قلته بوضوح، بصوتى القوى الثابت؛ لأننى كررته حتى حدَّقوا كلهم بى:

"**السيدة ريدر وحدها فى مبنى المدرسة مع مايكل روبرتس.**"

اعترانى الارتباك عندما وصلتُ إلى البيت. هل الأشخاص الذين كانوا ينظرون إلى جسد السيد ريدر المكسور، هم أنفسهم المتجمهرون الآن عند شرفة منزلنا؟ هل هى السيدة نفسها التى كانت تمسح برقة الدموع من على عينيها؟ هل هو الرجل الطويل نفسه؟ أم هل هم أُناس مختلفة، اندفعت بانزعاج مسرعة حول السيد فيليب الحزين والمغموم، منتظرة سماع ماذا بمقدوره أن يفعل بخصوص هذا الصخب فى الحى؟ وهل الآنسة جويل تشهق بالبكاء

على السيد ريدر؟ أم هل تنهمر دموعها بسبب همس الزحام: **"مايكل روبرتس - هل سمعت عن مايكل روبرتس؟"**

سحبتنى الآنسة مآ من معصمى بشدة من وسط الزحام إلى داخل المنزل. وبينما هى تغلق باب غرفة فارغة لطمتنى بشدة على وجهى فسقطتُ على الأرض. **"هل كنت على علم بما كان يفعله ابنى مع تلك المرأة؟ هل أنت على علم بأن ابنى يرتكب تلك الخطيئة المميتة مع السيدة ريدر - المتزوجة؟"** حاولت الهروب من الغرفة ولكنها سحبتنى بشدة هائجة إلى الخلف.

"لماذا تعاملينني بهذه الطريقة؟" سألتها.

"ابنى كان مع تلك المرأة،" لقد فقدتْ السيطرة على نفسها. ضربتنى مرة أخرى، ولكن هذه المرة بقبضة يدها. **"ابنى ضُبط آثماً فى حضن هذه السيدة."** صرختْ.

خارت قواها فجأة. انهارتْ، سقطتْ على كرسى وتحول جسدها إلى جسد امرأة عجوز واهن. نظرتُ إليها وبلطف وضعتُ يدى على كتفيها. وبسرعة كالثعبان انتفضتْ واقفة مرة أخرى. مثبتة عينيها فى عينى، ورافعة يدها لضربى. ولكننى تمكنتُ من الهروب من الغرفة. هربتُ إلى عشّة الدجاج وعصرتُ جسمى الكبير لأدخله مع الدجاج الحائر. وسهرتُ الليل كله هناك، أراقبُ الهياج بالخارج من خلال الثقب فى الجدار الخشبى الذى اعتاد تجسسى من خلاله.

ذهبتُ للمدينة وجلستُ لفترة فى مبنى المدرسة الفارغ. كان ينبغى على التأكد من غلق المدرسة. وأن أعيد الأولاد الذين قد يأتون للفصل الدراسى. دبستُ ورقة ملاحظة على الباب بخصوص ذلك الحادث المؤسف. السيد ريدر لم يدفن بعد. السيدة ريدر

مقيمة مع القس فى الكنيسة الأنجليكية، منتظرة قدوم أختها لتأخذها بعيدًا عن الجزيرة. ولكن الشائعات تطير مع النسيم. كيف توفى السيد ريدر؟ هل كان يحاول أن يستشعر قوة الإعصار؟ هل ضُبطَ فى مكان لا ينبغى أن يكون فيه؟ يقول البعض بأن موت السيد ريدر لم يكن حادثة. ظهر خبر الشائعات فى الجريدة— أخذت صورة بحِدَّة نور فلاش الكاميرا لوجه السيدة ريّدر الحزين مع مايكل. وفى كل مكان أمشى فيه أسمع اسم مايكل روبرتس يقال همسًا إلى درجة أن أصبح مألوفًا مثل زقزقة العصافير.

مرَّت ثلاثة أيام قبل أن أرجع من المدرسة إلى البيت. كان الرجل الذى أتى وجلس عند مائدة الطعام هو السيد فيليب. مازال قصيرًا، مازال بكرش مستدير من الموز وفطائر العجين المسلوقة فى المرق المفضلة لديه. لكنه أتى بدون الكتاب المقدس. اهتزتْ يداه الفارغتان عندما وضعهما على سكينته وشوكته. ترجرج كوب الماء وانسكبت محتوياته، واندلق السائل على ذقنه، ولم يُمسح. جلست الآنسة مآ واضعةً الفوطة مرتبة ونظيفة على حجرها. لم يكن هناك أى دعاء شكر قبل الطعام بالرغم من أننا نظرنا إلى السيد فيليب لبدء الصلاة. لم يكن هناك شكر للرب ولم يكن هناك مايكل. لم يكن هناك مايكل يحدق بى عبر المائدة. لم يكن هناك مايكل يحاول أن يجذب نظراتى.

وكالمعتاد تدخل الآنسة جويل إلى الغرفة بصحن به أرز مسلوق بالبخار. ولكن بعد أن وضعته على المائدة وضعت يديها على كتفىّ وأبقتهما عليهما ليراها الجميع قبل أن ترجع لعملها. مازلتُ أستطيع الشعور بدفءِ لمستها لفترة طويلة حتى بعد أن كفَّت الآنسة مآ عن التحديق بدهشة إلينا. وفى تلك اللحظة، ولأول مرة فى

حياتى، تجرأت وتكلمت على الطعام. "أين مايكل؟" سألت. رفع السيد فيليب عينيه المتعبتين ونظر إلىَّ قبل أن يرفع نفسه من على الكرسى. وانسحب من الغرفة تاركًا صحن طعامه الذى لم يلمسه.

لم تنتظر الآنسة مـآ فى عينى عندما قالت: "لقد رحل مايكل."

"رحل؟" قلتُ.

"نعم، مايكل رحل."

"رحل؟" زعقتُ.

"اخرسى، يا بنت، مازالت هذه مائدة الطعام."

"رحل؟ رحل إلى أين؟" لم يكن لدى عذر أن أتكلم بهدوء.

"إنجلترا،" قالت الآنسة مـآ، رافعة شوكة فارغة إلى فمها بغير اهتمام.

"إنجلترا!" نهضتُ من على المائدة. ثم صرختُ قائلة: "إنجلترا."

"يا بنت، أخفضى صوتك وإلا ستشعرين بيدى على وجهك. اجلسى. اجلسى وكُلى طعامك."

عدتُ وجلستُ وسألتُ بهدوء: "إنجلترا؟"

"بالطبع إنجلترا،" قالت، وكأنه يمشى فى المدينة ولم يسافر عبر المحيطات. "كان مايكل قد خطط أن يذهب إلى إنجلترا منذ فترة طويلة."

"متى ذهب إلى إنجلترا؟"

"هذا الصباح - إذا لم يكن لديك مشكلة. تسألين وكما لو كان هذا شأنًا من شئونك."

"لم يخبرنى."

"هل تعتقدين أنه يخبرك بكل شىء؟ من الواضح بأن ابنى لا يخبرك بكل شئونه. إنه رجل." وأكملتْ قائلة: "ذهب إلى لندن للالتحاق بالقوات الجوية الملكية." لم أستطع فعل شىء إلا أن أُراقب شفتيها تنطق بكلمات ليس لها أى معنى عندى. "هم بحاجة إلى رجلٍ مثل ولدى. رجال شجعان من أصل طيب. الحرب ستندلع هناك. الوطن الأم يستدعى رجالاً مثل ابنى ليكونوا أبطالاً تفتخر بهم عائلاتهم."

"لكن منذ متى رحل؟"

ومرة أخرى، رفعت شوكة فارغة إلى فمها، ثم لاحظتُ أننى أستطيع أن أراها لا تأكل الطعام فوضعت الشوكة ومسحت برقة على ذقنها بالفوطة. ولم تعطنى أية إجابة. سمعت صوت نقط، نقط تتساقط على صحنى قبل أن أشعر بالدموع على خدى. هل ستكون آخر صورة أراها لمايكل هى ظل على الحائط؟ أم الصورة الساطعة التى أُخذت خطفًا فى الجريدة؟ رحل مايكل؟ ولا يهم مقدار غرزى لأظافرى فى يدى هذه المرة؛ فلم أستطع أن أمنع نفسى من البكاء بشدة.

الفصل الثالث

هورتنس

لم أكن أعرف أبدًا أن النور الكهربائى قد يستخدم بهذا البذخ. ففى الديار هناك لمبة واحدة يأتى نورها ويذهب حسب أجواء الطقس. هى لمبة واحدة التى تجذب كل حشرة طنانة، وطائرة، ومزعجة فى المقاطعة، فترفرف مسلوبة الإرادة حول الوهج وهى وجلة (وكذلك أوجين، ذلك الرجل المخبول، الذى قد يقطع مسافة طويلة من الحقل حافى القدمين ليقف فاغرًا فمه حتى يضىء النور). أُضىء مبنى الجامعة ذو الطابقين بمصابيح قوية تجعل الرجل الأعمى يغطى عينيه من شدة الإضاءة. تصل السيارات المنجذبة للإضاءة إلى البوابة جالبة فتيات فى ملابس جميلة واللاتى كن يدرن حول النور، يقهقهن ويثرثرن ويحضن أصدقاء قدماء.

كنت متعبة وجائعة من رحلتى فى شاحنة جريدة الدايلى جلينر. فقد جلست على شىء بدا لى وكأنه دلو معقوف. فبطريقة ما ألحق أيوستاس وايت، السائق، هذه العدة إلى الأرضية للمسافرين

ليجلسوا عليها. فقدتُ إحساسى بمؤخرتى من قبل أن نتحرك من سافانا ـ لآ ـ مار بتلك الشاحنة اللعينة. وعندما شكوتُ من فقدان الإحساس فى المؤخرة، أخبرنى أيوستاس وايت بصراحة خشنة بأنه لم يكن فى قصده نقل المسافرين بشاحنة الجريدة، وإنما هو يفعل ذلك لزيادة دخله، فيستطيع جمع المال الكافى ليدفع نفقات علاج عين أمه. ثم استرسل طوال الرحلة الطويلة فى شرح وضع تلك العين فى الماضى، والوقت الحالى، والمستقبل، شرحًا مفصلاً غير ضرورى. وبوصولنا إلى كينجستون كان مكتوبًا علىَّ الاستماع إلى هذا الرجل إلى ما لا نهاية ـ وصل بى الاقتناع بأنه ليس لدىَّ أية حياة أخرى إلا تلك الحياة التى عشتها على ذلك الدلو المعقوف فى شاحنة جريدة الدايلى جلينر. كان الطريق الضيق المتعرج المتفرع من الشارع المؤدى إلى الجامعة يرجرجنى وينترنى إلى ما لا نهاية قبل أن يسوقنا إلى أرض الأحلام الساطعة بالأنوار والتى تتوهج أمام عينىَّ وكأنها الخلاص.

لم ينتبه السيد فيليب والآنسة مآ لرحيلى من العزبة، ولو أننى كنت واحدة من أغنامهم التى حان وقت ذبحها لانتبهوا. هل نسوا بأن والدى هو لوفل روبرتس؟ رجلٌ صورته مازالت معلقة على حوائط الأبريشية. ابن عمهم، الذى إلى حد ما، رجل ذو شرف، مازال نبيلاً بطريقة ما جعلت منه أسطورة. وتلك السنوات الدؤوبة التى نشأت فيها ـ إطعامى فى صحونهم، وإلباسى الفساتين المصنوعة من القطن والدانتلا، وتعلُّمى السلوك الإنجليزى والمبادئ المسيحية ـ لم تكن تعنى لهم أكثر من حشو الدجاج بأفضل أنواع جوز الهند، الذى، بعد أن ينتهوا من الاحتفال بالعيد على جثته، يجردونه من كل حسناته، ثم يلقونه بعيدًا وكأنه فضلات؟ وابنهم، مايكل، قد يكون فى أى مكان فى أرض الله الواسعة: يطير على

القنال الإنجليزية، يرتشف قهوة فى باريس، يشرب الشاى فى لندن. المكان الوحيد الذى لا أشكُ أنه لم يكن فيه هو ذلك المنزل الكئيب، حيث شجرة التمر الهندى، وعشة الدجاج، والحائط الوسخ فى المدينة، تلك الأماكن الوحيدة التى همست لى لتخبرنى عن مدى افتقادها له.

كانت الآنسة جويل الوحيدة التى لوحت لى عندما غادرتُ إلى مدرسة إعداد المعلمات فى كينجستون، كانت مرتدية أفضل بلوزة، ورجلاها مقوستان فكاد طرف تنورتها يلمس الأرض. وحينما جاءت الشاحنة لتأخذنى، تمشى على حصى الممر تجرشه كله، أعطتنى فى يدى ربطة صغيرة.

"**هل هى تعويذة صغيرة؟**" سألتها (*).

احتوت الربطة على ورقة جنيه مطوية جيدًا وقرشين يلمعان رُبِطا فى منديل أبيض خيط بشكل غير منتظم، وطرزت عليه بدايات اسمى بالأزرق والأحمر.

وكل ما قالته هو: "**أنت لا تحتاجين إلى تعويذة صغيرة، يا غصن زهرتى. الرب سيرعاك.**"

ومثل الفراشات، كنا نحن الفتيات الجدد مبهرات، نلبس قفازاتنا البيضاء، وفساتيننا، وقبعاتنا الجميلة. بنات من عائلات محترمة من جميع أنحاء الجزيرة. بناتٌ يمتلكن المعرفة المطلوبة لحل معادلات القسمة الطويلة أو معادلات الجبر من الدرجة الثانية. بناتٌ يستطعن إعراب الجملة، هذا فاعل، مفعول، حالة الرفع، يذكرن خمسة أفعال تصف حال الحركة. بناتٌ يستطعن ذكر أسماء

(*) قالتها بطريقة الآنسة جويل فى التحدث: "alikkle spell" (المترجمة).

عواصم العالم وذكر أسماء كتب عن الكتاب المقدس بإنجليزية سليمة كالإنجليزية التى يتحدث بها الملك. نحن البنات الجدد سيتم تعليمنا لكى نصبح مدرسات، وبعد ثلاثة أعوام فقط من الإقامة للدراسة سنكون على أتم الاستعداد للانطلاق فى مدارس جامايكا.

خيم على القاعة التى انتظرنا فيها فى أول ليلة صمت مطبق من الرهبة. وقلَّت الحركة الزائدة بدون داع إلى الحد الأدنى، قد تتحرك إحداهن فقط عندما تحتاج لتسوية طرف الثوب حتى لا يتجعد من تحتها، أو لمسح عرق منهمر من الحرارة المتزايدة. فتاة واحدة فقط هى من حكت.

كان خارج هذه الغرفة هرج ومرج ـ الطالبات القدامى ينصرفن لشئونهن مصدرات صياحًا حادًا وخشنًا وشديدًا كببغاء يقف على غصن. إلى أن، وفى لحظة واحدة، توقفن وكأنما فجأة زُهقت أرواح الببغاء أو طارت بعيدًا. دخلت المديرة، مفرقةً البنات عن يمينها، وعن شمالها، مثلما حدث فى قصة النبى موسى والبحر الأحمر. كانت طويلة وعريضة، وشفتها العليا كسيت بشعر أسود كثيف كما لو كانت رجلاً فى زى تنكرى ردىء. مشتْ بخطوات كلها أناقة ولطافة، ولكن مع هدهدة فى السير مليئة بالحسن الأنثوى، وبالرغم من ذلك كانت ترج الأرض من تحتها. وتبعتها فى الفجوة التى تسببها مشيتها الواسعة خمس مدرسات. وفى ظلِّ تلك المرأة ضخمة الهيئة بدا على الحاضرين الضآلة والضعف مثل أوراق شجر نُفخت فى الهواء.

اعتلت المدرسات المنصة وجلسن فى مواجهة البنات. كُنَّ كلهنَّ سيدات ذوات بشرة بيضاء ولكن يتدرج لون بشرتهن ـ كما هو حال الأشخاص ذوى البشرة البيضاء —بدرجات الوردى حسب طول

مكوثهن فى الجزيرة. فكانت خدود المديرة تتوهج بلون قرمزى، بينما الآخرون يحملون بقعًا شديدة الاحمرار لأشخاص واصلين لتوهم.

من المفترض أن تُضىء الابتسامة الوجه فيبدو على الشخص الطيبة والودّ للأشخاص الذين يبتسم لهم. ولسوء الحظ، كان لدى المديرة، الآنسة مورجان، ابتسامة غير مناسبة لملامح وجهها فأحدثت تأثيرًا غير مرجو، كانت بالأحرى تشبه نظرة الاشمئزاز لمؤخرة العين الموجودة بالرأس البارز من مزراب الكنيسة، وقد جعلتها تبدو وكأنها نذير نحس. ابتسمت بعد أن قالت كلماتها: **"أهلاً وسهلاً بكن، يا بنات، فى مدرسة إعداد المعلمات. أمامكن ثلاث سنوات دراسة شاقة هنا، ولكنها باعثة للحماس. إذا اشتغلت كل واحدة منكن باجتهاد وشجاعة، فأنا متأكدة بأنها ستتقدم فى عملها جيداً هنا معنا."** صوتها كان عذبًا، فيه جذل خفيف لمطرب سيشرع فى الغناء، على الرغم من أن ابتسامتها جعلتنى أغير رأيى بها. ومع تكشيرتها الثانية، بعد أن سجلت نائبتها الخجول الأسماء، قطعتُ عهدًا على نفسى بألا أفعل أى شىء قد يجعلها تبتسم فى وجهى مباشرة.

لم تكن الآنسة مورجان امراة إنجليزية كباقى المدرسات، فمسقط رأسها هو منطقة ويلز ـ التى تشغل زاوية فى خريطة بريطانيا مشهورة بالفحم، وعاصمتها مدينة كاردفيلد، وتقع فى مكان يجعل الغيوم تنقر عليها مطرًا غزيرًا قبل التحرك ناحية مراعى إنجلترا. فى حين جلست المدرسات الخمس برقة على الكراسى التى على المسرح، مشت المديرة بوقار إلى البيانو،

أخفضت مؤخرتها الكبيرة على كرسى بدون أذرع يترجرج. ولبرهة قصيرة توقفت وكأنها فى صلاة ـ انبسطت أناملها على المفاتيح وأخذت شكل أصابع البيانو ـ قبل أن يتم توجيه الأمر لنا نحن البنات الجدد، بإرسال بعض الحركات من حاجبيها التى لا تكاد أن تكون مهمة ولكنها آمرة، بأن نقف.

وبدأت العزف، تضرب الأوتار لتعزف ترنيمة "**الرب الأبدى، الخفى الذى لا يُرى، الحكيم.**" وبينما هى تعزف وتضرب بشدة على أصابع البيانو لتعزف الأنغام، بدأ شعرها، الذى مُشّط بإتقان كما لو كان قد صُبَّ فى قالب من الراتنج، تفلت منه تدريجيًا خصلات. ومع كل ضربة على أصابع البيانو ينساب الشعر الأحمر على جبينها إلى أن تحرر بانفعالها وهى تعزف. "**مباركة، وعظيمة، تلك الأيام الخالية.**" وبصوت قوى غنينا نحن البنات الجدد معها، فلقد تحمسنا بأدائها المنفعل ورفرفة تلك الخصلات الحيوية. "**أيها الرب القوى، المنتصر، الاسم الأعظم الذى نمجده.**"

مدَّ مايكل يده المقفلة لى. كان عابسًا ذلك الرجل البالغ الذى انتشرت منابت الشعر ببشرة ذقنه كما هو حال أى طالب مدرسة. وعندما فتح يده أفصح عن عقرب، كان ساكنًا فى راحة يده، أسود كلون الحبر، ذنبه قائمًا وقرنه ملويًا. أردت أن أحذره من لدغته القاتلة، ولكن لم تخرج أى كلمة. حاولت أن أبعد الحشرة من راحته فسُحِبت يدى بعيدًا. لقد قبض أحدهم على رسغى بشدة تمامًا مثل النبات المتسلق حول شجرة.

لم أستيقظ بهذا العنف من قبل. سُحب الغطاء من على سريرى إلى الوراء. ولبرهة لم أستطع تذكر أين وضعت رأسى لأنام. كنت

نصف عارية على مفرش السرير ـ بُرم ولُف قميص نومى حول وسطى بسبب حركات الحلم. لقد سُحبت بقوة فلم أستطع فعل أى شىء إلا الانصياع. حاولت قدماى بارتباك تحسس أرضٍ صلبة وأنا أُشدُّ من قميص نومى بقوة أحاول أن أستر نفسى. وقبل أن أقتنع تمامًا أنى لم أعد أحلم وجدت نفسى أجرى هربًا لإنقاذ حياتى. وآسرتى مازالت تعصر رسغى، والتفتت صوبى فقط لتقول: "هيا أسرعى." البنات الأخريات يركضن بجانبنا. الأبواب التى عبروها صفقت خلفهم وأصدرت دويًا مثل دوىّ طلقات الرصاص. وكان لصفعات أقدامنا صدى على الأرضيات الصخرية على طول الطرقات الطويلة التى جرينا عليها، قبل أن نندفع خلال باب واحد حيث دفعتنى ودهمتنى البنات بقوة وبسرعة خلال ذلك الباب، وقد كن يصممن على الدخول قبلى.

كانت الغرفة مضيئة بضوء الشمس الساطع، فلم أستطع أن أرى فى بادئ الأمر. ولكن بعد ذلك لاحظت أنابيب الاستحمام معلقة فوق الرأس، وشعرت ببلل تحت قدمىَّ. آسرتى أطلقت معصمى الآن، وفى حركة رشيقة وحذقة نزعتْ من عليها قميص نومها ووقفتْ أمامى عارية تمامًا مثل حواء. أومأت لى حتى أقلدها، ولكنها بدأت تغتاظ منى، تتنهد وتتأفف وهى تراقبنى أُحل الأزرار وأفك الأشرطة حيث طُرز حيائى كطوق حول رقبة قميص نومى.

قالت الفتاة لى: "هيا، أسرعى،" مزيحة يدىّ عديمتى النفع بصفعة عليهما، وتحسستْ أزرارى. وبدأت ترفع قميص نومى وأنا أحاول أن أجعله ممسكًا علىَّ، فلا أريد أن أكون عارية أمام كل هؤلاء الغرباء. ضربتْ يدى للمرة الثانية. فرددتُ عليها بضربة على

يدها، ولبرهة وقفتْ، تحدق بى، وقبل أن تضربها بقوة مرة أخرى استسلمتُ وتوقفتُ عن المقاومة. ووقفت، مع جميع البنات، عاريات ـ أضمّ مرفقى إلىَّ، فى محاولة لتخبئة صدرى، وما بين رجلىَّ، وركبتىَّ غير الجذابتين. ثم جاء الماء وانصب علينا كمطر من الماء المثلج. صرخت كل البنات. صوتٌ يصم الآذان ويخرس بقية الأصوات. الأفواه واسعة فاستطعت أن أرى أعماق حلوقهنَّ الوردية، حيث انتفخت أوتار أعناق البنات مثل توتر الحبل من قوة الوحوش.

وبينما أنا أنظر إلى آسرتى ـ عارية، مرتعشة، تصرخ، يجرى الماء اللامع على بشرتها السوداء إلى أسفل، يمر على حلمتَىْ ثدييها اللتين انتصبتا كطلقتين ـ وجدت النور على وجهها جرّاء إطلاق العنان لعواطفها، لهذا أغلقت عينى، وفتحت فمى وتركتُ رئتى ينفجر منهما بكاءٌ كان الأكثر وحشيةً وغضبًا أُخرج من جسمى. الراحة المباركة من هذه الضوضاء طهرتنى مثل صلاة صامتة. أخذتُ أصرخ حتى انتبهت بأن الماء لم يعد ينزل، الغرفة سادها الهدوء، وهُززت بلطف من قبل آسرتى، التى قالت برقة: "**يمكنك التوقف الآن.**"

إنها سيليا لانجلى التى جرتنى من على سريرى فى ذلك الصباح. كانت تعتقد بأنه من الواجب على طالبة فى الصف الثالث مثلها أن تُعَلِّم فتاة جديدة غير مدربة (مثلى أنا) على أهمية الوصول باكرًا إلى حمام الصباح. الفتاة الأولى التى تنتهى من الاستحمام، وتضع ملابسها وتفوح منها رائحة الصابون العطرة، وتصل إلى غرفة الطعام للفطور، ستنال كوبًا من الشوكولاته التى مازالت ساخنة وقابلة للشرب. وإذا كنتِ الثانية، الثالثة، أو الرابعة المتباطئة عن قصد، فستكون الشوكولاته ليست فقط باردة بل عليها طبقة

سميكة يمكن أن تخيط على قبعة. عندما أمسكت سيليا لانجلى رسغى فى ذلك الصباح ـ أنا البنت الجديدة بجوارها على السرير ـ لم تضعنى فقط تحت الماء، بل وبكل جديّة تحت جناحيها.

تأتى سيليا إلى سريرى كل ليلة بعد الاجتماع، وبعد مراجعة الأسماء لمعرفة الغائبين، وبعد الصلاة. تقترب وتجلس بجوارى لمدة ساعة إلى أن تطفأ الأنوار الكهربائية، تفوح منها رائحة الياسمين. كانت سيليا تميل على أذنى بشفتيها أثناء حديثها كله، سواء كانت تخبرنى الوقت أو تعلق على درجة الحرارة، لتهمس وكأنها تفضى إلىَّ بحقيقة حُفظت سرًا. ودائمًا ما صاحب تلك الخلوات الكلامية صوت دقدقة إبر الحياكة الرقيق؛ حيث إنها تحيك الجوارب للرجال، أمثال مايكل، الذين يسافرون إلى إنجلترا للقتال فى الحرب. وفى تلك الليالى القاتمة قامت سيليا، لكونها أكبر منى فى العمر، بتلقينى ما يجب أن أطمع أن أناله من محاضراتى.

"الآنسة ويلكنسون ستدرسكم مادة الجغرافيا،" قالت لى. **"ستحاول أن تخبركم عن العصر الجليدى أو شىء من هذا القبيل. ولكن إذا ذكرتِ، حتى لو كان الأمر عابرًا، مرتفعات بنينز ـ وفقط مرتفعات بنينز هى التى ستسبب ذلك ـ ستصوب عينيها فى مكان ما تستطيع هى فقط أن تراه، وبدلاً من درس الجغرافيا ستحكى قصصًا عن طفولتها فى يوركشاير. فى حين أن تلك القصص عمليًا ليست مسلية، لكنها بالفعل ستسمح لك بالنظر إلى الخارج على الشجر من خلال النافذة."**

قالت سيليا همسًا بأن لدى أوليفر كرومول نتوءة كبيرة قبيحة على وجهه عندما وجدتنى أبذل أقصى جهدى لكتابة موضوع تعبير عن إنجازات هذا الرجل. أخبرتنى واضعةً يدًا رقيقة على كتفى،

بأن الآنسة نيومان التى تدرس مادة التاريخ تتبنى نظرية بأن نتوءة السيد كرومول، هى علامة بارزة للعيان بأنه قد أُرسل من قِبل الشيطان ليدمر النظام الملكى الإنجليزى. وعند ذكر تلك النتوءة، تم إسكات سيليا، واعتادت الآنسة نيومان ـ التى تعتقد بأن البنات الملونات عندهن إدراك أعمق بهذه الأمور، لكونهن أقل تحضرًا وقربًا للطبيعة ـ أن تكتب عندى فى الهامش بأنى ماكرة. وكل البنات اللاتى يتصفن بالماكرات ينلن شرف تسلية الحضور فى اجتماع المساء بسرد حكاية أو إلقاء الشعر.

احترت فى الاختيار بين خطاب الملك هنرى الخامس فى معركة أجينكورت أو قصيدة "**هجوم كتيبة لايت**" للورد ألفرد تيسون. فكلاهما يسمحان بإثارة الحركات الدرامية. ولكن سيليا تعتقد أن قصيدة "**الدافوديلز**" سهلة جدًا ـ لن تكون هناك فتاة فى الكلية لا تعرف إلقاءها.

"**عودوا إلى مرة أخرى، إلى الثغرة، يا أصدقائى، مرة أخرى.**" سيليا هى من علمتنى كيف أشعر وأعبر جسمانيًا عن الانفعالات المذكورة فى النص ـ أن أصلب قوامى وأستدعى الدم برفع كتفىَّ فى حين أبقى رأسى عاليًا، وبهذا يستطيع ذقنى الارتفاع عاليًا من جلال الخطبة، وأن أختتمها بصيحة قوية راقية كعلية القوم، ولكنها ليست عالية النبرة عند قول: "من أجل هارى وإنجلترا والقديس جورج"

كنت حديث الكلية لعدة أسابيع. وعندما اعتقدت أن معنوياتى لن ترتفع أكثر من ذلك، أعلنت مُدرسة التدبير المنزلى الآنسة بلمترى بأن كعكتى ـ بالكريمة الصفراء والأطراف الإسفنجية ـ هى الأفضل خارج المقاهى فى شمال إنجلترا.

ستون تلميذًا فى الفصل الذى كان علىَّ أن أدرِّس له. ستون طفلاً جالسون متململين كأنهم هوام خلف صفوف من مناضد خشبية. ستون رأسًا غافية، وأنفًا سيَّالة، وابتسامةً غبية، وجميعهم فى هيئة رثة. ستون وجهًا أسود. بعضهم محدق فىَّ، والبعض منهم فاغر فمه كما يفعل الشخص المتخلف عقليًا. والبعض الآخر ينظر من النافذة. وهناك من يتكلم بحرية كما لو كانوا مستلقين تحت شجرة ليمون.

اعتدتُ أن أتعامل مع أطفالٍ من بيوت محترمة فى مدرسة السيد والسيدة ريدر، حيث يجلس أطفال أغنياء، ذوو بشرة فاتحة، من طبقة عالية، فى نظام منتظرين تعليماتى قبل أن يطأطئوا رؤوسهم لحل الواجب المدرسى بطريقة مرضية. فى تلك المدرسة لا يوجد أبدًا طفلٌ يمسح أنفه السائل بكمه قبل أن يرفع يده عاليًا فى الهواء ملوحًا بها مثل عمود الإشارة. لا يوجد طفل إلا وقد يشدو بنبرة مملة: "**يا آنسة روبرتس، يا آنسة روبرتس**" تكرارًا ومرارًا لدرجة عدم قدرتى على تمييز اسمى. ولا يوجد طفل يحسب عملية طرح خمسة من عشرة ويجعل النتيجة واحدًا وخمسين.

قد يذرف جوب الدموع فى محاولة لإحداث ضوضاء ليجلس أمام السبورة، وقد يحك سليمان رأسه فى محاولة لفهم ماذا فعل الولد المشاغب بركيفال برون بكل أقلام الرصاص. بدا ذلك الولد ذو البشرة الفاتحة والعينين الخضراوين التلميذ الأكثر جدارة بالثقة لمهمة تسليم الأقلام لكل تلميذ بالفصل. وما إن وصل إلى منتصف الفصل حتى رجع إلىّ ليخبرنى بأن الأقلام قد نفدت.

"**كيف نفدت؟ أعطيتك ستين قلم رصاص،**" استفهمت منه. "**هل اخذ أحدهم أكثر من قلم واحد؟**" استجوبت الفصل كله. وإذا بكل

واحد من هؤلاء الطلبة عديمى الإحساس ينتبه بما يكفى ليهز رأسه. "**ماذا فعلتم بالأقلام؟**" سألت بركيفال برون مرة أخرى. وكل ما فعله هو أن نظر إلىَّ هذا الولد اللص بعين خبيثة، ورفع كتفيه بما يدل على عدم المبالاة. فبحثتُ فى جيوبه، وفتشتُ طاولته، بينما ثبَّت ذلك الفصل المكون من غوغائيين فى السابعة من العمر أنظارهم علىَّ كاتمين ضحكاتهم.

وأثناء تلك المهزلة كنت مراقبة من قرب من قبل الآنسة كليجهورن، التى جلست فى نهاية الفصل، واضعةً نظارتها على مقدمة أنفها، تكتب تقريرًا عن "**تقدم وصلاح المدرسات المتدربات**" وفى نهاية كل حصة ـ وقطيع الأطفال يندفع مسرعًا للعب— تقترب منى. اعتادت أن تقول وهى مائلة برأسها تنظر فى كراستها وكأنها تقرأ: "**آنسة روبرتس، يجب أن تحافظى على النظام أفضل من ذلك بين تلاميذك**" وإلا: "**أخشى، يا آنسة روبرتس، أنك بذلك تسمحين لهؤلاء الأطفال بالانتصار عليك.**" أو تقول: "**لا تتوقعى من طفلٍ أن يحترم ويطيع مدرسة لا تستطيع الحفاظ على النظام فى الفصل.**" عندها، وقفت وأنا عاجزة عن نصرة نفسى أومئ بالموافقة، أخبرتها بغمغمة بأننى عاهدت نفسى بتحسين أدائى.

كنت متشوقة بأن أجعل هؤلاء الأطفال ينظرون إلىّ نظرة احترام مثل تلك التى نلتها من المديرة ومدرساتى فى الكلية. تستطيع هؤلاء النسوة البيض، اللاتى أُحِطن بالكرامة مثل هالة من النور، أن يسكتن أى تجمعات غوغائية فقط بوضع إصبع على شفاههن. فخطابهن الرسمى، وذكاؤهن العالى، وتصرفهن الإمبريالى يُستقبل بالطاعة من كل من ينظر إليهن. وأثناء تحضيرى لدروس اليوم التالى، عقدت العزم على استدعاء كل عزيمتى من داخلى لكى أجعل الفصل ينظر إلىَّ بعين الاحترام.

ولكن فى الصباح تصطف وجوههم الصغيرة المتسخة قبالى. وهناك يقف بركيفال برون يكشّر بابتسامة بلهاء وهو ينتف جلدة رقيقة على جرح فى كوعه، قبل أن يعطينى كيكة البراونى بالتفاح كهدية. يبدأ هؤلاء الأطفال الستون السود يومهم وهم يتوقون لرؤيتى حيث تتشابك أيدينا معًا استعدادًا للصلاة. ولكن ما إن نرفع رؤوسنا بعد الصلاة حتى تبدأ أذهانهم الملولة بالسرحان، وأجسادهم بالتجول فى الفصل، ثم تنساق إلى الباحة. كانت أنظارهم مثبتة على أى مكان آخر ما عدا أنا والدرس الذى كنت على وشك شرحه.

* * *

وفى أحد العصارى انتظرتنى سيليا لإلقاء التحية بعد الانتهاء من التدريب على عملية التدريس. بدت مثل زهرة تفتحت من وسط القاذورات، وهى واقفة جميلة عند بوابة المدرسة مرتدية فستانًا أزرق فاتحًا وأصفر، وضمت قدميها بأناقة. سُررت لرؤية وجه مألوف أمام مدرسة الأوغاد تلك، التى وصل بى الحال إلى ازدرائها لدرجة أننى لم أعبأ بملاحظة الدموع، التى انثالت على خدها المترب وسقطت على شفتيها المرسومتين كقوس إله كيوبيد. ابتسمتْ بإشراق. لم يكن لدى سبب بألا أعتقد أنها مبتهجة حيث قالت بحماس: "**جنود القوات الجوية الملكية يمشون فى موكب استعراض الجند فى المدينة. سيرحلون لإنجلترا قريبًا - يجب أن نلوح لهم لتوديعهم.**"

كانت نزهة عطلة نهاية الأسبوع، بعد أن أمضيت بعض الأسابيع فى الكلية، مررت أنا وسيليا بجوار مكان ما، هذا المكان يتيح لنا - إذا ما تسلقنا أول فرع لشجرة حمضيات - النظر منه إلى الثكنات

التى فيها الرجال الذين يتدربون لينضموا للحرب. فى بادئ الأمر كان كل ما سمعناه هو الأوامر التى تعلو فى الهواء كالصياح، كانت بالكاد واضحة: إلى اليسار... سر مسرعًا... انتباه...استرح.

كانت فكرة سيليا بأن نرفع التنورة ونتسلق الشجرة. كانت تأمل أن تكتشف، ولو حتى بنظرة عاجلة، كيف تطبق تلك التعليمات. وكان مدى مشاهدتنا يبتعد عن صرخات الأوامر التى تنفذ، ومع هذا استطعنا رؤية الرجال بوضوح فى تشكيلة استعراضية لمناورة، كانوا فى رشاقة وخفة راقصى الباليه فبدوا وكأنهم عصافير. وبالرغم من تلك المسافة كان من الواضح لنا بأن هؤلاء المقاتلين الشجعان يحملون عصيًا خشبية على أكتافهم بدلاً من أسلحتهم.

بعد ذلك، قررت الانضمام فى مشروع الحياكة الهائل الخاص بسيليا، وقمت بحياكة الشىء الوحيد الذى تسمح به موهبتى ـ قطع مستطيلة من القماش طويلة سادة (التى كانت دائمًا مفيدة) ـ بينما سيليا، منهمكة فى حياكة الجوارب، قامت بإضافة حياكة القبعات أيضًا إلى مجموعتها. وضعنا قدر ما نستطيع وقدر ما يكون آمنًا لنا من النقود فى صناديق التبرعات التى وضعت عند الباب عند قاعة الطعام. ودُبست على لوحة الإعلانات صورة لطائرة حربية، قُصَّت من جريدة الدايلى جلينر، ساهمت نقودنا فى شرائها. وفى كل مرة نمُرّ أنا وسيليا نشير إلى أجزاء من الطائرة ـ أحيانًا إلى عجلة، وأحيانًا إلى نافذة ـ ونحن نجزم بأن نقودنا قد اشترتها.

بدا هؤلاء الرجال، وهم سائرون فى صفوفٍ منظمة عبر الشوارع بعد الظهر، مرتدين بزة زرقاء غليظة القماش، كمنظومة آلية موحَّدة بلون الفولاذ. لبس كل واحد منهم قبعة مثلثة عجيبة ثُبتت بزاوية مستحيلة. تبعت خطوات سيليا وهى تزاحم وتلكز

الحشود التى أتت للمشاهدة. كانت النساء أغلب من زاحمونا ودفعونا إلى الخلف بالمقابل. الزوجات، والأمهات، والأخوات، والعمات متصافات فى الشارع. البعض كان هناك فقط لمشاهدة عرض الجند، بينما كان البعض الآخر يشدون أجسامهم بتوتر لينالوا نظرة خاطفة لرجل يحبونه. ولكن تكونت تلك المنظومة الحربية من صفوف وراء صفوف من الغرباء لكنهم ذوو وجوه مألوفة. صبيانٌ يافعون كانوا يقفون فقط ليلهوا عند الأشجار. رجالٌ ذوو بشرة خشنة كخشونة الجلود المدبوغة، هؤلاء الذين اعتادت أيديهم على تقليب التربة. رجالٌ بكروش كبيرة قد يشتاقون إلى أكل الموز وفطائر البامى. رجالٌ ظهورهم مستقيمة قد تلمع أحذيتهم حتى فى خضم الحرب. كان من الواضح بأن كل مبهرجى وشجعان وحمقى الجزيرة، كانوا يمشون هناك أمامى.

رجالٌ كُثرٌ. "**لماذا ينبغى على الكثير من هؤلاء الذهاب؟**"

حسبت أننى أتحدث بهذه الكلمات فقط فى ذهنى، ولكن سيليا ردت مستديرة لى بوجه متجهم، قائلة: "**يجب أن تعى هذا، إذا كسب هذا الرجل الذى يدعى هتلر الحرب فسترجع العبودية. سنكون كلنا مكبلين بالسلاسل مرة أخرى. وسنعمل بالسخرة.**"

"**يا سيليا، أنا أعمل بدون أجر الآن.** قلت، متذكرة فصلى الحقير التافه.

ربما لم تفهم نكتتى، حيث إنها لم تضحك ولا حتى ابتسمت. سارت نظرة نفور بحذر عبر ملامحها. ولم أبذل أى محاولة لاسترضائها. أستطيع تفهم لماذا كان فى غاية الأهمية بالنسبة لها ألا ترجع العبودية. فبشرتها كانت شديدة السواد. فى حين لم تكن بشرتى بهذا اللون ـ كانت بلون العسل الدافئ. لن يفكر أى أحد

لتغليل شخص مثلى أنا. العالم أجمع يعلم ماذا يؤكد النشيد الوطنى المحفز للهمم: **"لن يكون البريطانيون أبداً، أبداً، أبداً عبيداً."**

امرأة مثقلة بحمل طفل، تميز رجلاً فى المسيرة العسكرية، صاحت قائلة: **"يا فرانكلين، إلى أين أنت ذاهب؟"** ثم نحبت بصوت عالٍ ورفعت يديها إلى أعلى باتجاهه مثل طفلٍ منتظر أحدًا يحمله. ولفَّ من كان يرافقها يديه الاثنتين بإحكام حول بطنها الكبير حتى يمنعها من الركض إليه. وفرانكلين هذا، التفت ببصره إليها وهو ماض، ثم شدَّ من إيقاع خطواته، متعثرًا للأمام وكأنه ضُرب، قبل أن يسترجع توازنه كجندى ليمشى قدمًا.

وأدارت سيليا وجهها بعيدًا، تشعر بالأسى على الضجة التى سببتها تلك المرأة، وسألتنى: **"أتساءل من منهم يرتدى جواربى؟"**

سعدتُ لتحول مزاجها فرددت قائلة: **"يا سيليا، من المحتمل أن يكون كل واحد من هؤلاء الرجال وأغلب هذا الحشد يرتدونها."**

ابتسمت على تلك النكتة، شابكةً ذراعها بذراعى، ومالت نحوى وهمست: **"يا هورتنس، دعينى أبوح لك بسر. عندما أكبُر، سوف أترك جامايكا وسوف أعيش فى إنجلترا. سوف يكون عندى بيت كبير، به جرس بالباب الأمامى، وسوف أقرع الجرس، دينج ـ لينج، دينج ـ لينج."** والتقط شعرها الأسود رفرفة أشعة الشمس الذهبية على جدائلها. **"سوف أقرع الجرس فى ذلك المنزل عندما أكون فى إنجلترا. هذا ما سوف يحدث لى عندما أكبر."**

كانت هناك ضجة أخرى تسببت فى إيقاف حلم سيليا. فلقد أخذ صوت امرأة يعلو على إيقاع الأقدام فى مسيرة الجنود، وكان أكثر صخبًا من صخب ثرثرة الحشد. التفت الجميع لمتابعة البكاء،

حتى عيون الطيارين استدارت إلى حيث مصدر الضجيج. وأصبح واضحًا لى بأن صوت هذه المرأة يصرخ مناديًا اسم "**سيليا**". شدَّ كل الذين لا يُدعون سيليا أجسامهم لينظروا إلى المنادى. الشخص الوحيد الذى بقى ساكنًا كان سيليا نفسها التى وقفت بلا حراك وكأنها جيفة.

سارت باتجاه سيليا امرأة طويلة، ذات بشرة شديدة السواد ومع ذلك أنيقة. ظهرها مستقيم، ورأسها مرفوع، مما ألقى عليها هالة من الغطرسة كتلك التى لامرأة بيضاء متفاخرة. وأفسح الحشد الطريق وهى تقترب أكثر فأكثر، البعض يقفز ليبتعد عن طريقها، والبعض الآخر ينظر إليها بشفقة، لأنه كان من الواضح على تلك المرأة الرشيقة أنها ترتدى فستانين: فستانًا بإزار أسود اللون يبدأ من الخصر ويتدلى إلى الأرض، وأكمامه قد زرُرت إلى الرسغ. قد تتلقى تعليقًا واحدًا فقط على هذا الفستان وهو أن تصميمه قديم بعض الشىء. ولكنها لبست على الجزء الأعلى من الفستان ما بدا من مسافة بعيدة أنه بلوزة جميلة، ولكن سرعان ما اتضح أنه فستان وردى، شبيكة، حيك لفتاةٍ صغيرة. وسُحبت الأكمام القصيرة المنتفخة إلى أعلى بشدة مؤلمة على أكمام الثوب الآخر، فى حين شُدَّ القسم الأعلى الضيق من صدر الثوب على جسمها البالغ.

رفعت يدها عاليًا، ملوحةً بمنديل أبيض، ونادت: "يا سيليا" بصوت عال وقوى بدا وكأنه صوت صدر من إلهة ولم يخرج من فم إنسان فان مثلها. نظرتُ إلى سيليا لأجد تفسيرًا لما يحدث.. لماذا تحاول هذه المرأة الغريبة أن تلفتَ انتباهها.

إلا أن عينى سيليا كانتا مغلقتين بشدة، وشفتاها تتمتمان قائلة:

"آوو، كلا،" ودمعة تجرى على خدها نزولاً إلى شفتيها المرسومتين كالقوس.

وقفت تلك المرأة الآن عند سيليا، تثرثر بإزعاج وكأنها كانت واقفة معها طوال الظهيرة. **"يا سيليا، ستَريْن... سيظهر حالاً. ينبغى عليك فقط الانتظار، يا عزيزتى، سأريك من يكون. ستَريْن... ستَريْن."**

لوحت بمنديلها أمام أنفها. **"آوو، هذا الحر... هذا الحر، لن أستطيع التعود على هذا الحر أبداً."** كان عطرها مقززًا للغاية، فمن شدة حدته سعلتُ حيث شعرت بطعمه فى حلقى. تبين أن شعرها، الذى بدا رماديًا مميزًا من الانطباع الأول، ما هو إلا شعر بنى مستعار لُطِّخ بالتراب. عندما انسلتَ الشعر المستعار بانت رقعة من الشعر الأسود المتلبد الذى كانت تحاول إخفاءه. وقفت تروِّح لنفسها بمروحة يد بعجرفة كعجرفة النبلاء وهى غافلة عن المشهد الذى صنعته. ومع ذلك لا يوجد أى روح فى عينيها: مكثت عيناها بدون تعبير أو انتباه مثل نظرة الدمية المتصنعة.

أخذت سيليا يد المرأة برفق، ومالت بالقرب من أذنها وقالت: **"يا ماما، اصمتى."**

بالرغم من أن تلك المرأة تثرثر بصوت عالٍ قائلة: **"الآن، أين هذا الرجل؟... أين يكون قد ذهب؟.. هو دائمًا تائه؟"** إلا أنها صمتتْ فجأة كأن مفتاح التحكم قد أُغلق.

لم أكن فى حاجة أن أسأل هل هذه المرأة اللافتة للأنظار هى والدة سيليا، لأن ذلك كان واضحًا للعيان. بشرة سوداء لوجه كان فى يوم ما جميلاً، وفمٌ يحمل نفس الشفة العلوية المحددة كقوس كيوبيد. تجنبت سيليا أن تلتقى أعيننا حيث تحدثتْ بهدوء وهى

تهمس لأمها: "**يا ماما، لا ينبغى أن تلحقى بى إلى هنا. يجب أن نرجع إلى المنزل الآن. سأرجع بك. سيقلقون عليك.**"

سمحت الأم، التى انصاعت لسيليا كما لو كانت فى غيبوبة، بأن تأخذها من كوعها بعيداً عن الزحام. وبدون أى سابق إنذار تسترد تلك المرأة الحياة. "**هو هنا، يا سيليا. هو هنا! انظرى.**"

استجاب الحشد لصراخها بسرعة ـ البعض يراقب سلوكها بينما البعض الآخر، أكثر فضولاً، نظر إلى مكان ما أشارت. تحولت يد سيليا الناعمة على ذراع أمها إلى قبضة كف قاسية ووجه عبوس، ولكن والدتها صارعتها بعنف لتبعدها عنها. ولسوء الحظ وقفت مسيرة الطيارين للحظات فركضت أم سيليا إلى أحد الطيارين، مشيرة إليه وكأنه فستان فى شباك العرض، ونادت: "**يا سيليا، هذا هو والدك. أخبرتك بأنه سيأتى.**" وكان من الواضح أن هذا الطيار لم ير تلك المرأة من قبل. التفت هذا الشاب الصغير ـ كان أصغر سنًا من سيليا نفسها ـ حوله فى ارتباك بينما تهكم عليه أصدقاؤه.

"**وينستون.**" تفحصت أم سيليا وجهه. "**ألا تعرفنى؟**" قد يهز الطيار رأسه، أو قد يقول: "**آوو، كلا، يا سيدتى، كلا،**" ولكن، وقبل أن يتمكن من الرد، حَوَّطت أم سيليا صدره بذراعيها مكبلة إياه بحضن قد يسحب الأنفاس من دُب. وظهرت عليه علامات الاختناق والحيرة.. هل يضرب هذه المرأة المجنونة أم يستسلم لقبضتها؟

اقتربت سيليا فشدَّت أمها من على الرجل المسكين الذى أمسكته وكأنها تخشى أن تفقد جائزة حصلت عليها. "**ماما،**" قالت سيليا، منحنية باتجاه أمها، "**اتركيه.**" ولكن طلبها وقع فى أُذن صماء لا

تسمع ما يطلب منها. رافعة صوتها إلى درجة عالية من الحدة لم أسمعها أبدًا، قالت سيليا مكررة: "**يا ماما.**" بدأ البعض من الحشد يرى من الموقف شيئًا مضحكًا ـ طيار ذاهب ليشارك فى الحرب من أجل الوطن الأم أُفزع من قبل امرأة مجنونة ملتصقة بصدره. ولكن سيليا شعرتِ بالخزى. انثالت عليها الإهانة مع كل انتقاد وُجِّهَ إليها أو سخرية، وهى تحاول سحب أمها من على الرجل، وأمها ترفسها وتضربها لتبعدها عنها، وطوال الوقت تقول: "**يا وينستون، ألا تعرفنى؟ أنا إفيليان.**"

خرج طيار آخر من الطابور ليفك هذا العراك. ثم تلاه طيار آخر ثم آخر. ثلاثة طيارين يحاولون إبعاد تلك المرأة التى تتملص وتلتوى، لكى تتفادى أن تلمس أيديهم بعض الأماكن الحساسة التى قد تجرح كرامتها. تَمزَّق الفستان الوردى الصغير الذى ارتدته وذلك لأنها كانت متوترة للحفاظ على قبضتها. وانزلق الشعر المستعار على عينيها ثم سقط على الأرض. استعدته أنا من تحت حذاء كبير برقبة، بينما بدأت سيليا، فيما بدا كتصرف جيد، تقشر يد أمها من حول ذلك الرجل المحاصر.

وأثناء ذلك الوقت كان زملاؤه الطيارون يسخرون منه قائلين: "**ماذا فعلت بتلك المراة، يا رجل؟ أنت صغير جداً، هل أنت المناسب للسيدات؟**" تقدم رقيب ليرى ما أمر هذا الهياج، الذى اعترض سبيل المسيرة العسكرية. فى النهاية، وفى جو يشوبه اليأس، قال ذلك الشاب بهدوء عند أعلى مقدمة رأس أم سيليا: "**اسمى ليس وينستون. أنا دوجلاس.**" وبنفس السرعة التى أطبقت عليه بقبضتها أطلقت سراحه. فرقت الزحام وهى تجرى، وهكذا اختفى ذلك الفستان الوردى فى الأسود المتشرد، المرفرف.

كانت تُعتبر مخالفة لمعظم قواعد الكلية، أن تُرى الطالبة فى البلدة وهى تسحب امرأة فى حالة هستيرية (والتى كانت ترتدى فستانين) من على صدر طيار يتقدم فى مسيرة عسكرية. ففى العلن، ممنوع الأكل، ممنوع الركض، ممنوع الغناء، ممنوع البصق، ولم يكن مسموحًا بالثرثرة بصوت عالٍ.

كمعلمات تحت التدريب كان متوقعًا أن يكون سلوكنا خارج حوائط الكلية قدوة وكأننا مازلنا تحت مراقبة أعين المديرة. كان شيئًا مؤكدًا أننى لم آكل أى طعام ولم أغنِّ لا أنا ولا سيليا أثناء هذه المحنة. ولكننا ركضنا خلف أمها. وصرخنا منادين لها أن تنتظر، وتعود، وتقف. اعترضنا سبيل حركة المرور عندما جاهدنا لسحبها من الباص، واضطررتُ أن أبصق فى الشارع عندما دُفع الشعر المستعار المترب ـ الذى كنت أحمله ـ إلى فمى عن طريق الخطأ أثناء المشادَّة.

لقد كانت المديرة تتلو لائحة قوانين المدينة ـ ممنوع الأكل، ممنوع الركض، ممنوع الغناء، ممنوع البصق، ممنوع الثرثرة بصوت عال ـ كرقية سحرية كل يوم فى الاجتماع. ولهذا عندما استُدعيت إلى مكتب آنسة مورجان خشيت من أن أخبار هذا الشجار قد وصل إلى مسمعها. ذلك لأن أيفى ماى وقد سمعت بالقصة ـ تبتسم لى وهى تمر قائلة: "**يا هورتنس، إذًا أراك قابلت أم سيليا.**" قبل أن تمضى فى طريقها، تقهقه من الضحك. لهذا كان لى عذرى.

إنها سيليا! هى من قابلتنى عند المدرسة. هى التى من قادتنى لنشاهد الاستعراض العسكرى. هى التى، وقد قضت النهار مع أمها المجنونة، تركت الباب مفتوحًا مما سمح لها بأن تلحقها. وهى التى صممت بأن نوصل أمها إلى بيت خالتها قبل الرجوع إلى الكلية. كل

هذه الأخطاء كانت بسبب سيليا لانجلى. إنها هى، كشيطان قابع على كاحلى، جعلتنى أحيد عن الصراط المستقيم.

ولخمس عشرة دقيقة وأنا أمشى ذهابًا وإيابًا خارج مكتب المديرة متوقعة أن تحضر سيليا حالاً لتمشى معى ذهابًا وإيابًا. ولكنها لم تكن بجوارى عندما نودى بـ "ادخل . ارتحت لغيابها ـ لن تكون حاضرة لتسمعنى أردد اسمها كسبب لخرقى لكل تلك القوانين. لن تستطيع أن تحدق النظر إلى كما لو كنت أخونها، أو تعارضنى بأن تقول بأنها لم تطلب منى أن ألحق بها وإنما قد فعلتُ ذلك من تلقاء نفسى حيث اعترانى الفضول لرؤية أمها المختلة عقليًا.

لم يكن المكتب الذى تجلس عليه المديرة كبيرًا بما يكفى لها. بدت مثل شخص بالغ جالس على منضدة مدرسية صُنعت لطفل، وكنت أخشى عندما تنهض أن يلتصق بها كالمئزرة. ما نوع المكتب الذى قد يستوعب جلالة تلك المرأة الويلزية؟

"**هورتنس روبرتس؟**" سألت المديرة.

"**حاضرة، يا آنسة مورجان،**" قلت بغباء، وكأنى أجيب على منادى الأسماء لمعرفة الغائبين فى المدرسة. ولاحظت عندما تطلعت ناحيتى بأن لون عينيها، الذى دائمًا ما اعتقدت أنه أزرق، ليس كذلك: عين ونصف العين كانتا زرقاوين؛ فبينما كان نصف عينها اليسرى أزرق كان النصف الآخر بنيًا فاتحًا. شهقتى القوية هى التى جعلتها تسألنى إذا كنت بخير. "**نعم، أشكرك، يا آنسة مورجان، أنا بخير،**" رددت، وأنا أحاول أن أبقى نظرى بعيدًا عن هذه العين.

"**هورتنس روبرتس،**" قالت مكررة، بطريقة جعلتنى جاهزة بأن أقدم أعذارى. كانت سيليا، سيليا، سيليا، كنت على وشك أن أدلى

بالحجج. ولكن بدلاً من التأنيب المتوقع أظهرت المديرة رسالة لى. **"هذه لك. آسفة لفتحها حيث إنها كانت مرسلة إلى المديرة. ولكن بالتأكيد تعنيك أكثر من أن تعنينى أنا. من فضلك ـ اقرئى الرسالة."**

إنها من الآنسة مآ. بُدئت الرسالة بخمسة أسطر من الاعتذار عن إهدار وقت شخص كثير المهام ومتميز مثل المديرة. **"ومع ذلك،"** أكملتْ، **"أنا وزوجى، السيد فيليب روبرتس، سنكون ممتنين لك وكيفما ترينه ملائمًا وبالطريقة التى ترينها مناسبة، ربما لو تسمحين بتوصيل هذا الخطاب إلى الآنسة هورتنس روبرتس، التى أعتقد أنها مُدرسة تحت التدريب ومازالت فى الصف الأول فى مؤسستكم."** تعرفت على النص الذى كُتب بعناية مع المشقة فى لف أعلى حرف الـ h وتقويس قاعدة حرف الـ "g" **"الرسالة بخصوص السيد مايكل روبرتس، وهو ابننا الكبير والوحيد والذى تعرفه جيداً الآنسة هورتنس روبرتس المذكورة سالفًا."** أخبار غالية عن مايكل! التوت قدماى من تحتى عند قراءة اسمه. فلم أسمع أى شىء عنه منذ أن رحل إلى إنجلترا. وهنا فى هذه الورقات البيضاء القليلة المطوية حياته كلها أمامى من جديد. لقد تم نقله فى بادئ الأمر إلى كندا للتدريب فى الطيران الملكى الإنجليزى. ثم، كما هو حال مايكل دائمًا، حصل على أعلى الدرجات وأُرسل إلى إنجلترا بدون أى تأخير، للانضمام لكتيبة الطيران كمقاتل جوى.

"اجلسى إذا كنت تحتاجين لذلك،" قالت لى المديرة. وفعلت. إنها لميزة خاصة نادرة أن تجلس على مقعد وثير صُمم للوجهاء. هذا الكرسى، الذى شُحن من إنجلترا بالسفينة، بدا كعرش لائق لقراءة أخبار مايكل.

جاء فى الرسالة:

ابننا، مايكل روبرتس، قد قُتل مع فرقته فى عملية أثناء طيرانه فى سماء فرنسا من قبل العدو الذى يقبع بالأسفل. السيد روبرتس وأنا قد تسلمنا خطابًا رسميًا من مكتب الحرب فى لندن، بإنجلترا. ولقد أبلغتنا هذه الجهة الرسمية بأنه بينما كان ابننا، مايكل روبرتس، يؤدى واجبه تجاه الوطن الأم، فُقدت الطائرة التى كان على متنها. النص المنمق بدأ بالتدهور، اتزانه تحول إلى خربشة طفولية بكتابة تلك الكلمات: **"السيد روبرتس وأنا قد أُبلغنا من قبل مكتب الحرب المسمى هذا فى لندن، بإنجلترا، بأننا فى هذه المرحلة من الإجراءات نعتبر أن ابننا، مايكل روبرتس، قد فُقد رسميًا أثناء أداء الخدمة."**

عينا المديرة الغريبتان كانتا ثابتتين علىَّ عندما رفعت نظرى من على الرسالة. **"شكرًا لك، يا آنسة مورجان،"** قلت.

"هل كنت تعرفين هذا الشاب؟"

"أوو، نعم،" قلت، **" تربينا وكبرنا معًا."**

أومأتْ برأسها بطريقة حكيمة أصبحت أعرفها جيدًا. **"أنا مسرورة من رؤيتك تتحدثين عن الخبر بهذا السلوك المناسب. الانفعال الشديد لا يجدى فى تلك المواقف. الحزن الحقيقى هو الصمت."**

"أجل، يا آنسة مورجان،" قلت، **"أى أخبار عن مايكل روبرتس هى مصدر سعادة لأذنى."**

سعلت سعلة رقيقة وحركت ورقة من ناحية إلى الناحية الأخرى. **"لا أعتقد أنك فهمتِ مغزى هذه الرسالة جيدًا. هذا الشاب..."** قالت، ناقلةً الورقة إلى مكانها مرة أخرى.

"مايكل روبرتس،" قلت.

"**مـايـكل روبـرتس، نـعم. قد تم الإبلاغ بـأن هـذا الـشـاب مـفـقـود.**" تكلمت بهدوء، مؤكدة كل كلمة بنقرة صغيرة بالسبابة على الإبهام.

"**آوو، سيظهر حالاً.**" قلت مؤكدة لها. "**أنا أعرف مايكل. هو دائماً يذهب لبعض المداعبات المؤذية.**"

أمالت رأسها إلى الأمام، مغمضة عينيها، ووضعت يديها عليهما وأغلقتهما كما تفعل للصلاة. "**آنسة روبـرتس، الحرب مندلعة الآن. وعندما يتم إبلاغ عـائلة رجل فى الخدمـة بأن قريبهم قد فُقِد أثناء الخدمـة، فالنية هى تهيئتهم لخبر احتمالية وفاته.**"

"**الرسـالـة لم تـتحدث عن كونه مـيتًا.**" قلت، ولـكن هـاجس وفاته جعل يدىَّ ترجفان.

"**إن شاء الله هو لم يمت. لكن أعدى نفسك لهذا الأمر واطمئنى لحقيقة أن كثيراً من الناس، وأنا واحـدة منهم، نؤمن، بغض النظر عن لونهم، وبغض النظر عن عرقهم، بـأن الـرجـال الذين يـحـاربون لحماية بريطانيا العظمى من خطر الغزو الألمانى هم فعلاً أبطال بواسل ـ سواء كانوا أحياءً أم أمواتًا.**"

مدَّت يدها إلىَّ حتى أرجع لها الرسالة. ولكن قبل أن تنتقل من قبضتى إليها فعلتُ الشىء الذى كنت أخشاه ــ ابتسمت لى مباشرة. وفجأة بدت لى تلك المرأة بأنها خبيثة. خبيثة جدًا إلى درجة أننى وقفت مذهولة فاغرة الفم، فلقد تراخى فمى، وكأننى رضيع مرعوب ومرتجف يبذل الجهد لكى لا يبكى.

الفصل الخامس

هورتنس

في اللحظة التى رأيته فيها انزلقت ثمار البابايا من قبضتى، تكسر شحم الثمار البرتقالى الضارب إلى الزهرى على قدمى، ولطختها البذور السوداء الصغيرة التى تبدو كالحصى. ركب دراجته. أجبره هيكل الدراجة ـ الذى كان صغيرًا جدًا لا يستوعب ساقيه الطويلتين ـ على ثنى ركبتيه، فبدت ساقه تمامًا مثل ساق الضفدعة. ترنح بطريقة فيها خطورة، قارعًا الجرس ليحذر الناس من اقترابه الذى سيسبب الضرر، فمن الظاهر أنه لم يكن معتادًا على ركوب الدراجة. ركضتُ خلفه حتى لا أفقد أثره ـ تغلبت علىَّ نشوة السعادة التى ساورتنى فى الشارع فى حين أن لبّ البابابة اللزج أخذ يتسرب إلى حذائى. وناديت: "**مايكل، انتظر.**" العديد من الرؤوس التفتت إلى إلا هو. رفع جسمه من على مقعد الدراجة، واقفًا على دواسة الدراجة ليحركها مسرعًا.

انعطفتُ عند زاوية، الدراجة ملقاة ـ ظلت العجلات تلف ـ فى الطريق، منبطحة على الأرض كيفما اتفق وكأنه ترجل من عليها وهى مسرعة جدًا. كان يتحرك وسط الزحام: جماعة غوغاء من رجال متزاحمين فى السير فى الشارع، رجالٌ مشرئبو الأعناق، ليحصلوا على رؤية أفضل، طالبو السكوت، مصمكة على أسنانهم، يبصقون على الأرض، يدفعون بعضهم البعض فى ذلك المكان المكتظ بالناس. وهو يلكز الناس بكتفه برفق محاولاً الحفاظ على مسيرةٍ ثابتة وسط ذلك الحشد المجتمع. تبعته فى خطواته، وكأن هناك خيطًا موصولاً بيننا. وفى الحال أصبحت خلفه، كانت يدى، وأصابعى ممطوطة، على شفا أن تلمس كتفه عندما رأيت كرسيًا ـ جزءًا من كرسى، قرصًا ورجلين ـ أُلقى وطُرِح فى الهواء باتجاهى. وفجأة كنت أنظر إلى الأرض الوسخة، ووزنٌ ثقيل يطحن ظهرى وألمٌ فى ركبتى. أحدهم كان يغطينى، ضغطت يدٌ على رأسى، ورائحة عرق كريه ملأت فمى. ذبذبات صراخ مكتوم أتت من خلال ذلك الصدر الواقى بينما انسلت ذراعٌ حول خصرى ورفعتنى من على الأرض.

ثار الشارع وأصبح فى هرج ومرج. الرجال السود الذين كانوا يسيرون بانتظام منذ دقيقة مضوا الآن يصرخون، يلعنون، يقفزون، يشدون أجسامهم ليقذفوا الحصى والحجارة والخشب الذى قذف عاليًا فى الهواء. ثم يطأطئون برؤوسهم بسرعة ويثبون ليتفادوا الرد الذى أتاهم بزجاجات مكسورة وأجسام حادة وقد رُدت لهم ككرة الفولى. انحنى رجلٌ، شُجَّت رأسه، والدم يسيل على قميصه الممزق، ليلتقط قطعة مكسورة من زجاجة ويقذفها بطريقة عادية جدًا وكأنها لعبة كرة. وتعالت على هذا الشغب كلماتٌ طنانة جدًا غير مفهومة ومشوهة راحت تهدر من مكبر للصوت.

تم رفعى وسط تلك الفوضى. بحثتْ قدماى على موضع لكى أستطيع الجرى على الأرض ولكن بلا جدوى. ولكن حوّط علىَّ بشدة كالعقدة. ثم، فجأة، عند الزاوية، عمَّ السلام والهدوء. أناس ذاهبون إلى أعمالهم غير مدركين بالفوضى التى يمكن ملاحظتها على طول الشارع المجاور. وفى هذا المكان المتناغم كان المشهد غريبًا.. متسخًا بالتراب حاملاً امرأة ناضجة تقطر ركبتها دمًا قرمزيًا. أنزلنى برفق على الأرض وتمكنت من رؤية وجهه. إنه هو. إنه ذلك الرجل الذى اعتقدت أنه مايكل. لكنه لم يكن مايكل. كان رجلاً غريبًا.

"**ماذا تفعلين وسط هذا التجمهر؟ إنه ليس آمن،**" قال.

"**ابتعد عنى،**" رددتُ. كان لون بشرته أغمق من بشرة مايكل. وأنفه أعرض من أنف مايكل. وشفتاه أغلظ من شفتى مايكل. وعيناه أكثر استدارة من عينى مايكل. وكان شاربه أكثر كثافة، ولم تكن ابتسامته ملتوية.

"**هل تأذيت؟**" قال، وهو يتأمل ركبتى التى تنزف.

كشف فمه المفتوح عن سنّة ذهبية لمعت من الداخل. كان بوسعى أن أصرخ. نترت يده بعيدًا حيث حاول لمس رجلى المصابة. كيف ظننت أن ذلك الرجل السمج هو مايكل روبرتس. "**لماذا كل هذه الجلبة؟**" وجدتُ نفسى أرتعش. الكلمات لم تخرج بمقدار المجهود الذى استدعيته لها ـ بل كان صوتى مضطربًا.

"**بوستا(*) يتحدث.**" لم تكن لدى أيّة فكرة عن ماذا يتحدث هذا الرجل؟

(*) بوستا: اختصار لاسم (Sir William Alexander Clarke Bustamante) قائد سياسى والبطل القومى فى جامايكا، وعمدة كينجستون فى ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨

"اتيت فقط لأسمع ماذا عليه ان يقول. لكن في كل مرة نجتمع تقع تلك السخافات العنيفة."

لم أكن مهتمة بالشرح الذى قدمه.

قال صارخًا: "قدمك،" وتكشر وجهه: "لقد هُرست رجليك."

وبهدوء قلت له: "إنها بذور البابايا."

وللحظات حدق بوجهى وكأنى قد فقدت رشدى. "البابايا؟" سألنى.

"نعم،" أجبته، لم أعط ذلك الرجل أى تفسير.

لمعت سنّته الذهبية وهو يبتسم. "الم تقل لك أمك أبدًا بأن ثمرة البابايا طريقها هو إلى فمك وليس إلى رجليك؟" وتحولت تلك الابتسامة إلى ضحكة خافتة على نكتته.

ركض شاب نحو المعركة ـ يداه مدججتان بحجرين كبيرين وبعض غصون من شجرة ـ فتعثر، فانكبت حمولته أمامنا. وانسكب من فمه سيل من الشتائم، أفسدت الجو من زناختها. فقبض الرجل الذى لم يكن مايكل روبرتس على ذلك الرجل الشتام وجذبه من حلقه. كان يفصل بين أنفيهما بوصة واحدة فقط، وقال: "الا ترى أن هناك سيدة واقفة هنا؟ أطبق فمك." خفت من أن تبدأ مشاجرة بينهما أمامى. أعتق الرجل الذى لم يكن مايكل روبرتس حلق الرجل الشتام، ثم دفعه، وللحظات وقف هذان الرجلان يزمجران مثل الحيوانات المفترسة، حتى رجع الرجل اللعان الخائف إلىَ الوراء وركض بعيدًا.

نظر الرجل الذى لم يكن مايكل روبرتس إلىَّ وقال، "آسف، يا آنسة، لأنك سمعت هذه الألفاظ." وذلك قبل أن يشد انتباهه مرة أخرى الهياج الذى كان واقعًا فى الشارع المجاور.

"انصرف،" قلت، "فأنا بخير."

"هل انت متأكدة؟ استطيع تركك هنا؟ لن ترجعى مرة أخرى وترمى الزجاج وتهاجمى الرجال؟" وللمرة الثانية يضحك على نكتته وهو ينصرف. وعندما أدار ظهره لى عند العطفة اضطررت أن أهز رأسى وأنا واقفة فى وهم الاعتقاد بأنى قد رأيت مايكل مرة أخرى.

سهرت طويلاً أترقب رجوع مايكل بعد انتهاء الحرب. بالونات الاحتفالات فقدت ما فيها من الهواء، الشرائط ذهب بريقها. وتوقف الناس عن الحديث عن نقص الأرز، وكم كانت الأيام بائسة عندما نفد فيها اللبن المكثف! ومن أعلى سفوح التلال تُشاهد القوارب وقد رست. وحتى إذا رأيتها، من تلك المسافة البعيدة، وسط الزحام تنزل من السفينة، لكنت رأيتها كشعاع دقيق من النورعلى جدار كهف. أولئك الرجال الذين ذهبوا للحرب بمعنويات مرتفعة ها هم قد عادوا وهم يتلَفَّتون حول أنفسهم مرتبكى الذهن كالمذنبين. يتفحصون المكان المحيط بهم كما لو كان مكانًا غريبًا عنهم، وهم مرتدون ستراتهم غير الملائمة أو زيهم الرسمى الذى قريبًا لن يكون ملكًا لهم. ترجف أقدامهم مترددة للحظة عندما تحط على رصيف الميناء. الأمهات ضمت هؤلاء الأبناء إلى أحضانهن. بينما نظرت الزوجات الخجولات إلى رجالهن العائدين بنظرة كلها ذنب. بينما كان الرجال فعلاً لم يصلوا بعد.

كيف يبدو مايكل وهو راكب الطيارة؟ ليس لدى أى صورة لأستحضر شكله فى ذهنى. هل كان يعمل نقّابًا ـ يبذل كل مايستطيع ليتبين التواءات شاطئ ما من تحته؟ أم هل كان ينظر بحدة أمامه فى فضاء السماء يحمى عينيه من شعاع الشمس وهو يعد السحاب الذى يمر أمام نظره؟ فى إنجلترا البيوت متقاربة من

بعضها بعض، كما أُخبرت، فمن الممكن النظر إلى دار جارك المجاور والمقابل. آكان هناك من يحدق من النافذة ليرى مايكل يرشف كوبًا مليئًا بالشاى الساخن؟ هل النافذة مفتوحة، يداعب النسيم ذقنه، أو الزجاج مغلق تكثف عليه المطر؟ ماذا يفعل مايكل عندما يشعر بالبرد؟ هل يرتعد من البرد، ينفُض جسمه مثل الكلب الذى خرج من تحت سيل مياه، أم هل قام منتصبًا، متلفحًا بمعطف دافئ سميك؟ فى خيالى مايكل روبرتس ـ بشاربه الرفيع وابتسامته المعقوفة ـ لا ينتمى إلى أى مكان إلا إلى هذه الجزيرة الكاريبية.

الفصل السادس

هورتنس

دائمًا كان يراودنى حلم أن أجد فرصة عمل فى التدريس فى مدرسة كنيسة إنجلترا فى كينجستون، حيث كانت هناك البنات ذوات البشرة الفاتحة فى زيهن الجديد النظيف قد تجمعن ليشربن من نبع المناهج الإنجليزية. ولكننى قابلتُ مدير هذه المدرسة العابس فى المقابلة الشخصية للحصول على تلك الوظيفة، لم يكن مهتمًا بالمؤهلات التى حصلت عليها، ولكن كان مهتمًا بحقائق نشأتى. استدعيت أسماء أعمام أبى وأخبرته عن لوفيل روبرتس، أبى، رجل ذى شخصية، رجل ذى ذكاء، نبيل بطريقة ما جعلت منه أسطورة. هز المدير رأسه عن غير قصد وسألنى عن أمى، وجدتى. والنتيجة التى توصل إليها - بالرغم من أنه لم تُقَلّ أية كلمة عن الموضوع بيننا - هو أن نسبى لم يكن مناسبًا بما فيه الكفاية له ليعتبرنى جديرة للوقوف فى فصولهم الأنيقة أمام تلميذاتهم بنات الطبقة العليا. كانت سيليا لانجلى صديقتى القديمة فى الكلية هى

التى ساعدتنى للحصول أخيرًا على وظيفة التدريس فى فصول وسخة فى مدرسة أبريشية هاف واى ترى.

وفى خلال الأسابيع الأولى، كانت يدى تمسك بسيليا بشدة كما كان الحال عند مقابلتنا الأولى فى غرفة الاستحمام فى كلية إعداد المعلمات. كان شائعًا فى المدرسة أن يصطف الأولاد الصغار ليضعوا الهدايا أمامها كل صباح. وكانت البنات الصغيرات يتدافعن ويتزاحمن حتى يجلسن بالقرب منها فى مقدمة الفصل. وهمست المعلمات الأخريات لى كم أنا محظوظة لنيل خبرة سيليا الإرشادية! حتى المدير طلب منى مراقبة وتعلم كل شىء تفعله سيليا. ولكن لم يكن خيارى الأول، أو الثانى، أو الثالث الرجوع لمدرسة الخبثاء تلك. فشبح بركيفال برون وتلك الوجوه السوداء الشريرة العابسة أمامى لبقية أيامى جعلتنى أشعر بالإعياء. فلقد خابت كل أحلامى السامية وأصبحت عذابًا يبعث على الشفقة.

"إن تصاريف الرب سرٌ من أسراره المعجزة، وتكمن عجائبه فى قدره." قالت سيليا محاولة إراحتى.

"بالتأكيد هو يفعل ذلك، يا سيليا، بالتأكيد هو يفعل ذلك." قلت.

لم يكن هناك شىءٌ مبهمٌ لى أكثر من: كيف، بحق الله، لامرأة مثلى أنا أن تجد نفسها مقيمة فى بيت عائلة مثل آل أندرسون؟! كانت زوجة مدير المدرسة —سيدة لم تنل تعليمها فى مدرسة داخلية فى أسكتلندا فحسب، بل كانت مشهورة لكونها تلقت دعوة لشرب الشاى مع أفراد العائلة الملكية ـ هى التى أبلغتنى بوجود غرفة فى بيت إحدى العائلات المحترمة. وكنت على قناعة بأن هذه التوصية ستجعلنى أسكن مع أناسٍ كرام. وبدلاً من ذلك سرعان ما

حُوصرت بحركات سخيفة سمجة من هذه العائلة الفلاحة الفظة. كنت مصدومة جدًا، أتساءل: هل بسلوكهم غير المهذب هذا أستطيع دعوة سيليا عندهم على مائدة الطعام؟ فقد تشهد بنفسها على أخلاق هؤلاء الأشخاص الهمجية.

شرعت المرأة العجوز، روزا أندرسون، فى أكل دجاجتها. ممسكة الطائر المطبوخ بيديها المتعَجِّرتين، ثم قامت بإخلائه من اللحم بأسنانها المتبقية فى فمها، كانت تقرضه بنهم حتى أصبح مجرد عظم رمادى. ثم أخذت تمص، وتمص، وتمص بصوت عالٍ كصوت الماء المتدفق من مصرف مياه معيب، فى حين تصرفت سيليا وبقية العائلة وكأنهم لا يسمعون تلك الضوضاء المقززة.

وأخبرت السيدة أندرسون، كنَّة روزا، سيليا وبينما الطعام الذى وضعته للتو فى فمها ظاهر، وبتفاصيل دقيقة محرجة، عن ولادة ابنيها التوءم. لقد قُذفا خارجًا، وبرشاقة التقطتهما المرضة، إنهما هذان الولدان، ليونارد وكلينتون، يبدوان متطابقين جدًا لدرجة أننى أتساءل مع نفسى عن ضرورة وجود كليهما. وباهتمام كبير بولديها الصغيرين تُقطع السيدة أندرسون لهما الطعام، وتداعبهما بخطف قطع من الطعام من أطباقهما، وتغمز خدودهما. ثم بعد ذلك، وبدون أية مقدمات، نهضت من على مقعدها، وحضنتْ هذين الولدين، وغمرتهما بقبل مدهنة كان صوتها عاليًا بينما تدغدغهما قائلة: **"أنتما لذيذان لآكلكما ـ فقط أعطيانى قبلةً على الرقبة."**

أما السيد أندرسون فقد دفع مائدة الطعام بعد الانتهاء من أكل الوجبة ثم هز كتفيه، يطقطق بأصابع يدٍ واحدة وباليد الأخرى كان يضع الأسطوانة بعناية. إنه الجاز.

"يعجبك الجاز، يا سيليا؟" سأل.

كان السيد أندرسون يعمل مأمورًا بالأشغال العامة ـ موظف حكومة، فلقد أخبر سيليا بذلك بكل فخر، ولكنه، بقدر ما أستطيع أن أقول، يقضى كل يوم من أيام الأسبوع يحدق ويحك رأسه جالسًا فى أزقة الشارع. ربتت سيليا بقدميها على الأرض من سماع الضجيج الذى كان يخرج من الجرامافون، ولكنها برقة اعتذرت عن عرض الرقص. لم تُجْرِ هى أى حوار على المائدة، اكتفت بالابتسام أو بإيماءة رأسٍ أو مناولة شىء من على المائدة أو المضغ كما يقتضى حسن الأدب. وعندما كنا وحدنا مالت علىَّ لتقول لى: **"لكننى أحببت هذه العائلة جداً."** وأيضًا أحببتك يا سيليا هذه العائلة جدًا لدرجة أن السيدة أندرسون، التى أضجرتنى وعذبتنى بكثرة إلحاحها علىَّ أن أناديها ميرتل، دعتها لتناول الغداء معنا فى أوقات عديدة أخرى.

"يا هورتنس، ربما يجب أن تأخذى وقتًا لتتعرفى على عائلة أندرسون،" نصحتنى سيليا. ولكنها ليست هى من تضطر للعيش وسط قهقهاتهم تلك.

"حسنًا،" تسأل السيدة أندرسون سيليا: **"أنت بنت جميلة، يا سيليا، أليس لديك رجل؟ أقصد شخصًا ما تخرجين معه؟"**

احمرت سيليا خجلاً، وبذكاء ألقت بكذبة صغيرة قائلة: **"آو، كلا، ياميرتل."**

وذلك لأنه أنا، وأنا فقط، من كانت دائمًا تتكلم سيليا معه عن رجل القوات الجوية الملكية التى أصبحت ودودة معه. كان فى خضم الحرب فى إنجلترا. ولم تكن معارفه مقتصرة فقط على البنادق والغارات الجوية ولحوم البقر المعلَّبة، ولكن أيضًا فى الرياح الشتوية التى تهب عبر المروج الإنجليزية مُجمِّدة شعر شاربه فيصبح قاسيًا

لدرجة أنه يمكنه أن يقصم أطرافه الهشة اليابسة. لا تستطيع التحدث عن أى شىء آخر غير ذلك. عادة ما كانت تبدأ حديثها قائلةً: "**هل أخبرتك، يا هورتنس؟**" بهمسها المعهود، قبل أن تخرج أوصاف عينيه، فمه، يديه، شعره من فمها بانبهار وإسهاب. نبرة صوته، قالت، فيها هزج خفيف ورخامة عميقة ناعمة. وكلما تحدثت عنه تهيم عيناها حالمةً، وتحتضن جسمها بيديها بشدة وهى تميلُ يمينًا وشمالاً.

لقد قابلته فى محل عندما سألها: "**معذرةً، هل أعرف أختك؟**" وبالنسبة لها، نسيت بأن ليس لديها أختٌ، فأخبرته باسمها. قالت سيليا إنه ابتسم واعترت وجهه مئات العلامات من السعادة. لمعت عيناه تمامًا مثل زجاج مصقول، كان ساحرًا مثل أمير. هو برج الأسد وهى من برج الحمل. وهذا يجعلهما، كما أكدت لى هى، مناسبين لبعضهما البعض. "**الرجل الأسد دائمًا يريد أن ينطلق بعيداً، وكذلك المرأة الحمَل من نفس الطبيعة.**"

ولكن ما يثيرها فى هذا الرجل أكثر من أى شىء آخر هو ما طربت له نفسها من معرفة نيَّته بتأسيس حياة فى إنجلترا. تستطيع أن ترى نفسها أخيرًا تقرع جرس تلك البناية الطويلة. "**يريد العودة إلى إنجلترا فى أقرب وقت.**" قد تبحر بعيدًا من هذه الجزيرة بأمان، ممسكة بذراع ذلك الرجل الوسيم من القوات الجوية الملكية، إلى مكان أخبرها هو بأن كل مَنْ هناك يمشى على بساط من الذهب.

"**حسنًا، يا سيليا،**" قلت لها: "**يجب أن تعرفينى بذلك الرجل الذى سيأخذك بعيداً عن هنا.**"

كان رجل سيليا فى القوات الجوية واقفًا، متكئًا على الجدار، وبلا اهتمام يقلب صفحات الجريدة، ومع ذلك يطالع الأخبار بتركيز

مما جعله غافلاً عن اقترابنا. همست لى بصوت ظهر فيه الابتهاج الغامر، وللحظات سحبتنى للوراء قائلة: "هذا هو." رفع هذا الرجل يده ودفع بإصبع فى أذنه. فغضن وجهه بشدة فى محاولة للحفر عميقًا فى ذلك التجويف، وبدا كما لو كان يقتل ذبابة تطن بالداخل. وعندما أزاح إصبعه، ناقرًا بعناية طرفه الأعلى ثم ماسحًا إياه فى بنطلونه، تعرفت عليه.

"**طيب، مرحبًا مرة أخرى**،" قال ذلك الرجل ـ ليس لسيليا بل لى أنا.

سألتْ سيليا، وهى محتارة، بصوت فيه صرير: "**هل التقيتما من قبل؟**"

سمعت صوتًا خاليًا من الجمال ـ لم يكن عميقًا عندما قال الرجل: "**إنها المرأة التى تحب أن تضع ثمرة البابايا فى قدميها.**"

اعترضتُ قائلة: "**أنا لا أفعل. أنا دهست على الفاكهة عن طريق الخطأ**،" فى حين كانت عينا سيليا مثبتتين علىَّ تريد تفسيرًا لذلك.

ولكن الرجل استمر فى الهذر. "**دهست عليها؟ دعينى أخبرك، ياسيليا عن هذه المرأة. لكن انتظرى، أليست هذه هى صديقتك التى حدثتنى عنها ؟**"

أومأت سيليا برأسها، محاولة أن تقول: "**نحن ندرس فى نفس..**" قبل أن يعود ذلك الرجل للكلام مرة أخرى.

"**حكت لى سيليا عن صديقتها العزيزة، وها هى أنتِ. يا سلام!**"

مصمص أسنانه، وهز رأسه وقال: "**أنتِ. إذن هل تتذكريننى؟**"

لم أرد عليه. الأمر الذى لم يثنه عما يقوله.

"سيليا، دعينى أخبرك كيف قابلتُ تلك المرأة. كان فى يوم حديث بوستا، عند مكتب الشركة. هل تعرفين بوستا؟ بوستامينتا؟ الكل يعلم من هو بوستا. حسنًا، كان حديث بوستا. وفجأة اندلع شجار. أى شىء يمكن أن يُلتقط كان يطير عاليًا فى الهواء. يااه، عم الارتباك، الكل يركض فى هذا الاتجاه أو ذاك. وهناك فى وسط تلك المعركة الحامية الوطيس كانت هذه السيدة. بدت وكأنها تتمشى على مهل ذاهبةً للكنيسة مرتدية أحسن قبعة عندها. ولهذا أنقذتها."

"أنقذك أنتِ؟" سألت سيليا.

"ماذا فعلتَ أنت لى؟" صرختُ قائلة له. "لم أكن أحتاج إلى الإنقاذ."

"آووه، على ما أتذكر الموقف كان عبارة عن قفزة فوق رأسك الجميلة هذه، وطرحك أرضًا."

"أنقذك أنتِ؟" سألت سيليا مرة أخرى.

"نعم، أنقذتها. ولكن النظرة التى على وجهها جعلتنى أقلق من أنها ستلتفت إلى وتعضنى."

"وماذا عن البابايا؟" أرادت سيليا أن تعرف.

"أنا سعيد، يا سيليا، أنك سألتِ عن البابايا؛ لأننى متأكد أن صديقتك لم تخبرك بأنها تحب أن ترتديها فى رجليها."

انتظرنا كلانا بهدوء حتى ينتهى هذا الرجل من الضحك على نكتته. لقد أخبرتنى سيليا عنه الكثير ولكن الشىء الذى لم تستطع أن تقوله عنه هو أنه أحيانًا عندما يضحك ـ رافعًا ذقنه ومبعدًا شفتيه، وعندما يصفع بيده على رجله ويهز رأسه —يكون شديد الشبه بمايكل.

"لقد قيل لى إنك فى القوات الجوية الملكية؟" سألته.

"صحيح، ولكن اهمسى لى ماذا أيضًا قالت لك آنسة سيليا عنى؟"

كانت سيليا خجلى جدًا لدرجة أننى اعتقدت بأنها قد تختفى.

"هل كنت فى إنجلترا؟"

"لقد قلقتَ الآن. هل لديك سؤال لى، يا آنسة يا صاحبة القدم اللزجة؟"

"هل أنتَ على معرفة بمايكل روبرتس؟"

"من؟"

"مايكل روبرتس. كان أيضًا منضماً للقوات الجوية الملكية. كان مقاتلاً جوياً."

"حبيبك؟"

لو أنه لم يبتسم مُشدقًا فمه مثل الولد الأبله عندما سأل السؤال لكنت أجبته. ولكنه فعل ذلك، ولهذا لم أجبه. ثم، فجأة فاحصًا وجهى وكأن هناك قصة مكتوبة عليه ظهرت عليه علامات الوقار. **"كان هناك الكثير من الجامايكيين فى القوات الجوية الملكية، ولكننى لا أعرف مايكل روبرتس. هل أخبرتنى المزيد عنه؟ أين عُيِّن؟ قلتِ إنه مقاتل جوى، أتعرفين فى أى كتيبة هو؟"**

قلتُ كلا بصوت ضعيف، ثم نظرت إلى قدمى خوفًا من أن يسألنى سؤالاً آخر لا أعرف إجابته فأبكى. ولم يلبث أنْ ملأت ثرثرته الصمت الذى ساد بسبب الارتباك.

"حسنًا، سيليا، والآن وقد عرفتِ كل شىء عن صديقتك المجنونة وسلوكها الغريب للغاية، هلا عرفتنا ببعضنا البعض؟"

"إنها هورتنس روبرتس؟" قالت سيليا بهدوء.

"آووه، إذن مايكل هذا أخوك؟" وبينما لا يزال ينظر إلى وجهى سأل قائلاً: **"سيليا، تستطيعين أن تقولى شيئًا طيبًا عنى لصديقتك؟"**

ابتسمتْ، واسترخت من جديد، قائلة: **"يا هورتنس، أقدم لك الرجل الذى قد يكون أنقذك أو قد لا يكون أنقذك من شىء ما. إنه جلبرت جوزيف."**

صاحبتُ سيليا فى عدة مناسبات أخرى حيث كانت تتأنق فى اللباس استعدادًا لمقابلة ذلك الرجل. آووه، كم ملّت أذناى من سماع عباراتها المتكررة.

"يا هورتنس، يومًا ما سوف أذهب لأعيش فى إنجلترا."

"أعرف، يا سيليا لانجلى، لقد قلت لى ذلك من قبل!"

سوف تعيش هناك. وسوف تفعل ذلك. إنجلترا، إنجلترا، إنجلترا كانت كل ما تتحدث عنه. لقد أجهدتنى وأضجرتنى بأحاديثها تلك. ولكنى على يقين بأنه عندما يحين ذلك اليوم فلن تفكر فى أن تترك صديقتها وحدها فى تلك المدرسة الأبريشية الحقيرة تلك وهى تبحر عبر المحيط فى يد رجلها الضخم الطويل. وكان جلبرت يفرح بوجودى ليس لأى سبب آخر غير أن أفكاره العظيمة سيكون لها مستمعون أكثر من سيليا.

فى ذلك اليوم مشى فى الوسط بيننا عبر المنتزه، يبدو كرجلٍ قد امتلك القمر والنجوم للتو. **"هل تلاحظان كيف يحسدنى كل رجل. يقولون إنه لرجل محظوظ. امرأتان جميلتان. أكيد لديه شىءٌ ما لا نملكه."** وبالطبع، ضحك، ثم أفسح ما بين كوعيه لنا لنسلت

ذراعينا خلالهما. كانت سيليا تمسكه تلك المسكة ولكننى لم أمسكه.

"هيا، يا هورتنس،" ألح على: "اتريدينهم يقولون لقد فقد تأثيره؟"

ثم راح يتكلم. تكلم بدون كلل ولا ملل، أحيانًا تكون البداية بسؤال لسيليا وأنا وكأن مناقشة ستبدأ. **"دعونى أسألكما سؤالاً،"** قد يقول. ولكنه لا ينتظر إجابة من إحدانا. ولا ضرورة لتشجيعه للحديث ـ فهو ببساطة يجيب عن نفسه ويستمر فى الكلام. ضاق صدرى من الاستماع لهذا الرجل. وكان كل كلامه، وكل ثرثرته عن موضوع واحد فقط.

"هل أسألكما هذا السؤال ـ هل رأيتما صورة لمبنى البرلمان فى لندن؟ ياله من منظر! دعونى أخبركما عنه. عندما تقفان أمامه، يبدو للعالم كله مثل قصر من الخيال. ستعتقدان بأن التنين سيتنفس النار عليكما على الفور. ينبغى عليكما رؤيته."

كانت سيليا تضطر أن تزيح يدها من على مرفقه المثنى عندما يتطلب انفعاله فى سرد حكاياته التلويح بذراعه لزوم التأثير. **"وأعمدة نيلسون. هل سمعتما عن أعمدة نيلسون؟ رجلٌ ذائع الصيت وضعوه فى مكان عالٍ جداً فى السماء، لدرجة أن رقبتيكما قد تتيبسان من النظر عالياً إليه. وبالكاد تستطيعان رؤيته. أحيانًا عندما ينتشر الضباب، يتلاشى تماماً ـ فقط الحمام يمكن أن يشعر بوجوده هناك."**

ونحن نمشى عبر ظل منقط لشجرة انحنى والتقط ورقة شجرة يابسة من على الأرض. وصار هادئًا عندما وضع الورقة فى راحة

يده. وبينما كان يتأمل الورقة التى فى يده وصف بصوت ـ غير متوقع الرقة، تكاد تكون به نغمة ـ كيف أن الأشجار فى إنجلترا تتساقط من عليها الأوراق قبل شهور الشتاء. كل ورقة على كل شجرة تتحول إلى أحمر فى بادئ الأمر ثم تتحول إلى الذهبى. مع الرياح أو مع مرور الوقت فإن تلك الأوراق المبهرة تتساقط من على الأشجار مغطية المنتزه، والحدائق، والأرصفة ببساط من الذهب. "وتستطيعين المشى عبر تلك الأوراق الخريفية. فهى فى كل مكان. الأولاد يركلونها عاليًا فى الهواء، أو يلتقطون حفنة فى أيديهم ثم يلقونها لتطير مع الرياح. كل واحد يفعل ذلك. كل واحد يشعر بالسرور من منظر الأوراق التى تطفو من حولهم مثل مطرٍ ذهبٍ." ثم رفع راحة يده، التى تحمل ورقة الشجرة البنية، واقترب من سيليا، قائلاً: "تخيلى هذه فى كل مكان."

"آووه، أحب أن أرى ذلك." قالت سيليا.

فى تلك اللحظة، ألقى جلبرت الورقة فى الهواء، مادًا يده على مصراعيها وقال: "إذن تعالى الآن معى إلى إنجلترا، يا سيليا."

اتسعت عينا سيليا وأصبحتا مثل عَيْنَى كلب صغير يمرح. "هل أذهب يا هورتنس؟" قالت وهى تضحك.

أمسك بيدها فى يده، "سنغادر فى السفينة المقبلة."

"وماذا عن فصلى؟"

"صديقتك هنا تستطيع أن تُدرس لفصلك بدلاً عنك،" قال جلبرت مداعبًا. "ستعتنى هورتنس بكل شىء ـ أليس كذلك، يا هورتنس؟ سوف تكتب لنا عن الأعاصير والزلازل والنقص فى الأرز على هذه الجزيرة الصغيرة، بينما نحن نشرب الشاى ونبحث عن نيلسون على العمود الذى يقف عليه. هل ستأتين يا سيليا؟"

برقت عينا سيليا و كأن نورًا قويًا يتلألأ فى عينيها. "سوف أذهب،" قالت.

ورد جلبرت: "جيد."

بدا كل شىء وكأنه متفق عليه بينهما، ولهذا شعرتُ بأنه من المهم لى أن أسأل قائلة: "وماذا عن أمك، يا سيليا؟ وهل سأرعاها هى أيضًا بدلاً عنك؟"

انطفأ النور المتلألئ فى عينيها بغتة. ووقفت صامتة تمامًا مثل الحجر.

"اجلبى أمك معك. سوف نجدف معًا فى نهر التايم." ضحك جلبرت قبل أن يلاحظ عَيْنَىْ سيليا الثابتتين على وجهى بدون أن تتحركا. "أو نتركها،" قالها ببطء، ناظرًا إلى سيليا أولاً ثم إلى. "ما خطب أمك يا سيليا؟" سأل.

"أم سيليا ليست على ما يرام." قلت له. نظر إلىَّ نظرة عدم مبالاة. وأنا نظرت إلى سيليا حتى تُقدم تفسيرًا إلى هذا الرجل لطبيعة حالة مرض أمها. ولكنها لم تفعل. وبدلاً من ذلك نكست بصرها إلى قدميها. ولهذا تُرك لى الأمر بأن أحكى لهذا الرجل عن أمها، والحادث مع الطيار فى الاستعراض العسكرى. أصبحت بعض أجزاء الحكاية مشوشة فى ذهنى. متى سقط الشعر المستعار؟ كم عدد الطيارين الذين حاولوا شدَّها للوراء؟ ومقدار المسافة التى قطعناها ركضًا خلفها قبل أن يسقط من عليها أحد الفستانين اللذين ارتدتهما، طلبتُ من سيليا أن تساعدنى لتقديم تلك التوضيحات ولكنها رفضت النظر إلى وجهى. وكان من الجيد ختم الحكاية بإخبار جلبرت عن سبب عدم قدرة أم سيليا مرافقتهما إلى

إنجلترا وهو كونها لسوء الحظ امرأة مجنونة للغاية. نظرتُ من بينهما عندما ساد الصمت بعد انتهاء الحكاية.

"أنا آسف لسماعي هذا الكلام عن والدتك،" قال جلبرت.

رفعت سيليا رأسها إليه مع ابتسامة صغيرة خاطفة. فقلت: **"أجل، أنا أيضًا آسفة لها."** ولكنها لم تبتسم ابتسامة امتنان لى.

الصمت الذى أعقب ذلك جعل جلبرت يحك رأسه متحرجًا وعندها قال فجأة: **"سأرى إذا وجدت بعض الكريمة المثلجة؟"** انصرف ذلك الرجل قبل أن يتسنى لى إخباره بأننى لا أحب ذلك الشىء المثلج.

كنت على وشك قول شىء طيب لسيليا، نسيت ما هو ولكن شيئًا ما لأواسيها به، حينها رفعت سيليا وجهها إلى، كانت عيناها تنذران بالشر. زمَّت شفتيها الغليظتين وتجهمت غاضبة غضبًا ذميمًا. ولم أر قبضتها التى اندفعت من خلفها بكل عزمها وضربتنى فى رأسى. كانت الضربة عنيفة حيث إننى بالكاد أزلت قدمى ورجعت للوراء خطوات من الدوار. وعندما استطاعت عيناى التركيز تبين لى بأن صديقتى سيليا انصرفت بغطرسة بعيدًا عنى بأقصى سرعة.

"يا سيليا،" حاولت أن أناديها، إلا أن تلك الفتاة الخبيثة جعلتنى أُناديها بأعلى صوتى بدون جدوى.

الفصل السابع

هورتنس

ثلاثة أسابيع هو كل ما يتطلبه الأمر لإبرام عقد الزواج المنتظر. لدينا الوقت الكافى له. ثلاثة أسابيع ويوم هو كل ما تبقى للسفينة لتبحر إلى إنجلترا. شرع القسيس الذى أجلسنا على مقعد خشبى طويل فى الإبريشية الصغيرة فى تذكرتنا، بتعبيرات تشبه موعظة شعائر يوم الأحد، بأن الزواج مقدس. يشهده الله، ولهذا يجب ألا يدخله الفرد من غير رويَّة وتأنٍ.

أومأ جلبرت برأسه كالأبله والقسيس مسترسل فى كلامه. ورمى برأسه للوراء، ونظر إلى سقف الكنيسة، عندها وجه إليه هذا السؤال: "**منذ متى أنت وعروس المستقبل تعرفان بعضكما؟**" ربت على جانب وجهه بأصابعه، متمتمًا: "**الآن دعنى أفكر...**" وتلكأ طويلاً عن قصد فى الرد فأكمل القسيس موعظته بدون إجابة شافية. وبينما يتحدث القسيس عن السعادة من رؤية شخصين فى مقتبل الحياة يشرعان فى بدء حياتهما معًا.. تلك الحياة التى تقام

على الرعاية والحنان بعد فترة من الهزات العنيفة التى ليس لها نظير، نظر جلبرت خلسة، وهو سعيد باحتياله، وغمز لى.

"تتزوجان!" صاحت السيدة أندرسون. "ولكن منذ متى وانتما الاثنان تعرفان بعضكما؟"

"آووه، الآن، دعينى أرى... خمسة ايام،" قال جلبرت.

"ستكون ثلاثة أسابيع وخمسة أيام عند إتمام زواجنا." وضحت لها.

"وسيكون ثلاثة اسابيع وستة ايام قد مضت عند إبحارى إلى إنجلترا لرؤية المكان ليكون مناسباً لقدوم زوجتى الجديدة،" أضاف جلبرت.

عمَّ صمتٌ رهيبٌ على المائدة —حتى إن المرأة العجوز أوقفت مص عظم دجاجتها لتحدق فينا. وفجأة دفعت السيدة أندرسون كرسيها للوراء، وقفزت من على مقعدها ولفت ذراعيها حولى قبل أن تذهب لجلبرت وتحتضنه بقوة لدرجة أن رأسه اختفت فى ثنيات صدرها.

"حسنًا، اتحب الجاز يا جلبرت؟" كان ما أراد السيد أندرسون معرفته.

الرجوع إلى إنجلترا كان بمثابة الحلم لجلبرت جوزيف. كانت بمثابة مهمة نداء، لا بل بمثابة فرض. كان هذا الرجل كثير الحركة لا يستطيع البقاء بدون حركة. دائما كان يشوب القلق وعدم الصبر صرعته ـ مثل ولد نكد منتظر دوره فى لعبة الكريكت. لقد أخبرنى بأن الفرصة فى إنجلترا نضجت بكثرة تماما مثل الفاكهة على أشجار جامايكا. وسيكون هو الرجل الذى سيقطفها.

"هل مازال أخوكِ هناك؟" سألنى.

"أخى؟"

"مايكل هذا الذى سألتنى عنه من قبل - أخوكِ - ما زال فى إنجلترا؟"

"ربما يكون هناك،" أخبرته.

"طيب، يجب أن تعطينى عنوانه حتى أستطيع أن أجده لك."

ولكن ذلك الرجل صاحب الأفكار العظيمة لا يملك مالاً. لقد صرف كل ماله على النحل، لقد اعترف لى.

"على النحل؟" سألته.

لديه بعض الاعتقادات المجنونة بأن العسل ينتج مالاً. ابن عمه فى سانت مارى أقنعه بأن عملية تربية النحل عملية سهلة للغاية. كل ما عليه فعله هو إعطاء ابن العم هذا المال لشراء خلايا النحل، والبرطمانات، والعلامات المطبوعة، وفورًا سيرسل المال الذى جاء من العسل إلى جلبرت بإنجلترا على جناح من السرعة.

"ولكن،" أخبرنى قائلاً: **"فقد ابن العم هذا النحل."**

"كيف تفقد النحل؟" سألته.

وماذا كانت إجابته؟ قال: **"ليس بالأمر السهل، ولكنه يمكن أن يحدث."**

لم تردعه تلك الانتكاسة عن شىء. كانت لديه فكرة أخرى لصنع المال. إنها بطاقات البريد. السائحون، أخبرنى، الذين يتدفقون إلى هذه الجزيرة من أجل الشمس والروم يحتاجون بطاقات البريد

وصور، مناظر عديدة لعجائب جامايكا لإرسالها لعائلاتهم فى الديار. وعن طريقها وبكل مهارة سيُشحن بالبريد إلى إنجلترا. باع بطاقتين. وكلتاهما كانتا لجامايكيين أبكاهما تذكر أماكن صباهما التى فى الصور. وكانت النقود التى جناها تخشخش فى جيبه. ومع هذا لم يتكدر باله. وإنما قال لى بأن لديه خطة أخرى.

وفيما هو يضع إعلانًا عن خدماته فى جريدة الدايلى جلينر ـ كأمين مخزن أو كسائق أو ككاتب حسابات أو كحارس أو كعامل فى معمل ألبان أو كساعٍ ـ رأى إعلانًا عن سفينة مغادرة إلى إنجلترا تحت قسم رجال الخدمة القدامى عنوانها، "**ساعدوا من قدموا المساعدة.**" فى يوم ٢٨ من شهر مايو ستبحر إمبيِّر ويندرش. وثمن حجز التذكرة على تلك السفينة لرجال القوات المتقاعدة هو ثمانية وعشرون جنيهًا وعشرة قروش فقط.

"**بالطبع، أنا لا أملك الثمانية والعشرين جنيهًا والعشرة قروش.**" قال.

وفى تلك اللحظة ـ حيث انكسرت روح جلبرت المعنوية لأول مرة فى مواجهة مسعاه المستحيل ـ استوجب علىَّ شكر السيد فيليب والسيدة مآ على الدرس الذى تعلمته منهما. الحكمة فى التوفير. كنت أضع مبلغًا صغيرًا من مرتبى كل أسبوع فى جمعية بناء المجتمع(*) ليوم الحاجة. والأيام التى سبقت رحيل جلبرت كانت من أعسر الأيام التى شهدتها الجزيرة. "**بمقدورى ان اقرضك المبلغ.**" قلت له.

(*) جمعية بناء المجتمع (The building society) مؤسسة مالية يملكها أفراد، تقدم خدمات بنكية ومالية، وخاصة قروضًا عقارية ودفع فوائد على المال المدخر عندهم. أول ما ظهرت كان فى إنجلترا فى القرن الـ ١٨. (المترجمة).

تملكته الدهشة. فغر فمه متعجبًا مثل الأبله قبل أن تظهر ابتسامة على زاوية من فمه. **"ألم تخبرك أمك قط، لا تقترضى ولا تُقرضى؟"**

"تستطيع أن ترده لى."

"آووه، أعرف ذلك، يا آنسة صاحبة القدم اللزجة. لكن ما لا أعلمه هو لماذا تقرضينى المال؟"

"لتذهب إلى إنجلترا. وللمرة الثانية سكتّ، فأكملت: **"سأقرضك المال، سنتزوج وتستطيع أن ترسل لى لأذهب إلى إنجلترا عندما تجد المكان المناسب لى لأعيش."**

"آووه، يا ويلى! قال بصوت عالٍ. **"عليك قول ذلك مرة أخرى، أعتقد أن أذنى تخدعنى."**

قلت: **"تستطيع أن ترسل لى عندما تستقر."**

قال: **"ليس هذا. أعرف هذا. سمعت هذا. أقصد ما قلتِه عن الزواج."**

"كيف سأذهب غير ذلك؟ امرأة وحيدة لا تستطيع السفر بمفردها - لن يبدو مقبولا. لكن امرأة متزوجة تستطيع الذهاب إلى المكان الذى تريده."

استغرق جلبرت ساعتين لأخذ القرار بسؤالى بالزواج به. ثم سلَّم علىَّ عندما أجبته بالموافقة، كما لو كانت صفقة عمل أُبرمت بيننا.

مع كل نفس يزفر مع نطق تلك الكلمة الصغيرة، إنجلترا أصبحت قدرى. مائدة الطعام وأربعة كراسى وضِعتْ فى غرفة الطعام. ووضع عليها مفرش مطرز بشرائط. وهناك كراسى بأذرع

وضِعتُ فى غرفة الجلوس حول المدفأة. البيت بسيط ــ لن تكون هناك بهرجة، ولا تباهٍ ـ المطبخ سيكون صغيرًا ولكن به كل ما أحتاجه لتحضير وجبات الطعام. نحن نأكل الأرز والبازلاء يوم الأحد مع الدجاج والذرة، ولكن فى مطبخى الإنجليزى سيكون اللحم المحمر مع صنفين من الخضار، أو حتى السمك والبطاطس المحمرة تبقبق من الغليان فوق البوتاجاز. زوجى يصلح النافذة التى خربت واللوح فى الشرفة الذى له صرير. أصب الشاى عند النافذة المفتوحة وأنظر إلى جيرانى فى البيوت المتجاورة والمقابلة. أمشى إلى المحل ويُلقى علىَّ التحية بطريقة مؤدبة، **"يوم سعيد"**، **"ياله من يوم جميل"**، وأستمع إلى كلام رقيق دمث، **"نأمل أن تكونى بخير؟"** وهناك الباص الأحمر، نهارٌ بارد وزهرة الدافودلز تتفتح مع ألوان قوس قزح.

ظهر جلبرت مفاجأة بهيئةٍ وسيمةٍ فى حفل الزفاف. كلانا كنا مندهشين لرؤية الآخر بهذه الأناقة. كانً يرتدى بدلة رمادية بصفين من الأزرار، وبنطلون واسع، وأساور القميص نظيفة، والقميص أبيض ناصع، رابطة العنق ثُبتت بعقدة رقيقة، وشعره كان يلمع بالزيت ومموجًا. وأما أنا، فقد كنت فى الفستان الأبيض مع أطراف مكشكشة، وحذاء أبيض بكعب عالٍ، وقبعة زينت بشبكة وضعت على رأسى بزاوية متَّبعة الموضة. قال جلًبرت هامسًا برقة، آخذًا بيدى إلى المذبح: **"تبدين جميلة."**

تكوَّن الجزء الخاص بجماعة جلبرت من ابن عمه إلوود، الذى كان إشبينه، وأم إلوود العجوز. إلوود هو ابن العم الذى أضاع النحل، شخص طويل ذو خطوات واسعة، قضى مراسم الزواج يهش الذباب بعيدًا عن وجهه برتابة مستمرة حتى اعتقدت أنه يلوح لى.

جلست أمه، العجوز الكريهة حامضة الوجه مثل التمر هندى، متسائلة: **"من هذه التى سيتزوجها؟"** طوال معظم مراسم الاحتفال.

أما السيد والسيدة أندرسون مع ابنهما فقد كانوا ضيوف زفافى. ولكن بعد الانتهاء من مراسم الزفاف كان كل ما أرادوا سؤالى عنه هو **"أين سيليا؟"** لا كلمة تهنئة واحدة ولا أى تعليق على ثيابى الفاخرة صدرت منهم، ولكن فقط قالوا إنه من العار عدم حضور سيليا ـ كانت صديقة مخلصة لك. لقد أحبوا سيليا، هم أخبرونى بذلك. كانوا متشوقين لرؤية سيليا. ولكن هل أستطيع إخبارهم لماذا لم تحضر سيليا حفل زفافى؟ لم أنطق بكلمة واحدة، فما شأنهم فى معرفة أن صديقتى السابقة اختارت أن تتجاهلنى الآن؟ وعندما أرهقونى بتلك الأسئلة بدءوا بسؤال جلبرت، فأجابهم قائلاً: **"أنا لم أرَ سيليا منذ فترة طويلة. أخبرتنى هورتنس بأن أمها مريضة. من المؤسف أنها لم تستطع الحضور، يا ليتنى أستطيع رؤية سيليا مرة أخرى قبل رحيلى."**

عند الرجوع إلى منزل عائلة أندرسون صممتْ العائلة على إقامة حفلة لى أنا ولجلبرت، وليس بالأمر المهم كيف اعترضتُ على ذلك. سأل السيد أندرسون متصفحًا أسطواناته: **"يا جلبرت، أتحب كونت بازى؟"**

"بازى هو الأفضل."

احضرت السيدة أندرسون تلاً من الفراخ من المطبخ ووضعتها أمام روزا، التى قبل أن تلتهم الأكل، سألت: **"أين سيليا؟ يالها من بنت حبوبة. أين سيليا، يا ميرتل؟"**

"يجب عليك سؤال هورتنس. إنها صديقتها."

من حسن الحظ أن المرأة العجوز لم تكن مهتمة بسؤالى عن أى شىء ـ فقد كانت مكترثة فقط بالقضم والالتهام. إلا أننى لمرة واحدة لم أكترث لهذا الوضع غير المحتمل، إذ أدركت أنه قريبًا سوف أعيش فى إنجلترا وبمقدورى الارتقاء عاليًا عن هؤلاء الناس، وسوف أكون أعلى من أى ازدراء يمكن أن يكون قد نالنى فى أى وقتٍ مضى. لم يكن الأمر ذا أهمية لى بأن تكون الهدية من إلوود وأمه العجوز الكريهة عبارة عن برطمان ناقص من العسل. شكرتهم، وأخبرتهم أنه من دواعى سرورى مقابلتهم، وتمنيت لهم يومًا طيبًا وهم يغادرون الحفل.

•

ماذا يعنى لى أن الموسيقى غير المتناغمة كانت صاخبة لدرجة أن رأسى نبض من صخبها؟ أو ماذا يعنى لى أن الرجل الذى تزوجته كان يقفز فى جميع أنحاء الغرفة يصرخ بينما وقف كلٌّ من طفلى أندرسون الصغيرين على قدميه، وتشبثا بساقيه، منادين للجميع لمشاهدتهما؟ لم أهتم بأن أجد أعذارًا فى ثمانية مواقف مختلفة لعدم رغبتى فى الرقص مثلما يفعل الجميع. أو أن السيدة أندرسون هبطت بمؤخرتها الوفيرة بشكل مؤلم علىَّ على بُعد خطوات بسبب لفاتها ورقصها الملخبط مع زوجها.

"أتحب إلينجتون، يا جلبرت؟"

"إلينجتون هو الأفضل."

اكتفيتُ بالابتسامة عندما قال السيد أندرسون أخيرًا ـ وقد مال على جلبرت، وكلاهما ثملان من شرب الروم ويقهقهان مثل بنات المدارس، **"يا جلبرت، أنت لا تعرف أى شىء عن موسيقى الجاز، أليس كذلك؟"**

"**أمسكت بى هنا. كلا.**" ثم أضاف جلبرت قائلاً وهو يميل على السيد أندرسون، وهما يشربان نخبًا مع بعضهما، "**ودعنى أخبرك شيئًا آخر، أستطيع الرقص. لكن، صه، لا تخبر هورتنس. ألا ترى كيف أن هذه المرأة تحب الحفلة؟ ستندم لزواجها من رجل له قدمان يساريتان.**"

ولهذا عندما قلت: "**يا جلبرت، أليس من المفترض أن تستعد لرحلتك غداً؟**" نظر إلى الجميع، ولم أكن خجولة كما ينبغى علىَّ أن أكون.

وحتى عندما غمز السيد أندرسون لجلبرت مربتًا على ظهره ثم قال لى: "**بالطبع، يا هورتنس، تريدين أن تنفردى بزوجك فى ليلة زفافكما.**" وصفقت السيدة أندرسون بيدها وزغردت بصوت عال لفترة من الفرحة.

جاء جلبرت إلى الغرفة والولدان ما زالا متشبثين بقدميه. "**يجب أن تنصرفا، يا أولاد. حان وقت اللعب مع زوجتى الآن.**"

حاول إزاحتهما ولكنهما كانا متشبِّثين بقوة، يضحكان ضحكات صبيانية. كان ينبغى أن تُستدعَى السيدة أندرسون. أتت إلى الغرفة، تجرُّ الولدين ودسَّتهما تحت ذراعيها.

"**تعالا، يجب أن نذهب**" قالت لهما. وقالت وهى تطّلع إلىَّ وعلى وجهها ابتسامة، "**هورتنس لديها شىءٌ يجب أن تريه لجلبرت.**" ثم، وكى لا يبكى الولدان، أخرجتهما من الغرفة.

قال جلبرت: "**حسنًا، نحن وحدنا.**"

كانت لديه حقيبة صغيرة واحدة. حقيبة صغيرة لشخص سوف يسافر كل هذه المسافة الطويلة ليبدأ حياة جديدة فى إنجلترا.

فقلت: "**أهذا كل ما لديك؟**"

نظر إلى متاعه الهزيل، ثم قال: "ولدىٌ أنت، بالطبع، يا هورتنس."

أخذتُ نفسًا قبل أن أرد سائلةً: "هل ستتصل بى؟ لن تذهب إلى إنجلترا وتنسى أمرى وتتركنى وحيدة هنا؟"

اقترب إلىَّ قاطعًا الغرفة. ووضع يده على كتفى، "بالطبع لا - لقد اتفقنا. أنت زوجتى."

"ستجد نساء قد يلعبن برأسك هناك فى إنجلترا."

"يا هورتنس" قال، ممسكًا بى بحزم، "لقد اتفقنا. لقد أعطيتك كلمتى، سوف أرسل لك."

ثم بعد ذلك، ولأول مرة، قبَّلنى برقة على شفتىَّ. كانت رائحة الرومْ تفوح من فمه لكن شفتاه كانتا دافئتين ورقيقتين على شفتى. أغمضت عينىّ. وعندما فتحت عينى مرة أخرى قبَّلنى قبلة ثانية ولكن هذه المرة أدخل هذا الرجل لسانه اللزج فى فمى. اختنقت عندما وجدت نفسى أمص ذلك العضو المتَّلوى. لم أستطع التنفس. ابتعدت عنه ورجعت للخلف، ألهث محاولة أن ألتقط أنفاسى.

أدرت ظهرى، ثم خلعت قبعتى لأضعها برفق فى خزانة الملابس. لم يمر أكثر من خمس ثوان عندما التفت إلى جلبرت لأجده واقفًا أمامى عاريًا تمامًا مثل آدم. وبين ساقيه يوجد شىءٌ أخذ يتعاظم. ينهض مثل ثعبان مسحور - بدون أية معاونة، أو أية مساعدة - أخذ يكبر أمام عينى، قاس مثل جذع شجرة ينتفخ عاليًا. لم يكن بمقدورى فعل شىء إلا التحديق.

"تعالى إلى، يا هورتنس" قال هذا الرجل، فاتحًا لى ذراعيه.

وأنا لن أقترب من هذا الشىء. **"ما هذا؟"**

"ما هذا؟" قال، مصورًا إياه لى وكأنه شىء يفتخر به. **"إنه قضيبى."**

"أبعد هذا الشىء عنى!"

"لكن، يا هورتنس، أنا زوجك." ضحك، قبل أن يلاحظ أننى لا أمزح. وتردد ذلك الكيس الشحمى الذى تدلى من بين ساقيه، مثل ثمرة فاكهة الآكى العفنة. فإذا كان الجسم فى أبهى أشكاله هو من عظمة صنع الله، فإذًا ذلك الشىء القبيح والشنيع الذى بين ساقيه بدون شك هو من صنع الشيطان.

"لا تقترب منى بذلك الشىء،" قلت صارخة.

عبر جلبرت الغرفة فى خطوتين ليضع يده على فمى. **"صه، اتريدين أن يسمع الجميع؟"**

عضضتُ يده وبينما هو يثب للخلف من الألم، ركضت نحو الباب وأنا مرتجفة.

"هورتنس، هورتنس. انتظرى، انتظرى، ياه." فزَّ ناحية الباب فصفقه ليغلقه. وبينما هو واقف أمامى يلهث شعرت، وأنا مذعورة، بذلك الشىء ينقر مثلما يفعل الإصبع.

واستسلم جلبرت رافعًا يديه فى الهواء وقد بدأ ذلك العضو الخبيث القبيح فى الانكماش، والهبوط، والترهل، حتى تدلى، متأرجحًا مثل طائر ميت على شجرة. رفع راحة كفيه عاليًا قائلاً: **"حسنًا، حسنًا، لن ألمسك، اترين،"** ثم نظر نظرة عابرة إلى أسفل، وقعَّب بيديه على أشيائه المقززة. **"لقد ذهب، لقد ذهب،"** قال.

ناضل فى ارتداء سرواله وهو يقفز بالغرفة مثل المغفل وهو يقول: "اسمعينى، اسمعينى." وحاول النظر إلى وجهى وهو يزرر سرواله. "انظرى إلى، يا هورتنس، انظرى إلى، هاه." وعندما نظرتُ إليه أخرج نفسًا عميقًا. وبدأ يقول مهدئًا نفسه: جيد، الآن اسمعى، هل تسمعيننى؟" أدرت وجهى عنه، وأخذ هو بذقنى بحنان وحركها ناحيته. "نامى انت على السرير وانا سأنام على الأرض. لن المسك. وعد. انظرى - سأعطيك تحية قوات الطيران الملكية." خطا للخلف رافعًا يده عند جبينه للتحية، مبتسمًا مظهرًا سنته الذهبية. "هنا، هذا وعد من رجل محترم. سأنام على الأرض. وسأستيقظ باكرًا غدًا، وسأذهب للسفينة وأبحر إلى الوطن الأم من أجلنا نحن الاثنين. لأن، آووه، يا ولد، يا آنسة يا صاحبة القدم اللزجة،" هز رأسه للأمام والخلف ببطء، "إنجلترا ستحتاج أن تستعد لوصولك."

الفصل الثامن

هورتنس

"أخبريني، مدام جوزيف، ماهي المدة التي أمضاها زوجك في إنجلترا بدونك؟"

عادة لم أكن لأرد على سؤال شديد الصراحة والجرأة مثل هذا. وخاصة عندما يصدر من امرأة مثل هذه المرأة. امرأة تكسب عيشها من تأجير الغرف. ولكنني كنت سأغادر جامايكا. سأكون على متن سفينة في باكورة اليوم التالي مباشرة. وفكرت بأنه بإمكاني أن أكون على قدر ما من العطف تجاهها. فهي على كل حال، مسنة جدًا ومن الواضح أنها بحاجة ماسة للصحبة.

كنت مضطرة لأن أقيم ليلتي في منزلها قبيل مغادرتي، حتى أتمكن من اللحاق بسفينتي التي سوف تبحر باكرًا في الوقت المناسب. لقد كانت طيبة معي. فلقد قامت بتحضير وجبة من الأرز والبازلاء والدجاج المقلي والموز الأخضر لي. وكانت تمزح قائلة: "العشاء الأخير" وهي تضع الأطباق أمامي. تحدثتْ طوال مدة

تناولى للطعام، تحكى لى حكايات مفصلّة عن كل فرد من عائلتها ـ زوج ورع متوفى، وأخت طائشة، وابن عاجز عن تحقيق أى شىء فى حياته ـ حتى بدا مضغ الطعام وكأنه استجابة غير لائقة لحكاياتها عن الكروب التى مرت بها.

وبعد تناول الطعام ساعدتنى فى حزم حقائبى. ثم أوصتنى بالاقتصاد فى الإنفاق وحذرتنى من البرد فى إنجلترا، ثم اختفت وعادت حاملة بطانية كانت قد حاكتها أثناء الحرب. وأوضحت قائلة: "**ها أنت ترين، يا مدام جوزيف، أننى لا أملك ما يكفى من الوقت لأقدمها لجندى يشعر بالبرد. لقد بدأت العمل على حياكة هذه البطانية منذ بداية إعلان ملك الإمبراطورية بأننا فى حالة حرب. وعندما أنهيتُ حياكتها كان الناس فى الشوارع يرقصون فرحًا بانتهاء الحرب. لستُ سريعة فى الحياكة ولكن لا فائدة من ذلك الآن.**" ووضعتْ بين يدى بطانية الحرب خاصتها، كانت عبارة عن مربعات غير منتظمة الحياكة زاهية اللون، خاطتها مع بعضها البعض فكونت بطانية تكفى لغطاء فصيلة من الجنود. وبما أنه كانت لدى مساحة كافية فى صندوق ثيابى لذا فقد أخذتها منها وأنا أشعر بالامتنان.

ولذلك عندما طرحت علىَّ سؤالها جاوبتها عنه بدلاً من أن أتجنب فضولها قائلة: "**لقد أمضى زوجى ستة أشهر فى إنجلترا بدونى.**" لقد كان جلبرت صادقًا فى وعده لى فقد كان يكتب لى بانتظام، وأحيانًا كانت تتضارب رسائلنا ـ حيث يرسل إلى يسألنى عن شىء ما، كنت قد أعلمته به للتو فى رسالة أخرى. ولكنه أبقانى على علم دائم بخططه ومشاريعه. وازداد إيقاع الأحداث تقدمًا مما جعل الإثارة والذعر يجريان فى عروقى . والآن ها هو كل شىء مهيأ. كل شىء مُعد.

ولكن، الآن، فغرت المرأة العجوز فمها حتى تدلى على صدرها. وانحبست أنفاسها لوهلة طالت من الزمن حتى إننى خفت على سلامتها. ثم استردت وعيها بما يكفى لأن تقول لى "يجب أن تذهبى لإنجلترا على الفور، فهؤلاء النساء الإنجليزيات ستكون لديهن الرغبة لقضاء وقت ممتع معه. شاب وحيد فى إنجلترا، هل تعلمين أن هؤلاء النساء البيضاوات يحببن أن يتأكدن من أنهن قد شووهم على كلا الجانبين. وهؤلاء الشباب لديهم رغبات ملحة. أنا أعلم جيداً، أنا عندى ابن ما كان ليفوت أبداً رغبة تلح عليه."

كان أسلوبها الفظ هو وحده ما دعانى للابتسام وأخبرتها "أرجوكِ لا تجزعى من أجلى، سوف أجرب حظى".

ولكنها واصلت حديثها بمزيد من القلق والفضول: "يجب أن تذهبى حالاً، يا مدام جوزيف، قبل أن ينسى زوجك وعود زواجه وجميع وصايا الرب، أيضاً."

١٩٤٨

الفصل التاسع

كويني

لأجل الأسنان والنظّارات.

كان هذا هو السبب الكامن وراء قدوم العديد من الأشخاص الملونين لهذا البلد، حسب رأى جارى فى المنزل المجاور السيد تود. "**إن خدمات هيئة الصحة الوطنية تلك - هى ما تجذبهم إلى هنا، يا مدام بلاى. الهبات التى يمنحونها لهم على حسابنا سوف تجعلهم يواصلون القدوم.**" قد يكون محقًا فى ذلك إلا أن هؤلاء الأشخاص، على حد قوله، كانوا جميعًا يعانون من الحول فى العين ونتوء بالأسنان قبل قدومهم إلى هنا.

رددت قائلة: "**أنا لا اعتقد ذلك.**"

"**آوه، بلى،**" قال مؤكدًا لى. "**ولكن الآن، بالطبع، يلبسون نظّارات ولديهم ابتسامة عريضة رائعة.**"

كنت أعلم أنه سيكون فى الجوار، طالما أن تلك المرأة، زوجة

جلبرت، قد تركت صندوق السفر فى الطريق لكى يراه الجميع. امرأة بحق. لم ير أحد العديد من النساء الملونات. أما أنا فقد رأيت منهن عجائز بمؤخرات ضخمة كالحافلات، ولكنى لم أر أبدًا فيهن شابة بخصر أنيق كهذه. برز رأسه مطلاً من باب منزله ثم اندفع إلى الداخل مرة أخرى. لقد ذهب غالبًا لإحضار حذائه.

لقد كنت محقة. فلم تكد تمضى خمس دقائق بعد أن أخذ جلبرت صندوق الثياب إلى الداخل إلا وكان السيد تود واقفًا على عتبة المنزل. "**سيد تود،**" قلت: "**ماذا أستطيع أن أفعل لك؟**"

شخص أسود ثان، هذا ما كانت تفصح عنه النظرة التى ترتسم على وجهه. لفيف مختلط من مشاعر الغضب والصدمة والخوف، حتى فتحتا أنفه تُطلِقان لهيبًا وفمه يحاول الابتسام، ولكنه لم يفلح سوى فى إظهار السخرية. "**نعم، كنت فقط أريدك فى كلمة سريعة، مدام بلاى، حول ضيوفك المستأجرين**".

أراهن أنه سيفعل ذلك. قد يكون أخبر أخته الكريهة أن مزيدًا من الملونين قد وصلوا للتو. كم وصل عددهم الآن؟ هذا ما قاله كل منهما للآخر. خمسون؟ ستون؟ "**عليك أن تتحدث معها، يا سيريل،**" هذا ما ستقوله له أخته، قبل أن تتحسر على الشارع الذى كم كان محترمًا قبل وصولهم! وسيطلقان كل الكلمات مثل ـ مهذب، لائق ـ مع صقلها وتلميعها، وذلك قبل أن يلقوا باللوم على مدام كوينى بلاى على أنها وحدها من أتى بالخراب للبلاد.

كانوا على نفس المنوال أثناء الحرب، برغم أنهم لم يكن فى مقدورهم لومى على هذه الحرب. فهناك العديد من البولنديين. ولقد انتشر التشيكيون فى البلدة بأعداد هائلة. وكذلك صعوبة التحرك بسبب كثرة البلجيكيين، وأيضًا اليهود. كانوا يتضجرون من

كثرة اليهود حتى بعدما علمنا ما عانوه. هؤلاء الشحاذون المساكين. لقد كانوا بحال جيدة فى بلادهم التى أتوا منها، هذا ما كان السيد تود مقتنعًا به، ولكنه لم يكن يريد لأى منهم أن يطأ شارعنا.

فلم يسامحنى أبدًا على إيوائى لجين وعائلتها. لقد نزحوا بفعل القنابل. وتوفيت عائلتها على إثر ذلك. حبيبتى، سلب منها القصف كل ما لديها هناك فى جنوب إفريقيا. ولم لا؟ لقد كانت تؤانسنى حتى لما بدأتُ بالتغيب بالخارج طوال الليل والعودة باللَّبن. سألنى السيد تود، بمنتهى الجرأة، ماذا كانت تفعل جين لتكسب عيشها؟ أخبرته بأنها تعمل ممرضة ـ كما تعلم، فى فترة الدوام الليلى. غُصَّ وهو يشرب كوب الشاى قبل أن يسألنى إن كنت متأكدة من ذلك.

ذات مرة سألنى ثلاث مرات فى يوم واحد عمَّا إذا كانت هناك أى أخبار وردتنى عن زوجى برنارد. كنت أحاول أن أحتملهما لأنهما كانا بالفعل صديقين جيدين. ولكنى كنت أعلم نيته التى دفعته لطرح هذا السؤال على. لقد كان يريد عودة زوجى الغائب للمنزل حتى يضع حدًا لما أفعله أنا من إيواء كل هذه النفايات من الشوارع. وليظهر مدى اهتمامه بأمرى قد يقول — امرأة تعيش بمفردها فى هذا المنزل الفسيح. بالكاد وليس تقريبًا أرملة. ليس هناك رجلٌ يحمينى، ويوجهنى، ويوضح لى الخطأ فى تصرفاتى. لقد رعانى واهتم بشؤونى كما ينبغى للجيران أن تفعل، هذا ما قاله لى السيد تود. فنحن صنف من البشر نتآزر ونندمج مع بعضنا البعض، تمامًا كما كنا أثناء الحرب. ولكن، ومع ذلك، لم يكن هذا الوضع الذى أتذكره.

ولكنى ممتنة له (وعلى ما أعتقد، لأخته المقرفة، أيضًا). لقد أصلح الفتحة التى فى السطح بالأخشاب. وتخلص من الحمام.

ورمَّم السقف. وقام بتبديل زجاج النوافذ. وساعدنى فى تنظيف الحديقة من كسر الحجارة. وعندما كان يحصل أى ماس كهربائى كنت أعلم لمن ألجأ، فلديه قطع السلك الصغيرة على بطاقة كلها جاهزة، ومصباح يدوى. أظن أنى مدينة له. حتى أنه عرض علىَّ أن يقوم بعمل ديكورات للمنزل، إذا استطعت تدبر أمر الطلاء. "أوقفى زيادة سوء الأمر، يا سيدة بلاى."

وضع دخول جلبرت للمنزل نهاية لهذا الحديث. السود! كنت أعمل على إسكان السود فى البيت المجاور له ولكننى لست وحدى التى تقوم بذلك. فهناك آخرون يعيشون عند الميدان. وقليل منهم عند بداية الطريق. كان همه، كما يدعى، أنهم سوف سيحولون المنطقة إلى أدغال. ولكننى كنت مسرورة برؤية جلبرت. فقد كنت أتساءل كثيرًا عما يحدث للطيار جلبرت جوزيف. وهذا ما يفعله المرء أثناء الحرب ـ فأنا على دراية بذلك الآن. تناثر الجميع كبذور الهندباء. بعض الناس لا تعتقد بأنك ستراهم من جديد ـ خاصة عند عتبة بابك. وأنا لم أر جلبرت منذ الحادثة. وبعدها لم أعد أريد أن أرى أحدًا. كان يرسل لى الرسائل، أكثر من مرة، ولم أرد عليها. لم يكن ذلك لأنى ألومه. فكيف أستطيع لومه؟ أراهن بأنه ظن أننى ألقيت باللوم عليه ولكننى لم أفعل. كانت الحرب هى الشىء الذى أردت التخلص منه ولكن كانت الناس هى ما أخسرها.

اقترح أبى وأمى أن أعود للعيش معهما بالمزرعة حتى تنتهى الحرب. كم من المرّات ينبغى أن أهرب من هذا المكان الكريه؟ فلقد قمت بذلك بالفعل مرتين حتى الآن. كلا، هذا كان ردى على اقتراحهما، فعلىَّ أن أعود لإيرلز كورت ـ وأن أنشر الدفء انتظارًا لعودة برنارد للمنزل فى نهاية المطاف.

كتبت بالفعل لبرنارد فى الهند ـ وقصصت عليه كل ما حدث. ولكن فى الرسالة التالية التى تلقيتها منه لم يشر إلى أبيه. ولا حتى فى التى تلتها. لم يكن من الأشخاص الذين يتحدثون عن الأشياء، وكنت أعرف ذلك عنه، ولكن اللعنة! وكأن شيئًا لم يحدث. إذا كانت هذه هى الطريقة التى يريدها، فسأنتظر حتى يعود. فمن الأفضل، على كل حال، أن أكلمه وعينى فى عينيه وأشرح له ما حدث. ولكننى اشتقت لحماى آرثر. ولم يكن ذلك فقط بسبب البطاطس والبصل اللذين كان يعدهما. وبالتأكيد ليس من أجل هذه الفاصوليا الخضراء، التى سوف أغليها لساعة وقد أمضغها من وقت العشاء إلى أن أغسل أسنانى لأخلد للنوم. "أرسلها لتشرشل،" كنت أقول له ـ كسلاح سرى. "أعطها لجيوش هتلر. سينشغلون جداً بمضغها عن القتال فى الحرب". وكان يضحك آرثر بطريقته الهادئة على قولى هذا.

لم أحتفل بيوم النصر فى أوروبا بعد استسلام قوات النازية الألمانية ـ فقد كان زوجى وغيره من الآلاف لا يزالون يقاتلون هناك شرقًا. أخبرتهم ذلك عندما طلبوا منى تعليق الرايات من أجل الاحتفالات. ولكنى رفعت أعلامى يوم النصر على اليابان بعد استسلامها عندما لم يكن يبالى أغلب الشارع بهذا النصر.

ومع انتهاء الحرب قمت بواجبى الوطنى ـ حاولت أن أبدو جيدة قدر استطاعتى. فسألت عائلة بلوم إعطائى بعض الجوارب الطويلة. وقمت بتنظيف البيت وفركه جاثية على يدى وركبتى، ونفذت إلى أركان المنزل التى لم تشهد أى وجه بشرى منذ بداية الحرب لأنظفها.

جارة أخرى لى اسمها مدام سميث، أو بلانش كما كانت تحب أن أدعوها، كانت هى الأخرى تنتظر زوجها. كان زوجها فى طريقه

للعودة من مكان ما يسمى رانجون. كنا أصدقاء فى ذلك الوقت. كانت تضمنى بشغف وسعادة "**لن يطول الأمر الآن، يا كوينى. لقد وصلت سفينته**". وأعطتنى آخر إصبع لأحمر شفاه قديم لديها. ولم يكن لونه هو اللون الذى أفضله تمامًا ولكننى أخذته منها. "**كل ما تستطيع كل البنات التحدث عنه هو عودة آبائهن للبيت**" قد تخبرنى بذلك عندما كانت تمر علىَّ وهى فى مهمة تقضيها.

وكانت تسألنى: "**ألم تصلك أية أخبار من برنارد حتى الآن؟**" وبعد وقت طويل استغرقته لأجيبها بالنفى وقبل حتى أن تفتح فاها، شاهدتُ زوجها موريس وقد وصل. جرت إلى أحضانه كما لو كانوا فى فيلم عاطفى ما. وتبادلوا القبل بنفس طريقة الأفلام العاطفية هناك وهم واقفون فى الشارع، يثنى ظهرها كما لو أنهما جابل وليج(*) ويا للعجب!، فكَّرت، كم تمنيت ألا يود برنارد تبادل القبل معى بهذا الشكل.

وقفت ابنتا بلانش الصغيرتان لمشاهدة أبيهما وأمهما، بدت الصغيرتان مرعوبتين حتى الموت عندما مدَّ ذلك الغريب ذراعيه إليهما وقال: "**تعاليا وأعطيا بابا قبلة.**" فهربت الاثنتان إلى داخل المنزل تصرخان.

"**لن يطول الأمر الآن يا كوينى، سوف ترين، وبعدها سوف يكون بمقدورك أن تسعدى بقية حياتك. وأن تضعى هذه الحرب البغيضة خلف ظهرك،**" هذا ما كانت بلانش تؤكده لى.

ولكن مرّ عامان ولم يأت برنارد، ولم تصل منه أى كلمة. عاد كل الرجال إلى بيوتهم. وعادوا من جديد يدورون فى الشوارع،

(*) أسماء لشخصيات سينمائية. (المترجمة).

ويتحدثون فى الحانات، يغازلون السيدات على المقاعد فى الحدائق، يستقلون الحافلات، ويشغلون كل المقاعد اللعينة فى مترو الأنفاق. أقسم لى مكتب الحرب - بدون أن يكونوا على بينة من الأمر - أنهم أعادوا برنارد. عقدت لقاءً معهم وهناك حدّق بى رجل ضئيل الحجم معتد بنفسه ونظرة الشفقة فى عينيه تقول لى: لقد هجرك، سيدتى، لقد هجرك. ولكنهم لم يكونوا يعرفون برنارد بلاى. فهو لم يكن ليقدم على شىء يقارب نصف ذلك أهمية.

تساءلت بلانش ربما قد يكون قد تلقى ضربة على رأسه فجعلته ينسى من هو أو ما كان عليه. يحتمل أنه يطوف بائسًا فى البلاد بحثًا عن منزل. قال لى رجل عند أول الطريق إنه متأكد بأنه لمح برنارد يقود حافلة فى جلاسجو. فجهزت نفسى للذهاب إلى اسكتلندا للبحث عنه، راكبة قدر ما أستطيع من الحافلات. ولكن ساعتها طلب منى أخى هارى ألا ألقى بالاً لما سمعته لأن صديقاً له قد رأى برنارد وهو يحتسى الجعة فى حانة فى برلين. والسيد تود وجد صورة فوتوغرافية غير واضحة لمجموعة من العدّائين وهم يتمشون على قمم مرتفعات ديربى شاير. وأشار إلى رجل فى خلفية الصورة مؤكدًا: "**هذا برنارد، يا سيدة بلاى، وإلا فاسمى ليس سيريل.**" وبكل صراحة، الصورة كانت سيئة جدًا، فقد يكون هذا الشخص أى أحد - قد يكون سيريل تود نفسه.

وحدث بعدها أن وصل إلى منزلنا رجل - راكبًا دراجة بخارية قذرة كانت تطلق دخانًا كثيفًا من خلفها كفيلاً بقتل العديد من القلوب الضعيفة. وقال إنه يعرف برنارد منذ أن كانوا فى بلاك بول حيث كانوا يتلقون تدريبهم معًا، ولكنه لم يره منذ أن استدعوه للخدمة. ولقد صُدم تمامًا عندما أخبرته بأنى لا أعرف أى شىء

عن مكان وجود برنارد بلاى. ولكنه استطاع مع ذلك احتساء ثلاثة فناجين من الشاى وتناول نفس العدد من كعكة الزبيب قبل أن ينهض من مقعده قائلاً: "**يجدر بى الذهاب الآن، يا صاحبة النمش.**" ثم غادر، نافثًا من دراجته المقززة دخانًا أسود غبيًا.

وكان هارى هو من اقترح علىَّ أن أبدأ إجراءات إعلان وفاة برنارد رسميًا. فسألته: "**وماذا إذا لم يكن قد مات؟**" فأجابنى: "**إذن، فقد يدفعه هذا للظهور من مكانه الخفى.**"

كنت مازلت شابة ولدى حياة لأعيشها. ولكنى لم أكن مستعدة لذلك. لذلك عندما أتى جلبرت إلى بابى فكّرت، بأن لدىّ المكان وأنا بحاجة للمال. استقبلته فى بيتى لأننى أعلم أن برنارد لم يكن أبدًا ليتركنى. وإن كان برنارد يريد فعل شىء كهذا كان سيأتى إلىَّ ويخبرنى بذلك وجهًا لوجه.

"**كيف يمكنك تقبل كونك امرأة وحيدة بمنزل واحد مع الملونين؟**" سألتنى بلانش. وحذرتنى من أن لديهم طباعًا مختلفة عنا، ومن أنهم لا يفقهون شيئًا عن الأخلاق. فهم يغتسلون بالزيت وتفوح منهم الروائح الكريهة. كما أرسلت لى زوجها ليناقشنى بالمنطق لأنه على دراية بكل شىء عن السود. واحمر وجه موريس خجلاً وهو يخبرنى عن رغباتهم الحيوانية. "**وهكذا الحال لكل من النساء والرجال عندهم، يا مدام بلاى**". كان علىَّ أن أحترس منهم وأبقى بابى مغلقًا. ثم قال لى محذرًا: "**لن تفهمى أبداً، إياكِ أن تصدقى كلمة مما يقولها أى من هؤلاء الحثالة لكِ.**"

الذكريات حول المكان قد تكون قصيرة ولكن ذكرياتى لم تكن كذلك. كنت أعرف جلبرت أثناء الحرب. لقد كان فى قوات الطيران الملكية. صبى يرتدى اللون الأزرق يحارب من أجل بلاده تمامًا مثل

برنارد وموريس الخجول. لم يكن أحد ليسمح له بالإقامة عنده. شعرت بالانزعاج قليلاً عندما جاء بعض من أصدقاء جلبرت، على متن قارب، يتسوّلون. لم أكن أريد أن يغزو بيتى أحد. ولكن جلبرت ضمنهم لى. لم يكن هناك ضرر من وينستون ولكن كانت المشكلة فى أخيه... فقد كان ينزل إلى غرفتى بأعذار واهية للغاية، أستطيع رؤية مراهقة أحلام اليقظة فيها. يتحرش بى. يتفحص ساقى حتى وأنا أنظر إليه مباشرة. حيوان، تمامًا كما حذرنى موريس. أخبرت جلبرت أنه لا يروق لى ذلك فأمره جلبرت بالرحيل. غادر كالكلب المُزْدَجَر بدون أى إزعاج، على الأقل رحل ـ كان هو وأخوه متشابهين جدًا.

عرضت بلانش، أو مدام سميث كما تريدنى أن أدعوها الآن، منزلها للبيع. فهى غاضبة منى. وأخبرتنى أن زوجها غاضب كذلك. "**لم يكن هذا ما يريده، يا مدام بلاى. لقد عاد للتو من القتال فى الحرب والآن يشعر أن هذه البلاد لم تعد بلاده**". كان موريس يتساءل لم كل هذا؟ هل هذا ما تبقى؟ وأخبرتنى أنها يجب أن تفكر فى رفاهية وسعادة طفلتيها. وفى صباح يوم ما رفع جلبرت قبعته ترحيبًا بها فأسرعت إلى داخل منزلها مهرولة كما لو كان قد قام بعمل فاضح. ثم خرج موريس بعدها وأتى إلى عتبة الباب ليدافع عن كرامتها. وكان كل ما فعله جلبرت هو أنه ألقى عليها التحية فقط. بعدها لم تخاطبنى أبدًا مرة أخرى، وكانت تعبُر الشارع لتتجنب المشى فى طريقى. وبكت عندما نقل الحمّالون أغراضها من المنزل.

قال لى السيد تود: "**هذا المنزل توارثته عائلتها لأجيال. والدتها، جدها، ووالد جدها،**" شعرتُ وكأنها أجبرت على الخروج منه. كل هؤلاء الزنوج يتفحصونها هى وبناتها فى كل مرة ينزلون فيها إلى

شارعهم. غزو هتلر لن يكون أسوأ من ذلك، هذا ما أقرت به. وانتقلت للعيش فى منزل له جدار مشترك مع الجيران فى برروملى. لم تودعنى وهى راحلة. كان الناس يتكلمون عنى، هذا ما أخبرنى به السيد تود. كان يقول ذلك بود وهو يبتسم كأنما يخبرنى ذلك من أجل مصلحتى. وكان الناس يتساءلون عما إذا كنت مازلت محترمة كما كانوا يعتقدون فى السابق.

أخبرته: "ليسوا إلا نزلاء عندى."

قال: "ولكن هؤلاء السود صاروا جيرانًا لنا، يا مدام بلاى. يجب على الحكومة ألا تتركهم أبداً يدخلون البلاد. سنعيش فى زمن صعب إن لم نتخلص منهم الآن."

وهاهو من جديد السيد تود واقفًا على عتبة بابى، يريد أن يفاتحنى الحديث عن الضيوف المستأجرين. اعتقدت أنه جاء ليشكو من الضجة التى أصدروها وهم يدخلون صندوق ملابسهم اللعين.

"نعم،" قلت، "ماذا تريد الآن؟"

استهل كلامه قائلاً: "لقد تعرضت أختى لحادث أليم اليوم..."

كنت سوف أدعوه للدخول ولكنى كنت أعلم أنه لا يجرؤ على أن يضع قدمه فى الداخل.

قلت: "آوه، فعلاً؟"

عرفت أن أخته كانت تمشى على الرصيف. وكانت السماء تمطر ففتحت شمسيتها. وكان الناس متجمهرين عند محل الجزار عند ميعاد غلقه. وبينما هى تمشى على الرصيف إذ بدأت سيدتان سوداوان بالسير باتجاهها. تمشيان جنبًا إلى جنب. على أية حال،

وصلا إليها والتقى الثلاثة على الرصيف، ولم تكن هناك مساحة على الرصيف لتكفيهن جميعًا.

ابتسمت. كم وددت رؤية ذلك، فأنا أعرف هذا النوع من السيدات ـ سوداوات كالقاذورات بمؤخرات فى حجم الحافلات. وأندهش أنه يمكن أن يتناسق الاثنان معًا.

"ولسوء الحظ، يا مدام بلاى،" واصل كلامه قائلاً: **"اضطرت أختى إلى ترك الرصيف، والنزول عنه والمشى فى الطريق حتى تتجنبهما. هاتان السيدتان لم تكن لديهما أية نية فى تركها تمر بسلام".**

"آوه، **يا عزيزى**،" قلت. كانت غايته، بالرغم من أنه أوضحها منذ زمن.. أنه يجب علىَّ أن أتأكد من أن نزلائى الملونين على علم تام، بأنهم ضيوف فى هذه البلاد، ولهذا هم من يجب عليهم أن ينزلوا من على الرصيف عند اقتراب أى شخص إنجليزى.

"بإمكانك إخبارهم بنفسك، إن أردت،" قلت. ثم فتحتُ الباب على مصراعيه من أجله.

"كلا، كلا، ليس ذلك ضروريًا،" رد علىَّ قائلاً. **"سأترك هذه المهمة لكِ. ولكنى ظننت فقط أنه قد يساعد فى العلاقات هنا لو أن كل إخواننا الملونين يفهمون ما هى حدود تصرفاتهم".**

الفصل العاشر

هورتنس

على الأقل هذا الرجل المغفل، جلبرت، لديه من اللياقة ما تجعله يمضى ليلته نائمًا على الكرسى ذى الذراعين. لم يكن لدى فى هذه الغرفة المهملة أى ركن خاص لأبدل فيه ملابسى لأرتدى ملابس النوم. "**استخدمى الحمام.**" قال الرجل. ولكن لم تكن لدى أية رغبة فى تسلق هذا الجبل من السلالم بسروالى الضيق وأنا لا أرتدى سوى ملابس النوم حتى أتجنب البرد والعيون التى قد تتطفل علىَّ. قال لى الرجل: "**عندى لكِ فكرة، سأدير ظهرى حتى يمكنك خلع ملابسك، لن أسترق النظر.**" ولكنى ضبطته مرتين وهو يتفحصنى بعينيه الجشعتين. هذا الرجل لا يمكن الوثوق به ولقد أخبرته بذلك. "طيب،" قال. ثم أخذ وشاحًا ليضعه على عينيه. كان طوال الوقت يمصمص شفتيه ويجزُّ على أسنانه بقوة حتى خشيت من أن يبلعها. ثم سألنى: "**هل أنت سعيدة الآن؟**"

وعندما صعدت إلى السرير انحشر إصبع قدمى فى الحال فى الثقب الذى فى ملاءة السرير. ولكنها لم تكن غلطة قدمى فالملاءة

كانت مهلهلة جدًا حتى إنها تمزقت إلى قطعتين بيُسّر كما لو كانت ورقة. **"هيه، هذه هى الملاءة الوحيدة الجيدة لدىً."** فصممت أذنى عن فيض الشتائم التى كانت تنسكب من فم الرجل الذى بدأ فى خلع ملابسه.

"عذرًا،" قلت، **"هل تكرمت من فضلك بإطفاء النور؟"**

"انتظرى،" قال لى، **"فلقد بدأت للتو فى خلع ملابسى."**

أى رجل قد تلقى أى قدر من التربية كان سيدرك أن هذا هو ما دفع امرأة مثلى أن تطلب إطفاء النور. فلم أكن أريده أن يقف أمامى عاريًا منفوخًا كالطاووس، كما فعل سابقًا فى تلك الليلة فى جامايكا. **"ولهذا أريد إطفاء النور."** اضطررت أن أخبر ذلك المغفل بهذا الأمر.

فضحك. وقال: **"ها أنت لا تستطيعين الوثوق بنفسك وإبعاد نظرك عنى."** ولكنى لم ألق له بالاً. حتى عندما لا يكون نور الغرفة مضاءً فمصابيح الشارع تتوهج مضيئة عبر النافذة. أى فقير من جامايكا سيكون فخورًا بحصوله على هذا الكم الكبير من الكهرباء الذى يمتد ليصل إلى عينيه فى هذا الوقت المتأخر من الليل. بمقدورى أن أشعر بالرجل واقفًا بجانب السرير بعدما أنهى لباسه. يرتعش من شدة البرد وراح يقفز. فقررت عندئذ إذا لمست أصابعه هذه الغطاء الذى على السرير فسوف أصرخ عاليًا جدًا حتى يسمعنى كل الناس بمن فيهم من هناك فى ديارى فى هاف واى. كان من العسير القول أيهما كان يئن أكثر ـ هذا الرجل السخيف وهو يلف الأغطية حوله، أم ذلك الكرسى الذى ينهار من أسفله حيث كان يتحرك كثيرًا متململاً لإيجاد وضعية مريحة.

ظننت فى أول الأمر أن صوت الخريشة هذا يصدر من جلبرت ـ فقد كان فظًا بما يكفى لأن يسلك مثل هذا السلوك الكريه. ولكنى حينئذ سمعت صوت أقدام صغيرة تطقطق عابرة السقف فوق رأسى. "هل تسمع ذلك؟" سألته.

كان الرجل الحقير نائمًا. فاستيقظ قائلاً: "ماذا، ماذا؟"

"هل تسمع صوت الخريشة هذا؟"

فأجابنى وكأن ما يحدث شىء طبيعى ومسلم به: "ليست إلا الجرذان".

"جرذان؟!"

"حسنًا، فئران صغيرة."

"أتيت بى إلى منزل فيه جرذان؟"

"لا، إنها فئران صغيرة. وكل منزل فى لندن فيه فئران، لقد تشردت هى أيضًا كما تعلمين."

ولكن صوت الخريشة هذا كان عاليًا جدًا. فسألته: "هل أنت متأكد من أنها فئران؟"

فأجابنى: حسنًا، أنت تعلمين أن الفئران فى إنجلترا تحب ارتداء الأحذية ذات الرقبة."

وشعرت به يبتسم على هذه النكتة السخيفة التى ألقاها. "يجب أن تتخلص منها."

قال: "حسنًا،"

"الآن، يا جلبرت."

"كيف تنتظرين منى أن أتخلص منها الآن؟"

"لقد قلت إنها فئران صغيرة."

"فئران أو جرذان، مازلنا فى منتصف الليل. ماذا تريدين منى أن أفعل؟"

"يجب أن تخبر صاحبة المنزل."

"هيه، تريدين منى أن اذهب لأوقظها، وأخبرها بشىء هى فى الأصل تعلمه. اهدئى، يا هورتنس، أرجوكِ، وأخلدى للنوم، إنها لا تتسبب سوى فى قليل من الضجة."

حاولت أن أنام، ولكن هذه الفئران قررت أن تدفع البيانو عبر أرضية الحجرة التى تعلونا. كنت أستطيع رؤيتها فى عقلى بوضوح كما لو أننى أشاهد أجسامها المكسوة بالفرو تسير بعسر فى أحذيتها ذات الرقبة.

قلتُ بصوتٍ خافت: "جلبرت."

"أوه، هه، ماذا الآن؟" قال صائحًا. ثم أخذ فردة حذائه ورماها على السقف. فسمعت صوت هروب هذه الكائنات حتى قبل أن تهبط فردة حذائه، "آآه" على رأس جلبرت. ياله من مهرج!

"ما يذهب للأعلى لابد وأن يعود للأسفل،" قلت له.

فقال راجيًا إياى: "أوه، بريكِ، أرجوكِ، اخلدى للنوم، يا هورتنس، أعدكِ أن الحال سيكون مختلفاً فى الصباح."

الفصل الحادى عشر

جلبرت

حدثتنى مرآتى. قالت: **"يا هذا، سوف تقع النساء تحت قدميك."** فقد بدوت فى زيّى الأزرق ـ من الجانب الأيسر، والجانب الأيمن، ومن الخلف ـ كإله. ورغم أن هذا الزىّ لم يكن مقاسى تمامًا، ولكن ماذا يعنى القليل من الاتساع حول الخصر وبعض الضيق تحت الذراعين عندما يكون المرء عضوًا بارزًا فى القوات الجوية الملكية البريطانية؟ ضع بضعة آلاف من الجامايكيين فى الزىّ العسكرى، ثم احبسهم لبعض الوقت، وأثناء ذلك، وعلى طريقة أغنية دوق يورك العظيم الكبير، فلتأمرهم بالصعود إلى التل ثم النزول عنه للأسفل من جديد، لن يفكروا عندئذ فى شىء سوى النساء. عندما يكونون فى الأعلى سيتخيلونهن، وعندما ينزلون للأسفل سيحلمون بهن. ولكن ليس هذا ما حدث مع هذه المجموعة التى سافرتُ معها إلى أمريكا. لا هربرت، ولا فلتون، ولا لينفال، ولا جيمس، ولا حتى أنا، كنا نفكر فى النساء. حيث إن كل مجموعتنا لآخر فرد فيها

كانت مشغولة جدًا بالتفكير فى الطعام. كان نوع اللحم الوحيد الذى نستحضره فى مخيلتنا هو النوع الذى يمضغ ويبلع.

هذه هى الحرب. كنت قد هيأت نفسى للحرمان والشدائد ـ رصاصة، قنبلة، موت عارض مفاجئ ـ ولكنى لم أكن مستعدًا أبدًا للعذاب لفقدان حساء الكوارع، ولا لظلم العيش بدون الجمبرى بالكارى أو شوربة معدة البقر بالفلفل والخضراوات والتوابل. لم أكن مستعدًا لهذا، فأنا اعتدت أكل طعام مُعَد فى قدر من الماء المغلى، لهدف وحيد وهو أن يفقد طعمه وقوامه. إن الكيفية التى أقام بها الإنجليز إمبراطورياتهم بجيوش تتقدم وتحارب بمعدة لا تحوى شيئًا سوى العصيدة يجب أن تكون واحدة من عجائب الدنيا. أظن أن هذا الصراع الذى بداخلى سوف يدفعنى للندم على تطوعى فى القوات الجوية، بطاطا نيئة، خضار مسلوق ـ طعام رمادى رخو فى الطبق كما لو كان قد أكل من قبل. لماذا يقوم الإنجليز بطبخ كل شىء بهذه الطريقة؟ من حسن الحظ أنهم احتفظوا بسرٍ غلىَ الطعام هذا كسرٍ قومى ولم يُصروا على جعل الشعوب فى مستعمراتهم يتوقفون عن قلى طعامهم وتتبيله.

لقد نشأت فى أسرة بها عشرة أطفال. فعلى مائدة الطعام فى منزلنا قد يختفى نصف طعام عشائى ويذهب إلى من حولى فى دقيقة واحدة. فتعلمت أن آكل بسرعة بيد بينما تقوم ذراعى الأخرى بالحماية والدفاع عن طبقى. ولكننى مع هذا الطعام الإنجليزى يمكننى أن أضجع إلى الخلف، وأمضغ ببطء تاركًا أهل بلدى من الجامايكيين يسرقون منه ماشاءوا. لم أر حتى الآن ميدان الحرب، ولكن لو كان العدو يقلى بعض السمك وكرات العجين، من يدرى إلى من سأصوب بندقيتى؟

والآن أنا أقص عليكم هذا لعلكم تتفهمون بشكل أفضل ما عاناه

جامايكى فاقد للرغبة الجنسية وشديد النهم والجوع عندما وصل، وحلَّ ضيفًا على الحكومة الأمريكية، فى معسكرات الجيش فى فيرجينيا. كانت صينية الطعام الفضية مقسمة إلى أقسام عميقة لكى لا ينسكب منها الطعام. فى كل قسم منها وضع لحم خنزير مقدد، بيض (بيضتان كاملتان!)، سجق، طماطم مقلية، بطاطا مقلية، خبز التوست، وموزة وبرتقالة. أما الحبوب مع اللبن فكانت موضوعة وحدها فى سلطانية صغيرة.

أحطتُ ذراعى بالطبق حتى من قبل أن أجلس فى مقعدى. هدأت سريرتى فقط عندما تأكدت بأن شائعة تقديم حصص ثانية وثالثة أو رابعة إضافية من الطعام ليس خيالات عقل مضطرب. وأقسم إن العديد من الدموع أذرفت أثناء تناول هذا الإفطار. الفردوس، اتفقنا جميعًا على هذا الرأى، أمريكا هى الفردوس. كانت سعادتنا بحوض الاستحمام المملوء بست بوصات من الماء والذى يبارى البحر الكاريبى فى استحواذه على حبنا، وسعادتنا بوجبات الطعام التى تساوى، لا، بل هى تفوق رضاءنا بالوجبة الأولى، هو ما جعل كلمة الفردوس تندفع من أفواهنا اندفاع سدادة الفلين من زجاجة الشمبانيا.

"**حسناً، يا أولاد، والآن تجمعوا إلى هنا واستمعوا لى،**" هذا ما استهل به هذا الضابط الأمريكى خطابه معنا. أراح نفسه بأن جثم على حافة المكتب فى جلسة غير رسمية، كان هو الرجل الأبيض الوحيد فى هذه الغرفة المليئة بمتطوعى الخدمة من البحر الكاريبى.

"**أعيرونى كلكم الانتباه،**" حذرنا العريف باكستر، ضابطنا

الإنجليزى غير المفوض عندما كنا منتظرين هذا الضابط الأمريكى قائلاً: "**لديه ما يود إخباركم به وأنتم ضيوف هنا، لذا أنصتوا إليه بأدب، اتفقنا**".

كان رأس هذا الضابط الأمريكى شاخص العظام ـ الفك المربع ليس أمرًا غريبًا خاصة عندما يكون لضابط، لكن جمجمة مربعة، هذا حقًّا غريب! همس لينفال فى أذنى: "**لا تزال أمه محولة العينين منذ ولادته**،" ابتسمت ابتسامة جعلت عينى هذا الضابط الزرقاوين تتسمران علىَّ وحدى كما لو كانا سيخترقاننى.

"**أنتم الآن فى ضيافة العم سام**."

كنا جالسين براحتنا ـ لدرجة أن بعض الأولاد كانوا يدخنون ـ بطوننا ممتلئة، آملين قضاء بعض الأيام فى أرض الحرية، كان بعضنا، حيث يميل بعض الجامايكيين لفعل هذا، يوافقون شفهيًا بقول: "**نعم يا سيدى ـ مم مم**".

أصابت الضابط فجأة نوبة تشنج فى ظهره قبل أن يستكمل كلامه. "**كل التسهيلات الخاصة برتبكم العسكرية ستكون متاحة لكم أثناء تواجدكم هنا**." فى تلك اللحظة توقف عن الكلام، منتظرًا رد فعل أكثر حيوية من مجرد هز الرأس والابتسامات العريضة التى تلقاها. "**سيكون فى مقدوركم الاستمتاع بقاعات السينما، والملاعب، وكل ما تريدون من وجبات الطعام، إلخ، إلخ**."

همس الشباب الصغير القادمون من الجزيرة الصغيرة لبعضهم البعض: "**أين تقع إلخ هذه؟**"

"**بينما أنتم فى المعسكر ستكونون تحت إمرة ضابطكم غير المفوض، وستتبعون قواعد القانون العسكرى الإنجليزى**."

من يأبه بالقانون مادام الإنجليز لا يطبخون الطعام؟

"لكن..." لم أكن وحدى من ينتظر تلك الغصَّة، **"ستكون حركتكم، خلال مدة إقامتكم هنا، مقصورة داخل المعسكر."**

آوه ارتفعت أصوات صرير الأسنان والتذمر فى الغرفة، **"هيه .. هيه.. هيه .."** قيلت بحدة كفرقعة النيران. ولم يبق أحد إلا وقد قطب حاجبيه.

اضطر الضابط إلى رفع يده حتى يهدأ من بالغرفة. **"السبب فى ذلك ..."**

"هيه .. هيه.. هيه .."

"أعيرونى انتباهكم، من فضلكم. السبب فى هذا القرار، والذى سيوضحه لكم ضباَطكم غير المفوًضين بتفصيل أكثر ـ هو أن نقلل خطر تعرضكم للإصابة بأى عدوى. فقد كان القادة العسكريون الإنجليز واضحين بشكل قاطع بأن اى رجل يصاب بالعدوى أثناء وجوده هنا لتأدية الخدمة سوف يُمنع من السفر، وأكثر من ذلك سيعود إلى موطنه الأصلى على الفور."

ولكن ما قاله لم يثلج صدورنا. حيث صارت أفكارنا بعدما امتلأت بطوننا تتجه بالكامل إلى النساء. بالرغم من أنى لم يكن لدى رغبة فى الرجوع بعد أن قطعت كل هذه المسافة، إن أمر هذه الحرب يُحبط رغباتى. لا يدرى أحد كم سيطول بنا الوقت ونحن محبوسون فى هذا المعسكر بدون أن نرى صدرًا ناهدًا، أو أردافًا مستديرةً، أو أرجلاً ملفوفةً. كم سيطول بنا الوقت بدون صحبة النساء؟ أسبوعًا؟ شهرًا؟ ألن ترانى أية فتاة أمريكية وأنا فى زيىّ العسكرى ـ آوه، يا ولد، إن هذا الأمر جاد. همهم كل من بالغرفة ـ لقد وضع هذا الضابط إصبعه فى عش الدبابير وأثار غضبهم.

"أعلم، اعلم، لقد خاب أملكم جميعًا. ولكن طالما أنكم فى هذه المؤسسة العسكرية،" وارتفع صوته قائلاً: "وضيوف على حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ستتقيدون بقوانين هذا المعسكر. ولقد أُمر كل فرد هنا بالتأكد من أنكم تلقون أفضل ترحيب يمكن أن يقدمه العم سام للزنوج من حلفائه." ثم صار يصرخ الآن بصوتٍ عالٍ: "هل لديكم يا شباب أية فكرة إلى أى مدى أنتم محظوظون؟ لن تُعاملوا كزنوج!"

قد يكون ابن عمى إلوود على حق. "يا رجل، هذه حرب الرجل الأبيض. لِمَ تريد خسارة حياتك من أجل الرجل الأبيض؟ إن كان ذلك من أجل جامايكا، فنعم، من أجل أن تحرر بلادك، نعم، هذا ما يستحق القتال من أجله. ان ترى بشرة سمراء فى منزل الحاكم تفعل شيئًا اكثر من مجرد تقديم الطعام ومسح الأرضية. ان ترى رجلاً فى شركات تيت آند لايل يقوم بشىء أكثر من مجرد قطع قصب السكر. هذا ما يستحق القتال من أجله. عندئذ سأنضم إليك، يا رجل. ولكن هل تعتقد أن الفوز بهذه المعركة سوف يغير أى شىء بالنسبة لى ولك؟"

أنثروبويد ـ بحثت فى القاموس عن معنى هذه الكلمة التى استعملها هتلر ورفاقه لوصف اليهود والملونين من البشر. وكأنما تلقيت لكمة فى رأسى عندما قفز معناها من الصفحة وصفعنى: "يشبه الإنسان ولكنه بدائى، مثل القرد." تلقيت ضربتين على رأسى. ذلك لأننى رجلٌ أسود وُلِدَ والده يهوديًا.

ظل والدى يكرر مقولةً واحدةً لأولاده التسعة مرارًا وتكرارًا ـ لدرجة أننا كثيرًا ما كنا ننطق هذه الكلمات كما لو كانت تخرج من

فمه. كان يقول: "**تذكّروا، كان يمكن أن تكونوا يهوداً.**" وكانت تلك بالنسبة له أفظع لعنة يمكن أن تحل على أى شخص. كان أبى، بشعره الأسمر المجعد وبشرته القمحاوية الشاحبة، "عضواً مختوناً فى جماعة الإيمان اليهودية.

كان يخبرنا بذلك عندما كانت الكلمات التى يتفوهها لاتزال ذات معنى ـ أربعة أكواب من الروم قبل أن يثمل. ستة أكواب روم إضافية وتجده يذرف الدمع على يوم عيد بلوغه. ثمانية، ونسمع بعدها حكايات عن أسلافه الذين كانوا يتاجرون بالملح. ومع قرب نفاد ما بالزجاجة، نجده يتثاقل بالكلام ويلوّح بيده بجنون ناهرًا وموبخًا بعنف أمه اليهودية المتوفاة، وأباه، والتوراة، والمعبد اليهودى وكل القبعات السخيفة. كان يصيح: "**شكراً يا يسوع المسيح انك أريتنى النور.**"

رأى والدى هذا النور لأول مرة خلال الحرب العالمية الأولى، فى الحقول القريبة من يبرس، حيث لَقِى يسوع على أرض المعركة. وكان أبى يصر على أن ما حدث حقيقة. وهو أن يسوع قد شاركه تناول علبة معدنية من السمك وأعاره بعض أوراق الكتابة، ولم يكن فى وسع أحد أن يخالف أبى فى ذلك. وكان يهتف بصوت مجلجل قبل وفاته: "**لقد صرت مسيحيًا بسبب تلك المحبة التى عقدها معى المسيح.**"

ليس هناك مزيد من يوم الغفران، والحانوكة (يوم الأنوار)، وروش هاشانا (يوم رأس السنة اليهودية)، وعيد الفصح بالنسبة له. تنصَّل أخيرًا من عائلته، ونفى هذا اللباس اليهودى ذا الصليب الذهبى من مجتمعه فى ماندفيل. ولذلك أدار العديد من الناس

ظهورهم فى وجهه حتى إن والدى اكتسب موهبة مريرة وقاسية عبر عنها قائلاً: **"أستطيع تمييز الرجل إذا كان يهوديًا أم لا من مؤخرته."**

احتوته والدتى، لويس، وساعدته وكانت مسرورة متباهية فخورة بهذا الزوج ذى البشرة الفاتحة التى تقارب البياض. وبصفته بائعًا كان أبى يزود المحلات فى الجزر الشمالية بالأثاث. وبصفته زوجًا كان يزود أمى بالأطفال ـ صبيان فى البداية، أخى ليستر وأنا، ثم سبع من البنات، سبع أخوات!

ولأن اعتناق أبى للمسيحية كان اعتناقًا شديد الحماسة والحرارة فقد أخلص أبى للمسيحية أشد الإخلاص. وكان يأخذ عائلته سيرًا إلى الكنيسة الإنجليكية كل يوم أحد. وإذا سألت: لماذا لا يقود سيارته إلى هناك؟ كان يرد قائلاً: **"يجب الا تعمل ابدًا فى يوم السبت،"** وبعد انتهاء القداس كنا نحن الأطفال نقف فى صف واحد بجانب والدتنا التى تهمس قائلة: **"الكلمات البذيئة ممنوعة، الكفر بالدين ممنوع، اللهجة العامية ممنوعة."** كنا جميعًا نشاهد أبانا وهو يلتف متفاديًا الرجال البيض الذين يؤدون الصلاة هناك، آخذًا أيديهم المترددة المتجافية ليسلم عليها. ضاحكًا بشدة من قلبه على نكاتهم التى كانت بالكاد مضحكة. ومُربتًا بودٍّ على ظهورهم قبل أن يديروها فى وجهه. متوددًا لهؤلاء البيض الواقفين بغطرسة غير مهتمين بوجوده.

كانت الصورة فى الجريدة ليهودى ألمانى، وُصِم بنجمة من قماش على معطف قذر. كان يمشى فى الشارع، مُريبًا مهزومًا، بينما كان غير اليهود يرمقونه بنظرة تنم عن الاحتقار والازدراء التى عرفتها أنا وليستر من طقوس يوم الأحد الدينية. وبفضل الحماسة التى

أوقدتها فينا الإرسالية الدينية أراد أخى أن يقاتل فى هذه الحرب. ولكن عندما سأله ضباط القوات الجوية الملكية الإنجليزية: **"هل تنحدر من دم إنجليزى خالص؟"** أجابهم ليستر بقوله: **"تعالوا وخذوا دمى لتتحققوا منه."** لم يصدقه أحد عندما عاد إلى الوطن، مرفوضًا من القوات الجوية الملكية، مثقلا بالهموم بسبب ما علمه من أن الوطن الأم يقبل فقط العرق الأبيض فى هذه الحرب. **"أبدًا،"** صاح أبى، متذكرًا بيرس، **"مستحيل!"** فقد طلبت مصانع أمريكا أخى المهزوم المتواضع للعمل فيها.

لم يستطع ابن عمى إلوود تفهم هذا الأمر، **"لقد رفضوا أخاك عندما لم يناسبهم لونه، والآن بعدما غيروا رأيهم تريد أن تذهب إليهم لاهثًا لتلعق أحذيتهم. ياه، يجب عليك أن تحارب الإنجليز لا أن تنضم إليهم. ابقَ. لقد أداروا لك وجوههم الآن ـ قائلين يمكننا الفوز فى الحرب."** قد يكون هذا الكلام صائبًا. ولكنى كنت على استعداد لمحاربة نظرية العرق المتفوق هذه. ذلك لأن أبى كان يهوديًا وأخى رجلاً أسود. قلت لإلوود: **"إذا لم يتحقق النصر فى هذه الحرب، عندئذ تأكد بأن لا شىء سوف يتغير هنا أبداً."**

والآن ما استطعت استيعابه، هو أن هذا الضابط الأمريكى ذا الرأس الضخم كان يخبرنا بأننا نحن الهنود الغربيين، بوصفنا رعايا لجلالة الملك جورج السادس، فى الوقت الراهن، عرقٌ أسود سام. مسموحٌ لنا بالعيش مع الجنود البيض، بينما لم يكن ذلك مسموحًا للأمريكى الزنجى صاحب الجنس الأدنى. ارتبكت، لا، بل ارتبكنا جميعًا.

كنا نظن نحن الجامايكيين، ونحن نعلم أن جزيرتنا واحدة من أكبر الجزر فى البحر الكاريبى، كنا نظن أنفسنا من رجال العالم

المتحضِّرين. فنحن أفضل من "سكان الجزر الأصغر والذين يدور العالم عندهم فقط بضعة أميال فى كل اتجاه قبل أن يقعوا فى البحر. ولكن حتى أكثر سكان هذه الجزر بلاهة ليستطيع ملاحظة أن هناك شيئًا ما شاذًا فى هذا الموقف.

وبينما كان هذا الضابط الأمريكى يتجول حول المعسكر ليرينا إياه، أخبرنا بوجه باسم: "**ها أنتم ترون، الزنجى الأمريكى لا يعمل، إذا كان بطنه ممتلئًا فهو لن يعمل. سوف يعمل بقدر كاف عندما يجوع من جديد. مثلما يحدث تمامًا فى عالم الحيوان. ولكن الوضع يختلف معكم يا شباب لكونكم إنجليزًا.**" بينما كان الضابط يرينا مقاعدنا فى صالة عرض للأفلام الخاصة هى بالكامل للبيض، حاملين فى أيدينا قطعًا من الشيكولاته والسجائر لنتقاسمها، قد يقول الرجال: "**أنا مخلص لعملى ولكنك لن تجد أبدًا رجلاً أبيض يحترم ذاته يتقدم للمعركة مع زنجى.**"

وفى أثناء رقصة فى صالة طعام الضباط حيث أغرتنا رقصة البوجى ووجى والجيف ـ هيا اترك لنفسك العنان، يا رجل، هيا! نظروا إلى وجوهنا السمراء، وأمام بشرتنا الداكنة قالوا: "**نحن لا نمزج بين عرقَى الزنوج والبيض هنا؛ لأن ذلك يحط من كفاءة وحداتنا القتالية. فالزنجى الأمريكى لا يصلح حقيقةً للقتال.**"

من الواضح أن مضيفينا جربوا كل الحلول لحل مشكلتهم مع زنوجهم. "**الحل الوحيد المجدى فى هذه البلاد، وبالتأكيد فى الجيش، هو العزل العنصرى.**" ومن الواضح أن الجميع يحبذ هذا الرأى ـ ويتساوى فى ذلك الرجل الأسود تمامًا كالأبيض. وأطلقوا

على ذلك اسمًا ـ كلا لم يكن الاسم نظرية العرق السامى، بل أسموه: جيم كرو! (*).

وعلى الفور أدركتُ أننا كنا محظوظين لعدم سماح سلطات الجيش الأمريكى لنا بمغادرة المعسكر فى فيرجينيا. فنحن الهنود الغربيين، ونحن نحسب أنفسنا جيدين بقدر أى رجل آخر، كنا سنتجول فى البلاد جاهلين بما يحدث، سنحيى الرجال البيض الذين كانوا ليرموننا من على أقرب شجرة لمجرد أننا أمضينا جزءًا من النهار معهم. وماذا عن أخى ليستر؟ كيف لهم أن يعرفوا أنه من الملونين الإنجليز بدون أن يرتدى زيًا يميزه؟ ربما بشارة موضوعة على معطفه؟ ولكن ما شكلها؟ ومنذ ذلك الحين لم تعد كلمة الفردوس تندفع من بين شفتى كما كانت فى السابق. ويبدو أننا سنعود من جديد لأسلوب الإنجليز فى غلى وتحضير الطعام، ولكنى لم أكن الصبى الوحيد الذى سره أن يترك أمريكا خلفه.

اصطفت سفن ومراكب حربية من فرقاطات وطرادات وحاملات للقوات، وانتظمت فى المسير على طول الأفق فى نيوفوندلاند. كم كان عدد تلك السفن؟ أربعين، أو ربما خمسين، انبسطت جميعها على سطح الماء لعدة أميال حتى بدت وكأنها محض أوهام فى مخيلة لواء بحرى. جُمعت كلها من أجل مهمة واحدة: المرافقة والحماية عبر المحيط. ياله من مشهد! صدم هربرت وانخرس تمامًا لمدة عشر دقائق. وأخيرًا عندما نطق، قال بصوت مرتجف: "جميل جداً ومميت جداً." كان ما قاله موجزًا، نظرًا للعظمة المطلقة لهذه اللحظة، ولكنه كان تعليقًا ذكيًا رغم ذلك.

(*) قوانين جيم كرو: هو الوصف التحقيرى لزنوج أمريكا منذ ثمانينيات القرن ١٩ يوصف بها الفصل الاجتماعى فى كثير من الولايات الأمريكية. وهو اسم لشخصية وأغنية زنجية كاريترية تسخر من الزنوج الأمريكان (المترجم).

وبمجرد أن أبحرنا، وصرنا محكومين بالأوامر وأسرى على هذه السفينة، استهل العريف باكستر محاضراته. كان هذا الرجل يشعر بالسعادة والرضا وهو يقص علينا نحن "قوات المستعمرة" كل شيء تعلمه في عمره ذي الستة والعشرين عامًا عن إنجلترا كرجل لندني. بالنسبة لي، وجدت الأمر مسليًا. هل تعلمون أن الضباب في لندن قد يكون كثيفًا لدرجة أنه يتعذر عليك رؤية يدك إذا رفعتها في مقابل وجهك؟ لم أكن أعلم ذلك. ولكن العديد من الأولاد كانوا على علم بهذا وتثاءبوا ملء فيهم حتى جعلوها عريضة كأفواه التماسيح؛ لعل العريف باكستر يدرك.

"**لا تتوقعوا الأرز والبازلاء أو غيرها من الأطعمة المتبلة في إنجلترا أن تكون كتلك التي تعودتم عليها في أمريكا،**" قال محذرًا. وهذا ما كنت أعلمه ولم أكن مسرورًا بأن يذكرني أحد به. "**لقد خرجتم لأجواء الحرب.**"

أنا من تثاءب الآن.

"**إن الإنجليز يحاربون منذ زمن طويل، لقد تعب الجميع. وهناك نقص في الموارد. سوف تعتادون على ذلك. يمكنكم توديع أكل الموز نهائيًا،**" أبلغنا بنشوة غير مألوفة. ثم فجأة، وبدون تحذير، شعرنا نحن الهنود الغربيين المتطوعين في القوات الجوية الملكية والمُقدر لهم الحرب لأجل إنجلترا، شعرنا بشيء ما يشبه الانفجار. لم أكن الوحيد الذي هبَّ على قدميه استعدادًا للقتال عند سماع دوي الانفجار. ولم أكن الوحيد الذي قبض على سلاحه بحزم استعدادًا للقتال، بينما يقوم ذلك الثرثار المتخلف الغبي الأحمق العريف باكستر بالاستخفاف بنا مرة أخرى بعبارته تلك "**يا قوات المستعمرة،**" مخبرًا جميع الأولاد، "**ولا تظنوا جميعكم أن الحياة بالمدينة وردية. أو أن سيدة بيضاء هناك قد ترافق أمثالكم.**"

الفصل الثانى عشر

جلبرت

"اصحوا، اصحوا، اصحوا - اترك قضيبك وارتد جوريك." كان الرجل الذى صاح بتلك الكلمات المضحكة للغاية فى الساعة السادسة صباحًا لإيقاظنا نحن الهنود الغربيين المتطوعين فى القوات الجوية الملكية، يدعى الرقيب الطيار ثوايتس. كان الشعر منحسرًا عن جبهة هذا الرقيب. ويوجد تحت هذا الشعر المقتصد، الذى مُشِط ما تبقى منه بعناية، وحمة تتوهج على جلدة رأسه باللون الأحمر القانى، تأخذ بوضوح شكل الحرف B. كلنا نعلم، جميع الرتب العسكرية، بأنه فى يومٍ ما عندما يفقد هذا الرقيب ما تبقى من شعره بسبب الجاذبية والريح، ستظهر كلمة "باسترد"(*) أعلى صلعته فى تلك البقعة المحمرة. إن الشيطان هو الذى كتب

(*) باسترد فى الأصل:"Bastard" أى النذل، واستخدمتها الشخصية بدلاً من اسمه أحيانًا. (المترجمة).

هذه الكلمة بالحرق على جمجمته تحسبًا من وجود أى شكّ فى شخصية هذا الرجل المغرور ثقيل الظل.

أُسكنا أربعة أشخاص فى شاليه واحد فى معسكر التدريب فى فيلى فى مقاطعة يوركشير. كل ما هو مطلوب فقط هو الخيال الخصب لتصور كيف فى أوقات السلم قد تستطيع فعلاً العائلة الإنجليزية الاستمتاع بالإجازة فى هذا المكان الخرب الكئيب. فبعد كل يوم من النظام المشدد الذى لا مفر منه نجتمع أنا وهبرت وفولتن حول الأنابيب الساخنة، بعد الجرى عبر الحقول قارسة البرودة بدون أى شىء يحمينا من رياح البحر اللاذعة إلا صدرية، وسروالاً، والأوامر بأن "**استمر فى الحركة، استمر فى الحركة،**" التى انطلقت كاللهب من فم الرقيب باسترد.

أوصدنا باب المنزل الذى نقضى فيه الإجازة بالملابس الفائضة، وقمنا بسدّ الفتحات فى الشبابيك بأوراق الجرائد القديمة. ونجلس فى كل مساء متقاربين كالطيور فى العشة نشرب فى الحرارة التى تخرج علينا من الأنابيب. فى مرة خلع جايمس وشاحه وكان فقط هو من فعل ذلك. هل يمكن أن تكون هذه التعاسة هى صورة حيَّة للإجازة الإنجليزية؟ فى يومٍ من الأيام دخل علينا هذا الرقيب باسترد مندفعا فاتحًا الباب صارخًا فينا: "**ياللهول! إن الجو هنا كالجو المدارى. افتحوا تلك النوافذ.**"

لا يوجد أى اعتراض نقدمه نحن الجنود الملونين يبدو منطقيًا لدى هذا الرقيب. فمنذ المرة الأولى التى استقبل أوسكار تولك من أنتيجوا أوامر الرقيب بالتحرك فى هرولة بفمٍ فاغرٍ - مستفزًا الرقيب الذى قال شاكيًا: "**ما هذا الذى أرسلوه لى هنا بحق**

الجحيم؟" ـ أصبحت كل التصرفات التى تصدر منّا تؤكد لهذا الرجل بأن كل المتطوعين فى القوات الجوية الملكية من الهنود الغربيين هم أغبياء، بكل ما فى الكلمة من معنى. طريقة الأكل، النوم، التنفس! يا للعمى! كل شىء نفعله نحن السود سخيف.

لم نكن ندرى بأن إجابتنا للسؤال: "**ماذا تريد، يا طيار، قاتلاً أم مقتولاً؟**" بـ "**نود قتلك، أيها الرقيب طيار**" تجعلك متورطًا فى الإزعاج لأبعد حدّ. وأيضًا ذلك التصرف الجرىء، وهى عادة مصّ الأسنان الجامايكية المزعجة ـ عادة ما كانت ترن فى أذن الرقيب باسترد، مما جعله يعتبرها عملاً يدل على العصيان ويتصرف وفقًا لذلك. فإذا طلب أحدٌ من أى شخص إنجليزى بألا يمصّ أسنانه فسيجده يهز كتفيه بلا مبالاة. فى حين أنه سيجد الجامايكى وقد أعرب عما فى نفسه من أسى وتأنيب الضمير. آووه، كنّا كلنا، كل واحد فينا، حيث وُلِدنا جميعًا فى الشمس، أعضاء أساسيين فى تلك "**الفرقة المشاكسة**" الخاصة بهذا الرجل.

"**الجو الدافئ ليس مفيداً لكم،**" قال صائحًا، "**فهو يجعلكم لينين. والجو البارد يجعلكم منتبهين.**" وما إن فُتحت النوافذ وأصبحنا مرة أخرى مجموعة من الرجال السود جديرة بالشفقة تشعر بالبرد، حتى رمقنا بنظرةٍ ازدراء قبل أن يغادر الشاليه وقال: "**أراهن بأن جميعكم الآن نادمون على تطوُعكم.**" وبدون أى مصّ للأسنان يصدر منًّا الآن، قدمنا نحن الأربعة التحية له بصمت بإصبعين كما يفضلها تشرشل لكن، دعنى أؤكد، بالمعنى الوقح.

الآن ليخبرنى أحد، هل رأى أى شخص كلبًا مع برصٍ؟ كان لدينا كلب فى البيت ـ بلاكى ـ صديق طفولتى. قد أبحث عن تلك

السحالى الصغيرة وأضعها عن قصد فى طريق بلاكى، الذى يصارع أيدى شقيقاتى التى تأمره بالسكوت، ويزيح قبعة الرضيع من على رأسه، والقفازات بدون أصابع من قدميه الخلفية محققًا بذلك الكرامة لأنيابه الحقيرة.

عندما يشعر برص بوجود كلب يبقى ساكنًا سكون الموت. وأما بلاكى فينتابه الفضول والشغف عند رؤية برص. يرفع أذنيه، يجحظ بعينيه. كان يخاف من الحركات غير المتوقعة فيتحرك خلسة حول هذا المخلوق، لا يُبعد أبدًا ـ حتى ولو للحظة واحدة ـ نظره عنه. وبحذر، وعن قرب، يضرب الهواء من فوقه بقدمه ثم يقفز للخلف. يلّف حوله. يشمشم الهواء. يقترب أكثر، فأكثر. يثب للأمام، ينسحب للخلف، ينتظر. لا يقدر هذا البرص على تحريك أى عين من عيونه المخيفة من غير علم الكلب. قد يستمر هذا الوضع تقريبًا اليوم كله، إلى أن يستجمع بلاكى شجاعته فى النهاية ليجثم ببطء وهدوء إلى أسفل، ويهز مؤخرته، ثم ينقضُّ على البرص. أحيانًا يستطيع اصطياده لكن عادة ما يهرب البرص، لما يتمتع به من مهارة وسرعة أكثر من كلبى السخيف.

قد يتساءل البعض لماذا أروى كل هذه التفاصيل. لكن، تحلوا بالصبر. انظر الآن، إنه يوم جميل: شمسٌ خفيفة وليست دافئة تشرق فى السماء الزرقاء. ولأول مرة كنا خارج المعسكر، ستة أو سبعة شباب، وأنا معهم. نتروض فى زيّنا الأزرق للقوات الجوية الملكية فى شوارع القرية الإنجليزية هونمابى. لا يوجد تعليمات تُتَّبع، ولا أوامر تُسمع، فقط نحن الشباب. كنا نعلق على جمال تناسق ونقاء الحدائق ـ هناك زهور متفتحة، أصرٌ واحدٌ من

الشباب، لا أتذكر اسمه، على معرفته بأسمائها. حاول مغلقًا عينيه وعاضًا على شفتيه استرجاع تلك الأسماء. قال: **"وردة."**

"ياه، هذه ليست وردة،" قال واحد آخر. **"كل زهرة هى وردة عندك."**

"هذه وردة."

"إنها ليست وردة."

استمر هذا الجدال طوال الطريق مارين بمكتب البريد والمحل. استطاعت نافذة العرض فى المحل، بالرغم من تكدسها بالكثير من العبوات المعدنية والصناديق، بالبوح بأن ليس هناك الكثير لشرائه بالداخل. ويحاول هوبرت إقناع جايمس، وهو نصرانى مشيخى ويمتنع عن شرب الخمور كليًا، الدخول إلى الحانة. **"هل تعتقد بأن كوبًا صغيراً من الجعة قد يخرجك من الجنة؟"**

كنت أنا أول من لاحظ ما يحدث. همست لرفقائى وأنا أميل بسرعة ناحيتهم: **"يا رجل، الكل ينظر إلينا."**

القرية كلها خرجت لتلعب لعبة الكلب مع البرص. يحدقون من النوافذ المتربة، يحققون النظر ببلاهة من على أبواب المحلات. يفغرون بأفواههم وهم على الأرصفة، يطاولون أعناقهم عند البوابات لينظروا، يشدِّدون النظر من عند المنعطفات. حافظ أهالى القرية على المسافة بيننا لكن ثُبتتْ علينا ـ نحن المتطوعين الهنود الغربيين فى القوات الجوية الملكية ـ نظرات الفضول المختلطة بالفزع. مشينا نحن السود بارتباك تحت هذه المراقبة كارتباك اللصوص المقبوض عليهم فى وضح النهار.

قال هوبرت لى: **"جلبرت، اسألهم ما المشكلة."**

الأعين كانت تحيط بنا من كل اتجاه. قلتُ: **"الديك مكبر للصوت، يا رجل؟"**. لقد علمت القرية كلها عندما قمت بحك رأسى. إذا كان لأحدهم عصًا طويلة بما يكفى، أقسم بأنهم لكانوا قد لكزونا بها.

استغرق بعض الوقت قبل أن يخطو من يملك منهم الجسارة نحونا بحذر، وكان شيئًا غير مألوف. شابة صغيرة ـ ذات شعر أسود مجعد، وعينين سوداوين، جميلة وممتلئة من عند الأرداف ـ وقفت أخيرًا على بعد ذراع لتسأل قائلة: **"هل جميعكم امريكان؟"** كانت تفكر فى أن تتحسس جواربها النايلون التى على ساقيها الجميلتين. الأمر الذى، وهى واقفة مفعمة بالحيوية والأنوثة أمامنا، فكر فيه كل واحد من الشباب أيضًا.

"كلا، بل نحن من جامايكا،" قلت.

"الهند الغربية،" قال الترينداديون(*) منا مصححين.

ومثل الشقوق فى السد، دلف إلينا أهالى القرية كقطرة قطرة. الأغلبية أومأت برأسها لا غير وهم يمرون. وسلَّم علينا رجلٌ عجوز ـ رُسمت التجاعيد على وجهه مثل قاع النهر الجاف ـ بحرارة وقال: **"كلنا شركاء فى هذا، يا ولد. نحن سعداء لوجودكم هنا ـ سعداء لوجودكم."**

وربَّت زوجان عجوزان على كتف جايمس وسألاه: **"لو سمحت، يا صاح ـ هل تمانع من أن تقول لنا شيئًا؟ زوجى فقط يقول إنكم لا تتحدثون الإنجليزية."**

(*) الترينداديون (Trinidadian) سكان أرض فى شمال شرق فنزويلا على المحيط الأطلسى اكتشفها كولومبس، أصبحت مستعمرة إنجليزية فى ١٨٩٨. (المترجمة).

وعندما رد جايمس قائلاً: **"بكل تأكيد، يا سيدتى، لكن ما الذى تريديننى أن أقوله،"** صرخ زوجها قائلاً: **"يا للهول! نورما، أنت على حق."**

بينما استنتجت نورما: **"هذا هو، لقد أخبرتك. إنهم يتحدثونها مثلنا تمامًا، فقط بطريقة مضحكة. ياه، يا صاحبى، آسفة لمضايقتك."**

ترك رجلٌ فى منتصف العمر، ليس مرتديًا الزىّ، يديه فى جيوبه قبل أن يوجه حديثه لنا. يراقب باهتمام شديد الشابة، التى توافقت مع المحظوظ فولتن ـ منسجمة معه رغم ما أُكد لنا بأنه لا يوجد أى امرأة بيضاء ستنسجم معنا ـ تكلم هذا الرجل، الذى لم يبال بالنظر إلى وجهى، وسألنى: **"لماذا تترك مكانًا جميلا ومشمسًا لتأتى إلى هنا إذا كنت غير مجبر على ذلك؟"**

وعندما أجبته قائلاً: **"للقتال من أجل بلدى، يا سيدى،"** قفز حاجباه مثل اليرقات فى رقصة البولكا.

"آووف. بلدك؟" قالها بطريقة لا تحتاج الرد. ثم أخذ بذراع الشابة الصغيرة، وقادها، غصبًا، بعيدًا عن فولتن والمجموعة.

دعنى أطلب منك أن تتخيل ما سأرويه عليك. فى مكان يقع بعيدًا عنك توجد هناك علاقة طاهرة بينك وبين من لم تقابلها من قبل. هذه العلاقة لقريبة عزيزة جدًا تعرف بالأم. أمك دائمًا تتحدث عن الأم. **"آووه، إن الأم امرأة جميلة ـ طاهرة، دمثة، متحضرة."** ووالدك يقول لك: **"الأم تفكر فيكم كأنكم أولادها؛ مثل الرب فى الأعلى، هى تهتم بنا من بعيد."** هناك العديد من القصص التى تتحدث عن شجاعتها، تأسر الرجال الناضجين والأطفال

أيضًا. وصورها الفوتوغرافية الغالية، أُلصِقت فى دفتر الصور العائلى لكى تبجل وتوقر مرة تلو الأخرى. أعز الأشياء، وأثمنها، كل شىء لديك يستحق أن ترسله للأم كهدايا. وتحتفل وتغنى لها فى عيد ميلادها.

ثم فى يوم من الأيام تدعوك أمك ـ فهى فى مشكلة، وتحتاج إلى مساعدتك. أمك، وأبوك يأمرانك بالذهاب، اترك البيت، اترك ما ألفته، اترك الحب. سافر فى البحر والأمواج التى تعلو مثل المبانى الأسمنتية الضخمة. القشعريرة، والإرهاق، والجوع ـ فلا تقدر التضحية بثمن أمام رؤيتك بجانب الأم المحتاجة للمساعدة. هذه بالتأكيد مغامرة. بعد كل الذى سمعته، هل تستطيع التخيل، هل تصدق بأن، حالاً، حالاً، ستقابل الأم؟

وذلك الصعلوك القذر الذى يحييك فى نهاية المطاف هو هذه الأم. رثة الهيئة، عجوز، مترية من موت عميق. لدى الأم عينان شديدتا السواد، ونَفَس نتن، وسنّة وحيدة تتأرجح من رأسها كلما تحدثت. هل هذه هى العلاقة الأسطورية التى سمعتها مرات كثيرة؟ هذه المرأة مشوهة الحقيقة، الملتوية، المنهكة. هذه الحيزبون الكريهة المُحبة للخصام. فهى لم تقدم لك الراحة بعد سفرك هذا. ولا ابتسامة. ولا حتى الترحيب. ومع ذلك تنظر إليك بعين السيد المتعالى وتقول: "**من تكون انت بحق الجحيم؟**"

"**حسنًا، يا جلبرت، لقد ذهبت بخيالك بعيداً،**" أقدر أن أسمعك تقول ذلك. أنت تعرف أنى أتكلم عن إنجلترا ـ أنت تعلم أنى أتحدث عن البلد الأم. لكن بريطانيا تعانى من ويلات الحرب، ربما تريد أن تقول لى هذا، وبالتأكيد هى ليست فى أحسن أحوالها.

يهز بعض الشباب رؤوسهم، ويمصون أسنانهم مع أول نظرة لهم لإنجلترا. ليس بسبب خيبة الأمل - إنها الفوضى العارمة والخراب الذى جعلهم يعبسون. تسمع منهم شهقة الألم على كل منظر فيه دمار يمرون به. وعلى طول الشوارع تتعثر بحطام القنابل والأماكن المدمرة وكأنها أشياء شيطانية تناثرت بسبب الريح. وبعض الشباب الآخر ينظر إلى السماء الكئيبة غير المشمسة، وأسنانهم تتخبط ببعضها بجنون، وتقشعر جلود أذرعتهم العارية، ويتساءلون فيما بينهم أهذا هو دفء الصيف الإنجليزى.

ويفغر بعض ساكنى الجزر صغار السن أفواههم وكأنهم مغفلون عند رؤية نساء بيض يعملن بجد على سكة الحديد، وتتمايل المطرقة والفأس فى أيديهن مثلهن مثل الرجال الأقوياء. نساء يَرْدُدْنَ على الوقاحة التى تلقينها من هؤلاء الشباب الذين كانوا يصفرون لهن بنفس الوقاحة. بينما يخفض الشباب الأصغر سنًا من ساكنى الجزر - شباب غير معتاد على السلوك الدمث مع الناس البيض - عينه، ويعض شفتيه وينظر حوله لمصدر لتقوية عزيمته عندما يواجه امرأة بيضاء لأول مرة تقدم له الخدمة. **"ماذا أُحضر لك، يا سيدى؟"** أجل، يقمن بتقديم كوب من الشاى والكعك.

أراد الزميل لينفال الجامعى أن يعرف كيف أصبح الكثير من الناس البيض يتكلمون بهذه البشاعة - إنها طبقة اجتماعية منخفضة حادة الطبع وخشنة مثل قاطعات القصب.

أما هوبرت فقال للشباب الذى تاق ليرى وجه المقارنة وهو متمعن فى الريف بابتسامة رقيقة: **"لكن انظروا، إنها تمامًا مثل بلدنا،"** - التلال الخضراء التى تشبه منطقة كوكبيت الخضراء،

والزهور التى تبعث البهجة لجمالها تمامًا بنفس قدر مجموعة زهور الكركديه الزهرية، والأنهار التى تجرى بنفس المنظر المذهل لمنظر نهر دون.

ولن أنسى جايمس، الذى اعتراه الارتباك كطفل حديث الولادة، وهو واقفٌ وقفة عسكرية ومحاطٌ بأطفال إنجليزٍ ـ وجوهٌ لأولاد صغار مسودة من الوسخ، ومخاطٌ قد جفَّ وقشّر على جانب أفواههم ـ الذين صاحوا عليه يقولون: **"اوى، يا أسود، هيا أرنا ذيلك."**

ولكن بالنسبة لى فلدى سؤال واحد ـ دعنى أسأل الوطن الأم هذا السؤال البسيط: كيف لم تتعرف إنجلترا علىَّ؟

فى يومنا الأول فى إنجلترا، حيث مضى بنا القطار بنفخاته ونعراته يخترق الريف والمدينة، جلسنا، نحن قوات المستعمرات، نلعب لعبة. كنا ننظر إلى لوحات الدعاية الكبيرة، والفائز هو من يقول فى أى مكان فى إنجلترا صنع هذا المنتج الذى فى الإعلان. وبغض النظر عن قليل من الجدل أين صُنعت السيارة فورد فى اكسفورد أو ديجنهام، كنا نعرف الإجابة.

تمعن النظر فىَّ الآن، ولدٌ صغير، مرتدٍ زيًا بلون أزرق البحارة، قميصًا أبيض، ورابطة العنق، وبنطلونًا قصيرًا، وجوربًا أبيض طويلاً. وقفت عند باب الفصل؛ تخللت أشعة الشمس من شيش النافذة لترسم خطوط الظل عبر الغرفة. زملائى، مدرستى كلهم نظروا إلى، منتظرين. انتفخ صدرى مثل الرائد فى العرض العسكرى، الذقن إلى أعلى، والأذرع إلى أسفل. أنصت إلىَّ الآن ـ صوت عال ينطق كل p و q وكل الحروف بينهما. أنا أبدأ فى تسميع أسماء القنوات المائية فى إنجلترا : قناة بريدجواتر، قناة منشستر –

ليفربول، قناة جراند ترنك التى تستخدمها الشركات الصينية فى مدينة ستوك - أون - ترنت.

قد أستطيع إخبارك وقتها عن سكك القطارات، والطرق، والموانئ وأرصفة الموانئ. وقد أهتف فى البرلمان فى ويستمينستر ـ والمجلسين، مجلس العموم ومجلس اللوردات. وإذا حُدد لى ميعاد لوقفت ممشوقًا لأبدو أطول لأقول لك أكثر القوانين جدلاً التى سُنت فى هذا البرلمان. وليس أنا فقط. بل اسأل أى متطوع هندى غربى فى القوات الجوية الملكية ـ اسأل أى واحد من جنود المستعمرات أين فى بريطانيا يتم بناء السفن، وأين يغزل القطن، وأين يطرق الفولاذ، وأين تصنع السيارات، وأين تغلى المربى، وأين تصنع الكؤوس، وأين تعقد عقد الدانتلا، وأين ينفخ الزجاج، أين يسكُّ القصدير، وأين يقطر الويسكى. (هيا) اسأل. واسترح فى جلستك لتتعلم الدرس.

والآن انظر إلى هذا، جندى إنجليزى، إنه تومى، هكذا يُطلق عليه تومى آتكينز، بشرته باهتة كالصابون، وشعره المدهون بالزيت يلمع أكثر من حذائه. تراه يجلس فى حانة يحتسى كوبًا دافئًا من مشروب الروم، ويسحب سيجارة من علبة السجائر. اسأله: "**يا تومى، أخبرنى هاه، أين تقع جامايكا؟**"

ستسمعه يرد قائلاً: **حسنًا، ما أدرانى، إفريقيا، أليس صحيحًا؟**"

انظر إلى هذه المرأة المرتدية فستانًا أخضر من القطن، التى تقف فى المطبخ وأطفالها على مائدة الطعام رافعين بصرهم إليها بترقب يلحسون شفاههم. راقب كيف تضيف بحذر السكر فى أكواب مشروب الشوكولاتة. اسألها ماذا تعرفين عن جامايكا. "**جام ـ أين؟ ماذا قلت؟ ما هو اسمها مرة أخرى؟ جام ـ ماذا؟**"

وهنا ليدى هايفيلوت، التى تعيش فى بيتها الكبير مع صور أجدادها التى تتزاحم على الجدران. تراها تحتسى قهوة الصباح مع أصدقائها. اسألها لتخبرك عن سكان جامايكا. هل تخبرك بأن هناك ولدًا صغيرًا يقف ممشوقًا فى فصل يتخلله ظل أشعة الشمس، يتحدث عن إنجلترا، القنوات، والبرلمان والقوانين المهمة التى سنت فيه؟ أو ربما أخبرتك، ببعض القوة، عن طريق صديق أو من كتاب قرأته، عن الهمجيين، وأهالى الأدغال والتمرجح بين الأشجار؟

لم يكن أمرًا مقبولاً الا نسافر نحن الجامايكيين، نحن الهنود الغربيين، رعايا الإمبراطورية البريطانية، لحماية الوطن الأم عندما تتعرض للهجوم. لكن، هلا أخبرتنى، إذا تعرضت جامايكا للخطر، فهل يستطيع أى رائد أو جنرال أو رقيب أن يعرف أين تقع هذه الجزيرة العزيزة؟ أعطنى خريطة، لنرى إذا استطاع تومى آتكينز(*) أو ليدى هايفيلوت تحديد موقع هذه الجزيرة الغالية. دعنا نراقبهم وهم يقلبون الورقة، يلفون بأعينهم ليبحثوا عنها، وقد يقلبون الورقة ليروا ما إذا كانت قد تحركت للخلف، قبل أن يهزوا أكتافهم بلا مبالاة ليعلنوا الهزيمة. لكن أعطنى الخريطة، أغمم عينى، وابرمنى حول نفسى ثلاث مرات وسأزال، بالرغم من إصابتى بالدوار، أستطيع أن أشير بإصبعى مباشرة على الوطن الأم.

(*) تومى آتكينز (Tommy Atkins) الاسم الذى يطلق على الجندى البريطانى عمومًا وخاصة أثناء الحرب العالمية الأولى. (المترجمة).

الفصل الثالث عشر

جلبرت

"**لقد أخبرتنى العصفورة الصغيرة بأنك تستطيع أن تقود سيارة، يا جوزيف.**" سألنى الرقيب باسترد.

فأجبته قائلاً: "**كلا، يا سيدى.**"

أتعتقد بأنه يسعدنى أن أنظر فى عين هذا الرجل وأقول له: "**نعم، هذه العصفورة الصغيرة على صواب.**" أم يروق لى مراقبة ملامح وجهه ترتسم عليها الدهشة وهو يقيّم هذه المعلومة، ورؤيته شاخص البصر نحو السماء حائرًا ويقول: "**أيمكن الا يكون كل السود بلهاء؟**" ولكن لم يكن لدىَّ الوقت الكافى لهذا الكرم الأخوى. هذا صراع داخلى خاص به. يا له من كاذب وبائس الذى قال: "**كلا، أيها الرقيب طيار، لا أعرف القيادة.**".

حسنًا، دعنى أشرح الأمر، فبعد أن لاحظتْ لويس جوزيف، أمى، أن والدى لا يوفر الخبز لعائلته إلا عندما يكون غير ثمل (عمومًا ليس أكثر من ثلاثة أيام فى الأسبوع)، قررت أن أولادها سيأكلون

الكيك عوضًا عن ذلك. وكان هذا بمثابة مولِد مشروع. هو مشروع تخيلته ونمَّته أمى وأختها، الخالة ماى. فلقد صنعت أمى وأختها أجود الكيك فى جامايكا، سواء كان الكيك الإسفنجى الخفيف أو المثقل بالفواكه والروم. فقط جامايكا؟ كلا، بل من المحتمل فى منطقة الكاريبى، بل العالم كله. الكيك الذى يناسب كل المناسبات ـ عيد الميلاد، عيد الفصح، حفلات الزواج، أعياد الميلاد، حفلات التعميد، والذكرى السنوية، وفى مرة، سلَّمتْ لبيت الحاكم، كيك لموت كلب.

كانت تصمم أمى، أمام والدى غير الثمل، بأن خَبز الكيك ما هو إلا هواية. فلقد أخبرته قائلة: "**لا مشكلة، فأنا أعد فقط الكيك فى المطبخ، عليك انت ان تكسب القليل لأجل الزيادات.**" ومن وراء ظهره الغارق فى السُكّر كانت تدير أمى والخالة ماى عملاً جادًا، كانت كل الطلبات، والتسليمات، والنثريات، والنقص، ومشاكل العمالة، والضرائب على الدخل تُقيَّم بعناية. إن السر الذى علمه الجميع ما عدا والدى مدمن الخمر ـ هو أن شغل الكيك يدخل لعائلتها مالاً وفيرًا أكثر مما يستطيع أن يكسبه زوجها. دائمًا ما كانت خالتى ماى تضحك من أن أمى واسعة الحيلة حيث إنها ولَدتْ عمَّالها. سبع أخوات ـ يتشاجرن، يدفعن بعضهن بعضًا، ويقهقهن فى المطبخ ـ قد يخلطن، ويخبزن، ويبردن، ويُحزمن العبوات. أما نحن الولدين، لاستر وأنا، فكنا رجال توصيل الطلبات الموثوق بهما.

استطعت القيادة من سن العاشرة.

قال باستر: "**تستطيع القيادة منذ سن العاشرة، هذا ما سمعته.**"

"**كلا، أيها الرقيب طيار. إنه شخص آخر.**"

إنه الكيك الذى أرسلنى أنا ولاستر إلى المدرسة الخاصة، كلية القديس جون، فى عمر الخامسة عشرة. إنه الكيك الذى شهد على تعلمنا بعيدًا عن التفكير فيما إذا كانت القيادة وتوصيل الطلبات عملاً مناسبًا لشاب يذهب للمدرسة. ونادت الفرصة على لاستر للذهاب لأمريكا، والتى تركتنى، سجينًا محبطًا، خلف العجلات. كانت تراودنى أحلام الالتحاق بالجامعة، ودراسة القانون والحصول على درجة علمية. لكنى كنت وضيع المقام - أفكارى تطمح عاليًا، أستطيع رؤيتها تطير عاليًا ملوحةً بحسرة الوداع.

كانت خالتى ماى هى التى اقترحت علىَّ الالتحاق بالمدرسة المسائية. قالت: "**يا جلبرت، تظهر خيبة الأمل والحزن على وجهك لدرجة أنه عكَّر حليبى. اذهب، اذهب.**"

تقع المدرسة المسائية فى المدينة. آووه، لقد عضضتُ اليد التى أطعمتنى. ماذا عن التضحية؟ ماذا عن الالتزام؟ ماذا عن العائلة؟ الواجب، أخبرنى عن الواجب. كنت ناكرًا للجميل تمامًا مثل أخى متقلب الحال. ولستة أيام قامت أمى بلعنى إلى أن، وهى فى اللعنة السابعة، تشعر بهزيمتها، استعادت مهارتها فجأة وقالت: "**يا بنى، لماذا لا تُعلم شقيقتيك دورين وبيرل القيادة؟ بعدها تستطيع الذهاب.**"

فرك إلوود يديه من الفرحة بعودة صديق دربه. فكما هو معروف، هو يعيش فى كينجستون. لقد قال لى: "**تستطيع مساعدتى قليلاً أنا ووالدتى فى العمل ونحن نوفر لك الطعام.**"

وأنا قلت له: "**نعم، وبهذا أستطيع الذهاب إلى المدرسة المسائية فى المساء.**"

احتفلنا بالترتيبات بأكل الكيك الذى أعدته أمى لى. كانت صفقة، وبدت جيدة. إلى أن أرانى إلوود شاحنته فى الصباح التالى. فكانت جزء معدن، والجزء الثانى مطاط وغالبًا كانت متماسكة ببركة الدعاء. قال: **"يا جلبرت، انظر هنا، ستقوم بتوصيل بضاعتى."** كانت شاحنة مُهلكة للإنسان ـ حُصرت رأسى تحت غطاء موتور السيارة، أربطُ أجزاءها، أدفعها، أدقّ عليها بعنف، أبحث هنا وهناك عساها تتحرك ليومٍ آخر. لم يكن لدى وقتٌ للمدرسة المسائية. القانون الوحيد الذى تعلمته هو محرك الاحتراق.

وظيفة كعامل لاسلكى/مقاتل جوى أو مهندس طيران. مع معرفتى الممتازة بخبز الكيك ودرجاتى النموذجية فى كل الامتحانات، أخبرنى هؤلاء الرجال المختالون الذين يجلسون فى مكتب التوظيف فى كينجستون بأننى، عندما أصل إلى إنجلترا، سيتم تدريبى على عامل لاسلكى/مقاتل جوى أو مهندس طيران. سأكون فردًا مهمًا فى الكتيبة، الرجل الثانى بعد الطيار فى الاحترام والمسؤولية. وبسجل خدمات حافل مثل هذا السجل، أكد لى رجال الجيش هؤلاء بأنه، ما إن تنتهى الحرب، سترحب بك الحياة المدنية لاستكمال المزيد من الدراسة.

"لدى حجة قوية بأنك تستطيع القيادة،" قال الرقيب باسترد مصممًا.

قلت: **"ليس أنا، يا رقيب طيار. لا يوجد سيارات فى المكان الذى أتيت منه، سيدى."** كانت هذه أكثر كذبة فيها جرأة وعلامة على مدى الخطورة التى وصل إليها الموقف. لكن مع هذا الرقيب الذى

يصدق أى شىء بدائى تُتهم به الهند الغربية، فكان الأمر يستحق المحاولة.

وبدأ الضابط الكوماندو، الملازم طيار باترفيلد، التحدث معنا نحن الهنود الغربيين قائلاً: "**يا رجال، الجبهة الثانية فى حالٍ جيد، واحتياجنا الشديد الآن لجنودٍ يخدمون أرضًا. بعضٌ منكم، فى الحقيقة أغلبيتكم، الذين تطوعوا فى الخدمة كطاقم جوى سيحتاجون لإعادة الفحص الطبى للتدريب على المهن. نحن فى حاجة إلى موظفين للخدمة على الأرض. سوف يعاد الفحص الطبى لموظفى المهمات الأرضية.**"(*) الكثير منا كان قد تم إعادة فحصه بوجود عتمة فى النور حيث تم إصدار الأوامر بأن يُقيَّم مقياس قوة إبصارنا بالضعيف. وجد رجال الجزر الصغيرة، أمثال أوسكار تولك مع حلمه بأن يطير فى السماء بأجنحة معدنية، وتعلق الميداليات على صدره، وجد حاله كما هو عندما ترك جزيرته، بالمكنسة الطويلة فى يده. أما جيمس فكان عليه أن يكون ملاحًا، عليه السفر عبر البحار. "**ملاح!**" تبسم الرقيب باسترد مغتبطًا بنفسه. "**حسنًا، عليك أن تعرف إذن، يا طيار، بأنك ستسافر عبر البحار.**"

"**هل هى وظيفة فى الجبهة، يا رقيب طيار؟**".

"**إنها الجبهة ـ الجبهة الأولى.**"

"**أرض المعركة، يا رقيب طيار، سيدى.**"

"**قل لهم هناك فى إيست إيند فى لندن إن هذه ليست أرض المعركة.**" وهنا انتهى الحوار، وأُرسل جيمس للتدريب على الرادار.

(*) فى الأصل: (civvy street) أى الحياة المدنية التى يعدونها لأفراد الجيش البريطانى بعد الانتهاء من الخدمة. (المترجمة).

وتسلم هوبرت أعمال كتابية. كان الأكاديمى لينفال الوحيد الأكثر حظًا. لم يكن فحوصاته أفضل من أى منا إلا أن بشرته فاتحة قليلاً عنا، فأصبح مهندس طيران.

كما ترى، فهناك قائمة، كُتبت بيد الله فى كتابٍ سماوى، يحتوى على تفاصيل دقيقة ورائعة لإنجازات عبيده هنا فى الأرض: هذا أبو الفلسفة، وهذا مؤلف لأروع الموسيقى، وهذا طيار من الدرجة الأولى، وهذا عشيق لنساءٍ محظوظات. الآن، أنا عرفت: بجانب اسم جلبرت جوزيف كُتِبت كلمةً واحدة: سائق. كل المساعى لمحوها أو استبدالها أو تزيينها كانت دون جدوى. علمتُ أن محرك الاحتراق سينال منى مرة أخرى.

قلت: "لقد تم إخبارى بوظيفة عامل لاسلكى/ طيار جوى أو مهندس طيران، رقيب طيار، سيدى."

"هذه حرب، يا جوزيف، ليس محل. إنها نقْلِيّات بالسيارة. هل تسمعنى، يا طيار."

انظر، وشاهد، وراقب، ها هى تعود لى. سائق. نعم، يا سيدى. لقد تم إرسالى لأتدرب على فعل شىء كنت أفعله منذ كان عمرى عشرة أعوام. ربما إلوود كان على حق عندما حذرنى قائلاً: "**كن حذراً، يا جلبرت، تذكر بأن الإنجليز كذابون.**"

الفصل الرابع عشر

جلبرت

لم تكن مهنة سائق لنقل الفحم مهنة رسمية فى كُتيب جدول مهن الملاحين الخاص بالقوات الجوية الملكية، إلا أنى عملت فى نقل "فحم الكوك" لفترة طويلة إلى أن شعرت بأنه ينبغى أن أنجو من هذا العمل. الحد الأقصى للعمر: لا يوجد. الرؤية: أغبش. القدم: مجمدة من الصقيع. كم من المرات التى لا تحصى فى جوٍ قارس البرد وفى عرض الرياح الشتوية فى محطات القطار فى لينكولنشير اضطررت لجرف المزيد من تلك الحجارة السوداء اللعينة من شاحنة إلى شاحنة. وياه من عفرة الفحم! فذلك الرمل الناعم الأسود المجروش يتغلغل بعمق فى شعرى لدرجة أننى عندما أمضغ أشعر وكأن الله قد فرك رأسى بورق مرمل للسنفرة. وأنفى تُمخط طينًا كطين السيل. فمن خلال خمس طبقات من الملابس، بالإضافة إلى معطفى الغليظ، كان يدغدغ، هذا التراب، هذا الحجر المجروش، جلدى العارى عندما أنزع ملابسى. ذهبت مجموعة منا

تشتكى لضابط الصفّ. لقد أخبرناه بأن فحم الكوك هذا بمثابة العقاب. وقال بعضنا: **"أصبحنا بنفس سواد جوزيف، سيدى."**

لم تنطفئ حميتنا المنطوية على روح التمرد إلا عندما تكلم ضابط الصفّ قائلا: **"يتحمّل رجالنا هناك عبر البحار ما هو أصعب واشق بكثير مما عليكم انتم الطيارون أن تتحملوه هنا."** وتساقط سيل خفيف من السخام من شعرى عندما طأطأت رأسى انكسارًا. ولكن بعد مرور يومين: **"يا جوزيف، ستذهب لتنظم اليانكيز"** (*).

كانت رحلة طويلة من العزلة، وبنات جميلات يلوحن بأيديهن، ورجال كبار فى السن يقدمون التحية باليد، وختمت بحسن ضيافة اليانكيز الأسطوريّة. أكد لى تشارلى دينتون بأنى ابن محظوظة: **"لا بأس لذلك، يا جلبرت. إن الكرسى مريح أثناء القيادة."** قال إنه سعيد، وأنا ابتهجت طربًا بهذه الرحلة.

الأوامر كانت أن أقود الشاحنة إلى القاعدة الأمريكية بالقرب من جريمسى. علىَّ أن آتى بعشرة صناديق خشب تحتوى على ممتص الصدمات تناسب الطائرة سبيت فايرز.

"الطائرة سبيت فايرز،" أكد ضابط الصفّ، **"وليست موستانجز. تأكد من انهم أعطونا الأجزاء الصحيحة هذه المرة."** كيف انتهى الوضع بأن يتواجد ممتص الصدمات الخاص بطائراتنا فى القاعدة الأمريكية ـ إنها ليست حتى قاعدة للقوات الجوية ـ كان ذلك أحد ألغاز الحرب. ومع هذا تطاير اللوم بين الطرفين مثل طلقات

(*) اليانكيز(Yanks)يقصد بها الأمريكان وخاصة سكان الولايات الشمالية. (المترجمة).

الرصاص فى أرض المعركة. كان الأمريكان "**يانكيز لعناء، أشخاصاً مغرورة ثقيلة على النفس، محبى للحرب،**" لامتناعهم توصيل تلك الأجزاء المشاكسة لنا. كلا، فلقد صمموا على أن يأتى أى شخص من القوات الجوية الملكية إلى قاعدتهم ليعيّن ويوقع على أن الأجزاء صحيحة قبل أن يفرجوا عنها. لم تكن المرة الأولى التى أثير فيها هذا الموضوع. فلقد ذهب تشارلى دنتون المرة السابقة، وبات الليلة هناك ثم عاد محملاً بالكثير من سجائر شيسترفيلد لكى يبقى مع أصدقائه المقربين لأسابيع. إن الشخص المحظوظ هو الذى يستطيع أن يحتفظ بمعنويات مرتفعة داخل زريبة الجيش الأمريكى.

"إنه جندى ملون، سيدى."

"هو ماذا؟"

"آه، سحقاً. ملون، هل هذا ما قلته؟"

"إنه أسود، يا سيدى."

"أجل، شكراً، يا رقيب. ماذا يعنى هؤلاء الملونون؟ ماذا ينوون بحق الجحيم؟ اللعنة على الإنجليز."

الآن، لم يستغرق إنشاء هذا المبنى الذى أقف بداخله، على سبيل التخمين، إلا بضع دقائق. فلقد أُلزقت أجزاؤه بعضها ببعض بالعلكة، والشىء الوحيد الذى يفصلنى عن ضباط الجيش الأمريكى هو حائط مصنوع من لوح رقيق أقل سُمكًا من جلدة الكتاب. ربما لو كنت واقفًا فى الغرفة معهم فى نفس الوقت، لاختلف جوهر تبادل الحديث قليلاً، لكن دعنى أؤكد بأن تلك الصراحة الواضحة المسموعة لن تتغير.

"هل أُخرجه من هنا؟"

"قلت إنه ملون."

"إنه بريطانى، مع ذلك."

"بريطانى! ومن يهتم بذلك؟ بريطانى — مازالت مشكلة. إذا أرسلتُ جنديًا ملونًا إلى هذه الوحدة، فهى مشكلة. اللعنة على الضباط البحارة الإنجليز."

"هل أجعله يرجع؟"

"إلى أى درجة هو ملون؟"

"بما يكفى، سيدى."

"آه، سحقًا. هذا البحار الصفّ الإنجليزى يعبث بى. نحن حلفاء، يقول لى. قد ينتمى إلى القوات الجوية لكن كلنا مشتركون فى الأمر سويًا، هذا ما يقوله. حلفاء! أيها الضابط الإنجليزى المغرور النذل. لم يعجبه أن أعرّفه بأن أغراضه وضعت فى المكان الخطأ. يقول إنه خطؤنا. لم يعجبه أن أخبره أى يوم كان."

"هل يمكن أن يكون لدينا وحدة للملونين لنُبيِّن لـ.."

"كلا، كلا، كلا، وهل علىَّ أن أعيد ترتيب الجيش الأمريكى لأن بعض البحارة الإنجليز المغرورين أرسلوا لى زنجيًا؟ لن يحدث أثناء حراستى. لقد أرسل هذا الأسود عمدًا لإغاظتى. اللعنة على الضباط الإنجليز. سأتحدث معه فى التليفون. يُعتبر هؤلاء الزنوج مشكلة أكثر مما يستحقون."

"ماذا أفعل بسائق ملون ، يا سيدى؟"

"لا أعرف. مشكلتى هى ماذا أقول لهذا الضابط البحار الإنجليزى الكلب هذا. هل الشاحنة صغيرة جدًا أم ماذا؟ من

المرجح أن تكون الشاحنة الوحيدة التى يمتلكونها. كلا، بعض المستندات ناقصة؟ هذا يفى بالغرض. أخبره بأن ينتظر أو أحضر له شيئاً ليأكله. هم دائماً يريدون أن يأكلوا أى شىء."

"هل أرسله إلى غرفة الطعام، سيدى؟"

"كلا، ليس غرفة الطعام، بحق الله ـ فهو ملون!"

إن رد الفعل اللاإرادى يجعلك تقدم على فعل أشياء وخاصة عندما تتربى على أن تكون شخصًا مؤدبًا، ومحترمًا، ودمث الخلق. لقد وثَبتُ عبر الغرفة، متظاهرًا بالنظر بفضول عبر نافذة غير مشفّة حتى لا يظن هذا الرقيب بأنى قد سمعت حديثهم. صدرى مرفوع، ذراعى جانبى، وهل علىَّ الآن أن أقدم التحية العسكرية لضابط صفّ فى الجيش الأمريكى؟

"**استرح، يا مجند.**" قال الرقيب.

ملونون، سود، زنوج. كل هذه المفردات استخدمت لوصفى خلال ثوان قليلة مضت. مفردات تهين وتجرح كرامة أى فرد. لكن الشىء المضحك أن تلك المثالب لم تتسبب فى إغضابى ما عدا كلمة جندى! أنا لست جنديًا، بل أنا طيار. "**الطيار جوزيف،**" قلت، مما جعل الرقيب يرد علىَّ قائلاً: "**أجل، أجل، أيًا كان.**"

استرحت فى وقفتى حينما أكمل هو حديثه. "**اسمع، آه... يامجند،... كلا..... آم م م... يا طيار، نحن لسنا فعلاً بـ... آم م م.... آم م م..**"

ومن جديد وهو يجاهد فى الحديث هكذا ألحَّ علىَّ طبعى الذى ولدت به. هل أستطيع بطريقة ما أن أساعد فى إخراج هذا الرجل من تلك المصيبة التى ليس لها نهاية؟ بدا لى أنه رجل حيىّ. فى

وقت السلام، دعنى أرى، قد يعمل فى محل جوارب للسيدات، ويحمر وجهه خجلاً مثل ثمرة التوت عندما تطلب امرأة بنهدين ضخمين شيئًا يناسبها.

"علينا أن ننتظر لبعض الوقت" قال لى الرقيب أخيرًا. "هل تريد ان تأكل شيئًا؟"

"فى قاعة الطعام، يا سيدى؟"

"كلا... كلا... ليس فى غرفة الطعام... آم م... آم م.. سأحضر أحداً ليجلب لك الطعام."

ومن داخل الغرفة الأخرى نادى الضابط على الرقيب بصوت عالٍ. وعندما أُغلق عليهما الباب الذى لا فائدة له قال: "آخ، اجعل هذا الملون يرجع. أقسم بأن ذلك الضابط الإنجليزى الوغد الذى يعطى الأوامر يضحك الآن. هو الآن يضحك! "أتواجهك أى مشكلة؟" هذا ما يقوله. عشر ثوان فى ألباما وسيكون لديه مشكلة لعينة. هو يعرف أنى لا أقدر على استخدام أى ملون هنا. أَرسله فقط لإغاظتى. يعتقد أنه قد فاز هذه الجولة. هو الآن يضحك. يعتقد أنه خدعنا بهذا الشىء. أجل، طبعًا، الغبى. أخرج هذا الزنجى من هنا."

"أحضرت له بعض الطعام ليأكل، يا سيدى."

"أطعمه، أطعمه. افعل ما تريد. ولكن ليس فى قاعة الطعام، إلا إذا أردت المشاكل... فقط أخرجه من هنا، ثم أحضر أى جندى صغير لفحص الأجزاء ثم ينقلها بالشاحنة. صدقنى، ستكون هذه أول وآخر مرة يتحدانى هؤلاء الضباط البحارة الإنجليز الأوغاد."

عندما رجع الرقيب إلى ابتسم، ثم قال: **"هم يجهزون لك شيئًا، لكن تستطيع الانصراف والرجوع إلى القاعدة الخاصة بك بعد ذلك، يا طيار."**

على قدر ما أستطيع قوله لم أعيِّن، أو أوقع أو أنقل أى صناديق خشبية تحتوى على ماص للصدمات مناسب لسبيت فايرز. ومع هذا كان هذا الرجل يقول لى بأن مهمتى قد انتهت. **"الأوامر، ياسيدى، أن أحضر بعض الأجزاء."**

"أجل، هذا ليس ضروريًا."

"سيدى، أنا آسف لكن أنا لا أفهم."

"اسمع، يا عسكرى، قد تم الاهتمام بكل شىء. فقط ارجع. لا تقلق."

"ما السبب الذى سأقدمه عند رجوعى بدون الأجزاء؟"

وعند هذه النقطة بدأ وجه الرقيب بالاحمرار كالتوت. ولكن الضابط من الغرفة المجاورة نادى قائلاً: **"يا رقيب، أدخله."**

كانت ساقىْ الضابط مرفوعة على المكتب. بدا أصغر من صوته، ابتسم لى بثبات. كانت أسنانه البيضاء الكبيرة مرصوصة ـ كل سِنّة بدت كما لو كانت تعطينى الأوامر بأن أجلس لأستريح. أنزل رجليه إلى الأرض، وجذب سيجارة ثم مال بجدِّية للأمام. ثم بعد ذلك، استرخى للوراء على كرسيه، وفتح ذراعيه وقال: **"ماذا عساى أن أقول؟ أنا وضحت الأمر للضابط الذى أعطاك الأوامر. كما ترى كانت هناك شاحنتان ستسلكان طريقك فشُحِنَتْ فيهما الأجزاء. وفَّرنا عليك مجهود نقلها. وقمنا نحن بفحصها بأنفسنا فى نهاية**

المطاف. من الذى يهتم خطأ منْ هذا؟ أخبرتُ الضابط المسؤول ذلك. نحن حلفاء. الأجزاء فى المكان المناسب هذا كل ما يهم. كلها فى وضع مستو. الأجزاء يجب أن تصل هناك... اليوم. وإن لم يكن اليوم فغداً. إنها رحلة عديمة النفع. لم يبق أى شىء لنقله. لكن الرقيب قال لى بأنه اعتنى بك. حسن ضيافة اليانكى، هاه؟" ضغط على بضع أسنان أخرى قبل أن يقول: "انصراف، يا عسكرى."

سمعت كل كلمة قالها الضابط للرقيب، ولكن لم أبدأ بتقدير الموقف حتى أحضر لى هذا الرجل الخجول الطعام وكأنى شخص وجيه أتى للزيارة.

هل كانت التدريبات على السير العسكرى وحمل السلاح فى ساحة ثكنة فيلى، والتدريبات على المهن فى بلاكبول، والإرسال لموقع القاعدة الجوية فى لينكولنشير هى التى جعلتنى أغفل عن هذا الأمر؟ ربما كان السبب الطاقم الذى أعمل معه ـ كلهم رجال بيض ـ شارلى، بيل، ريموند، آرنولد. أم كانت النساء البيض فى المدينة ـ إنيد، روز، وتلك الأخرى ذات العين الشاردة. هل هى إمى المليحة من سوان؟ أم هل بحكم تعودى على إنجلترا غاب ذلك من بالى؟ بالطبع! إذا وجد رجلٌ ملون نفسه فى قاعدة للجيش الأمريكى محاطًا كليًا بأناس بيض، إذن، يا رجل!، فهو فى المكان الخطأ. كيف استطعت نسيان هذا؟ "ولائى كله لعملى، ولكن لن تجد أبداً رجلاً أبيض يحترم نفسه يذهب الحرب مع زنجى." كلا، ليست نظرية العرق السامى ـ بل قانون جيم كرو!

هذا رجل ملون فى المتجر. سأصف المشهد. أفواهٌ فاغرة مثل الأطفال فى أول صورة تؤخذ لهم. عيون واسعة مندهشة تنظر

بسرعة إلى بعضها. أقلام، أوراق، أدوات، أى شىء ممسكون به بقوة فى أيديهم قد يقع على الأرض. وصدور تفور من الغيظ تقبض يدها بصرامة قبالهم. "**ماذا تفعل هنا، أيها الزنجى؟ هذا ليس مكانك.**"

"**مرحبًا**،" قلت. "**لقد أُرسلتُ من قبل قوات الطيران الملكية من أجل إجضار أجزاء للطيارة.**"

يا رجل، قد أكون محظوظًا إذا استطعت أن أكمل الجملة قبل أن أُطرد من المكان. كيف لزنجى أن يعمل مع شباب أمريكى أبيض؟ ستراهم يركضون إلى قائدهم يطلبون العدالة. لن يمنعهم اختلاف الرتب. لن يقولوا له، لن يعملوا مع زنجى، سواء كان بريطانيًا أو أيًا كان. لم توجد سجائر شسترفيلد قدمتُ لى. ما هى الحكاية التى سأرجع أحكيها؟ الحكاية هى رجلٌ جامايكى لطيف تسبب اليوم فى خرق القانون فى الجيش الأمريكى.

بعد مرور ساعة قد لا أراهم. قد تتوارى عن الأنظار الصورة الظليّة الغامضة لهذين الجنديين الملونين فى الجيش الأمريكى. الصحبة هى كل ما تطلعت إليه. كنت وحدى أشعر ببعض الغثيان ـ معدتى متخمة من كمية الطعام الغنى الذى التهمته فى القاعدة الأمريكية. لحم محمر وبطاطس محمرة. وكميات كثيرة من الخبز، تكفى لدعوة عائلة والكل سيأكل منه. زبدة حقيقية وزبدة الفول السودانى والكثير من القهوة التى تنسكب داخلى مثل ماء البحر الذى يطبطب على الشاطئ.

هل كانت الشراهة أم الأدب الذى منعنى من إهدار أى لقمة؟ ربما كان القلق الذى كان واضحًا على وجه الرقيب حينما يدخل ليتفحص الوضع حتى يعرف إن كنت قد انتهيت أم لا. "**عندما تنتهى، يا مجند،**

تستطيع الانصراف،" أخبرني ذلك مرتين. وفي كلا الموقفين لم أستطع الرد عليه بسبب الخبز وزبدة الفول السوداني اللذين أحكما إغلاق فمي تمامًا، وكأنه أُغلق بعجن الأغصان الدقيقة بالطين.

لكن رحلة طويلة في العتمة ليست بأمرٍ مسل، وإنما هو شيء على المرء أن يشارك فيه أحدًا. من كان مفاجأته أعظم؟ أكانت مفاجأتي أنا، عند رؤيتي رجالاً ملونين لمرة أخرى ـ الأولى كانت عند توديع الأصدقاء المقربين بالصفع على المؤخرة في بلاك بول، قبل تحديد المواقع العسكرية حيث رشّونا نحن الهنود الغربيين كالفلفل في أنحاء البلاد؟ أم كانت مفاجأتهم هم ـ لأجل حظهم الرائع المدهش الذي جعلهم يلتقون مصادفة برجل ملون في شاحنة فارغة متجهة إلى مقصدهم؟ قفزا إلى قمرة القيادة وتفحصني الرجلان وكأنهما يَشهدان رؤية مريم العذراء.

"**انت بريطاني؟**" سألني أخيرًا أحدهما.

"**نعم،**" قلت.

"**ارجو الا اسبب اي إهانة إذا قلتُ إنك لا تبدو لي بريطانيًا. بالتأكيد انت شيءٌ نادر الوجود مثل شعاع الشمس في كهف.**"

"**أنا من جامايكا.**"

"**جامايكا، إنجلترا؟**"

ألم يسمع أحد خارج منطقة الكاريبي عن جامايكا؟ لم أصرخ أو أبك من الألم، بالرغم من أنه يجب عليَّ ذلك. "**كلا، جامايكا تقع في منطقة الكاريبي.**" أخبرتهما. ولكن لم يوقع ذلك أي أثر على نظرة الدهشة التي اعترتهما. "**الهند الغربية؟**" حاولت معهم.

"طيب، قد تكون هبطت من على نجمٍ ساطع، فأنا مازلت مسروراً لمقابلتك. اسمى إسحاق هانت، ولكن لا أحد ينادينى بهذا الاسم إلا عندما يكونون غاضبين منى أو حانقين. ولوجه بشوش اسمى ليفى. لا تسألنى لماذا إلا إذا كنت مستعداً لسماع قصة طويلة. وهذا جن - عُمِّد باسم جن، يدعى جن، وأصبح جن طوال حياته. كلانا ولِد وتربى فى فلوريدا، الولايات الأمريكية المتحدة. لكن فلوريدا هى السبب وراء معرفتنا على بعض وليس كيف تعرفنا على بعض إذا فهمت قصدى. ومن يكون الذى لى الشرف فى مخاطبته، يا عسكرى؟"

"أولاً" أخبرته، "اسمح لى أن أوضح بأنى لست عسكريًا. أنا متطوع مع القوات الجوية الملكية البريطانية. القوات الجوية الملكية."

"طيار؟"

"ربما. اسمى الطيار جلبرت جوزيف."

"سعيدٌ بلقائك، يا طيار جلبرت جوزيف. إذا سمحت لى أن أسأل عن الاسم الذى عادةً ما يستخدمه الناس الذين يعتبرونك صديقًا لهم؟" قلت له إنه جلبرت ولكنه قال: "إذن، يا جوزيف، أرجو ألا تمانع إذا ناديتك بهذا الاسم."

وطوال هذا الحديث جلس ذلك الرجل الذى يدعى جن مثل دمية كسولة محدقًا أمامه مباشرةً. ردَّت له الحياة بلكزة من ليفى، ومدَّ الاثنان يديهما لى لمصافحتهما. كان من قلة الأدب أن جعلتهم ينتظرون لأنى كنت مركزًا فى قيادة الشاحنة. لا يثق المرء فيما تراه عيناه فى الغسق لأن عقل المرء يصدق بأن هذا النور الضئيل ما هو

إلا حلم. يجد المرء ذلك على طريق ريفى ضيق شديد العتمة حيث لا تسمح أعمدة الإضاءة بإرشادى على الطريق. هل هذا رجلٌ طويل فى عباءة سوداء أم حائط آيل للسقوط؟ انظر إلى هذا الخيال الشبح، تُرى هل تكون شجرة؟ هل أرنب ركض أمام عينى أم هل رمشت عينى؟ عمَّ السكون. ومازال الوضع قائمًا لتبادل السلام بدماثة قبل أن يُستكمل الحديث. وما إن سرت على طريق مألوف مستقيم حتى شعرت بالراحة بما يكفى ليأتى دورى لأبادل المصافحة على أيديهم الممدودة الصبورة. وما إن تمت المصافحة حتى بدأ ليفى الحديث مرة أخرى، الأمر الذى جعلنى أتساءل فى نفسى هل كانت فكرة الصحبة فكرة صائبة بالفعل.

"أولاً تركت القاعدة لشهور." قال.

طبعًا، يجب أن أشرخ بأنه مع الوقت لم ألاحظ أن ليفى قد شرع بالكلام.

"منذ ثلاثة شهور على ما أعتقد. بالرغم من أن جن هنا قد يقول عكس ذلك نظراً إلى أنه يحتفظ بكتاب صغير بواسطته أستطيع التذكر، ولكنى بالفعل نسيت. لكن، يا جو، كل ما أعرفه هو انى بكل تأكيد كنت متشوقًا لرؤية امرأة إنجليزية حسنة المنظر منذ فترة طويلة."

"كلا، لقد أخطأت فى اسمى ـ جوزيف هو.."

"يا جو، لا تستهن بجن هنا ـ هو لا يشترك فى الحكايات المطوطة ولكن تجد ذهنه مشغولاً بالتفكير. وعندما يتكلم عادة تجد الأمر يستحق الانتظار. لا أعرف إن كان سيسعدك ان افتح حواراً معك." ثم ضحك. بينما استمر جن بالتحديق أمامه، ربما

تبسم، كان من الصعب تحديد ذلك فى تلك العتمة: "أنُغادر الوحدة؟ هذا كل ما قلته لجن. حال الحياة العسكرية ليس مستقراً تماماً مثل نسيم الصيف. فى ثانية قد تحصل على موافقة للخروج، وفى لحظة أخرى تُلْغى كل الإجازات. حسنًا، وإذا لم يتبع أى رجل تلك الأوامر تعتبر مخالفة للأوامر. حقيقة الأمر هو، يا جو، نحن حصلنا على موافقة للخروج، فهناك امرأتان جميلتان فى انتظارنا. بنتان من لينكلن. كل هذا فى طريقك، على ما أظن. أعتقد أن علىّ أن أخبرك، يا جو، أن طلتك هذه جعلتنى أحتار وأحك عينى. رجلٌ ملون فى بدلة عسكرية بريطانية. قلت، إنك بريطانى؟"

"بريطانى. بلى." أجبته.

"لكنك لست إنجليزياً."

"كلا، أنا من جامايكا لكن إنجلترا هى وطنى الأم."

هل كان الضوء خافتًا أم هل انزوى وجهاهما الحائران على شكل علامتى استفهام.

سألنى ليفى: "يا جو، أنا لا أفهم البتة عم تتحدث. جامايكا فى إنجلترا؟ ومن تكون أمك؟"

"كلا، جامايكا ليست فى إنجلترا، لكنها جزء من الإمبراطورية البريطانية."

"الإمبراطورية البريطانية قلت. وأين يا ترى تقع، يا جو؟"

"هناك العديد من الدول تتبع الإمبراطورية البريطانية."

"وأنت تقول أمك تعيش فى إحدى هذه البلدان."

"كلا، بريطانيا هى الوطن الأم لجامايكا. ولكن كلنا جزء من الإمبراطورية."

"أوو." كلاهما أومأ برأسه، وكلاهما ليس لديه أدنى فكرة عن ماذا أتحدث. "قلتَ الإمبراطورية. أليست هى ذلك المكان فى لندن الذى به دار عرض الأفلام؟"

حاولت أن أشرح لهما: "بريطانيا تمتلك جزيرة جامايكا، وهى تقع على البحر الكاريبى. وكلنا نحن، شعب جامايكا، بريطانيون لأننا رعايا لبريطانيا وتحت ولايتها."

دون جدوى.

فأكملت: "جامايكا تعتبر مستعمرة. وبريطانيا هى الوطن الأم. نحن بريطانيون ولكننا نعيش فى جامايكا."

"حسنًا، يا جو، أعتقد أنى فهمت الآن. هذه الجزيرة، جامايكا، تقع على البحر الكاريبى." أومأ جن رأسه، ملتفتًا إلى صديقه الذى كان غارقًا فى التفكير. لقد فهما. "إذن،" أكمل ليفى، "بريطانيا جعلت كل شعبها الأسود يعيش على جزيرة. أنت بعيد جداً عن وطنك مثلنا تماماً؟"

"نعم، أظن ذلك."

"إذن، أنت لست من أمريكا؟"

"كلا، أنا بريطانى."

"أجل، يا سيدى، بريطانى، وكذلك أمك؟" دمدم، متردداً بطريقة جعلتنى أتساءل فى نفسى هل دخل عقله أى شىء من الكلام الذى

قلته، أم كان يلف حوله بحثًا عن أى مكان ما آخر صلب ليحط عليه.

"**إذن، ماذا تفعل هنا؟**" سأل ليفى.

"**أنا متطوع فى الخدمة للحرب. أنا هنا لمساندة الوطن الأم فى الحرب.**" أووه، خُيّل إلى أنى مختالٌ بقولى هذا، أعلم أنى كنت كذلك. وبينما أنا أقول هذه الكلمات أردت أن أسحب كلماتى، ولكنى سمعت وأجبت هذا السؤال مرارًا. ماذا؟ هل يعتقد الناس أنى ضللت طريقى فى حقل قصب؟

"**الآن، يا جو، أعتقد أنك لم تفهم قصدى، سؤالى عن ماذا تفعل هنا فى تلك القاعدة العسكرية الأمريكية التى أتيت منها للتو؟**"

"**أرسلت لاسترداد شىء قد فُقد أثناء الانتقال من طائرة إلى أخرى.**"

"**من هذه القاعدة؟ هل أرسلك أحدهم إلى هذه القاعدة؟**"

"**نعم.**"

سكت ليفى لبرهة. ثم قال عابسًا مثل رجل ذكى يكتشف لأول مرة فى حياته بأن الشخص الذى كان يتحدث إليه غبى: "**الآن، يا جو، أعلم أنك رجلٌ بريطانى. وأعلم بأن البريطانيين يتصرفون بطريقة مختلفة. لكن ـ وأنا أختار بحذر كلماتى تماماً مثل اللص أمام القاضى ـ لكن، يا جو، أحسبُك تعلم جيداً أنك زنجى. ووجود زنجى فى قاعدة كتلك ما هو إلا مثل الترحيب بثعبان فى مخزن العلف**".

أمعن النظر فى شاحنتى الفارغة، هذا ما أردتُ أن أقوله له. أترى أية أجزاء هناك، يا رجل؟

"عليك أن تنعطف من هنا. نحن على وشك أن نقترب من منطفة اسمها أمنجهام."

"لكن الأجزاء كانت فى تلك القاعدة بالتحديد." قلت وأنا أضغط على كلامى.

"الآن، يا جو، لا أدرى إذا كنت على علم من قبل بما أقوله لك ولكن يبدو أن هناك من يعبث بك. فكما ترى، الجيش الأمريكى صارم فى فصل الإخوة السود."

قلت: "كان هناك سوء تفاهم مع الضابط الإنجليزى الذى أعطانى الأوامر."

"طيب، قد تكون على حق، يا جو، قد تكون على حق. لكن حسبما رأيت، الخيوط المعقدة دائمًا ما يشدُها شخص ما."

لم يكن لدى الوقت لأتأمل من هو الذى يشدُّ خيوط من، لكونى مسافرًا فى طريقٍ عبر الريف لا يمكن الوثوق به.

"حسنًا، هل أنزلكما أنتما الاثنين فى لينكلن؟" سألت عن قصد.

"كلا، لسنا ذاهبين إلى لينكلن، إلا أنه لطفٌ منك أنك عرضت، ولكن فقط قبل أن تصل هناك سيكون مناسبًا."

"لكن على ما أعتقد أنك قلت إنكما ستقابلان فتاتين من لينكلن. وأنا أقود وسط لينكلن."

"بريندا وبيجى، ولدا وترعرعا فى لينكلن كما أخبرانا. لكن نوتنجهام هو المكان الذى سنتقابل فيه."

"لكن لن أبتعد كل هذه المسافة إلى نوتنجهام."

"نحن ممتنان لك، يا جو."

سألت: "نوتنجهام، ولماذا نوتنجهام؟"

"نوتنجهام هو مقصدنا. إنه ليس يومنا فى لينكلن."

يومنا. وكما يعتقد أى أحد، اعتقدتُ أنى فهمت تلك الكلمات ـ ببساطة كما تبدو. ليس يومهم فى لينكلن. قيلت بطريقة كأنه أمر واقعى، فقط شخص معتوه لن يفهم ماذا تعنى. لكن عمَّ بيننا فى الشاحنة صمتٌ كلُّه فضول لشرح تلك العبارة الصغيرة. وحالاً كان كل ما أردت معرفته هو ماذا، بحق الله، "إنه ليس يومنا فى لينكلن." قد تعنى! ولهذا سألت.

"لينكلن" بدأ ليفى. "إنه الأربعاء، إن لينكلن مدينة للبيض. ستكون لينكلن للجنود الأمريكان البيض حتى الأسبوع القادم. والآن، أنا وجن ليس لدينا تصريح للخروج حتى الأسبوع القادم عندما تصبح لينكلن للملونين. ولهذا سنقابل فتاتينا بريندا وبيجى فى نوتنجهام. والسبب فى ذلك هو أن نوتنجهام كما ترى مدينة للسود. لا يوجد رجلٌ أبيض يدخل نوتنجهام للراحة إلا إذا كانوا يبحثون عن المشاكل، وعندها سيندهشون من كون منطقة نوتنجهام منطقة للجنود الأمريكان السود. ولكن أنا وجن، أقصد نحن لا نبحث عن المشاكل ـ نحن نريد أن نُمضى وقتًا طيبًا مع صديقتينا. قليلاً من الرقص، شيئًا نأكله، ومن ـ يدرى ـ ماذا ـ يا ترى ـ أيضًا، إذا فهمت ماذا أقصد، يا جو."

"لكن نوتنجهام بعيدة جداً."

"الآن، هذا صحيح، لكن إذا ذهبنا إلى لينكلن سنكون زنوجًا فى المكان غير المناسب. وزنوج فى المكان الخطأ يعنى أنهم سيقضون

بقية حياتهم خائفين. فهناك شباب أبيض وشرطة عسكرية مترقبة لتقفز على أكتافنا. كلا، نحن لا نبحث عن المشاكل، أنا وجن، نحن عازمان على تمضية وقتٍ ممتعٍ. أعلم أنتم البريطانيين تتصرفون بطريقة مختلفة لكن الجيش الأمريكى سوًى كل شىء."

"وألا تمانع فتاتاكما، بريندا وبيجى، للسفر كل هذه المسافة؟"

ضحك الولدان قليلاً. "الآن، ممكن أن تستريحا فى لينكلن. أنا وجن لسنا متأخرين لنقلق من وجود أى شاب أبيض قد تتعلقان بسلسلته عندما لا نكون هناك لمرافقتهما. لكن نظن نحن الشباب الملونين أنه من الواجب علينا أن نحقق لهما الرضا التام، وأنا لا أتحدث عن الرقص، إذا فهمت قصدى. المال الذى لدينا مثل المال الذى لدى الشباب الأبيض، لكنهما قد يسافران من أجل الاستمتاع برفقتنا إلى أى مكان"

"تقصد،" سألت، "أنتما ذاهبان كل هذه المسافة إلى نوتنجهام حتى لا تختلطا بجنود أمريكان بيض؟"

"كما قلت لك، الجيش الأمريكى سوًى كل شىء - نوتنجهام مدينة للسود."

لم أسأل عن هل يعرف أهل نوتنجهام الطيبون أن مدينتهم للسود، أم هل لاحظ أهل لينكلن أن مدينتهم هى للبيض فقط. كان أمرًا سخيفًا جدًا! لكن ما سألت عنه بدلاً من ذلك هو "ألا تنزعجون من هذه المعاملة؟"

"ماذا تقصد بذلك، يا جو؟"

"المعاملة السيئة."

"كيف ذلك؟"

"الفصل العنصرى."

"حسنًا، يا جو، أعلم أنكم البريطانيين تتصرفون بطريقة مختلفة، لكن الكل يتصرف هكذا فى المكان الذى أتينا منه.."

وفجأة استيقظ السيد دمية ـ تحرك جن متململاً فى مكانه. فاتحًا فمه ـ قليلاً فى البداية ثم أوسع ـ قائلاً بثبات وبصوت عميق تمامًا مثل جذور شجرة الماهوجنى: "لكن يجب على الأمور أن تتغير عندما نصل للديار."

فى تلك اللحظة أجاب ليفى، مستديرًا إلى صديقه، قائلاً: "ربما ستتغير الأمور، يا جن، وربما لن تتغير،" قبل أن يستمر فى حديثه. "كما ترى، أنتم البريطانيين مختلفون، رؤيتكم للأمور مختلفة. خذ جن كمثال - لن يمانع أن أتحدث نيابة عنه إلا فى محيط النساء. لم يتكلم جن مع امرأة بيضاء قبل أن يأتى إلى هنا. لقد عرف الكثيرات منهن اللاتى يعطين له الأوامر - ارم القمامة، امسح الأرض - لكن هذا لا يعتبر تبادل حديث. ولهذا - وأنا أختصر الرواية قدر ما أستطيع، يا جو - لقد تم دعوتنا أنا وجن وبعض الشباب لبيت تلك المرأة الإنجليزية لتناول الشاى. وليست القهوة، بل الشاى، ودائمًا الشاى. اسكبه للبغل، هذا ما أقوله عن الشاى، ولكنى لم أقله لتلك السيدة البيضاء التى كانت ودودة بما يكفى لتطلب صحبة زنوج. والآن، هى تسكن فى بيت الأحلام وكأنه كنيسة. زجاج ملون، أبواب خشبية كبيرة، غرف كبيرة تستطيع أن تسمع صوتك يصدح فيها بعد انتهائك من الكلام. جلسنا على كراسيها المريحة ثم سألت تلك السيدة كل واحد منا عن كيف أعجبتنا إنجلترا. ومعظمنا قال الإجابة المؤدبة، وهى نعم - جميلة

جداً ـ شكراً لك ـ يا سيدتى. كان إرلى فقط هو الذى فكّر ليقول شيئًا كالشكوى لأن هذا من شيمته. قال إن الطقس بارد جداً، ولكن ضحكت تلك السيدة فضحكنا كلنا معها أيضًا. ثم التفتتْ إلى جن وسألته من اى بلد عائلته. والآن، فى نفس اللحظة التى سألته هذا السؤال البسيط، وضعت تلك الخادمة الصغيرة الجميلة الشاى ـ كوبًا صغيراً فى صحنٍ صغير ـ فى يد جن. حسنًا، انتاب جن قلق شديد من جعل امرأة بيضاء منتظرة رده مما جعل الكوب يهتز فى الصحن وكأن الأرض تهتز من تحت جن. كانا يُتكْتِكان ويُطقطقان، مترجرجين ومترنحين والشاى ينسكب من الكوب. تظاهرت السيدة بأنها لا ترى شيئًا ولم نفعل نحن الشباب أى شىء إلا الفرجة. كانت الخادمة البيضاء هى التى تحركت ناحية جن. أمسكت يده بالكوب والصحن، مطبقة يدها عليهم حتى ثبتت يده. نظر جن ممتنًا إليها وتبسم وكذلك ابتسمت له بالمقابل. حسنًا، أكيد لاحظت السيدة ذلك. "شكراً لحضوركم،" قالت لنا، وبسرعة كسرعة موزع ورق اللعب على طاولته أخذتْ منا أكواب الشاى. كنّا خارج المنزل ننظر إلى الباب الذى أُغلق فى وجوهنا قبل أن يتسنى لأحدٍ منّا وضع رشفة واحدة من ذلك المشروب اللعين على شفاهنا. لكننا كنّا مدعوين على اى حال. امرأة بيضاء دعتنا نحن الجنود الملونين لبيتها، للجلوس معها على أثاثها، ولشرب الشاى معها. لا نجد هذه المعاملة فى المكان الذى أتينا منه. هل لديك شىء هنا يجب أن تنجزه مع الرجال البيض، يا جو؟"

"نعم، أنا أشارك سبعة رجال بيض السكن."

إذا كان الصمت تحدث من قبل، فإنه تحدث إلىَّ إذن. سُحبتْ أنفاس ليفى، بينما رجع جن للحياة مرة أخرى، متعذبًا بالوخز فى

مقعدته، ماسحًا بيده خلف رقبته أولاً ثم ساحبًا إياها ببطء إلى وجهه. سألنى وهو يتأملنى وكأنه لأول مرة يرانى: **"كيف تستطيع أن تنام معهم فى نفس الغرفة؟"**

"ماذا تقصد؟" سألتهما. ولكن كلاهما حدَّقا فىَّ بصمت، مقتنعين بأنى أغرب شىء رأوه قد ظهر لهم على حين غرة.

ومع اقتراب لينكلن، أخبرنى ليفى: **"بالقرب من هنا سيكون جيداً، يا جو."** أرادا أن أنزلهما فى مكان بدا لى غير آهِلٍ بالمرة، مؤكدين لى بأنهما سيركبان القطار.

"كانت صحبتك ممتعة، يا جو. الآن نريد أن نقدم لك تقديرنا للتوصيلة ولكننا لا نريد أن نكون قد سببنا لك الأذى."

"لا مشكلة، كنت سأسلك نفس طريقكما."

"الآن، هل أنت متأكد بأن هذا كفاية؟ كنت كريماً. وتأكد بأننا أنا وجن سنأكل الكثير من الدجاج عندما يطلب منا أصدقاؤنا فى الديار سماع قصة البريطانى الملون الذى قابلناه. الإمبراطورية البريطانية - سأتذكر ذلك. وكل رجالها الملونين على جزيرة فى البحر." كلاهما مدَّا يديهما لى ليسلما علىَّ قبل مغادرة الشاحنة.

"كان من دواعى سرورنا مقابلتك، يا جو" قال ليفى، نيابة عن كليهما.

وبينما أنا أُشغل الشاحنة مرة أخرى وجدت مبلغًا من المال على مقعديهما الخاليين، وست عبوات لسجائر شسترفيلد. شداً ياقة معطفهما وهما يلوحان لى بالوداع قبل أن يختفيا مشيًا فى الشارع الوحيد المظلم الممتد.

الفصل الخامس عشر

جلبرت

فى بادئ الأمر اعتقدت، كلا، كلا، كلا، كلا، أنت تفقد عقلك، يا رجل ـ توهماتك تخدعك. لكن مرت ساعة وهو مازال هنا. لقد اشتريت الجريدة، ومشيت فى الشارع مارًا على الكنيسة حيث كانت بوابة المقبرة نصفها نُخر بسبب تآكل العفن لها. جلست على المقعد الخشب ملاحظًا بأن حبيبين قد حفرا اسميهما فى الخشب، بعمق لدرجة أنى أستطيع أن أشعر بأحرف الحب البارزة من ST إلىCM من خلال قماش بنطلونى الغليظ. ومازلت أراه هناك —على مدى بصرى. أحيانًا أنظر بطرف عينى لأراه وأحيانًا أبرم رأسى كلها. وأيًا كان، لم يحاول هذا الرجل كئيب الهيئة أن يخبئ نفسه. هذا لا يعتبر اختراقًا للقوات الجوية الملكية. فإذا كان جاسوسًا فسيكون أردأ جاسوس. فلن يُلفت رجلٌ من الشبكة الجاسوسية النازية الدولية النظر كرجل إنجليزى رث الملبس هكذا ـ فمعطف المطر الخاص به، وبنطلونه الواسع المزموم عند الركبتين والمرفوع عن

الساقين، وجواربه التارتان، سيدخل السجن على الفور. ولكن أيًا ما يكون هو، فلا شك بأنه كان يتبعنى.

لكن ما هو السبب؟ سألت نفسى. ربما يريد أن يشعر ملمس شعر رجل ملون. أو فرك بشرة ذلك الأسود لرؤية إن كان فركها سيجعلها بيضاء. أو ربما أراد لمسى لأجلب له الحظ. (يا رجل، إذا كان هذا صحيحًا فسيكون الرجال الملونون أكثر الناس حظًا فى العالم لنظافة مؤخراتهم.)

خدعته. من يعلم كم مرة مررنا بالبوابة المتهالكة وتلك المقاعد الخشبية المحفور عليها؟ لست أنا من يعلم، فلقد أصابنى الدوار من العدّ. أخذته إلى حقل فارغ ـ فقط أنا وهو يلحقنى على بعد عشر خطوات، يقتفى أثرى كالكلب. فى الواقع يبدو الأمر مضحكًا. كانت الأرض قد حرثت للتو؛ فقد كان من الصعب المشى على الأرض المقلّبة. أستطيع سماع صدره يصفر لكفاحه للحاق بى. اسمع ما سأقوله الآن: ياله من رجل قلبه رقيق، لقد أبطأت من خطواتى فربما يستطيع لحاقى بخطوات ثابتة. هل سمع أى شخص بأمرٍ كهذا؟ لكن لم أُبطئ خطواتى كثيرًا لأننى أريد إرهاق ذلك الرجل. أريد أن أتركه خائر القوى حتى لا يلكمنى بقوة فى الوجه أو يسحب سكينًا أو يركض نحوى. أريده أن يكون مجهدًا ومتعبًا فلا تكون له القدرة حتى على التلفظ بالشتائم الموجهة لى. وعندما تأكدت من أنى جعلته متقطع النفس، وقفت. وقلت له ملتفًا حوله لفةً كاملة: **"هل هناك ما أستطيع أن أقدمه لك، سيدى؟"**

الأدب هو دائمًا سياستى. إنه يجعل الناس المحترمة فى إنجلترا تغير رأيها فيك، حتى ولو لثانية أو ثانيتين. فهم يتوقعون بأننا

المستَعْمَرون غير متحضرين. فالبعض، على المرء مواجهة ذلك، لا يعتقد بأننا نستطيع الكلام من أساسه. فلقد قيل علىَّ: "**إنه يتكلم، يا ماما، إنه يتكلم.**" أووه، نعم يا ماما، إنه يتكلم وعندما يتكلم فإنه يتكلم بكل احترام ودماثة. ولهذا سألت هذا الرجل: "**أهناك ما أستطيع أن أقدمه لك؟**" مضيفًا لافتةً تدل على الاحترام، التى عادة ما تكون متضمنة فى كلمة "سيدى."

اعتقدت بكلماتى تلك بأنى قد حولته إلى حجر حيث وجدته تحجر من الفزع. لم يصدر منه أى صوت، لا شىء بتاتًا. وقف كلٌّ منا صامتًا، نحن الاثنين فقط وِحدنا فى الحقل منتظرين أن يوضح كل واحد للآخر من يكون. ولكن تعالى صوت ضجيج ــ طائرة تطير طيرانًا منخفضًا، لها دوِى قوى مثل الزلزال. إنها لانكستر، هذا ما اعتقدته، إنها طائرة لانكستر عائدة لقاعدتها. ومن الصوت غير المنتظم لمحركها يتبين أنها عائدة بإصابة. فلقد طارت طيرانًا منخفضًا فكتمت أنفاسى، كنت خائفًا من ألا تحدد الأشجار التى كانت على حافة الحقل. كانت على بعد بوصة واحدة، أقسم إن ارتفاعها كان بوصة واحدة. يا رجل، استطعت رؤية الثقوب بالقرب من حاوية الوقود التى كانت كبيرة بحجم قبضة كفى. "**امضِ، يا ولد!**" صرخت. "**امضِ، يا ولد!**" قلت وهى تخترق الجو من بعيد.

وعندما نظرت إلى الرجل مرة أخرى وجدته قد اختفى، أو هذا ما اعتقدته. نظرت إلى الأرض وكل ما وجدته هو معطف الرجل. والآن، ما هذا الأمر؟ للحظة ظننت أن الأرض قد فُتحت، وابتلعت هذا الرجل وتركت المعطف على فتحة الحفرة. وأنا أُعْتَبر رجلاً فطنًا. كلا. رفع الرجل نفسه ببطء من على الأرض التى انبطح عليها. نهض وكان وجهه أسود تمامًا مثل وجهى. وبالطبع ضحكت،

فقد بدا هذا الرجل كما لو كان مغنيًا متجولاً مضحكًا، عيناه البيضاوان ترمشان لى. لكنه كان يرتجف، وكأن فولتًا كهربائيًا عاليًا قد رجرج جسده. "**هدئ من روعك، إيه، يا رجل،**" قلت له. كان يدور مثل راقص ردىء لا يعرف أن يضبط خطواته مع الإيقاع. فقلت مرة أخرى: "**هدئ من روعك،**" لكن مع خروج تلك الكلمات السخيفة من فمى لاحظت بأن هذا الرجل لم يكن سليم العقل. لم يكن يريد العراك، بل يريد من يقوم بالعناية به.

انفجر دوى هزة طائرة أخرى من على بعد. غطى الرجل أذنيه، وتشمز وجهه كصرخة مكتومة. لكنها مرت مبتعدة من فوقنا. وخطرت بسرعة فى ذهنى فكرتان: الأولى هى: أنا محظوظ لعدم وجود أحد غيرى فى المكان ـ فأى أحد يرانا قد يصل إلى النتيجة بأننى أهاجم هذا الرجل. والثانية هى: أن هذا الرجل قد هرب من مكان ما. لم يكن شابًا صغيرًا ولم يكن عجوزًا. فشعره الرمادى لا يتناسب مع شعر حواجبه الكثيفة. كان يمكن أن يكون وسيمًا، على ما أظن، إذا لم يبد مفزوعًا ـ هذا الخوف جعله يبدو كالمغفل.

لكن الرجال ضعاف العقول لا يُعرف على أى منوال هم. أخذت حذرى عندما وضع هذا الرجل إحدى يديه المرتعشتين فى جيبه. مازال من المحتمل أن يكون معه سكين، أو قد يكون معه مسدس. على المرء أن يلاحظ بنفسه، كان ضعيفًا جدًا ومثيرًا للشفقة بتلك الرعشة وسيكون أمرًا مسليًا رؤية كيف سيستخدمها لتهديدى. بقيت يده، تتلوى كالفأر فى جيبه، لمدة طويلة إلى أن انتابنى الخوف من أن يكون يتحسس نفسه لجلب الحظ. ولكن بينما أنا على وشك مناداته بـ "**يا أيها الوسخ، يالك من رجل ضئيل وسخ،**" سحب من جيبه ورقة ليرينى إياها. حسنًا، ورقة ليست خطرة ـ كلنا نعرف

ذلك ـ ولكن أحيانًا ما يُكتب فى الورقة يكون كالقنبلة. ولهذا السبب اقتربتُ من الورقة أرتعش خوفًا. وما إن سلمنى الورقة حتى قفز هذا الرجل ـ ولم أبالغ أنا من ردة فعلى ـ قفز للوراء خمس خطوات بعيدًا عنى.

"**أووه، لن أعضك،**" أخبرته، مما جعل الرجل يقفز خطوتين أخريين للوراء. لم أقل: أى شىء آخر حتى لايقفز خارج الحقل بينما أنا أقرأ الورقة. تقول الورقة: "**اسمى آرثر بلاى. إذا وجدتنى رجاءً أرسلنى إلى واحد وعشرين شارع نيفرن، لندن، مكتب بريد(٥)**".

الآن، دعنى أحدد المشهد: أنا وذلك الرجل ذو العقل المحدود واقفان فى حقل فى لينكولنشير. وقد يكون نوتينجهامشير، لكن ليس هذا بالمهم. المهم هو أننا نحن الاثنين لسنا فى مكان قريب من لندن. هناك بعض الأوقات المحيرة جدًا التى كل ما يفعله المرء هو أن يحك رأسه. وهذا هو أحد تلك الأوقات. ومن حسن الحظ، تلك الحكة جعلتنى أرى ما كُتب على ظهر الورقة. كُتب عمل آرثر بلاى هذا ولكن العنوان تغير. إنه عنوان مزرعة فى مكان قريب. أنا أعرف هذه المزرعة، فلقد مررت من عندها مرات عديدة عندما كنت أعود من القاعدة.

"**تريدنى أن آخذك إلى منزلك؟**" سألت هذا الرجل. قلت ذلك بصوت عالٍ، أعلم أنى فعلت ذلك، وببطء شديد، وكأنى أتحدث لطفل، لكن بطريقة أو بأخرى بدا من الصواب أن أزعق فى هذا الراقص الأبله. ومع ذلك كان خاليًا من أى تعبير. رمش لى مرتين. وخطوت لأقترب إليه ونيتى أن آخذ بذراعه لمصاحبته. فخطا للخلف. حدث هذا لعدَّة مرات قبل أن أستسلم وأتقبل شغفه لوضعية التوازى. مشيت وهو يسير خلفى بعشر خطوات.

لم أكن أحتاج للنظر للخلف لأعرف أنه لا يزال هناك، فصفير نفسه يخبرنى بأنى ملاحق. حافظت على سمعٍ حاد فى حالة إذا ساء صفير نفسه. ومع لحظة وصولنا إلى الممر الضيق المؤدى إلى بيت المزرعة مشيتُ خطوات الجامايكى البطيئة ـ واضعًا قدمًا على الأرض والثانية تلحقها بسرعة، ولمَ العجلة، لا داعى للاندفاع ـ حتى يتمكن هذا الرجل من اللحاق بى.

أمضيتُ فى إنجلترا الوقت الكافى لأعرف أن لون بشرتى أمام أى باب قد يسبب ـ ماذا أعبر عن ذلك؟ ـ التوتر. عندما وصلت لإنجلترا لأول مرة كانت كل الأبواب متشابهة. اقترفت غلطة، طرقت الباب الخطأ. يا رجل، ظهرت تلك المرأة عند الباب ملوحة بقضيب النار المعدنى الساخن فى وجهى، تصيح بأنها لا تريد وجود الشيطان فى منزلها. **"منذ متى والشيطان التحق بالقوات الجوية الملكية؟"** سألتها. رجعتُ للوراء ـ تعلمت من هذا اليوم ـ ارجع للوراء، وابتسامة، وترقب!

وبسرعة تمت الإجابة عند باب بيت المزرعة، وهو ما جعلنى متأكدًا بأنه قد تمت رؤيتنا ونحن نقترب. المرأة التى فتحت لنا الباب هى كوينى بلاى، بالرغم من أنى على نحو بيّن لم أكن أعرف اسمها فى ذلك الوقت. كل ما أعرفه هو أن هذه المرأة الحسناء نظرتْ إلىَّ لمدة ثانيتين بنظرات إدراك مشوشة. ثانيتان قبل أن تدرك أننى لست أنا من تتوقعه هى أن يكون. ثانيتان قبل أن تنتبه بأننى غريب. كانت كلماتها الأولى لى وهى تشير إلى الرجل الذى كان يتبعنى: **"أين وجدته؟"**

هذا هو ما قالته لا أكثر ولا أقل. لا يوجد "مرحبًا، كيف يمكننى مساعدتك؟" أو "يوم سعيد. فقط قالت: **"أين وجدته؟"** بدون دماثة،

ولا أى مجاملة. فهى حتى لم تقلق من أن وجه ذلك الرجل الذى كان ذات مرة أبيض أصبح أسود الآن.

"من الظاهر أنه كان يتتبعنى." أخبرتها.

لفتْ عينيها فى مقلتيها. كانت فى جمال الدمية ـ شعرٌ أشهب، عينان شديدتا الزرقة، نحيفة لكن وسطٌ ممشوق ورجلان جميلتان. وأنا بارع ـ مثل كل الرجال الذين فى الخدمة من بلدى ـ فى أخذ نظرة شاملة على المرأة من غير أن تلاحظ. كل جزء منها يقيم، ويصنف ويقارن برمشة من عين لا يغامرها الشك. ومن الصعب القول على رجلٍ جامايكى ـ بارع فى هذا الفن ـ ما إذا كانت هذه البراعة نتيجة تدريب أم هى هبة طبيعية منذ الولادة. وددت فرك يدى من جمال هذه المرأة الرائع، وأقبل الرجل المجنون الذى لحقنى وأشكره من كل قلبى لإحضارى إلى هذا المنزل. لكن عوضًا عن ذلك وضعت يدى بجانبى مثل رجل محترم وتحكمت فى فمى حتى لا يصدر منه أى نية مؤذية.

"هل تبعك؟" سألتْ.

"نعم، منذ ثوانٍ مضت. كنا مع بعضنا منذ العصر. خلفى على بعد خطوات ما عدا اللحظة التى بطح نفسه فيها على الأرض."

"هل كان هناك ضجيج عالٍ؟ هل كان يرجف؟"

"نعم، سيدتى، نحن الاثنين."

"لا تقلق ـ أنت لم تفعل شيئًا."

"سؤالى هو، لماذا هو يتبعنى أنا من الأساس؟"

"آووه، أعرف لماذا تبعك،" قالت. "هو يعتقد بأنه يعرفك. يعتقد أنه أرجعك لى."

نظرتُ مرة أخرى إلى هذا الرجل، الذى اعترى وجهه تعبير ما، الذى إذا أُمعِن النظر فيه ـ وربما بأى أداة قياس ـ قد تُفسر على إنها ابتسامة. وفى تلك اللحظة تخطانى الرجل، متجهًا إلى داخل المنزل بدون أى إدراك لوجودى أو امتنان لى على الإطلاق.

سألتها: **"هل يتحدث هذا الرجل؟"**

"ألم يقل لك أى شيء؟"

هززتُ رأسى حين قالت، موجهة الحديث له من أعلى كتفيها، **"ادخل، أيها المتسول المعتوه ـ إنه ليس هو."** ثم نظرتْ إلى وأضافت: **"يعتقد أنك شخص آخر."**

"لا تقولى هذا، بول رويسون"(*)

"بول رويسون؟ أنت تعتدُّ كثيرًا بنفسك، أليس كذلك؟" قالت عابسة. **"على العموم، لن يتعرف على بول رويسون إذا وقع عليه."**

"يا سيدتى،" قلت لها، **"إذا سقط بول رويسون عليه فلن تكون هناك أية حاجة لأن تفتحى الباب، فقط سأرسل هذا الرجل المحترم من عقب الباب."** هذه فعلاً طرفة ظريفة. بول روبسون ضخم كما هو واضح وكان هذا الرجل ضئيلاً. كان سيفرطح مثل الكوخ أمام الدبابة. إلا أن هذه المرأة لم تر الجانب المضحك فى ذلك.

"اغتسل، يا آرثر،" قالت منادية الرجل، **"وجهك سيخيف الناس.**

(*) بول روبسون (Paul Robeson) مغن أوبرالى وممثل أمريكى أسود فى أوائل العشرينيات اشتهر بآرائه السياسية الراديكالية وانضمامه كناشط فى حركات حقوق الإنسان. أول ممثل أسود قدم شخصية عطيل على البرودواى، وهو أول مغن أسود قدم الأغانى الدينية الخاصة بالسود. (المترجمة).

وانزع من عليك هذه الملابس القذرة." وقالت ملتفة لى قبل أن تغلق الباب: حسناً، أشكرك لإحضاره."

لهذا سألتها: "عفواً، أليس هذا الرجل المحترم على ما يرام؟"

"لا أعتقد ذلك، أليس كذلك؟" ولأننى قد سألت نفسى السؤال للتو، فلم يكن لدىَّ ردٌّ لها. أكملتْ قائلة: "لم يعد على ما يرام منذ الحرب الأخيرة. هو يكره الضجيج العالى. أحضرته هنا بعيداً عن دوى القنابل فى لندن، لكن أنت أيها السخيف أحدثت بعض الضجيج وأفكر فى العودة به لبعض السلام والهدوء."

لم أكن على الاستعداد بعد بأن أترك امرأة حسناء مثلها. "حسناً، إذا لم يكن بول روبسون، فمن هو الشخص الذى اعتقدتنى هو أنا؟" آه، يا ولد، احمرت خجلاً. احمرت خجلاً بشدة لدرجة أنى شعرت بارتفاع الحرارة حولى.

"اووه، إنه فقط شخص آخر أعرفه ـ يشبهك."

"رجلٌ فى القوات الجوية الملكية؟"

"إنه رجل ملون مثلك."

"آوو، أؤكد لك، يا سيدتى، لا يوجد أية رجل ملون يشبهنى."

"بلى، أنت تشبهه ـ بعض الشىء."

"هل لى أن أسأل كيف هذا؟"

"كلا، لا يمكن، لكن أشكرك على إحضاره للبيت. أنا متأكدة بأنك تريد الانصراف الآن."

يا رجل، أليست هى مخطئة!

"أهو والدك؟"

"من؟"

"الرجل الذى يغسل وجهه الآن."

"كلا، إنه حماى. تم إعطائى إياه كهدية الزواج."

"كهدية الزواج! يالك من محظوظة، زوجك رجل كريم. المكان الذى أتيتُ منه عادة ما تقدم فيه الزوجةُ حماةً عجوزًا حقوداً بدون أسنان كهدية."

فجأة ضحكت هذه المرأة. ضحكة من لا مكان. لا يوجد أية ابتسامة ولا تكونت أية ضحكة مكتومة. لمدة دقيقة كان الوقار، والدقيقة الثانية كانت ضحكة كصياح الأوز، صوتًا قد يجعل خنزيرًا ينتصب باحثًا عن أمه. من البديهى أن أركض أو أن أحدق بها. واخترت أن أحدق بها. ثم قالت، وهى تمد يدها: "كوينى بلاى، اقدم لك السيدة كوينى بلاى."

"جلبرت جوزيف،" قلت، وأنا أسلم على يدها برقة. "اقدم لك الطيار جلبرت جوزيف."

وانطلقت تلك الضحكة مرة أخرى.

"يا لها من ضحكة،" قلت.

"هل تظن من الأفضل أن أعمل لك كوبًا من الشاى نظرًا لقطعك كل هذه المسافة."

"أخيراً جعلتك تضحكين."

"أووه، تحاول إضحاكى، أليس كذلك، أيها الطيار."

"الضحك جزء من مهامى فى الحرب."

"طـيب، إذن، من الأفـضل أن أقـدم لك بـعض حـسن الـضـيـافـة المحلية."

"ماذا؟ ألن يمانع زوجك من استضافتى؟"

"والآن بما أنك ذكرت ذلك، انتظر دقيقة. سأذهب وأكتب له. هو فى الهند. يجب أن أتسلم رداً منذ سنة. هل تمانع أن تنتظر؟" وقفتُ جانبًا حتى أتمكن من المرور. "ادخل، أيها الطيار، قبل أن أغير رأيى."

الفصل السادس عشر

جلبرت

مع الوقت لم أعد أبالى. جنود أمريكان بيض ـ عساكر فى الجيش الأمريكى خرجوا يتسكعون فى المدينة. قد أتساءل أئذا كان هذا التبختر والزهو فى خطواتهم بسبب أنهم ثملون أم إنها الغطرسة الوطنية التى قد عرفها جميع الحلفاء.

"ياهذا، أنت!"

"أنا؟"

"أجل، أنت. ألا تعرف كيف تقدم التحية لأسيادك؟" لم أصدق بأن ما قيل هو سؤال جاد، بينما يحاول صديق الرجل المتعلق بذراعه تثبيت نفسه من الضحك طوال الوقت كما لو كان فتاة فى مدرسة سخيفة.

"أنا لا أعرفك، يا رجل."

"أنا قائدك،" قال لى. إن العلامة التى علقت على ذراعه تدل

على أنه ليس أكثر من مجند حقير فى الجيش الأمريكى. ربما لا ينبغى علىَّ أن أضربه بحذائى ذى الرقبة الطويلة، لكن هذا أقل احترام يُقدم له.

"قدم التحية لسيدك."

"عليك اللعنة، يا رجل،" أخبرته، قبل أن أمضى.

نادى علىَّ بصوت عال، الرجل الآخر الذى كان يقهقه، قال صارخًا: **"تَنَحَّ على جانب الطريق، يا زنجى."**

استدرتُ لمواجهتهما مرة أخرى لكنهما كانا قد انصرفا، متمايلين متبخترين فى عبث ولهو.

وعندها سمعت صوتًا أنثويًا يتطاير عاليًا، **"أيها الطيار"** مناديًا فى الهواء. علمتُ أنها هى. لكن لم ألتفتْ إلى حيث تقف إلا عندما قالت اسمى - إلا عندما علمت أنها مازالت تتذكر اسمى جلبرت. ومع وضعية الشمس خلفها كانت الصورة الظليّة لساقىْ كوينى بلاى قد ظهرت مثل عرض لفيلم إغراء لفستانها الرقيق. لوَّحتْ لى كما لو كنا صديقين حميمين غير واعية لهذا الظهور الحميم. وهؤلاء الجنديان القبيحان قد نُسيا فى الحال. يا رجل، قلت لنفسى، قد تغير حظك للتو!

"يا جلبرت، أرأيت آرثر؟" أسرعتْ نحوى فى الشارع، متقطعة النفس بشكل ساحر.

"لا تقولى لى إنك فقدته مرة أخرى."

"إنه ليس أمرًا مضحكًا، يا جلبرت."

"لكنك مهملة جدًا مع هذا الرجل." لم ينظر إلىَّ وجهٌ بهذه القتامة والبلادة منذ أن سألتُ الخالة ماى إذا كان قد قبّلها أحد من قبل. لقد تماديتُ كثيرًا. يا رجل، بدأت أفقد تأثيرى.

"**يالك من شحاذٍ وقح.**" قالت. لكن ياله من ارتياح عندما برقت عيناها وهى تجيبُ بتهور بدلاً من الضربة القوية على الرأس من قبل العمة ماى.

"**تحتاجين إلى رباط لهذا الرجل.**"

"**أنت على حق، قد أستطيع أن أربطه به.**"

"**امرأة جميلة مثلك لا تستطيع أن تقدم على أمرٍ كهذا.**"

كان هناك أثر حمرة على رقبتها وهى تقول: "**لا تحاول أن تتحدانى.**"

"**إذن كيف تاه منك هذه المرة؟**"

"**كما هو الحال دائماً.**"

وبما أنى قد قابلت كوينى وحماها فى مناسبة واحدة فعبارة "**كما هو الحال دائماً**" تعنى القليل لى. لكن حميميةٓ تلك العبارة كانت من العذوبة مما جعلنى لا أسأل عن استفسار أكثر. "**سوف يعود.**"

"**لقد استنفد صبرى.**"

"**من المحتمل أن يحضر لك شخصاً آخر لشرب الشاى.**" ظهر على كوينى الفزع مما اضطرنى أن أقول: "**إنها مجرد نكتة.**"

"**إذا كانت نكتة، يا جلبرت، لكنت ضحكت. يا له من رجل أحمر أحمق.**"

"**من، أنا؟**"

"لست أنت ـ بل هو." استرخت معالم وجهها، وفى حركة واحدة تحول وجهها من القلق إلى جمال رائع.

"طيب، نظرًا أن حماك قد جمعنا مرة ثانية، هل أستطيع أن أدعوك على كوب من الشاى؟"

"هل يوجد كوبُ فى جيبك؟"

"كلا، لكن يشرفنى أن أصاحبك إلى محل الشاى."

"إنها نكتة، يا جلبرت."

"نكتة؟ لكن، يا سيدة بلاى، إذا كانت نكتة لكنت بالتأكيد ضحكت."

أقسم إنى مازلت أشعر بملمس أنامل كوينى على ذراعى منذ الظهيرة التى تقابلنا فيها أول مرة. قدَّمت لى كوبًا من الشاى والحليب وأنا جالس فى مطبخ والدتها. أخذته من يدها بامتنان ولكن رفضت السكر الذى عرضته علىَّ رغم، كما يعرف كل شخص، أن الشاى طعمه مقرف بدونه. ثم عرضت علىَّ قطعة كبيرة من فطيرة محشوة بلحم الخنزير شكلها لذيذ. وبالرغم من أن فمى مُلئ باللعاب حتى سال تمامًا مثل الكلب أمام عظمة، إلا أنى رفضتُ تلك الوجبة. لماذا فعلت ذلك؟ بسبب الرقيب باكستر. لقد علمنى هذا الرجل، وكل قوات كتيبته، أنه بسبب النقص فى المؤن والترشيد فى بريطانيا فإذا دُعيت إلى طعام فى بيت أحدهم فالرد الكيّس هو الرفض، وشكرهم ـ ربما بعذر تناولك الطعام بالفعل. **"لن يستطيعوا أن يستمروا فى تقديم كل طعامهم لأمثالكم."** قال هذا الرقيب وهو يتحدث معنا. **"لهذا تصرفوا كما لو كنتم لا تريدون هذا الطعام."**

قلت: **"كلا، شكراً لك. لقد أكلت بالفعل."**

"هل أنت متأكد؟" سألتنى كوينى.

"احكى لى عن فطيرة لحم الخنزير؟" حينها سألتها. **"هل هى من آداب المجاملة الإنجليزية؟"**

وهنا خرجت تلك الضحكة من مكان ما ـ صوتٌ مخيف، الذى فجأة ملأ كل زاوية من زوايا الغرفة المضجرة والكالحة بالدهشة. **"حسنًا، أظن نحن الاثنين فقط المستهترين بما يكفى لأكلها، إذا كان هذا ما تقصده؟"**

تمنيت ألا تبرز عيناى الحسودة من مقلتيهما للعيان وأنا أراقبها وهى تأخذ أول قضمة من قطعتها. وبينما هى تمضغها، بدأت تلك المرأة الحسناء تبتسم. وفى تلك اللحظة وضعت يدها بلطف على ذراعى. ثم قالت، وهى تنظر بخبث بعينيها الزرقاوين الواسعتين فى عينى، **"نصيحة منى، يا طيار جلبرت. لا تكن مؤدبًا فى عقر دار الجزار. كُل قدر ما تشاء."** آووه، بدت ساحرة جدًا فى هذه الظهيرة. اضطررت أن أستسلم، متجاهلاً ما قاله الرقيب باكستر.

من أجل خاطر كوينى، إذا رأيتهم قبل أن أخطو خطوة واحدة داخل محل الشاى لكنت قدمت أى عذر حتى لا ندخل. لكن ما إن أجلستُ كوينى على الكرسى حتى كانت رؤيتهم بالقرب من كرسىً واضحة لى. ثلاثة جنود أمريكان بيض. وما إن جلستُ، حتى قالت لى كوينى مازحة بصوت عالٍ **"أنت رجلٌ محترم، يا طيار جلبرت."** ثم أزاحت من عليها معطفها من الصوف المضلّع، ووضعته على ظهر الكرسى. لاحظ ثلاثة الجنود الأمريكان وجودنا، أنا أعلم ذلك. لكز واحدٌ منهم ذراع الآخر، مشيرًا برأسه ناحية طاولتنا بينما حدَّق

الثالث مباشرة فىَّ بنظرة ثابتة دون أى حركة. لم يكن هناك أى سبب لكوينى بأن تشعر بتطفلهم حيث جلست وظهرها باتجاههم. بدأت تقرأ القائمة غافلة عما يجرى حولها قائلة: "**أراهن بأن هذا البيض المخفوق ليس بيضاً أصلياً**،" فى حين، مدركًا بأن مشاعر الخوف قد تشنج الوجه، أخذت أبادلهم التحديق بنظرة ليس فيها أى علامة تدل على ما فى نفسى من مشاعر.

كل إنسان له معركته فى حرب الكراهية. الكل يجب أن يستدعى فى الأذهان قائمة بالأشرار. الأعداء. وعلى رأس قائمة الجنود البريطانية ذلك الجيش الذى يكرههم أشد الكره ـ النازيون. هم، بالطبع، رجالٌ ستُرسم على وجوههم ابتسامة لرؤية رأس الجندى البريطانى يُعصف بها. إلا أنى تعلمت أن أمقت الجندى الأبيض فى الجيش الأمريكى أكثر من أى شىء، منذ اللحظة الأولى للضيافة غير المريحة فى القاعدة الأمريكية فى فرجينيا، وصولاً إلى شحنة الكره والغطرسة هذه التى مُلئ بها هذا المكان فى وجه رجل ملون جاسر ولم يتحرج من الجلوس مع امرأة بيضاء.

إنه الجيش الذى يبغضنى أشد البغض! فمثل القناصين الذى يصفون أهدافهم التى تسهل مهاجمتها، تشنج هؤلاء الجنود الثلاثة الأمريكان المستاءون، وأظهروا مشاعر الكراهية بطريقة غير لائقة للجو الراقى لمحل الشاى الكئيب هذا. محاطون بنساء عجائز ابيضَّ شعرهن ـ وطقطقة الأكواب مثل الأجراس فى الأيدى المرتعشة وهى توضع على الصحون، والمشابك الخاصة بلوازم المائدة فى الأطباق المزينة بالزهور، وبقبقة رقيقة عند صبِّ الشاى، وصوت المضغ الخافت، وحوارات خفيفة ـ كان هؤلاء الجنود الأمريكان المساكين فى مزاج خطير يراقبون زنجيًا يجلس وهو مازال رافعًا رأسه. إذا

كان الغرض من الحرب هو هزيمة الكراهية، فإذن، حسنًا على المرء مواجهة ذلك، كنت أنا وكل الرجال الملونين فى الخدمة نقاتل فى جبهة أخرى فى هذه الحرب.

سألت كوينى بصوتٍ عالٍ أكثر من اللازم: **"هل تودين أن تأكلى شيئًا مع كوب الشاى؟"**

"لا أمانع فى ذلك."

"الآن، هذا أطول طريقة ملتوية لقول نعم،" علَّقتُ على ذلك.

"لماذا على الإنجليز أن يقولوا "لا أمانع" هذه فى حين أن كلمة نعم تفى بالغرض؟ هل يكون السبب هو لإرباكنا نحن الجامايكيين؟"

"تعرف، لم أفكر فى ذلك من قبل. إنما هو شىء يُقال هكذا فقط. تعودتُ أن أقولها هكذا دائمًا. لا أمانع فى ذلك. لكن طالما ذكرت هذا.."

كانت كوينى غافلة عن أن حوارنا المؤدب جعل هؤلاء الجنود الأمريكان يشدُّون على قبضة أكُفِّهم. وهمس أحدهم كلمة عاجلة فى أذن صديقه. والآخر، يدخن سيجارة، عاصرًا شفتيه، ممسكًا بها بإصبعه والإبهام مثل سيجارة بوجارت(*) المنكمشة ـ نفخ دخانها باتجاهنا.

لا أعلم لماذا كانت هذه النادلة الكريهة المتعصبة تقف وفى يدها دفتر وقلم. قالت هذه السيدة، ناظرة فى أى مكان ما عدا ناحيتنا،

(*) بوْجارت (Humphrey Bogart) ممثل أمريكى ظهر فى فيلم كازبلانكا. وبسبب دوره فى هذا الفيلم أصبح اسمه "فعل" لمن يدخن السجائر والماريجوانا بنهم (المترجمة).

"لا يوجد،" على كيك الشاى، والخبز المحمص، وكعكة المافن، وفطيرة الزبد، والكعكة بالزبد.

"ماذا، هل فسد كل شىء؟" سألتها.

"كلا،" قالت متكاسلة رافعة حاجبيها. "نفدت الكمية. ليس لدينا أى منها."

"اعتقدت دائماً بأنه عندما لا يوجد أى شىء فلأنه فسد."

"حسنًا، هكذا أقول. نحن هكذا نقولها هنا. لا توجد فى القائمة."

"لكنها مكتوبة هنا."

"بلى، لكنها نفدت."

نظرت إلى كوينى التى كانت كتمت بيدها على ضحكتها. "طيب، يا كوينى، هل تفضلين الشاى؟"

"لا أمانع يا جلبرت،" قالت، وقفزت العجائز المسكينات من على أماكنهن عندما بدأت تضحك.

وفى تلك الأثناء كان الجنود الأمريكان مركزين أنظارهم علينا كما لو كنا امتحانًا عليهم اجتيازه.

"لدينا الكعكة المحلاة بالسكر القاسى المقرمش (روك بنْ)،" قالت النادلة.

كان لواحد منهم شعر أسود مجعد كثيف ـ يا رجل، لا ينبغى على هذا الولد الأبيض أن يحفر عميقًا فى ماضيه: من يدرى ما يخبئ من أسرار غريبة؟

"آووه، شكراً لك،" قلت. "إذن، هل لى باثنين من الروك بنْ أيضاً، من فضلك."

كتبت الطلب فى دفترها وهى تخبرنى: **"يوجد واحدة فقط متبقية."**

"إذن واحدة، من أجل السيدة، شكراً لك."

الجندى الثالث كان قبيحًا متوحشًا ـ وكأن الرب فى الأعالى صنع له وجهه فى الظلام: أنفٌ مفلطح فى اتجاه واحد، عينان قريبتان جدًا من بعضهما. ربما يكون لاعب ملاكمة.

كانت كوينى تتحدث عن حميها. **"سنعود إلى لندن. سنجرب حظنا. فكما ترى، فهو يسبب الضيق للكاهن. وكما تدرى، حالته هذه، لايتحملها الكاهن، يقول إنه يتصرف كفتاة."**

وضعتْ الروك بنْ فى صحنها مرتطمة به محدثة دويًا قويًا ـ أنصت ـ اعتقدتُ أن هؤلاء الجنود الأمريكان قد رموا قنبلة يدوية. التقطتْ كوينى الكعكة وتفحصتها عاليًا، ومالت باتجاهى هامسة بصوت مسموع: **"يالها من أيام عز قد ولّت."** نهض أحد الجنود من مقعده وردعه أحد أصدقائه.

أشرتُ لكوينى لكى تميل أكثر ناحيتى. أستطيع الشعور بملمس شعرها على ذقنى، ودفء نفسها على خدودى وأنا أقول لها: **"هل نُقْدم على تذوقها؟"** نظرتُ مباشرة إلى هؤلاء الثلاثة مستقيمًا بجلستى. يا رجل، كانوا يزمجرون كالحيوانات، منتظرين العدالة خارج أسوار هذا القفص. كان اثنان من الشرطة العسكرية يتمشيان متمهلين بالقرب من النافذة، ونوه الوحش القبيح بوجودهما للاثنين الآخرين. تمت بينهم المزيد من النقاشات الماكرة عندما كنا نحتسى الشاى بهدوء.

"اسمها روك، وهى فعلاً كالصخرة" قالت كوينى، محاولة تقطيع الكيك إلى قطع صغيرة للأكل.

"أخبرينى، هذه الروك بنْ، هل هى من دماثة المجاملة الإنجليزية؟"

"حسنًا، إنى حمقاء بما فيه الكفاية لأكلها. عذرًا، لكن الحرب كانت مندلعة،" قالت، عندما غطّست قطعة الكعكة فى كوب الشاى لتلين قليلاً. ثم مدت هذه المرأة الشقراء الحسناء قطعة الكعكة عبر المائدة لآخذ قضمة. وطوال هذا الوقت وكوينى ليس لديها أدنى فكرة بأن كل حركة فعلتها، وكل إيماءة لى، وكل كلمة ودودة والآن هذا التصرف ـ السماح لرجل أسود بأخذ قضمة من يدها ـ تجعل أعناق الجنود تحمر وتغلى دماؤهم من الغضب. ينبغى ردع هؤلاء الجنود حادى الطباع مرة أخرى. كنت مشغولاً بالغضب الواهن فى عيونهم. ياله من شر!

"هل انت بخير، يا جلبرت؟ إلى ماذا تنظر؟" سألت، محاولة أن تلمح ما حولها. ولكن بالنسبة لها، بالطبع، فليس هناك ما تراه يهددها فى هذا المكان.

وضعتُ يدى على ذراعها لأقول: **"آووه، لا شىء."** عندها قام هذا الحيوان القبيح، الذى بالتأكيد رأيت حركة تهديده، أشار إلى عنقه بيده فى إشارة لذبحى.

كان علىَّ إخراج كوينى من محل الشاى بأقصى سرعة. أعرف أننى لا أستطيع المرور من بين هؤلاء الرجال باتجاه الباب بدون أن تنزل علىَّ لكمة من مكان ما. ثلاثة ضد واحد، مازلت أستطيع تخيل فرصتى. لكن السيدة "حظ" هى سيدة متقلبة الرأى والحال، وأنا لا أريد أن أتعرض للإهانة أمام رفيقتى رقيقة الإحساس. كانت

تتحدث، وأُقر بأنى ليس لدى أدنى فكرة عن ماذا كانت تتحدث لأنى كنت أفكر فى خطة هروبنا. فهى لم تكن فى أمان من حقدهم وعدائهم. آه، كلا. لن يكون لجنود أمريكان بهذا القدر من البذاءة أى احترام لمرأة بيضاء أمضت فترة الظهيرة مع زنجى.

وفى هذه اللحظة رأيته فى الضوء الخافت. كان آرثر ــ هذا الرجل الرائع الذى أحضرنى عند باب كوينى ـ يمشى عبر الشارع ويبدو عليه، كالعادة دائمًا، أنه ضل الطريق.

"**هاهو حماك هناك،**" قلت.

ركضتُ بسرعة خارج محل الشاى إلى المكان الذى هو واقف عنده بدون أى "**عن إذنك.**" بدت الطريقة التى تهز كوينى بها إصبعها فى وجه هذا الرجل العبوس مشينة بعض الشىء، بينما قام هو، ورأسه منتكس إلى أسفل، بركل حجارة خيالية ليست موجودة على الأرض.

نهضتُ لكى أرحل. وكذلك فعل الجنود. دفعت للنادلة معطيًا إياها بقشيشًا كريمًا فبالكاد تبسمت لى. كان الجنود يسدون الباب. أحتاج إلى خطة. فات الأوان لأن أتخفى فى زىّ تنكرى ـ يستطيعون التعرف علىَّ حتى وأنا متنكر فى شعر مستعار أشقر. كل الذى استحضره ذهنى هو أن أعصر نفسى خلال أى شباك خلفى للخروج. "**هل لديكم مرحاض؟**" سألت النادلة.

"**كلا، لكن فى آخر الشارع...**" بدأت النادلة فى الوصف. ثم، تغير الوضع، توقفت عن التعليمات عندما رأت الجنود يستعدون للرحيل.

"**عذراً، أنا أعد البيض لكم أنتم الثلاثة. لا تستطيعون الانصراف هكذا. لقد طلبتم هذا الطلب.**" هرولتُ باتجاههم. "**فى**

هذا البلد عليكم الانتظار حتى يأتى طلبكم." دفعتهم حتى يرجعوا إلى أماكنهم، وأذعن هؤلاء الشباب الجبناء على مضض. "سيأتى حالاً، اجلسوا الآن. ليس لدينا طعام حتى نبدده هكذا. هناك حرب مندلعة. كما تعلمون." وبحكم وقوفها على مائدة هؤلاء الرجال المذعنين التافهين، انسحبتُ إلى خارج الباب، معطيًا قبلة للسيدة حظ". رمقنى الجنود الثلاثة من النافذة كما لو كنت آفة تهرب. وبالتالى لوحت لهم. هيا، من هو الجبان الضعيف الآن؟

ومع هذا كنت قلقًا عند مغادرة الطريق بسرعة. أسرعتُ ناحية كوينى ووالدها. "جلبرت"، بدأت كوينى قائلة: "كنت أنا وآرثر نفكر فى الذهاب إلى دار عرض الأفلام."

السيدة حظ مازالت تبتسم. قلت: "إنها فكرة رائعة" شابكًا ذراعى بذراعهما. "دعونا نذهب." وتمكنت من شدّهما عكس إرادتهما وإبعادهما، وهما مرتبكان بحماسى.

الفصل السابع عشر

جلبرت

أتساءل كيف يجعل كلارك جابل كل النساء يُغشَى عليهن من نشوة رؤيته هكذا؟ إنه فيلم ذهب مع الريح. فمن شدَّة الابتهاج قفزت كوينى فى سعادة. "**اووه، كلارك جابل يمثل فيه!**"صرخت بانفعال. كانت صرخة حادة متجاهلة أى منطق لمجرد فكرة وجودها مع هذا النجم الأمريكى الكبير فى الظلام. كيف لفَّ كلارك جابل رأس كل امرأة بهذا الشكل. قد تتخيل البنات الإنجليزيات الأغبياء النجم السينمائى فى كل جندى أمريكى له نفس صوت هذا اليانكى. هذا السحر يجدونه فى مجند فى الجيش الأمريكى يدعى جِد، باك، أو شيب، مع هداياهم الرخيصة التافهة وكلام العم سام المعسول. مشاغبون فى هيئة جذابة قادمون من ديلاوار أو أريزونا الذين لا يزال الطين من أرض بلادهم تحت أظافرهم، وأعينهم يصيبها الحول عند محاولة القراءة. محبوبو الجماهير من الرجال كهؤلاء تجدهم فى محل الشاى، الذين يواعدون أقرباءهم المقربين،

ويعتبرون الماشية فى نفس مستواهم العقلى. إن هذه المجموعة من الأشرار أصبحوا فرسان أحلام النساء الإنجليزيات، والفضل يعود إلى حلاوة وفصاحة لسان السيد كلارك. لقد بدأ الفيلم للتو، وفاتتنا الموسيقى والأفلام التسجيلية القصيرة. لم يستطع النجم كلارك هذا ـ بالرغم من علو وجهه ستة أقدام وتألقها ـ من أن يضىء لنا الغرفة بما يكفى لترشدنا الطريق عبر دار السينما.

"**التذاكر؟**" سألت المرشدة فى زيها الرسمى. "**اتبعونى.**" بدت حقيرة بالرغم من الظلام ـ كان نهداها ضخمين داخل ملابسها الضيقة. كان شعاع المصباح الذى فى يدها، كما لو كان يحاول الهروب منها، يهتز بجنون على الأرض قبل أن يثبت على المقاعد الفارغة. وبهدوء قادت كوينى آرثر من كوعه بين المقاعد. كان مسلوب الإرادة وكأنه طفل صغير جلس قبل أن ينبغى له، فى حين دفعته كوينى ليتحرك مقعدين آخرين. ثم جرتنى المرشدة من كمِّ قميصى وأنا ذاهبٌ خلفهم. التفتُّ إليها وأذهلتنى لثوانٍ، محركةً ضوء المصباح فى وجهى.

"**عليك الذهاب إلى هناك عند آخر القاعة،**" قالت هذه المرأة، مضيئة الطريق الذى علىَّ السير فيه. لقد أخطأتُ فهمها. ربتُّ على كوينى وهمستُ لها قائلاً: "**المرشدة قالت علينا الذهاب إلى الخلف.**"

هزتْ البنت رأسها عندما رجعتْ وخرجتْ كوينى من الصف. "**لا أقصدُك. بل أنتَ. أنتَ من عليه الذهاب إلى الخلف.**"

"**لكننا مع بعض.**" قلتُ ملوحًا لكوينى بأن تأخذ مكانها مرة أخرى. وتبعتها. ولكن أمسكتْ المرشدة ذراعى مرة ثانية. تحدثتْ بطريقة كما لو كانت تتحدث مع شخصٍ أبله، فقالت: "**كلا، أنت.**

يجب عليك أنت الذهاب إلى الخلف. إنما كلاهما هى وهو يمكنهما البقاء هنا."

"لكن يوجد مكان كافٍ لأجلس فيه هنا." كنت أهمس لها حتى لا أزعج الآخرين من متعة متابعة الفيلم.

"هذه هى التعليمات،" قالت.

"التعليمات، أى تعليمات؟" الآن جعلتنى حائرًا. كانت موسيقى الأوركسترا للفيلم صاخبة مثل صوت الرياح فى مدرج الطيران. وكانت كوينى، وهى تنظر إلىَّ، نصف واقفة ونصف جالسة على مقعدها. السيدة التى خلفها طلبت منها الجلوس. ومن مكان ما أُمرت أنا أن أصمت. فاعتذرت. وبدلاً من أن تجلس خرجت كوينى من الصف إلى حيث أقف مع المرشدة المشاكسة.

"ما المشكلة، يا جلبرت؟" سألت.

كانت الموسيقى صاخبة جدًا فنظرت كوينى إلى آرثر، خوفًا من أنه قد يرمى بنفسه إلى الأرض.

قالت المرشدة: **"عليه الذهاب إلى الخلف."**

"لكن يوجد هنا مقاعد،" ردَّت عليها كوينى.

"لقد قلتُ لها ذلك - وهى تقول إنها التعليمات."

"تعليمات، أى تعليمات؟" سألت كوينى.

هدأتُها بوضع يدى بلطف على ذراعها ـ سأهتم بهذا بنفسى. **"اجلسى أنت، يا كوينى - سآتى حالاً."** ثم، ملتفتًا ناحية هذه المرشدة، سألتها نفس السؤال: **"أى تعليمات؟"**

رفعتُ فى تلك اللحظة المصباح لتوجه ضوءه عاليًا إلى الصفوف الخلفية لدار السينما. ولثوانٍ قليلة مررت الضوء على الوجوه الجالسة هناك. لم تتضح الرؤية لكوينى؛ وإلا لما سألتها: **"ماذا؟ ماذا تحاولين أن ترينى؟"** لكن أنا استطعت الرؤية. وبنفس قدر الانذهال من رؤية حشد من الصراصير المتمعجة بعضها على بعض، قام هذا الضوء، رغم أنها كانت ثانية واحدة فقط، بحفر ورسخ صورة سيتعذر محوها من مخيلتى. لقد ومض الضوء على صفوف من الوجوه السوداء، مظهرًا معالم اللامبالاة والسلبية التى رُسمت على وجوه عدد غفير من الجنود الأمريكان السود المستمتعين بالفيلم.

"عليك أن تجلس هناك معهم."

"يا سيدتى،" أخبرتها، **"أنا لست أمريكيًا. أنا من قوات الطيران الملكية البريطانية."**

"أنت ملون."

كانت كوينى رجعت. **"عن ماذا تتحدثين؟"**

"ملون، هو ملون." قالت، ومررت الضوء مرة أخرى على الصفوف الخلفية، وثبتتها هذه المرة لكى تستطيع كوينى، التى ارتبكت فى بادئ الأمر، تدريجيًا من الرؤية. بعض الرجال أستيقظوا من نومهم من الضوء، عندما ثبتتْ عليهم شعاع المصباح.

"هذه إنجلترا،" قلتُ. **"وليست أمريكا. نحن لا نتصرف هكذا هنا فى إنجلترا. سأجلس فى أى مكان يحلو لى."**

"حسنًا، هذا ما نفعله كذلك هنا. إنها التعليمات. كل الزنوج" ـ

توقفت ثم شرعت فى الحديث لتكمل، قالت: "**يجلس كل الملونون هناك فى الصفوف الخلفية.**"

"**لماذا؟**" سألت كوينى.

"**لأن هذه هى مقاعدهم.**"

"**كلا! لماذا على الناس الملونين الجلوس فى المكان الذى تقولين عليه؟**".

"**زبائننا الآخرون لا يحبون الجلوس بجوار الملونين.**"

"**من هم هؤلاء الزبائن الآخرون؟ اليانكيز؟**" سألتها.

"**لن يجلسوا بجوارك.**"

"**من هم الزبائن الآخرون؟ من؟**" كنت الآن أصرخ فيها.

"**لا يحبون أن يختلطوا بكم.**"

"**الأمريكان؟**"

"**ليس فقط اليانكيز. الجميع.**"

عرضتْ كوينى عليها قائلة: "**سيجلس بجواره هو - بمقدوره أن يجلس بيننا.**"

أردتُ أن أشعر بالسعادة لأن هذه المرأة الإنجليزية الجميلة تدافع عنى. لكن، هيهات، نيَّة كوينى الطيبة لم تستوعب المقصود كليًا.

"**فى هذه البلد أجلس فى أى مكان يحلو لى.**"

"**إذن عليك الذهاب إليه. هذا المكان هو فى الخلف أو لا مكان لك.**"

"يا سيدتى، لا يوجد جيم كرو فى هذه البلد."

فقالت: "من؟"

قلت: "جيم كرو."

"حسنًا، إذا كان ملونًا فسينبغى عليه الجلوس فى الخلف أيضًا." قالت.

"أقصد التفرقة العنصرية، يا سيدتى، لا يوجد تفرقة عنصرية فى هذه البلد. سأجلس فى أى مكان يعجبنى فى دار السينما هذه. وهؤلاء الرجال الملونون فى الخلف كان ينبغى عليهم الجلوس فى أى مكان يحلو لهم. هذه إنجلترا، وليست ألباما."

وكالصوت الذى يصدر من آلة شديدة السخونة، جاءتنا نداءات "الششش من كل زاوية حولنا لكى نصمت. ومعها كلمات تدل على نفاد صبرهم: "هدوء، هناك من يريد أن يتابع الفيلم."

"ستلحق الأذى بوظيفتى. أنا لا أضع التعليمات. الرجال الملونون الآخرون لا يسببون كل هذه الضجة. ستصعد للخلف أو ترحل."

أخبرتها: "يا سيدتى، أنا لن أذهب للخلف ولن أرحل. نويتُ أنا وأصدقائى الاستمتاع بمشاهدة الفيلم من هذا الموقع بالتحديد." دق قلبى بشدّة لدرجة أنى خفتُ أن يُقال لهذه الضربات بأن تصمت هى أيضًا. ياه، أف، يا رجل ـ يالها من وقاحة وقلة حياء. نحن نحارب الاضطهاد العرقى ضد اليهود، ومع هذا حتى فى سماء القوات الجوية الملكية تسمح بشرتى الملونة لأى أحد أن يعاملنى كما لو كنت شيئًا أقل رتبة من الإنسان. أدرتُ ظهرى للمرشدة، مشيرًا لكوينى بالجلوس وذهبت لأجلس بجوارها مباشرة.

كان صوتًا أمريكيًا ـ صارمًا كالرعد ـ أتى من الصفوف الأمامية والذى صاح فىَّ قائلا: "**اجلس فى المكان الذى أُمرت أن تجلس فيه، يا ولد.**"

تجاهلت ذلك الصوت.

"**هاى أنت، يا زنجى، قلتُ اجلس فى المكان الذى أمرتك السيدة أن تجلس فيه.**"

أجلست نفسى بجوار كوينى. نهض هذا الجندى الأمريكى ـ انتصبت صورته الظلّية مثل عاصفة مدمرة أمام الشاشة.

"**ارأيت، لا نريد أى مشاكل،**" ترجتنى المرشدة وفى عيونها الدموع.

"**يا زنجى، افعل ما أُمرت به،**" صاح الجندى الأمريكى.

"**وتستطيع أن تقول إنه سيشبعك ضربًا،**" ردَّتْ كوينى، وهى تقف. وإصبعها تهتز بغضب شديد.

"**تحرك، يا زنجى.**"

"**وتستطيع أن تخرس بكلمتك زنجى هذه،**" قالت كوينى، "**أنا أفضلهم عنك فى أى يوم.**"

صاح صوت امرأة قائلاً: "**قولى لهم، يا حبيبتى ـ هؤلاء اليانكيز أصحاب الأصوات الصاخبة والأفواه الوردية.**" لم ألق النظر، أستطيع الشعور بالهيجان والاضطراب يأتى من الخلف داخل دار السينما عندما صرخ أحدهم قائلاً: "**اخرس أيها الأبيض. لن نقبل هذا بعد الآن.**"

كان الجو قد ساده التبرم والتذمر من بقية المشاهدين بينما صاح جندى أمريكى وقال: "**قف، يا زنجى.**" وجاءت من الخلف

صرخات متناغمة قائلة: "**من الذى تنعته بالزنجى؟ من الذى تنعته بالزنجى؟**"

"**هل تناسبك أكثر كلمة جيجابو**"(*) صاح صوتٌ آخر من الصفوف الأمامية.

"**كلا، أرفضها**،" جاءت قذائف من الرد.

فرتّ المرشدة، وهى تصرخ قائلة: "**علىّ إبلاغ المدير. نحن لا نريد أية مشاكل**،" بينما كانت كوينى مستمرة فى التشدق لهؤلاء الرجال البيض، قالت: "**عليك أن تجلس، ما علاقة كل هذا بك؟**"

"**اخرسى يا حبيبة الزنجى**،" ردّ عليها الرجل.

"**رجاء اجلسى، يا كوينى**،" حاولت معها، لكنها لم تتوقف لكى تسمعنى.

"**أنا مستعدة لكم أى وقت، أنتم يا جماعة حقيرة**." صرخت.

ولمرة أخرى قال صوتٌ نسائى: "**قولى لهم، يا حبيبتى**."

وأخذ اثنان من الجنود الأمريكان فى الصفوف الأمامية محاولة المرور بين الجالسين، مجبرين على الوقوف لكى يتمكنوا من الخروج من الصف. وكنت على أتم الاستعداد لهم.

صرخت امرأة فى الجنود الأمريكان قائلة: "**هاى، اتركوه وشأنه. يا لكم من ثيران، جميعكم**."

صدرت ضحكات من الصفوف الخلفية، "**يا رجل، المرأة ستضربك**."

(*)جيجابو (Jigaboo) تستخدم فى أمريكا وإنجلترا لتعنى الشخص الأسود. وتعد إهانة شديدة. (المترجمة).

وقف جنديٌ أمريكيٌ أبيض آخر لإخبارى: "**فقط انصرف، يافتى، لنستطيع كلنا أن نُكمل مشاهدة الفيلم.**"

"**ابق، يا رجل، ابق،**" جاء الصوت كالأنشودة من مؤخرة الصالة.

"**أين هو المدير الملعون هذا؟ لم أدفع حتى أشاهد ما يحدث الآن.**"

الكثير من الناس وقفوا ـ ليس بمقدورى رؤية الشاشة بعد الآن. ثم، وبدون أية سابق إنذار، أُوقف عرض الفيلم وأُضيئت الأنوار.

تجمدتْ الغرفة، وكأنها لوحة متعددة الألوان رُسمت بيد فنان ماهر. لماذا؟ لأن كل من فى الصالة رأى المنظر. صفوف من الجنود الأمريكان السود بالمؤخرة. صفوف من الجنود الأمريكان البيض فى المقدمة. ومقاعد من المدنيين. فى ملابسهم الرثة يجلسون فى سلامة نيّة فى المنتصف. الآن يجلس بعض النساء مع الجنود الأمريكان البيض بزيهم العسكرى بين المدنيين. لكن، وبدون أى شك مثل قوات نابليون وقوات ويلينجتون أمام واترلو، هيأت هذه المرشدة أرض المعركة لنا. والآن كل جندى أمريكى على أهبة الاستعداد.

السود يصرخون: "**من هذا الذى تنعته بالزنجى؟ لن نقبل منكم هذا بعد الآن.**"

البيض يصرخون: "**أيها الزنوج المغرورون الوقحون. اخرسوا تماماً.**"

"**أتجبروننا، أيها البيض؟**"

"**هذا صحيح يا أولاد الكلب نجبركم.**"

وفى تلك اللحظة ومع تشتت مفاجئ لهؤلاء المتنزهين المرتاعين

أمام قطيع مذعور من الثيران، قام السكان المحليون بالنظر يمينًا وشمالاً للفرار. وصل المدير مهرولاً على المسرح ملوحًا بيده مثل رجل يغرق. صاح بصوتٍ عالٍ وسط هذه الجعجعة ليسمعه الجميع قائلاً: "**على كل فرد الانصراف من صالة العرض. رجاء ترك الصالة بنظام الآن.**" وعندما لم يسمعه أحد أضاف قائلاً: "**لا نريد أية مشاكل هنا ـ قد تم إبلاغ المسؤولين.**"

ركض جندى أبيض من فوق المقاعد باتجاه مؤخرة القاعة. فتعثر وسقط على صف فأسقط امرأتين، اللتين بدورهما، على حسب نظرية الدومينو، وقعتا. فقفز جنديان أمريكيان سود من فوق الصفوف للوصول إلى المكان الذى تعثر فيه الرجل. النساء يصحن، "**ابتعدوا**،" مختلطة مع صيحاتهن صرخات الرجال القتالية الهمجية. فى حين يطلب ذلك المدير الأحمق: "**الهدوء رجاءً والانصراف من المخرج عند مؤخرة الصالة.**"

وضعتْ كوينى يدها على يدى وأمسكتها، غارسة أظافرها كالمخالب. وأمسكت بآرثر بالطريقة نفسها الذى كان مشدوهًا، وبانت عليه الحيرة إذ كان مازال يتابع مشاهدة الفيلم.

"**تعال، تعال، هل هذا ما تريده، يا زنجى؟**" كان هناك رجلٌ أسود يفر من أربعة رجال بيض الذين يطاردهم العديد من الرجال السود. زلزلت الأرض من تحت أقدامهم. وجدت نفسى أشتاط غيظًا ـ يا رجل، كنت مستعدًا لضرب أى شخص اليوم! لاحظتُ فقط عندما حاولت أن أحرر قبضة كوينى المؤلمة بعض الشىء بأن هذه المرأة لا تريد منى حمايتها. كلا، تعتقد كوينى بلاى نفسها حارسى الأمين. وفى ركنٍ بعيدٍ فى القاعة جذب جندىٌ أمريكىٌ رجلاً أسود بعنف

من قفاه، ناترًا هذا الرجل الضخم المنحنى نحوه، ومنزلا الضربات على وجهه؛ زمجر هذان الرجلان بحماس المحاربين. شاركت امرأة فى هذا الشجار، حيث أنزلت عليهما الضربات بحقيبة يدها. وفى الحال خبأ هذان الرجلان مفتولا العضلات رأسيهما خشية تلك اللكمات. إلى أن وجدتْ نفسها تتعثر وتسقط حيث انضم إليهم ثلاثة جنود آخرون ـ جندى أسود، واثنان أبيضان. يا رجل، يا لها من صرخة صرختها صديقتها!

ركض أناس إليهم قائلين: "**ابتعدوا عنها! ابتعدوا!**" فانتبه الجميع لهذه الرحى.

وأما بقيتنا فقد سُحِبوا مع تيار من الأشخاص المذعورين ـ كان تيارًا لا مرد له يجرف الجميع إلى الأبواب. لدرجة أن الجنود الأمريكان السود والبيض على السواء جاهدوا للخروج من الأبواب فى دقائق معدودة من التكامل التام غير المرغوب فيه. وفى وسط هذا الزحام المندفع فقدتُ كوينى، وتمزق وتخربش ذراعى من قبضتها.

وبخروجهم إلى ليلة باردة مظلمة، تساءل كل واحد فى الشارع كيف وجدوا أنفسهم بالخارج. لقد دُفعت للخارج. وبينما أنا أحاول مجاهدًا المحافظة على توازنى، كانت هناك قبضة مستعدة لضرب المذنب ضربة قوية صوتها عالٍ كضربة السوط، التفتُّ فوجدت امرأة لا تكاد تصل إلى وسطى، أقسم بذلك. "**الخطأ خطؤك أنت،**" قالت. "**أنت لا تساوى شيئًا بل أنت مشكلة.**" دفعتنى مرة أخرى.

"سيدتى!" وما إن بدأتُ أتحدثُ إليها، حتى انصرفت، مسرعة بين الزحام، كما لو كانت إسهالاً . يا رجل، يشتاط الحقد فى عيون

هؤلاء الرجال وليس الغضب! ليخبرنى أحد، إذا أُشعلت نار فى العراء فى أى شىء يابس، أما كانت الشرارة الضّالة هى التى تلام عندما يحرق اللهب اليابس؟

لكن، ياه، يا صديقى، يا لها من معركة عجيبة. يحمل الرصيف نساءً غطين رؤوسهن بالحجاب، ويسحبن الأطفال إليهن ليبقوا بالقرب منهن، ويبحثن عن أصدقائهن الذين يصيحون: **"فيرا، من هنا، تعالى، يا حبيبتى، هيّا بنا نرحل."** والبعض الآخر يزمجرن وهن بين لفيف من الناس، **"إنها وصمة عار.. لا يجب أن تروا شبابنا وهو يتصرف هكذا.. ينبغى عليهم أن يوفروا طاقاتهم للألمان.. الحرب لم تنته بعد وكيف ستنتهى بشباب كهؤلاء."**

وفى وسط الشارع تصرخ مجموعة من الجنود الأمريكان ـ حيث أُبعد بكل صرامة بين مجموعات السود والبيض ـ بشدة وهم يتهكمون على بعضهم البعض. **"تعال، يا زنجى، هذا ما تريده.. سأقتل ابن الكلب اللعين هذا.. هذه ليست مسيسيبى، عليك أن تأتى لتهزمنى.."** وبدا وكأن لدى الجنود الأمريكان السود، الذين يفوقون البيض فى العدد بقليل، عجزًا فى مفردات الإهانة. فكيف تستطيع كلمة **"يا ابيض** غير المؤذية أن تسبب فى غليان الدم وإثارة الأعصاب ككلمة **"زنجى"** أو **"جيجابو"** أو **"سامبو"** أو **"ولد الغابة"**(*) **"هل هذا ما تريده، يا زنجى؟ وستناله.. يا ابن الكلب الوسخ فأنت ميت.."** كان هؤلاء الرفاق الأمريكان الذين لبسوا نفس الزىّ الأخضر لمحاربة العدوان الأجنبى على وشك بدء حرب خاصة بهم همجية وغير متمدنة.

(*) في الأصل: "jigaboo" و"sambo" و"jungle boy" كلها تعني الرجل الأسود وتعد إهانة شديدة للسود. (المترجمة).

ربما كان السبب هو الجو البارد المنعش فى الليل، أو ربما السبب هو متابعة الناس المحليين للعدوان اليانكى. من يدرى مقدار الغليان الذى كان محتدمًا بداخل دار السينما، لكن هنا بالخارج كان واضحًا أن تلك الرغبة فى القتال قد تلاشت. هؤلاء الرجال حادو الطبع يرمون اللَّكمات فى الهواء التى لم تصب أى أحد. يندفعون بعنف ناحية الأماكن الخالية بينهم. تتطاير العصى والحجارة، مفرقة المجموعة التى تطير باتجاهها، فقط الكلمات الخبيثة هى التى تصيب الهدف. قد تم الإمساك برجل أبيض. حرر نفسه ليرجع إلى صفوفهم بعد مجاهدة دامية كما لو كان قد أُمسك بين فكى تمساح. لحقوه بركلة على مؤخرته وقالوا ساخرين: "**لقد ركلنا مؤخرتك. لقد ركلنا مؤخرتك، يا أبيض.**" ضحك الرجال السود.

أصبح هذا الاشتباك معركة تظهر الحقد الدفين والضغينة لا أكثر ولا أقل. بدأ الرجال فى كلا الجانبين بالانصراف، لدرجة أن ولدًا صغيرًا ركض بين الفرقتين. "**اريد علكة، يا صاح؟**" قال، مفكرًا فقط فى الجنود الأمريكان والعلك.

بحثت عن كوينى وآرثر، كنت أفكر فى أن أعرض عليهما أن أصطحبهما إلى منزلهما. لكن فى تلك اللحظة بدأ صفير الصفارات. كان حادًا مثل حدة رؤوس الدبابيس، كانت أوركسترا من الصفير، والصفير، والصفير صدعت بعنف فى السماء. أحصنة تركض، أو هكذا اعتقدت صوت تلك الأحذية ذات الرقبة الطويلة التى ركضت على الأرضية الحجرية صوت ركض الأحصنة، حيث تدفق رجال الشرطة العسكرية الأمريكية فى الشارع، مرتدين قبعاتهم البيضاء، وينثالون وكأنهم فقاعات الصابون.

انتابت الدهشة الكثير من الرجال مشدوهى الفم ـ الساكنين من شدة المفاجأة. ارتفعت هراوة الشرطة، وهاجم رجال الشرطة العسكرية الجبناء مجموعة الجنود السود. شُقتْ جماجم رجال عزَّل تمامًا مثل قشرة البندق، حيث لم يجد الرجال السود أى مكان يفرون إليه إلا الترنح بحيرة أمام تلك الأحذية الهائجة غضبًا، لكمات وضربات بأكواع من قبل الجنود الأمريكان البيض. وكالأوكسجين على اللهب الخامد، أشعل رجال الشرطة العسكرية نار العراك على الفور وكأنها نار الجحيم.

قفز أحدهم على ظهرى. لقد ارتفعت الأرضية الحجر المبتلة وكادت تصفع رأسى عندما قلبنى ثقل كيس الفحم هذا وأسقطنى على الأرض. طنَّ دوىُّ الصوت بالقرب من أذنى مثل أجراس الكنيسة. ثم قبضت يدٌ قوية بصرامة على مؤخرة رقبتى وثبتت وجهى باتجاه الأرض الحجرية. كُشطتْ خدودى بقسوة على الحصى المبلول، وأخذتُ أقاوم بقوة مقاومة لم أقاومها من قبل فى حياتى. هذا ليس مزح إلوود العنيف معى ـ لن يبتعد أحد عنى قافزًا بعيدًا ضاحكًا معلنًا بأن الآن حان دورى فى اللعب.

لقد أمدَّنى الغضب قوة حتى أحرر نفسى. كنت لا أزال مترنحًا، تلقيت لكمة شديدة فى فمى إلا أنى تمكنت من إطاحة هذا الرجل من على ظهرى على الأرض. سقط هذا الجندى الأمريكى الأبيض القبيح متقهقرًا للخلف، فاقدًا اتزانه ـ عاقفًا وجهه من الغل. نزلتْ ضرباتى على رأسه بقوة مما أدى إلى حول فى عينيه بطريقة مضحكة قبل أن نتعانق، ونحن متدحرجان، تمامًا مثل حبيبين. وبينما نحن منجرفان هكذا صوَّبت لكمة فى بطنه اللينة، أصابت

ضلوعه القاسية بدلاً من ذلك. وبضربى لبطنه مرة أخرى غارت كما لو كانت وسادة هوائية فخرج منه الفساء. اندفع بقوة ناحيتى ليعض أذنى، فهو لم يُهزم بعد. ومن شدة الألم وقفت على رجلى على الفور. ثم دفعته بشدة للخلف فسقط وقمت بركله فمسك ببطنه ووقفت على قدمه بقوة لأمنعه من الحركة.

تفرق الجميع فى كل اتجاه مثل الجراثيم أمام رجال الشرطة العسكرية. اندفع الجنود الأمريكان، السود والبيض، بقوة كاندفاع القذائف بقوة رمية الرياضيين. ومع ذلك وصل رجال الشرطة العسكرية. كان هناك رجلٌ أبيض يبصق لعابًا مدممًا منحنيًا عند شباك عرض للملابس النسائية. وامرأة منحنية أمامه بعطف قد هُشت بعيدًا عندما نتر ثلاثة رجال من الشرطة العسكرية بعنف، وجروا بشدة ولكزوا هذا الرجل الكئيب حتى يقف. ووقفت طفلتان صغيرتان ترتعشان وتبكيان، وهما متشبثتان ببعضهما بشدة مثل نصفى حبة الفول السودانى. وهناك ولدٌ أكبر فى السن يصيح قائلاً: "**ماما، ماما**،" جميعهم يصرخون من الرعب كلما اقترب منهم أى شخص.

وضرب جندىٌ أمريكى أبيض برأس رجل أسود الحائط. نزف هذا الرجل الأسود الدم ـ الذى تدفق وكأنه قطعة قماش قرمزية على عينيه. ركض كالأعمى متخبطًا يتحسس الحائط ليتجنب ضربات هراوة الشرطة. ودُفع بجندى أمريكى إلى الأرض فشعر بأربعة أزواج من الأحذية تركض على ظهره، قبل أن يركله رجلان أسودان. تنطط هذا الرجل الطائح على الأرض مثل الخرقة مع كل ضربة.

تحطمت زجاجة طائرة عند قدمى ـ شعرت، وأنا أقفز بسماجة، بقطع الشظايا الصغيرة المتناثرة على خدودى. كان زيِى العسكرى قذرًا وممزقًا من عند الأكتاف، ياقة قميصى لزقة، وضاعت رابطة عنقى ـ رفع شرطىٌّ عسكرى الهراوة حتى يضربنى، بغض النظر عن زيى الأزرق للقوات الجوية الملكية، كل الذى اهتم به هو لون بشرتى. كان صوت طلقة رصاص هو الذى أوقفه. طلقة رصاص من مسدس. هل سمعت هذا الصوت بأذنى أم شعرت به فقط عندما طأطأ كل رجل بزىٍّ عسكرى رأسه ـ الفعل اللاإرادى جعلنا جميعًا نجثم؟ هناك طلقة أخرى.

تسمَّر المحليون في أماكنهم هذه المرة. ومثل صرخة نداء لأم تقترب تخترق حالة جنون ألعاب أيام الصبا، تفحص جميع اللاعبين فى هذه اللعبة المقرفة بعضِهم البعض فى لحظة يسودها الدوى الباهر الذى استدعى السؤال التالى: ماذا سيحدث الآن؟

حسنًا، على المرء مواجهة الحقيقة، كان الفضول الذى جعلنى أجرى فى الشارع قد قادنى إلى حيث يقف الزحام. لم يكن بدافع الشجاعة، ولم يكن بدافع الشهامة، دعنى أقول، لم يكن بدافع تفكيرى بكوينى ركضتُ إلى حيث صوت الطلقات. اسمع ما أقول. تذكرت مجددًا بأنه كان معى رفقاء فى هذا اليوم فقط عندما سمعت صوت كوينى يصيح قائلة: "آرثر." كان شرطى عسكرى مفزوع يصيح قائلاً: "ابتعدوا، ابتعدوا!" أخذ هذا الرجل الضئيل ـ والأعين تنظر للأرض وهى مسلوبة الإرادة، والدخان مازال يخرج من المسدس الذى يحمله فى يده باستهتار ـ يحرك المسدس لإبعاد الناس من المكان. هناك رجلٌ أُصيب بطلق نارى ملقى على الأرض أمام قدميه. وعرفتُ أنه آرثر بلاى حتى من قبل أن تبدأ كوينى

بضرب الشرطى على ظهره ـ صافعة رأسه، وممزقة القلنسوة التى يرتديها. تصرخ قائلة:" آرثر! **دعونى أمر.. إنه آرثر! لماذا تفعلون هذا؟ إنه آرثر فحسب!**"

لقد أُطلق عليه النار فى فكه، انفجر رأسه بطلقة الرصاصة فبان ما بداخلها بشكل فائق الفظاعة. حاولت الاقتراب من كوينى ـ خائفًا من أن هذا الشرطى العسكرى الغبى الذى مازالت توبخه وتلومه قد يظهر لها عدم الاكتراث بمسدسه مرة أخرى. ولكن تدفقت القلنسوات البيض وأصوات ركض الأحذية ذات الرقبة العالية لرجال الشرطة العسكرية إلى المكان تأتى من كل جانب. ارتفعت هذه المرة هراواتهم بانتظام بالقرب من صدورهم، وقاموا برصنا بعيدًا بهذا الحاجز المؤقت. "**إلى الخلف، ابتعدوا للخلف ـ على الكلٍّ الابتعاد. تحركوا. هيا، ارجعوا للخلف هناك!**"

أُجبرت مجموعتنا الفضولية، متعثرين ومتخبطين، على الرجوع للخلف. لم أعد أستطيع رؤيتها بوضوحٍ، لكنى ناديت على كوينى بصوت عال عندما قال شرطى عسكرى، وعصاه تهوى على صدرى بقوة، ووجهه يقترب جدًا من وجهى، ونفسه الساخن يخترق خدودى: "**ابتعد عنها، أيها الزنجى.**" فى تلك اللحظة فقط أحسست بمرارة ألم هذه الحرب ـ وليس الألم من وجهى الذى كُشط أو كتفى المخلوعة. وأصبح آرثر بلاى إحدى الكوارث التى تحصدها هذه الحرب. لكن، حسنًا، هل يمكن أن يخبرنى أحد،... أيَّة حرب؟

الفصل الثامن عشر

جلبرت

قفز الشباب وهم مفعمون بالنشاط والحيوية من على رصيف الميناء إلى البحر. ارتفعت أذرع وأرجل فى مقابل خلفية السماء الزرقاء الصافية لدقائق كما لو كان نجم البحر قد انفجر. ثم غطسوا جميعهم لجمع العملات المعدنية التى قذفها لهم ركاب الدرجة الأولى من على متن السفينة. وعلى رصيف الميناء عند سلم السفينة الخشبى عزفت فرقة الكتيبة الأولى للجيش الجامايكى لعودة الهنود الغربيين المتطوعين فى القوات الجوية الملكية. من يدرى أى نغمة ترحيب تلك التى كانوا يعزفونها إلى سارق الأمل والسعادة ونجحوا فى توصيلها إلى أُذنٍ لا تستحقها.

بعض الرجال بكوا عندما شعروا أخيرًا بأرض الوطن تحت أقدامهم. لقد طُويت الجبال الزرقاء فى الأفق، وفى المقابل تزينت كينجستون بألوان الشمس والظلال. الرؤوس أصابها الدوار، سكارى من التطلع بفضول إلى المشهد الذى اعتادوا عليه وأصبح

غريبًا غير مألوف لهم. وقفنا بانتباه للمرة الأخيرة أمام الحاكم، مرتديًا زيًا مبهرجًا، الذى تمنى لنا الخير جميعًا. ووعدنا بإعفاء من مصاريف شهرين وتخليص أوراق تأدية الخدمة، ثم شكرنا لخدماتنا العسكرية الجليلة. فلقد تم تسريحنا من الخدمة العسكرية.

أحضرت معى مقصوصات صفراء بالية من ورق جريدة إخبارية. تحدثت العناوين عن "**مقتل رجل لندنى فى حادث الجيش الأمريكى.**" وتساءل المراسل فى الجريدة: كم من الاشتباكات على البريطانيين أن يعانوها قبل أن تتصرف سلطات الجيش الأمريكى مع جنودها وتحكمهم؟ كان حدثًا ذا أهمية ـ أُعتبر حدثًا فظيعًا. أُخذت صورة لكوينى الحزينة ـ التى اعتبروها بالخطأ ابنة الضحية. وهناك صورة أخرى لآرثر: رجلٌ رصين، الغليون فى يده، كانت صورة لرجلٍ إنجليزى محترم ليس كبيرًا فى السن. فلقد اعتقدتُ أن رجلاً فى الأربعة والخمسين من العمر يكون رجلاً عجوزًا.

وورَد فى الخبر أنه مما يبعث للأسى فقد أُصيب آرثر بلاى بطلقة رصاص كانت قد أُطلقت لإخماد اشتباكات عنيفة. وتبعًا لما ورد فى العديد من الصحف، أن الجنود الأمريكان الذين كانوا على وشك الرحيل من مواقعهم عبر البحار، قد اعتراهم الغضب عندما تعطل عرض الفيلم الذى كانوا يشاهدونه. فنتج شجار عنيف أثناء إخلاء دار عرض الأفلام. فأطلق أحد رجال الشرطة العسكرية، الذى كان يؤدى واجبه، طلقة رصاص تحذيرية عاليًا فى الهواء. وكذلك كان غرض طلقته الثانية التى تغير اتجاهها عن غير قصد عندما تعثر الشرطى. فأصابت آرثر فى الرأس ـ وبالتحديد فى

عظمة الفك ـ فأودت بحياته على الفور. وحضر الجنازة أفراد العائلة المقربون ومندوب من الجيش الأمريكى.

وذُكر فى النعى بأن الابن، برنارد، منضم للقوات عبر البحار التى تعمل تحت هيئة قيادة جنوب شرق آسيا(*) . ولم يُذكر أى شىء عن ما الذى حدث لذلك الشرطى العسكرى؛ فلم ترد أى أخبار عن محاكمته. ولَّمح خطابٌ واحد فى الصحيفة عن التمييز العنصرى والمعاملة السيئة التى تلقاها الجنود الأمريكان السود من أهل بلدهم. وأكمل الخطاب فى تحيتنا نحن البريطانيين على كوننا متحضرين.

لقد تم إرسالى إلى عدة مواقع عسكرية أخرى فى اليوم الأول بعد الحادث ـ انتقلت إلى كورنوال فى اليوم التالى مباشرة. ثم إلى اسكوتلاند. ومنها إلى فيلى. ثم رجعت إلى كورنوال مرة أخرى. كتبتُ إلى كوينى ـ العديد من الخطابات، كتبتُ كل خطاب بعناية بالغة. كيف تتعافى؟ هل هى بخير؟ هل هو غير مسموح لى بزيارتها؟ لم يأتنى أى رد. إذًا، حسب تخيلاتى الجامحة، صدَّقتُ أن قيادات الجيش أصابها الحيرة حول من يكون هذا المتطوع الهندى الغربى، إذن أستطيع الاستنتاج بأن إرسالى إلى مواقع عسكرية مختلفة كان بقصد إبعادى عن كوينى قدر المستطاع.

منذ انتهاء الحرب من عامين وأنا أنتظر سفينة تحملنى إلى جزيرة جامايكا من أجل عودة البطل. حضرت مواكب الانتصار فى إنجلترا، ربت على ظهرى عددٍ لا يحصى من الرجال لتحيتى، الذين

(*) فى الأصل: SEAC command هيئة مسؤولة كاملاً عن الحلفاء فى مسرح العمليات الحربية فى جنوب شرق آسيا. (المترجمة).

بسرور أخبرونى بأنه الآن أستطيع العودة إلى ديارى. فلا مزيد من الارتجاف فى البرد القارس ـ فلن يكون هناك أى داع لأن ترتجف أسنانى. دعنى أنسى السجق الشنيع والبطاطس المسلوقة. الثكنات ومؤسسة النافى (*). وأيضًا، شكرًا جزيلاً، لا أريد المزيد من الشاى.

فقط أعدنى إلى الشمس والاسترخاء ـ جوّ أغبش، ولحم الضأن المنكَّه بالكارى، والدجاج الحريف، وحساء الفلفل اللذيذ. دعنى أُقابل نساء بشرتهن سوداء جميلات، ملفوفات ورشيقات الجسم، مستعدات لأن يضعن أذرعهن فى ذراعى بكل فخر. دعنى أنظر إلى وجوه تعرفنى منذ كنت ولدًا صغيرًا: حسنًا، دعنى أمصٌ أسنانى مجددًا وأنا وسط أقاربى. ولكن بدلاً من أن أكون سعيدًا بالتسريح من الخدمة العسكرية نظرتُ حولى متسائلاً تمامًا مثل الحبيب المهجور. إذن، هذا ما هو عليه الأمر. والآن ماذا؟ تملكنى الفزع حين أدركتُ أن جزيرة جامايكا ليست الكون كله: فهى تمطر فقط بضعة أميال قبل أن تصرف المياه فى البحر. وفى تلك اللحظة، صدمتُ بالحقيقة الرهيبة، وأنا واقفٌ بطولى فى ميناء كينجستون، وهى أننا، يا رجل، نحن الجامايكيين أيضًا لسنًا إلا سكان جزر صغار.

لقد وجدتُ كل شقيقاتى وقد تبعثرن، كما لو كانت أمى قد أحلَّتْ خيوط مريلتها، فأربع منهن قد تزوجن ورحلن إلى أمريكا حتى قبل أن تفقد زهور زفافهن نضارتها. والثلاث الأخريات بدون أى خاتم فى أصابعهن قد وجدن كندا مسلية ـ واحدة تعمل ممرضة، والأخرى مدرسة، والثالثة راجية أى وظيفة.

(*) فى الأصل: Naffi مؤسسة أنشأتها الحكومة البريطانية لتقديم الخدمات اللازمة للجنود وزوجاتهم أثناء الحرب. (المترجمة).

فى شيكاغو، ليستر كان رجلاً كبيرًا يعمل فى الإنشاءات. ويُظهر الحماس بشدة كالطفل قبل الكريسماس، فكانت أمى حريصة على أن توضح بأن ليستر ليس لديه أى سبب للرجوع إلى هذه الجزيرة الصغيرة. وبالرغم من تدفق الأولاد الصغار من جميع أنحاء المقاطعة ـ متحمسين لرؤيتى، جندى حقيقى، عائد من الحرب، ويجعلوننى أزعق بالأوامر التى، بكل حماس، يتسارعون لتنفيذها وهم يمشون فى استعراض ببنادقهم غير الأصلية ـ إلا أن أمى والخالة ماى كانتا تنظران إلىَّ بشفقة للحظ السيئ الذى جعلنى أجد نفسى مرة أخرى أجلس عندهما فى الفناء الخلفى.

لقد تسبب نقص المؤن فى الحرب وقلة المال للقيام بأى احتفال ـ فى انهيار مشروعهم بشكل بشع. فلم تعد أمى والخالة ماى تمضيان يومهما فى صنع الكيك، لكنهما حولا مهارتهما إلى تزيين قبعاتهما. جُهزتْ تلك القبعات لرحلتهما لزيارة أحفادهما المهاجرين إلى أمريكا وكندا. أُلحقتْ زهور، وفاكهة، وأقواس، وريش، وشبك بشكل محترف إلى قبعات سادة وقديمة وبهذا تستطيع هاتان السيدتان حضور حفلات التعميد، أو القدَّاس، أو حفلات المنازل، أو حفلات الزفاف بهيبة ووقار. وصرحا ببهجة وسعادة بأن تلك التجهيزات للرحلة إلى أمريكا الشمالية عبارة عن مهمة قد تأخذ منهما وقتًا طويلاً للغاية. بينما والدى، واهنًا وعجوزًا، يجلس فى الشرفة على الكرسى الهزّاز، يرشف شرابًا ممزوجًا شديد التركيز لونه أسمر محمر بمقدوره أن يقتل ثورًا، غافيًا من شدة الثمالة، غير مدرك بأنه على وشك أن يُترك ويُهجر.

"**إذن ماذا، لم تدرس القانون بعد، يا رجل؟ اعتقدتُ أنك سترجع قاضياً.**" بالرغم من كلماته تلك إلا أنه بدا على إلوود السعادة من

عودة صديق طفولته للديار. "لا تقل إن الوطن الأم لم ينفذ وعوده؟ ياه، إيه، يا رجل، تريدنى ان أصدق أن الإنجليز كاذبون؟" ضحك من صميم قلبه على نكتته، ولاحظتُ أنه قد فقد بعض الأسنان منذ آخر مرة نظرتُ إلى فمه الساخر.

ما هى السخرية المهينة التى قد يوبخنى بها ابن خالتى إذا أخبرته عن الذى حدث عندما سعيتُ لدراسة القانون وأنا فى إنجلترا؟ فقد صممت لنا وزارة المستعمرات دورات إعادة التأهيل لتهيئنا نحن المتطوعين الهنود الغربيين فى القوات الجوية الملكية لحياة المدينة. يا رجل، أعرف أنها الفرصة أمامى قد أينعت وحان قطافُها. كانت دراسة القانون ضمن اللائحة. لم أضعها أنا فى القائمة، بل هم. كانت هناك بين المحاسبة والطب، أكملت الاستمارة. لكن، علىَّ قول ذلك، رؤوس كثيرة أخذت تهتز لدرجة أنى اعتقدتُ أن وزارة المستعمرات كانت كلها تعانى من تشنج لا إرادى فى العنق. ألسنة كثيرة استهجنت كيف لطيار صغير عادى أن تكون له طموحات أعلى من منزلته. "القانون!" تجد أعينهم تضحك وهى تنظر إلى الجامايكى الحالم نظرات احتقار. قهقهات ابن خالتى إلوود الخبيثة قد تجعل منه شيطانًا إذا أخبرته عن الذى عرضوه علىَّ بدلا من ذلك. خبّاز. مهنة محترمة، هناك العديد من الوظائف. ياه، خبَّاز! كيف أخبر إلوود هذه الحكاية بدون أن يبدو هذا الجندى فى القوات الجوية الملكية مغفلاً؟

"لقد عدت فى الوقت المناسب، يا رجل،" قال إلوود لى، "كف عن التملق لهؤلاء الحمقى الأغبياء الإنجليز. دعنا نضربهم ضربًا مبرحًا. لن يمنعنى اى شىء الآن."

وأنا طفلٌ صغير، اعتقدتُ أن إلوود أخى. نلعب الكريكيت فى الطين، نتسلق الأشجار، نصطاد فى النهر. لا أتذكر ذكريات الطفولة بدونه. كنا فى سن العاشرة عندما وصلت والدته، العمة كورين ـ يفوح منها عطر جميل ومعها سندات لرقعة أرض صغيرة بالقرب من كينجستون ـ لتخبر الجميع بأن لديها الآن المال الكافى لاسترجاع ابنها. كانت لحظة طويلة عندما ساورنى فيها أنا وإلوود وليستر القلق، أى واحد منا أتتْ لأخذه..أجهش إلوود فى النواح الشديد عندما وجد أن أمه ليست أمه لكن خالته، وإخوته هم أبناء خالته، وبدلاً من سبع شقيقات أصبح وحيدًا. كان والدى هو الوحيد الذى كان لديه كلمة لإراحة الولد النواح هذا ـ لقد أخبره بأن عليه أن يطمئن الآن لأنه بكل تأكيد ليس يهوديًا.

"**يعتقدون أنهم يجعلوننا سعداء بهذا الدستور الساذج.** قال لى إلوود. "**نحن رجالٌ بالغون. لا مزيد من الفتات من على طاولتهم. سنجلس هنا وسنطعم انفسنا.**"

عندما كنت أنا منهمك فى الحرب، خسر إلوود أغلب أشجار جوز الهند، والموز، والجوافة، وثمرة الأكى، والفلفل الإفرنجى الحلو فى الإعصار. لقد نزعت تلك الرياح العاصفة مصدر رزقه ومحاصيله وطارت بها إلى أرضٍ من يعلم أين تقع؟ هل هى كوبا؟ جذع شجرة الموز مازال فى الأرض مصابًا بداء بنما. وأما شجر جوز الهند الذى تمددت أوراقه فى الشمس فقد أصيب بداء أصفر اللون فتاك. وعلى مدار الأيام قامت والدته بسقى تلك النباتات الضعيفة جرعة دواء بتعويذة أوبة، بينما جلس إلوود المساء يحرسها من هجمات الوطاويط والفئران. ومع هذا مازالت ميتة.

"مانلى فاز بالتصويت. قال إلوود. **"لكنه يعلم أنك تستطيع أن ترسم صليبًا صغيرًا لتشطب على الورق. وحتى نوفر الطعام على المائدة يجب أن نحكم أنفسنا. أتسمعنى يا جلبرت؟ هاه - لا مزيد من الرجل الأبيض، لا مزيد من سيد العبيد. أقول تخلص من بوستا أيضًا، فهو أيضًا يخنع ويتذلل للبريطانيين. يجب توفر الوظائف للجامايكيين. على الرجال العمل."**

اضطر إلوود للبحث عن وظيفة، أى وظيفة، حتى لا يكون هو وأمه بين رحى الشيطان. اشتغل فى شراء الماشية، وفى حفر المجارى، وإصلاح المنازل المهدمة، ونقل الحمولات على السفن. واسمع هذه ـ اشتغل حتى فى تقديم الشاى والشطائر اللذيذة فى نادى الكريكت. اضطر ابن خالتى وهو فى زيّه الأبيض أن يطأ برأسه خاضعًا بأدب عندما تُرفع الأيادى وتطرقع بالأصابع لطلب الخدمة. ومع ذلك لم يتزعزع إيمان إلوود العنيد بجامايْكا. لا شىء يستطيع أن يؤثر فى إصراره بالرضا عن جزيرته الغالية.

"يا رجل، لقد أتيت فى الوقت المناسب،" قال لى. **"هل أنت جاهزٌ للعمل؟ دعنى أخبرك، يا جلبرت، انسَ أمر القانون. تعالَ، عندى فكرة لمشروع لكَ، سنجنى منها المال الوفير."**

وضع فى يدى كتابًا رثًا وباليًا، كتاب صناعة العسل للمتعة والمنفعة، للاوسون، كُتب عنوان الكتاب باللون الذهبى الباهت والذى بالكاد يُقرأ. انطفأ ابتهاج إلوود قليلاً عندما قلت له: **"يا رجل، يالها من فكرة رائعة! جامايكا فى حاجة إلى ذلك - طباعة ونشر كتبنا الخاصة."**

"كلا، يا رجل، تربية النحل."

"النحل؟"

أخبرنى قائلاً: **"سنكسب المال الكثير من العسل."**

آوو، كيف خرجت الكلمات من فم إلوود المتحمس. تتقلب وتلف كلماته من جانب إلى آخر، يتلاعب ويتملق بها لكى يغرينى بأنها الفرصة الوحيدة التى لا يمكن تفويتها. ثم شرح لى، وهو يرينى خلية نحل، الوحيدة لديه خلف منزله، والتى ترتعش جدرانها الخشبية لوجود جماعة من النحل المرتجف، قائلاً: **"هذه هى بذرة البداية لتوسيع المشروع."** وأضاف: **"أعرف أين أضع يدى حيث يوجد المال الوفير."** طلب منى بإلحاح شديد غرس إصبعى فى جرة عسل ذهبى صغيرة: **"تذوقه، وأخبرنى أليست هذه أحلى نكهة للرحيق لمست شفتيك."**

ثم قال لى، واضعًا يده على ذراعى، وفمه بالقرب من أذنى: **"لدى صديق ليس بعيداً من هنا، سيبيع لى كل شىء. سينتقل للعيش فى اسكتلندا أو مكان آخر غبى. لديه عشرون خلية نحل - وصناديق تربية النحل، والكثير من الإطارات المستطيلة لتثبيت الأساس الشمعى عليها، وعبوات التغذية، منفاخ التدخين، وأغطية. كل خلية يتدفق منها النحل. وكذلك الملكة الصغيرة وكل شىء. العديد من الجرار وكأنه مصنع. لقد جنى الكثير من المال مما ساعده على الرحيل من هنا. جلبرت، أستطيع أن أرى الرب يبتسم لنا راضيًا مشيراً بإصبعه إلى تلك الخلايا."** ثم شدَّ قبضته علىَّ بذراع وأشار بالذراع الثانية عاليًا فى الهواء. **"تعال، إن النقود تطير حولنا، وكل ما علينا فعله هو الإمساك بها."**

أما أنا فلم أر شيئًا، فلقد طلب منى النقود التى حصلت عليها عند التسريح من الخدمة العسكرية ليُتمم عملية الشراء. **"يا رجل، من**

أجل كل الأشياء القليلة التى نحتاجها." قام إلوود برعاية النحل، واهتمت الخالة كورينى بالتنظيف وملء الجرار، وأما أنا؟ "أنت عليك القيام بالعمل، يا رجل. فى الأول سيتطلب منك الوقت الكثير، ثم بعد ذلك سنقسم كل شىء بيننا. وسأعلمك كل شىء أعرفه. وسيكبر عملنا قريبًا. هذه فقط البداية، كما ترى ـ قريبًا سنبيع لكل المحلات فى الجزيرة."

وبشكلٍ مخيف أومأ برأسه وهو يقول مضيفًا: "جامايكا المستقلة تحتاج إلى رجال مثلنا."

هيا، أخبرنى، كم من الوقت استغرقه إلوود لاستمالتى؟ "مقدرٌ لك أن تكون رجل أعمال، يا جلبرت. وليس محاميًا، كلا سيدى، ولا حتى قاضيًا ـ ولكن، لاحظ بنفسك، ولا فلاحًا. بل رجل أعمال ـ تلبس بدلة جميلة وكل شىء." قد يظن المرء أنى سلمتُ إلوود مفتاح الحياة عندما سلمت له المال. فهل كانت هذه دموعًا فعلاً فى عينيه أم كانت فقط بسبب شعوره بالألم من دخان الخشب الذى ملأ الجو فى المساء؟ "أنا لا أعبث معك يا جلبرت، فأنت أخى. سأراك رجلاً جامايكيًا وقد اقبلت عليه الدنيا. هيا، ياه ـ قريبًا سنطقطق بأصابعنا وسيأتى الرجل الأبيض راكضًا إلينا."

لقد خطر ببالى وأنا جالس على عربة يجرها بغل أنه ربما قد أكون استيقظت بالصدفة لأجد نفسى فى عصور الظلام. كان ذلك اقتراح إلوود: "نستطيع أخذ البغل لنقل خلايا النحل. هذا يوفر لنا النقود، يا رجل. ويحقق المزيد من الربح لى ولك، إيه؟" وفى الطريق لوحت لنا نساء عجائز متكئات على العصى عندما سبقننا سيرًا، بينما ذلك البغل اللعين، محاطًا بهالة من الذباب، وجد أمامه

شيئًا لذيذًا ليأكله على الأرض، أو قد أُلهى بمنظرٍ ما، أو قد توقف فقط ليتفكر ربما فى معنى الحياة.

قبل عام من رجوعى استبدل إلوود هذا الحيوان ذى الذيل الموحلْ بشاحنته القديمة. كان مسرورًا بتلك الصفقة - بغلٌ واحد مقابل شاحنة متهالكة والتى كان يجب أن تُفكك إلى مئات القطع الصدئة لتُنقل من المزرعة.

ومع ذلك، تبين أن هذا البغل الواحد هو فى الحقيقة عبارة عن مخلوقين. فى نهاية المقدمة، مع عينين ترمشان ببطء وفتحتى أنف سوداوين، تستطيع أن تدلل رأسًا خاضعًا سهل الانقياد وتطعمه بيدك. لكن إذا ما وجدت نفسك فى المؤخرة فستجد هناك حيوانًا مفترسًا عنيدًا ينفر ويضرب برجليه. كانت خالتى كورينى مقتنعة تمامًا بأن روحًا شيطانية قد سكنت رجليه الخلفيتين. لكن ربما بسبب ازدواجية شخصية هذا البغل، الذى اعتبرته ذكرًا، قد سُمى إنيد. ولهذا، وأنا أُدلل مقدمة إنيد، يقوم إلوود بإلحاق العربة قبل أن تلاحظ المؤخرة. ومضينا فى طريقنا لمدة ساعتين ومازلنا نرى سطح المزرعة التى تركناها، وذلك قبل أن يصيح إلوود قائلاً: "هيا - **لدى فكرة. نذهب لنرى جلينفل لنستعير منه شاحنته."**

وأنا فى قوات الجوية الملكية فى إنجلترا قمتُ بجرف الفحم باليد التى حككتها من تقرحات البرد حتى صارت مثل اللحم النيئ؛ وقمت برفع أجزاء ميكانيكية أكبر فى الحجم من رجل، ومع هذا كان لدىّ النفَس بأن أدندن بأغنية وأنا أعمل. لكن هنا كنت أنفخ وأعتل مثل رجل عجوز، وأتذمر وأشاكس وأعاند مثل ابن الأكابر، لأننى، يا رجل، لم أمر بعمل شاق كهذا. لقد خدعنى إلوود -

اعتقدتُ أن ابن خالتى الطويل والنحيل قد يقصم إلى نصفين إذا كانت الحمولة ثقيلة جداً لرفعها. لكن أى جهد شاق يقوم به يجعل جسمه النحيل متضخمًا، ومستديرًا، ومنفوخًا مفتول العضلات ذا عزم وثبات كالفحل. لم يكن لى أى فرصة لمجاراته حيث كل عظمة فى جسمى تصرخ قائلة: **"يا جلبرت، هيا، ياه، يا رجل، دعنا نضطجع الآن - نحن نتألم."**

ربطنا كل خلايا النحل بالحبل لنستطيع تحريكها. وبحذر شديد وكأننا نرفع قنبلة وضعنا تلك الصناديق الخشبية الضعيفة الثقيلة فى الشاحنة المستعارة. وهمس إلوود للنحل الفضولى بالداخل قائلاً: **"صه، صه، سنصل حالاً - لن يطول الأمر."** وصرخ بى بوقاحة عند تنزيلها قائلاً: **"كن حذرًا، يا رجل، انتبه، على مهلك، يا ولد، على مهلك."** وفى أى وقت، يحذرنى، بأن النحل قد يحتشد مندفعًا بشدة ليلدغ. وقمنا بترتيب تلك الصناديق الزنانة ـ وكان إلوود منتبهًا بأن يجعل كل صندوق ثابتًا على الأرض الحجرية، منحنيًا لأسفل كالفنان ليقيس كل زاوية بإبهامه. **"احضر لى الخشب، يا جلبرت... هلا أحضرت لى الحجر... ارفع.. أمسك... أمسك... كلا... إلى الخلف... قف."**

اثنتان وعشرون خلية نحل وضعت بنفس الاهتمام. أخذ منا العمل ساعات وبكل فخر يعلن إلوود، وهو ناظر إلى صفوف الخلايا الرمادية الباهتة البالية من أثر الجو، بأنها مملكة النحل، (حسنًا، أنا رأيتها مثل مدن الأكواخ). رفع إلوود، وهو مستتر بالحجاب كالعروسة، أحد الإطارات المستطيلة من إحدى الخلايا الذى يوجد عليه طبقات من النحل الأسود المرتبك المتضايق. بينما وقفت أنا، أعزل ومتعصبًا، وثابتًا فى مكانى كأنى ميت، شديد الحاجة

لتصديق جزمه لى بأن الجسم الثابت لن يُلدغ. وعند نفخ الدخان لتهدئة النحلات المفجوعة، قام بالتأكد من أنه لا يوجد تزاحم بينها، ولا يوجد أى منها ساخنًا، وأن كل ملكة مازالت مسيطرة على كل صندوق.

وفى ضوء المساء، جلست لأكل المانجو وحدى مثل اللاجئ تحت شجرة الكوَّانجو. متهالك القوى ـ فمازالت معظم عضلاتى متشنجة من المجهود غير المألوف، ومع ذلك لم أنم من شدَّة الإرهاق. ينساق الدخان الأبيض المنير المتصاعد من النار كما لو كان أشباحًا عبر النباتات الكثيفة الخضراء. ويقضم إنيد بصوتٍ عالٍ حشيشة السرطان المفضلة لديه.

أستطيع سماع أوبرى فى المزرعة المجاورة يصفر مناديًا على البقر ليأخذه للمروج ليلاً. وغربانٌ سود تطير مسرعة فى عرض السماء للرجوع إلى أعشاشها. وسحلية تعدو إلى أعلى على لحاء الشجرة تلعق اليرقات بلسانها بسرعة كسرعة البرق. وحشرة السيكادا تهسهس بإيقاع منتظم مثل إيقاع الصاجات النحاسية. ويطن أزيز اليراعات المضيئة فى رأسى وكأن الأفكار تهرب، بينما يرجع النحل إلى الخلايا الذى يبدو مثل النقط تطير، غير مدرك بأنه الآن يعمل من أجلى. إن هذه الجزيرة جميلة. جميلة وواعدة مثل هذا العسل الذى قريبًا سيتدفق من أقراص الشمع. نشبتُ أصابعى فى الأرض الناعمة المستكينة تحتى. فإذا ثبتها جيدًا بما يكفى فيها، فبكل تأكيد ستثبتنى، ويرعانى هذا البلد العامر.

أخبرنى، كيف أستطيع النوم يا إنيد؟ كانت معدتى تقرصنى متذمرة منذ فترة ـ معذبة برائحة دجاج الخالة كورينى اللذيذ الذى كانت تحمره، ورائحة خبز الذرة الذى تخبزه. نظر إلوود من فوق الجريدة عندما نهق البغل، عندما شم رائحة الطعام، وكأنه بكاء

رضيع لإطعامه. وبلا جدوى، قال بهدوء: **"حالاً، يا إنيد، سيأتى، ياه، يا رجل."**

كان السياج الذى حُبس بداخله البغل ضعيفًا. كم من مرة ننظر أنا وإلوود إلى بعضنا البعض قائلين: **"ينبغى علينا إصلاح هذا السياج؟"** غدًا، بعد غد، ربما اليوم بعد الغد؟ دعنى أقول، كانت مؤخرة إنيد الحانقة هى التى قررت بأنه كفى إهمالاً. كم من الوقت احتاجه إنيد لكسر السياج؟ لم نسمعه لأن الخالة كورينى قد وضعت أمامنا طبقًا من الدجاج المقلى الحار الطازج. ضربت بكفها على أيدينا لنرفعها من على اللحم، ثم أمرتنا بحدة أن ننتظر حتى تعود من المطبخ. كان إلوود وأنا مشغولين: نقطم لحم جناح الدجاج الساخن جدًا فى أيدينا قطمات صغيرة وسريعة بأسناننا، مروّحين بأيدينا ناحية فمنا لنبرد الطعام، مترقبين عودة خالتى وكل واحد يسكت الآخر. وعندما صرخت الخالة كورينى ذعرًا لكى نأتى وأصبح لونها قرمزيًا، وقتها فقط سمعنا إنيد. لقد دخل البغل الحقل عند النحل.

وأخذ البغل يرفص ويركل بأرجله بجنون فى الهواء كما لو كان يحاول طرح راكب وهمى من على ظهره. الخلية الأولى تفتتت مثل البسكوت تحت حوافره. وارتفع من ذلك الحطام كرة مضطربة من النحل الأسود.

"النوافذ - هيا اغلقوا جميع النوافذ!" قال إلوود الذى تملكه الفزع وبدأ فى إعطاء الأوامر. **"جلبرت - تحرك، ياه يا رجل، اغلق الأبواب، والنوافذ!"** دُمرت خليَة أخرى، وثانية، وثالثة بضربات حوافر البغل، تاركًا النحل بدون مأوى يبتغى النيل من الجانى. لفّ

البغل عينيه فى مقلتيهما من شدة تألمه وأصبح متوحشًا من لدغ النحل الهائج المتعطش للدفاع عن نفسه. أصابه الجنون، وأخذ يثور فى الحقل داكًا غير مدرك كل خلية مثل القنانى الخشبية.

وتعقب النحل الغاضب، الذى تكدس مثل دخان أسود، ذلك البغل الهائج وطارده حتى أحاط به من كل النواحى. ووقفت أنا فى مكانى لا أتحرك لأنه إذا ثبت المرء فى مكانه فلن يُلدغ. "**يا جلبرت، اتريد أن ترانا نؤكل أحياء، يا رجل؟**" هز إلوود كتفى وهو يجاهد لوضع الحجاب وشمّر ملابسه وهو يرتدى قفازات فى يديه. العربة الجرار ـ عند ذلك المكان سمعت هذا الصوت: يطن النحل طنينًا شديدًا تمامًا مثل تلك القنابل الطائرة. قلَّ هذا الطنين الرهيب قليلاً عند إحكام غلق النوافذ. لكن تجمع النحل، غير متأكد من الذى ينبغى عليه أن يلومه لإخراجه بهذه الفظاعة إلى النور، كبقعة سوداء تضرب بقوة على زجاج النافذة.

ركعت الخالة كورينى على ركبتيها تصلى بصوت عال: "**يا إلهى حررنا من بلاء النحل هذا.. يا إلهى أنقذ ابنى من هذا..**"، وبنفس طريقة التضرع وطلب الرحمة التى تمزق قلوب الأبطال من الرجال من شدة الألم والأسى، ناح البغل طويلاً لدرجة أنه سيعرف كل من كان على بعد أميال حولنا بأنه يذبح ببطء. وطوال الوقت كانت حوافره لاتزال عن غير قصد تثير غضب النحل. كان إلوود بالخارج. أشعل نارًا بسرعة جنونية كما فى الأفلام متجنبًا البغل. كل خلايا النحل الآن قد دُمرت، وكل ما يطير بداخلها ـ الذى يشبه السخام ـ طار عاليًا ليلصق بكل تأكيد بالبغل. أفاقت الخالة كورينى الآن من النواح واستعدت للقتال. أخذت تنهال ضربًا بعصا المكنسة

على النحلات التى وجدت نفسها تزن تائهة داخل المنزل. خبطت اللوحات التى على الحائط، وما زينت به الأرفف من حجارة ومعادن، وأخذت تطارده فى كل مكان كما لو كان لصوصًا، فى حين ارتدت صرخات البغل الطويلة والحادة بالحوائط عاكسة فجيعته. وكنت بغباء على وشك ضرب نفسى بورق جرائد ملفوف عندما رأيت إلوود ـ حيث تتبعث طبقات من الدخان الأبيض التى يأمل أن تُهدئ النحل ـ وقد بدا عليه العته، وهو يروّح على النار بيده. إنيد لم يعد بغلاً: فلقد غطاه النحل من كل جانب فصار وكأنه كُسى بالفرو مثل دب بشع. كان يصرخ صرخات عالية، ويلف الحقل مرات ومرات، رافسًا وهازًا رأسه لينفض النحل اللاسع من على أذنه، وعينيه، وفمه.

هل كانت ساعة أم هل أمضيت اليوم كله أحدق فيه وهو معذب، متعثر؟ تنقر مئات المئات من النحل لحمه لينفذ فيه سُمه. كم من الوقت مضى وأنا أسمع ذلك النهيق المكتوم الذى يقطع القلب ألمًا قبل أن يسقط البغل أخيرًا، برشاقة، على ركبة واحدة؟ ثم سقط على الركبة الأخرى التى وقف عليهما لبرهة كما لو كان يصلى قبل أن ينهار، خرَّ جسمه كله ببطء كئيب على الأرض. تشنج جسده تشنجات متقطعة عنيفة، وهو يئن، ورفست حوافره وكأنه مازال يمشى على أرضٍ حجرية. زحف وهو محاط بالنحل الوحشى، ولولا صدره الذى يعلو وينخفض لاعتقدته فروة بالية منتشر بها القمل مطروحة جانبًا.

لم أجرؤ على الخروج، وقفت عديم النفع، عاجزًا، واهنًا، وهشًا أراقب إلوود وهو يدور باحتراس حول جثة البغل الميت. رحل كل النحل الذى لدينا. قد مات أغلبه وتناثر على الأرض، فجسمه

الضعيف قد تفسخ من لدغه القاتل. والبعض الآخر قد هرب. ففى سربٍ أسود غاضب انطلق بعيدًا فى الهواء.

لم أتمالك نفسى من الضحك. وماذا عساى أن أفعل غير ذلك؟ ضحكتُ عندما وصف إلوود هذا الحادث بأنه عثرة صغيرة. خسرنا النحل، وخسرنا الخلايا، وخسرنا البغل. وأنا خسرت كل نقودى. كل الذى تبقى هو الجرار المليئة بأشعة الشمس. هل كان إلوود أحمق أم كان مجنونًا محضًا؟ ففى هذه اللحظات لم أستطع قول ذلك. قال لى: **"هيا، يا رجل، يجب أن تتحلى ببعض من الإيمان،"** متجاهلاً ما حدث بنتره بيده.

"لقد خسرنا كل شىء،" قلتُ له، **"بماذا تريدنى أن أتحلى بالإيمان؟"**

"ياه، لم نخسر كل شىء. فمازالت لدينا خليتان مليئتان بالعسل."

لم يكن لدى أى كلمات ستخرج منى إلا اللعنات.

"ياه، إيه، يا رجل لا تعطنى النصائح. لا تنظر إلى بهذه النظرة الكئيبة. الضباب الكثير فى إنجلترا جعل دمك باردًا. استمع لى جيدًا الآن، لدى خطة صغيرة. نحضر بعض الشباب ـ أويرى، وجلينفل وآخرين ـ ونذهب للبحث عن النحل. لن يطيرا بعيدًا. سيطير جميعه إلى أى فتحة فى شجرة أو يجثم على دغل من الأدغال. نستطيع العثور عليه، ومن ثمٍّ إحضاره. انتبه لما أقول، أنا أعلم بأننا لن نجده كله، لكن يكفى أن نبدأ من جديد، هذا ما أحاول أن أقوله لك."

"هل تريدنا أن نخرج للبحث عن النحل؟" سألته.

"أنت، وأنا وبعض الشباب."

"إلوود، هل تعتقد بأنى سأخرج ألفُ هذه الجزيرة بحثًا عن النحل المفقود الذى هرب؟"

"أجل، يا رجل. ثم نصلح بعض الخلايا من جديد. بعض المسامير هنا أو هناك ـ وستكون جيدة تمامًا كالجديدة."

"بعض المسامير هنا أو هناك! إلوود، هل جننت؟ هل ضاع عقلك؟" أفظعنى وأدهشنى حدَّة صراخى هذا. ونظر هو إلىَّ نظرات كلها تساؤلات، مثل الطفل الصغير، هل كان هذا غضبًا حقيقيًا أم هى حماقة لا غير. "إلوود، لن أخرج ألفُ هذه الجزيرة أطارد النحل."

"ألديك إذن فكرة أفضل من ذلك، أيها الفتى الجندى ـ يا رجل الحرب؟"

وقتها فقط قلت: "إننا لا نستطيع أن نحصل على أى فرصة موفقة فى هذا المكان."

"ياه، إيه، يا رجل، أنت لا تستمع لى، صح؟ نستطيع أن نجمع النحل. ما هذا إلا ضيق بسيط. غداً سيكون اليوم الذى سنبدأ فيه من جديد."

"إلوود، هيا أخبرنى، هل تعلم بأن هذه جزيرة صغيرة؟"

"ما الذى تثرثر فيه، يا رجل؟"

"اسمع، يا رجل، أنا ذهبت إلى إنجلترا، وذهبت إلى أمريكا."

"وماذا فى ذلك؟"

"هناك فرص قد أينعت هناك."

"الفرصة هنا إذا أمعنت النظر جيداً."

"إذن لماذا هناك الكثير من الشباب رجالاً ونساء يقفون فى صفوف الانتظار لاستخراج جوازات السفر؟ ولماذا هناك الإضرابات على قلة الوظائف والشجار منتشر فى المكان؟ يا إلوود، أنا قد رأيت بأم عينى. العالم بالخارج أكبر من أى حلم تحلم به. هذه جزيرة صغيرة. يا رجل، نحن فقط نتشبث بها حتى لا نسقط."

"أنت تثرثر بأى كلام، يا رجل."

"الجميع يرحل. إنه الوقت المناسب للرحيل."

قال إلوود، وعيناه وسعتا من أثر التأثير: "لكن تعال، الآن أرى - أنت ستذهب لتتملق البريطانيين."

"أنا بحاجة إلى الفرصة، يا إلوود. أنا بحاجة أن أتقدم للأمام."

"هل تريد الرجوع مرة أخرى إلى إنجلترا؟"

"لا أستطيع الحصول على أى فرصة هنا، يا رجل."

"لماذا لا ترافقنى إلى أحد الاجتماعات؟ سأريك المستقبل ينشأ ويربى هناك. جاميكا الحرة المستقلة سترعانا جميعاً."

ذهبت إلى هذه الاجتماعات عدة مرات من قبل. رجالٌ حانقون، ليس لديهم المال الكافى لشراء ملابس لائقة لتكسوا أجسادهم أو يحافظوا على أسنانهم من أن تتعفن فى رؤوسهم، ويتصارعون فيما بينهم من أجل هذه الجزيرة الحثُل. فهم يتشاجرون فيما بينهم على من سيتولى رئاسة الربع الخامس. يا رجل، يتصارعون على من سيكون رئيسهم القادم.

بدأ إلوود قائلاً: "عندما نتخلص من الرجل الأبيض".

"توقف! إلوود، الا ترى؟ عندما تتخلصون من الرجل الأبيض، الرجل الأسود هو الذى ستجلبونه بدلاً من ذلك."

"انا لن أجلب اى أحد. الرجل الأسود هو من سيحكم.

"يا لك من حالم، يا إلوود."

"وانت جامايكى. ولِدتَ جامايكياً. وستموت جامايكيًا. الا تعنى جامايكا لك أى شىء، ياه، يا رجل؟ لماذا تريد الرحيل؟"

"ولِمَ لا؟"

"اوو، وتقول انا من هو الحالم. كيف ستذهب إلى إنجلترا؟ تحتاج إلى المال. ستسبح إلى هناك او ربما ستتسلل فى حقيبة إحدى النساء الأغنياء وتحملك إلى هناك؟"

"لا ادرى كيف سأذهب ـ لكنْ علىَّ المحاولة."

"لماذا؟ لماذا تريد العالم كله وأمامك بصيص من الأمل هنا؟ ابق. ابق وقاوم، يا رجل. قاتل من أجل ما تتطلع إليه. يا رجل، قاتل من أجل وطنك هذه المرة."

"لقد سئمت القتال، يا إلوود."

نظر إلىَّ كما لو كنت رجلاً غريبًا قد دخل عليه فى الباحة، ولم يقل أى شىء واكتفى بهز رأسه ببطء ومص أسنانه. ثم أدار بعينيه بعيدًا عن عينى وقال بهدوء: "آه، يا جلبرت، أعلم أنك تفعل ذلك. أعلم أنك قد تريد الذهاب والعيش ببابل. أعلم أنك لا تريد أن تبقى هنا. هل تريد أن تسألنى كيف عرفت؟ هيا، دعنى أخبرك هاه، يا جلبرت. قد تبدو واحداً منا لكن لن تتغير الحقيقة بأن والدك رجلٌ أبيض."

كنت كالعملاق الذى يعيش على جزيرة ليست أكبر من نعل حذائه. عند كل انعطافة أرى البحر. كانت كل نخلة يراها السائحون تطلُّ بجمال على الشواطئ ما هى إلا قضبان سجنى. الأفق هو سياج ألمى. أحسد البجع، وأحسد الغربان ـ التى بأجنحتها تستطيع أن تطير بسهولة من هذا المكان إلى مكان آخر لتهبط عليه. أصبحت أتفاخر بالكلام ــ حتى صوت تخبط العملات المعدنية فى جيوبى البالية كان يتهمنى بأنى غبى. آوه، فهناك الكثير مثلى من الرجال، يهيمون فى هذه الجزيرة الصغيرة، رؤوسهم مشوشة بالمناظر التى رأوها من قبل. فإذا استمعت فستجدنا نتحدث ـ ستتسع الأعين عند سماع القصص عن الحرب والوطن الأم. سنخبرك عن القنابل، والطائرات، والرصاص، والبنادق، وعن الضباب والثلج ورياح الخريف. هيا، اسأل السؤال الذى دومًا أردت أن تعرفه. الملك ــ آوه، رجلٌ كريم، وكذلك شكسبير. رُصفت الشوارع بالذهب؟ كلا ـ بل، أجل رصفت بالماس الذى يظهره المطر.

وكلما تعكس لى المرآة نظرة اشمئزاز لى، كانت فتاة رقيقة مثل سيليا لانجلى تملؤنى، بشهقاتها المتحمسة عند سماعها لحكايات سفرى، بالفخر وكأنى أمير. لم يكن عندى أى نية للتودد لها، كل احتياجى كان لحبها. كانت نيتى أن أذهلها من فرط إعجابها بى، وأن أُبهرها. حسنًا، سأخبرها بكل القصص الحقيقية، تلك الأكاذيب، تلك الأحلام التى لم تتضج بالقدر الكافى.

لكن مع هورتنس هبطت قدمى على أرض صلبة فأحدث كاحلى صوت رطمة عالية. كيف لامرأة مثلها أقصر منى تستطيع أن تنظر إلىَّ من أعلى فتجعلنى أشعر بالضآلة كالقزم؟ آووه، كانت جميلة ــ بشرة ذهبية وخدود متوردة. وعيناها تبرقان من الحيوية ـ بنيتان

واسعتان بأهداب ترفرف مثل أجنحة الفراشات. وشفتان قد تبدوان رقيقتين وساحرتين، ما لم تتشنجا من الغضب أو ترتفعا بعجرفة إلى أحد الجوانب لتُظهر ازدراءها. يا رجل، فعندما تشك فى حقيقة ما أقول كان حاجباها يرتفعان على جبينها كما لو كان قد نفختهما الرياح إلى أعلى. كيف تعلمت هذه المرأة أن تُظهر كل هذا الازدراء بشفتيها؟ هل كان عن طريق شم رائحة سيئة أم هل كانت دائمًا تحاول شمَّ شفتها العليا؟ حتى أذناها كانتا تلعنانى. حسنٌ، دعنى أواجه ذلك، كان كل كلامى المبالغ فيه يتقلص أمام احتقارها وازدرائها.

فهى لم تُعجب بى. يثير وجهى غضبها، وتريكها نكاتى، وكما أن حكاياتى عن الحرب تصيبها بالملل، وكلامى عن إنجلترا يسبب لها النعاس. لهذا اعتقدت أنها تعبث بى عندما عرضت علىَّ أخذ الثمانية والعشرين جنيهًا والعشرة شلنات التى احتجتها للسفر إلى إنجلترا. "**أستطيع ان أقرضك المال.**" هذا كل ما قالته لى. ولم تضف أى تفسير لذلك. يا رجل، لا أستطيع حتى تذكرها وهى تبتسم. ضحكتُ - قهقهة تصدر من المرء عندما يقول شخص ما طرفة لا تعجبك. لكنها استمرت فى التحديق بى بجدية مما جعلنى أتساءل كيف سأرد لها مالها. وتحمستُ الآن، قررتُ إرسال المال لها كل أسبوع.

سأرسل القليل منه حتى أقف على قدمى، ثم سأزيد من الأقساط. أحيانًا سأرسل لها القليل من المال، وأحيانًا الكثير، لكن سأرسل بانتظام حتى أرُدَّ كامل النقود لهذه المرأة. وسأسجل فى كتابٍ صغير كل المبالغ التى دفعتها حتى لا يحدث جدل. ولن أشعر بكرامتى إلا بعد سداد هذا الدين. استمع إلى هذا، إنى حتى فكرت

أن أختم هذا الإقرار بدم إصبعى بعد قطعه، لكنها لم تقطع علاقتها بى حتى الآن. وبدون أى محايلات، وبدون أى كلمات إعجاب، وبدون أى إقرار بالحب، أعلمتنى بأنه ينبغى لى أن أتزوجها مقابل مالها. كانت هذه المرأة تبحث عن مهرب وكنت أنا الظهر الذى ستركبه للخروج.

عندما تركتها فى هذا اليوم ذهبت ألوذ تحت شجرة كوَّانجو. وهناك مازالت السحالى تفر هاربةً إلى أعلى الشجرة، ومازالت حشرة كسيداس تهسهس مثل الصنوج النحاسية. لكن الأرض الآن قاحلة وجافة ـ قاسية لأغرز أصابعى عميقًا فى الأرض. وهناك عندئذ بكيت. لا أشعر بالفخر وأنا أقول إننى أجهشت بالبكاء كطفلٍ تائه. لقد هزمت. ليس أمامى أى خيار آخر إلا هذا الخيار. إذا كانت لدى هورتنس المال لتشترينى، إذن، فتعالَى، دعينا نواجه هذه، إن ثمنى رخيص للغاية.

الفصل التاسع عشر

جلبرت

كما ترى، كان أغلب الشباب ينظر إلى الأعلى. قد تطأ أقدامهم أرض لندن لأول مرة ، وأرجلهم المرتجفة من رحلة البحر ترجرجهم على الأرض الثابتة، إلا أنها روعة المنظر التى أزاغت أعينهم عاليًا. لقد وصلوا أخيرًا إلى مدينة لندن. ودعنى أخبرك، أصاب الوطن الأم ـ عكس ما كان فى مخيلتهم عن هذا المكان ـ كل هؤلاء الشباب الجامايكى بالحيرة والارتباك. فتراهم يشيرون إلى القطار، وهو يعبر الجسر ولصوته دوى قوى. كما هالهم منظر نفخه للدخان الأسوِد وهو يسير فى طريقه مهببًا الغسيل الأبيض المُعلق ليجف على الحبال ـ الملاءات، والبناطيل، وأغطية الرأس للأطفال.

حسنًا، هم لم يروا بنايات بهذا الطول، كلها فى نفس الطول. وما هذا؟ مدفأة؟ لديهم نار داخل بيوتهم فى إنجلترا؟ كلا! ولماذا يبدو كل شىء باليًا ورثًا؟ حتى أشعة الشمس ليس لها لون غير الرمادى. كانوا يحدقون فى أناس تحدق فيهم. يا رجل، بدت النساء كئيبات

وكالحات الوجه. وتلُفُّ وسائلُ المواصلات برأسهم يمينًا وشمالاً. اثبت مكانك، يا ولد ـ انتبه. انظر، أترى الرجل الأبيض وهو يقود شاحنة؟ وانظر هناك، هل تصدق ما تراه عيناك؟ رجلٌ أبيض يكنس الشارع!

إلا أن هذا المتطوع القديم فى القوات الجوية الملكية قد رأى كل هذا من قبل، أيام الحرب. ولهذا على عكس الوافدين الجدد، نظرتُ بازدراء إلى كل هذا. لقد عدتُ إلى إنجلترا وعلى الرصيف وقفتُ أتفحص وأراقب بدقة «بروش» على الأرض. يالها من قطعة ثمينة، ياله من حظ. إنها جوهرة بيضاوية مفقودة ملقاة على الأرض تتلألأ فى أشعة الشمس وتشع بألوانٍ قزحية خضراء كلون الطائر الطنّان. قد ترفع الخالة كورينى يديها لله وتعتبرها علامة رضا.

وأنا أخطو ثلاث خطوات الآن لأصل إلى دبوس الزينة خطرت على بالى بعض الأفكار. الفكرة الأولى: ربما سقط دبوس الزينة هذا من على معطف شابة صغيرة. ياه، نعمتى كانت نقمة لغيرى. الفكرة الثانية: أن العجوز التى أسقطته من حقيبتها غير مدركة لذلك؛ ربما مخفر الشرطة هو المكان المناسب ليأخذ دبوس الزينة هذا. والفكرة الثالثة: هورتنس ـ سيبدو دبوس الزينة الأخضر الغامق هذا رائعًا عليها. رسمت لها صورة فى مخيلتى. ستراني أشبك هذا الدبوس البرَّاق على فستانها، بالقرب من رقبتها، مقابل بشرتها التى بلون قشر البندق. انظر، ستراها تلمس البروش ثم تميل برأسها لتبتسم لى ابتسامة ساحرة.

كل هذه الأفكار الكثيرة دارت بذهنى بينما أنا أقترب من المكان. كنت على وشك أن أثنى ركبتى لكى أصل إلى دبوس الزينة عندما..

اسمع هذا... طار عاليًا. نقط سوداء نفرت فجأة فى الجو. وما كانت تلك الجوهرة إلا حشدًا من الذباب انعكس عليه الضوء، كان الضوء المشع الأخضر هو حركة شجار ظهورهم. لم تصدق عينى ما رأته بعد ذلك. لأنه بعد أن طارت مجموعة الذباب تركتنى مع قطعة صغيرة من روث كلب بنى، تلك التى تجمع كل الذباب عليها. أكانت هذه علامة؟ ربما. لأنه واحد من الشباب الوافدين الجدد مرّ وداس على تلك القذارة.

أن تُهرس وتنام فى غرفة بوجود ستة رجال سيجعلك تعرفهم حق المعرفة. وستعرفهم حق المعرفة ليس لأنهم قصّوا عليك سبب تركهم لجامايكا أو لأنهم يتوقون توقًا شديدًا لفراقهم للحبيب. فإنك لن تعرف أى شىء عن أمهاتهم، أو أيام المدرسة، ولن تسمع عن أحلامهم عن الحياة التى يأملون تحقيقها فى إنجلترا. لا شىء. الشىء الوحيد الذى ستعرفه جيدًا أكثر من الحبيب هو صوت نفس كل واحد منهم. خذ وينستون: فى كل ليلة يتفوه بهذه الكلمات: "**جيمى، ياه.**" أما أخوه التوءم، كينيث، فينام وهو يمصمص بشفتيه كما لو كان يمص شمام. أوجين وكورتس يشخران. وصوت شخيرهما مثل المحرك المترجرج الذى فيه خلل. ولكن إذا زعقت قائلاً: "**صه، ياه، يا رجل،**" فستجد أوجين قد سكت، وأما كورتس فيزيد من زئيره. ورائحة نفس كليفيلاند التى تخرج من فمه تبدو وكأنها رائحة خرجت من مؤخرته، وأما لويس فيقضى الليل كله يحك جلده وفى الصباح يتساءل لماذا تبدو بشرته مسحوجة.

ونام هذا المتطوع القديم فى القوات الجوية الملكية فى ثكنات مع أكثر من ستة رجال، والكل يعرف أن الحرب هى أصعب شىء فى الحياة. لكن أن تنام فى هذه الغرفة الصغيرة كريهة الرائحة، عليك

أن تتخطى ثلاثة أسرَّة لتجلس على سريرك، تراقب أحد الشباب يقفز من سريره ليذهب إلى عمله، وآخر يعود من العمل قافزًا ليأخذ مكانه، تجد هذا الرجل يشتمك ويلعنك لأنه يريد أن ينام بينما أنت تحاول أن ترتدى الملابس لتكون محترمًا لتبدأ يومًا جديدًا، تحاول أن تحلق ذقنك بلا ماء، وتمص رقائق الذرة حتى لا ينزعج أى أحد من صوت قرمشتها، وستحلف أن أيام الحرب كانت جميلة كجمال طائر السكاى لارك.

لكننا كنا نحن الجامايكيين لانزال مبتهجين فى الأسابيع الأولى بعد الإبحار على سفينة ويندرش. وكان كل واحد على يقين كاليقين بالكتاب المقدس بأنه سيجد مكانًا أفضل للعيش فيه فى إنجلترا ـ مكانًا فيه حمام، ومطبخ، ورقعة صغيرة خضراء. وكانت الغرفتان الرطبتان الضيقتان اللتان أجرهما لنا صديق أخى وينستون مؤقتة. أجرهما لنا ليلة واحدة، ربما ليلتين. كانتا أكثر خصوصية من بيت الشباب. وكانت أفضل من النزل. مكثتُ فيها شهرين! شهرين، وبدأت تلك الضيافة الودودة تقتل الأمل. أريد مكانًا أستطيع أن أبدأ فيه العيش.

كم من بوابة فتحتُها؟ كم من باب طرقته؟ دعنى أعد الأبواب التى فُتحت ببطء وأُغلقت بسرعة حتى قبل أن يتسنى لى التأهب للدخول. يا رجل، يجد هؤلاء الإنجليز مالكو ومالكات البيوت الأعذار. إذا كنت فى الزىّ الرسمى ـ إذا كنت ذلك الشاب الذى صفف شعره ببريلكريم ولبس البدلة الزرقاء ـ أكانوا رمقونى بنظرة مختلفة؟ هل كانوا سيشكروننى على النصر الجميل، ويسلمون علىَّ ويدعوننى لشرب كوب من الشاى؟ أم سأزال أرى نظرة الرعب تلك التى تعترى وجوههم الباسمة تمامًا مثل مرور الغيوم على الشمس،

وهم وبكل أدب ونبل يبلغوننى بأن الغرفة قد تم تأجيرها. أو أستمع لهم وهم يخبروننى، بكل لطف: "**حسنًا، إذا ترك الأمر لى لأجرتها لك، لكن لدى الكثير من النزلاء لا يعجبهم أن أعطيها إلى شخص ملون.** سيتأكدون أننى أتفهم أنه "**لست أنا من يملك القرار - إذا كان الأمر متروكًا لى لأجرتك المكان،**" قبل أن يلطخوا سمعة شخص آخر الذى، كما أُكد لى، لا يحتمل النظر إلىَّ. يا رجل، هناك قائمة طويلة من الناس الذين لا يعجبهم إذا سكنتُ معهم - زوج، أو زوجة، أو النساء فى المنزل، أو الجيران، واسمع هذه، لقد أخبرونى بأن الأولاد الصغار قد تغضب إذا وجدوا رجلاً أسود بينهم. ربما علىَّ أن أبدأ فى الخروج فى حملة استكشافية - سأتتبع الأثر وأصل إلى الحاجز الذى يُدعى شخص ملون. سأذهب فى الأول إلى ذلك الزوج، ثم إلى تلك الزوجة، وإلى تلك المرأة فى المنزل، والجيران، والأطفال. وعندما يخبرنى كل واحد منهم بأنه ليس هو السبب بل الجار التالى سأستمر أنا فى البحث. وفى النهاية قد يمتثل أمامى المسبب الأساسى لهذا التحامل ضد الشخص الملون. وأتمكن من أن أقول لهم فى وجوههم: "**إذن، أنتم جميعكم تكرهون الزنوج، على ما أظن.**"

اليأس هو الذى جعلنى أتذكر٢١ شارع نيفرن، مكتب بريد(٥) تذكرته عندما قرأت الورقة البالية تلك أول مرة فى حقل فى لينكولنشير قبل سنوات عديدة. وتذكرته من أظرف الخطابات التى كتبتها بأحسن خط. من يدرى؟ قد يكون هذا المنزل لا شىء الآن إلا حفرة فى الشارع مازال يتحدث الجيران عن الصاروخ الذى أصابه. قد يكون هناك غريب أتى إلى المنزل ليتأمل حال من كان يعيش هنا من قبل. أو قد تكون قبضة زوج غاضب هى كل ما سأراه. فلم تكن قدماى فقط هما اللتان تتألمان جدًا وتحتاجان إلى الرعاية.

ارتعشت يدى من الخوف وأنا أقرع الجرس الذى كان لا يعمل. فطرقتُ الباب بيدى. كانت كوينى بلاى هى من أجابت على الباب. لمرة أخرى نظرتْ إلىَّ كما نظرتْ لى أول مرة تقابلنا. ولمدة ثانيتين اعتقدتنى شخصًا آخر. ثم تذكرت وجهى وقالت: "حسنًا، إذا لم تكن الطيار جلبرت جوزيف. الآن، ماذا بحق الجحيم قد حدث لك؟"

١٩٤٨

الفصل العشرون

هورتنس

لقد أيقظنى، هذا الرجل، بفظاظة، هازًا كتفى. "**هيا،**" قال، "**لقد أعددتُ لك كوبًا من الشاى.**" لم يكن الاستيقاظ بهذه الطريقة هو الذى أفزعنى، بل الدخان الأبيض الذى نفث من فمه كما لو كان هو الشيطان بنفسه. قال لى: "**علىّ الذهاب الآن إلى العمل،**" والدخان ينبعث من فمه وكأن هناك بدون أدنى شك حريقًا بداخله. قبضتُ بشدة على الغطاء وسحبته علىّ. "**لن ألمسك. أنا ذاهب إلى العمل.**" وعندما رفعت رأسى من على الوسادة رأيت ستارة من الدخان تخرج من فمى. وعندما شعرت بقرصة البرد، الحادة مثل الحمض، على خدى الظاهر، وقتها فقط تذكرتُ بأنى فى إنجلترا.

قال: "**الجو بارد اليوم، هاه؟**" بدأ جسمى بالارتعاش، فالغطاء ردىء وخفيف، وكنت قد أفقت. "**تعالى، اشربى بعض الشاى - سيساعدكِ على الدفء. علىّ الذهاب إلى العمل الآن.**" ثم وضع كوب الشاى على المنضدة. تخبرنى نظرة خاطفة ألقيتها إلى الشباك

بأننا مازلنا بالليل. لم يقل هذا الرجل لى أبدًا بأنه يعمل فى الليل. سحب الستارة البالية ولم يُحدث ذلك أى اختلاف فى الإضاءة ـ إلا أنى استثرت بتيار من القشعريرة الذى قرص على خدى الآخر. ثم أخبرنى قائلاً: "**إنه الصباح.**"

"**الصباح؟**" سألته.

"**نعم، إنها تقريباً الساعة السابعة صباحاً.**"

لم تكن هناك شمس طالعة ـ ولا حتى ظل ضعيف. كيف تستيقظ العصافير فى هذا البلد وكيف تعرف متى تغنى؟ أيقظهم جلبرت بكوبٍ من الشاى؟ "**إنه مظلم.**" قلت.

"**إنه الشتاء، وصباح الشتاء دائماً مظلم.**" قال:

جلس الرجل بتثاقل على الكرسى ذى الأذرع ليربط حذاءه. وقال: "**ويأتى الليل المظلم سريعًا أيضًا**،" بالرغم من أنه لم يكن يوجه الكلام لى لكنه كان يفكر بصوتٍ عالٍ. "**أغلب النهار يكون مظلمًا. أحيانًا إذا رمشت بعينك ستخفقين فى تحديد اليوم كله.**"

مددتُ يدى لتناول الشاى لكن البرد منعنى من نزع قشرة اللبن من على سطح الشاى، فأرجعته لمكانه وبسرعة عدتُ تحت الغطاء.

"**سأشعل النار لك**،" قال، متدثرًا فى معطفه الكبير الغامق. ثم أكمل: "**لكن إذا انطفأت النار فعليك بوضع المال فى العداد. هل تعتقدين أنك تستطيعين فعل ذلك؟**" لم أجب على هذا الرجل، وكل ما فعلته هو أنى صرفتُ وجهى عن ناحيته. فأنا لست بغبية. "**سأعود فى الساعة السادسة. هل تعتقدين أنك تستطيعين إعداد وجبة صغيرة لى؟ فهناك بعض البيض والبطاطس فى الخزانة بجانب الحوض. هلا جهزتِ لى بعض شرائح البطاطس المقرمشة؟**"

قال ذلك بصوت كله مسكنة، وبالكاد أشفقت عليه. فأخبرته قائلة: "**بالتأكيد.**" وبعدها انصرف.

الفصل الحادى والعشرون

جلبرت

علمتنى الخشية مما سيحدث أن أمرًّ على باب كوينى بحذر. كنت أبدو مثل اللص وأنا أنزل الدرجات خلسة مرتديًا جواربى لتجنبها. أقسم أنى كنت أنزل على أطراف أناملى، أحاول أن أحافظ على توازنى، فلا يصدر منى أى صوت يوقظها. كنا فى الصباح الباكر - حتى العصافير لم تشعر ببدء يومٍ جديد بعد. كنت أقترب من بابها بخفة، وقدماى بالكاد تلمسان الأرض، كانتا تحوم على مشمع الأرضية.

"جلبرت،" سمعتها وهى تنادى. يا رجل، هذه المرأة تسمع جيدًا حتى إنها تستطيع سماع خربشة الخياطة فى جواربى. "**هل هذا أنت، يا جلبرت؟**" ولكى أتجنبها علىَّ أن أطير من الشباك على أجنحة ملاك.

قلتُ: "**كلا.**"

"**استطيع القول بأنه انت**،" قالت لى، ظهر الآن وجهها من الباب.

كيف؟ أردتُ أن أسألها هذا السؤال. كيف، بحق الله، تتعرف علىَّ فى كل مرة عندما أكون بالجوار؟ "**يا كوينى، انا ذاهب الآن للعمل. هل تريدينى أن اتأخر؟**"

"**لن يستغرق الأمر إلا دقيقة واحدة.**"

إن الحظ أمره يدعو إلى السخرية. فهو يعنى لبعض الناس الفوز بالمال فى لعبة رهان. أو يعنى العثور على جوهرة تحت قدمك فى شوارع لندن. هذا بالتأكيد هو الحظ. لكن أثناء الحرب فالحظ يأخذ منعطفًا آخر. فالقنبلة التى تخطئ إصابتك تعنى الحظ. وقد تخسر رجلاً بدلاً من أن تنفجر رأسك فذلك هو الحظ. وكل عائلتك تموت ويتم إنقاذ والدتك ـ تهانينا، فأنت رجلٌ محظوظ. ولهذا، دعنى أخبرك ما هو الحظ بالنسبة لرجل ملون وصل إنجلترا ونزل من على الباخرة للتو. ألا وهو العثور على كوينى بلاى. فكما هو واضح هى تملك بيتًا كبيرًا وسعيدة لتقبلنى مع بعض الشباب كنزلاء عندها. إنه أفضل من شرب الروم المسكوب فى كأسٍ ذهبى ـ هذا هو الحظ بالطراز الإنجليزى.

وكسابق عهدها مازالت كوينى تلك المرأة الجميلة الشقراء التى مالت ناحيتى بود على الطاولة لتشاركنى كيكة الروك. وعلى الرغم من أننى لم أعد أرتدى الزىّ العسكرى، إلا أننى مازلت، حتى وأنا فى تلك البدلة السادة، أحد الطيارين بزيهم الأزرق. كانت سعيدة لوجودى بجوار منزلها، وأعدت لى كوبًا من الشاى. وتحدثنا، ونحن نحتسى هذا المشروب، سويًا. تحدثنا عن كل ما حدث مع حميها: "**إنه ماض الآن**،" قالت لى. فلا داعى لى للقلق. وتحدثنا عن زوجها:

"لا أعرف ماذا حدث معه لكن يجب علىَّ أن أتقدم فى حياتى، يا جلبرت." احتاجت لمساعداتى ـ فهى امرأة تعيش وحدها. وهى أرهقتنى إرهاقًا شديدًا. كانت تقفز وتضحك كفتاة صغيرة وهى تحرك الأثاث فى بيتها لتتمكن من أن تؤجر الغرف. دعنى أخبرك، إنه فى كل ليلة أثناء تلك الأيام الماضية ركعت لأشكر الحظ السعيد وألعن عهود الزواج التى أخذتها على عجل. وكان اللقاء بكوينى بلاى أفضل حظ يناله هذا الرجل الجامايكى.

انتقل وينستون وكينيث للسكن فى البيت. المبلغ الذى طلبته كوينى للإيجار جعلنى أنظف أذنى وأسألها مرة أخرى. ثلاثة جنيهات كل أسبوع لتلك الغرف القديمة المتردمة؟ فغر وينستون وكذلك كينيث فمهما من شدة الذهول حيث أكدت لنا بأن لا خيار لديها إلا أن تطلب هذا المبلغ من المال. ثم أخبرتنى وأنا أدفع لها إيجار الأسبوع الأول فى يوم السبت بأن هناك شخصًا ما ترك الباب مفتوحًا لمدة طويلة. وفى اليوم التالى كانت تريدنى أن أعلم بأن هناك من أغلق الباب بقوة محدثًا صوتًا عاليًا. وبأن هناك رائحة تعج فى الغرفة. وهناك شخصٌ يحدث ضجة. ويجب علىَّ أن أخبر الشباب بألا يتركوا النور مضاء. وهل يا تُرى أخبرت الشباب أن يحافظوا على نظافة الغرفة؟

"ياه، اعتقدتُ أنك قلت إنها صديقتك. فلماذا تتصرف هذه المرأة مثل سيد العبيد الأبيض؟" أراد كينيث أن يعرف.

لا ينبغى لنا أن نرجع للبيت فى وقت متأخر. ولا ينبغى أن يكون هناك أى أحد غريب فى الغرف إلا بعد أخذ الموافقة. هلا تخطينا الدرجة الثانية من صفوف الدرجات الأولى لأنها تصرُّ؟ "يا جلبرت،" قالت، **"أنا أعتمد عليك لإبقائهم تحت السيطرة."**

هل أصبحتُ أنا حارسها الأمين الآن؟ بدأتْ هذه المرأة تثير حنقى ولهذا أعتقدُ أن زوجها رجلٌ رشيد حيث ضلَّ طريقه بين هنا والهند. يا رجل، هل يوجد أى طريقة أستطيع أن أختفى من أمامها، هيا تعال وشاهدنى وأنا أتحكم فى الموقف.

سألتنى: "**هل كان هذا كينيث الذى ساعدك فى حمل ذلك الصندوق الكبير ليلة أمس؟**"

كنتُ فى السابق لا أعرف كيف أكذب. ولكن مع كوينى الجديدة هذه، ومع فتور الهمة التى أصبحت راسخة، أصبحت الآن ماهراً فى هذا الفن.

"**كلا.**" قلتُ لها.

"**لا أريد كينيث هذا هنا، يا جلبرت. أنا لا أمانع من وجود وينستون. لكنى لا اعرف ان اميزهم من بعض. لا أريد كينيث هنا. فأنا لا أثق به. فهو ماكر. فلقد قابلت السيد تود وهو يشتكى منه عن هذا وذاك.**"

"**لا تقلقى. كان هذا وينستون يساعدنى فى حمل الصندوق.**"

"**هل انت متأكد؟**"

"**بالطبع - ولماذا أكذب عليك؟**"

نظرتْ فى عينى. ثم قالت: "**كيف حال زوجتكَ؟ لماذا لم تذهب لمقابلتها؟**"

"**انا متأخر عن العمل الآن. يجب ان اذهب.**"

فقالت: "**انتظر دقيقة، يا جلبرت، هناك شىء واحد فقط..**"

هذا الشىء الواحد فقط قد يكون "**تعال لتحرث لى الحديقة.**

"**علىَّ أن أذهب،**" أخبرتها، معطيًا لها ظهرى.

"**لن يأخذ إلا دقيقة..**" صاحت بصوتٍ عالٍ.

قد تبدو قلة أدب وفظاظة لكنى بالفعل انصرفت.

الفصل الثانى والعشرون

هورتنس

كم أتمنى ألا تراني سيليا لانجلى بعد الآن. أين هى الآن؟ قد تجدها تأكل ربطة من الفاكهة وتروح لنفسها تحت أشعة الشمس. وها أنا هنا فى صباحى الأول فى إنجلترا، تعترينى قشعريرة من شدة البرد كأنها تلال ترتفع على بشرتى، وفكّى يؤلمنى من المجهود الذى أبذله لمنع أسنانى من أن تصطك ببعضها. لم أتخيل أن الوضع فى إنجلترا بهذا الحال. شديد الكآبة. تمالكت نفسى لكنى مازلت لا أسمع أى زقزقة للعصافير.

بدت الغرفة فى حالة يرثى لها فى ضوء الصباح الرمادى الكئيب. اعتقدت ليلة أمس أنها على وشك الانهيار، لكن فى وضح النهار كنت سعيدة من رؤية أسرارها القذرة. هناك قطع من الجبس سقطت من على الحائط. انتشرت خطوط التشققات السوداء على كل الجدران. وفُقِد مقبض صوان الثياب متعدد الأدراج. ولا يوجد

طست فى الحوض. وهناك أشكال من الخطوط البيضاء على زجاج النافذة. إنه الصقيع.

لقد علمتنى المديرة، الآنسة مورجان، بأن الصقيع يتكون على النوافذ من الخارج فى إنجلترا، لكن إصبعى الفضولية قد التصقت بهذا الشىء. كان لزجًا من البرودة وقد ذاب من دفء ملمس إصبعى من داخل الغرفة! أشعر بحرارة النار المزمجرة عديمة الفائدة تلك فقط إذا وقفت بالقرب منها مباشرة. بوصة واحدة، هى المسافة، وبوصة واحدة أخرى للخلف ولم تعد تصل الحرارة لى. وبوصتان أخريان وأكون فى حاجة لأرتدى معطفى. وثلاث بوصات أخرى ويكون الجو شديد البرودة مثل الشارع. هذه الغرفة لا تصلح للعيش. أستطيع سماع سيليا لانجلى وهى تضحك علىَّ. وتهزأ بى قائلة: "**إن مقادير الرب بكل تأكيد سر من أسراره ، يا هورتنس.**"

لكنى لم أعرها أى اهتمام. فتحتُ صندوق السفر الخاص بى فإذا بالبطانية ذات الألوان الزاهية الكاريبية التى أعطتها لى المرأة العجوز فى أوتشى قد نُثرت من الصندوق. وبدأ اللون الأصفر مع الأحمر، والأزرق مع الأخضر بالرقص فى هذه الغرفة الكئيبة المظلمة. أخذتُ البطانية من الوطن البعيد وفرشتها على السرير.

أمرٌ رائع ومبهج ـ الآن سمعتُ العصافير تزقزق. آووه، إنها فعلاً مبهجة. فعندما رأت العصافير تلك الألوان المبهجة من النافذة ارتفعت معنوياتها وبدأت تغرد وتصدح. "**لا تضحكى على يا سيليا لانجلى**،" قلت، "**فقط راقبينى، هاه.**" وفى تلك اللحظة قررت أن أجعل هذه الغرفة مكانًا أستطيع العيش فيه، إذا كان البقاء هنا سيكون لفترة قصيرة فقط. لأن إنجلترا هى مصيرى. فبدأت بذلك

الحوض. فركته بالصابون إذ كان متشققًا ومصفرًا وكأنه خريطة قد رسمت. أخذت أمسح بيدى العرق الذى يتصبب من جبينى. وقلتُ للقصرية النتنة وأنا أسحبها من تحت السرير: **"دورك التالى."** حينئذ طُرق الباب.

توقفت عن الحركة تمامًا ـ حتى قلبى لم يجرؤ على النبض.

سمعت صوتًا يقول: **"هل يوجد أحد؟"**

لم أرد. وبدأت أختنق من كتم نفسى. طُرق الباب مرة أخرى.

"هل يوجد أحد بالداخل؟" إنها المرأة التى تسكن بالأسفل. إنها صاحبة المكان التى نظرتُ إلى ليلة أمس بطريقة فظة. **"إنها فقط كلمة واحدة، لو سمحت افتحى الباب"** لم يجعل أدبى وحسن نشأتى أى خيار لى. فتحت الباب فتحة ضيقة.

اقتربت بوجهها من فتحة الباب، مبتسمة. **"أتيت فقط لأطمئن عليك."** كان شعرها أشقر صريحًا أحضر لذاكرتى السيدة ريدر. تذكرتُ تلك المرأة وهى تقود السيارة مرتدية القبعة وعليها ريشة ومايكل يراقبها وهى تمر. ولكنى صرفت الفكرة عن ذهنى فى الحال. أنا فى إنجلترا الآن. تلك الأيام قد ولَّت.

"هل ذهب جلبرت للعمل؟" سألتنى تلك المرأة. كانت تحملق مثل قطة فضولية، تحرك رأسها هنا وهناك لتختلس النظر جيدًا على ما فى الغرفة. **"أنا التى كنت بالدور الأسفل. هل تتذكريننى؟ أنا التى أدخلتك؟ أنت هورتنس، أليس كذلك؟"**

لم أرد أن أكون فظة فى أول يوم لى فى إنجلترا لهذا أجبت على سؤالها بإماءة صغيرة برأسى.

فقالت: **"هل بلعت القطة لسانك؟"** أى قطة تتحدث عنها هذه المرأة؟ لا تقل إن هناك قطة ستعيش معنا فى هذه الغرفة. ثم أكملت: **"اسمى السيدة بلاى." "لكن تستطيعين أن تنادينى كوينى، إذا أحببتِ. الكل ينادينى بذلك. هل يعجبك؟"** الانطباع الذى وصلنى هو أنها تتكلم معى كما لو كنت طفلة بلهاء. هل هذه هى الطريقة التى تتحدث بها مع امرأة متعلمة مثلى.

ولهذا رددتُ عليها قائلة: **"هل فقدت قطتك؟"**

ولفت عينا هذه المرأة فى مقلتيها كما لو كنت قد سألتها هذا السؤال عدة مرات من قبل. فردت بحدة: **"كلا."** وأكملت: **"فى اللغة الإنجليزية هذا يعنى أنك لا تقولين الكثير. لكن هل كل شىء على ما يرام؟ فكرت أن أمر لأتحدث معك فى كلمة."**

لم أكن أريد أن أبدو جحودة بينما تحاول هذه المرأة أن تكون طيبة معى، بالرغم من أنها أربكتنى بشأن تلك القطة. ففتحت الباب أمامها قبل أن تعتقد أنى غير مهذبة. قصدتُ فقط التحدث من فتحة باب أوسع. لكنها دخلت مباشرة من الباب، على الرغم من أننى لم أدعها للدخول!

"آوه، إنك ترتبين المكان بعض الشىء. الرجال، هاه - ليس لديهم أدنى إحساس بالنظام." تفحصت المكان كما لو كانت الغرفة غرفتها. دست بأنفها فى كل زاوية وهى تمشى فى الغرفة تتحقق من أن كل المهام التى طلبتها قد نفذت. مشت إلى أن وقفت عند الحوض وقالت: **"بعض الشقوق، أليس كذلك؟ ومع هذا، تحافظين على نظافته، هذا جيد."** والآن، فى حين كونها صاحبة المكان وتتفحص الحوض فى تلك اللحظة، فكرت أنها فرصة مناسبة

لأسألها عما أريد. "عفواً" قلت، "**لكن ربما يكون لديك طست أستطيع أن أستخدمه؟**"

"**لدى ماذا؟**"

قلت مكررة: "طست."

"**المعذرة.**"

"طست أضعه فى الحوض."

"**طيـ لتضعى ماذا؟**"

"طست."

"**آسفة لكنى لا أفهم ماذا تقولين؟**"

فكرت أن أقولها مرة أخرى ببطء ولكن تذكرت كلمة أخرى مرادفة لها قد تؤدى الغرض. فقلت: "**دلو.**"

"**ماذا؟**" بدأت من جديد.

كان أمرًا لا جدوى منه. ألست أتحدث أنا الإنجليزية؟ لم يكن هناك شىء أمامى إلا القصرية لأشير إليها بدلاً من ذلك. لكنها بكل تأكيد ستسىء فهمى أيضًا. ومن يدرى إلى أين ستأخذنا تلك الحيرة؟ فلذلك أغلقت فمى.

قالت: "**من أين أتيت بهذا الشىء؟**" مشيرة إلى البطانية. "**ألوانها زاهية. تحتاجين إلى نظارات سوداء للنظر إليها.**" من الواضح أن ذلك أضحكها. فلقد بدأت تقهقه. "**هل أحضرتها معك إلى هنا؟**" مشتْ متخطية البطانية إلى النار لتدفئ يديها. انحنت أكثر ناحية اللهب. "**إنه يوم قارس البرودة. أراهن أنك تمنيت لو لم**

تتركى مكانًا جميلا ودافئًا؟" وعندما لم أرد عليها نظرتْ إلى ونطقت تلك الكلمات: "الجو اليوم بارد،" وكأنى فقدتُ السمع. ثم أكملت: "عندما يكون الجو بارداً نقول إنه 'قارس. 'بردٌ قارس. إنها مقولة. مثل القطة بلعت لسانك." ثم استدارت لتدفئة يديها وهى تقول لى: "ستعتادين على لغتنا سريعاً."

قلت لتلك المرأة الإنجليزية: "استطيع أن أتكلم وأفهم اللغة الإنجليزية جيداً، اشكرك."

فقالت: "لا داعى أن تشكرينى." مع أنى لم أقصد أن أبدو ممتنة لها. بيد أنها أكملت قائلة: "أنا متأكدة بأن هناك الكثير استطيع أن أُعلمه لك، إذا شئت ذلك." ثم جلست بعد ذلك على كرسى ودعتنى للجلوس معها. لكن هذا بيتى، وأنا من علىَّ أن أقرر متى تجلس، ومتى تدخل، ومتى تدفئ يديها. بلا شك أستطيع أن أعلم هذه المرأة شيئًا، هذا ما كنت أفكر به. آداب السلوك. لكنى تساءلت بين نفسى، ربما هذا هو سلوك الإنجليز عندما يكونون فى إنجلترا؟ ولهذا جلست.

"تمام ـ اجلسى." هل تعتقد هذه المرأة أننى لم أفهم الأمر بالجلوس. "انت لا تتكلمين كثيراً، اليس كذلك؟"

مسكتُ لسانى. خصلة الصبر التى أتمتع بها منعتنى من أن أخبرها بأن ما سأقوله لن تقدر على استيعابه.

"حسنًا، منذ متى إذن أنت وجلبرت متزوجان؟"

لقد سحبتْ وقاحة وقلة حياء سؤالها كل أنفاسى. أتريد هى أن تعرف كل أمورى؟ كل ما فعلته أن نظرتُ إليها وانتظرت. من المؤكد

أن تلك المرأة البيضاء انتبهت فى الحال أنها أساءت التحدث معى. لكنها عادت من جديد. وفى هذه المرة ببطء كما لو كنت لم أفهم ما تعنيه من أول مرة. لكنها خدعتنى هذه المرة. ولكى تلاحظ هذه المرأة أنى إنسانة متعلمة كان من الضرورى أن أجيبها على سؤالها. ياه.

فقلت لها بوضوح: **"جلبرت وأنا متزوجان قرابة الستة أشهر."**

"ستة. ستة أشهر؟"

"هذا ما قلته للتو." قلت لها بالتأكيد على مخارج الحروف المتحركة قدر المستطاع.

"ماذا، أتعنين ما تقولين؟ أنتما متزوجان منذ ستة أشهر؟" أومأتُ برأسى لها. **"لكن جلبرت هنا منذ خمسة أشهر."** ثم مالت برأسها، ونظرتْ إلىَّ نظرة كلها شقاوة. وقالت: **"إذن، أنتما عروسان جديدان."**

"على ما أعتقد."

سألتنى: **"هل قلت "على ما أعتقد"؟"** ثم ضحكت. **"لا تبدين مسرورة من هذه الزيجة. لكن جلبرت قال إنكما لم تتعرفا على بعض كثيراً."**

آه، هل صحيح هو قال ذلك؟ إنه المثال النموذجى للرجل الخسيس الذى يذيع أمورنا كلها لكل فرد فى إنجلترا، كل من يريد أن يسمع. لكنى لم أتفوه بكلمة.

"لقد عرفت جلبرت أثناء الحرب." أكملتْ حديثها. **"هل أخبرك بذلك؟"** ربما هى تحب أن تعرف شؤون كل الناس لكنى تعلمتُ

الصبر ـ وخاصة مع رجل يعتقد أن السنَّة الذهبية تثير الإعجاب. بدأتْ تبدِّل من وضعية جلستها على المقعد، مما أدى إلى إحداث صرير واعتقدتُ أنه سينكسر من تحتها. ولكنها لم تعط لقطعة الأثاث البالية أى انتباه. ضمت يديها إلى صدرها، ثم فردتهما. أخذت نفسًا عميقًا ثم قالت بصوت خافت "آآه" كأن هناك ألمًا أصابها. توردت رقع جميلة حمراء على خديها ورقبتها. قلقتُ من أن تحتاج لشرب الماء حيث إنى لست متأكدة من وجود كوب زجاج. ولكنها لم تكن قلقة. فقد قامت فقط بتسريح بعض الخصلات من شعرها الأشقر وراء أذنها واستمرت فى الكلام كالسابق.

"**لم يخبرك بذلك، إذن؟**" سألتنى. وأنا لم أرد عليها. فقد كنتُ متضجرة من هذا الحديث ولدى عمل قد كنت بدأته. وأخيرًا رفعتْ المرأة نفسها ببطء من على المقعد. "طيب" قالت: "**إذا احتجتنى فى اى شىء فأنا بالأسفل. فقط نادينى.**" وبأدب وقفت لأتبع خطواتها نحو الباب. وفجأة نظرتْ بوجهى بنفس تحمس واندفاع الطفل الذى يريدك أن تشاركه اللعب. وقالت: "**أستطيع ان اريك المحلات، إذا أحببتِ. اريك من أين تشترين الأشياء.**"

الشفقة جعلتنى أكون لطيفة. وقلتُ: "**شكرًا لك.**"

لكن هذا جعلها تتحمس أكثر. "**كلا، لا داعى أن تشكرينى. لا مشكلة. من الظريف أن أجد بعض الصحبة.**" كنت أومئ برأسى وأبتسم مثل البلهاء وأنا فاتحة الباب طوال الوقت حتى تنصرف هذه المرأة وتتركنى فى سلام. أرادت أن تعرف فسألتنى: "**هل لديكم افلام... افلام سينمائية... من حيث اتيتِ؟**" ما هذا، أتعتقد هذه المرأة أن جلبرت أخرجنى من قمقم.

"بالطبع لدينا أفلام ـ سينما،" قلت لها.

"أتعجبك؟"

قلت: "أنا دائماً أستمتع بمشاهدة أفلام شيرلى تيمبل."

ضحكت المرأة بصوت عال غليظ أقسم بأن زجاج النافذة قد ارتج. "شيرلى تمبل، لم أشاهد أيًا من أفلامها منذ فترة. تخيلى لديكم شيرلى تمبل من حيث أتيتِ!"

ولمرة أخرى لم أرد عليها. "طيب، قد نذهب إذا رغبتِ فى ذلك ـ إلي دار الأفلام." حبست هذه المرأة لمرة ثانية أنفاسى. هل هذه المرأة تريد أن تكون ودودة أم تريد صديقة؟ أنا محتارة. من أى طبقة اجتماعية هذه المرأة؟ "حسنًا، إذا أردتِ الذهاب إلى المحلات أو أى شىء من هذا القبيل أستطيع أن أريكِ كيف تستخدمين بطاقة التموين الخاصة بك. هى سهلة لكن تحتاج إلى وقت لتعتادى عليها." ثم نظرتْ إلىَّ. وبدت عليها الحيرة. "هل تفهمين ما أقوله؟"

رددت عليها بهدوء: "بالطبع."

"جيد. طيب خبِّطى على وسأعلمك متى أكون مستعدة للخروج." ثم رفعت يدها ووضعتها على ذراعى. ومالت ناحيتى وأصبحت قريبة جدًا وهمست: "لا بأس. فأنا لا أمانع أن يشاهدنى أحد أمشى معك فى الشارع. ستجديننى غير الآخرين. لا يهمنى أن يرانى أحد وأنا أمشى مع الغامقين."

الآن، لماذا يجب أن تقلق هذه المرأة من أن يشاهدها أحد معى؟ قبل كل شىء، أنا معلمة وهى امرأة تكسب لقمة عيشها بتأجير الغرف. فإذا استحى أحد فيجب أن يكون أنا من يستحى. وما تعنى

بكلمة غامق هذه؟ أمسكتُ لها الباب بأدب وقلتُ مرة أخرى: **"شكراً لك،"** راغبة أن تخرج بسرعة من خلال الباب.

"لا داعى أن تشكرينى فى كل مرة."

لقد أساءت فهمى مرة أخرى. ولكنى تذكرت شيئًا ملحًا ينبغى علىَّ أن أسألها عنه. إنه شئٌ يؤرقنى منذ أن أغلق جلبرت الباب خلفه هذا الصباح. وهذه هى فرصتى الآن. انتظرت حتى أصبحتْ خارج الباب فيما لو فكرت ترجع الغرفة وتجلس على الكرسى. قلت: **"المعذرة، سأسألك سؤالاً إذا سمحتِ؟ هل، ربما استطعتِ أن تخبرينى.."** رفعتُ رأسى حتى أنظر مباشرة فى عينيها وأسألها: **"كيف تحضرين رقائق البطاطس؟"**

الفصل الثالث والعشرون

كويني

لقد أطلقوا عليَّ اسم فيكتوريا بوكستن عند التعميد. أرادت أمي أن أُعمَّد باسم كويني لكن قال لها الكاهن: **"كلا، يا سيدة بوكستن، اخشى من ان يكون كويني اسماً عادياً."**

"عادي!" رددت أمي قائلة: **"كيف يكون عاديًا؟ إنه اسم ملكة."** ثم شرع الكاهن في إعطاء موعظة ارتجالية، وأجبر كلاً من أمي، وأبي، وضيوفهما على سماعها وهم يقفون حول حوض المعمودية في كنيستنا المحلية الكئيبة. وأطال الكاهن الحديث عن أفراد العائلة الملكيّة واختيارهم لأسماء مناسبة مثل إدوارد، جورج، وإليزابيث في حين كان كل الحاضرين، مرتدين أفضل ما عندهم من أحذية للكنيسة التي كانت تقرص على أصابعهم، يتلوّون ويقلبون وقفاتهم من رجل إلى الأخرى يتثاءبون وهم يكتمون ذلك بأيديهم المغسولة. وأخيرًا وضح الكاهن قائلاً: **"خذي على سبيل المثال ملكتنا الحالية، فاسمها، يا سيدة بوكستن، ليس كويني إنما فيكتوريا"**

وهكذا ـ في أحد أيام شهر أغسطس شديدة الغيام في كنيسة بالقرب من مانسفيلد، تم تعميدى، وأنا مرتدية فستانًا أبيض طويلاً لم يلف على الرقبة خاصًا بالتعميد تناقلته الأجيال، أنا المولودة الأولى لويلفرد وليلى بوكستن، باسم فيكتوريا وإلى الآن وللأبد أُدعى كوينى.

كانت أمى، ليلى، زهرة إنجليزية. شعرها أصفر كلون التبن، وبشرتها مثل اللبن، وخدودها وردية ولها أنفٌ ممشوق عالٍ لتظهر روعة شكل فتحتىْ أنفها. كانت ابنة فلاح، وكانت لديها يدان تطبقان على الأشياء مثل الآلة ذات الفكين القويين، وذراعان بقوة ذراع الدب، وأرداف يزداد حجمها كل سنة إلى أن اتفق كل كبار السن فى القرية بغشامة بأنها تحمل فيهم أطفالاً.

وكان والدى، ويلفرد، جزارًا ـ ابن جزار، وحفيد جزار، والحفيد الأكبر لجزار. كان يكبر أمى بعشرة أعوام ولم يكن وسيمًا. البعض يقول إن حظه الموفق فى التودد والفوز بيد فتاة فازت مرة فى مسابقة ملكة جمال القرية ـ هو السبب وراء رسم تعبير الدهشة على وجهه. ابتلى بخصلات معقوفة فى مقدمة شعره، مما يعنى أنه كل يوم عزمت على التدلى على جبينه فى خصلات لولبية جامحة غريبة الأطوار. وبدت يداه المكتنزتان كما لو كانتا خنزيرين سمينين. كانتا عريضتين، موردتين، وسمينتين، وبهما أصابع قصيرة غليظة. وعصبَ معصميه بشريط من الجلد ليحميهما من ضربات سكاكين الجزارة الحادة. اعتقدتُ بأن هذا السير يربط يديه بنهاية ذراعه. ينزع والدى هذا الشريط، تلك القطعة من الجلد ذات الثلاث بوصات، عندما يستحم بالتناوب عشية كل يوم سبت أمام المطبخ

الكبير. وكان علىَّ إحضار الماء الساخن الذى يدحرج الوسخ المتلبد الأسود من على بشرته كما لو كان الطين ينزلق من على الحائط، ومازالت شرائط الجلد على الأرض، تأخذ شكل معصميه. كانت كأصفاد مسودة رثة، بالية وبها دم. لم أنظر إليه من الأمام وقت الاستحمام حتى لا أرى الأعضاء التى وضع عليها يديه الغليظتين.

كانت لدينا حظيرة فى مزرعتنا الصغيرة، عند الباب الخلفى، عبر الباحة، يقوم والدى بالذبح فيها. الكارتات تخرج من المخزن البارد إلى الباحة، يقودها الأولاد الصغار الذين يرتدون مآزر لطخت بالدم الجاف، وتفوح منهم رائحة حادة لاذعة مثل رائحة الخل بسبب اللحم النتن، يكوّمون بقايا البقر، والغنم، والخنازير المذبوحة. ثم يحملها أبى على كتف واحدة إلى داخل الحظيرة. ومع ضجيج أصوات سن السكاكين، وتقطيع اللحم إلى شرائح وفرمه، وضجيج نعير الآلات وإراقة الماء على الفضلات، تحول البقر إلى قطع من لحم أعلى الفخذ، وقطع من الكفل، ومن الخصر، ومن اللحم حول الرقبة والكتف، ومن أفضل الريش، ومن الساق، ومن لحم الصدر، وقطع من اللحم الذى يؤخذ من أمام عظم الكفل فوق الرجل، وأما الغنم فتحول إلى قطع غليظة من لحم الرأس، ولحم مفروم، وقطع من الكستليتة، وقطع من نهاية الرقبة، والكتف، وتحول الخنزير من حيوان وردى اللون له شخير، كان يتم إطعامه كل صباح من فضلات الطعام المسلوق فى إناء نحاسى - إلى: رؤوس، وأقدام، ولحم المؤخرة، ولحم الخصر، وكوارع، وشرائح من اللحم المخلى من العظم والمعدة، وأضلاع، وعظمة الكتف.

وفى مبنى ملحق بالمزرعة تم تمليح وتجفيف وتدخين لحم فخذة الخنازير. وكانت قطع من الفتات الذى ليس له اسم يحشر فى

الجلد ليصنع منها النقانق، فيعصر منها الزائد وتبرم ليصنع منه آل بوكستون أفضل السجق من لحم الخنزير. وكان سقط الذبيحة ـ من الكبد، والكلاوى، والقلوب يعبأ فى صوانٍ. وتذاب الدهون فى القدور لتصنع منها كرات من دهن الخنازير. ويحشر ما تبقى من لحم فى المفرمة. فالفتات الذى سقط على الطاولة يصنع منه أفضل اللحم المفروم البقرى، والفتات الذى مُسح به الأرض كان أردأها.

كان والدى يحلم بأن يرزق بالبنين. أولاد تستطيع أن تسن السكاكين، وتقطع، وتفرم، وتحمل اللحم. أولاد تحل مكان الصبيان الأغبياء الذين عليه أن يستأجرهم والذين يسرقون قطعًا من اللحم عندما يظنون أن أبى لا يراهم، ويحشرونها ليخبئوها تحت قبعاتهم وقمصانهم.

عندما ولدتُ خرجت الدّاية تمسح يديها عند أعلى السلالم خلف غرفة النوم ، وتقول: **حسنًا، يا سيد بوكستن، من دواعى سرورى ان أخبرك بأنك قد رزقت ببنت جميلة."**

وفى تلك اللحظة صفع والدى جبينه، وارتد جالسًا على الدرج وقال متأوهًا: **"يا ربى، إن فى ذلك هلاكى."**

وأما أمى فلقد أرادت أن ترزق بابنة، كى تساعدها كما كانت هى تفعل مع أمها. تستيقظ أمى فى الساعة الرابعة كل يوم، وتقوم برش الدقيق وكأنه غيوم على منضدة المطبخ، وتبدأ فى خبز القشرة الخارجية بالماء الساخن لفطيرتها التى تعدها بلحم الخنزير. وتعجنها على المنضدة الخشبية المغسولة جيدًا، تفرده بالمرقاق وتضرب العجين، وهى تضغط بمفاصل أصابعها على العجين

المخبوز الذى لونه كلون مؤخرة الأطفال الرضع حتى يلين ويسهل تشكيله، ثم تضيف المزيد من الدقيق، لضربه وفرده بأشكال مدورة على المنضدة الخشبية، ثم تضعه بضربة قوية فى صاجات الخبز ويصبح جاهزًا للحم الخنزير الذى أحضره أبى لها فى الدلو. وبعد تسوية الفطائر، ساخنة وذهبية، يُسكبْ من فتحة جهزت فى أعلى القشرة الخارجية للفطيرة مرق عظام الخنزير، وتترك حتى تصبح كالهلام المرمرى.

تستطيع أمى أن تخبز الفطائر بدون النظر إلى أسفل إلى يديها. مما يجعلها تراقب البنات الكسولات اللاتى أتين من القرية لمساعدتها. وتوجههن لفتح الفرن بسرعة، وغسل الطاسات، ولمناولتها الدقيق أسرع، بدون أن يؤثر كل ذلك على وقت خبز الفطير. فكانت تقول أمى كل صباح للبنات الغافيات الكسالى: "**أسرعن، فأنا بحاجة لوضع الحشو على الفطير.**" ولا يهم ما مدى سرعتهن. وبعد ذلك، يتم تحضير الشاى ـ من أجل الأولاد الأغبياء وأبى، الذى يمسح يده الملطخة بالدم فى مئزرته قبل أن يوزع عليهم أكواب الشاى من الفخار المتآكلة أطرافها. وبعد كوبين من الشاى المسكر يقوم أبى بتحميل كل الأشياء فى الشاحنة. فهو وأمى يديران محلاً يبيعان فيه كل شىء ينتجانه فى مزرعتنا الصغيرة. كل الفطائر، واللحم، والسجق، ولحم الخنزير المقدد يرسل إلى المحل، حيث يمضى أبى وأمى اليوم كله يخدمان زبائنهما "**المضجرين اللعناء**".

قبل سنوات من ولادتى دُس بظرف من تحت عقب محل الجزار. كتب عليه: "**ويلفرد بوكستن**" بخط طفولى وحروف كبيرة حيث لا ينبغى أن تكتب هكذا. اعتقد أبى أن أحدهم يدفع ما عليه من

فواتير. فكلهم مدينون له. فأغلب الزبائن يقومون بتسديد ما عليهم فى نهاية الأسبوع. كانت أمى تقول إنه لين فى المعاملة معهم وهو يحب أن يعتقد بأنه يتفهم زبائنه ـ كان يقول إنه إذا لم يعطهم البضاعة تحت الحساب فسيذهبون إلى مكان آخر. فلهذا فتح أبى الظرف بلا اكتراث ثم ارتجف من شدة الخوف، الأمر الذى لم يكن له داعٍ.

كان وحده فى المحل إلا أنه كان مراقبًا. فهو لم يفكر أبدًا فى الانضمام فى الجيش والاشتراك فى الحرب. فقد كان جزارًا. إذا اشترك فى الحرب فمن الذى سيوفر اللحم؟ كانت الحرب بعيدة تمامًا عن تفكيره، ليس له علاقة بها، كانت تعنى له فقط أسماء فى الصحف، وصورًا للشباب الصغار، ونقصًا فى الرجال الأخيار ليقوموا بالعمل فى الجوار. لكن من الواضح أنْ فكَّر زبائنُه ـ من المحتمل المرفهون منهم الذين يشترون لحمة أعلى فخذ البقر أيام الآحاد ولحم الخنزير والديك الرومى لعيد الميلاد، أو هل كانوا عمال المناجم الذين يأكلون لحم عظمة الرقبة ورؤوس الخنازير؟ ـ فى أن جزارًا بيدين سمينتين مثل يديه ستستخدمان أفضل فى خنق الجندى الألمانى.

اشتكت أمى من أن الولدين اللذين استأجرهما أبى ليحلا مكانه كانا نحيلين وسقيمين. قالت: "**إنهما صغيران جداً للعمل أمام الفرن الكبير، عديما النفع لى لصغر سنهما.**"

اتجه أبى للجنوب. وبعد مرور ثلاثة أسابيع كان هناك خبط على الباب الخلفى للمزرعة. ذهبت أمى لتفتح الباب فإذا بأبى يقف أمامها. "**الجيش لا يريدنى،**" أخبرها أبى بذلك. تبين لهم أنه كبير فى السن وله قلب مريض. ثلاث نوبات من حمى الروماتيزم تركت

قلبه يهمهم بصوت عالٍ. **"أنا لست مناسباً لأكون جندياً أحمق."** قال وهو حزين. وفى تلك الليلة، صليتُ أمى من أجل أن ترزق بغلام فيصاب بالحمى الروماتيزمية لأن، كما استنتجت، بسبب تلك الحمى سيعيش أطول.

كانت هناك تشكيلة متنوعة من البنات اللاتى يعتنين بى بينما تقوم أمى بربط السجق، وقطع لحم الخنزير إلى شرائح، وتنظيف الدم من على منضدة المحل، والمساومة فى المحل على رطل من السجق الأسود المصنوع من دهن ودم الخنزير المفروم. كانت هؤلاء الفتيات بنات عمال المناجم اللاتى يعملن لبضع أسابيع ثم يتجادلن مع أمى حول عمل لم ينجز أو شىء فُقِد. وقد تخلَّصنا منهم بسرعة واستأجرنا غيرهن. كان على هؤلاء البنات إيقاظى من السرير، وإطعامى وتدفئة اللبن وتقديمه مع البسكوت، ومسح وجهى بقطعة قماش منديّة، ووضع الملابس علىَّ. اعتادت واحدة من البنات قرصى بشدة ـ فكانت تحب أن تسمعنى أطلق صرخة عالية وحادة. وأخرى كانت ترفض مسح مؤخرتى بعد أن أفعلها للمرة الثانية. واعتادت فتاة كثيرة النمش حولاء العينين أن تصفعنى عندما أضحك وتقرصنى عندما أبكى. وكانت البنت ذات الثديين الكبيرين كما لو كانا وسادتين مسروقتين ترعبنى بقصصها عن الأولاد الصغيرة الذين يقطعهم والدى فى ملحق الجزارة الخاص به. لم أعرف أسماء هؤلاء البنات أبدًا. قالت لى أمى: **"هن بنات عمال المناجم لا غير."** كانت تناديهن كلهن بـ "يا بنت." وكانوا حمقاوات لدرجة أن ولا واحدة منهن لاحظت ذلك أبدًا.

بلغتُ السادسة من العمر عندما حبلت أمى مرة أخرى. قد تكون ابتعدتْ عن الانزعاج من الحمل بأن أرضعتنى رضاعة طبيعية حتى

بلغتُ العمر الكافي بأن أسألها: "**ماما، ألا يمكن أن أشرب اللبن فى كوب؟**"، أو قد كانت تشطف نفسها بخليط من الماء والخل، الذى كانت تحقنه بداخلها باستخدام كيس مطاطى ضاغط والذى كان يشبه ضرع البقرة. ولكن فى ذات يوم شعرتْ بالغثيان من رائحة لحم الخنزير وقالت بأن المرقة الهلامية تبدو لها كما لو كانت كالرغوة على بالوعة مسدودة.

سُرت الدّاية عندما خرجت من غرفة النوم الخلفية لتخبر والدى: "**رزقت بصبى، يا سيد بوكستن.**"

ورد والدى قائلاً فقط: "**فى وقت لعين.**"

وفى العام اللاحق أنجبتْ أمى صبيين آخرين ـ توءم.

زمجر والدى فى الدّاية بسبب هذه الخلفة قائلاً: "**توءم، اللعنة! سيقضيان على قوتى.**"

والآن هناك ثلاثة أولاد: بل، هارى، جيم. وعند بلوغى الثانية عشرة من عمرى كنت المساعدة الصغيرة لأمى ـ أعبئ لها الفطائر، أغرف لها الهلام، وكنت الشخص الذى تنهره أمى قائلة: "**أسرعى، سأحتاج لوضع طبقة الحشو العلوية على الفطير.**" وبعد الانتهاء من عمل الفطيرة أقوم بإيقاظ إخوتى الثلاثة من السرير. أمسح وجوههم بقطعة من القماش المبللة، أشربهم اللبن الدافئ، أنظف مؤخراتهم، أمشط لهم شعرهم بالماء، وأدهن جفلة الشعر التى ورثوها جميعهم من والدى واحدًا واحدًا. وبعد ذلك أغيّر الملاءة التى عادة ما يبللها جيم الصغير فى الليل، وأصفعهم هم الثلاثة على رؤوسهم تحسبًا. وفى إحدى المرات ذهبتُ لأوقظ جيم الصغير ووجدت سريره مبلولاً، ليس ببوله كالعادة لكن مبلول بعرقه.

لقد نالت أمى أمنيتها. فلقد أعلن الطبيب إصابته بحمى الروماتيزم. وتحول جيم الصغير إلى اللون القرمزى وشكا من آلام فى معصميه. صرخت أمى قائلة: **"لم أقصد كل هذا،"** حينما خرجت جثة أخى الصغير جيم من الغرفة فى صندوق خشبى.

دفن فى باحة الكنيسة، وبينما كفنه ينزل فى القبر صرخ هارى، توءمه، قائلاً: **"كوينى، لا نستطيع ترك جيم تحت هناك، المكان مظلم. وجيم لا يحب الظلام."**

فقلت له: **"لا تكن سخيفاً، لقد مات."**

أعطى الطبيب لوالدى ثلاث فواتير ثمن زياراته الثلاث وشهادة الوفاة. وعندما قرأها صفع والدى جبينه وقال وهو يئن: **"كلنا سنذهب إلى العيش فى ملجأ الفقراء بحلول عيد الميلاد."**

عرفتُ من اليوم الأول عند دخولى مدرسة بولسبروك الإعدادية بأنى سأكون بأى حال من الأحوال أحسن حالاً من أولاد عمَّال المناجم. فأولاد عمَّال المناجم لديهم مخاط يسيل من مناخيرهم، وسخام يلطخ وجوههم قد يحتاجون إلى أن ينقعوا فى دلو الماء طوال الليل لينزع من عليهم. أتى ريجينالد واتكنس إلى المدرسة وهو يرتدى حذاء نسائيًا برقبة محشوًا بالورق بدلاً من الجوارب. وكان هناك ولد آخر، يدعى ويلفرد ألكوك، قُتل والده فى حادث شنيع. كان أمرًا محزنًا بالفعل، أن يفقد والده وألا يتم العثور على جثته لعدة أيام. وانضممت مع كل الأطفال عندما ربتنا كلنا على ظهره لمواساته خلال وقت اللعب. ولكنى لم أستوعب كيف يحق له الظهور فى المدرسة كل يوم وهو يرتدى حذاء كرة القدم القديم الخاص بوالده الميت، ولسان الحذاء يخرج منه.

اعتاد، أطفال عمال المناجم هؤلاء، اللحاق بى فى فناء المدرسة، ليعرفوا إن كنت أحضرت معى إحدى فطائر أمى للغداء. وعندما أحضرها معى أظهرها لهم. أرفعها عاليًا فى الهواء وأطوف بها ـ الفطيرة البنية المقرمشة باللحم الوردى الهلامى. وبعد ذلك أقطمُ قطمة وألحس الفتات من على شفتى. "آووه، طعمها رائع،" أقول لهم. كنت أحب أن أراهم وهم يقلدون المضغ غير واعين لذلك، يقطمون بأسنانهم فى الهواء، وأنا آكلها. ثم يترجوننى لينالوا قطمة منى: **"هيا، يا كويني، أعطينا قطمة، هيا، إننا أصدقاؤك المفضلون."** وعندما رأيت أخى هارى الرقيق يتشارك فطيرته مع ويلفرد الذى يرتدى حذاء والده الميت ضربته على رأسه وقلت له ألا يفعل ذلك مرة أخرى. وقال هارى وهو يبكى بكاءً متقطعًا: **"لكنه كان جائعاً، ياكوينى، كان جائعاً."**

اسم المعلمة فى المدرسة هو آنسة إيرل. وكنا نسميها فقط من وراء ظهرها بإيرلى بيرد. كانت إيرلى بيرد تصفع الأولاد بسبب أعمالهم الرديئة وهيئتهم الرثة. كانت تضرب ظهر الكفوف بالمسطرة مرتين للسرحان. وتضرب ثلاث مرات من يفتح عينه أثناء أداء الصلاة. وترجهم لتلكئهم فى أداء الواجب أو عدم حفظ جدول الضرب. تخبط رؤوس من يتحدث منهم أثناء الدرس، وتتمادى فى استخدام الخيزرانة لتنال منهم الإجابات.

يوجد فى صفنا الدراسى صفوف منتظمة من الطاولات الداكنة الخشبية، وهناك مدفأة لتدفئة الفصل بالفحم الذى لطخ المدفأة وما أمامها بأشكال مختلفة من سخام البخار المبلل. استخدمتنى إيرلى بيرد لقضاء بعض المأموريات: فكنت البنت الوحيدة الطويلة فى الصف وبنت جزار. أحضر وأرجع سجل الغياب إلى مديرة

المدرسة بعد أن تُعلم إيرلى بيرد أمام الأسماء الحاضرة والصحيحة. وأوزع الأقلام، وأسنان الأقلام، وأملأ العبوات بالحبر الأزرق المائى. أقود صفوف التلاميذ فى وقت الطعام ووقت اللعب. وأشترى بكرات الصوف من محل القرية عندما تطلب منا إيرلى بيرد أن نحيك البطاطين والكوفيات للبعثات التبشيرية وللأطفال السود. وعندما تكون هناك رسالة يجب أن توجه إلى مديرة المدرسة، تلوح إيرلى بيرد بشدة بإصبعها مشيرة لى أن أتقدم إليها إلى الأمام. "**أنت راجحة العقل، يا كوينى بوكستن،**" قالت لى قبل أن تعطينى الرسالة مكتوبة فى ورقة مطوية. أحيانًا أمضى اليوم كله ركضًا ذهابًا وإيابًا لقضاء الحوائج لها ـ فاتنى شرح عمليات الحساب، والنقل من على السبورة، وشرح النحو، والإملاء، حتى وقت العقاب فاتنى.

"**ما فائدة إرسال البنت إلى المدرسة وهناك العديد من المهام التى يجب أن تنجز هنا؟**" وما إن مضت ثلاثة أسابيع عندما قال والدى لأمى هذا الكلام حت تركت مدرسة بولسبروك الإعدادية لأعمل فى مزرعتنا كالخادمة التى تنجز الأعمال المستنكرة المهينة ـ الخادمة التى تعمل لدوام كامل بالخارج والداخل وتحمل ثلاث حقائب. بلغتُ الرابعة عشرة من العمر وأصبح لى صدران كبيران يجعلان أخى هارى يصيح قائلاً: "**يا للعجب!**" عندما يراهما وأنا أستحم. أعرف كيف أقرأ وأكتب، وأجمع، وأطرح وأقسم، ولكن، وبكل أمانة، ليس أكثر من ذلك. وانتهى أى مرح ولعب كنت ألعبه فى مزرعتنا مع توكيل أبى وأمى لى بالمهام. ومازال أخواى يستطيعان اللعب والركض إلى السلخانة وترجى الجزار هناك أن يعطيهما خصى الخنازير. مازال بمقدورهما نفخها، وركلها مثل الكرة ومراقبتها وهى تتمرغ

فى التراب وتتدحرج فى الفناء. يستطيعان القفز فى الجوار فى سحب من الريش الأبيض الذى يتساقط عندما يُنتف ريش الإوز، أو الركض عبر الحقول عندما تُطارَد البهائم وتحاصر لتُجمع للذبح. ويستطيعان أيضًا تغمية أعينهم عندما تُشق الخنازير من عند الحلق بالطول، ويراوغان الديك الرومى حول الشجر قبل أن يخلد للنوم ويلحقا الرجل المسؤول عن جلد الحيوان ويقولا متهكمين: **"يا صاحب الذقن، يا صاحب الذقن، أنت خفيف العقل - الا تستطيع الالتحاق بالجيش؟"**

أما أنا فلم أعد طفلة بعد الآن. كنت الخادمة للدواجن فى مئزرة رثة ومنديل رأس بالٍ تحمل بيدها المسحة والدلو. وفى الوقت الذى تمشط وتموّج البنات الأخريات شعورهن ويتأملن سهام إله الحب فى المرآة أذهب بالمسحة والدلو إلى حظائر الدواجن. ترمقنى الدجاجات السمينات وهن يجلسن ينعقن وينقرن الأرض أو يدققن بمناقيرهن على ألواح الخشب. تجد الريش، ونشارة الخشب، والزبل. وأقوم أنا بمسح لوحة الفضلات لأتخلص من القشور السوداء والبيضاء المقززة التى تركتها الدواجن. التعليمات التى توجهت لى هى أن أفرك الألواح جيدًا حتى تنظف، وأرش عليها نشارة الخشب، وأغير الماء فى الحظائر. وفى الوقت الذى تقرأ فيه البنات قصص الحب ويحلمن بأن يظفرن بأفضل الشباب، أقوم أنا بجمع البيض - البيض الأبيض الكامل، اللذيذ، بيضاوى الشكل، أجلس أنا بين كل هذه القاذورات.

فرختُ البيض المخصب إلى صوص ناعم ورخو أصفر اللون. وكان كل الصوص يرتعش ويتجه بفضول إلى ضوء المحضنة، ثم راح يتعثر مترنحًا كالسكارى بخطواته المفلطحة الأولى. وأقوم بفصل

تلك الطيور الصغيرة ذات المنقار: أضع الديوك الطويلة النحيفة الرخوة جانبًا لتسمينها لأعياد الميلاد، وأما الإناث فأكبّرها لتجلس على البيض، ثم تُعاد الكَرَّة من جديد. كنت أفرح فى السنة التى تصاب فيها بمرض الطيور. فالأمر وقتها يكون مختلفًا. أقوم بجمع الطيور الميتة الهزيلة ذات الأعين المنتفخة العمياء، وأضعها فى عربة النقل التى تدفع باليد وأذهب بها إلى القدر الكبيرة لحرقها. وبالرغم من أننى أحيانًا أستيقظ فى الصباح لأجد عينى وقد ألصقت بإحكام بالمِدَّة ولا يوجد أى أحد يأخذنى إلى المطبخ حتى أتمكن من غسل عينى وفتحها فى الماء الدافئ، إلا أنه مازال هناك على الأقل رغم موت أغلب الطيور - القليل من البيض لأجمعه والقليل من الصوص لأفصل بينه.

كان ينصحنى أبى كل صباح قائلاً: "**انتبهى من عمال المناجم، ياكويني.**"

كان يأتى عمال المناجم إلى بوابة المزرعة، ويشترون نصف دستة من البيض ثم يقومون بتفريخها. لم يدفعوا الثمن الزيادة المطلوب للبيض المخصب. فالبيض الذى يؤكل أرخص من البيض الذى سيفرخ. أستطيع أن أعرف ذلك من طريقة حملهم للبيض. يتم إرسال الأولاد الصغار لشراء البيض الذى سيؤكل. أما الرجال والنساء البالغون فيأتون عند البوابة، حاملين أكياسًا من البطانية الدافئة لسرقة لقمة عيش آل بوكستن. كانوا يفرخون البيض الذى يؤكل، ثم يحتفظون بالدجاج الخاص بهم، ويجمعون بيضه فى أفنية بيوتهم، ومن ثمَّ يمتنعون عن المجىء إلى بوابة مزرعتنا. لكن سرعان ما وضع أبى نهاية لهذه السرقة. وأضاف مهمة أخرى إلى قائمة مهامى: وهى وخز البيض الطازج بإبرة الخياطة. "**دعيهم يحاولون تفريخ هذا البيض،**" قال لى.

وبالرغم من أن عمال المناجم كانت تسرق البيض، إلا أن والدى مازال يعطيهم اللحم تحت الحساب. البعض منهم زادت فواتيره لدرجة أنهم لن يتمكنوا من تسديدها. وعندما تأتى الأيام العسرة والضيق، قد يقف عند بابنا بعض الأطفال، كالذين كانوا معى فى المدرسة، ليسألونى بعض فتات الطعام. أطفالٌ نحيلة، وسخة، أعينها غائرة وبشرتها رمادية مثل سماء شهر فبراير، تشحذ أى شىء لتأكله. كنت أحيانًا أطاردهم ليبتعدوا. كنت أقول لهم: "**اذهبوا، انصرفوا من هنا.**" وينظرون إلى نفس النظرة المُشفقة عندما كنت أبتلع فطيرة أمى فى فناء مدرستنا.

قالت لى أمى: "**إنهم جائعون، يا كوينى، إنهم جائعون،**" قبل أن تجد مهمة سقيمة أخرى من مهام المزرعة توكلها لخادمتها التى تعمل بالأعمال الشاقة المملة. علىَّ تحضير الشوربة. كنت أغلى العظام والخضراوات على النار التى عليها إناء النحاس لأكل الخنازير. كنت أعد الحساء للرجال العاطلين الذين يجرون أقدامهم وهم يمشون إلى بابنا يرتدون قمصانًا وسخة بدون ياقات. يرتعشون من البرد، ويقفزون على أقدامهم فى الفناء من شدة البرد، وينفخون بنفسهم الدافئ ليدفئوا أيديهم. أو يقفون منتظرين مطأطئى الرؤوس لا يتفوهون بأى كلمة. أكل واحد من الرجال أمامى، ساكبًا الحساء المدهن الهلامى على ذقنه. وقالت النساء اللاتى جئن: "**بارك الله فيك، يا بنت، وبارك فى أمك وأبيك.**" لكن فى أغلب الأوقات كان الأطفال هم من يتم إرسالهم. أطفالٌ صغيرة تحمل الأكواب والأكواب الفخار والدوارق بحذر على الممر الحجرى. وعندما جاء ويلفرد، الذى كان يلبس حذاء أبيه ذا الرقبة العالية، ناولنى دورقه مبتسمًا ابتسامة بلهاء، فأظهر لى أسنانًا تعلوها

الصفرة والقلح التى نبتت فى كل اتجاه ماعدا إلى أسفل. "**خسنًا، يا كوينى؟**" قال لى. ثم بعد ذلك كان له الجرأة لسؤالى إذا كنت أريد الخروج للتمشية معه. مستحيل. فأى شاب سيخرج معى يجب أن يتودد لى وهو مرتد قميصًا بياقة ورابطة عنق، ونظيف ولديه وظيفة يكسب منها.

كان ينبغى علىَّ الخروج للرقص، وأن أمزح وأمرح مع الرجال الذين سرحوا شعرهم مثل كلارك جابل ويهمسون فى أذنى بأننى بجمال وردة إنجليزية. ويجب أن تُلف قدماى فى جوارب من الحرير، ويجب أن توضع فى حذاء له مقدمة وكعب عالٍ وأنا أركب السيارة. ويجب أن تفوح منى رائحة عطر زنبق الوادى، وشعرى يهفهف، وأضع بودرة التجميل ليكمل جمالى. ينبغى علىَّ أن أكون (ليدى). لكنى عُلقتُ فى مزرعة مقرفة. وسخة. وسخة. كل يوم يمر فيها هو مثل سابقه. إلى أن جاء يوم قالت لى أمى: "**كوينى، اذهبى وأتى بأبيك من حظيرة الجزارة.**"

"**كلا،**" قلت لأمى. "**ابعثى أحد الأولاد.**" فأنا لم أذهب أبدًا إلى الحظيرة التى يقوم أبى فيها بالذبح. فالحظيرة بالنسبة لى هى أصوات ضجيج سن السكاكين، والتقطيع إلى شرائح، والفرم، وإراقة الدماء، ونعير الأدوات التى تصدح عاليًا فى الهواء. لم أذهب من وقت ما أبكتنى الخادمة ذات الصدر الكبير من الحكايات عن الأولاد الصغار الذين يقطّعون إربًا ويتحولون إلى عجينة وردية اللون. كنت أقفل عينى جيدًا وأصم أذنى عندما أكون بجوار المكان الذى يدخل إليه أبى والأولاد السخفاء نظيفين ثم يخرجون جميعهم ملطخين بالدماء. وعلى أية حال، إنه ليس المكان المناسب لـ (ليدى).

لكن أمي أجبرتني على الذهاب. "**ولا تغلقى عينيك ولا تسدى أذنيك**،" قالت، "**انت كبيرة بما يكفى لتعرفى ماذا يحدث هناك. تذكرى انت من آل بوكستن.**"

أستطيع أن أسمع أصوات الضجيج قبل أن أشم الرائحة الحادة للّحم والدم التى مثل رائحة الخل. وعندما فتحتُ عينى كنت أنظر إلى ظهر أبى ـ عريضًا وقويًا مثل الدولاب. ووقف جانبه ولد صغير ـ لكنه لم يكن أى ولد صغير، إنه أخى هارى. كلاهما ارتدى حذاء برقبة، لطخ بالدماء، يقفان فى وحلٍ لزج من الطين المخلوط بالدماء المسفوكة. وعلى لوحة خشبية عريضة تدلت رأس بهيمة، فمها مفتوح، وحيدة منبوذة. وعلى بعد خطوات، كانت جثة البهيمة المسلوخة الحمراء وقد مُزقتْ وقُدَّت إلى كتل من الدهن الأصفر والتى طُرحت أرضًا. وتكدست شظايا من العظام البيضاء المزرقة، قبيحة، فى أكوام مريعة. وهناك، رفع أبى سكينًا مثل الخنجر. كان سيسحق هارى. سيرشق السكين فى رأسه ويشقه نصفين. صرخت. التفت أبى فجأة وكاد يشق يده. لولا أن الشريط الجلد حماها ـ منع الشريط السكين من أن يصيب الجلد والعظم. وكلاهما حدقا النظر بى: أبى يقول شيئًا غاضبًا، وبرَّق أخى ببصره إلىّ. وعندها تقيأت على حذائى. وآخر شىء أتذكره هو جرى والدى ناحيتى والسكين مازال بيده.

"**كوين بى**،" هذا هو الاسم الذى بدأ ينادينى به والدى. أصبح يحب أن يخبر الجميع عن اليوم الذى أغمى فيه على كوين بى فى حظيرة الجزارة عند رؤية الدم. "**بنت رهيفة**،" قال والدى لأمى. "**كيف ربيت بنتًا بهذه الرقة؟**"

بعد هذا الحادث تحولتُ إلى نباتية. "**أصبحتْ ماذا؟**" استشاط أبى غضبًا على مائدة الطعام وقال: "**الفاشلة أصبحت ماذا؟**" من

سمع عن هذا من قبل؟ بنت جزار لن تأكل اللحم. فقط رأس اللفت الحقير. فعلوا معى كل ما فى وسعهم لألتهم بعضًا من لحم الخنزير المقدد، أو أن أبلع صدور الدجاج. "**هيا انزعى عظمة الشعباء للحظ، يا كوينى؟**" لكنى لم أقدر. ولم أشته حتى فطيرة الخنزير عندما يرفعها بيلى عاليًا فى الهواء ـ الفطيرة المقرمشة البنية، واللحم الوردى الهلامى.

زمجر أبى تقريبًا عند كل وليمة قائلاً: "**لحمنا ليس لذيذًا بما يكفى لتأكله كوين بى.**" حتى إنه كان يدق بقبضة يده دقًا عنيفًا على المائدة، قاذفًا بصحنه عرض الحائط. وضربنى ضربًا مبرحًا على رأسى فى اليوم الذى حمصتُ فيه لب ثمرة التفاح على النار. فصاح قائلاً: "**هناك ماشية بالخارج تحتاج أن تُطعم**" ونثر اللب المحروق إلى نار المدفئة مرة أخرى.

وأُقسم أنى سمعت ملاكًا يغنى لحنًا سماويًا عندما نظرتُ إليه وقلت له: "**أنا لستُ أهتم بذلك أبدًا.**"

لم يمض وقت طويل حتى قلت بصوت عالٍ لأبى الذى غلبتْ عليه الدهشة فتبكم بأن خالتى دوروثى قادمة لزيارتنا. إنها أخت أمى الرائعة المنظر التى ستأتى من لندن لزيارتنا، والتى تخرج نفسًا قويًا عند نطق حروف الهاء (h) حتى إذا لم يكن هناك حروف هاء من الأصل لتُلفظ. أتتْ، قالت، وهى تهمس وتغمز لى، لتأخذنى بعيدًا من هنا لتجعل منى الأفضل.

الفصل الرابع والعشرون

كوينى

من المستبعد ظهور ظاهرة الأعاصير أبدًا فى هيرفورشير، هرتفوردشير وهامبشير. قد قالت مُدرسة أصول النطق إن المشكلة تكمن فى أن فمى يتحرك بسرعة فلا يُمط ليرسم ابتسامة أثناء الحديث. **"لن تدخلى المجتمع الراقى إذا استمررت بهذه الطريقة، يا آنسة بوكستن."** توليب، دانديليون، بتَّرْكب ـ أخطئ فى نطقها جميعًا. ولم يكن نطق بوتل، كب، سوسّر(*) أفضل حالاً. كانت مخارج الألفاظ عندى ضعيفة وتحتاج إلى تحسين، والسيدة واترفال كانت السيدة التى ستتولى هذا الأمر.

"لن تضلى الطريق أبداً وأنت معها،" قالت لى خالتى دوروثى. **"سوف تبذل أقصى جهدها فى إعطائك دروسًا فى تحسين هيئة جسمك وطريقة المشى إذا رأت أنك تستحقين ذلك."** الرأس عاليًا،

(*) فى الأصل: tulip زهرة التيوليب، dandelion زهرة الهندبا البرية، buttercup زهرة ربعية. Bottle زجاجة، cup كوب، saucer صحن الفنجان. (المترجمة).

الأكتاف مستقيمة للخلف ـ أمشى فى خطوات ثابتة مرتدية حذاء بكعب عالٍ له مقدمة. كانت طريقة مشيتى غير لائقة منذ كنت طفلة صغيرة. وما كادت توضح لى كيف أضبط مشيتى حتى بدأتُ أتعثر فى خطواتى عبر الغرفة مثل شخص كسيح.

سألتُ خالتى دوروثى: "**كيف لكلمة باث أن تنطق بارث، ولكن بالتأكيد كلمة فات ليست فارت**[1] **فى المجتمع الراقى؟**"

ضحكتْ إلا أنها قالت لى محذرة: "**فقط نفذى ما تقوله لك، وستخرج ألفاظك سليمة.**"

"**وكذلك كلمة بانك وليست بارنك ومانسفيلد وليست مارنسفيلد**"[2]

"**آوه، حبيبتى كوينى، فقط اتبعى الأوامر. وستراك وأنت تتزوجين أميراً.**"

تسببتُ فى بكاء آنسة واترفيلد عندما تمكنتُ من إطفاء الشمعة بأنفاسى وأنا ألفظ كلمة "وات."[3] قالت لى وقتها: "**الأمل.**" وأضافت: "**يا آنسة بوكستن، على الأقل هناك سبب للتفاؤل.**"

أقسمتْ لى خالتى دوروثى بأن القطمة الصغيرة من الكريمة المثلجة بنكهة جوزالهند الوردية طعمها مختلف عن البيضاء ـ فهى تعرف كل شىء عن رفاهية الحياة. قدمتْ الكريمة المثلجة بنكهة جوزالهند فى صحن صينى، وقطعتها إلى قطع مربعة دقيقة، ثم

(١) فى الأصل: bath استحمام أو حمّام، fat دهن أو سمين. (المترجمة).

(٢) فى الأصل: bank المصرف أو شط النهر، Mansfield اسم مكان فى بريطانيا. (المترجمة).

(٣) فى الأصل: What أداة استفهام "ماذا". (المترجمة).

أكلتها بالشوكة. جلست رافعة قدميها على كرسى أسمته المتكأ الفرنسى، ومعها كلبها الصغير برودنس ـ وزينت شعره بتصفيفات وكأنها سياج أنيق ـ وبرقة وضعتْ قطعة صغيرة من الكريمة المثلجة وراء قطعة صغيرة داخل فمها البيضاوى بينما جلستُ أراقبها.

لقد ورثتْ محل الحلوى عن زوجها الأخير مونتجومرى عندما لقى حتفه فى الحرب العظمى. لم يمت فى الميدان ـ كان يركض وراء الترام ليركبه للعودة إلى الثكنات. ومازالت خالتى دوروثى غاضبة من اختفاء نصف رطل من حلوى الطوفى المسكر بطريقة غامضة من جيوبه أثناء نقل جثته إلى المستشفى. "**من يجرؤ أن يفعل شيئًا مثل هذا، يا كوينى؟ هل تصدقين ذلك؟ نحن نعيش وسط همج.**" قالت.

أدارتْ شؤون المحل بمفردها لعدة سنوات. "**مع وجود برودنس، يا كوينى. هذا الكلب جعل كل الزبائن تلتزم بالوقوف بانتظام أمامى. أليس كذلك، يا كلبى الصغير؟**" لكن أن تنهض من على الأريكة الفرنسية لولدٍ صغير بعينين كسولتين وشعرٍ يطير مثل أسلاك الحديد، يريد علكة ثمنها نصف قرش فقط، فهذا ما يجعل الخالة دوروثى تفقد صبرها. "**لا تسيئى فهمى، يا كوينى، هذا المحل يضرب خبز فطيرة الخنزير يوميًا، مثلما تفعله أختى، ضربًا فلا يعرف لها شكل. لكن هذا لم يكن ما يريده موتنجومرى لى. فلقد كنت دوقته.**" وحيث إنها لم ترزق بأى أطفال، فورثت أنا هذا المكان.

فى المدينة الكبيرة، أرادت الخالة دوروثى أن تبدأ مناداتى بفيكتوريا ـ فله رونق وأناقة أكثر كاسم. كان لى غرفة نوم خاصة بى وحدى، ودولاب خاص بى وحدى، وطاولة للزينة بثلاث مرايا. إذا

ثنيت الثلاث مرايا بزاوية قائمة فستظهر المئات والمئات من كويني، وجميعهن يضحكن معجبات بأنفسهن لما لقينه من الحظ الوفير. لكن ليس هناك أى فيكتوريا تلوح لى من بين هذا الزحام. **"لا تقلقى، يا حبيبتى، كلنا نتمسك بكوينى ـ فهو يؤدى الغرض إلى أن تصبحى من علية القوم."** أرخت الخالة دوروثى المشد من تحت ثيابها فى اليوم الذى وصلتُ فيه إلى لندن للعيش معها. وقالت لى وهى تحضنى بقوة: **"آوه، يا كوينى، سأجعل منك فتاة رائعة."**

كانت دروس أصول النطق وتحسين القوام والمشى مرتين فى الأسبوع ـ وكان ظهر كل يوم سبت مخصصًا لشراء الملابس الجديدة من بورنى وهولينجزورث وسيلف ـ ريدجز. كانت تذهب الخالة دوروثى معى فى بادئ الأمر إلى شارع أكسفورد، تضطجع على كرسى المحل مخبرة البائعات اللاتى يساعدننا كيف أنا أشبهها من بين أفراد العائلة، وكلهن كنَّ لطفاء بصورة غير عادية. ولكن ما إن بدأت البائعات فى البحث برؤوسهن عن المقاس المناسب لى ـ يحررن الأزرار، يفككن الخياطة عند أعلى الثوب ـ حتى امتنعت عن المجىء معى. وبدأت بوضع المال فى يدى عوضًا عن ذلك، كانت فقط تتضجر من أن تنهض من على الكرسى الفرنسى لتعلق لوحة الإغلاق أو أن تكيل المزيد من الكريمة المثلجة بنكهة جوزالهند.

اشتغلتُ بالمحل، فكنت أستيقظ بسبب برودنس وهو يزوم محاولاً إخافة الرجل الذى يوزع الجرائد بزمجرةٍ مخيفةٍ وكأن رجلاً عجوزًا يتنحنح. الرجال تنطلق فى طريقها إلى العمل، ملقية بنظرها على حامل الصحف الخاص بالمحل، حيث رُتِّبت بنظام حتى تظهر جميع العناوين بوضوح ـ قبل أن يختاروا أى حدث مروع قد وقع فى هذا اليوم والذى يريدون قراءته. وبعد ذلك الأولاد الصغار هم الذين

يأتون للمحل أغلب الوقت، معهم اثنتان أو ثلاث من العملة النحاسية التى أعرقت راحة كفوفهم فتوسخت باللون الأخضر، يريدون بعضًا من حلوى العرقسوس أو ربعًا من حلوى النعناع التى شُرِطت بالألوان. وعندما أحضرتُ عبوات الحلوى ووضعتُ الحلوى المفضلة لديهم فى الكيس، كانت تتبعنى أعينهم التى، فى تلك اللحظة، أحبتنى أكثر من أمهاتهم.

لاحظته أنا من أول وهلة لأنه اختار جريدة الميل، لكن بعد ذلك سحب التايمز. فسألته: **"هل هى صحيفة التايمز التى تريدها؟"** فنظر حوله كما لو كنت قد هبطتُ عليه من السماء واحمر خجلاً وصار بلون لحم الخنزير المقدد.

"هل أخرجت الكلمة من مخارجها الصحيحة، يا كوينى؟" سألتنى الخالة كوينى. **"فقط، الرجال يحبون أن يتحدثوا عن جريدة التايمز بطريقة مناسبة."**

كنت مستعدة له فى المرة التالية. وبأفضل نفسٍ أخرجته والذى قد يجعل السيدة واترفال تشعر بالفخر قلتُ: **"لدينا التايمز، إذا كان هذا ما تبحث عنه؟"**

غصّ بصوت عالٍ تمامًا وكأنه صوت حجر يسقط فى قعر بئر قبل أن يقول: **"شكرًا لك، سآخذ التايمز."**

سألتنى: **"كيف يبدو؟"** أرادت الخالة دوروثى أن تعرف. قلتُ: **"طويل، ونحيل، وليس قبيحًا."**

وفى المرة التالية جلست تترقب قدومه.

رفع قبعته تحية لى وهو منصرف، وقال: **"ياله من يوم جميل."**

وكان هذا كافيًا للخالة دوروثى لتقتنع بـ "إنه مهتمٌ بكِ، يا كوينى. عرفت ذلك من احمراره خجلاً فور قوله ذلك."

الكثير من الرجال تأتى إلى المحل وتحاول أن توردنى خجلاً. "الست انا جميلاً جداً لك؟" العديد منهم يحاول الضحك معى. يرسلون لى القبل والغمزات. وينادوننى بـ يا حبيبة القلب، أو يا حلوتى الصغيرة. وأبدوا استعدادًا بأنه كم سيكون لطيفًا أن أذهب معهم إلى دار الأفلام. وكل ما فعلته الخالة دوروثى هو أن هزت رأسها لهذا التودد بحسن الكلام. "يا لهم من وقحين،" أخبرتنى قائلة: "هم سكان الأحياء الفقيرة فى لندن. لا دخل لك انت بهؤلاء الفقراء، فكلهم مثل طبق سمك الثعبان الهلامى والركبة المكعبرة. كلا، أما هذا فهو رجل محترم. فليس هناك من هو عالة على المجتمع أو لا يحسن التصرف تجديه يقرا التايمز ابداً."

وبدأ يأتى مرتين فى اليوم. قبل ميعاد كل زيارة من زياراته ـ جريدة التايمز فى الصباح وربع جنيه لشراء هذا أو ذاك عند الساعة الخامسة والربع ـ ترفع الخالة دوروثى كرسيها بما يكفى لكى ترانى مرتدية ملابس لائقة. "ما رأيك فى السترة من الصوف المحبوك الأصفر، يا حبيبتى كوينى؟ تبدين كالملاك فيه." وتفحصتْ وجهى إذا ما كان قد توسخ بحبر ورق الجرائد، مخرجةً منديل قماش تبلله من ريقها لتمسح جبينى أو جزءًا من ذقنى. قد تعتقد بأنى سأعتلى خشبة المسرح من الطريقة التى غمزت بها لى وهى تفتح باب الغرفة الخلفية التى تطل على المحل.

"صباح الخير،" قال.

"التايمز؟" قلت.

قال: "نعم شكراً. إنه يومٌ جميلٌ." أو قد ينوّع فى كلماته ويقول مثلا: "مغيم بعض الشيء" أو "ياله من طقس قاس فى هذا الوقت

من السنة." وأنا قد أوافقه الرأى، بغض النظر عن صحة نشرته عن الطقس. وكان معطفه دائمًا مربوطًا، فقد زُرِّر كل زر، وشُدَّ الحزام. وياقة قميصه كانت دائمًا ناصعة البياض. وعندما يرفع قبعته للتحية القصيرة، كان شعره يلمع تمامًا مثل العرقسوس. رأتْ الخالة دوروثى فيه أنه أقرب إلى أمير قد رأته منذ اليوم الذى تعرف عليها زوجها الأخير مونتجومرى متيمًا جاثمًا على ركبته.

"هل سألك بعد؟" سألتنى مازحةً، كصديقة حميمة فى المدرسة.

"يسألنى عن ماذا؟"

"سوف تعرفين قريبًا." وعرفتُ بالفعل.

كان الصبى الصغير، سيدنى، يلعب بدمى صفيح على شكل جنود على منضدة المحل. كل العساكر تم إعدامهم بفرقة سيدنى الخاصة، التى كانت عبارة عن إصبعين مستقيمتين، ونظرة شزر من عينه وضجيج كأنه طلقات نار. وكانت مهمتى هى نتر الجنود الميتة بإصبعى لينقلبوا.

"لم أطلق النار عليه، لقد قتلت الجندى الغلط."

وفى اللحظة التى كنت أسأل سيدنى عما إذا كانت أمه قد تريده أن يرجع إلى المنزل لتناول الشاى دخل الرجل. لم يكن الصباح ولم تكن الساعة الخامسة والربع، ولم يرتد معطفه الجبردين. وسيدنى يعيد رصف ضحاياه مجددًا.

"حان الوقت لأن تذهب إلى البيت الآن، يا سيدنى. بمقدورك القدوم غداً."

"أنا لم أنته بعد."

زحتُ دمى الجنود اللعينة فى كيس، وقذفت بقطع من حلوى اليانسون فيه وقلتُ: **"اذهب، هيا انصرف."**

وبعد أن أغلق سيدنى المستاء الباب خطا الرجل خطوة للأمام.

"أتساءل إذا كنت تحبين الخروج للتمشية معى غداً فى الظهيرة، فى المنتزه ـ لقد أُكد لى بأنه سيكون يوماً جميلاً." قالها هكذا مباشرةً كأنه تدرب عليها وعليه أن يقولها بسرعة وإلا قد يعقد لسانه. فُغر فمى من الدهشة ولهذا لم أكن أنا من أجابه بالموافقة، بل صدعت الإجابة من الغرفة الخلفية بواسطة الخالة دوروثى.

"جميل، سأتصل بكِ فى الواحدة." ثم تأهب للانصراف لكن قال: **"آسف، لكن أعتقد أننا لم نتعرف على بعض. اسمى برنارد بلاى."**

قلتُ: **"وأنا اسمى..."** وابتسم لأول مرة على الإطلاق عندما قاطعنى فى الكلام قائلاً: **"كوينى ـ نعم أعرف."**

خرجنا معًا قرابة الأربعة أشهر ـ فى عشية الخميس، وفى مساء السبت، وهناك تمشية يوم الأحد إذا كان الطقس لطيفًا ـ عندها بدأت أكره شكل رقبته من الخلف. كانت هزيلة يبرز منها العظم، بدت أكثر شبهًا لكعب القدم ومع أذنيه كانت تشبه تمامًا الركبة المكعبرة. وهناك عرق فى صدغه يتلوى هنا وهناك مثل دودة تحت جلده عندما كان يأكل ـ أوقفنى ذلك لبعض الوقت عن أكل شطيرتى، التى غالبًا كنا نأخذها لنأكلها فى المنتزه، بجوار النافورة أو تحت شجرة. كانت له طريقة مميزة فى شدٍّ وبرم وجهه كما لو كان يريد إزالة شعرة تدغدغه فى أنفه. فعل هذا لأول مرة أمام الخالة دوروثى. وكان علىَّ أن أسألها: **"هل هذا طبيعى؟"**

وكان كل ما قالته لى: **"لا أرى شيئًا، يا حبيبتى."**

لا أدرى كيف فاتها ذلك ـ فذلك الأمر يجعله يبدو مريبًا. بالإضافة إلى أنه يرتبك ويتردد بخصوص تقديم الفكة من النقود. عندما كان يدفع لإبريق من الشاى وقطعتين من كيكة سيمينل فى محل ليونز، دقق النظر فى العملات النحاسية، وضعها فى صف على الطاولة، ثم أرجع العملة التى عدها فى يده. ثم فعل ذلك مرة ثانية ليتأكد، وكل هذا والنادلة تقف تنظر إليه وكأنه شخص مختل عقليًا. وفعل ذلك أيضًا عند دار الأفلام، عطَّل الجميع عندما كان يبحث ويفتش فى جيوب بنطلونه، وينتره لكى يسمع صوت خبط الفكة ببعضها، ثم يعدّ أنصاف القروش والثلاثة قروش. واشتكى رجلٌ فى الطابور بأنه هو وزوجته قد يفوتهما موسيقى المقدمة.

لكن الخالة دوروثى قالت بأنه رجل محترم. وأمضت معظم أمسياتنا تشرح لى لماذا. هل يفتح لك الأبواب أم لا؟ فقط الرجل المحترم الذى يفعل ذلك. يأخذ الناحية الخارجية المقابلة للشارع وهو يسير معك. أخبرتنى الخالة دوروثى قائلة: **"فلا يصلك أى بلل تحدثها العربة التى يجرها الحصان."**

فسألتها: **خالتى دوروثى، منذ متى وأصابك البلل من العربة التى يجرها الحصان؟"**

"حسنًا، سيارة، أو الترام، لا تكونى سخيفة."

كان يقف إذا وقفت ولا يجلس إلا إذا جلست. وكان كل الذى يفعله هو المصافحة عندما نودع بعضنا بعض. وعندما استجمع شجاعته ليقبلنى، حزم شفتيه بعضهما إلى بعض وكانت القبلة مثل تقبيل منقار دجاجة.

"لا يتحدث كثيراً، يا خالتى."

"هذا جيد ـ أنت لا تريدين شخصاً ثرثاراً."

لكن، عجبًا، فهو يعيش فى إيرلز كورت مع والده، ويعمل كاتبًا مصرفيًا فى مصرف للويدز ويحب الهواء المنعش. بالتأكيد بعد مرور أربعة أشهر هناك الكثير من الأمور تخصه أكثر من ذلك؟

كان يتحدث مع الخالة دوروثى أكثر من حديثه معى. وفى أول مرة أتى لتناول الشاى جلستْ مستقيمة الظهر على أريكتها، ولبستْ المشدّ تحت ثيابها مرة أخرى لكنه لم يغير الكثير من شكلها، وتعليلاً بالآمال والتمنيات تزينت فوضعت أحمر الشفاة الذى رُسم خارج حدود فمها، وكانت بوصة من جذور شعرها الرمادية الصغيرة تعطى الانطباع بأن بقية شعرها، الذى قد صبغ أسود، تحوم، تنتظر الهبوط. جلس ثلاثتنا يستمع إلى الكلب يلحس أعضاءه الخاصة حينما هب برنارد ليخبر خالتى بصوت عالٍ عن كيف غيّر جده الأكبر اسم العائلة من بلايت إلى بلاى؛ أملاً فى تحويل استمرار سوء حظهم.

"وهل نفع ذلك؟" سألته خالتى. فضحك من أعماق قلبه. وجلست أنا فقط فاغرة الفم. لم يقل أبدًا أى شىء أثار ولو القليل من اهتمامى. "هل تعتقد بأن الحرب ستندلع؟" سألته خالتى.

وتحدث بطريقة جيدة لمدة عشر دقائق فى كيف، لسوء الحظ، يعتقد هو بأنها لا محال من اندلاعها. وأنا مع برنارد وحدى لا أسمع إطلاقًا صوتى السخيف، لا يكون له أى معنى إلا عندما تصطك أسنانى من البرودة، لقد كان الصمت صوته عالٍ بالنسبة لى.

"إنه خجول وهو معك، يا حبيبتى، وهذا هو ما ينبغى عليه أن يكون." أكدت لى خالتى. "أنت محظوظة، يا كوينى، هذا الرجل كحجر الأساس ـ ستكونين فى أمان وسكينة معه."

فلهذا سألتها: "هل تعتقدين أننا بهذه الطريقة نتودد لبعضنا؟".

"بالطبع أنتما تتوددان لبعض."

"هل هذا هو التودد؟"

ثم قالت: "حسنًا، ماذا كنت تعتقدين ان يكون؟"

لقد رأيت الفتيات اللاتى كن يتغازلن. كن ينظرن للعالم بشاعرية، وتسبح أقدامهن فلا تلمس الأرض. يقطعن أوراق زهور الأقحوان طوال اليوم، وبتنهيدة يقلن: "يحبنى، لا يحبنى، يحبنى." وعندما يرقصن فأصدقاؤهن من الشباب يضمونهن بشدة لدرجة لا يستطيع أحد تمرير ورقة بينهما. وعندما يقبلونهن كن يضممن أقدامهن ويعقفنها من شدة فرحهن، فالسرور جعل للقبلة طعم الرحيق. تؤمن الفتيات اللاتى يتغازلن بأن أصدقاءهن من الشباب هم من صنع يد الله نفسه.

حركتُ مرآة طاولة الزينة لأرى فيها ما رأى كوينى الأخريات فى مغازلة برنارد. لم أجد الشىء الكثير. كن كلهن مكتئبات ومنقبضات الصدر لما يحدث.

"برنارد، لقد استمتعت فى رحلتنا الصغيرة هذه، لكن انا أعتقد انه ينبغى علينا عدم رؤية بعضنا البعض مرة أخرى." قلت ذلك ونحن جالسان على مقعد المنتزه، عندما بدأت تمطر رذاذًا أخذ يتساقط على معطفه. وكالطفل الذى لطم ولكن لم يستشعر ألم اللطمة بعد، إلا أنه حدث ذلك ببطء. تحول وجهه من الوضوح

كوضوح النهار، إلى ظهور علامات التساؤل، ثم هاج من شدة الألم. لم أعتقد أبدًا بأن برنارد قد يكون بهذه الحساسية ولكن هذا ما كان. فقد كان ذلك واضحًا، الشفاه المرتعشة، والعيون المغرورقة بالدموع. كان على وشك البكاء. كان أكثر شىء مثير صدر منه على الإطلاق.

قال: **"كلا، يا كوينى، أرجوك لا تقولى هذا. لقد تعلقت بك بشدة. إن تمشيتنا معًا تعنى لى الكثير."**

قلت: **"لم أكن أعرف بأنك ستغضب لهذا الحد."** اعتقدت أن النساء هن فقط من تغلبهن المشاعر ـ والرجال واقعيون جدًا لا يعبئون بتلك السخافات.

"نعم، يا كوينى، أنا متيم بك. أعرف أنى أكبرك فى السن وربما لا أكون الشخص الذى تحبين. ولكن خلال تلك الشهور الماضية.." توقف عن الكلام، ولف برأسه لى، وها هى من جديد، شكل رقبته من الخلف.

"إنه فقط، يا برنارد.." بدأتُ الحديث، إلا أنه برم نفسه بسرعة ناحيتى، وأمسك يدىَّ بشدة.

"أرجوك، أرجوك لا تقولى المزيد. فقط أعطينى فرصة أخرى. أرجوك، أرجوك، يا كوينى.." حينها كان يبكى، نزلت دمعة واحدة ولكن كان يبكى بحرقة عندما قال: **"كنت آمل أن أحاول إقناعك بأنه علينا الزواج."**

آووه، يا خبر أسود، فكرت مع نفسى، وهو الأمر الذى لا ينبغى أن تفكرى فيه عندما يتقدم صديقك المقرب فى طلب الزواج.

"**طيب، لا تهتم بذلك. ثم سأراك يوم الخميس القادم، يا برنارد.**" هذا ما قلته له. وعلى هذا الحال تُرك الأمر.

ذهبنا لنزهة على طول النهر متجهين إلى بيج بن. لم يكن الوقت متأخرًا عندما وصلنا أنا وبرنارد إلى محل الحلوى. لم أستطع فتح الباب. اعتقدتُ أنه فقط متيبس ـ وكنا قد بُللنا من المطر. انفسخ الباب فسخًا صغيرًا ولم يتزحزح بعد ذلك. هناك شيء وراء الباب. ودفع برنارد الباب بكتفه بهمّة ونشاط بينما ناديت بصوت عالٍ على خالتى دوروثى. وكنت على وشك أن أصيح لأناديها مرة أخرى عندما قال برنارد: "**إنها ملقاة على الأرض وراء الباب.**"

وقمت بمداعبته قائلة: "**يا لها من موسيقى**[*] **أنت شاعر، يا برنارد،**" قبل أن ألاحظ تمامًا ماذا يعنى.

كانت ملقاةً على الأرض وهى تضم بشدة على لوحة الإغلاق إلى صدرها. شاحبة من شدة الأسى على عكس آمالها وأمنياتها التى رسمتها على شفتيها بأحمر الشفاه. وملقاة فى عرض الطريق مثل جذع شجرة ساقط فى عرض الشارع. فكرت فى أنه إذا استطعت فقط من وضعها فى وضعيتها الصحيحة على كرسيها فستكون على ما يرام.

"**خالتى، انهضى**" قلت، وجثا برنارد على ركبتيه بجانبها ليستشعر نبضات قلبها واضعًا خدوده بجوار أنفها.

سألته: "**ماذا تفعل؟**" لكنه لم يجبْ. فى تلك اللحظة لمحت قدمى الكلب برودنس الخلفية مصففة الشعر تخرج من تحتها مثل عظمة

(*) فى الأصل: "She is behind the door on the floor" (المترجمة).

الدجاج التى تقسم لتمنى الحظ. قفز برنارد عندما صرختُ لها قائلة: **"يا خالتى، أنت سقطت على الكلب!"**

وبعد ذلك لم أكُن متأكدة مما حدث. لكن برنارد كان هناك، يسحبنى بعيدًا عن خالتى، ويأخذنى إلى الغرفة الخلفية، ووضعنى على الأريكة مكررًا ما يقوله مرتين، وربما لثلاث مرات أو أكثر: **"كوينى، هل تسمعيننى؟ انتظرى هنا. كل شىء سيكون على ما يرام. فقط انتظرى هنا حتى أرجع."** أستطيع أن أراه من زجاج النافذة فى الباب وهو يغطيها بالبطانية. ثم يترك المحل ويرجع مع السيد جرين من محل الخضار بجوارنا. وهناك بعض الناس دخلتْ، أنا متأكدة ـ يهمسون ويهزون رؤوسهم بينما يحاول برنارد أن يسقينى شايًا مسكرًا وقذرًا.

"ماذا حدث لها؟"

"هناك سيارة إسعاف ستأتى فورًا"

"هل ستكون على ما يرام؟ وماذا عن الكلب؟ هل لك أن تدخلها إلى هنا؟ سيضيق صدرها وستتكلم بجفوة إذا دخلوا."

قال: "لقد تكرم السيد جرين وأخذ الكلب." ثم جلس بجوارى وأمسك بيدى.

قد أصيبتْ خالتى دوروثى بأزمة قلبية. وأكدوا لى فى المستشفى بأنها لقيت مصرعها فى الحال، وبكل أمانه وصراحة، لم تعرف عندما سقطت بأنها سحقت الكلب المسكين. إنها تنهض فقط لتعليق لوحة الإغلاق ولكيل بعض من الكريمة المثلجة بنكهة الجوزهند اللعينة.

كان فى جنازتها، جزارون أقوياء يلهثون ويتصببون عرقًا، ذوو مناكب عريضة، وكفوف غليظة - أبى وأربعة من أشقاء خالتى - يرفعونها وهى داخل التابوت. قاموا بسحب برنارد لمساعدتهم، الذى تقدم دون اعتراض ليضع كتفه الهزيلة المصرفية أسفل أحد أطراف التابوت. وكان ترنيمنا لأغنية "**باقية معنا**" مصحوبًا بنهجانهم وتأوهاتهم حيث كانوا يحملونها وهم يمشون فى الممر بين مقاعد الكنيسة. كانت لتضحك على هذا المشهد. حبيبها مونتجومرى، قد تقول لهم، لن يواجه أى مشكلة فى رفعها لأنها دوقته.

بدت ملابس أمى الجنائزية بالية تليق لجنازة الملك تيد أو لجنازة أمه. وقالت، ويدها تطوق يدى، والتى مازالت تقبض* على منديل مبلل رطب من الدموع: "**لا تقلقى، يا كوينى. تستطيعين أن تعودى إلى المنزل الآن. فهناك الكثير من المهام لتنجزيها فى المزرعة.**" ولست متأكدة إذا قد قلت ذلك بصوت عالٍ لأن معلمة الكلام قد يصيبها الإحباط، لكن أنا متأكدة من أنى فكرت فى ذلك. لا سبيل إلى ذلك، يا أمى! لن ترجعينى إلى هناك مجددًا. ونظرتُ نظرة فاحصة على برنارد، الذى يدخن السيجارة وسط جماعة من الرجال من بينهم أبى ورجال آخرين.

"**كلا**،" قلت لها. "**لدى بعض الأخبار السارة لك. سوف أتزوج، يا أمى، إلى برنارد بلاى.**"

الفصل الخامس والعشرون

كوينى

كان من عادة برنارد أن يحل أزرار البيجاما، ويحرر الرباط ثم يكومها فى يده حتى لا تسقط ويفسد المفاجأة. حبيبتى..؟" قيلت كسؤال لكن بقية الكلام لم يلفظ: فقد كانت الكلمات المفقودة والمعلقة بيننا شديدة الخلاعة لأن تقال. توقفتُ عن القراءة لأحرر قميص النوم عندما دخل السرير. وكان يقبل، فى أول زواجنا، فمى بلسانٍ خجول ينزلق داخل فمى بحذر. ثم أصبحتْ بعد ذلك قبلة سريعةً من منقار دجاجة. وكانت يده تتسحب تحت الغطاء تبحث عن رباط قميصى إلى أن لا يمكن أن تتقدم أكثر. ثم يقوم بثنى القميص، وسحبه لأعلى لأعلى إلى أن تتسلل يده بين رجلى ليبعدهما عن بعض. ثم يرفع نفسه ليعتلينى.

فى أيام زواجنا الأولى اعتاد أن يركز نظره علىَّ ـ مع نفسه المتقطع الهادئ، والدافئ. ومع الوقت كان يمدُّ ببصره بعيدًا ناحية لوح السرير الأمامى، وتجمعت نقط من ريقه على زاويتى فمه لونها

بيضاء مثل لون فتات الخبز. ومع تركيز تام لإيجاد مفتاح المصباح فى الظلام، كان يتحسس المكان فى ارتباك إلى أن أخيرًا، محددًا مكانه، ارتطم به. كان أحيانًا لزجًا مثل السجق المدهن ولكن فى أغلب الوقت قاسيًا مثل لحاء الشجرة. وكان يطلق تنهيدة كما لو كان يهبط فى حمامٍ ماء ساخن، ويده تزحف رافعة قميصى ليضعها بارتباك وتحرج على ثديى اليسار. ومع كتمة أنفاسه احتقن وجهه، ثم مع زفيره نُتر لعابه إلى أسفل على رقبتى، وهكذا ينتهى الأمر. فى الأيام الأولى من زواجنا كان يقبلنى قبل أن يقوم من علىَّ، لكن ومع الوقت أصبح يتركنى مع آثار غرز أزرار بيجامته علىَّ.

ومع كل رائحة زنبق الوادى الفواحة، والساعات فى تسريح شعرى ووضع بودرة الزينة على وجهى لإظهار معالم الوجه الصافى، والجوارب الحريرية، وأحمر الشفاه، والأيدى الناعمة تمامًا مثل المغرورين المنافقين. وها أنا تزوجت من رجل قد لا يلاحظ إذا دخلتُ السرير وأنا أرتدى قناعًا واقيًا من الغازات السامة. إذا استطعت سؤال خالتى دوروثى: "**هل هكذا تكون هى العلاقة الجنسية؟**" أعرف بماذا كانت ستجيبنى: "**حسنًا، ماذا كنت تعتقدين؟**"

إنجاب الأطفال، هذا ما فكرت فيه! وكل التحذيرات من الأخطاء التى ستطردنى من العائلة. فأنا كنت خائفة منذ الوقت الذى برز فيه ثدى مندفعًا من كنزتى. ومن القبلات عند بوابات الحدائق، والمداعبة والأحضان فى السينما. إذا وضع لسانه فى فمك فهذا بالتأكيد يعنى حملك فى طفل. وإذا لمس ثديك، حسنًا، فهذا يعنى أنهم توءم. وما لا تعرفه البنات هو أنه قد تحملين بالجلوس على

نفس مقعد الحمام؟ لهذا بالتأكيد العلاقة الجنسية فى يومى السبت، والأحد، وأحيانًا مرتين فى الأسبوع طوال السنة لكانت جعلتنى أُرزق بطفل.

سألنى الطبيب: **"هل تجدين المتعة فى العلاقة الزوجية؟"**

فقلت: **"لست متأكدة."**

"لست متأكدة إذا كنتِ تجدينها ممتعة، يا سيدة بلاى؟"

"لست متأكدة ماذا تكون، يا دكتور.

كنت أزعج شىء فى عيادته القذرة، منذ أن سحق ذبابة ضخمة زرقاء البطن تطن فى الزجاج. إذا لم أشارك كليًا وأتمتع بالعلاقة مع زوجى فلن أحمل أبدًا، هذا ما أكده لى. **"سيدة فى مقتبل العمر، جميلة، وبصحة جيدة مثلك لا يمكن أن تعانى من المشاكل. نصيحتى لك هو أن تذهبى إلى بيتك وتحاولى بجدية أكثر."**

الكاهن فى كنيسة القديس جون تعجب إذا كان من الحكمة جلب طفل إلى العالم وهناك حرب على وشك الاندلاع. طلب منى أن أنصرف وأعيد التفكير فى الموضوع. فذهبتُ إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية عوضًا عن ذلك وأضأتُ شمعة. علمتُ بأنهم لن يمانعوا.

قال لى برنارد أكثر من مرة: **"أنا أحب إنجاب الأطفال، يا كوينى."** متهمًا إياى بالتقصير أو ما شابه ذلك. كان يعتقد بأنى لا ألاحظ بأنه يفتش فى خزانتى ليرى إذا كانت عبوات الفوط الصحية مفتوحة أم مازالت مغلقة. كان يعلم دائمًا ميعاد الدورة الشهرية. لكن ما يجهله هو أنه بعد كل دورة شهرية تأتى وتذهب أبكى بحرقة على تلك التوبيخات اللعينة.

خمس وستون درجة سلم من القبو إلى الدور الأعلى فى المنزل فى إيرلز كورت. أخبرت برنارد ذلك بعد أن قمت بعدها. فقال: "بالفعل. هذا مع عدم عدّى للخمس درجات عند الباب الأمامى. خمس وستون درجة سلم وعدد لا ينتهى من الغرف. لكن برنارد ووالده، آرثر، يعيشان مثل زوجين من الفئران غير المرغوب فيهما فى بعض الغرف فى القبو. وكان باقى الغرف، ما عدا واحدة ـ فارغًا. أُعد لاستقبال النزلاء ـ رجال الذين، غالبًا، أتوا إلى لندن للعمل، وبقوا لأسابيع أو شهور ثم رحلوا. وكل غرفة تُخلى من النزلاء يسدل برنارد ستائرها، ويغطى الكراسى والسرير بورق الجرائد ثم يغلقها.

ما كادت تسقط قصاصات ورق الزينة الذى ينثر فى الزفاف على الأرض إلا وأخبرنى برنارد قائلاً: **"لا اريد زوجتى تذهب للعمل."**

حضنته. ومن تريد العمل بعد أن عملت لسنوات كالخادمة؟ سأكون ربة منزل. أستطيع أن أسمع خالتى دوروثى تقول: **"آوه، يا كوينى، حبيبتى، وضعت قدمك فى حياة مستقرة وآمنة هناك."**

"دعنا نفتح البيت." كان ذلك ما تقترحه تلك العصفورة الجديدة. أقبض على مادة التلميع برائحة اللافندر ومنفضة التراب طوال اليوم؛ لأحاول أن أُبين لبرنارد كيف سيبدو المنزل. ووضعت الزهور ومفرشًا على الطاولة. واستبدلت بالستائر الثقيلة المطرزة ستائر حديثة زُينت بالورد المتسلق. **"نستطيع أن نحصل على غرفة معيشة خاصة بنا."** توسلتُ إلى برنارد لينقل الكثير من أرفف

الكتب ودواليب الأكواب قديمة التصميم، التى بدت وكأنها ترقبنا مثل أشباح ماضى العائلة. "**تستطيع أن تحصل على غرفة مكتب، يا برنارد، استخدم إحدى الغرف لتكون مكانًا للقراءة.**" أدخلت النور. فتحت النوافذ. "**يستطيع أن يتحول مجدداً إلى بيت فيه حياة.**" قلت. لكن أغلب الاقتراحات التى قلتها قوبلت بالرفض بهزةٍ من رأس برنارد. "**وَلمَ لا؟**" سألته.

"**لدى أسبابى الخاصة.**" ولكن لم يتسن لى سماعها أبدًا. أليس لدى من الواجبات الكافية من مراعاته هو وأبيه، وماذا عن التسوق، والطبخ، والتنظيف؟ ويالنى من امرأة سخيفة ألا أعلم بأن الحرب قادمة؟ أو أحيانًا يتمتم بشأن رغبته فى الانتقال للعيش فى الضواحى.

الفصل السادس والعشرون

كوينى

تدقُ الساعة اللعينة كل ربع ساعة. كنت على وشك أن أترجى برنارد بأن يمتنع عن تعبئة الساعة. وقال لى برنارد بأنها ساعة والده وكانت تملأ حتى عندما يكون مسافرًا إلى فرنسا. أظن بأن أذنهما صمتت لسماعها، حيث أصبح صوتها مألوفًا لهما. ومع دقاتها اللعينة فاتنى تقريبًا حديث تشامبيرلينز مجددًا.

كنت أجلس أحيك الصوف. ظل برنارد ينظر إلى إبرتَى الحياكة وهما يطقطقان أثناء الحياكة. أستطيع ملاحظة مدى إزعاجهما له. فشدَّ كرسيه ليقترب من الراديو. وكنت أختلس النظر إليهما كل حين. ينبغى عليك أن تقولها، فكرت مع نفسى. ينبغى أن تفتح فمك وأن تبدأ حوارًا. يا عزيزتى كوينى، من فضلك هلا امتنعت عن الحياكة لبعض الوقت؟ فأنا لا أستطيع سماع ما يقال بوضوح. لكنى أعلم بأنه لن يفعل ذلك. قد يكون متضجرًا منهما، من المحتمل، ولكنه سيظل صامتًا.

قمت بحياكة قطعة الصوف هذه ثلاث مرات. "**فى هذا الصباح قام السفير البريطانى فى برلين بإعطاء الحكومة الألمانية المذكرة الأخيرة..**" فى كل مرة أنتهى من حياكتها أنسلها وأعيد نسجها بتصميم مختلف. "**.. أن يسحبوا قواتهم من بولندا أو ستندلع الحرب بيننا..**" سألنى فقط مرة واحدة قائلاً: "**أمضيت وقتاً طويلاً فى نسج هذا الفستان؟**" مما جعلنى أبتسم. **.. وينبغى علىَّ أن أنبأكم بأنه لم يتم تلقى أى تعهدات، ونتيجة لذلك فإن البلد ستدخل فى حرب مع ألمانيا.**" وهكذا كان، وسط دقات الساعة، وطقطقة الإبر، هذا ما قد حدث، فقد أُعلنت الحرب.

وبالتالى على أحد أن يصفعنى إذا لم تنته صفارة الغارة الجوية! فلبضع دقائق قليلة مضت حدق ثلاثتنا فى بعضنا البعض. لقد سمعناها من قبل، ولم نعطها أى انتباه. لكن كان ذلك قبل الحرب، أى منذ بضع دقائق مضت. أما الآن، إنها الحرب، ولهذا فهناك احتمال بأننا قد نلقى حتفنا فى أى لحظة.

تحرك برنارد أولاً ـ ليس باتجاهى: ولكن اندفع بقوة ناحية قناع آرثر الواقى من الغازات السامة، ثم التقطه بسرعة من الصوان ورماه ناحية والده. وانتظرت حتى يرمى لى قناعى ولكنه التقط قناعه هو. فكان علىَّ جذب قناعى. وقتها كان برنارد يصيح قائلاً: "**القناع الواقى من الغازات السامة! القناع الواقى من الغازات السامة!**" وأية أصوات عالية تجعل آرثر ينتفض. وقد تسببت صرخاته "**القناع الواقى من الغازات السامة! القناع الواقى من الغازات السامة!**" مع الصفارة فى ارتجاف آرثر بشدة لدرجة أن يديه المرتعشتين لم تحسًا بالصندوق الذى أفلته من يده ـ بالرغم من أننا قد تدربنا على ارتدائه لمرات عديدة بما فيه الكفاية. وكنت

أتساءل، هل سيبدأ بالكح، والاختناق، والبصق بسبب السم أثناء ارتدائى لقناعى؟

كان برنارد لا يزال يصرخ مع أن صوت صراخه بدا مكتومًا لارتدائه القناع على وجهه، وكأنه يصدر من حفرة عميقة. ولأول مرة اضطررتُ أن أقول له: "آه، رجاءً، اخرس." والتى خرجت منى على غير توقع باعتبار أن تلك الكلمات ستكون آخر الكلمات التى سأقولها له. لكنه لم يسمعنى، حيث كان مشغولاً فى فتح الباب الخلفى. لم أستطع أن أتنفس وأنا أرتدى هذا القناع - لا يسمح القناع بدخول الهواء بدون الغازات السامة. ولفّ قناع آرثر حول رأسه، وضغطت الأربطة الجلدية على أنفه وكان يرتجف بقوة. إذا رآه أى شخص آخر قد يظن أنه يحاول إضحاكنا.

وفى ذلك الوقت سمعتُ هذه الجملة: (*)"sch nell schtzen Sie sich" تُقال بصوت عالٍ. ظننت بأن الحرب اندلعت بسبب، ماذا؟ ولم يمض أكثر من خمس دقائق، وظهر ألمان على درجات سلالمنا. حينئذ ارتجفت. فصرخت: "برنارد، عندما سمع هوschtzen Sie sich! وبعض الكلمات الأجنبية الأخرى. وأقسم أنه بدا مفزوعًا، الأمر الذى بدا عجيبًا حيث كان يرتدى القناع على وجهه. وكنت أنا فقط من تذكرت وقلت: "إنه السيد بلانت!" قبل أن يركض مسرعًا، نزيلنا، اللاجئ من برلين، إلى داخل الغرفة. وزفرتُ نفسًا عميقًا فتكثف بخارًا على قناعى. وكانت ذراعى السيد بلانت ترفرفان باضطراب كما لو كان هناك شخص ما يحركهما بقطعة خشب تتدلى من السقف.

(*) الترجمة: "بسرعة، احموا أنفسكم!" كتبت كما هى لأن الشخصيات لم تفهمها وهذا مقصود، ولم تترجم بالإنجليزية. (المترجمة).

فسأله برنارد: "**القناع الواقى من الغازات السامة؟**". حينئذ نظر إلينا، كل واحد على حدة، ثم صفع بيده على جبينه متمتمًا بشيء لم يفهمه أى أحد ـ ماعدا هتلر إذا كان موجودًا فى الغرفة. صرخ فيه برنارد قائلاً: "**ستموت خنقًا من الغاز، يا رجل.**" شرع هذا الرجل المحترم بالخروج من الغرفة ليصعد خمسًا وستين درجة سلم ليجلب قناعه اللعين.

فأمسكت به. "**كلا، ادخل المأوى، الوقت لا يسمح الآن.**"

ثم صاح برنارد فىَّ قائلاً: "**سيحتاج إلى قناعه.**"

لم يكن شابًا. **لن يصل إلى أعلى قبل يوم الثلاثاء،** قلت: "**الوقت لا يسمح الآن.**"

ومع فتح الباب نظرت عاليًا إلى سماءٍ صافية. والشمس ساطعة وتعكس بأشعتها ظل شجرة الجيران عبر الحديقة، فى حين مطَّ عصفورٌ أسود رأسه ليغرد. إلى أن، عند تلك اللحظة، رأى العصفور تزاحمنا وتهافتنا نحن الأربعة ناحية الفناء. ظننتُ السماء ستسود بسبب تدفق هبوط رجال المنطاد النازيين. لكن لا شيء بتاتًا. كان هذا العصفور فقط يراقبنا بصمت من مكان أمين على الشجرة.

هناك الكثير من الملاجئ للنساء والأطفال، وقبل أى شيء: ساعد برنارد آرثر على سلالم المأوى، هامسًا له بأن "**يمسك جيدًا،**" وفى الوقت نفسه كنت أستعجل السيد بلانت، الذى كان يهمهم منفعلاً بالألمانية. ثم نزلتُ على سلالم المأوى وكان ذلك فى اللحظة التى نظرتُ إلى أسفل. لكن ليلكزنى أحد، كان آرثر يخرج كل يوم بلا انقطاع ولم يحفر لنا مأوى: بل حفر خندقًا. أقسم أنى لم أستطع

أن أرى قاع النفق. تسلقتُ لأخرج منه مرة أخرى ومرَّ السيد بلانت بجانبى، وتمكن برنارد من إظهار نظرة ارتباك من خلف القناع.

"**لن أنزل إلى أسفل - سوف ندفن أحياء.**" قلت له.

"**هيا، يا كوينى،**" قال، والجميع متوترون.

"**لا محالة. لا يفترض أن يكون بهذا العمق.**" أعلم أنه تطلب من آرثر الوقت الطويل لحفره، راجعًا فى المساء تلو المساء متسخًا ومتحمسًا مثل صبى يلعب فى حفرة الرمل. ويقوم برنارد بمساعدته فى إجازات نهاية الأسبوع. وكنت أسأله: "**كيف يمشى الأمر؟**" فيرد قائلاً: "**ممتاز.**" لم أكن علي علم بأنهم قد حفروا نفقًا يختصر الطريق إلى أستراليا. "**لن أدفن حيّة، يا برنارد، سأموت هنا بالأعلى، إذا كنت لا تمانع.**"

وعلى ما أعتقد أنى سمعتُ زوجى يقول: "**افعلى ما يحلو لك،**" أو قد يكون بسبب ارتدائى القناع. وبدأ هو فى النزول على الدرج إلا أن صفارة انتهاء الغارة الجوية صفرت. وكان نصف جسمه لا يزال ظاهرًا من الأرض. استحضر ذلك المنظر شكل الدودة فى ذهنى. فخلعت قناعى الواقى من الغازات السامة لأقهقه من شدة الضحك.

وعندما دخلت البيت لم أتكلم مع أحد. ذهبت مباشرة إلى غرفة نومى، أغلقت الباب بالمفتاح. كانت هذه الغارة أكثر شىء مربك حدث فى هذا البيت. فقدتُ طعم الحياة، هذا هو ما شعرت به. خطوتُ خطوتين ناحية السرير ووثبت عليه. وبدون أدنى شك كنت أتطلع بشغف إلى هذه الحرب.

ومع بدء الحرب فعليًا رحل السيد بلانت.

"**هذا أفضل على كل حال**" قال برنارد.

"ماذا تقصد؟" سألته.

شكا برنارد من إجراءات الوزارة، بالرغم من أنه كان دائمًا فى البنك ولم يكن فى البيت ليتعامل معها. يختلس ممثل الحكومة الخبيث نذير الشؤم النظر من فوق كتفى، رغبة فى معرفة من زار السيد بلانت. أين ذهبوا؟ ماذا قالوا؟

"يجلس فى غرفته." أخبرته بذلك. وكان أحيانًا ينزل ويجلس مع آرثر على الدرج وينظر إلى الخارج باتجاه الفناء. ويخبر آرثر بلكنة إنجليزية أفضل من لكنة مذيع الإذاعة الألمانية الموجهة باللغة الإنجليزية، عن النباتات التى اعتاد هو وزوجته زراعتها فى حديقتهما فى برلين. ولهذا عندما زارنا ممثل الوزارة ليتفقد أمر نزيلنا اللاجئ، كان كل ما أقوله له هو: **"لا شىء، لا أحد."**

لكن برنارد قال: **"إن هؤلاء اليهود أكثر إزعاجًا من كونهم أفاضل."**

أتوا فى الصباح الباكر لأخذه. **"إلى أين تأخذونه؟"** سألتهم. إلى المعتقل من أجل سلامته. لم يكن الوحيد الذى رحل من الشارع. فقد كانت هناك امرأة، أيضًا، وعائلة مع طفلين فى آخر الشارع. وضعوهم جميعهمَ على ظهر الشاحنة، بالرغم من أنهم سيأخذونهم إلى أوليمبيا. رفع السيد بلانت قبعته تحية لى. وعند رؤيته للشاحنة، وقف، تجمد، لثوانٍ ثم أبدى عدم الاكتراث لما يحدث.

"إنه ألمانى، لا يصح أن تظهرى هذا القدر من الاهتمام." قال برنارد، قبل الصعود إلى أعلى ليفرش ورق الصحف فى غرفته.

صحتُ: **"إنكم شياطين، إنكم شياطين!"** عندما سمعت انفجار القنابل لأول مرة. **"يا لكم من شياطين."** إنها أصوات ضجيج

مخيفة. كانت فعلاً حقيقية ـ لم يكن يجول فى ذهنى أدنى فكرة عن أصوات قد تشبه تلك الأصوات. لم تكن مثل دولاب ملابس يسقط من على درجات السلم. ولم تكن مثل الشاحنة الكبيرة الممتلئة بالعبوات المعدنية تنقلب على الطريق. ولم تكن مثل الفحَّامين وهم يلقون المئات من أكياس الفحم على الرصيف بالخارج. ويستحيل أن يصفق جميع جيراننا أبوابهم معًا فى نفس التوقيت. إلا أنه فى مكان ما بدأ الناس تذوق نكال هذه اللجّة. المرء لديه الآن صورة حيّة لما كان يحدث أثناء وقوع ذلك الضجيج.

توالى علينا الجنود المدربة على قذف القنابل كرواعد الحرب. هل تستطيع رؤيتهم؟ ربما لا. لكن بلغ منا التهديد. مبلغه. لا تبلغ أن تكون تلك التشكيلات من القنابل الشرسة، التى حددت بعزم وثبات أهدافها، مهيبة المنظر. وجنود المدفعيات المضادة للطائرات يصرخون: "**من هنا، من هنا!**" فى محاولة لتشتيتهم لكن دون جدوى. لم نستطع إحضار آرثر للمأوى عندما بدأت القنابل الحقيقية بالنزول علينا. لم تنفع أى مراودة بحلو الكلام أو دفعه عنوة ليدخل الخندق ثانية أثناء القصف بالمدافع. كان فى حالة سيئة. كان فى غرفته يختبئ تحت سريره كما لو كانت هناك حربة تخنس مؤخرته.

ومن ثمة كنت أنا وبرنارد وحدنا فى المأوى، الذى تم تعديله بعمق أربع أقدام. هناك سرير صغير لكل واحد. وهناك أيضًا كرسى عادة ما يجلس برنارد عليه، وُضع بجوار طاولة عليها مصباح. كانت ركبته تملأ كل مكان أتحرك فيه، وبدت مدببة مثل رأس المطرقة حتى من تحت قماش سرواله. كان يقرأ الجريدة، مستنشقًا الهواء فتظهر على وجهه تلك العلامات الغريبة وكأنه يحاول إخراج

شعرة تدغدغه من أنفه. كان يتنحنح محدثًا ضجة ظننت بأنه سيبصق بلغمًا إلا أنه نظف كل فتحة من فتحات أنفه على حدة بمنديل مكرمش.

وعند مدخل المأوى عمّ المكان رائحة رطوبة الأرض، رائحة حادة تمامًا مثل السماد، وشعرت كأنى أنا زهرة الدافوديل تنتظر أن تتفتح فى الربيع. وبعد بضع ساعات انتشر آرثر نفسه ـ رائحة تبغ مخلوطة بهبة من رائحة البطاطس المهضومة من أكلة العشاء. ثم عمَّ الفتور والملل، تفوح رائحة نتنة من تحت البطانية، لغم فاقد الحياة. وها أنا كنت أقول: "**ما كان هذا؟ هل سمعت هذا الصوت؟ آوه يا الله، قد أصيب أحد الليلة... أتمنى أن آرثر لم يسمع هذا الصوت... هل تعتقد بأنه بخير؟ كان هذا قريباً. هل كان قريبًا بما يكفى؟**" ولا أسمع منه أى رد علىَّ. كان هذا المأوى الحقير شديد الضجة وشديد الهدوء فى آنٍ واحد.

بالكاد انبعث النشاط فى برنارد ووقف يتحدث مع الجار القريب منا، السيد تود، قال: "**سيكونون أسعد وهم بين بنى جلدتهم.**" وقف كلاهما، طاويين ذراعيهما، تقريبًا يلمسان ويهزان رأسيهما بتجهم واغتمام. "**وضعهم هنا حقيقةً لا يخدم مصلحة أى أحد.**" اعتقدتُ أنه من المؤكد أن هتلر عند بابنا بالخارج. أو ربما النازية بأجمعها تحتل شارعنا. فقد كان هناك ضجة. الستائر رُفعت لإلقاء النظر، والبعض وقف أمام عتبات الأبواب، النوافذ فُتحت، وعبارات لا تنتهى من الاستهجان والرفض. لكنه لم يكن غزوًا ـ كان منظرًا أكأب من ذلك.

كان المنظر عبارة عن عائلة. أم ترتدى معطفًا بنيًا أحد أكمامه مقلوب، تحمل رضيعًا لُفَّ بشال صنع من ملاءة قديمة. لم يكن

وجهها عديم الملامح فقط بل كان غير واضح التعبيرات وكأنها جثة هامدة. ووراءها أربعة أطفال شاردة. وسخون، ملطخون بالسخام، ملابسهم رثة كالذين يعيشون فى الطرقات ـ مسخمون أكثر من أبناء المناجم أنفسهم. شعرهم متلبد كأنه أشواك تتطاير فى كل اتجاه. وكلهم يحملقون حولهم، ينظرون لأعلى على المبانى لثوانٍ، فاغرون أفواههم من شدة الانبهار. ثم فى اللحظة التالية، شعروا بتعبيرات ونظرات الامتعاض المتصاعدة من الناس التى تلاحقهم، فطأطؤوا بنظرهم إلى أقدامهم. وكان واحد من الأطفال ـ الذى قد يكون صبيًا أو فتاة حيث كان من الصعب تحديد ذلك ـ يدفع عربة يد، أحد إطاراتها كان ملتويًا، فتتمايل وترتج بقوة، فقام طفل آخر بمطِّ ذراعه محاولا تثبيت صندوقين باليين على العربة.

ومن ناحية أخرى كان هناك شخصان ضئيلان اللذان كانا ممسكين يد بعضهما البعض ـ كان الأول، فتاة، تحمل صندوق القناع الواقى من الغازات السامة، والآخر، ولدًا، يحمل لعبة صغيرة محشوة. كان الصبى يرتدى بنطلونًا واسع المقاس ـ بنطلونًا قصيرًا رُبط بإحكام على وسطه بشريط وتدلى إلى حدٍ ما إلى كاحله. وكان هذان الضئيلان يحاولان اللحاق بالعربة. والعربة تحاول اللحاق بالأم. والأم بدورها تحاول الحفاظ على خطواتها مع امرأة تبدو أحسن هيئة ترتدى حلة من الصوف مزينة بوردة غير حقيقية على صدر السترة، والتى تمشى بعزم وثبات للأمام.

لم تكن العائلة الأولى بهذا الحال، هكذا أخبر السيد تود جميع الجيران. كانت تلك هى العائلة الثالثة التى يراها ويتمنى ألا يرى المزيد. لقد قذفوا بالصواريخ فى روثرهيث ومسؤول عالى المستوى فى وزارة ما قرر إعادة إسكانهم فى الغرف الشاغرة فى شارعنا.

ستستضيف السيدة نيومان التى تسكن فى مبنى ثلاثين هذه الجماعة.

"**أنا لا أريد**،" تقول لأى أحد يسمعها، "**لقد أجبرونى على ذلك. ودعنى أقول لك، بأن هناك العديد من الناس فى هذا الشارع لديهم غرف أكثر مما لدى.**"

"**هل كل ضال ولقيط سينتهى به المطاف إلى هنا؟**" سأل السيد تود. "**أقصد أننا لدينا العديد من البولنديين يعيشون هنا ليبدءوا بلداً لهم من جديد وبشكل جديد. والآن هؤلاء الحثالة. أنا أسألك.**"

لم تكن تُقذف علينا الكثير من القنابل، على عكس ما هو عليه الحال فى منطقة إيست إند. أحد المهرجين علق قائلاً فى محل الجزارة أن السبب هو إذا احتلنا هتلر فسيحتاج إلى مكان مناسب ليعيش فيه. "خيانة،" هذا كل ما قاله برنارد على هذا التعليق.

تعثر الصبى الصغير فى مشيه بسبب أطراف السروال الضخم الذى يرتديه. بدا وكأنه كيس انبسط على الرصيف. لم يبك. أمسك بأخته وأكمل مسيرته. لا أدرى إذا لاحظ أنه أسقط من يده دميته المحشوة. نظر إلى الخلف لبرهة لكنه أسرع ليلتحق بالآخرين. كانت ملقاة هناك فى الشارع، ودعستها سيارة، فاختفت بين القاذورات. فالتقطتُها. كانت على شكل كلب أو حصان مبلل، قذر، صُنعت من جورب قديم لشخص ما وحيكتْ الأعين بخيط صوف أسود.

سألنى برنارد: "**ماذا يا ترى ستفعلين بشىء كهذا؟**" عندما غسلتها ونشرتها على حبل الغسيل من إحدى أرجلها الطويلة، التى

بدت كما لو كانت قد قُصت من قفاز قديم، ووضحت معالمها ـ وأخذت ترفرف مع النسيم. إحدى أرجلها تحتاج إلى إصلاح حيث بدأ نسيجها فى الفكّ، ووضعتُ طوقًا حول رقبتها لجعلها تبدو أقل بؤسًا.

أقسم بأن الغرفة العليَّة التى وضعت السيدة نيومان تلك العائلة فيها لم تكن أكبر من المأوى الخاص بنا. بدت وكأنها تحشرهم فى دولاب الأكواب، لم توفر لهم مكانًا للعيش فيه. اضطرت الأم لدفع الصبى الصغير للأمام ليأخذ منى اللعبة. لم يتعرف عليها. "**إنها لعبتك**،" أخبرته بذلك. "**لقد أسقطتها**."

رفعها فى الهواء ولفَّها، ثم أشرق وجهه وكأنه هدية براقة. وقال: "**إنه ندَى**."

أشار بها إلى أمه التى قالت: "**قل شكرًا للسيدة، يا ألبرت**."

لكنه لم يتمكن حتى بعد أن ضربته أخته على رأسه، وقالت أمه: "**ياه، أنت، توقفى عن هذا ـ إذا يُفترض الضرب، فأنا من سيضربه**."

شكت لى السيدة نيومان وأنا أغادر بأنها لا تسمح لهذه العائلة باستخدام الحمام لأن رائحتهم نتنة وقذرون للغاية. فقلت لها: "**حسنًا، ماذا تتوقعين، إذ منعتهم من الاستحمام؟**" فردت قائلة: "**أعلم بأن لديك العديد من الغرف الشاغرة فى بيتك، يا سيدة بلاى. خذيهم عندك بدلاً من هنا إذا كنت تتخيلين بأنك ستتصرفين بطريقة أفضل**."

ظهرت لحية خفيفة على ذقن برنارد. لم يكن موجودًا فى البيت الوقت الكافى ليحلق ذقنه. واحمرت أطراف جفونه، ولم يسرح ويجعد شعره بالزيت، وبشرته شاحبة تمامًا كقشرة البطاطس. ومن

المحتمل أن أبدو بنفس هذه الهيئة الرثة. فقد كنت مرتدية نفس الملابس لعدة أيام، ومُشط شعرى بتمرير سريع من أصابعى. أمضينا كل ليلة فى ذلك المأوى اللعين وكأننا هناك للأبد. النوم؟ أليس هذا ما نفعله فى ليلة هادئة؟

تصفر القنابل، عندما تكون على مقربة منا. نغمات عالية وحادة مثل نغمات النوتة الموسيقية الهابطة التى تنتهى فقط بأصوات واضحة عند الانفجار. وبعد ذلك كل شىء تظنه مثبتًا بشدة على الأرض يطير بغتة، لثوان، ثم يحطّ مرة أخرى ــ وإذا كنت محظوظًا تحط الأشياء على نفس مكانها. فينسحب الهواء كله من رئتيك، وتجحظ عيناك، وتعتصر معدتك كل ما فيها من الخوف، ويدق قلبك بطريقة غير عادية ستظن أنه صوت لعبة تعمل بزمبرك. أتذكر أرض المعارض ــ والاختلاط، والفوضى، ولعبة القطار السريع، ودفع النقود لتقشير وجهى، وتبييض مفاصلى. فى تلك الأيام، قبل الحرب، كنت أعتقد أنه لأمر مسلٍ أن نفزع شخصًا أحمق.

أعلم بأنها ستصفر معلنة انتهاء الغارة —تمامًا مثل البراد على الموقد الخاص بى. يتصفح برنارد الجريدة، رافعًا ذقنه ليقرأ خبرًا ما فى أعلى الصفحة، فاتحًا فمه لا إراديًا. لا أستطيع القول بأنى قد سمعت الانفجار، كنت فاقدة الاتزان للحظات، وكان ذراعاى يسبحان فى الهواء. وعندما سقطتُ كان لا يزال يقرأ. وكان مركزًا فى الأخبار عندما عمت الفوضى فى كل شىء ثابت حولنا بسبب الانفجار. وراحت الشظايا ولا أدرى ماذا أيضًا يرشق المأوى مثل الوابل. شفته العليا تجمدت. وأنا بلعت ما جشأته.

وعندما بدأت أوراق الجريدة فى يده ترتعش بحثث عن مصدر للتنفس، وعندما بدأت ترفرف، وكأنها تحاول إشعال النار، انتبهت

بأن برنارد يرتجف. قبضة يده، مثل طفل صغير، تقبض على الورق بشدة، فتكرمشت الكلمات وبالتالى لم تكن مقروءة.

"هل أنت على ما يرام، يا برنارد؟" كنت متوقعة منه همهمة لا أكثر.

"كوينى،" قال، **"إنه هو البيت."** بلع ريقه، وأخذ نفسًا آخر لم يكن سهلاً. **"أبى... أبى... أبى فى هذا البيت... هذا هو البيت... لقد مات... كوينى... كوينى... أبى... فى البيت..."**

يستطيع الغارق التنفس أسهل منه. ذهبت إليه لآخذ الصحيفة منه ولكنه كان يقبض عليها بشدة. اضطررت لنزعها من يده. وتركته وقبضته مازالت تقبض على قطعة ورقة ممزقة من الصحيفة. **"اهدأ، يا برنارد".**

الآن هو يشهق، وصدره يقفز من الحازوقة، وقال: **" سنموت ... سنموت... هنا... أبى... كان هذا هو البيت..."**

قلت: **"اسمع يا برنارد، هدئ من روعك. هذا ليس منزلنا. لم يكن بهذا القرب. اسمع، دعنى ألقى نظرة."**

كنت أجثم على ركبتى ودرتُ لأزيح الستائر عند المدخل، عندها صرخ مولولاً بكل قوة وعزم حانقًا: **"كلا!"** واندفع نحوى، مثبتًا بيده على رسغى ليسحبنى للخلف، ثم أحاطنى بذراعيه بشدة فاختنقت.

"كلا... كلا... ليس أنت... كلا، أبداً..." ودفن رأسه فى رقبتى، جارًا ركبتيه حولى حتى أحاطنى تمامًا. وكنت أستطيع أن أرى البيت وهو يمسكنى هناك. جبل كبير أسود خلفه السماء. لم يصبه أذى. مررت ببصرى بسرعة على كل زاوية ـ كل شىء موجود وسليم. وآرثر كان تحت سريره ـ ربما وسخ، ومفزوع لكن بخير.

"**أستطيع ان أرى المنزل**،" قلت. كانت شهقاته تزفر بنفس دافئ فى عنقى. "**آرثر بخير. والبيت، يا برنارد، مازال هناك. انظر، انظر بنفسك.**" لكنه لم يستطع رفع رأسه، وتشبث بى ليحافظ على الأمان مثل الطفل فى أول مشيه. وكنت أنا من يحمى زوجى من تلك الحرائق الكبيرة، والشظايا الشريرة، والقنابل الفظيعة، والرهيبة التى تسقط من الطائرات الألمانية الشريرة، السيئة. والمضحك فى الأمر هو أننى شعرت بالأمان وهو يحتضننى وبرقة قلت همسًا: "**هناك، يا برنارد، هناك.**"

كان المكان هادئًا بالخارج، ومع الوقت حلَّ برنارد قبضته ببطء. وابتعد جارًا نفسه كما جرَّ نفسه ناحيتى من قبل. ثم جلس على مقعدته، ركبتاه إلى أعلى. لم ينظر ناحيتى. مسح أنفه. لمَّ صفحات الجريدة من على الأرض، طواها، ووضعها على الطاولة. عدل كرسيه المقلوب. كح، تنحنح، سرح شعره وجلس. وطوال هذا الوقت كنت أراقبه. كان هناك رائحة لاذعة للحريق ونفخات من دخان ملأ المأوى من الداخل كالضباب. وخارج المأوى كانت أصوات الصياح، وأقدام تجرى، وجرش حطام الزجاج. وفى مكان ما هناك صوت رشح للماء. نظر برنارد أخيرًا إلى وأومأتُ برأسى لأقول، أهلاً، لقد عدتُ. لكن عينيه لم تصبرا على نظراتى. فنظر إلى يده، وإلى أصابعه المتشابكة ببطء، ولحس شفتيه مرتين قبل أن يتمتم قائلاً: "**أريد أن تعرفى، يا كوينى، بأنى أحبك للغاية.**"

أصبح منزل رقم ثلاثين يبدو كجمجمة لعينة. نزلت القنبلة من سقف المنزل، مخترقة الطوابق لتنفجر داخل المنزل. دمرت كل النوافذ، وكذلك البوابة الأمامية. وتركتْ رأس القذيفة، رأسًا فارغًا وسط الشرفة، تُوِّجَ بالحوائط المنهارة المسننة المتبقية من الغرف

العلوية المفتوحة إلى السماء، بأوراق الحائط الخضراء فى إحدى الغرف وطلاء بنى فى غرفة أخرى، فبدت رأس القذيفة كما لو كانت ترتدى قبعة مبهرجة ذوقها ردىء لعيد الميلاد. وكل الأغراض التى كانت بالداخل أصبحت الآن بالخارج تسدُّ الطريق وتسحق تحت الأقدام. ـ حطام ذلك المنزل تبعثر على الرصيف فى أكوام عالية من الحجارة المتكسرة، "**ستكونين فى أمان وسكينة**،" كم أحبت خالتى دوروثى الأقوال. فكان أى جسم صلب بالنسبة لها يعتبر أمان. بما فى ذلك برنارد. كنت مسرورة بأنها لم تكن على قيد الحياة لتواجه حقيقة أن حتى الأجسام الصلبة تتحطم.

الجميع خرجوا ليتفرجوا، مضطربين بسبب الدمار لكن مطمئنين لعدم إصابتهم هم أو منازلهم. "**محظوظون؛ لقد كانوا مختبئين فى المأوى... محظوظون، لعدم وجودهم فى المنزل... محظوظون لأنهم لم يدفنوا أحياء.**" السيدة نيومان، التى تملك هذا المنزل، جلست صامتة على نحو غير معهود. مصدومة، كما قال المسؤول عن الأمن، عندما أخذها شخص ما. كان منزل رقم ثلاثين هو الذى دُمر فقط، ولم يُصب أى مكان آخر. ما صلة هذا المنزل بهذه الحرب بحق الجحيم؟ هل ينام هتلر نومًا مريحًا الآن بعد أن حوله إلى كومة من النفايات؟ مثل بقية المنازل بالجوار، تكسرت لدينا بعض النوافذ، وبعض الأجزاء من مدفأة منزل ثلاثين كانت على سطح منزلنا. كان هذا كل شىء.

"**كُتبت على هذه القذيفة أسماؤهم،**" قرر السيد تود ذلك.

تم إبعادنا للوراء من قبل المسؤول عن الأمن ذى القبعة المعدنية الذى صرخ: "**ليس أمانًا أن تقتربوا. قد ينهار المبنى فى أى لحظة.**" فى حين كان رجال الإطفاء بوجوههم السوداء وأعينهم المرهقة

يحدقون بحذر شديد فى الداخل، يدفعون الجدران المنهارة، ينظرون لأعلى، ولأسفل، وحولهم.

"آوه، **سحقًا للجحيم!**" هذا ما قالته المرأة من روثرهيث عندما رجعت للمنزل لترى سقف غرفتها العليا مفتوحًا للسماء.

"**لا داعى لألفاظ كهذه.**" قال السيد تود.

"**نستطيع تفهم الوضع،**" قلت له، "**لقد خسرت للتو منزلها.**"

"**لم يكن منزلها، يا سيدة بلاى.**"

"**آوه، وكيف ستستقبله أنت؟**"

"**ربما أكون المصاب غدًا، دعينى أؤكد لك، ولن أستخدم لغة كهذه اللغة.**"

أعرضت المرأة عن ذلك الكلام، وانهارت جالسة على أحد الجدران قائلة: "**هل مع أحد سيجارة؟**" وبعد فترة صمت طويلة نظرت أعين الناس إليها بنظرات ازدراء. كان معها اثنان من الصغيرين، والصغيران الآخران كانا لايزالان فى المأوى تحت الأرض. ثم اختفى هذان الصغيران، اللذان ركضا مسرعين مثل الجرذان، وسط الركام وداخل المنزل والمسؤول عن الأمن يطاردهما، صارخًا: "**اخرجا من هنا، المكان غير آمن.**" وبعد ثانية واحدة، كان المسؤول عن الأمن يسحب الصبى - الذى ما زال يرتدى السروال الواسع الطويل - من أذنه. كانت قدماه بالكاد تلمس الأرض. وكان المسؤول عن الأمنِ يقول له: "**أعطنى هذا. أنا رأيتك. إنه ليس لك.**"

نهضت الأم ووقفت على قدميها وقالت: "**ياه، انزله.**"

"**لقد أخذ شيئًا، رأيته وهو يلتقط شيئًا. ووضعه فى فمه.**"

"أنزله."

"ليس قبل أن أعرف ماذا وضع فى فمه. لا ينبغى عليكم التواجد هنا."

فقلت: "إنهم يعيشون هنا."

قال المسؤول عن الأمن: "هنا؟" يعيشون هنا؟ أمتأكدة انت؟" بينما لا تزال الأم تصرخ به قائلة: "اتركه أو أقسم بأنى سأضربك. إن بى ما يكفى - حسنًا؟ فقط اتركه." نفخ الصبى خدوده ثم بصق بشئ على الأرض، إنه بروش.

فقال المسؤول عن الأمن منتصرًا: "هذا هو - يا لك من لص صغير."

"هو ليس لصًا،" صاحت به الأم. ثم التقطت دبوس الزينة.

"ياه، اتركيه إنه من ممتلكات هذا البيت."

"إنه لى،" قالت.

"أعطينى إياه. سأتحفظ عليه إلى أن نزيل هذا الحطام."

"إنه ملكى - إنه لى،" قالت هذه المرأة صارخةً. كان دبوس زينة صغيرًا، ليس أفضل من الهدية التى تكون فى كيس الحظ. المرأة تترجاه بشفقة الآن - وتعلق بكل رجل طفل. "إنه ملكى. أقسم بذلك، بأمانة. إنه لى."

فقلت للحارس: "أعطه لها."

فقال: "ليس قبل أن يتبين ملكيته لمن."

"وما الفائدة؟ إنه دبوس زينة لا يساوى شيئًا." قلت له همسًا.

"إنه من واجبى المحافظة..." وبدأ الكلام، محدثًا الجميع.

"لقد فقدت كل شىء. وهذه ليست المرة الأولى لها. ألا تستطيع إعطاءه لها درأ للشبهات."

"من واجباتى أن أمنع أى سرقات تتم فى هذا

"آوه، غُرْ من هنا."

لم يقل برنارد: "على جثتى،" لأننا أصبحنا نؤمن بالخرافات طوال العام الماضى. لكن قال بدلاً من ذلك: "ليس تحت أى ظرف من الظروف... هذا خارج عن النقاش...هل جننت تماماً يا كوينى؟"

"إنهم بشر،" قلت، "وليس لديهم أى مكان ليذهبوا إليه."

"إنهم ليسوا على شاكلتنا."

"لكنهم بحاجة إلى المساعدة."

"لا يمكنهم الانتظار هنا. هناك أماكن تقدم لهم الرعاية المطلوبة."

"لن يسببوا أى إزعاج."

تمنيت أن يكون الصغار أكثر هدوءًا فى تلك اللحظة. لكنهم كانوا مصدر إزعاج. كانوا يركضون فى كل مكان فى غرفة المعيشة، يقفزون على الأثاث، ويلعبون طائرات وقنابل وصواريخ ويصطنعون المدافع المناسبة لقذفها. وجلست الأم رافعة قدميها على الكرسى، تحتسى الشاى وتدخن من سجائر برنارد.

"فقط لبضعة أيام."

"كنت واضحاً كل الوضوح معك."

"هيا، يا برنارد، أليس لديك بعض الرحمة؟"

همس لى قائلاً: **"إنهم وسخون، يا كوينى."** كان عنده حق. كانت أيديهم ملوثة وقذرة. وإذا قلبتُ الصبى الصغير ألبرت على رأسه فسيسقط منه القمل.

"لدينا كل هذه الغرف. كيف ذلك والكثير ليس لديه المكان ليعيش فيه؟"

"الجهات المسؤولة ستتصرف معهم. لا تستطيع مساعدة كل فرد. هناك حرب مندلعة."

"أعلم ذلك ـ وهذا ما أعنيه."

أخذتُ العائلة المسكينة التى تضررتْ من الانفجار إلى مركز الإغاثة. وأخذنا معنا الطفلين الآخرين من تحت الأرض. وعندما رجعتُ إلى البيت، دخلت لأخبر برنارد الذى غلبت عليه الدهشة فتبرم بأنى لا أعبأ بما قال، ولا أعبأ بما فكر فيه ـ لقد اتخذت لنفسى وظيفة. هناك!

الفصل السابع والعشرون

كوينى

تظل بعض المنازل أحيانًا تحترق ببطء بدون لهب تمامًا مثل الفطيرة المحروقة فى الفرن. يتصاعد منها الدخان ذو الرائحة الكريهة الحادة، وينبعث الغبار من تساقط الركام. يُزاح به جانبًا على غير نظام أو يتم نقله. بعض الناس لُفت بالبطاطين، حيث فقدت ملابسها فى الانفجارات. تغطوا بالبياضات، وجوههم ملطخة بالسواد، وعيونهم غائرة محمرة الجفون التى برقت بغتة، محملقة لتتطلع باضطراب إلى ما يحدث حولها وكأنهم سقطوا على كوكب آخر. يرتعدون خوفًا، طغى الخوف الشديد على شىء.

جماعات السكان، هكذا أطلقنا عليهم فى مركز الإغاثة. إنهم المتضررون بالقنابل الذين لديهم الجراءة بأن يبقوا أحياء فى محنة عالم يتفجر إلى أشلاء، تاركين نعوشًا فارغة من ورق مقوى ، لكن ملؤوا فصول المدرسة القديمة بوجوههم المأساوية وملابسهم الرثة،

التى جعلت عمال المناجم الخارجين للتو من حفرة المنجم يبدون كما لو كانوا حوريات عيد الميلاد.

دخلوا فى تزاحم تمامًا مثل التزاحم فى المترو أو ضربات الأكواع أثناء التزاحم فى تخفيضات المتاجر الكبرى. هكذا يراهم البعض ـ جماعات السكان، وليسوا البشر. ليسوا أمهات كالتى تدعى مافيز والتى، وجمت، ممسكةً بطفلين يبكيان لها لتوقف أصوات الانفجارات ليتسنى لهما النوم. وليسوا كالابن ذى العشرة أعوام الذى يدعى رالف، سرواله مبلل من البول، ويحاول بحذر المحافظة على مكان النوم بوضع الجوارب والسترات بوجه عبوس متوحش. وليسوا كالأب الذى يدعى سيد الذى يمسك كل فرد من أفراد عائلته بيده الملطخة بالدماء ليخبرهم بأنه سيذهب ليجلب قدر ما يستطيع من أغراضهم من منزلهم المقصوف بالقنابل. وليسوا كالشابة كريستين، التى أمسكت بأظافرها ظهر المسؤول عن الأمن تترجاه ليبحث عن خطيبها الذى فُقِد تحت أنقاض جدار منهار. هم فقط جماعات السكان. حشدٌ من الناس يأسهم جعلهم يبدون كالضعفاء، ووجودهم الشاحب سحب من الفصول كل الألوان فجعل المبولات البيضاء فى الأركان تبدو مثل الجوهرة اللامعة. لن أسامح هتلر مهما حييت لقلب حال البشر إلى هذا الوضع المشين.

وكانت مهام وظيفتى هى معرفة ماذا كانوا وأين كانوا يعيشون من قبل. وحتى هؤلاء الذين لا يستطيعون التذكر أو لا يستطيعون السماع لأن الانفجار لا يزال يدوى فى آذانهم علىَّ أن أجمع تلك المعلومات منهم. هناك أيام صاخبة تمر فى مركز الإغاثة، أكون فيها مجهدة من سماع تلك الأصوات المتعبة المنكسرة. وفى أيام أخرى يعم الصمت المخيف لدرجة أنى أتمنى أن يصرخ أحدهم أو حتى أن

يبدأ الكورس يغنى بقوة **"اطرح برميل البيرة."** وفى أوقات أخرى عندما يكون هناك زحام ـ أحيانًا أحتاج أن أجاهد لأمر بينهم ـ أنسى أمر الطابور، ألتفت فقط إلى أول شخص أراه وأقول له: **"هل تريد المساعدة؟ جيد. إذن سأبدأ معك."**

كان على أن أمضى اثنتى عشرة ساعة، وأحيانًا أربع عشرة ساعة فى الدوام، فى مركز الإغاثة فى مدرسة كامبيدن. وعندما أذهب للبيت يتذمر برنارد من عدم وجود أى شىء على المائدة إلا الغبار. لم يكن قلقًا على نفسه، استغرق وقتًا طويلاً غير عادى يشرح فيه أن قلقه هذا علىَّ أنا. **"أنا قلق من أن تلك الوظيفة تثبت لك بأنها أكثر من طاقتك، ماذا عن كل شىء..."**

فى هذه الأثناء، جلستْ سيدتان فى مركز الإغاثة تبتسمان لى ابتسامة عريضة تعبيرًا عن الامتنان. فيوليت وأختها مارجرى. لقد رحل زوج كل واحدة منهما. واحد ذهب إلى شمال إفريقيا، والآخر إلى نورثامبتون. وجلس بينهما ثلاثة أطفال ـ واحد عمره اثنتا عشرة، وثمانى، والأخير الذى، قالا لى، كان بطيئًا بعض الشىء.

"لقد دُمر المنزل بالكامل،" قالت فيوليت، لقد خسرا كل شىء لكنهما كانا يقهقهان. كانت حالة من النشوة والنشاط الهستيرية، لقد تم تحذيرى، أن يكون الكل فى أمان أثناء إراحتهم. خرجوا من مأواهم عندما نقرت مارجرى على السقف المرتفع، الذى كان فى متناول اليد، بملعقة شاى. **"دفاتر التموين مازالت هناك فى صوان السفرة، كما ترين."** ضحكة خافتة أخرى. **"إنها هناك تحت فى مكان ما، لكن ليس من الأولويات العثور على أشياء كهذه، كما قالوا لنا. إنما مهامهم العثور على الناس والأشخاص، هذا ما قالوه."**

"هذا صحيح، حسنًا، للحصول على بدل فاقد لدفتر التموين،" قلت، "عليكما التقدم لمركز الإدارة فى المدينة. أو للمكتب المحلى للغذاء. اذهبا إلى إحدى هذه الأماكن ـ يمكننى إخباركما أى شاحنة تستقلونها ـ واملآ الاستمارة لنفسيكما ولكل طفل من أطفالكما..." حدق كلاهما فىَّ بنظرات بلهاء خالية من التعبير كالعارضات الدمى بالمحل.

"هل أكتب هذا فى ورقة؟" سألتهما.

"تكتبين ماذا؟"

"ما قلته للتو."

"وماذا كان ذلك؟"

"ما قلته عن دفتر التموين."

"لقد فقدناهما مع البيت. وهما فى صوان السفرة، كما ترين. ونريد استخراج دفاتر جديدة."

ينبغى أن أكون نائمة فى أيام راحتى. كنت أنعس وسط الأصوات العادية اليومية التى أعتبرها قبل الحرب ضجيجًا مزعجًا ـ رجال البريد، وشاحنات الطلبات، وأطفال يلعبون الكركيت بالشارع. لكن لا يهم مادامت تلك الأيام الغالية لن تضطرنى أن أقضيها وأنا رافعة رقبتى محاولة لأحسب إلى أى مدى يمكن أن تمتد الصفوف. ستة من السجق ورغيف من الخبز ومازلتُ أحاول إعدادها. إذا طبختُ العشاء وأكل برنارد وآرثر الطعام بسرعة، أستطيع أن أغسل الصحون، وبعض الملابس من سلة الغسيل، وأكوى ملابسى للعمل، وقميصًا لبرنارد، وبعدها ربما أنال ساعة ونصفًا لأنام على وسادتى

المحشوة ريشًا، والملاءة النظيفة، والفراش المنجد قبل أن يبدءوا من جديد ـ قاذفو القنابل ـ وأضطر للذهاب إلى الملجأ لأخمد وأنام هناك أثناء اندلاع تلك الحرب الفانية.

لم يكن الأمر ذا جدوى أن أذهب للبيت لعدة ساعات بينما طوال النهار علىَّ أن أكافح فى عالم منقلب رأسًا على عقب. الشوارع التى كانت مألوفة لى تحولت إلى أرض الضياع مفروشة بتلال من الحطام، وبعثر كل ما فى البيوت فى كل مكان. أكح من الغبار الذى أضبّ المكان. أخطو بخفة من على هذا، وأترنح فى مشيتى فوق ذاك. أُجبر إلى الانعطاف عند الزوايا لتجنب مصنع لا يزال مشتعلاً. وهناك سيل من الماء المتدفق يغطى كعب حذائى. زجاجٌ يجرش تحت قدمىَّ. وفى ذات صباح، بحثتُ عن طريقٍ بالقرب من المنزل، فلم أستدل على شىء. كنت كالغريب عن المكان الذى خطط من جديد. اضطررت أن أسأل المسؤول عن الأمن. **"هل رأيت شارع لونجبريدج؟"** حتى المسؤول عن الأمن احتار، ناظرًا حوله كما لو كان قد فقد قبعته. **"كان هنا فى مكان ما،"** كان هذا الرد هو ما استطاع أن يقدمه لى. فاضطررت أن أقضى الليل فى مركز الاستراحة، أيضًا، لأن تلك المسافة القصيرة للعمل تستغرقك ساعات! لكن برنارد لم يعجبه الوضع. وجاء إلى المركز أكثر من مرة، واقفًا عند مدخل الباب، يجول ببصره فى المكان إلى أن يعثر علىَّ.

كان يقول لى: **"أريد أن أعرف إن كنت لا تزالين على قيد الحياة فقط لا غير؟"**

"آه، أجل،" أقول له، **"من الواضح أنى كذلك."**

"قُلتَ إنك فقدت ملابسك بسبب الحريق،" قلتُ، "ودفتر تذاكر الخدمات الخاص بك".

"يا آنسة، كل ما أقف عليه الآن هو كل ما أملك، هذا ما أقوله لك." ولم يكن هناك أكثر من بعض الخرق البالية. وكان ابن الرجل ملفوفًا فى بطانية حافى القدمين. "ابنى كان نائمًا على الفراش. وأنا كنت أعد كوبًا سريعًا من الشاى. ولم يكن لدى متسع من الوقت إلا أن أمسكه بقوة وأسحبه عندما رأيت ذلك الشىء يهوى علينا من السماء. ثم فجأة حلَّ الصمت، وبعدها شبَّ الحريق. سمعت جيرانى يصرخون. أستطيع سماعهم من وراء الجدران. جذبته من على الفراش. زوجتى، كانت فى الملجأ - حسنًا، هى الآن فى المستشفى. ولا أعرف ماذا حدث للجيران."

"هناك بعض الملابس فى الفصل المجاور. تستطيع الذهاب وتأخذ أى ملابس لابنك و.."

"حاولنا بالفعل، يا آنسة. أحد زملائك وضح لنا هذا الأمر عندما وصلنا. لكن لم نجد أى سراويل متبقية، أقصد، تناسب مقاسه، وطبعًا ابنى لن يرتدى فستانًا."

قلت: "أجل" وأنا أبحث عن حلّ لمسألته فى كتيب الدليل الذى معى. "لاستبدال تذاكر الملابس ينبغى أن تحصل على استمارة سى آر إس سى أى من مركز الشؤون الإدارية. ها هى الاستمارة. قم بملئها ثم أرسلها بالبريد إلى مكتب الجمارك والضرائب التابع للغرفة التجارية فى ويستمينستر. التابع لـ... الصندوق البريدى لجنوب غرب واحد."

سألنى: "تمام - أهذا هو الحل، إذن؟"

وكان علىَّ أن أجيبه قائلة: **"نعم، أخشى ذلك."**

"حسنًا، أعتقد بأننا لنا زيارة أخرى لغرفة الصف المجاور."

لم يكن هناك سرر كفاية. فاضطر الناس إلى افتراش الأرض.

"لكن منزلى قد دُمر. بالتأكيد هناك بعض التعويضات التى قد أحصل عليها الآن لأجد منزلاً آخر؟"

"حسنًا، سيدتى، حاولى الكتابة إلى لجنة الإغاثة أو مراسلة لجنة خسائر الحرب لتحصلى على استمارة سى أى لكنهم عادة لا يدفعون التعويضات إلا بعد انتهاء الحرب."

"عادة! عن ماذا تتحدثين؟ كم من الحروب علينا الاشتراك بها حيث حدث هذا؟ ومن فضلك، يا آنسة، لا تسيئ فهمى لكن ماذا سيفعلون بالضبط بطلبى إذا، لا سمح الله، خسرنا الحرب"؟

أحيانًا ينفد الطعام لدينا وكل الذى نستطيع تقديمه لأى شخص هو كوب لعين من الشاى.

"أليس لديك أى أقارب آخرين يستطيعون استضافتك؟" لم أستطع إيقاف تلك المرأة عن البكاء، ولماذا لا تبكى؟ زوجها، وأمها، وأبوها كلهم ماتوا عند مدخل الملجأ. كانت تقريبًا حبلى فى الشهر الثامن. وجاء جوابها فى شكل هزة خفيفة لرأسها.

"أقول لك، بمقدورى أن أجد لك مكانًا آمنًا إذا شئت؟"

كانت أمى تقول لأبى بعد أن يعطى بعض عمال المناجم شيئًا تعتقد هى أنه لا ينبغى عليه ذلك: **"إن الطريق إلى جهنم مرصوف بالنوايا الحسنة."** فيهز كتفيه استهجانًا لما تقول. والطريق الوحيد المرصوف فى لندن هو من هذا النوع من الطرق. وبجلوسى على

مكتبى خاضعة بشكل دؤوب لتعليمات النشرات لمكتب خدمات المفقودات أو الدمار كنت أرصف كل حجرة لعينة إلى طريق الجحيم ذهابًا وإيابًا. فقد كانت مهامى هى إرسال هؤلاء المصعوقين والمرتجفين للسعى ذهابًا وإيابًا فى لندن ـ مرة، ومرتين، وثلاث مرات ـ للرد على العديد من الأسئلة، ولملء المزيد من الاستمارات؛ حتى يتمكنوا من رد بعض ما أخذ منهم بخشونة، بدون أى خطأ من جانبهم.

صممتْ السيدة بالمر أن أناديها دورا. لقد قُذفتْ بالقنابل بالقرب من طريق هامرسميث، مع زوجها، وثلاثة أبناء، وقطة نتنة. "نظرت إلى المنزل وها هو، قد دُمر." وبعد أن رجعتْ من عند الضابط المسؤول عن الإيواء وثبتْ مرحًا ناحيتى بحيوية كفتاة صغيرة. **"لقد وفروا لنا مكانًا جميلاً، يا كوينى، لا أكاد أصدق. حزرى أين؟ هيا ـ لن تفلحى. شارع كونوت. هل تتخيلين ذلك؟ كم تمنى زوجى العيش فى مكان رائع مثل شارع كونوت. إنه بمثابة حلم له. عُرض علينا شقة فى منزل هناك. لأناس عادية مثلنا. سيفقد عقله من فقدانه لقدمه. لهذا، أُرسِلتُ إليك مرة أخرى لأرى ماذا أفعل لأجد بعض الأثاث."**

"وماذا حدث لكل أثاثك؟"

"آوه، لقد فقدناه كله، يا كوينى —كل شىء."

"هل قمت بتقديم الطلب فى وقتها؟"

"كلا، لا أعتقد ذلك. زوجى يهتم بهذه الأمور وكان فى المستشفى حتى يومين مضيا."

"إذن لم تقومى بملء استمارة بى سى أربع وخمسين؟"

"أعتقد أنى أستطيع القول بكل ثقة كلا لم أفعل. لكن يمكن أن أملأها الآن إذا كان هذا سيساعد."

"متى دُمر أثاثك يا سيدة بالمر؟"

"رجاء نادينى دورا ـ تجعلنى أشعر بأنى عجوزة. الآن، دعينى أرى، منذ شهرين من الآن. لأن جاك فى المستشفى منذ خمسة أو ستة أسابيع. وكنت أنا والأولاد عند أختى إلى أن وقعت هذه المصيبة. وبقيت هنا أسبوعًا أو أكثر قليلاً. أجل حوالى شهرين."

"آوه" قلت. يقول الكتيب الخاص بى إنه مع استمارة بى سى أربع وخمسين ينبغى أن يوجه الطلب إلى مثمن المقاطعة خلال ثلاثين يومًا من وقوع الدمار والفقدان.

سألتنى: **"هل هناك أية مشكلة، يا كوينى؟"** ثقلت رأسى فلم أستطع رفعها للنظر فى عينيها لأخبرها عن تلك الإجراءات. **"إنها إجراءات على جاك القيام بها؟"**

"من أجل الأثاث، يا دورا،" بدأت أقول لها بتردد، **"كان ينبغى تقديم الطلب خلال ثلاثين يومًا من فقدانكم للأشياء."**

ومثل الأفلام الصامتة، تنقل وجهها عبر تعبيرات مختلفة ـ على نحو يتناغم مع تعبيرات الحيرة والاندهاش التى تعنى كيف، وماذا، ومتى. ثم ارتفع حاجباها لينتفضا مبتعدين ليرسما علامات الفهم ثم عقفا مجددًا فى قلق وحيرة، وهو تقول بهدوء: **"لكن..."**

كان برنارد حانقًا منى بشدة لدرجة أن العِرق فى صدغه الذى كان يزعجنى عندما يأكل نُفخ وأخذ ينبض كما لو كان له قلب خاص به وحده. **"يا كوينى، لآخر مرة، ليس أثاثنا حتى نتصرف فيه. إنه**

يخص والدى." وصلتُ إلى البيت فى شاحنة ومعى رجلان، اللذان بأدب لم يرفعا نظرهما وهما يمران يحملان الطاولة وكرسيًا آخر.

"أنا لن أتنازل عنه للأبد ـ إنما أعيره."

"مازال ليس ملكنا ـ لكى نعيره للغير."

"إننا لا نفعل به أى شىء فى الطابق العلوى، إنه فقط فى الغرف وعليه ورق الصحف. إنه فقط سريران، ومائدة وأربعة كراسى. لن تفتقدها قبل أن ترجع."

"إلى أين ستذهب؟ إلى من ستعطيها أيضاً؟"

"السيدة بالمر ـ دورا وعائلتها."

"ومن يكونون هؤلاء؟"

"هم أُناس من مركز الإغاثة."

"كلا البتة، يا كوينى! نحن لا نعرف هؤلاء الناس. كيف أنت متأكدة من استرجاع هذا الأثاث؟"

"أنا اضمن بأنى سوف استرجعه. أعدك بذلك."

"هل هم مثلنا؟"

"ماذا تقصد؟"

"يا كوينى، بحق الله، تعقلى. لا نستطيع أن نساعد كل فرد. ألا يكفى أنك تعملين معظم الوقت فى هذا المكان؟ انظرى إلى نفسك ـ أنت مرهقة. تبدين فظيعة."

"شكراً، يا برنارد." "إنهم يستعيرون منا أثاثًا إلى أن أجلب لهم غيره. بطريقة أخرى هم حصلوا على شقة فارغة. لا شىء فيها على الإطلاق."

"هذه ليست مشكلتنا."

"آوه، كلا، آسفة، أنت مخطئ هنا. يا برنارد، هناك حرب مندلعة."

"أعى ذلك تماماً."

"حقًا؟ طيب، دعنى أخبركَ شيئًا، دعنى أخبرك عن حقيقة - هناك آلاف من الناس يعانون من ويلات الحرب أكثر مما تعانيه أنت". وفى نفس اللحظة التى قلتها تمنيت أنى لم أقلها. ترنح ودارت به الغرفة وكأنى بصقتُ فى وجهه. وبلع تلك الكلمات بصعوبة وأومأ برأسه لى ـ قليلاً ـ ثم دار مكتئبًا ليدخل فى العتمة.

لم تستطع دورا أن تمنع نفسها من شُكرى. "لا أعرف ماذا قد فعلنا، أنت كنت خير عون لنا، يا كوينى، حقيقة كنت كذلك..." ومن شارعها الغالى كونوت لم تكف عن توديعى ملوحة بيديها. كنت عند نهاية الطريق ومازلت أقدر أن أسمعها تقول بصوتٍ عالٍ: "كيف يمكن لنا أن نشكرك كما ينبغى؟ أنت لستِ غريبة. تعالى فى أى وقت لزيارتنا."

"إلى اللقاء، إذن." كنت أقول لها عندما لاحظتُ امرأة تركض خلفى فى الشارع. كانت حسنة الملبس ترتدى حذاء بكعب رقيق يطقطق بصوت عال على الرصيف مثل صوت أقدام حصان أصيل.

"يا هذا، يا هذا" صاحتْ قائلة. "هل أنت المسؤولة عن هذا؟" وقفتُ للحظة حتى قالت: "أريد أن أعرف على مسؤولية منْ أُسكن أشخاصاً كهؤلاء هنا فى هذا العقار." بدأتُ فى السير مرة أخرى، أسرع، فى حين لاحقتنى وهى تقول: "أريد معرفة اسم مديرك. أريد

أن أقدم شكوى. أنا لست راضية بوجود هؤلاء هنا. هذا شارع محترم. أشخاص بهذا المستوى لا ينتمون إلى هذا المكان. دعيني أخبرك، سيكون هناك العديد من المشاكل إذا بقوا هنا لأني لست راضية عن ذلك، لست راضية على الإطلاق."

الفصل الثامن والعشرون

كوينى

كان الخطأ خطئى بأن تطوع برنارد فى القوات الجوية الملكية قبل أن يتم استدعاؤه للخدمة العسكرية. بدأ رجالٌ فى الزىّ المدنى يبحثون عن موضع قدم فى الشوارع التى ازدحمت بالزى الأزرق والكاكى. وبالحال الذى عليه البلد الذى تطلب الأمر أن يتم إرسال اليانكيز وكونه لا يزال يرتدى ما يحلو له، فقد كان مدركًا لذلك وخجلا من نفسه، بل كان آسفًا من داخله.

لكن لم يكن هذا هو السبب ـ بل كانت المصيبة فى تجنبه لى عند كل مرة أرجع للبيت من مركز الإغاثة. وعندما حاول أن يتفادانى نظر مباشرة إلى حرب قديمة ـ إنه ذلك الندب على وجه أبيه. كان عليه أن يلتحق بالخدمة العسكرية. وطلبته القوات الجوية الملكية. إنه كاتب بنكى نحيف اعتاد دائمًا أن ينفخ فى الشاى قبل أن يشربه. إنه رجلٌ يواجه صعوبة فى أن يغضب من وجود قطة الجيران فى ملجئنا.

ولم يكن الأمر فقط أن الجيش يرى أن جسمه النحيف القوى يناسب أى عمل مكتبى مهما كان الأمر صغيرًا، بل أصبح برنارد عضوًا فى الآلية القتالية ـ لقد قرروا إرساله خارجًا إلى ما وراء البحار. صفعه السيد تود على ظهره، قائلاً: "**إنه شىء جيد، يا برنارد، إنك رجل أصيل.**" الناس التى لم تكن تمضى وقتها معى أصبحت تسألنى عن زوجى. وعندما أتحدث عنه أمتلئ بالفخر مثل خالتى دوروثى وحديثها عن مونتجومرى. أقسم إن كتفيه أصبحتا أكثر عرضًا، ويديه بَدَتا أكثر قوة مع الرحيل. حتى رقبته من الخلف بدت لا تعرف الخوف فى الزىّ الأزرق للقوات الجوية الملكية. شعرت بالغيرة الآن من أن يأخذه أحد. إنه زوجى، إلى أين ستأخذونه؟ أثناء التدريب فى سكيجنيس أو بلاكبول، اعتاد أن يعود إلى البيت كثيرًا أكثر من السابق. لكن بالخارج ما وراء البحار! أين بالتحديد وراء البحار؟ وكم هى المسافة؟ نحن نعيش على جزيرة، بحق الله، وكل الجهات تقع وراء البحار.

رحل بدون أى احتفال كما لو كان ذاهبًا إلى البنك. أردتُ أن أحضنه، وأن أهمس فى أذنيه لأؤكد عليه أن يخبرنى عن كل شىء يفعله، وأن يحكى لى عن كل ما يراه فى تلك الأراضى الغريبة. ولكنه تصلب مثل لوح خشب من أجود أنواع الماهوجنى، ثم مال ليقبلنى على خدى. راقبته وهو يمشى منصرفًا فى شارعنا —قبعته وضعت بميل على رأسه، وتدلت حقيبته من على كتفيه مثل الجثة.

أخذت أفكر، هو نحيفٌ للغاية لدرجة أن جندى العدو يجب أن يكون بارعًا فى إصابة الهدف ليصيبه، كان تخيلا غريبًا، لم أشارك فيه أحدًا معى، لكن بطريقة مضحكة بعث فىّ الطمأنينة. كان من المؤسف أنه لم يكن يعرف أنى مازلت أنظر إليه من النافذة، وحدى

أقف قلقة. وعندما ابتعد عن ناظرى، صدح الصمت فى الشارع. فلم أستطع مقاومة ما خطر ببالى بعد ذلك ـ تسللت الفكرة إلى وهمست من وراء كتفى: لن يتواجد فى المنزل ليستمر فى العطاء وبالتالى لن تحبلى الآن، يا كوينى.

علمتنا إرلى بيرد، معلمتى فى مدرسة بولسبورك الإعدادية، إن علامة الفاصلة العليا(*) فى النحو الإنجليزى تستخدم لتعنى أن هناك شيئًا ناقصًا. وهكذا دائمًا اعتبرت والد برنارد، آرثر: رجل الفاصلة العليا. كان دائمًا موجودًا ولكن ليبين لنا بأن هناك شيئًا غاليًا قد ضلّ الطريق. عندما قال برنارد إنه سيرحل للخارج عبر البحار سألته عمن سيهتم بأمر والده الآن. وكل ما نلته منه كإجابة هى تعبيرات الدهشة والحيرة.

آرثر لا يتكلم بتاتًا. هو فقط يهزُّ برأسه، ويومئ، ويشخر، ويتنهد، حتى إنه يتأفف ضجرًا. ولكن لا تخرج من شفتيه أية كلمة ـ حتى مع عطسه لا تخرج حتى ولو بصورة غير متعمدة كلمة: "منديل." لكن تدريجيًا أصبحت ألاحظ حاجبيه. حاجبان أسودان، وغليظان، وكثيفان يجولان على جبينه. صرفت النظر عن مراقبة شفتيه وعوضًا عنهما بدأت أقرأ هذين الحاجبين الكثيفين. كانا أكثر تعبيرًا من فم برنارد. فبنترتين لحاجبيه إلى أعلى، فهو هكذا يسألنى إذا كنت أحب أن أشرب كوبًا من الشاى. ونترة حاجب إلى أعلى والآخر إلى أسفل، فهو يريد أن يعرف إذا كنت متأكدة.

ولم يمض وقت طويل حتى آمنتُ بأن آرثر ساحر. طوال اليوم الذى يقضيه فى الحديقة يستطيع أن يجلب الجزر، والكرنب، والبطاطس، واللفت، واللفت الأصفر، والجزر الأبيض من الحجر

(*) فى الأصل: apostrophe (المترجمة).

والحصى. ففى يوم من الأيام رجعت للبيت ووجدته يرفع ببصلة فى يده لى. كبيرة فى حجم الكرة، ثمرة فى الحجم النموذجى للثمرة، قشرتها بنية ذهبية وتقرمش. ضحك عندما سألته: **"من أين بحق الله جلبتها؟"** ثم أظهر لى بصلة أخرى ببطء فى يده الأخرى. يا للمنظر الرائع - كان يمكن أن أذهب فى الشارع وأبيع كل واحدة بعشرين جنيه إنجليزى. لم ير أى شخص البصل منذ شهور. لكن آرثر لديه اثنتان. وكان هو من طبخ لى فى جو تسوده المحبة: السجق المطهو فى مرقة البصل.

قد يقف فى الطابور لساعات من أجل الغذاء. صفوف وصفوف طويلة من النساء وهناك يقف آرثر - رجل محترم متقدم فى العمر ربط فى بنطلونه الجبردين حقيبته القماش الصغيرة —يقف ساكنًا صامتًا كنموذج غير عادى للصبر. أحيانًا تقوم النساء بتقديمه أمامهن فى الطابور؛ فقد شعرن بالأسى نحوه تمامًا مثلى عند أول مرة رأيته فيها. بدا مكسورًا، يرتجف من أى إزعاج بسيط، فوجهه يتغير من الصفاء إلى الجموح والخوف من صوت سقوط الدبوس. لكنه لم يعد كذلك. فبدون وجود برنارد هائجًا بسببه، ساحبًا، ومحايلاً إياه، بدأ ينتشر فى المكان وينتعش تمامًا مثل الزهرة التى أخيرًا تشعر بأشعة الشمس بعد قلع الشجرة. وفى المساء، ذلك الشحاذ اللئيم يفوز علىَّ فى لعبة المونوبولى. دباباته المعدن تحيط لوحة اللعب إلى أن لا يتبقى لى إلا خيار واحد وهو أن أعلن الحرب، تصفر الصفارة، ثم أفجر كل فنادقه وبيوته اللعينة إلى حطام.

"إنهم ليسوا حثالة." هكذا وصفهم فرانى، الذى يعمل معى فى مركز الإغاثة. **"إنهم طيارون. إنهم فى الأسطول١٠٣ لانكستر. والله بأمانة. هيا، يا كوينى، إنهم يستحقون منزلاً يرتاحون فيه."**

ثلاثة ضباط فى إجازة فى لندن قبل أن يرجعوا للخدمة فى القاعدة الجوية فى لينكولينشير. "**إنها خدمة تقدمينها لى، فعلاً. وتقدمينها لأختى، فهى من الأقرباء المقربين لكيب. هيا. يومان، إنهما يومان، فقط. أعرف بأن لديك غرفًا شاغرة.**"

إذا كان برنارد موجودًا لكان رفض بشدة، سواء كانوا طاقم قاذف القنابل، أو لم يكونوا طاقم قاذف القنابل. اندهش آرثر عندما استأذنته، فابيض وجهه مثل رغيف العيش. ثم ارتفع حاجب كثيف ببطء قبل أن يومئ، بالموافقة.

كان الشاى خفيفًا ـ فكلا الضابطين نظرا إلى الكوب حيث يساورهما الشك، لا يريدان أن يبلعا ذلك الشىء الذى فى فمهما. كانت آخر أوراق شاى لدينا، وبكل صراحة قمت باستخدامها من قبل. أرجو أن يصل الضابط الثالث قبل أن يبرد إبريق الشاى وإلا فلن يكون هناك خيار أمامى إلا أن أغلى له أوراق الهندباء، التى يراها آرثر، وفقط آرثر، شرابًا منعشًا بديلاً. الضابط أحمر الشعر له بشرة شاحبة بدا وكأنه عُفّر بالدقيق. كان لا يزال صبيًا، يضحك بعصبية قبل وبعد أى شىء يقوله. قدَّم نفسه بأن اسمه والتر لكن قال بأن الجميع ينادونه جنجر. لم أسئله عن السبب. ولكنى سألت الضابط الآخر عن سبب تسمية الآخرين له كيب.

"**لأنه اسمى**،" قال، "**فهو اختصار لكيبلنج.**" كان رجلاً أسمر بشارب كثيف وذقن زرقاء اللون، ولحية تمتلكها رغبة فى النمو. وأكمل فى الشرح، وهو ينزل بحرص كوب الشاى الخاص به الذى لم يشربه على المنضدة، بأن أمه كانت من أشد المعجبين بكيبلنج. "**حسنًا، كان يمكن أن يكون الأمر أشد سوءاً من ذلك ـ فهى أيضًا معجبة ببرونتى وترولوب.**"

"**أجل...**" قلت، وكنت على وشك أن أسأله عن ماذا حدث مع الشاب الآخر عندما سمعت ثلاث دقات عنيفة على الباب.

"**أوه، هذا هو الفرد الثالث فى مجموعتى،**" قال كيب.

ارتفعت بالكاد يد ضابط القوات الجوية الملكية وكأنها ستقدم التحية العسكرية، جاهزة لتدق على الباب مرة أخرى. ولم يكن هذا الشىء الوحيد الذى لاحظته. لقد فُقدت مجدداً فى معرض الإمبراطورية، تلك الفتاة الصغيرة فى فستان الأورجانزا الأبيض بالشريط، التى تدفق الدم إلى وجنتيها فاحمرت خجلاً. كان رجلاً ملونًا.

"**هل أنت السيدة بلاى؟ هل وصلت للعنوان الصحيح؟ مررت على ثلاثة منازل وكلهم قالوا إن هذا هو العنوان الصحيح.**" تطلع ناحية الشارع مرة أخرى. قال: "**أنا الرقيب روبرت.**" تحرك وجهه مكشراً عن ابتسامة عريضة للغاية وناصعة البياض يستطيع المرء أن يعرض عليها فيلمًا. "**هل جنجر وكيب بالداخل؟ أنت متوقعة قدومى؟ هل من الممكن لى الدخول؟**"

لم يحاول آرثر حتى إخفاء دهشته، ارتفع حاجباه من شدة الذهول لدرجة أنهما تشابكا مع شعر رأسه. ظننت بأنى كنت سأسلم عليه حين قال كيب: "**مايكل روبرتس ـ حسنًا، حسنًا، حسنًا، متأخر كالعادة.**"

كان سقوطًا واضحًا بثقل خمسين رطلاً، هكذا بدا الصوت. ارتج المنزل ومع عملية الهبوط تلك كنت فى مواجهة انزلاق لمؤخرة كبيرة زرقاء ناحيتى من على الدرابزين. هبطت محدثة صوتًا لخبطة مؤلمة مكتومة على قائم الدرابزين لأن ضابطًا آخر لحقه منزلقًا على رأسه. كانا كلاهما يقهقهان من شدة الضحك. كان جنجر هو الذى

سقط على الأرض فاركًا مؤخرته. وكان الرجل الملون، مايكل، ينزل قافزًا ثلاث درجات فى المرة. ثم سند على ظهر جنجر ووثب فوق رأسه صائحًا: **"كسبت الرهان. النزول على السلالم أسرع، يا أولاد. هيا، تعالوا وادفعوا الرهان."** وأُقسم إنه طار فوق الدرجات الأخيرة، هابطًا أمامى مباشرة ثم أخذ يرقص بخطوات خفيفة. مددتُ يدى لأوقفه. وقبل أن ألاحظ أمسك هو بى، يده فى يدى، والأخرى حول خصرى قائلاً: **"يا سيدة بلاى، أرجو المعذرة. آسف جداً."**

وعند سماع اسمى بدأ جنجر فى النهوض مستقيمًا فى حين قال كيب، وهو يفعل تمامًا مثله: **"آه، يا سيدة بلاى، كنا فقط نختبر قوة الدرابزين. إنه قوى جداً"** ثم ضربه بقبضة يده، وممثلا بحركات صامتة: "آآى."

شعرت بأنى عجوز واقفة أرتدى منديل رأسى القبيح ومئزرتى، ونصف ثمرة بطاطس مقشرة فى يدى، وثلاثة شباب أمامى، فى نفس عمرى، يرقصون أمامى ويحاولون كتم قهقهاتهم وكأنى أمهم التى تزجرهم. اعتدت أن أغنى فى الماضى. **"يا صاحب الحية، يا صاحب الحية، أنت خفيف العقل - الا تستطيع الالتحاق بالجيش؟"** لكن من الأسف لا أستطيع تذكر متى كانت آخر مرة كتمتُ فيها ضحكاتى وقفزت من على ثلاث درجات فى مرة واحدة.

"نريد أن نتكلم معك يا سيدة بلاى،" قال كيب، محاولاً أن يكون أكثر وقارًا. **"قد نتأخر فى الرجوع غداً. هل فى ذلك مشكلة؟"**

"كلا، آرثر يستطيع أن يدخلكم. سأطلب منه ذلك."

"شكرًا لك، هذا كرمٌ منك." قال، ناظرًا إلى الآخرين. فمن الواضح أنه كان يتحدث نيابة عنهم. **"حسنًا، أتمنى لك ليلة ممتعة."**

"**وكذلك أنت.**" قلت له:

وفى الحال فتح الباب الأمامى، ثم خطف كيب قبعة جنجر من على رأسه، ووثب على الدرج، فى حين تمكن جنجر من ركل مؤخرة كيب. ولكن خرج مايكل، الضابط الملون، ثم التفت للخلف ناحيتى وابتسم مجددًا نفس الابتسامة السينمائية.

كان مايكل فقط هو الذى ظهر فى الصباح. انتظر لدقيقة واقفًا عند باب المطبخ وياقة قميصه مفتوحة، وأكمامه مبرومة لأعلى، قبل أن يقول: "**صباح الخير.**"

ولا أدرى لماذا قفزتُ من مكانى ـ فقد كنت أعلم بوجوده. وكل الذى قمت به هو أنى رددتُ عليه قائلة: "**صباح الخير**،" ووضعتُ إبريق الشاى على الموقد وأشعلتُ شعلة الموقد. لكنى رفعتُ البراد الذى أمامى وقلت: "**أتريد بعض...؟**" وفجأة نسيت اسم ذلك الشىء البنى الذى دائمًا نشربه.

"**شاى؟**" قال.

ضحكت بقهقهة، الشاى، ثم سكبت الماء البارد فى براد الشاى.

"**أجل، شكراً لك. هذا لطيف. لديك منزل كبير.**"

"**زوجى... حسنًا، آرثر...**"

"**آرثر هو زوجك؟**"

"**كلا، كلا، كلا!**" كدتُ أصرخ.

رفع كفيه عاليًا ـ كانت راحة كفيه وردية اللون وشرطت بخطوط بنية عميقة. وقال: "**آوه، أرجو المعذرة.**"

"كلا... كلا... لا بأس. زوجى التحق بالخدمة العسكرية ببلاد ما وراء البحار."

"فى الجيش، البحرية؟"

"نعم."

"أى أسطول؟"

"كلا. آسفة. فى القوات الجوية الملكية."

"القوات الجوية الملكية. هل أنت متاكدة؟"

وها هى تلك القهقهة اللعينة مرة أخرى. **"نعم."** قلت، ساكبة الشاى من البراد فى الكوب. أستطيع أن أرى بكل وضوح أنه ماء بارد وتتطاير على سطح الكوب بعض الذرات السوداء، لكن اصفعنى إذا استطعت أن أفكر فى حلٍ مناسبٍ مقبول.

أخذت الإبريق ووضعته على الموقد. حاولت إشعال عود ثقاب. انكسر الأول، وطار الثانى عبر أرضية المطبخ. وأسقطتُ الثالث قبل أن يقول: **"دعينى أساعدك."** ولمس بأطراف أنامله أطراف أناملى وهو يأخذ الثقاب من يدى. وبمجرد أن أشعل الموقد كان يقف بالقرب منى، وكنت لست متأكدة ما إذا كانت الحرارة التى أشعر بها تخرج من النار أم من جسمه. كانت تفوح منه رائحة ليلة أمس ـ سجائر، وبيرة، ونفحة عطر حريمى خفيف. نظر فى كوب الماء الذى سكبته له، ثم نظر إلى. ثنى زاوية فمه قليلاً ـ بالكاد ابتسامة، تبدو أسفًا أكثر منها ابتسامة. فخطوت للخلف، بعيدًا عنه.

"أين الآخرون؟" قلت، مشغولة البال بشعرى. فقد كنت متأكدة بأن هناك شيئًا غير مضبوط. أو ربما وجهى. لقد اهتممتُ به هذا

الصباح لأول مرة منذ آخر مرة أستطيع تذكرها. لقد قمت بتمويجه لكن هناك بعض الخصل التى لم تفلح. وكان لدى أحمر شفاه قديم اضطررت أن أدفع بظفر إصبعى للداخل حتى أستخرج بعضًا منه. لا يوجد أحمر شفاه ولا بودرة الزينة. فقرصت خدودى ليصبح لونها ورديًا ومن الواضح أنى قرصتها بشدة ـ لقد تسببت فى خربشة وجهى، وظهرت كدمة. لأنه حتى وإن لم يكن يستخدم عينيه فقد كان يتفحصنى. أو ربما أفرطتُ فى استخدام رائحة زنبق الوادى.

"جنجر لا يزال نائماً. فلقد أمضى ليلة ممتعة. ولكن كيب؟ لا اكذب عليك، يا سيدة بلاى..."

قلت: **"كوينى، رجاء نادنى كوينى،"** ثم ندمت أنى قلتها عندما لمعت عينه، التى برقت مثل نور الجنية، بطريقة خاطئة على تلك الكلمات تمامًا كما لو كنت قد كتبتها بالعكس على ورقة.

قال ببطء: **"كوينى،"** ثم أضاف: **"كيب لم يرجع معنا. ففتاته كانت تخطط له شيئًا فى بالها."**

"وماذا كان ذلك؟" قلت.

جلس، ورفع رأسه لينظر إلى قبل أن ألاحظ مدى حماقة السؤال. لكن، كونى غبية، كنت مازالت أنتظر منه ردًا. **"آسف. لا أعرف بالضبط ماذا كان ذلك."** أخيرًا قال لى.

ذهبت ناحية الحوض، وأعطيته ظهرى. كانت ساقاى عاريتين، وقدماى مبتعدتين عن بعضهما البعض. فألصقتهما ببعض. أعلم بأن فى فستانى زرارًا غريبًا من الأمام. فوضعت يدى عليه

لأتحسسه. كان الزرار مفتوحًا! وبسرعة زررته. وتطير تلك الخصلة اللعينة على عينى وأنا أمسك بإبريق الشاى.

كان الفستان الذى أرتديه قصيرًا وضيقًا للغاية. وكنت أعلم أنه يراقبنى. حاولت أن أريح وضعية جسمى ـ بأن أضع وزنى كله على قدم واحدة. ولكنى قلقت إن فعلت ذلك يقصر الفستان ويرتفع على أردافى، فلهذا وقفت مستقيمة. كنت منتبهة لكل حركة تصدر من جسمى. كل الأعضاء التى تعمل لاإراديًا أصبحت تحت السيطرة. عليك أن تحركى اليدين دون أن ترتعشا. هيا، الرئتان، شهيق زفير، شهيق زفير. أوقف البلع يا حلقى! لم أستطع التخلص من الشاى الغالى: فلم يستخدم بعد، وأمضى آرثر فى الطابور الساعات من أجل إحضاره. جلبت المصفاة وسكبت الماء من خلالها ـ فتجمعت أوراق الشاى المبللة. وكل هذا الوقت كنت أفكر، أراهن بأنه يتساءل عن ماذا أفعل. وانصرف الماء عبر مصرف الحوض محدثًا صوتًا عاليًا، فوضعت إصبعى فى الثقب لأمنع ذلك الصوت المقرف إذا ما اعتقد إن الصوت يصدر منى.

شممتُ رائحة شيء يحترق عندما قال: "**كوينى؟**" التفت بسرعة ناحيته فنثرتُ مصفاة الشاى من على لوحة تجفيف الأوانى. فتبعثر الشاى على الأرض، فاندفعت رواسب الشاى السوداء ملطخة ساقى. أعلم بأنه رأى ذلك لكنه كان مشغولاً برفع الإبريق من على الموقد ـ بحذر شديد، ساحبًا كمَّ قميصه إلى أسفل وهو يلف به يده بارتباك. قال: "**ربما**،"وهو يرج الإبريق ليرينى إياه، وأكمل: "**علينا وضع بعض الماء فيه.**"

لاحظتُ لاحقًا فى المساء فقط بأن لديه شاربًا عندما كان يقف عند بابى. اعتقدت فى الأول أنه خيال غامق على شفته. إلا أن

إضاءة الردهة الخافتة جعلتنى أتمكن من رؤية أرفع خط من الشعر القصير والغليظ. كان متكئًا على الباب دون تكلف، وسترته معلقة على كتفه عندما سألنى: "**هل لديك فتاحة العلب المعدن؟**"

"**ولماذا تريد فتاحة العلب المعدن؟**"

"**لكى أتمكن من فتح العلبة المعدن.**"

شعرت بأن الرد كان وقحًا بعض الشىء. فلم أكن بلهاء لهذا الحد. "**ظننت أنكم خرجتم جميعكم هذا المساء.**"

وقف مستقيمًا، رافعًا يديه ليضعهما على إطار الباب بالقرب منى. "**كلاهما لديهما صديقتان ذهبا لمقابلتهما وشعرت أنا ببعض التعب.**" وبدأ يفتش فى جيب سترته وأخرج علبة معدن للحم الخنزير. وأعطاها لى، وقال: "**هذه تحتاج إلى فتاحة العلب.**" وكان لا يزال يتحسس جيب سترته حتى أخرج منها شوكولاتة أمريكية وبرتقالة، التى تعرفت عليها بصعوبة. وقال: "**وأما هذان فأحتاج إلى من يشاطرنى فيهما.**"

كم تمنيت ألا أبدو متلهفة عندما قلت له: "**حسنًا، لماذا لا تأتى وتنضم إلينا، إذن؟**"

سألت: "**أنت تقامر؟**" لم أمكث طويلاً فى المطبخ، لكن عندما خرجت وجدت مايكل وآرثر يلعبان وورق الكوتشينة فى أيديهما وكأنه مروحة، ووضعت بينهما على المنضدة عملات نحاسية مكدسة

قال مايكل، دون أن ينظر ناحيتى: "**كلا، أنا من يقامر. حماك متأكد من أنه سيفوز.**"

"وكيف تقصد ذلك؟"

"لأنه يغش."

الشحاذ الوقح، فكرت مع نفسى. قد يكون هو من أحضر الطعام إلا أنه لايزال ضيفًا. فقلت له: "آرثر لا يغش."

"بلى، هو يغش. لا أدرى كيف يغش ولكنه بالتأكيد يفعل ذلك."

"أعتقد أنه من الوقاحة أن تقول هذا الكلام."

"يا كوينى، إذا لم يكن يغش فإذاً دعينى أخبرك بأن حماك أكثر الرجال حظاً على كوكب الأرض."

وكنت أقول: "إنى أعتقد أن عليك بالفعل الاعتذار..." عندما رفع آرثر نظره إلى وغمز لى. كانت تلك الغمزة لى ولكن لا شىء يمكن أن يمر على ضابط القوات الجوية الملكية هذا ـ فهو مقاتل مدفعية خلفية قبل أى شىء. أم هل كل بنى وطنه حادو البصر؟ وأخذ يجول ببصره ناحيتى وناحية آرثر. "إذن، أنا كنت على حق. لكن لا مشكلة. هل تدرى لماذا؟ لأنك غشاش ماهر، يا سيد بلاى. هيا نلعب دوراً جديداً، هيا، لأرى إذا كنت تعلمت أسرار لعبك."

وبينما يلخبط آرثر رزمة ورق اللعب، يده تحرك الورق بسرعة تمنع رؤية ما فيه بوضوح، قال مايكل: "إذن، الآن، يا كوينى، إذا لم أكن مخطئاً أنت من تدين لى باعتذار." ثم أضاف: "لكن لاحقاً."

استمر فى تحريك أطراف كروت اللعب الخاصة به مصدراً أصوات همهمة عميقة من حلقه. وببطء هز رأسه، ثم أحناها يسارًا، ثم يمينًا، وهو يراقب آرثر، الذى جلس ثابتًا مثل شمس مشرقة فى ظهيرة يوم أحد. كان لون مايكل مثل ثمرة الكستنة

البرية ـ ليس محمرًا وكأنها للتو أخرجت من صدفتها بل بعد أن أصبحت مكمدة اللون فى الجيب لفترة. وعندما انحنى للأمام ليلتقط كارتًا تحرك قميصه مفسحًا عن بشرة صدره داكنة اللون. هل سيعرف المرء إذا كان عاريًا عندما يخلع ملابسه أم سيبدو وكأنه غلف بالجلد من رأسه إلى قدميه؟

"سيد بلاى،" قال: **"هل تحب أن تعلمنى سر لعبك؟"**

"هو لا يتكلم." قلت له.

"أعرف ـ أنا أراقب هذين الحاجبين."

هل ملمس شعره كملمس الشعر العادى أم مثل ملمس شىء تفرك به المقلاة؟ هل سيحك جلدك أم سيكون له ملمس رقيق مثل سترة بطنت بوبر الأرنب؟

"لقد فزت مجدداً." قال. فمه من الداخل وردى اللون مثل فرشاة بودرة الزينة. شفتاه سمينتان مثل السجق ـ هل ستقوم بالقفز عليهما أم ستكونان ناعمتين عند التقبيل؟

"هيا، يا سيد بلاى، لقد أخذت كل نقودى، هلا علمتنى شيئًا فى المقابل؟"

لكن نهض آرثر. ترك الكروت جانبًا وأخذ يعد العملات النحاسية على المنضدة تمامًا بنفس دقة برنارد.

"لا تستطيع أن تتركنى وأنا مستثار هكذا ـ هيا، أخبرنى كيف تفعل ذلك؟" أومأ آرثر برأسه ليعنى تصبح على خير، واضعًا العملات النحاسية التى تتلقلق فى يده فى جيبه ـ أولاً لمايكل، واضعًا إصبعًا على إحدى جانبى أنفه، والثانية كانت لى مع غمزة ــ

قبل أن يغادر الغرفة. رف مايكل بصره إلى. ظننت أنه سيقول شيئًا ما فأبقيت نظرى عليه. لكنه لم يقل شيئًا. واحد منا عليه أن يشيح بنظره الأول. وكان ينبغى أن أكون أنا، فلقد كنت أتحرق شوقًا.

قلت: **"لم أتخيل أنه يفعل ذلك ـ هو دائمًا يفاجئنى."** ومازال مايكل يحدق بى، صامتًا. فقلت: **"طيب، علىَّ الذهاب إلى النوم."**

"ألا تجلسين معى قليلاً؟"

"الوقت متأخر."

"سأرحل غداً. لماذا لا تسألينى كل الأسئلة التى كنت وأنت جالسة هناك تفكرين بها فى هدوء؟"

"أى أسئلة؟"

"لا أعرف ـ أخبرينى أنت."

"ما الذى يجعلك تعتقد بأن لدى أسئلة"؟

"حسنًا، أليس يمتلكك الفضول بخصوص الرجل الملون الذى فى منزلك؟"

لم يكن يقرأ ما يخطر ببالى، كنت أنا السبب ـ فأنا كنت واضحة للعيان.

"طيب..." قلت. **"من أين أنت؟"**

"من أين أنا؟" كرر سؤالى مرتين لنفسه.

"هل هو سؤالٌ صعب عليك؟ هل أسألك سؤالاً آخر أسهل؟" سألته.

"جامايكا."

"هل هى فى إفريقيا؟"

صُدر منه صوت غريب، كما لو كان يمص جزءًا من غضروف حشر بين أسنانه. "لماذا كل شخص إنجليزى أقابله يعتقد أن جامايكا فى إفريقيا؟"

"هل هى ليست كذلك؟"

"كلا، هى ليست كذلك. إنها جزيرة فى الكاريبى."

"آوه، حسنًا، أنا لم أزر أى مكان." قلت بسرعة.

"إن أى شخص لم يسافر إلى أى مكان يعتقد أن أمه أفضل طاهية. هل تحبين طبخ أمك؟" ظهرت على وجهه ابتسامة دافئة.

"ليس بالضبط."

"إذن فلابد أنك سافرت إلى مكان ما."

"ألا تفتقد عائلتك؟"

"ليس لدى أى عائلة فى جامايكا. أبى وأمى قد توفيا. وليس لدى أحد آخر."

"ولا حبيبة؟" رجع ببصره إلى مرة أخرى. فشعرت بارتباك وقلت: حتماً تشتاق أن تكون بين بنى جلدتك."

"بنو جلدتى؟" عبس ولكنه لم يرفع عينه من علىّ.

"أقصد أنك بعيد عن وطنك."

اقترب منى وركع أمامى على الأرض مريحًا ذراعه على حافة الكرسى الذى أجلس عليه. شعرت بساقه تلمس قدمى. "لدينا عصفور فى جامايكا." قال، برقة وكأنها قصة قبل النوم. "طائر

الطنان ـ العصفور الوطنى فى البلاد." كان نفسه يداعب خدودى. "إنه صغير الحجم لكنه جميل ـ أزرق، وأخضر، وأرجوانى، وأحمر ـ كل الألوان تستطيعين رؤيتها على جسمه المغطى بالريش. وعندما يطير، ترفرف أجنحته بسرعة لا تستطيعين رؤيتهما. يحوم ـ أجنحته تضرب بسرعة حتى تجعله ثابتًا ـ بينما، وبثبات كرجل معه مسدس، يدب بمنقاره فى الزهرة ليتغذى..."، ولمست يداه خدودى برقة ــ وأصابعه ترفرف مثل الأجنحة، وشفتاه مضمومتان مثل منقار العصفور الثابت.

"فى مرة من المرات فى لندن أثناء الغارة الجوية، والدمار من حولى فى كل مكان. هل تعلمين ماذا رأيت؟" يداه طارت عاليًا. "الطائر الطنان. يطير وسط الحطام والقراميد، إنه الطائر الطنان. بين الشاحنات وصخب المدينة، الطائر الطنان. بيكادلى وميدان ترافلجار والطائر الطنان. ظننت بأن عينىً تخونانى ـ كان هناك الكثير من جولات الطيران فى هذه الحرب. ولكنى لم أره قط." استحوذت عليه مشاعره ــ محدقًا فى سقفنا وكأن ذلك الطائر الجميل يحلق بالقرب من الكرانيش والتجويفات التى بالسقف، ومشيرًا إلى حتى أراه أنا أيضًا. "الطائر الطنان فى لندن. أخذت أراقب العصفور كما لو كنت رأيت صديقًا عزيزًا قديمًا. بدا باهت الهيئة فى النور البريطانى الكئيب ـ لا توجد شمس لتجعله يبرق فى النور. ولكن ها هو ذاك بعيداً عن الوطن ومع ذلك كان سعيداً أن توافرت له الفرصة ليجرب طعم رحيق الزهوّر الإنجليزية." وعندما رفرفت يداه إلى أسفل، داعبت أنامله شعرى.

الفصل التاسع والعشرون

كوينى

لم أكن أنا. السيدة كوينى بلاى، لم تكن هناك من أساسه. كانت تلك المرأة بمثابة الجمال بعينه ـ لم يستطع أن يكتفى منها. لقد أعجبه ملمس شعر ساقها الأشقر الناعم. كانت حلمات صدرها ورديتَى اللون لم ير مثلهما من قبل. رقبتها ـ أخذ ينثر قبلاته على رقبتها. كانت تلك المرأة أكثر إغراء من أى نجمة سينمائية تظهر على الشاشة الفضية. تشابكت أرجلهما مرات مثل خطوط الحمار الوحشى وانفك ذلك التشابك فى مرات أخرى على السرير. ويدها، شاحبة مثل يد شبح، تلمس تحببًا كل جزء من أجزاء جسمه ذى البشرة البنية بلون البندق. كانت مرغوبة بشدة فلفحها نفسه الساخن ـ ولسانه هناك يلحس ما بين ساقيها مثلما تلحس القطة اللبن. لم أكن أنا. تلك المرأة تراقب مؤخرته وهى تعلو وتنخفض بينما تمص كل إصبع من أصابع يده. خدشت ظهره بأظافرها وأخذت تصرخ حتى أنزل فمه ناحيتها وأدخل لسانه المتلهف فى

فمها. لم أكن أنا. فتلك المرأة كانت تلهث وهى تُقتحم وتُعض. وعندما برمها أخذت تصيح بطريقة رهيبة فى الوسادة. السيدة بلاى لا تفعل كل تلك الأشياء أبدًا. فالسيدة بلاى، تلك، عادة تفكر فى ماذا ستعده على الغداء أثناء إقامة العلاقة الزوجية مع زوجها. لكن هذ المرأة، لولا وجود الستارة، لأضاءت لندن.

لقد شعرتُ به وهو يرحل بالليل. فناحية السرير التى أدفأها بجسمه أخذت تبرد بشدة تدريجيًا، وأنا مازلت نائمة عارية تمامًا تحت أغطية السرير القذرة. كنت أعلم أن مايكل، والشابين الآخرين، كانوا بالطابق الأسفل ليلحقوا بالقطار باكرًا ـ وسألوا عن أفضل طريق يسلكوه إلى المحطة. ولم يمض من الوقت الكثير إلا وكانوا يقفزون على الدرج ويصفقون الباب خلفهم، راجعين إلى وحدتهم الجوية لأداء خدمتهم العسكرية. إلا أنه كان هناك خبط خفيف على باب غرفتى قبل أن يرحلوا ـ مرة، مرتين. بل إن الباب فُتح قليلا ثم أُغلق بحرص. كنت فى حالة من الكسل من أن أقول مع السلامة. فى الحقيقة، إن مايكل روبرتس يستحق التوديع باستعراض عسكرى فيه أبواق وراقصات. وعندما كان آرثر يوقظنى بإلحاح بان لى أننى ربما كنت على خطأ ـ فلا يزال هناك بعض الزغب من الشعر الأسود الخشن أو آثار خمس أصابع أقدام لزنجى حيث المكان الذى ينبغى أن يكون فيه زوجى مرتديًا بيجامة زررت كل أزرارها.

"ماذا هناك، يا آرثر؟" سألت. فى بعض الأوقات لا تكفينى حواجبه لكى أفهمه. كان مثل الكلب الذى يحاول أن يجعل صاحبه يأتى لينقذ الطفل من البئر، وكان علىَّ أن أخمن ماذا تعنى كل تلك

الأصوات التى تصدر منه والإشارات بإصبعه وحركات رأسه. "آوه، الرحمة،" وأخيرًا جذبت بشدة ما معه. **"ليس هناك أى مشكلة فى صوتك، يا آرثر - الا تستطيع أن تتكلم ولو لمرة واحدة لعينة؟"** وفجأة خلا وجهه من علامات اللهفة وأصبح عديم الملامح، وفى الحال ندمت على ما قلته. كنت آسفة للغاية.

لقد وجد محفظة جلد بالية التى من المؤكد أنه قد فقدها أو نساها الرقيب مايكل روبرتس وهو يغادر مسرعًا. كانت هناك بعض الصور فى الجيوب الداخلية الممزقة الرثة للمحفظة. صورة لرجل زنجى عجوز يقف بطريقة رسمية أمام منزل. يبدو للعالم كله مثل قرد الشامبانزى مرتديًا ملابس، ومالك العزبة هذا يقف خلف امرأة سوداء جالسة، شعرها أبيض ووجهها نكد مثل صباح يوم الاثنين. وصورة أخرى لفتاة سوداء صغيرة ذات شعر أجعد منكوش مربوط بشرائط كبيرة بمقاس الضمامات بالضبط. يبدون جميعًا مثل أى صور لضابط طيار، مطوية عند الزاوية وبالية من جراء ما رأت من عاطفة. من المؤكد أن محفظته قد سقطت من جيب سترته عندما كان يفتش على أسلحة حرب الإغراء الخاصة به ـ علبة لحم الخنزير المعدنية، وبرتقالته. لكن هناك شيئًا ما يتعلق بشكلها البالى يجعلك تعرف بأن هذه المحفظة كانت توضع فى أماكن مختلفة. حُشرت فى الجيب، أو دفست فى حقيبة الأدوات، أو خُبئت تحت القبعة.

كانت عزيزة لدرجة أن ملمسها أدفأ أناملى وأنا أحملها. ربما تكون تعويذته التى تجلب له الحظ. لقد أُخبرت بأن كل الطيارين لديهم تعويذاتهم الخاصة بهم ـ وإنهم ليسوا بأمان إلا بوجودها معهم. إنها حظ مايكل روبرتس وليس مكانها فى أن تكون فى يدى.

ولهذا لبست ملابسى بسرعة وفى بالى فكرة واحدة وهى أن ألحقه فى المحطة، وأعطيها له قبل فوات الأوان. وعلى أية حال، فالعثور على رجل ملون فى زى قوات الجوية الملكية فى المحطة أسهل من أن أقضى النهار أنظر نظرات كلها أسف لوجه آرثر ويجد أن زوجة ابنه الفاجرة العاهرة لم تعد تستطيع النظر فى عينيه.

لم أكن بعيدة عن المحطة عندما سمعت اسمى يُنادى بنفس الطريقة العاجلة التى ينادينى بها برنارد عندما يحتاج إلى منشفة ليخرج من الحمام. وعندما التفت حولى أقسم بأن هناك من أخذ صورة لى ـ فضوء آلة التصوير برق فى عينىّ. وبعدها رُفعت قدماى من على الأرض. أستطيع أن أرى الرصيف من تحتى، وأشعر بأزيز الهواء، ودوى بحر بلا أمواج يتدفق فى أذنى. ثم عمَّ الهدوء إلا أن هناك نغمة عالية وحادة أسمعها فى رأسى. لم أكن الوحيدة التى طارت. فهناك امرأة، عبارة عن لفَّة من الملابس البالية، كانت تتدحرج ـ سترة من الصوف وتنورة، تفتل وترفرف. ورجلٌ، أم كان صبيًا؟ يتقوس، كأنه يقوم بقفزة غطس من لوح السباحة. ورقصة باليه صامتة فى منتهى الروعة لدرجة أن عينى خرجتا من مقلتيهما من جمال المنظر. هناك شئٌ ما قد ضربنى بقوة على ظهرى، سُحبت كل أنفاسى من شدة الضربة. ثم بعد ذلك أفقت وأنا أنزل. كنت أتزحلق من على الزحليقة بالقرب من المدرسة. وكان هناك ويلفرد مرتديًا حذاء والده المتوفى ذا الرقبة العالية يصرخ صراخًا حادًا مثل البنات. "اخرس،" قلت له، "ستوقظ الموتى،" سقطتُ محدثة صوتًا مكتومًا ـ فالأرض صلبة جدًا فى الشتاء. "**المكان مظلم، انظر إلى الضباب. يا له من ضباب كثيف واصفر! اذهب إلى البيت. لا اريد ان اتزحلق مرة اخرى، يا ويلفرد، كما انى لا اتنفس**

الآن. ابحث عن منزلك. اذهب، هيا انصرف. سأبقى هنا بعض الوقت وأخلد للنوم."

وعندما استيقظت، توقف صوت صراخ ويلفرد الحاد. من المؤكد أنه ذهب إلى بيته. كلا، يا كوينى، لم يكن متواجدًا هنا مطلقًا. ولم يكن هناك أى ضباب، إنما كان غبار القرميد والزجاج والخشب والسخام الذى اندفع كاندفاع الموج مختلطًا مع طيات كثيفة من دخان القرنبيط القذر. فقدت فردة حذاء، وتمزقت سترتى، وبرمت تنورتى لأعلى حول خصرى، وكُشف سروالى الداخلى للجميع لمن يحب أن يلقى نظرة. وكانت شظايا الزجاج الفضية فى شعرى. وشعرت بطعم الدم عند زوايا فمى.

من المحتمل أنى مت. لقد أسند ظهرى على حائط، تقهقرت للوراء فى المكان الذى سقطت فيه، كنت غير قادرة على الحركة، أراقب ما حولى بصمت ومازال الغناء الملائكى أسمعه فى أذنى. رأيت دمية تسقط ببطء من السماء ناحية شجرة: غصن جرد من كل أوراقه التقط الدمية من شعرها الأسود الأشعث. وهناك منزل شُقت واجهته الأمامية تمامًا كما لو كانت قطعت وأُمسكت بالمفصلات. فبدا كبيت الدمية ظهرت منه كل الغرف. والسلم الداخلى تعرج فى البهو الضيق. ظهرت غرفة النوم وما بها من سرير منزلق، وملاءة متدلية، ترفرف كعلم أبيض. وكان هناك دولاب ملابس مفتوح بعثر ما فيه من ملابس ونثرت بالخارج. وكراسى بأذرع وثيرة ليس عليها أحد مستكينة بالقرب من النار. وإبريق الشاى وحذاءان برقبة عالية تتخطى الركبة معًا على الموقد. وكان فى الحمام ـ تقف فى أحد جوانب الحمام، تمسك بالستارة كما لو كانت على وشك تقديم عرض مسرحى حالا ـ امرأة عارية. وتخرج

صرخة مكتومة من السيدة التى وقفت تحدق فى الدمية على الشجرة التى تدلت واهنة ومتسخة مرتدية قبعة صغيرة وردية اللون. ركعت المرأة على ركبتيها وبدأت تصلى، بينما كان هناك رجلٌ فى بدلته الرسمية استدار ببطء ليتقيأ من فظاعة المنظر.

لكن بالتأكيد الموتى لا يشعرون بالألم، هذا هو كل ما فى الموضوع. جماعات السكان، هكذا كنت فى تلك اللحظة. كنت أحترق مثل سمك السلمون المدخن، كنت واحدة من المصابين بالقنابل. إذا كانت القنبلة الزنانة فلم أسمع صوت أنينها وهى تنخفض. ولم يتوفر لدى الوقت الكافى لأخطط فى أى مكان ستقع. ولكن كان من المؤكد بأنى كنت أمشى بين البيوت. امرأة كانت تنادى من الشباك قائلة: "**هيرمان، هيا ادخل هنا.**" وفكرت مع نفسى، هذا أمرٌ عادى. والصبى راكضًا ينظر إلى وهو يمر بجانبى. وقطٌّ يتمطع على درجة. أحداث يومية لأتذكرها لكن حتمًا كان هناك ناس تمشى، تنظر فى الساعة لترى ما إذا كانت متأخرة عن ميعاد القطار، تشابكت أذرعهم ببعض، ويحملون الحقائب. كان هناك رجل عجوز يقرأ الجريدة وحانة فى الزاوية تتأرجح لافتتها. أين ذهب كل هذا؟ الآن كل شىء أصبح تلالاً من الركام، المتكسرة، الملتوية، لها صرير، يتصاعد منها الدخان تحت سماء عالية. وكل الذى تبقى هو تلك الأرض الجرداء الكئيبة.

"**هل تستطيعين الوقوف، يا عزيزتى؟ هل تسمعينى؟ هل تستطيعين الوقوف، يا آنسة؟ هل أنت بخير؟ هل تستطيعين الحركة؟**" يقترب وجه رجل جدًا لوجهى، ونفس كريه كنفس الكلب. أستطيع فقط أن أسمعه وأعرف تماما ماذا كان يقول ــ لقد قلته عدة مرات. أشرت بيدى فى حالة لو لم ير أى شخص تلك المرأة

العارية فى الحمام. فنظر إليها. وقال: "لا تشغلى بالك بهذا، سنعتنى بأمر تلك الشابة. دعينا نَرَ إذا كنت تستطيعين المشى. أخبرينى باسمك. هلا قلت لى ما اسمك؟"

قلت: **"كوينى،"** أو على الأقل هذا ما اعتقدت أنى قلته.

"هل تستطيعين سماعى، يا عزيزتى؟"

"كوينى؟"

"حسنًا، كوينى، دعينا نساعدك لتقفى. فأنت لست مصابة بإصابات بالغة. فلقد رأيت الأسوأ من حالتك أُخرجوا من حانة ليلة السبت. هيا انهضى."

ثلاثة رجال يضعون سلمًا خشبيًا عاليًا، محاولين تثبيته على الأرض بين الرمل الوعث الناتج من الحطام. فى ذلك الحين كانت المرأة ـ بدا شكل شعر عانتها الداكن لديها مثل مثلث مثالى ـ تحدق من الغرفة التى انقصفت وكأنها مذهولة قليلاً لماذا كونها تشعر بالبرد الآن.

"هل تستطيعين السير إلى سيارة الإسعاف؟ بالطبع تستطيعين؟"

مفاصل جسمى التى تتحرك بنشاط تؤلمنى بشدة لدرجة أنها تحتاج إلى تزييت. ويتناثر الزجاج من رأسى على التوالى مثل أوراق شجرة عيد الميلاد. أحد الرجال بدأ بتسلق السلم ـ وطئ بقدمه على كل عارضة من عوارض السلم بحذر شديد وكأنها ملغمة.

"هيا يا كوينى، هل تستطيعين المشى؟ لا تهتمى بما يحدث هناك، الأمر تحت السيطرة هناك. أنت فقط عليك الانتباه إلى خطواتك."

صعد الرجل إليها الآن، أمام الحمام الذى كان مكانًا ذا خصوصية من قبل، طالبًا منها أن تأتى إليه، وأن تخطو على السلم. لكنها وقفت ثابتة مثل الحجر، رافضة الإقرار بأن الوضع ليس على ما يرام. تحسس الأرضية المكسورة، ضاغطًا عليها برفق، ثم خطا من على عارض السلم. وعندما وصل إليها لفها بسترته مترجيًا المرأة أن تضع ذراعيها فى الأكمام. أطاعته كما لو كانت تمشى وهى نائمة.

مشيتُ أربع خطوات، والرجل يسندنى. أعرف أنهم أربع خطوات لأن كل خطوة كانت صعبة وكأنها الخطوة الأولى لطفل رضيع. فى بادئ الأمر ترنح كعبا قدمىّ الحافيتين المزقتين. وأثناء الخطوة الثالثة تعثرت. ثم كانت الخطوة الرابعة التى داست قدماى المزقتان الحافيتان على شىء لين. نظرتُ إلى أسفل فرأيت أنى دعست على كف يد مقلوبة لأعلى ـ أطبقت الأصابع على قدمى من ثقل وزنى. أستطيع الشعور بدفء الكف يأتينى من بطن قدمى. "آسفة،" متوقعة سماع صراخ من الألم.

"فقط حافظى على النظر إلى سيارة الإسعاف، علينا الذهاب إلى هناك. كوينى هل تسمعينى؟ هل تسمعينى؟ هيا، يا عزيزتى - اقتربنا الآن. سنجعلك حالاً تشعرين بتحسن وأمان."

كانت تلك الكف ترتدى خاتمًا ذهبيًا، وكُمًا من الصوف الأزرق، لكنها ملقاة هناك غير ملحقة بأى جسم. لقد حضنت قدمى يدٌ مبتورة منقوعة فى ملابس بالية ملطخة بالدماء.

قال لى العديد من الناس فى المستشفى بأنى محظوظة. الممرضة، والشرطى، حتى امرأة عجوز ضئيلة الحجم بعين ملفوفة بضمادة كبيرة بيضاء. **"لا تحزنى، كان يمكن أن يكون أسوأ من ذلك."** كسور فى الضلوع، ورسغ مخلوع، وخدٌ منفوخ لونه مثل برقوق

ناضج. بعد الهجوم بالصاروخ —نعم، فأنا أعتقد أن هذا هو الحظ اللعين.

"**سأكون على ما يرام، سأكون على ما يرام.**" كررت ذلك لآرثر، أخذ يلف حولى قلقًا مثل الأم. أعد الشاى، ثم جلس بجوارى، مراقبًا يدى وهى ترتعش ممسكة بالفنجان وأنا أوجهه ناحية ذقنى. اضطررت أن أضعه قبل أن ينسكب منه الكثير من الشاى. ثم أحضر قطعة قماش ومسح برقة وجهى. ووضع الفنجان فى يدى مرة أخرى. وفى هذه المرة كانت يده، كالحجر، أطبقت على يدى، حضنتها حتى وصل المشروب الدافئ اللذيذ إلى فمى.

"**ياله من تحول جديد، أليس كذلك، يا آرثر؟**" قلت. لم أكن محظوظة، بل مثيرة للشفقة. كل تلك الأعوام فى الحرب، وكل هؤلاء المتضررين بالقنابل والصواريخ الذين يقدرون على الضحك والابتسام إلى بنظرة ثابتة بعد أن دمر كل شىء يمتلكونه، وها أنا، أرتعش بقوة لدرجة أن رجلاً محاربًا قديمًا مصابًا بالصدمة من حرب قديمة عليه أن يساعدنى لأضع كوب الشاى عند فمى.

"**ثق بى، هاه، يا آرثر. أن تموت وأنت على وشك الفوز بالحرب، يعد أمرًا مضحكًا، فعلاً، عندما تنظر إليها بهذه الطريقة. أليس تعتقد بأنه أمر مضحك؟ هاه، يا آرثر، ألا تعتقد بأنه مضحك؟**"

ساعدنى لأذهب إلى السرير، صعد معى الدرج ـ فقد كنت عليلة للغاية.

سمعت أحدًا ينطق اسمى. قبل الانفجار هناك شخص ما نادى علىّ. يا ترى من يكون، من تعتقد؟ هل تعتقد أنها خالتى دوروثى أو أخى الصغير جيمى، أقصد شخصًا ما من العالم الآخر؟ لم أسأله إذا رآنى مايكل فى الشارع، بالرغم من رغبتى فى ذلك. لكن كان

آرثر يثنى ملاءة السرير ويخبط على الوسادة التى مازالت تحتوى على همسات مايكل روبرتس الجريئة. لم أكن أستطيع أن أزرر أزرار قميص النوم، فأناملى كانت ترتعش. **"هيا، يا كوينى، تماسكى."** قلت لنفسى. أجلسنى آرثر على طرف السرير ويحرص زرر لى الأزرار. **"شكرًا لك،"** قلت له. غطانى، وأحكم الغطاء كما ينبغى لطفل قلق. ثم، مخفضًا رأسه، تحرك ناحيتى. أعلم بأنه سيقبلنى. لكنه كان سيقبلنى فى فمى. فأزحتُ وجهى جانبًا. تردد، خائفًا كحبيب تمادى. وبرقة، وببطء، فتح فمه.

"سأموت إذا حدث لك أى مكروه." قال: ناطقًا كلمة كلمة.

لقد تكلمت يا آرثر. كان صوته عميقًا مثل برنارد، وأنيقًا مثل إذاعة البى بى سى. كنت مذهولة مثل الدولاب الذى لم يعد يستوعب المزيد من الملابس. **"لقد تكلمت، انت تستطيع التكلم،"** انتظرت، أريده أن يقول أى شىء آخر. تكلم معى. يستطيع أن يحكى لى عن الأشياء التى رآها. يشرح لى كيف كان يبدو له الحال. كيف شعر، فيم فكر. أو ربما، يقرأ لى قصيدة. لكنه لم يفعل أيًا من هذا ـ لقد مال إلى الأمام مجددًا، لكن هذه المرة ليقبل جبهتى. ولم يكن بيدى حيلة ـ وبدأت أبكى بأنفاس سريعة. لقد فكرنى بتلك الساعة اللعينة التى تدق، وبإبر الحياكة التى تطقطق، وتطقطق، وتطقطق، وببرنارد وهو يسحب كرسيه بالقرب من الراديو، قبل أن يطلب منى الصمت. لقد طفح بى الكيل من الحرب. هيا، لنرجع كلنا إلى تلك الحياة المملة القديمة.

"لا تتركنى،" قلت لآرثر. أزحت الغطاء له لينام فى السرير بجوارى. لكنه أحكم الغطاء علىّ، ثم سحب كرسيًا بالقرب منى وجلس. صامتًا.

١٩٤٨

الفصل الثلاثون

جلبرت

إذا تسنى لله أن يقول لى، وهو يطالع قائمة الأسماء فى الكتاب السماوى: **"فى يومٍ ما، يا جلبرت جوزيف، سيكون مدعاة لسرورك أن يُكتب بجوار اسمك، فى سجل الإنجازات، كلمة واحدة فحسب... ألا وهى سائق."** لكنت سأقول للرب، بطريقة رقيقة ولكن جادة، بأنه مجنون. لكن، وكما هو الحال دائمًا، أثبت الله بحكمته أنه محق. هيا، دعنى أخبرك كيف. تمعن النظر فى حالى. أصبحت لا أرتدى الزى الأزرق للقوات الجوية الملكية، إلا أن هذا الرجل الهندى الغربى لا يزال يبدو، من اليسار، ومن اليمين، وجيهًا وهو يرتدى أفضل حلّه مدنية لديه. أحملُ بيدى كتاب تعريف من مكتب تبادل العمالة بالقوات المسلحة فيما يتعلق بوظيفة مأمور مخزن. حملته إلى مكتب رب العمل المحتمل.

دخلتُ المكتب واستقبلنى رجلٌ إنجليزى ابتسم فى وجهى وصافحنى. قال لى: **"تفضل، اجلس"**. وتم تقديم كوب من الشاى لى

وضع أمامى. كلها بوادر طيبة ـ فلقد نلت الوظيفة، قلت مطمئنًا نفسى. أخذ الرجل الخطاب ليقرأ ما كتب فيه. كل شىء محكم الترتيب. سألنى: "**إذن، كنت تعمل فى القوات الجوية الملكية؟** "

"**اجل، سيدى.**"

"**وانا كنت فى القوات الجوية الملكية. اين كان موقع خدمتك؟**" ثم أعقب ذلك حوار قصير عن تلك الأيام، قبل أن يقول الرجل، "**انا، كنت اعمل فى فالماوث.**" وخلال ساعة من هذا الحديث كان علىَّ تغيير موضع جلستى على المقعد برفق وأقرص نفسى حتى لا تُغلَق عيناى، حيث كان يحكى لى هذا الرجل عن فترة عمله على الرادار. وفى وقفة ليلتقط أنفاسه ذكرته بلباقة بالوظيفة التى أتيت لأقابله من أجلها. هل سأحصل عليها؟

رد قائلاً: "**لا، آسف**"

وكان توضيحه للسبب هو أن ثمة نساء يعملن فى المصنع. وبما أننى لم أفهم ماذا يعنى فقد أجبته بأنه لا مانع لدى. ابتسم لما قلته وأخبرنى، "**كما ترى، لدينا نساء بيض يعملن هنا. الآن، ماذا إذا وجدت نفسك مصادفة، أثناء أدائك لمهامك، تتحدث مع امرأة بيضاء؟**" لوهلة بدا الرجل فى غاية الحكمة، وكلماته موزونة، ظننته يتكلم كلامًا معقولاً.

أكدت له قائلاً: "**سأكون فى غاية الأدب معها**".

لكنه هزّ رأسه. لم يكن يريد أن يسمع أى إجابة منى. "**اخشى ان تُفتح أبواب الجحيم إذا وجدك الرجال تتحدث مع نسائهم. إنهم ببساطة لن يتحملوا ذلك. بالرغم من شدة رغبتى فى منحك الوظيفة إلا انى لا استطيع ذلك، لا بد ان تدرك حجم المشاكل التى قد تحدث من جراء ذلك؟**"

عندما هدأت أنفاسى واستعدت قدرتى على الحديث، سألته لماذا لم يخبرنى بذلك منذ ساعة قبل أن تتيبس مؤخرتى من طول الجلوس. أخبرنى بأنه أراد أن يكون لطيفًا مع جندى سابق.

كانت لديه وظيفة أخرى ليعرضها علىَّ، فسألنى الرجل إن كنت مسيحيًا. دعنى أخبرك، بعد أسابيع قليلة من عودتى إلى إنجلترا الجديدة ما بعد الحرب، انفلت إيمانى بالله مثل سفينة أبحرت للتو. ومع هذا أجبته بنعم. فبدأ الرجل يصلى وهو يجلس بين التليفون وورق النَّشا الذى يجفف الحبر. ولقد دعانى لأُصلى معه. وبسبب حاجتى للوظيفة أطرقت رأسى خشوعًا. وبعد إتمام الصلاة معًا أخبرنى بأنه لا يستطيع تعيينى لأن شريكه لا يحب الملونين. كدت أضربه ليلاقى ربه سريعًا عندما دعا الله ليباركنى وأنا أغادر المكتب.

فى خمسة، بل، فى ستة أماكن، تبددت الوظيفة التى سعيت إليها بنظرة واحدة إلى وجهى. وفى مكتب آخر، انتظرت، ممسكًا الخطاب، بينما انهمك الجميع فى عمله كما لو لم أكن موجودًا. شعرت بهم يراقبونى عن كثب كما لو كنت نشالاً يسرق أحد ضحاياه بالرغم من أننى لم أستطع ضبط عين تختلس النظر إلىّ. إلى أن دخل رجل ثائر وقال لى: **"ماذا تفعل هنا؟". "نحن لا نريدك". "لا وظيفة لك هنا. سأتصل بمكتب التبادل العمالى هذا، وأخبرهم بألا يرسلوا المزيد منكم أيها القوم. لا نستطيع تعيين أمثالكم. هيا، اخرج."**

نظرتُ إلى الفتاة فى مكتب آخر برعب - أقسم لك، يا رجل، إن شعرها وقف كالأصابع المتصلبة ـ لذا وبدون أدنى تردد عدت

أدراجى إلى الخارج. هل أنا مجبر على أن أرى تلك التعبيرات كل يوم؟ حسنًا، قد أؤمن قريبًا بأن فعلاً ثمة عيب فىَّ أنا شخصيًا.

بعد بضعة أسابيع من هذا السلوك المتخلف تحقق ما قدره الله لى. لم يجد هذا الرجل الذى عمل فى السابق فى القوات الجوية الملكية مفرًا سوى أن يحب رخصة قيادته السارية الدائمة. كنت يا رجل، فرحًا مسرورًا، كطفل فى عيد ميلاده، عندما لمستُ يدى فى النهاية برودة عجلة القيادة كسائق ساعى البريد فى مكتب البريد. آه، ياالهذا الكتاب السماوى. قد لا أدرس القانون فى بلد الأم هذه إلا أن، دعنى أخبرك، وظيفة سائق بالنسبة إلى رجل جامايكى هى الحظ بعينه ـ ولكنه الحظ على الطريقة الإنجليزية.

"**هيه، يا هذا**" قالها رئيس العمال فى مكتب فرز البريد. على حد ما أتذكر لم ينادنى هذا الرجل باسمى إلا فى مناسبة واحدة فقط. عندما مثلت أمامه للمرة الأولى غمغم فمه المنفرج قائلاً: "**ما كل هذا؟**" وأخذ ينبش فى الأوراق التى بعثها رؤساؤه متحيرًا. ثم قال، بعد أن تأكد من أننى بالفعل السائق الذى طلبه: "**آووف. انت جوزيف، صح؟**" ومع ذلك، "**هيه، يا هذا**" أصبحت طريقته المفضلة عند توجيهه الكلام لى، منذ ذلك اللقاء الأول والذى بالكاد كان مهذبًا. ولم أجبه أثناء إزالتى للجليد من على الزجاج الأمامى لسيارة، على أمل أن يدفعه ذلك إلى مناداتى باسمى كما كان يفعل مع باقى السائقين.

قال لى: "**إن كلارك مريض.**"

بيرت كلارك. عملت مع بيرت فى تسليم وتوزيع البريد من منطقة فيكتوريا لأسابيع. كان يصر، فى كل جولة، هنا وهناك، على

إرشادى الطريق. من هنا يسارًا ... يمين الآن ... در حول المفرق. كان يعتقد بأنى، كأجنبى، لا أعرف الطريق أو قد لا أتعلمه أبدًا. كل يوم نسير فى نفس الطريق، وكل يوم نفس الإرشادات. أكد لى، بأنه عمل فى مكتب البريد منذ أن كان الرجال يجوبون طول البلاد وعرضها على ظهور الخيل لتوزيع البريد. لكن أصبحت تعليماته يصاحبها سعال شديد مؤخرًا. "أوه، آسف، يا جلبرت، صوتى متحشرج قليلاً لكنك تبلى بلاءً حسنًا."

قلت: "هل هو مريض؟".

"أجل، ألا تدرى ماذا تعنى كلمة مريض؟" كان شارب رئيس العمال يبدو دائمًا وكأن قليلاً من صفار البيض عالقاً عليه. وكان الثلج المزعج قد خدر أناملى تخديرًا حتى إننى لم أكن قادرًا على إزالته بقبضة يدى.

"ثمة شخص آخر سيصاحبك فى جولتك. تابع عملك."

أشار رئيس العمال إلى هذا الرجل الشاب، الذى سيشاركنى جولاتى، والذى كان يقف تجاه شاحنتى. تأملت هذا الرجل مليًا. كان يمشى متبخترًا، واضعًا يده فى جيبه. ومسح أنفه فى أحد أكمامه. ثم أخرج السيجارة من فمه بإبهامه والسبابة. وينفخ دخان سجائره من عند زاوية شفتيه. سعل وبصق على الأرض قبل أن يضع السيجارة على شفتيه مرة أخرى. شاهد شخصًا يعرفه، لوح إليه مُرحبًا، وهو يبتسم وقال: "حسنا". فى هذه اللحظة اشتقت أن أكون فى جامايكا مرة أخرى. تحرقت شوقًا إلى منزلى مثل الرجل السكير الذى فى حاجة إلى الويسكى. ذلك لأنه هناك أكون فقط على يقين من أن أى شخص ينظر إلى وجهى للمرة الأولى سينظر

إليه باكتراث ولن يبدى أى رد فعل. لن يكون هناك من يفغر فمه، أو يحدق ببلاهة، أو يلعن، أو يشيح بنظره بعيدًا كأنه رأى شيئًا مريبًا. مجرد لقاء عادى كما لو كانت أمك تمشى فى المطبخ. يا له من شىء يطمح إليه الفرد. أن ينظر إلى المرء دون أن يفكر فى شىء. يا له من مطمح خائب من أن تنشد اللامبالاة.

عندما شاهدنى، تسمر الرجل الشاب الذى كان يقف بالقرب من شاحنتى فى مكانه. حييته بابتسامة. لكنه فجأة قطب جبينه ـ عُقف خطان متوازنان حادان بطريقة مبالغ فيها فى وجهه. جذب السيجارة فاغرًا فمه. ألقاها على الأرض وسحقها بقدمه وهو ينظر حوله كى يتأكد من أنها ليست مزحة ثقيلة دبرها له زملاؤه. رفع إصبعه ليشير إلى وعندها فقط صرخ قائلاً: **"ماذا يحدث بحق الجحيم؟"**

ملأت الجو ضحكات الاستهزاء من الرجال الآخرين الذين يشاهدون هذا الموقف الساخر. أوه، كان الموقف مضحكًا للغاية – لقد حصل صديقهم على الرجل الأسود. لم يكن لدى متسع من الوقت لكل هذا. فقلت له: **"هيا، يا رجل، علينا الذهاب."**

قال: **"لن اذهب معك إلى اى مكان"** قبل أن يبدأ فى التراجع للوراء إلى حيث يقف رئيس العمال.

واستبعدنى رئيس العمال من الجولة.

"لماذا؟" سألته، **"انا اقوم بهذه الجولة منذ أسابيع دون اى مشاكل."**

"لأنى قلت ذلك. فهو لا يريد العمل معك."

"ولكنه عمله."

"لا أستطيع أن ألومه. أنا قلت إنك ستسبب المشاكل."

"لست أنا من يسبب المشاكل."

"كلمة واحدة أخرى تصدر منك، أيها الأسود، وستجد نفسك مرفوضًا. تستطيع أن تجمع البريد من منطقة كينج كروس وحدك. أو تأخذ بطاقاتك. هل فهمت ما أعنيه؟"

كانت تلك هى المرة الأولى التى أذهب فيها إلى كينج كروس. ووقفتُ عند عربات الطرود التى تم إنزالها من القطار، ولم يكن واضحًا لى أى هذه الطرود صادرات وأيها الواردات لمكتب البريد. لا أريد أن آخذ طرود بريد السكة الحديد عن طريق الخطأ لأن ذلك سيؤدى إلى فوضى عارمة.

"**أى من هذه الطرود لمكتب البريد؟**" سألت مجموعة من العمَّال ـ أربعة رجال ـ الذين وقفوا يراقبوننى.

"**هل أسمع أحداً يتحدث؟**" قال واحد منهم. كانوا تمامًا مثل الشخص العاطل عن العمل الكسول، يستندون على حائط ويحكون أنفسهم. كلهم بدءوا بالضحك بصوت خافت على الطرفة التى قالها هذا الرجل.

"**هل يمكن أن يساعدنى أحد؟**" سألت مجددًا. لم أجد أى رد إلا نظرة الجميع إلى بطريقة خبيثة كما لو كنت أضحوكة. يلفون عيونهم متظاهرين بأنهم لم يسمعوا من أين يأتى صوتى. وانصرفت لرفع أكياس الطرود، وأنا متجاهلهم.

"**انظر، الأسود يسرق من القطار**" صاح أحدهم. وضعت الكيس واتجهت لكيسٍ آخر. طالما كنت أرفع الطرود الصحيحة هذا كل ما

يهمنى. عندما رفعت كيسًا آخر سمعت: "**آوه، يا رب، ماذا يفعل هذا الراكون**(*)" كم عدد الأكياس التى رفعتها وهم يسخرون منى لكونى على خطأ؟

"**من فضلكم الا ساعدتمونى؟**" كان علىَّ أن أسألهم مرة أخرى.

"**تكلم الإنجليزية،**" قال واحد منهم.

"**إنها الإنجليزية التى بالفعل اتحدثها.**"

"**هل يفهم احدكم ماذا يريد هذا الرجل المحترم الملون؟**" المزيد من الضحك.

لكن، يا رجل، لا أقدر على الدخول فى مشكلة. "**هل من الممكن ان تخبرونى أيها علىَّ اخذه؟**"

"**حسنًا،**" قال واحد منهم. دفع هذا الرجل بنفسه ليبتعد عن الحائط وتحرك باتجاهى. وكانت إحدى عينيه تنظر إلى والعين الأخرى تحوم فى مقلتها وكأنها قطعة رخام مفقودة. ظننتهم انتهوا من سخريتهم ـ حيث كانوا يمرحون مع هذا الراكون منذ فترة طويلة. لكن هذا الرجل الأحول قال لى: "**سأخبرك فقط، إذا أجبت على سؤالى.**" وبدأ أصدقاؤه بالضحك بصوت خافت مرة أخرى تحسبًا لمقولة مهينة جديدة.

إلا أنى رددت عليه وقلت: "**ماذا؟**"

"**متى ستعود إلى الأدغال؟**" آه، يا رجل، كانت أظرف نكتة سمعها هؤلاء الرجال الأربعة. فقد ضحك جميعهم على تلك النكتة. راكون. الأدغال. يا له من شىء مضحك. أشعل اثنان منهم سيجارة. يا

(*) فى الأصل: " racoon " وتعنى الرجل الأسود وتعد إهانة شديدة. (المترجمة).

رجل، يا لى من وجبة لذيذة أثناء الراحة. فى حين عقارب الساعة تلف. رفعت كيسًا آخر. "آوه، يا أسود، لم ترد على سؤالى. متى ستعود إلى حيث تنتمى؟"

وقلت له ناظرًا مباشرة فى عينيه: "لكنى وصلت للتو، يا رجل، ولم أنم مع زوجتك بعد؟"

"ماذا قلت؟ ماذا قال؟" استدار لأصدقائه لكنهم لم يسمعوا. "أيها الأسود الوغد. ماذا قلت للتو؟"

"لا شىء." قلت له.

ثم أمسك هذا الرجل بتلابيب زى العمل ليجذبنى إليه. وأخذ أصحابه يشجعونه "هيا، اضربه،" ولكنه رجل أحمق أعزل. ويداى طليقتان. إذن، دعنى لأرى، كان يمكن أن أنزل الضربات على أنفه حتى تنكسر وتنزف. أو أن ألكم بطنه إلى أن يقىء فطاره. أو كان يمكن أن أسحب رقبته، وأقبض على حنجرته وأسحب منه النفس. أو أن أجعله يركع. أو أضربه بالكوع. أو أخبط بجبهتى على فمه لأسقط بعض أسنانه. وكل ذلك قبل أن يصل لى أصدقاؤه. فلم تكن قبضته قوية. كان هذا الرجل نحيلاً بسبب أكل التموين. حسنًا، لنواجه الأمر، كان يمكن أن أندفع عليه وأدفعه ليسقط على الأرض. لكنى حتى إذا قرصت وجنة هذا الرجل توددًا، أو ربت على ظهره ألفة، كنت أعلم بأنى سأخسر وظيفتى. وهناك ثلاثة رجال ينظرون سيكون لهم روايتهم الخاصة —اليوم قام هذا الأسود، دون أن يُستفز، بمهاجمة هذا الرجل المحترم. همج، هذا ما سيقولونه. والكل سيؤيد هذا الكلام، لا ينبغى أن نوظف المزيد من هؤلاء الراكون: إنهم يسببون المشاكل ـ هم أكثر شغبًا من كونهم ذوى قيمة. وماذا عساه أن يفعل هذا الرجل الجامايكى؟ فطأطأت رأسى.

"لم أقل شيئًا يا رجل؟" ثم خنعت له من شدة الخوف فتسبب خضوعى هذا فى أن يتركنى هذا الرجل.

"علىَّ أن أغسل يدى الآن وقد لمستك." أخبرنى ذلك دافعًا إياى بعيدًا عنه. وقفت فى حالة من الأسى مثل كلب مضروب عندما قال هذا الرجل: **"ينبغى على رجل إنجليزى محترم أن يقوم بوظيفتك."** أبقيت عينىَّ إلى أسفل حيث قدماه بينما مشاورًا بذقنه: **"هناك، هذه العربة. أفرغ الحمولة الآن واغرب من هنا."** أكملت عملى مع وابل من الكلمات المهينة ينزل ويخبط فىّ، فى حين أكياس البريد وألم المهانة ضاعف من انحنائى.

حسنًا، لنواجه الأمر، لقد نسيت أمر هورتنس فى الوقت الذى وصلت للبيت من العمل فى المساء. كان كل ما أحلم به وأنا أصعد الدرج هو أن أرقد على الفراش وأنام. ربما كنت أحلم بالمشى فى حرارة الشمس ألتهم المانجو. أو ربما أحتسى شراب السورل مع إلوود فى الشرفة. لكنى أفقت من حلمى بعنف عندما فتحت باب الغرفة. فلقد وجدت هورتنس جاثية على يديها وركبتيها أمامى على الأرض.

"انهضى، انهضى!" صحت بها. غضبى كان عارمًا ارتد صداه على جدران الغرفة راجعًا إلى. لقد انفزعت. قفزت واقفة وسكبت الماء الذى بالدلو. أعطت اهتمامًا شديدًا لمسحه لكنى أمسكت ذراعها بقوة. أحكمت قبضتى عليها وجذبتها من على الأرض. ومن شدة صدمتها لم تقاوم قدماها لتعتدل فى النهوض. **"انهضى من على ركبتيك،"** أخبرتها.

نظرت إلى وجهى فجأة. والخوف يعتريها ويملأ عينيها بالدموع. قفزت مبتعدة من قبضتى، وصدرها ينهج من شدة التنفس. **"ما خطبك؟"** قالت.

"أنا آسف." أخبرتها، "أنا آسف." ورجعت مبتعداً عنها لأبين لها بأنى لست مجنوناً. وأجعلها تشعر بأنها فى أمان. "لكنى لا أستطيع أن أراك جاثية على ركبتيك، يا هورتنس."

"لكن على مسح الأرضية. فالأرضية فى حاجة للمسح."

وقلت لها: "لا أتحمل رؤيتك جاثية على ركبتيك بهذه السرعة. لم أجلبك إلى إنجلترا لكى تفركى الأرضية وأنت على ركبتيك. زوجتى لن تجثو على ركبتيها فى هذه البلد. هل تسمعينى؟"

"وكيف تريدنى أن أنظف الأرضية إذن؟"

"بأى طريقة." ترجيتها. "بأى طريقة، يا هورتنس. لكن من فضلك، أرجوك، ليس وأنت جاثية على ركبتيك."

الفصل الحادى والثلاثون

هورتنس

قال لى جلبرت: "هذه ليست رقائق البطاطس، ألم تخبرك أمك قط كيف تُعدين رقائق البطاطس؟"

"أمى" أجبته: "علمتنى أن أشكر المولى على ما منحه لى من طعام."

"لكن أمك ليست معنا لتأكل من هذا."

عاد الرجل للتذمر مجددًا، وهو ينظر فى صحنه كما لو كان كل ما هو كريه وضع فيه. وأخذ يعيب ويلوم على كل ما أفعله فى هذا المكان البائس. رفعتُ بدلته المعلقة على الحائط. فهى معلقة بإهمال على الحائط طوال اليوم ـ السترة والسروال أخذت شكل قوام رجل. بالإضافة إلى أن هذه البدلة تراقبنى. كلما وقع بصرى على هذه البدلة الخالية، أقسم، بأنى أرى ذراعًا قد تحرك أو ساقًا قد اهتز. لكنها تتوقف بلا حركة عندما ألتفت إليها بغتة. وضعت

الملابس فى خزانة الملابس بأدراج حتى لا تربكنى بعد الآن. لماذا إذن لمستُ بدلته؟ ستتجعد من الطى. وهى أفضل حلة لديه. لقد اغتاظ من ذلك كل الغيظ حتى إن شفته السفلى برزت إلى الخارج بما يكفى لتسمح لى بأن أمسح عليها طابع بريد.

قلت له: "**ينبغى أن أرتب هذا المكان.**" رغم أنى لا أستطيع حتى مسح أرض هذه الغرفة القذرة دون أن أثير حفيظته. "**هيا انهضى، انهضى!**" سيشهد الله على ما فعلته ـ وهذا الرجل الأحمق مكابر ومعاند.

يسألنى: "**كيف لا تعرفين ما هى رقائق البطاطس؟**" التقط إحدى ثمار البطاطس بإصبعه ورفعها عاليًا ليُرينيها. فى وسع أى أحمق أن يخبره بأنه قد يُحرق أصابعه. ألقاها مرة أخرى ونفث فى يده. أخبرته بأن المرأة الإنجليزية التى تسكن فى الطابق الأسفل أكدت لى بأن هذه هى رقاقة بطاطس. كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما الآن فى يقظة بالغة. "**هل كنت تتحدثين مع كوينى؟**"

كانت هى من أخبرتنى بأن الرقائق هى البطاطس التى تقطع قطعًا صغيرة. وذكرتنى مرتين بأن البطاطس يجب أن تقشر أولاً. لذا قطعت البطاطس الأيرلندية الصغيرة كما أرشدتنى. ولا شىء لدى سوى حلقة نار صغيرة أطهو عليها ورغم ذلك وضعت عليها رقائق البطاطس فى مقلاة ممتلئة بالماء حتى تغلى.

وعندما عاد جلبرت جوزيف من العمل كان البرد يلتصق به التصاقًا جعل الغرفة تتجمد إثر دخوله. فاتجه مباشرة إلى النار، دون أن يتوقف حتى ليخلع عنه معطفه. ثم جذب الكرسى أمام النار وجلس متكبرًا، حاجبًا الحرارة كسحابة عاصفة تعترض شعاع

الشمس. وعلى هذا الموقد كان يفترض أن أطهو رقائقه اللعينة. بينما تتلوى ألسنة النار الزرقاء بسبب الغاز الصادر من الحلقة التى سأطهو عليها كالأفعى بالضبط أمام نيران المدفأة. وليس بمقدورى أن أتحرك لألتف حول ذلك الرجل القاسى لأكمل ما أعده من طعام.

قلت له: "**يجب أن تجلس فى مكان آخر.**"

سألنى: "**لماذا؟**".

"**حتى أتمكن من إعداد الطعام**"

حرك ساقه قليلاً إلى اليسار وقال: "**بإمكانك الوقوف هنا بجوارى.**"

قلت: "**كلا، لا أستطيع**". "**هلا ذهبت إلى مكان آخر من فضلك؟**" لكن الرجل مصَّ أسنانه ثم رفع ساقيه ليضعهما على رف الموقد.

قلت له: "**بإمكانك الجلوس على الفراش ريثما أنتهى.**"

قال: "**أشعر بالبرد.**"

"**لكن ساقك تعترض طريقى.**"

أغلق عينيه حتى لا يرانى لكن شفته لا تزال بارزة من شدة الاستياء. قال: "**يمكنك المرور من تحت ساقى**".

"**ماذا؟**" لا يتحمل هذا الرجل رؤية زوجته تغسل أرض الغرفة على ركبتيها ولكن يرضيه أن تنثنى وتتقوس تحت ساقيه ذهابًا وإيابًا لطهى الطعام.

"**لقد أتيت توًا من الخارج. يجب أن أستدفئ.**" وأرشدنى إلى الطريق الذى أستطيع أن أمر منه أسفل ساقه الضخمة، ملوحًا بيده ذهابًا وإيابًا. وقال: "**ثمة متسع للمرور من أسفل**".

قلت له: "**تحرك.**" إلا أن هذا المهرج لم يلق إلى بالاً ولم يفعل أى شىء سوى إزاحة ساقه ليضعها أعلى قليلاً. وسرعان ما أغفى على المقعد ـ ورأسه مرتخٍ على يده، وفمه فاغر. وتركنى أزحف تحت ساقيه كالكلب الذليل، أمسك المقلاة الممتلئة بالماء. أنحنى برأسى تحت قدمه مع رقائق البطاطس. أجثم على الأرض كى أقلب الوعاء. وألتوى التواءً عجيبًا لأرى إن كان الطعام يُطهى جيدًا.

تعين علىّ هزه لأوقظه من النوم عندما فرغت من إعداد الطعام. حدق فىّ كما لو كان لم يرنى قط من قبل.

سألته: "**هل تخلع عنك معطفك الآن؟**"

أجاب: "**كلا**". وعاود الإجابة بلا عندما طلبت منه أن يجلس على المائدة لتناول الطعام.

"**المائدة هى المكان المناسب لتناول طعامك.**"

"**بإمكانك تناول الطعام أينما شئت، أيتها السيدة العالية النبيلة. أشعر ببرد قارس لا أقوى معه على الحركة.**" ولم يرفع سوى يده لأحضر له طبق الطعام. وعندما شاهد طبق العشاء الموضوع أمامه قال: "**ما هذا؟**" لكنى لم ألق إليه بالاً. "**هورتنس، ماذا تسمين هذا النوع من الوجبات؟**"

أخبرتنى السيدة الإنجليزية التى تسكن الطابق الأسفل بأن الإنجليز يحبون تناول رقائق البطاطس مع البيض. وكان هذا مدعاة لسرورى فقد تعلمت فى الكلية كيف أطهو البيض كما يفعل الإنجليز. يكفى أن تغمر لأربع دقائق فى الماء المغلى. لذا قدمت لجلبرت رقائق البطاطس مع البيض. فكرت فى إزالة قشر البيضة لكن دار فى خلدى أن أرى كيف يأكل الرجل الذى تزوجته البيضة.

كنا فى حصة العلوم المنزلية عندما علمتنا الآنسة هنرى نحن الفتيات الطريقة المثلى لتناول بيضة. يُكسر أعلى البيضة على هيئة شريحة باستخدام سكين. لا ينبغى بأى حال من الأحوال الدق على البيضة بملعقة لإزالة قشرها، ولا يغمس شريحة الخبز فى صفارها سوى الأجلاف والسفهاء من البشر.

"ما هذا؟" قالها مرة أخرى. بينما تتدحرج البيضة على الطبق.

أجبت: **"إنها رقائق بطاطس مع بيضة."**

نظر إلى طويلاً نظرة احترت فى تفسيرها، وما صدر منه إلا صوت أنفاسه. وأخيرًا قال: **"أنت لا تجيدين الطهو على الإطلاق، أليس كذلك؟"**

قلت له: **"فلتأكل، قبل أن تبرد(*)"**.

أطرق رأسه، وربت بيده تحت ذقنه قبل أن يسأل: **"ماذا؟"**

"كيف تمضى كل هذا الوقت فى هذا البلد دون أن تعرف معنى كلمة تبرد؟ إنها تعنى ستبرد. تناولها قبل أن تبرد." راح الرجل يغمغم وأعلم بأن اسم الرب كان ما يردده بلا جدوى.

"إنك لا تستطيعين طهو شىء بسيط كرقائق البطاطس."

"أنت شخص جاحد يا جلبرت جوزيف."

"رقائق البطاطس تُقدم مقلية." قالها، وهو ينقر غاضبًا بأنامله على البطاطس فى طبقه.

(*) فى الأصل: كلمة perished وحدها تعنى فسدت؛ فنيت؛ نفقت ومع perished cold تعنى برد قارس. استخدمت الشخصية هنا الكلمة التى علمتها لها الشخصية الإنجليزية بدون فهم للمعنى الصحيح. (المترجمة).

قلت: "حسناً، كيف لى أن افعل اى شىء وساقك الضخمة تعترض طريقى؟"

"انظرى." قال صارخًا. "سأبعد قدمى. هل تستطيعين الآن طهو رقائق البطاطس؟"

أشحتُ بنظرى عنه، وتركت طبقى، وذهبت أجلس على الفراش. لن يبكينى هذا الوغد. لن أدع هذا الرجل الفظ القاسى يرى الدموع فى عينى. إنه لا يلاحظ كيف أنظف هذه الغرفة الصغيرة البائسة. وكيف أرتب الفراش وأضع عليه الشراشف الجميلة. وكيف أنظف الحوض وأغسل الحوائط. ولا يلاحظ أن أريكته المفضلة تستند على صندوق خشبى بدلاً من الكتاب المقدس. ولا يرى الأطباق النظيفة المرتبة. ولا السجادة التى نفضت من التراب. ولا المفرش الذى وضع على المائدة. لا شىء سوى جسده الضخم الذى يحجب حرارة النار بأسرها فانبعث البخار من حول معطفه وكأنه تنين، من المفترض أن أكون أنا من يلجأ إلى الشكوى من هذا الوضع الذى يصعب احتماله. لكن بدلاً من ذلك كان هو من ينظر إلى متأففًا متحسرًا.

قال: "أستطيع أن أريك كيف تعدين رقائق البطاطس."

قلت: "لا أريد اى مساعدة منك يا جلبرت جوزيف."

"فلتعديها كيفما شئت، يا آنسة لا تجيد الطهو." وشرع فى تكسير البيضة تمامًا كما توقعت. هشم قشرتها أجزاء صغيرة ليقشرها. ولكن مع انبعاث الحرارة من البيضة بدأت أنا نفسى فى شم رائحة كريهة. وثب قائلاً: "ياللهول، لقد فسدت البيضة!"

قلت له: "**ليس ذنبى أن بيضتك فاسدة. لم أشترِ البيض.**" فقذف بالطبق على الأرض ملقيًا البطاطس والبيض المتدحرج كريه الرائحة على السجادة المنفوضة.

وصرخ قائلاً: "**لا أستطيع تحمل المزيد.**" حتى يسمع جميع من فى المنزل. واندفع خارج الغرفة صافقًا الباب بعنف مما أدى إلى سقوط الأريكة على جنب من على صندوقها.

الفصل الثانى والثلاثون

جلبرت

لعل إلوود كان محقًا. قال لى ذات مرة متوسلاً: **"ابق فى جامايكا." "ابق وكافح حتى ترى ما تريد أن تراه."** إلوود صديق صباى، تُرى ما الذى يجرى أمام عينيه الآن فى تلك الجزيرة الكاريبية الساحرة؟ يجلس فى الشرفة، متأملاً شمس جامايكا، التى ما إن تبدأ فى الغروب، حتى تتوهج السماء بمزيج من الألوان الأرجوانية والبرتقالية والزرقاء والوردية. يمصمص ثمرة السورسوب، فينساب عصيرها بذقنه، ويتعلق شحم الثمرة المُدهن بين أسنانه. وأثناء شدو حشرات الزيز، يرفع ساقيه على مسند ويتنهد. وفى المساء عندما تفتر حرارة الجو يخفض يده ليتناول عصير الزنجبيل المعسول الذى أعدته له والدته، بينما يدعو صديقه أوبرى ليرافقه فى جلسته. يتبادل الرجلان النكات وهما جالسان هناك فى الشرفة يستريحان من عناء يوم طويل شاق. ويتجاذبان

أطراف الحديث وهما يرتشفان مشروبهما، وسرعان ما تصدح ضحكاتهما فى هواء ليل جامايكا العذب العليل.

أتدرى ما النكتة التى كانا يتبادلانها؟ إنها عن جلبرت جوزيف. أجل، كنت أنا مبعث مرحهما وسبب لهوهما. يشاهدانى أمشى فى الشارع المسمى لندن والمطر المنهمر يلسعنى ببرودته كالمسامير الحديدية. منكس الرأس، ألف ذراعى حول جسدى حتى لا يردينى البرد صريعًا. لا أبغى الذهاب إلى مكان بعينه بل الابتعاد عن غرفة قذرة وامرأة تزوجتها كى تعاود سفينتى الإبحار فى بحار مجد الذل والمهانة فى الوطن الأم. إلا أنى لم أكن الوحيد الذى يثير ضحكاتهم المكتومة. بل جميعنا نحن الجنود السابقين فى القوات الجوية الملكية، متكبرين عليهم بعلمنا بمجريات الأمور فى إنجلترا، الذين كنا ننظر إلى هؤلاء الصبية الذين بقوا فى ديارهم قائلين لهم بأننا نعلم ما سنلاقيه ونتوقعه فى الوطن الأم. ربما نجد فم الأسد مفتوحًا، أخبرناهم، لكننا أحصينا جميع أنيابه. لكن، حسنًا، لنواجه الأمر، وقد بدأنا الآن فقط نحن الجنود السابقين نشعر بمرارة أنيابه.

انظر لأوجين على سبيل المثال. كان هذا الرجل دمث الخلق متوجهًا إلى عمله عندما تعثرت امرأة عجوز على الرصيف ووقعت أمامه. أسرع إليها، مادًا يده لتستند عليها. وعلى شفتيه كلمات رقيقة عذبة. "**دعينى أساعدك - هيا، هل أصابك أذى؟**" وما إن ألقت هذه السيدة الإنجليزية العجوز اللطيفة على وجهه نظرة حتى صرخت. صرخت صراخًا رهيبًا حتى إن الشرطة أتت تعدو على إثر ذلك. وقُبض على أوجين. ما هى تهمته؟ التهجم على امرأة عجوز.

وفى زنزانة الشرطة فقد أوجين الكثير من وزنه وهزل هزالاً شديدًا قبل أن تُبرئه العجوز.

والمسيحى المتدين، كريتس الذى أُمر بعدم العودة إلى كنيسته المحلية لأن بشرته كانت شديدة السواد بحيث لا يجدر به أن يتعبد هناك. أفقدته تلك الصدمة النطق.

يعتقد لويس الآن بأن **اللعناء الأجانب**(*) تعد مصطلحًا واحدًا. لأنه، مثل عبارة الأصدقاء المقربين، كان يسمع دائمًا تلك الكلمات تلفظ معًا.

أما هورتنس. فلا تزال شامخة الوجه تكبرًا. ولكن كم سيمضى من الزمن قبل أن تنكس رأسها؟ وذلك لأنها للتو وصلت من سفينتها، ولم تخدعها إنجلترا بعد. لكنها ستفعل عما قريب. وها قد أصبحنا جميعًا ـ نحن الهنود الغربيين الحالمين البؤساء الذين أبحرنا إلى إنجلترا ورؤوسنا تملؤها الأفكار الحمقاء ـ نكتة يلقيها الآن ابن عمى النابغة مبتسمًا ابتسامة الرجل الخبير ببواطن الأمور.

كان الندم يعصر حلقى وأنا أسير فى ذاك الشارع المسمى لندن، فيحبس أنفاس أمنياتى ويصرعها خنقًا. إذا بى أسمع صوتًا ما ينادينى. لم أنتبه. بل ندت عنى صرخة اندهاش: فمن هو هذا الرجل الملون فى إنجلترا الذى ينظر محملقًا إن سمع صوتًا يناديه؟ إلا أن الصوت انبعث مجددًا مصحوبًا تلك المرة بكلمات. "المعذرة، المعذرة." مع دبيب وقع أقدام امرأة تمشى على امتداد الرصيف.

(*) فى الأصل: "bloodyforeigner" و "bosom pals" (المترجمة).

توقفت عن السير، ورأيت، وأنا ألتفت ببطء، امرأة ضئيلة الجسم تقترب منى. نَظرت فى وجهى، لاهثة، باسمة. لم تكن امرأة شابة- ربما فى الأربعين، أو الخمسين من عمرها، كان من العسير تبين عمرها الحقيقى تحت وهج مصباح إنارة الشارع. إلا أن ابتسامتها كانت مشجعة. قالت: "**لقد سقط منك هذا، على ما اظن.**" كان قفازًا أسود. لم أكن متيقنًا من أنه قفازى إلا أننى أخذته منها متاثرًا بلطف مسلكها.

وعندما فرجتُ شفتىَّ لأشكرها أحجمت كلماتى عن الخروج. ولمّا حاولت مرة أخرى لم أستطع سوى أن أحرك شفتى تعبيرًا على الشكر.

"**هل انت على ما يرام؟**" سألتنى.

أفلتت دمعة على وجهى. شعرت بنداوتها، ومجراها المثير للحكة يتسرب حتى ذقنى. كفكفت دمعتى.

لمّا رأت دمعى، رفعت يدها ووضعتها على ذراعى. "**هل انت بخير؟ يبدو أنك تشعر بالبرودة. إنها ليلة باردة.**"

قلت لها: "**نعم.**" وشعرت بموضع يدها على ذراعى يذوب بدفء لمستها الناعمة.

قالت: "**هنا**" وأخذت تبحث هنا وهناك عن شىء داخل جيبها ثم جذبت حقيبة صغيرة "**فلتأخذ واحدة من هذه.**" كانت الحقيبة ممتلئة بالحلوى. ثم دفعتها نحوى قائلة: "**تفضل**". دسست يدى داخل هذه الحقيبة الصغيرة. كانت محتوياتها متكتلة لزجة وصلبة. جذبت الحقيبة بعيدًا مرة أخرى. "**آه، إنها ملتصقة بعضها ببعض.**

آسفة." وشرعت تعبث بحقيبتها – تكسرها وتضربها بأناملها. "**إنها حلوى لمعالجة السعال، ودائما ما يلتصق بعضها ببعض. آسفة. لكنها ستمنحك الدفء.**" ناولتنى الحقيبة مرة أخرى. فأخذت واحدة. "**بوسعك أن تأخذ قطعة أخرى لتتناولها لاحقًا إن شئت.**"

"**كلا، واحدة تكفى.**" قلت لها.

"**حسنًا. سأعود إلى المنزل.**" دست يدها فى جوف حقيبتها. ثم لاكت قطعة حلوى داخل فمها. فانتفخت وجنتها. "**إنه المكان الوحيد الذى يجدر بى أن أبقى فيه الليلة.**" قالت ذلك، ببعض الصعوبة بسبب الحلوى التى تلوكها. عاودت لمس ذراعى، قائلة: "**ابتهج، ربما لن يحدث ذلك أبدًا.**" ثم ذهبت مبتعدة ودبيب وقع أقدامها يدوى فى الشارع.

كم من الوقت أمضيته أحدق فى قطعة الحلوى فى يدى؟ ويالحماقتى، أخرجت منديلاً من جيبى لألفها به. لم يكن لدى أى نية فى أكل تلك الحلوى الثمينة. كانت بمثابة طوق الخلاص أُلقى إلى ـ ليس بسبب السكر الذى تحتويه بل لطيب المسلك، والحنان الإنسانى الذى صاحب منحها لى. لقد أضحيت أتوق توقًا لما فى البشر من طيبة وإحسان. مدينًا بالعرفان لأى قلب رحيم. كنا جميعًا نحن الشباب فى هذا المكان القاسى المقيت نتشبث به، عندما نجده. لفتة بسيطة، كلمة ودود، لمسة حانية، أو حلوى لزجة أنقذتنى بلا شك كما لو كانت تلك المرأة الإنجليزية قد انتشلتنى من الموت غريقًا فى البحر.

حملت شريحتين من السمك ورقائق البطاطس فى طريق عودتى إلى الحجرة لى ولهورتنس. ها هى، لا تزال تجلس على الفراش.

ووجهها، حتى بعد مضى هذا الوقت، يحتفظ بتلك الملامح العابسة. قلت لها: "**انظرى هنا، يا صاحبة القدم اللزجة. معى سمك ورقائق بطاطس لى ولك.**" تحركت وأدارت عينيها فقط تجاهى وساعداها معقودان بإحكام حول صدرها. التقطتُ صحنين، مصفوفين بعناية على الرف. فَضفتُ لفافة السمك والرقائق ووضعتُها فى الطبق قائلاً لها: "**هل تعلمين ماذا يفعل الإنجليز؟**" بالطبع لم تجبنى ولم أتوقع منها أن تفعل. "**يتناولون هذا الطعام موضوعًا على ورق الصحف. لا أطباق. لا شىء.**" كنت أعلم أن هذه المرأة الراقية لن تستطيع الاحتفاظ بوقار وجهها طويلاً إزاء هذه الهمجية. نظرتْ إلى بتمعن، لم تستطع منع نفسها من الحملقة فىَّ غير مصدقة. "**أجل، رأسًا من الصحيفة! إذًا، الدرس الأول يا صاحبة القدم اللزجة. هذه هى رقاقة البطاطس.** ناولتها شريحة بشوكة. أخذتها منى ودستها فى فمها بشراهة. "**والآن الدرس الثانى. انصتى لى بانتباه**". ملت إليها لأهمس لها بسر. سَمرت عينيها المتسعتين على وجهى، وأصغت بانتباه كأنى سأخبرها بنميمة. قلت لها: " **ليس كل، ليس كل ما يفعله الإنجليز صحيحاً.**"

الفصل الثالث والثلاثون

هورتنس

جاءت السيدة بلاى، أو كوينى، الاسم الذى رغبت فى أن أدعوها به، إلى بابى، مرتدية معطفًا من الصوف البالى. اعتقدت أول الأمر بأنها عدلت رأيها عن الذهاب فى الجولة التى كنا قد أعددناها إلى المتاجر، فلقد ظننت أن هذا المعطف الرث هو المعطف الذى ترتديه فى منزلها. ورغبة منى فى إبعاد روعها من أن تعتقد بأننى سأصاب بخيبة أمل بسبب تغيير خطتنا، قلت لها: **"لا تقلقى بشأنى. سأستدل على طريقى إلى المتاجر دون أى مشكلة."**

ذُهلت عندما قالت، وأنا أغلق الباب من ورائها، **"ماذا؟ عم تتحدثين؟ أنا مستعدة للخروج."** أدركت حينها أن هذا المعطف الرث، الذى ظننته رداءها المنزلى، كان معطفها المميز المخصص للخروج. ألا تعلم هذه المرأة أن هذا المعطف الذى ترتديه ليس قبيحًا فحسب بل وصغيرًا لا يناسب حجمها؟ بيد أنها تنبهت إلى صغر حجمه، عندما ظلت تُكافح وتُناضل لعقد أزراره. وعندما

انتهت من هذا النضال، نظرت إلى باشمئزاز، أو من قمة رأسى إلى أخمص قدمى. كنت أرتدى الملابس التى يجدر على سيدة ارتداؤها عند زيارتها متاجر إنجلترا. معطفى نظيف، قفازاتى غسلتها مؤخرًا، وأضع قبعة فوق رأسى. إلا أن السيدة بلاى حدقت النظر فىَّ كما لو كان ثمة خطأ ما فى ملبسى، قبل أن تقول لى تارة أخرى: "**لست قلقة مما يقوله الفضوليون. لا أبالى إن رآنى الناس بصحبتك فى الشارع.**"

رغم أنه كانت، هذه المرأة الإنجليزية الشابة، ولست أنا من ترتدى معطفًا منزليًا رثًا دون أى دبوس أو حلية تزينه، أو قفاز أو حتى قبعة تسر الناظرين تخفف قليلاً من وطأة مظهرها البائس.

تخيل دهشتى لمّا بلغت الشارع المزدحم، ورأيت جميع السيدات الإنجليزيات يرتدين هن أيضا معاطف منزلية بائسة. وكما لو كان سبحانه قد حجب قوس قزح عن هذا المكان وحرمهم من رؤية ألوانه لم يكن ثمة شخص واحد يرتدى لونًا زاهيًا يكفى ليسر بصرى. كان اللون الرمادى هو السائد. بيد أننى أثناء سيرى وسط هذه المناظر الشاحبة المضجرة، بدأت عينى تتبين ألوانًا أذهلتنى بالفعل. ألوانًا مدهشة تصطبغ بها سيماء جميع الإنجليز. لم يذكر أى كتاب أو أى درس تعلمته أو قال لى أى شخص إن لمعشر الإنجليز أنواعًا وأصنافًا شتى. فى جامايكا كان جميع الإنجليز يشبهون المدرسين فى جامعتى. شعرهم أصفر باهت، كلون الخبز المحمص. وبشرتهم حمراء وردية من أثر الشمس. كان من السهل للغاية تمييز أى شخص إنجليزى يمشى فى الطرقات حتى من بين صفوة المجتمع الجامايكى. لكن هنا الآن، فى إنجلترا، كانت ألوان وجوه البشر من حولى من الكثرة والتنوع بحيث أصابت عقلى بالحيرة

والاضطراب. لقد جعلتنى هذه الجولة بين المتاجر بصحبة السيدة بلاى أنظر حولى بارتباك.

"**هذه هى المتاجر.**" أخبرتنى السيدة بلاى.

لم أكترث بظن هذه السيدة أنى لا أستطيع معرفة أن المكان الذى أمامى، بواجهاته الزجاجية المعروض بها الطعام، هو متجر. لقد كان عقلى ذاهلاً من المرأة الواقفة بجوارى. كان شعرها أسود فاحمًا وبشرتها ليست أفتح لونًا من بشرتى ـ عسلية اللون. تُمسك يد طفل صغير له نفس لون شعرها الأسود. لمّا رآنى الصغير أحدق فيهما، لكز أمه برفق وأخذا يُحملقان فى بدورهما بأعينهم الزرقاء.

"**يُسمى هذا المتجر البقالة.**" أخبرتنى السيدة بلاى.

أومأت برأسى. كانت البقالة معروضة فى واجهاته، وما عساه أن يكون غير ذلك؟ لكنى كنت أنتظر أن تتحدث هذه المرأة زرقاء العين رغم شعرها الأسود الفاحم. هل كانت إنجليزية؟ أم أجنبية؟

"**هيا، فلندخل،**" قالت لى السيدة بلاى.

ولمّا كانت المرأة السوداء وابنها قد سبقانا إلى الداخل اعترانى السرور وأنا أتبعهما. سألت المرأة البائع وهى تتفحص طاولة المعروضات "**هل لديك جبن اليوم؟**" قالتها بإنجليزية متقنة متعالية لا تشوبها شائبة. لم أستطع منع فمى من الانفراج. لم أرَ من قبل امرأة إنجليزية داكنة اللون. ملامح كهذه فى وطنى قد تجعل كثيرًا من الرجال الشيوخ ينظرون إليها فى حيرة وارتباك.

قالت السيدة بلاى، عندما رأتنى فاغرة الفم: "**فى متجر البقالة، بوسعك شراء حليب، بسكويت، سكر، رقائق الذرة، البيض، مثل هذا النوع من الأشياء. هل تحتاجين بيضًا؟ لحم خنزير**

مقدداً؟ كثير منها لا يزال يُوزع بحصص لكن معظم الأشياء تُباع هنا. لذا عليك أن تتذكرى، أن هذا هو متجر البقالة."

كان الرجل الذى يقوم على خدمة هذه المرأة الداكنة أصهب اللون. وجهه مرقط كبيضة طائر مصحوبة بنمش صغير أحمر. إسكتلندى. ظننت أنه إسكتلندى. ففى جامايكا لا يوجد أناس صُهْب شديدو الحمرة سوى الإسكتلنديين.

"**كيف أستطيع مساعدتك؟**،" سألنى مباشرة. الرجل الإنجليزى الأصهب!

"**يريد معرفة ما إذا كنت ترغبين فى ابتياع شىء؟**" أخبرتنى السيدة بلاى.

دفعنى اهتمامها دفعًا إلى الشراء. سألته: "**علبة من الحليب المركز، من فضلك.**"

إلا أن هذا الرجل الأصهب حدق بدوره فىَّ كما لو كنت لم أتفوه بكلمة واحدة. لم يبدُ على عينه أى بارقة فهم. قال: "**عفواً؟**"

حليب مركز، قلتها، خمس مرات، ولا يزال ينظر إلى متحيرًا. لماذا لا يفهم أى امرئ فى هذا البلد إنجليزيتى؟ كان أسلوبى فى الحديث بالإنجليزية فى كليتى محط إعجاب الجميع. كان على أن أشير بإصبعى إلى علبة بائسة من اللبن المركز، كانت موضوعة خلف رأسه.

"**آوه، حليب مركز**". قالها كما لو كنت لم أرددها مرارًا وتكرارًا.

متعبة من حالات سوء الفهم الغبية. لم أكترث بطلب رغيف الخبز ـ اكتفيت بالإشارة إلى الخبز الموضوع على منضدة البائع. لف الرجل يده الضخمة على الخبز، وأصابعه المنمشة ممددة حوله.

حملقت فيه. هل سأتناول الآن هذا الخبز الذى لمسه الرجل؟ أما يده الأخرى فقد مسح بها أنفه وهو يعطينى الخبز. لم آخذه، لأنى كنت أنتظر أن يضعه فى حقيبة تغلفها.

"**ها هو.**" قال لى ذلك، دافعًا الخبز نحوى لأرى خطًا أسود رفيعًا من القذارة يربض تحت كل ظفر من أظافره. كانت السيدة بلاى هى من تقدمت وأخذت الخبز منه. وضغطت يدها المتسخة أيضًا على رغيفى، وهى تضعه فى حقيبة المشتريات خاصتى.

ثم قالت لى بصوت عال حتى يسمع جميع من فى المتجر. "**هذا خبز.**"

أتظننى سيدة حمقاء لا تعرف ما هو الخبز؟ إلا أن عينىَّ أبتا أن تصدقا ما رأته: أن معشر الإنجليز يبتاعون خبزهم على هذا النحو. كان هذا الرجل يربت على شعره الأصهب ويمسح يده أسفل معطفه الأبيض المتسخ. ياه، ولماذا لا يلعق الخبز أولاً قبل أن يعطيه لى لآكله؟

همست فى أذن السيدة بلاى: "**لم يُغلف الخبز.**"

ولكنها لم تهتم لما أقول ، كانت مشغولة بمحاكاة البائع برفع ناظريها معه إلى السماء بنفاد صبرٍ بينما أدفع النقود.

تبدو السيدة بلاى مدرسة دقيقة وحريصة على الشكليات. أخبرتنى بأن المتجر الذى يعرض اللحوم فى واجهته الزجاجية هو متجر الجزارة. والذى يعرض الكعكات الوردية الجميلة هو الخباز. وكل مرة تُطلعنى على كلمة جديدة تريدنى أن أردد وراءها. بدلاً من أن أردد وراءها قلت: "**أعرف، لدينا هذه المتاجر فى جامايكا.**"

أومأت برأسها. تقول حسنًا. ثم ترى متجرًا يبيع الأسماك فتخبرنى بأن هذا هو بائع السمك.

إلا أننا لمّا بلغنا المتجر الذى يبيع الأقمشة، كنت أنا من بادرتها بالسؤال: "**هل تبتاعين ثيابك من هنا؟**" كانت جميع الأقمشة مبعثرة على الأرض. لم يكن ثمة موضع لقدم. لفائف ولفائف من القماش ملقاة بهذه الطريقة فى جميع أرجاء المتجر. بعضها متسخ. والبعض الآخر ممزق وبال. وسيدتان مسنتان تبدوان كما لو كانتا تزحفان على أيديهما وأرجلهما وسط هذه الفوضى، بينما الفتاة المفترض أن تساعدهما مستغرقة فى أحلام اليقظة خلف الطاولة. كيف يعامل الإنجليز بضائعهم على هذا النحو؟ فى جامايكا، قلت للسيدة بلاى، تُعرض جميع الأقمشة مرتبة فى صفوف كى تتمكنى من تَفَحُّص التصميمات والألوان. وعندما تختارين شيئًا ما عليك سوى أن تشيرى إلى اللفافة فتأخذه العاملة لأخذ المقاسات. فَهِمت ما أخبرتها به لكنها نظرت إلى بدهشة، قائلة: "**آوه، وهل لديكم تجار أقمشة فى البلد الذى أتيتِ منه؟**"

ثلاثة طُشوت! صاحت السيدة بلاى حتى يسمعها جميع مَنْ فى متجر الأدوات المنزلية، لماذا أبتاع ثلاثة طُشوت؟ أخبرتها برقة، بأن الطشت الأول لغسل الخضراوات، والثانى لغسل الأقداح والصحون، والآخر للاغتسال. قالت لى، لا، أنت لا تحتاجين سوى لطشت واحد. "**واحد سيكفيك - كل ما عليك غسله.**" كيف تتوقع سيدة إنجليزية أن أغتسل فى نفس الطشت الذى أغسل فيه الخضراوات؟ كان الأمر مقززًا بالنسبة لى. وحتمًا بغيضًا بالنسبة إلى هذه المرأة الإنجليزية؟ حدقت فيها ذاهلة. طشت واحد هو ما أعطاه لى البائع برغم طلبى لثلاثة. لكنى لم أبالِ. فكرت فى تسجيل ملاحظة عن

مكان هذا المتجر لأعود إليه عندما تكون هذه السيدة الفضولية قد كفت عن دس أنفها فى شؤونى. لكن عيناى شخصتا إلى ملامح سيدة تدفع أمامها طفلاً فى عربة أطفال.

لم أرَ قط مثيلاً لتلك المرأة البيضاء. ذَكرنى شعرها الملفوف فوق رأسها بالحلوى والكعكات المزينة - أبيض مزيد كالرغوة. ذات بشرة فاتحة للغاية، حتى إن الورقة قد تبدو متسخة إلى جوارها. وحاجباها، وأهدابها، وحتى شفتاها تبدو وكأن لا لون لها ولا حياة. شديدة الشحوب وكأن الحليب يجرى فى عروقها مجرى الدم. لم أستطع الاحتفاظ برباطة جأشى. **"هذه المرأة ناصعة البياض."** اندفعت بغتة فى الحديث عنها. كان يجب أن أسأل السيدة بلاى: **"هل هى إنجليزية؟"**

"كُفِّى عن التحديق، هذه وقاحة." همست لى السيدة بلاى فى عجالة. ثم قالت، وهى تنظر إلى المرأة بعين خبيرة: **"أجل، هى إنجليزية بالطبع."**

"لكنها شاهقة البياض."

قالت: **"لا تكونى حمقاء."**

تبدو بشرة السيدة بلاى داكنة بجوار بشرتها. شاهدت طفلاً صغيرًا أشقر يجلس فى مقدمة عربة الأطفال، التى تدفعها هذه المرأة الغريبة التى ليس لها مثيل بين البشر. أشار، بإصبعه الغضة الرشيقة، نحوى مباشرةً. جذب انتباه والدته بصراخه: **"انظرى! إنها سوداء. انظرى، يا ماما، امرأة سوداء."**

فاستدارت المرأة البيضاء نحوى محملقة بعينين زجاجيتين. ألقت المرأة علىَّ نظرة زجاجية متفرسة. مَنْ منا كان الأكثر دهشة

وذهولاً؟ وراح كل منا يتفرس فى الآخر، كأننا بكل تأكيد نرى شبحًا أمامنا. دفعت المرأة عربة الأطفال قليلاً نحو عمود إنارة قبل أن تميل للأمام نحو طفلها، الذى لا يزال يشير إلى، معاتبة. "**لا تشر إليها، يا جورجى. إنها ليست سوداء ـ بل ملونة.**"

حينئذ انبعثت صيحات من الجانب الآخر للطريق. كان الصياح عاليًا فظًا صاخبًا. "**دُمية سوداء، دُمية سوداء.**" كانوا ثلاثة شباب يافعين. يستندون على جدار ويصرخون من باطن أيديهم المقبوضة. "**آوه، يا زنجية.**"

قالت السيدة بلاى: "**لا تبالى.**"

سألتها: "**هل يتحدثون عنى؟**"

"**واصلى السير فقط، يا هورتنس.**" لكنى أردت أن أرى وجوه هؤلاء الرجال. من هو ذلك الإنجليزى الذى يصيح بمثل تلك الفظاظة والغلظة؟

"**أجل، أنت أيتها السوداء. نحن نتحدث عنك.**" ابتعدوا عن الحائط ليقفوا على حافة الرصيف، ملوحين بأذرعهم كالمهرجين.

انتاب السيدة بلاى قلق عارم ـ جذبتنى من أحد أكمامى وأنا أرد عليهم: "**أنتم وقحون!**"، فتطاير من يد أحدهم رغيف خبز أُكل نصفه ليرتطم بالسيدة بلاى ويقع على كتف معطفها القبيح.

"**فقط واصلى السير، أسرعى، أرجوك.**" رجتنى السيدة بلاى. لطخت الآن بقعة صغيرة من الزيت معطفها.

"**انظرى، لقد تسببوا فى اتساخ كمك.**" حاولت تنظيفه لكن السيدة بلاى أمسكت بى بقوة حتى إنى لم أستطع أن أفعل شيئًا سوى اتباعها.

كنا قد اقتربنا من شارع نيفرن ـ ونَهمُّ بالمرور بين ملتقى شارعين. عندما استعادت، السيدة بلاى، شيئًا من رباطة جأشها التى فقدتها فى مواجهة هؤلاء الهمج، وبدأت فى إرشادى إلى مسلك أكدت لى أنه يُعد من حسن السلوك. يتعين علىَّ، أنا، كزائرة لهذا البلد، أن أهبط من الرصيف وأمشى فى قارعة الطريق إذا أراد إنجليزى المرور ولم يتسع الرصيف لكلينا.

سألتها غير مصدقة ما تسمعه أذنى: "**أنا، السيدة، على أن أترك الرصيف لأمشى فى الشارع المزدحم؟**" أومأت بالإيجاب. فأردت أن أستوضح الأمر، "**وماذا إذا كانت هناك بركة مياه، أينبغى أن أنزل فيها؟**" كانت، كما أعتقد، تفكر فى رجاحة هذا الاقتراح عندما، تسمرت فى مكانها بغتة، بعدما جالت بناظريها فى أرجاء شارع نيفرن. كانت تلتقط أنفاسها بقوة بالغة فيضرب الهواء الذى تتنفسه صدرها ويهز ظهرها. بدت لبرهة بلا حياة، ولون وجنتيها الوردى يسيل كما لو كان دمًا ينزف من جسدها. جعلت أتفحص الشارع بعينى لكن عينى لم ترَ شيئًا يمكن أن يُبرر هذا المسلك العنيف. لم أرَ سوى رجل يولينا ظهره يقف على باب المنزل. شرعت السيدة بلاى ببطء فى رفع سبابتها. بيد أن المجهود الذى بذلته فى رفعها جعلها تسقط بقوة نحوى. أمسكت بها لكن هذه المرأة كانت ثقيلة ثقلاً أثار دهشتى. لم تستطع ذراعى حملها. فلم يكن لدى خيار سوى أن أضعها برفق على الأرض.

نظر الرجل وهو يلتفت حوله، إلى حيث تجلس السيدة بلاى مستقيمة حيث تغمغم بصوت خفيض، دون توقف: "**برنارد؟ برنارد؟**"

الفصل الرابع والثلاثون

كوينى

لم أكن لأخطئ فى تمييز مؤخرة عنق برنارد أينما كنت. عُنقه النحيل ناتئ العظم الذى تعلوه أذن بارزة للخارج. عندما رآنى أجلس على الرصيف أقبل نحوى. كان يرتدى قبعة. وياقة قميصه بيضاء. ويرتدى معطفًا من الجبردين ــ عُقدتْ جميع أزراره وكذلك الحزام الذى يطوقه. رفع قبعته عندما اقترب منى، على نحو رسمى، مهذب، كما لو كان لقاء عابرًا. كنت حينها أجلس على الرصيف، منهارة لأن زوجى الذى لم أره قرابة الخمس سنوات يقترب للتو منى. قلت: "**برنارد. لقد ابتعدت زمنًا طويلاً.**"

وكان كل ما قاله: "**صحيح.**"

هذا كل ما تفوه به. دون أن يطرف له جفن.

المرة الأخيرة التى رأيت فيها مؤخرة عنق زوجى كان الزى الأزرق للقوات الجوية الملكية ملتصقًا عليه. يمشى فى شارعنا. بعدما

استُدعى للخدمة فيما وراء البحار فى الهند. وقد دارت رحى حرب وتحقق الانتصار منذ ذلك الحين ـ وانقلب العالم رأسًا على عقب. أما زوجى فقد تَغيب ردحًا طويلاً من الزمن حتى أوشكت على إعلان وفاته رسميًا. ولكن ها هو يقف هنا، رافعا قبعته، مبتسمًا. أقصد، عليه اللعنة. ولهذا قلت له: **"ما لم تكن شبحاَ يا برنارد بلاى، أود سماع تفسير عن الذى حدث بدلاً من الذى تفعله الآن."**

من قبل

الفصل الخامس والثلاثون

برنارد

حشدونا كالماشية فى القطار الذى اتخذ سبيله إلى بومباى لحظة وصولنا الهند. المئات من قوات الجيش. سرنا ثلاثة أفراد جنبًا إلى جنب فى محطة القطار لكن سرعان ما ازددنا عددًا. أحاط بنا أناس سمر الوجوه من حولنا فى كل مكان. وقفوا خلف ظهرى، وأمامى، وتحت ذراعى. أياد مبسوطة. وراحات بيضاء تستجدى. وكلمات "بقشيش، بقشيش،" تدوى فى أذنى. بعضهم يعرض سلعًا ـ كعكات ملونة، مشروبات، حُلى رخيصة من شتى الأنواع. والبعض الآخر لا كرامة لهم، يسعون للحصول على المال دون مقابل. وخلفى يصيح أحدهم: **"أرجوك، يا سيدى، أمى وأبى ماتا، أعطنى بعض الروبيات."**

وعلى يمينى أب يبيع ابنته لجندى بريطانى، **"فتاة جميلة ونظيفة للغاية، يا سيدى."**

وأطفال، الذين كان حريًا بهم أن يكونوا فى مدارسهم، يركضون بين أقدامى، مرتدين ثيابًا لا تكاد تغطيهم. عيونهم سوداء كبذور الفاكهة. كان بعضهم صغيرًا للغاية حتى إنهم بالكاد يستطيعون المشى. ليس لهم آباء يبعدونهم حتى لا تطأهم قدم رجل ضخم. لا شىء يمنعهم من مواصلة التسول. أحاول أن أتخلص منهم ما أمكننى. لم أفكر فى إهانتهم. غير أن رائحة هؤلاء البشر كريهة. كانت رائحة أجسادهم خليطًا من رائحة الحلوى والأسقام والتوابل.

أربكتنى الحيرة. عندما صاح رجالنا، بغية معرفة أى طريق يسلكون: "آوه، آوه ـ من هنا."

راح جمع من الأهالى بلون آكلى لحوم البشر يلوحون بسواعدهم النحيلة كالعصى. مثرثرين بلغات غامضة. "**نحن عمال مهرة، يا سيدى، لا نثير المتاعب. أرجوك، عمل، أرجوك، يا سيدى.**" بينما لعابهم يتناثر على وجنتى.

يصيح أحد الجنود الإنجليز: "**انتظموا فى صفوف، انتظموا فى صفوف. تحركوا فى هذا الاتجاه.**" صرير عجلات إحدى العربات. دوى صفارة قطار. والضحكة البغيضة لأحد عمال القوات الجوية الملكية : "**هى؟ أنت تمزح! وربما تحمل حقيبة فوق رأسها.**"

بدت محطة القطار مألوفة لى. لها بناء خرسانى بسقف ذى عمدان. يُخيل إلىَّ أننى فى وطنى ـ فى شارع القديس بانكراس أو فى ليفربول. حتى الرجل الذى يلبس قبعة لاعبى البولينج السوداء كان يخوض وسط الجموع. يبدو مثل والدى وهو فى الطريق إلى عمله. غير أنه كان يرتدى قميصًا طويلاً، وساقاه ملفوفتين بسروال واسع أبيض من القطن. ابتسم وهو يمر أمامى كاشفًا عن أسنان

حمراء لامعة. أظن أن أحدهم لكمه فى فمه، ينتحل شخصية رجل محترم. ولكنه بدا غير مبال بما أصابه على الإطلاق ـ لم يتوقف عن مضغ وبصق كرات حمراء على الأرض.

"**يا سيدى، برتقال شهى، كثير العصارة.**" جرى تحذيرنا من قبل من شراء برتقالهم. يغلونه فى ماء قذر لتكبير حجمه. أما الكعكات التى يبيعونها فكان منظرها يشى بمخبرها. مزينة بطريقة تنم عن ذوق سقيم مثل كعكات الكريسماس ومنثور عليها بذور سوداء ـ ليست زبيبًا بل ذبابًا. ابتاعها بعض الرجال. نفضوا عنها الحشرات والتهموها. لا يمكننى لومهم —فلا أحد يعرف متى نأكل مرة أخرى.

رجل من الأهالى يرتدى زيًا رسميًا، زى العاملين بالنقل وليس الخدمة العسكرية، يحثنا على الإسراع، مغمغمًا بلغة غير معلومة خاصة به. كَوَّم أمتعة الجنود فوق ظهره. خمس مخلات وأحيانًا ست. أحنت ظهره أضعافًا مضاعفة وهو يصارع للصعود على درجات سلم القطار. يضع الأمتعة، ثم يعود لحمل المزيد. ووجهه كالرعد. "**عامل هندى ثرثار**" قال الرجال ساخرين، وهو يعرج فى مشيه مبتعدًا.

لعل القطار توقف فى بومباى غير أن الرصيف الذى وضعت قدمى فوقه يشى بأنه صُنع فى مدينة كرو. جعلتنى الرائحة النتنة القوية السخامية لبخار القطار أعود بذاكرتى إلى عطلات الطفولة فى ديمتشريش. غير أن انفجارًا مفاجئًا لدخان رمادى جعل كل الذكريات تختفى. ورأيت، عندما تلاشى الدخان شيئًا فشيئًا، من بين الغشاوة، بقرة تتبختر على امتداد الرصيف. لا يزجرها أو

يقيدها أحد. بقرة جرباء بوسعك أن تحصى عدد أضلاعها. تسمع وقع حوافرها وهى تمشى، طيعة، بين الجموع، مفرقة جمعًا من النسوة كن يحملن الفحم لمحرك القطار فى حزم من الخرق البالية. بعضهن يمشين بصعوبة حاملين أطفالا على ظهورهن وأكياسًا منتفخة أمامهن بالفحم، فى حين كان الرجال أقوياء البنية من المحليين يتدافعون ويشحذون من جنود القوات البريطانية. مما جعلنا جميعًا نهز رؤوسنا استهجانًا.

جاء الشحاذون من نوافذ القطار. وجوههم، أصابعهم، أياديهم، أذرعهم، تندفع وتتدافع نحونا. ممسكين بأدوات لا خير فيها ولا نفع. يصيحون لتنظر إليهم. "سيدى، خذه - هل يعجبك؟" "خذه، يا سيدى." معظم هذه الأشياء لم تكن سوى مجرد أشكال بالنسبة إلىَّ. هل آكلها، أم ألعب بها، أو أحك بها حصف الحر الذى أعانيه؟

وأخيرًا شرع القطار فى التحرك. وبدأ الأهالى فى العدو إذ ما زال الأمل يملؤهم. وما إن تسارعت عجلات القطار، حتى تراجعت الأيدى والأذرع والحلى الرخيصة إلى الوراء.

بعد دقيقتين من ابتعادنا عن محطة القطار وقع نظرى على رجال بالغين يفترشون الممرات، ليتغوطوا على الأرض. خيم الصمت للحظات فى عربتنا كما لو كنا عُدنا توًا من غارة. ومن خارج النافذة، التى تتماوج مشاهدها الخارجية من الحرارة، شاهدت فيلاً يجر عربة ببطء. لكزت برفق الرجل الجالس بجوارى. فهز كتفيه بلا مبالاة. كان عددنا بالمئات فى هذا القطار. والحمام عبارة عن فجوة صغيرة فى الأرض وعليها مقبضان لمساعدتك على الوقوف. لم يقطع جدار الصمت سوى رجل فصيح قال صائحًا: **"اثمة شاعر كتب مرة عن سحر الهند؟"**

رد عليه رجل من شرق لندن: **"بل كتب عن رائحة الهند، يا صاح."**

لم تكن كوينى تريدنى أن أنضم للجيش إلى أن استدعونى للخدمة. **"بوسعك أن تنتظر حتى يستدعوك هم بأنفسهم،"** لم تفتأ تقول لى ذلك. لم أكن متأكدًا ما إن كانت النساء يفهمن مجريات الأمور. كنا جميعًا نعرف، نحن الرجال الذين يتقابلون فى حانة فزرز، ونفهم ما يجرى. سجل هارولد، وآرثر، وريدج، وجورج، أسماءهم جميعًا منذ سنوات مضت. اختار الجميع القوات الجوية الملكية. طار هارولد على سبيتس فى مكان ما فى كنت. وأصبح آرثر وريدج عاملى اتصالات لاسلكية، لكننى لم أعد على اتصال بهما منذ انضمامهما للجيش. أما جورج فقد عُين فى سلاح المدفعية. وأُطلق عليه الرصاص فى فرنسا. وفُقد أثناء الحرب. قد يعود يومًا إلى وطنه ويطلب شراء جعة له، ليتجرعها فى إحدى عشرة ثانية، مهارة يتمتع بها. لم يتبق سواى أنا وفرانك. كنا أكبر عمرًا، كما ترى. وكموظفين قدامى فى البنك ـ كنا نعلم ما الذى يتعين علينا عمله. كان الفتية الآخرون أصغر سنًا. ليست لديهم عائلات وبلادهم تحتاج إليهم.

كان ذلك اقتراح فرانك. يومًا ما، بعد أن تجرع كوبين مملوءين حتى المنتصف بالجعة الممزوجة بالماء فى حانة فزرز، نفض سيجارته خارج الباب. تطاير الرماد على هيئة قوس من الشرار فقالت له هيلدا، ساقية الحانة، صائحة: **"ستشعل الحريق!"**

عاجلها بقبلة، اعتقدت حينها أنه سلوك فظ من جانبه. لكنه كان مشتعلاً حماسة. **"حقًا، يا برنارد، دعنا نمضى وننضم إليهم أو سيكون حظنا هو سلاح المشاة اللعناء البائسين."**

سلاح المشاة البائسين. كان الجميع يعلم، فيما عدا كوينى، أنه إذا استدعى الجيش رجلاً ما، فإنه ينضم للمشاه فوراً من دون إبطاء. يتأبط سلاحًا، ويضع قبعة من الصفيح فوق رأسه ومخلاة على ظهره. لم أكن بحاجة لأن يقنعنى أحد. كنت أريد الانضمام إلى القوات الجوية الملكية. فقد كنت أرغب، إذا كان مقدرًا لى الاشتراك فى الحرب، أريد أن أذهب مرتديًا الزى الأزرق.

"تظن بأنك ستصبح مثل الطيار بيجلز، أليس كذلك؟" قالت لى كوينى ذلك، عندما أخبرتها. هززت رأسى وقلت لا. غير أننى لو كنت صادقًا مع نفسى لاعترفت بأنى أحب أن أكون ذلك الطيار البطل الذى يجوب السماء. فتى يدهن شعره بكريم بيلكريم وتسقط الشمس على خصلاته المصففة. يقترب العدو منى، أضرب طاخ طاخ طاخ فى الثالثة بعد الظهر. أراوغ بطائرتى بخفة. أختبئ فى سحابة. ثم أظهر فجأة. وأطلق على عدوى كل ما لدىَّ من طلقات. أعمال بطولية نفذتها بجسارة. وكوينى، تستقبلنى لدى عودتى ودموع الفرح فى عينيها.

لكنهم لم يقبلونى كطيار ـ خذلنى ضعف بصرى. ولم يقبلوا حتى فرانك، الذى، أخجل أن أقول، وجدت فى عدم قبوله هو الآخر راحة نفسية لى. ألحقونا نحن الاثنين ضمن عمال إصلاح الطائرات، المعروفة لدى الجميع باسم إرك٥ أو الطاقم الأرضى. لم يكن لدينا خيار سوى أن نعمل فى هياكل الطائرات أو محركاتها. اختار فرانك الهياكل فاخترت المحركات.

"هل هذا حقًا ما ستفعله؟" سألتِ كوينى. **"كنت أظن بأنهم سيعلمونك على الأقل الطيران."**

كانت تَوَد أن تعيش مع بطل. كنت أعلم ذلك كحقيقة لا ريب فيها.

ألقونى من فوق الشاحنة عندما بلغنا قاعدة الجيش فى الشرق، فاستقر وجهى فى الوحل. جعلتنى حفنة من التراب الجاف أبصق وأختنق. وقف أحدهم على ساقى. لم يتسع الوقت لى للصراخ قبل أن يتعثر آخر فوقى. وقف على يدى وهو يترنح ثم سقط، مطلقًا اللعنات. أخذ الجميع يعدو. فارتجت الأرض من دبيب وقع أحذية الجنود. صاح الرجال: "**انطلقوا! انطلقوا! احتموا!**" سرعان ما وقفت على قدمى. وعدوت مطرقًا (أو منكسًا) رأسى، وذرات التراب تتناثر فتغشى عينى. فلا أكاد أرى، ولم أجد لى سبيلاً سوى اتباع السيقان التى تتحرك أمامى.

سمعت أزيز طائرة تحلق على ارتفاع منخفض. واحدة، اثنتان ـ لعل عددها يفوق ذلك. لم يكن ثمة متسع من الوقت لأنظر إلى السماء فسرعان ما ارتطم الرصاص الذى أطلقته على الأرض. ثار التراب واصطف، وأخذت ذراته تضربنى كالسياط فى صدرى. صرخت (أعترف بذلك). أخذ حذائى الطويل ينزلق على الأرض لكى أغير الاتجاه. كان التراب يغشى عينى كالضباب. كنت كالأعمى. تائهًا. لا أدرى إلى أين أذهب. ثم جذبنى أحدهم. مزق قميصى وهو يجذبنى نحو خندق. كان الخندق ممتلئًا بالرجال، لم يكن ثمة موضع لقدم. أعلم أنى صرخت وأنا أقول لهم: "**أفسحوا**." قبل أن يدفعونى على الأرض.

"**ادخل**" صاحوا فى أذنى. فوقعت على جسد أحدهم. اصطدمت جبهتى بمؤخرة رأسه. "**انتبه لأفعالك اللعينة.**" صرخوا فى وجهى.

كان الجميع يصرخ، "اخفض رأسك اللعينة، يا عامل الطائرات الأحمق."

عاودت الطائرة التحليق على ارتفاع منخفض. ورحنا نتلوى، ونحنى أجسادنا ونلقى الشتائم. ارتطم الرصاص بالتراب الذى تطاير بدوره عاليًا فى الهواء، ثم تناثر كالدثار الخانق.

شاهدت الطائرات. كانت طائرتين من نوع زيروس اليابانية. تنقضان على الأرض وتقصفانها. ورصاصهما أحيانًا يصدر أزيزًا ويتقاذف مثل الألعاب النارية التى لا ضرر منها. بيد أنها كانت قريبة منا للغاية. فكان بوسعى أن أرى الطيار. رأيته يضحك على ما أظن.

ثم وقع أحدهم على. فاصطدم بظهرى طَوْد من الرجال. أطبقوا على صدرى. فحاولت ابتلاع ريقى. ولم أستطع الصراخ. ثم وقع انفجار، محدثًا فرقعة هائلة. أطبق الصمت على كل شىء لثانية واحدة خاطفة، قبل أن يسقط علينا وابل من الطوب والحجارة ككريات الثلج. كان الجميع يختنقون ويسعلون. وأذرعهم فوق رؤوسهم وأفواههم. أحاط بنا التراب من كل ناحية فبدا مثل ضباب لندن الكثيف. عجزت عن التقاط أنفاسى، كما لو كان أحدهم على الأحرى وضع يده على وجهى. نبشت الهواء بأظافرى محاولاً التنفس. فأمسكت لا إراديًا بالرجل الجالس إلى جوارى، استطاع التخلص منى. ابتلعت حفنة من الأوساخ الصفراء كتمت أنفاسى. فجف حلقى وانتفخ لسانى.

سرعان ما تضاءل ضجيج الطائرات، فأضحى كطنين نحلات بعيدة. وأخيرًا التقطت أنفاسى. كانت أعذب أنفاس استنشقتها فى

حياتى. انتهى الضجيج بغتة. رحل اليابانيون. اعترانا الارتياح فتنفس جميع من فى الخندق الصعداء كرجل واحد.

"ابتعد عن ذراعى اللعينة - لقد كسرتها، أيها الوغد الأحمق."

كان أحدهم يتحدث إلىَّ. ابتعدت عنه. أسفت له لكن لم يلق لى آذانا صاغية. شرعنا بعناء فى الزحف خارج الخندق، وأخذنا جميعا نسعل ونبصق كما لو كنا مصابين بالسل. فقدت توازنى فانزلقت إلى داخل الخندق. حينئذ لاحظت بروزًا لا تخطئه عين فى مقدمة سروالى القصير. لقد انتصب قضيبى.

"**تعال**،" سمعت صوتًا فوق رأسى. نظرت عاليًا فوجدت يدًا ممدودة لى. حاولت إبعادها لكن الرجل أصر. أمسكت يده بقوة كما لو كنت أصافحه وصعدت دونما رغبة منى.

قال: "**هل رسيت سفينتك للتو؟**" حاولت إخفاء خجلى ما أمكننى — انحنيت، واضعًا ذراعى أمامى. كان الرجل يبدو وكأنه فى الثمانين من عمره. بدونا جميعًا فى مثل هذا العمر، بملامحنا التى علاها التراب. تساءلت فى سريرتى إن كان لاحظ، أو رأى هذا البروز. هززت نفسى، نافضًا التراب عن سروالى القصير الفضفاض الذى لا يلائم حجمى. استعدت احتشامى. وعندما هممت بإخباره بالمدة التى قضيتها فى الهند كان قد ابتعد بالفعل عنى.

تنفست الصعداء. كانت أكثر المواقف التى عايشتها قربًا من الحرب الحقيقية. أمطرونا من قبل بالقنابل فى لندن. ارتجت المنازل، والمحال، والمصانع، والشوارع - وارتعش الناس جميعًا بسخافة بفعل الدمار. اختبأنا أنا وكوينى كالجرذان. بعد أن تخلصنا

من المياه التى كانت تغمر مخبأ الحديقة. جلسنا حاملين شمعتنا نستمع للطائرات وهى تحوم من فوقنا. كان يعد من سوء الحظ إذا رأونا فى طريقهم. لم أكن عديم النفع لها. أما الآن فأصبحت، مع الرصاصات التى تخترق الأرض على بعد بوصات منى، أعد رجلاً خطيرًا.

"تقدم! أخرج الطائرات من غطائها. تقدم! تقدم! لا تترك عليها غطاء."

شرع الرجال فى الركض مجددًا. ركضت معهم. كان ثمة طائرتان من نوع هوريكان تربضان على مهبط الطائرات. تهشمتا بفعل إطلاق النار. كان مشهدًا مؤسفًا، كما لو كانتا طيورًا سقطت من علٍ بعد قصفها. التوت عجلاتهما. وجناح إحداهما يرقد مبتوراً. ومقدمته مدفونة فى الوحل. معدن مشتبك. وقماش يرفرف. كانتا هامدتين لا حول لهما ولا قوة.

لم أستطع رؤية بقية الرجال من وحدتى، الذين سافرت معهم. كانت أمتعتى لا تزال على الشاحنة، التى غادرها الجميع ـ شاهدتها مائلة على إحدى زواياها، وإحدى عجلاتها منغرسة فى خندق ضحل تجمعت فيه الأمطار الموسمية.

"هيا، انقلها ! انقل هذه الطائرات!"

وجدت مكانًا لى بين زمرة الرجال، أزحتهم بيدى حتى أنضم إلى الرجال الآخرين الذين اعتلى كثير منهم الطائرة المنكوبة. كان هيكلها المعدنى حارقًا. ندت عنى صرخة ألم ونزعت يدىّ لثوان معدودة. لكن سرعان ما وضعتهما قبل أن يلاحظ أحد ذلك. كان هناك المئات من الرجال يتحلقون حول الطائرة. يقطبون جبينهم ألمًا

وغضبًا. محاولين الحفاظ على مواطئ لأقدامهم على الأرض الجافة. حركنا الطائرة رويدًا رويدًا ـ كجثة هامدة. سرعان ما سال العرق من أجسادنا على الأرض الغبراء، فغطاها بطبقة رقيقة من الطين. فقدت اتزانى. انزلقت. انتهى بى المطاف ووجهى منغمس فى البراز الدافئ الذى صنعه الإنسان. وقفت، وفارت يداى حيث لمستْ الحديد الساخن مرة أخرى.

نقلنا طائرة واحدة ثم تلتها الأخرى. وضعت الغطاء بعيدًا فى موضع مخلفات الطائرات. طائرات بائسة المنظر. من دون أجنحة. أو عجلات. أو نوافذ. لا أمل لها فى الطيران. امتلأت ثقوبًا بفعل الرصاص فبدت كالمصفاة. والغبار الذهبى للصدأ يرتعش عليها جميعًا. ووجدت الحيوانات مأوى مناسبًا لها فى البعض منها.

بعد ثوان من تخلصى من الغطاء هبطت طائرة. كان اهتزازها كهزات الزلزال. وأخذت تقفز على الأرض. مثيرة غبارًا كدوامات رملية. لا يسمع فى الكون صوت سوى دوى محركاتها. كانت من نوع فولتى فينجانس ٦

قال الرجل الذى يقف بجوارى: "**كانت مفقودة.**"

خرج الطيار منها وثبًا وهو يدفع شعره للوراء. لم يكن سوى صبى يافع، يضع يديه على جانبيه وهو يتلفت حوله. سرعان ما تحدث أحدهم. تحطمت طائرة يابانية أثناء هبوطها على بعد نصف ميل من هنا. ندت هتافات من الدائرة القريبة للرجال المتحلقين حول الطيار.

"سيتعامل معه الجنود الجورخاس" (*) قال نفس الشخص. "هل وصلت تواً؟" أدركت أنه يتحدث إلىَّ. بينما ينظر إلى شىء ما فى نصف جسدى الأسفل. عقدت ساعدَىَّ أمام سروالى القصير (على سبيل الاحتياط). ثم تبينت أن ركبتىَّ هما ما أثارتا اهتمامه. كانتا تنزفان. والدم يقطر أسفل ساقى. لم أشعر بشىء.

"مجرد خدش، لا شىء ذا بال." قلت.

ضحك قائلاً: "كلا. ركبتان بيضاوان - يا هبة الموتى." عجبت فلم أكن أراهما بيضاوين بأى حال من الأحوال. "لقد قدمت تواً."

"كنتُ فى ورلى." أخبرته.

"كما قلت." برز لسانه فى أحد جوانب وجنته. "لقد وصلتَ للتو. لا تقلق. ستعتاد على ذلك." يبدو أننى بدوت مرتبكًا فقد واصل حديثه قائلاً: "الأوغاد ذوو العيون الضيقة المشقوقة. ستعتاد على أساليبهم التافهة المضحكة. يأتون يوميًا. لكنهم جاءوا مبكرين اليوم - ربما لديهم عطلة رسمية أو ما شابه. إلا أنها يومية. تستطيع أن تضبط ساعتك عندما تشعر ببرودة الهواء." مد يده إلىَّ. "اسمى ماكسى. جورج ماكسيميليان لكن الجميع يدعوننى ماكسى." كانت يده متصلبة، شعرت بأنها صلبة كعقدات الخشب المحكمة.

"برنارد بلاى."

"بأى اسم يدعونك به، إذن؟."

(*) "Gurkhas" جماعة من المحاربين عرفت بالقوة والشجاعة فجعلت بريطانيا منهم كتيبة فى جيشها البريطانى الهندى. (المترجمة).

لم أجبه. أذكر أن آخر اسم دعونى به كان الشحاذ المتسول البائس.

جعلوه يمشى بين المعسكر، وعند مهبط الطائرات، مرورًا بمئات السكان المحليين الذين يرتدون قبعات من القش والخرق البالية. رجال ونساء أتوا من حيث لا ندرى بمعاول سيئة الصنع، يزيلون الحفر التى أحدثتها القنابل مؤخرًا. توقفوا عن العمل، ووقفوا مع رجال وضباط القوات الجوية الملكية، شاخصين. إنه طيار يابانى. يضع يديه فوق رأسه. يتبعه رجلان من الجيش يحملان بنادقهما ـ نصلهما ثابت ـ مصوبًا إلى ظهره. يدفعانه إلى الأمام. يصيحون. لغة ليست إنجليزية. إنهم أجانب. سود. هنود. "**جورخاس،**" قال ماكسى. "**قد لا يبدون مثلنا لكنهم رجال ماهرون. يجدر بك الا تعبث مع رجل من الجورخاس.**"

كان شابًا يافعًا، هذا الطيار اليابانى. هذا الغبى "**الذى يسكن الأحياء الفقيرة ولا يجد ما يستحق أن يحارب من أجله سوى هذا الاعتقاد الراسخ بأن إمبراطوره هو الإله**". بدا فى الثانية أو فى الثالثة عشرة من عمره. مَرَّ بجانبى. شخص ذو وجه مهشم ينزف الدم منه. حافى القدمين. بلا سراويل. ساقاه نحيلتان عاريتان. يجر قدمه جرًا وهو يمشى، وقدمه ملتوية تجاه زاوية لا يصدقها عقل، تحتك بالأرض. لم يكن يرتدى سوى سترة نُقشت عليها كتاباتهم المصورة. بصق الرجال على الأرض وهو يمر أمامهم. بعضهم تهكم. بعضهم أطلق الهتافات. والبعض الآخر ولوه ظهورهم. واصل سيره. من دون أن ينظر إلى أحد.

سألت ماكسى: "**إلى أين سيأخذونه؟**"

هز كتفيه بلا مبالاة ثم تنهد قائلاً: "اسمع، يا صاح، هل تعلم ما الذى يقال على سترته؟ الكتابة المنقوشة على سترته. إنهم جميعاً يرتدونها. تقول: "سأحارب لأجل وطنى. سأموت لأجل وطنى. لن أعود." ليس بوسعنا الاحتفاظ بأسرى، لا مكان نضعهم فيه."

"حسنًا، ماذا سيفعلون به، إذن؟"

وضع ماكسى إصبعين على صدغه وقال "بانج" بهدوء. شعرت شعور الأحمق. أحمق بركبة بيضاء كان يتوقع حربًا تسودها الأخلاق. "نحن بصراحة نسدى له صنيعاً،" أخبرنى ماكسى. "على الأقل، سيكون مدعاة للزهو والفخار له أن يُقتل برصاص العدو."

الفصل السادس والثلاثون

برنارد

لم أكن أريد الانخراط فى الحرب. ولا أيًا منا. ولم أرغب قط فى السفر إلى الهند. إلا أنى (أعترف) جلبت لنفسى المتاعب وابتعدت بهمة عن ذلك المصرفى الذى فى منتصف عمره والذى ظن أن حياته أضحت مستقرة. لقد بدأت أصفر (ليس وهمًا) عندما أصبحت عضوًا فى فريق: فأنا الآن عضو فى الوحدة رقم ٢٩٨ للإنقاذ والدعم. تدربت واختبرت فى القوات الجوية الملكية ـ على إصلاح الطائرات (محركات) ـ وأصبحت فخورًا بعملى كعامل طائرات.

أراد ماكسى رجلاً عاقلاً يصاحبه فى رحلة الإنقاذ. كنت أنا، اختياره الأول ـ هذا الرجل الأكبر قليلاً منه عمرًا، كما ترى. صدرت الأوامر بالبحث عن طائرة غارقة (من نوع سبت فاير). زعمت التقارير أنها سقطت فى مكان ما على التلال. التبس علينا الأمر، لكن وحدة جيش قريبة من التلال علمت موقعها. كان ماكسى

يسعى للعثور على قطعة بعينها من المعدات كانت على متنها. احتفظوا بالأمر فى طى الكتمان. واشتدوا فى إجراءات الأمن ما كان ليجدر أن يعلم به عامل إصلاح طائرات وضيع. أعطونا بعض المؤن (بما فى ذلك مسدس من نوع ستن لكل منا) ثم ركبنا شاحنة. كنت مسروراً بتخلصى من مهامى فى القاعدة الجوية. شعرت بالحرية. حتى، وإن كانت مهمة هى الأخرى.

ماكسى لم يكن أحمق كالبعض ـ كان من كبار العاملين فى خطوط السكك الحديدية فى الوطن. متزوج، ولديه طفلان (أحدهما لم يره بعد)، ينتظرونه فى برايتون. لم نتوقف طوال الطريق عن تجاذب أطراف الحديث فى صداقة ومودة، كالإخوة.

"استخف من قدر عدوك، تخسر الحرب. أرنى امرأ يظن أن اليابانيين حمقى وسأريك من الذى كتب على نفسه الشقاء."

كان ماكسى مطلعًا على كل ما يدور من حكايات. يحتفظ بها فى قصاصات فى رأسه. يخرجها من رأسه للترويع، لإلقاء الرعب فى قلب الرجل ذى الركبة البيضاء، **"إذا أحضرت أحد الجرحى فالأفضل لك أن تقيده وتطرحه أرضًا، فإن لم تفعل فسيجذب حتماً قنبلة ويلقيها مفجراً الجميع بينما أنت منهمك فى مداواته. وإن لم تستطع، فالأفضل أن تقيد يديه لأن اليابانى سيمزق جراحه بنفسه ـ جراح جسده! ـ ليموت فى سبيل إمبراطوره."** كانت ظريفة ـ وممتعة فى آن ـ تلك الحكايات. الجميع لديه ما يرويه. كانت القصص تتداول فى المعسكر تشحب وتفزع أكثر الوجوه احمراراً من لفحات الشمس. لم يشطط ماكسى فى خياله كالبعض منهم. لقد أقسم أحد الرجال بأن اليابانى قد يستمر فى العدو حيًا حتى

بعدما يصاب بعشرين طلقة رصاص. وكان الآخرون مقتنعين بأن هؤلاء الرجال صغار البنية ينهضون بعد موتهم. لكنى لم يكن لدى قصص كتلك لأرويها.

قلت: "**ليس ذلك بسبب عدم تصديقى لكل ما يقوله الرجال.**"

"**يجب أن تصدق، يا صاح.**" أجاب. (أكبر قليلاً كما ترى من الاسم). "**لم تمض وقتًا طويلاً هنا بما يكفى لتخبرنا بقصص مختلفة عن تلك.**"

أساء فهم وجهة نظرى، حسنًا.

قلت: "**بوسعك أن تُعَلِّم كلبًا أن يهاجم أى شىء إلى حد الموت. أى حيوان غبى سيظل يتبعك دون أن يفكر أبدًا فى نفسه. هذا ليس ذكاء. هذا خضوع. لكن ذلك لن يجعلك تفوز فى الحروب. إن فطنة قادتنا ستنصرنا**".

"**أتمنى ألا يكون فى ذلك إشارة إلى روح الدعابة التى تتمتع بها، يا صاح؟**"

أساء فهمى متعمدًا (مرة أخرى). "**اليابانيون مجرد دميات تعمل بالمحرك الآلى**"، قلت له، "**سيجبرون للرحيل فى نهاية الأمر.**"

تبينا أن قائد الوحدة لم يفدنا بشىء. كانت كل فكرته فى تحديد موقع الطائرة هى التلويح بذراعيه فى الاتجاه العام للتلال.

"**هل لديك اتجاه أكثر تحديدًا، يا سيدى؟**" سأله ماكسى (الدبلوماسى) بحذر.

بدلاً من أن يجاوبه رفع إصبعًا حائرًا وأخبرنا: "**ستحتاج إلى بغل.**"

"هل لديك بغلٌ نستطيع أن نستخدمه، يا سيدى؟"

"كلا."

ألقى علىَّ ماكسى نظرة فهمتها فى الحال. أحيانًا كان من العسير أن نستوعب أننا نخوض حربا معًا، جنبًا إلى جنب مع هؤلاء الرجال الذين يرتدون ملابس كاكية. تركنا محذرًا إيانا بفظاظة واقتضاب."**كن منتبهًا هناك أعلى التلال. لاحظنا مرور دورية حراسة يابانية من قبل.**" قال ذلك قبل أن يتركنا ملوحًا بيده مودعًا.

بدت الغابة أعلى التلال، من بعيد كثمرة الملفوف. لا أذى منها. مكانًا يصلح للهو. يخيل إليك أنك تستطيع أن تقفز وتلهو على أرضها. لكن سرعان ما تغير رأيك. تسير فى طريق مظلم، بين الأجمة والنباتات، الرطبة، كريهة الرائحة. فى حذر يثير الألم. والقراد يقع محملاً بالدماء داخل قميصى. والحشرات ترتشف النداوة من عينى. أما البعوض فيتجمع بأعداد غفيرة كما لو كان قطعة من القماش. كان ارتياحنا عارمًا عندما بلغنا المسار الذى حفرته الطائرة على الأرض حتى إننا احتضنا بعضنا البعض كما لو كنا لاعبى كرة أحرزنا هدفًا فى المرمى.

لم تكن بعيدة كل البعد، أقررنا بذلك. غير أننا، أمضينا ساعات فى الوصول إليها. نشق طريقنا وسط الشجيرات النامية المتشابكة، نخطو خطواتنا بشق الأنفس كما لو كنا من عمال مناجم الفحم. هل كانت كوينى لتتعرف على زوجها وهو على هذه الحال؟ غارق فى عرقه وأسمر كقطعة من الشيكولاتة الدافئة. فى بسالة وشجاعة ليفنجستون .ليس ذاك الموظف المصرفى شاحب الوجه، الذى يهتم ويقلق عندما يجد قطار الأنفاق يعج بالبشر.

كان الظلام يلف المكان عندما بلغنا حطام الطائرة. لا أمل فى محاولة العودة دون إضاءة. قال ماكسى: **"سنضطر للتخييم هنا."** أخذنا نتهيأ لاحتساء قدر من حساء ماكوناتشى، وتدخين السجائر، والبحث عن مكان جاف تجلس عليه مؤخراتنا ونضع فيه أسلحتنا. أحكم، ماكسى، التدثر بالبطانية، بعدما جلس. قال: **"ستحتاج لبطانيتك، يا صاح."** كنت قد لاحظت عندما توقفنا بأن الجو بارد، كدت أنسى ذلك الإحساس. لم أعد أرتجف فى قاعدة الجيش حتى ولو تحت الماء البارد. فالجو حار ليلاً ونهارًا. أصبحت أنام تحت منشفة لمجرد أن أمسح عرقى المتصبب. ضحكت عندما أعطانى الرجل فى المخازن هذه البطانية كثيرة الوبر السميكة. كانت ثقيلة، متربة، رثة. مجرد النظر إليها أثار حصف الحر الذى أعانيه. تركتها خلفى وأخذت بدلاً منها مزيدًا من البسكويت والماء.

"ألديك بطانية، أليس كذلك، يا صاح؟"

"لم أر حاجتى إليها." (لم أكن أظن أنى سأحتاجها)

"لم تكن بحاجة إليها؟ قلت لك بأنك قد تحتاج إلى دثار هناك على التلال."

"بدا لى غير مهم ..."

"يا إلهى، يا صاح، هذا ما هو متوقع منك تماماً."

"غير ضرورية. اعتقدت ذلك".

هز ماكسى رأسه. وضحك باستهجان من تصرفى. قال: **"دائماً ما تظن أنك تعرف أفضل، أليس كذلك؟"** ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً قبل أن يتطرق لموضوع مقاعد التغوط المتنقلة.

"هل تتذكر مقاعد التغوط المتنقلة؟"

قلت: **"لا تعاود ذكرها."** لا يفتأ الرجال يذكرونى بها.

لا أزال أصر أنها فكرة صائبة. لكن فى التوقيت الخطأ، هذا كل شىء.

كانت المراحيض فى القاعدة مقززة للغاية. مئات من الرجال يقضون حاجاتهم فى خندق به مقاعد قديمة للتغوط مسقوفة. روائح كريهة، ذباب، ديدان. مَنْ يدرى أى أمراض قد تنقلها؟ كانت أمعاء الهنود لا تتوقف عن التغوط. يقضى العمال الهنود حاجاتهم فيها. لكن المقاعد لن ينظفها من آن لآخر سوى النار، تُعقم لتُستخدم مرة أخرى. يُصب جالون أو اثنان من البنزين فيها. يقترب رجل حاملاً عودًا يتكون من عصى خشبية طويلة مشتعلة مقاس أربع بوصات فى بوصتين. يشعلها، ثم تستعر النار مثل الجحيم. كان ذلك من الأمور الأساسية بالنسبة إلىَّ. صب البنزين ثم خط من النار يشتعل كالصهريج. ثم يجلس مسترخيا ليتأمل الحريق يشتعل على الأرض قبل تنظيف الخندق. لا هروب، بل ذكاء. هز الرجال رؤوسهم ـ بعدم جدية الفكرة، فلا يمكن تنفيذها (بما فى ذلك ماكسى). كان الأمر فى صالحى. فقد كان ثمة مشاهدون كثر يستمعون إلىَّ.

تم صب البنزين. ثم سال بحذر فى مسار أخدود معد سلفًا. جلست على المقعد لإشعاله بدون تكلف بعود ثقاب. انطفأ كما هو متوقع. لكن حدث ذلك على مسافة قصيرة. على بُعد قدم أو اثنتين. تعالت الضحكات. **"ماذا بعد، يا صاح؟" هل لديك أفكار أخرى؟"** المشكلة أنى أمضيت وقتًا طويلاً أشرح فيه لماذا لم يبلغ الفتيل هدفه. تبخر البنزين سريعًا من على الأرض الساخنة. **"هيا، احضر العصا."** أخذ الرجال يتهكمون. طبعًا، فى الوقت الذى بلغت

فيه حفرة المرحاض والعصا المشتعلة فى يدى كان جالون البنزين قد تبخر فى الهواء. ثم وقع انفجار هائل. فطار السقف حتى وصل مدينة كوهيما. وأطاح بى فى الهواء أنا أيضًا. فسقطت على الأرض وانهمر شلال من مخلفات مقاعد التغوط على جسدى.

"لا يزال من الممكن تنفيذه."

"أوه، يكفيك هذا، يا صاحبى."

"هذا مقبول، أنا لم أعمل حساب التبخر. لكن فى المرة القادمة ..."

"المرة القادمة! هل تظن أنه سيُسمح لك بأن تعيد الكرة مرة أخرى؟" مازلنا نجد غائطًا فى أماكن لا يجدر أن يوجد بها. لا بد أن تعرف ذلك جيداً، هلا فعلت؟"

"حسنًا، ربما"

قال متهكمًا: "حسنًا ربما."

قلت له: **"أنا على الأقل أعرف الأفعى عندما أراها، يا ماكسى."**

"لا تغير الموضوع. يمكن أن يحدث لأى امرئ. كنت نعسان!"

لم يكن من العدل أن أذكره بتلك الواقعة ولكنه كان هو البادئ، والبادئ أظلم.

أيقظ ماكسى جميع مَنْ فى الباشا(*) فى منتصف إحدى الليالى. وهو يصرخ: **"ثعبان، ثعبان."** يقاوم شيئًا ما فى سريره الشاربوىّ الهندى المغزول بالحبال. **"حيوان كبير،"** أخبرنا، وهو

(*) فى الأصل: "basha" خيمة من المشمع الواقى تنصب للنوم. (المترجمة).

يضربه هنا وهناك. نهضنا جميعًا، شاهرين السكاكين، والبنادق. ثعبان. ثعبان ضخم. لاحقه ماكسى كالطرزان ليخرجه من فراشه. فتمزقت قوائم الشاربوىّ. ووقع كل شىء على الأرض، بما فى ذلك ماكسى. صرخ قائلاً لنا بأن الثعبان لدغه. جرى إلى الطبيب ممسكًا بساقه. تاركًا إيانا نبعثر ونقلب ما فى الخيمة ونتدافع. ترتعد فرائصنا، اعترفنا جميعًا بذلك، ونحن نطارد هذا الثعبان الضخم فى الباشا. وانتهى المطاف بماكسى بالنوم على ذراعه. ثم استيقظ، أمسك بها، لم يشعر بشىء. ظن أنها ثعبان. جرح نفسه فى قطعة من الخيزران أثناء مقاومته ليلقى بذراعه خارج السرير.

"انظر،" قال ماكسى، **"نحن لن نناقش ذلك الآن. ما أود معرفته هو ماذا ستفعل هنا أعلى التل طيلة الليل دون بطانية."**

"الهواء البارد يمكن أن يزيل حصف الحر."

"للمرة الأولى تكون محقًا، يا صاح. ما الكلمة التى ترددها دائمًا؟ أساسى. إن الجو يغدو شديد البرودة هنا أعلى التل، وحصف الحر ليس هو لب المشكلة لأن تعرضك لهذا البرد يُزهق روحك."

"هيا، لن يكون الأمر بهذا السوء." كنت أشعر بالبرودة إلى حد ما لكن محال الاعتراف بذلك. أشعلت سيجارة. لم تكن كوينى تحب الجو الحار. كانت لتحل أزرار بلوزتها، تغمر منديلها فى ماء بارد ثم تضعه على مؤخرة عنقها. فتسيل قطرات الماء من الأمام، تختفى فى ثنايا نهديها. **"كأننا نعيش فى تنور،"** كانت لتقول شاكية، بينما تستلقى على مقعد تروح عن نفسها بجريدة. كنت لأقول لها بأنى أحب الجو الحار.

أيام الصيف السرمدية حين كنت صبيًا يافعًا. أغفو أوقات الظهيرة على شدو الطيور. وأنا جالس فى ضياء الشمس على عتبة

دارنا. والدفء يسرىَ فى ساقى العاريتين منتظرًا عودة أبى إلى الدار. وابتسامته وهو يمشى الهوينى على الطريق مرتديًا قميصًا بدون سترة. "**أوف! إنه ليوم قائظ الحرارة، يا برنى.**" نلعب الكريكيت معًا فى الفناء الخلفى، ونرتشف عصير الليمون الذى تعده أمى وتضع عليه أربع ملاعق سكر.

إلا أن الأشهر المعدودة التى قضيتها فى الهند تحت لفح هذا القيظ الأبدى جعلتنى أحلم بالجليد. بأيام الصباح الشتوية عندما يذوب الثلج الهش داخل النوافذ. وتتكثف الأنفاس المغبشة فى البرد. لسعته التى تجعلك تنهض من فراشك وترتدى ملابسك فى سرعة البرق. تقفز على قدميك، يتخدر أنفك ويصاب بالرشح. تنفث أنفاسك الحارة فى يدك المتجمدة. تهشم الجليد بكعب حذائك. ترتجف من البرد. أفتقد تلك الارتجافة. ولكن انتبه لما تتمناه فى هذا المكان البائس. بدأت أرتجف الآن. أقبض بيدى طرف السيجارة. أضغط على فكى لكى لا يُسمع صوت اصطكاك أسنانى.

فى تلك اللحظة سمعنا شيئًا. يخرج من ظلمة الليل. صافيًا وحادًا.

"**جونى، تعال وساعدنى، يا جونى.**"

"**أسمعت ذلك؟**" قلت.

قال ماكسى هامسًا: "**إنهم يابانيون.**" جثم كلينا على الأرض الآن، قابضين على بنادقنا. عبثًا.

قال ماكسى: "**لا تطلق النار.**"

"جونى، ساقى مكسورة، أنا هنا أعلى التلْ. تعال وساعدنى." قالها الصوت فى إنجليزية متقنة. **"جونى، جونى."**

سألته: **"هل أنت على يقين بأنه ليس الطيار؟"**

"إنهم يابانيون. يحاولون فقط إثارة أعصابنا.

"يعلمون أين نحن؟"

"كلا، لو كانوا يعلمون أين نحن لقضوا علينا."

"جونى ساعدنى. ساعدنى أرجوك."

شهرت بندقيتى. كنت متأكدًا من المكان الذى يأتى منه هذا الصوت. وضع ماكسى يده على البندقية وأنزل فوهتها إلى الأرض. **"لا تطلق النار"** قال هامسًا، فى عجالة. **"سيعرفون أين نحن إذا اطلقت النار."**

"ساعدنى، أنا هنا أعلى التل. أسرع، يا جونى."

"سنلتزم الصمت فحسب. أطفئ هذه السيجارة." سنلتزم الهدوء فحسب.

كانت غابة لا يجلوها القمر. مظلمة. عجيبة. تعج بما لم يألفه بشر. أشكال شبحية. أصوات شاذة. صرير، تغريد، رفرفة، خفقان غريب. ومن المضحك أن أكثر الأصوات غرابة، أعترف، وأكثرها إثارة للرعب كانت الأصوات الأكثر ألفة لنا. طرق أسماعنا صوت رنان، عجيب كالمزمار. أرغمنى البرد على الارتجاف. واصلت الضغط على فكى لكى لا تصطك أسنانى. لكن هذا الصوت ـ **"جونى، تعال هنا، يا جونى"** ـ جعل يدىّ ترتعشان.

اقترب ماكسى منى خفية. وتخلص من خيمتنا السريعة بوضعها أسفل مؤخرته. بهدوء. عيناه يقظتان كطير جارح. رفع يده ليدثرنى بغطائه، ثم يلفه حوله. رأسان حذران يدوران حول المكان. وجسدانا يلتحفان بغطاء كشخص واحد. متدثران كشخص واحد. حيث ضغط جسدانا على بعض.

"جونى، ساعدنى."

شهرنا بندقيتينا بسرعة. وأخرجناهما من فجوة قماش نصوبهما فى اتجاهات شتى. **"كل شىء على ما يرام، يا أخى. لا يعلمون أين نحن؟ لن يستطيعوا الوصول إلينا"**.

"هل أنت متأكد؟"

ضحك ماكسى ضحكة مكتومة. شعرت بأنفاسه الحارة تلفح وجنتى، تفوح منها رائحة السجائر. **"متأكد كما لو كنت مع اليابانيين."** تنبعث نسمات من روائح جسدية من تحت الغطاء. والنسيج الخشن يحتك بوجنتينا. وأدفأت حرارة جسدينا الهواء فى تلك الشرنقة.

"جونى، يا جونى."

برزت عضلات ذراع ماكسى وضغطت على (عاود التوتر) يفرك ركبته بعصبية فى ركبتى.

"جونى، تعال بسرعة. هل تسمعنى، يا جونى."

ارتفع صدر ماكسى وأمسك أنفاسه ثم تنهد بارتياح غير متوقع. **"إن الأمر على ما يرام. فإنهم لم يقتربوا منا."** قال.

توقفت النداءات عن التردد كثيرًا. إلا أن أيًا منا لم يرغب فى النوم. بكل صراحة كنا فى حاجة إلى أن يبقى كلينا منتصبًا حتى يلتف الغطاء حولنا. وضع ماكسى بندقيته على ركبته.

"أتمنى لو كنتَ أحضرت غطاءك اللعين،" قالها لى قريبًا من أذنى.

"آسف."

"قلت لك بأنك ستحتاجه."

"أعلم أنه خطئى. آسف."

لم نستطع، ونحن نجلس فى هذا الظلام الكئيب، مجرد إشعال سيجارة حتى لا يكشفنا وهج طرفها. شرع ماكسى فى إخبارى بخططه بعد الحرب. لا يتصور أن يعود موظفًا فى السكك الحديدية. **"عندى فكرة، لأعرف ما رأيك."** أراد تربية الأرانب. لقد أعد العدة لكل شىء. مزرعة أرانب. تحتاج أرنبين لبدء المشروع. لن تحتاج لنفقات مبدئية. ذكر وأنثى، ثم اجلس وشاهد. **"لأن،"** قال، **"هل تعلم كيف تتكاثر؟"**

"كلا."

"مثل الأرانب."

"فهمت."

"كانت هذه دعابة، يا أخى."

"دعابة. أجل، أعلم."

ومع مجىء الصباح كنا قد أعددنا العدة لكل شىء. وغدوت أيضًا شريكًا له. عملنا دفتر حسابات، الأرباح والخسائر (واضعين

نصب أعيننا الجانب التجارى). سنتوسع فى كنت (خارج أشفورد بالضبط). الخط الأساسى: أرانب للأكل (مع خط إنتاج فرعى ـ فطائر، والعصيدة). خط الإنتاج الجانبى: مخالب الأرانب المحظوظة. لم نتفق حول شال من فراء الأرانب (مثل فراء الثعالب). لا يعتقد ماكسى بأن ربات البيوت الإنجليزيات سيعجبهن لبس وبر أرنب نافق حول أعناقهن حتى وإن شكلت الأذنان العريضتان أنشوطة جميلة.

أشرقت الشمس ـ أكثر المناظر إثارة للبهجة فى النفوس. بينما الضباب الشبحى يتدلى بعيدًا أعلى التلال فيحترق بعيدًا بالتدريج. هذه الأشعة كانت تستقبلنا تحتفى بنا كالنفس الأول. وبالعودة إلى المهمة المنوطة إلينا. لكننا كنا حذرين بالرغم من ذلك. طوى موضوع مزرعة الأرانب مع الغطاء. غير أننا كنا لا نزال حذرين. تفرض علينا غريزتنا أن نتحدث همسًا. الأكتاف منحنية. والبنادق على أهبة الاستعداد فى حالة استطاع اليابانيون رؤيتك أحسن الآن.

كان من الصعب تبين أن هذا الحطام كان فى الأصل طائرة. اصطدمت بالتل فهوت هى والنباتات التى علقت بها. اختفى أحد جناحيها. وهيكل الطائرة فى نصف حجمها الحقيقى. واقتلع محركها وسقط بعيدًا عنها أسفل التل. واختفت مروحتها. ولم نر ثقوبًا أحدثها الرصاص. وخزان الوقود خال ـ ربما، تبخر الوقود. قال ماكسى: "**سبقنا أحدهم إلى هنا.**" كان ثمة علامات لحريق اشتعل بالقرب من المكان.

"**زجاج البيريسكس، العجلات، اختفت جميعا.**"

"**أهو شخص آخر من وحدة الإنقاذ والدعم؟**"

"كلا."

"هل هم اليابانيون؟"

هز ماكسى كتفيه بلا اكتراث. **"السكان المحليون على الأرجح. سيحصلون على ثمن جيد لها."**

يا له من مكان قاس. من الصعب تخيل أن أحدًا يعيش فى الجوار يتهيأ للخروج فى نزهة من نزهات أيام الآحاد. لا أثر للطيار. قلت: "**ربما هبط من الطائرة بمظلة.**" بدت على ماكسى الشكوك ـ ثم وضح لى لماذا. كانت أحد أكمام سترة سفارى معلقة على شجرة. ممزقة، ومدماة كما لو كان وحش من الوحوش قد عقرها. رغم أن الشرائط الثلاث أعلاها كانت نظيفة وسليمة. لاحظت أن يدىّ لزجتان بعدما لمستا الشجرة. عندما أدرتهما وجدتهما مغطاتين بالدماء المتخثرة. كان أحد جوانب الشجرة يقطر بها. قلت "**لا يوجد أى شىء.**" لكن كان الهدف من مهمتى العثور على الأشلاء. لم أعثر سوى على حافة سوداء لبطاقة هوية. وقد احترق اسم حاملها، ورقمه. ثم رقعة مدممة أخرى. وماكسى، يتفحص هيكل الطائرة. يهز رأسه. نزع بعض الأجهزة. التى أخفاها لديه.

لا جدوى من التجول حول المكان. قرر ماكسى. لن نعثر على شىء آخر. أطرقت أنا برأسى لأتلو صلاتى قبل أن نغادر المكان فى حال كان هذا المكان مقبرة. كان ماكسى منزعجًا أول الأمر، يتلهف ليهرب بعيدًا عن المكان، لكنه سرعان ما لحق بى وصلينا معًا.

سألته: "هل نتلو ترنيمة؟"

"أجل، ولِمَ لا، يا أخى؟" ماذا عن "**هنا أعلى التل، أيها اليابانيون. نأسف لأنكم فشلتم فى العثور علينا ليلة أمس.**"

وفهمت ما يقصده.

ظللنا نسير لساعات معدودة، لا يرغب أى منا فى ذكر الكلمة الضائعة. "**يبدو هذا المكان مألوفًا. نعم. هذا هو الطريق.**" بنظام. كنا على وشك مغادرة التل عندما سمعنا أصواتًا أجنبية قريبة منا. بل قريبة للغاية. فرقد كل منا سريعًا على بطنه. نختفى بين العشب (لكننا كنا عرضة لأن يرانا الجميع هناك). أشار علىَّ ماكسى بالهدوء. بوضع يده على فمه. وضعت إصبعى على زناد بندقيتى الستن ـ أرتعش مجددًا. أتساءل ما إن كنت أبدو مرتعبًا مثل ماكسى. كان ماكسى شديد الشحوب كالجثة الهامدة. كنت أشعر بالبول ينساب دافئًا فى سروالى قبل أن يتسرب على الأرض. لا أقوى على وقفه. كنت جبانًا، أعلم ذلك، لكنى لم أرد أن ألقى حتفى. ترتد طلقات الرصاص على الأرض، تنتفض كالفتاة. هل كانت كوينى لتفخر بذلك؟ ماكسى على الأقل لديه أبناء سيصقلون قصة والدهم ويجعلونها تستحق الذكر. شرع ماكسى فى الغمغمة بصوت خافت (لعله يصلى). والأصوات، عاودت الحديث بكلام غير مفهوم. قهقهة عالية. بجرأة ألقينا أنا وماكسى نظرة على بعضنا البعض. لعلها، الأخيرة.

لمحت أولاً مقدمة رأس أحدهم. وفجأة عاد ماكسى إلى الحياة. "**ناجاس**" قال صائحًا، ثم قفز كعفريت العلبة. لم يندهش هؤلاء السكان المحليون سمر الوجوه النحلاء عندما رأونا. كانوا يعلمون أننا فى هذا المكان. مجموعة ماكرة. خلق ذلك الشعور بالنشوة والنشاط حسًا تفاوضيًا لدى ماكسى (بلغة الإشارات). الغطاء وأربع علب سجائر رخوة، وبعض الروبيات، جعل هؤلاء الرجال الشيوخ

الذين فقدوا أسنانهم مسرورين لإرشادنا الطريق للعودة إلى معسكر الجيش.

بدا على قائد الجيش الارتياح العارم عندما وصلنا هناك. **"ظننت أنى لا بد أن أرسل أحدهم ليبحث عنكما. انتم يا أفراد القوات الجوية الملكية لا تصلحون للقتال،"** كان يريدنا معرفة ذلك. بدا على ماكسى غضب صامت (كان ماكسى يتميز غيظًا فى صمت) يقبض على فكه بإحكام كالقفص. حتى ناولنا القائد كأسًا من الجعة. كان ذلك يصعب تصديقه. هل جاء الكريسماس فى شهر مايو؟ **"اخبار جيدة،"** قال لنا. الحرب انتهت مع الألمان. وتوفى هتلر. وسكب لنفسه كأسًا من الويسكى من زجاجة ممتلئة إلا قليلاً. سيرسلون إلينا كل ما لديهم الآن. ورفع كأسه الممتلئة لآخرها وأخبرنا أنا وماكسى، **"لم أتخيل انكم ستبقون على قيد الحياة فى وجود دورية استكشافية يابانية. لعلكما أيها الرجلان لستما أحمقين بعد كل ما حدث. نخبكما."**

الفصل السابع والثلاثون

برنارد

كان مبعث ارتياحنا جميعًا أن نعلم أن جميع أحبائنا هناك فى الوطن قد أصبحوا فى أمان الآن. أحرارًا من تلك الأشياء الفظيعة التى سمعنا أن النازيين يلقونها عليهم ـ القنابل الطنانة، صواريخ. توقفت عن تخيل كوينى جالسة فى المخبأ. وأبى تحت الفراش. أخرجتها فى مخيلتى للنور مرة أخرى. وها هى تقف بالقرب من الموقد فى المطبخ تتمطى محاولة الوصول إلى خزانة المطبخ لأخذ الدقيق أو الملح. وبلوزتها مشدودة على نهديها. وشعرها الأشقر ينسدل أمام عينيها قبل أن تدفعه وراء أذنها حيث يلتف طيعًا كالخيوط. كان الجميع مبتهجين بانتهاء الحرب فى أوروبا. الكل شعر بيد تطبطب على الظهر استحسانًا وازدهاءً. لقد أنجز العمل بإتقان. ولكن لم يجعلنا كل هذا أن نشعر بأن طريق المستقبل الطويل الذى أمامنا هو أقصر طولاً. قد نستغرق أعوامًا لنسترد مجددًا بورما من هؤلاء الرجال الصفر. الجميع اتفقوا معى على

ذلك. سنواصل التقدم ببطء خطوة خطوة. فقط انظر إلى الأمريكيين فى المحيط الهادئ ـ جزيرة تلو الجزيرة. وكل حرب أكثر دموية مما سبقها. راهننى ماكسى على سنتين. أنا لست رجل مراهنات. أخبرته. بل أربع سنوات، قال بعض الرجال الآخرين. فى حين التفكير فى أن ذلك "**لن يحدث أبداً**" ألقى بظلال العتامة على عيون البعض منهم.

ولهذا كان الاستسلام المفاجئ لليابانيين بمثابة صدمة مروعة لنا جميعًا. أصبت بقدر من الإسهال. أمرنى الضابط الطبيب أن أواظب على الحقنة الشرجية. كان علىَّ أن أحتفظ بها دافئة لمدة سبع ساعات كما قال الطبيب. أخذت منها جرعتين فقط عندما ظهر وجه ماكسى على باب الباشا المشمع.

"**هل سمعت الأخبار، يا صاح؟**"

قلت له أن يغرب عن وجهى. فالرجال يقومون بهذه الحيل فى جميع الأوقات. توقعت أن يأتى أحد الطيارين وببطء يقوم بتقطير الشاى مع وجبة الظهيرة الخاصة به فى قدح كبير بطريقة مفتعلة طويلة ـ خدعة قديمة. إنه الإيحاء الذاتى الذى جعل الجبناء يعضون على شفاههم ومشلولين عن الحركة. إنهم فقط ذوو الإرادة الحديدية والأقوياء كالثيران الذين يقدرون أن يكونوا على مقربة من هذا الدواء. وقررت أنا أن أكون منهم.

"**لقد استسلم اليابانيون**" أخبرنى ماكسى.

"**جرب حيلة أخرى**" قلت له."**جميعنا يعلم بأن اليابانيين لا يستسلمون.**"

لكن أضاء وجهه كما لو كان قد كسب رهان أحد المباريات. "**صحيح، إنها الحقيقة والله**" قال.

دفعتنى الصدمة إلى الهرولة مباشرة إلى أوانى التغوط، مما جعل ماكسى يقهقه.

أثارت القنبلة المبتكرة الجديدة فضول الجميع. كان الجميع يريدون معرفة ما عرفته ـ فأنا الأكبر سنًا، كما تعلم. إلا أنه لم يكن لدى سوى القليل من المعلومات التى أستطيع إخبارهم بها. حتى ضباط الجيش حكوا رؤوسهم من الحيرة. يتناقشون فى ماهية القنبلة الذرية. لم يكن لديهم أى فكرة عن ذلك. بيد أن أمر استسلام اليابانيين كان وحده صوت التفسير الأعلى من أى تفسير يقدمه الضباط ذوو الرتب العالية. اتفق الجميع، أنه سلاح الرب الخاص به الذى استطاع أن يجعل الخطر الأصفر يفر ويجر أذيال الخيبة.

هكذا إذن انتهت الحرب! يوم عطلة من العمل بثلاث كؤوس من الجعة نصيب كل فرد اليوم. بعدما شرب عدة كؤوس، جمع ماكسى جميع من فى المعسكر حوله ليريهم خططه بشأن مزرعة الأرانب فى أيام السلم. رسمها فوق مظلة قديمة تدلت من شجرة. ثلاثة أرانب، قفص وإشارات عن عدة جنيهات تقفز. "**ذكر وأنثى، هذا كل ما تحتاجه**،" صاح: "**لأنكم تعرفون كيف يتكاثرون؟**"

"**كالأرانب!**" أتت إجابة الجنود المخمورين.

ثم قاد ماكسى جميع من فى المعسكر عمليًا فى جوقة نشطة تغنى "**اهرب يا أرنب اهرب**." قال إن هذه الكلمات ستكون أغنية الشركة. ثم مسكنى وجذبنى بشدة. "**وصاحبى هذا هو رئيس الأرانب**. مما جعل الجميع يضحكون. وصرخ قائلاً: "**لكن ثمة فطيرة أرانب لكم جميعاً عندما نعود إلى الوطن**." مما حدا بى إلى

التفكير بأنه لا يأخذ مشروع مزرعة الأرانب برمته على محل الجد على نحو كاف. ثم لف ذراعيه حول عنقى، واحتضننى لمدة ليست بالقصيرة قبل أن أتبين أنه كان ثقيل الوزن ـ جثة هامدة. تطلب ثلاثة منا ليحملوه إلى سريره الهندى المنسوج.

ولكن مهما كان مقدار ما كانت عليه رؤوسنا من الألم والوجع، راح كل فرد منا فى وحدة الإشراف على مهبط الطائرات ـ ربما كل رجل فى قاعدة جنوب شرق آسيا برمتها ـ يكتب مبتهجًا خطابًا إلى وطنه لأحبائه فى هذا المساء. تقول الخطابات، لقد انتهت الحرب، سأعود إلى المنزل بحلول عيد الميلاد. مُلئنا إيمانًا بذلك أيضًا.

بعد ذلك أتتنا الأوامر بالتحرك. ابتهج جميعنا. فرحنا. لكننا اكتشفنا بأننا سننتقل بالقرب من بورما. سنتحرك فى الاتجاه الخاطئ، صرخ الرجال. كنا قلقين ليس فقط من عدم مغادرتنا القاعدة بل من أننا فى طريقنا إلى رانجون. وقد أصرت القيادة العليا على أن يذهب أسرى الحرب إلى أوطانهم أولاً. لم يعترض أحد على ذلك. لقد مات هؤلاء الأسرى مرة من قبل بالفعل. لقد طحنوا بأسنان العدو عند القديس بيتر ـ ربما يبدون كالموتى لكن ما زالت أجسادهم دافئة ليتمكنوا من الدخول. جاءوا إلى المعسكر وهم فى طريقهم إلى بومباى. أعطيت أحدهم نصيبى من الشيكولاتة. شينديت. كان يقود طائرة شراعية خلف خطوط اليابانيين. وقع فى أسرهم لعامين. كانت عظامه تصدر صليلاً من تحت جلده مثل العملات المعدنية فى حقيبة. تستطيع أن تشاهد قطعة الشيكولاتة تقريبًا تمر فى جوفه. كان عليك أن تراه وهو يقبض على معدته. ثم تقيأ سائلاً داكنًا. لقد كانت الشيكولاتة أدسم

من أن يحتملها. وبكى الرجل المسكين ـ علنًا دون مواربة. "آسف"، قال، "**يا له من تبديد.**"

كان جميع الرجال مسرورين للتضحية بعدم العودة لوطننا لكى نجعل هؤلاء الإنجليز الذين أصبحوا بقايا هشة يعودون إلى الوطن. أى نوع من البشر يتحمل رؤية جسد إنسان يذبل حتى لا يبقى منه سوى هيكله؟ شعرت بالفخر لانتمائى إلى حضارة تجعل حتى الرجل الأكثر تضررًا يتراجع عن رفع يده اعتراضًا على عودة أسرانا اليابانيين.

لقد كان الوعد بأنه سيتم تسريح بعض الرجال أسرع من الآخرين. مطلوب بعض المهارات الخاصة، كما ترى. كانوا فى حاجة إليهم ليبدءوا فى بناء الوطن بعد الحرب. كانت بريطانيا تحتاج إلى ركيزة جديدة وقوية تستند عليها. رجال يعودون لبناء الأرض الخربة وإعادتها كما تستحقه الإمبراطورية البريطانية. من الجلى أن ثمة قائمة أعدتها القيادة العليا. فى البداية، ملأ كل طيار فى وحدة الإشراف على مهبط الطائرات صدره أملاً فى الانتظار لهذا الاستدعاء. لم ير أى امرئ فى الواقع هذه القائمة الخاصة بأولويات تسريح الجنود، ولكن سرعان ما أخذ الجميع يتذمرون بشأنها.

أفادت التقارير بأنهم أرسلوا راقص باليه إلى الوطن. سمعها أحد الرجال فى وحدة أخرى. أسرعوا فى إعادة راقص باليه إلى إنجلترا. "**ربما كان عليه الرقص على قبر هتلر**"، تساءل أحد الظرفاء. كان ماكسى يعرف طالب لاهوت أسرعوا فى إرساله إلى أمه فى بيرلى. كان قارع الجرس. مما جعل الجميع يستهجن ذلك. أثارت هذه القائمة حفيظة وغيظ كل الرجال تقريبًا الذين تركوا هناك. بعض الشباب الأبله، الذين لم يخرجوا للميدان وقضوا كل هذا الوقت فى فوضى من ادعاء المرض، تم أرسالهم إلى الوطن

مباشرة. سألته ماذا كان يعمل فى بريطانيا. أخبرنى بأنه مساعد سباك. مساعد سباك تم اعتباره أهم من الرجال الذين يستطيعون إعادة بناء تمثال المُحرِّر قطعة قطعة. يا له من عبث. الأمر الذى جعلنى أتذمر أنا أيضًا مع الآخرين.

جلس الميكانيكيون، والمدرسون والموظفون، الذين خُلِّفوا، يطيلون التفكير فى اكتئاب عن أحقيتهم فى العودة إلى الوطن الذى يحبونه. يتساءلون عن وضع بريطانيا ذلك البلد الذى يجرى إنشاؤه بدون وجودنا. الحرب المنسية، الجيش المنسى، النسيان مجددًا. الجميع اتفقوا على ذلك. كل رجل كان لديه حق فيما يقول.

بالطبع كان الشيوعيون هم من بدءوا الأمر. أصدقاء العم جو ستالين. كانوا يريدون من كل فرد فى وحدة الإشراف على مهبط الطائرات ترك المعدات. التوقف عن تزويد الطائرات بالوقود، والتفريغ، والصيانة، وأشياء من هذا القبيل، إلى أن يعدونا جميعًا بتسريحنا مبكرًا. لم أكن أريد أى علاقة مع هؤلاء المتهورين. هؤلاء الرجال الذين هتفوا لانتصار حزب العمل هناك فى الوطن. وبجحود ضربوا تشرشل بالأقدام بعدما جلب لنا النصر فى الحرب. لم يصبروا حتى يعودوا إلى إنجلترا، ياه من هؤلاء الشيوعيين. ظننت أن ثمة أمرًا جديدًا بانتظارهم. **"الآن كل شىء سيختلف."** تُقال مع كل إيماءة، ومع كل نظرة. يراقبون قائد السرب هووارث فى أعياد الميلاد عندما (عادة) كان يقدم لنا نحن الجنود الطعام. يظنون أن جميع ضباط الصف سيخدمونهم قريبًا. ثم يكون على القائد بعدما غادر. **"يعود إلى وظيفته كعتال وإلى الويسكى،"** يقولون، **"ونحن هنا مع الجعة فقط."** حتى إن الرجال الذين كان يجدر بهم أن يكونوا على قدر جيد من العلم بالمقارنة بهم بدءوا فى موافقة هؤلاء المحرضين الدهماء.

"لا بد أن نفعل شيئا حيال هذا العمل، يا صاح،" قال ماكسى. أراد أن أنضم إليهم. أخبرته بأننى ليس لدى أى نية فى إنهاء أيامى فى الخدمة العسكرية فى السجن. مفكرًا فى أبنائه فى برايتون، فقمت بتحذيره.

وتفشت جرثومة إشاعة عن إضراب بين جميع أفراد القوات الجوية الملكية هناك. وسرعان ما أُصيب بها الجميع، وانجذب الكل إليها ـ كأعضاء فى فريق، كما ترى. كانت القيادة العليا فى غاية القلق. وقف قائد الكتيبة هووارث فوق صندوق ذخيرة حربية، محاطًا باثنين من البوليس الحربى، يطلب الالتزام بالصمت. وأطلق على الإضراب تمردًا، ثم قرأ علينا قانون مكافحة الشغب أمام دائرة من عمال الطائرات المستنكرين. وأمرنا جميعًا بالعودة إلى مهامنا على الفور. للأسف كان الضابط المسكين الوحيد فى الوحدة العسكرية الذى لا يعلم أن رجُليه المنتمين للبوليس الحربى كانوا خونة. كان ذلك جزءًا من خطة الإضراب. بدا عليه الفزع كطفل ضائع عندما شرع أحد أولاد العم جو فى الضحك.

ولم يستمر هذا الإضراب السخيف سوى سويعات معدودة. لم يكن لدى أحد القدرة أو الرغبة فى الاستمرار. الوقت يكفى للعب الورق، أو لكتابة خطاب إلى الأهل فى الوطن أو لأفراد قوات غرب إفريقيا التى كأنها ساحت من الشيكولاتة لكى يهزمونا فى مباريات كرة القدم وهم حفاة الأقدام. إلا أنه لا يزال صناع المتاعب المشاغبون، وزعماء العصابات، يتخايلون فى مشيتهم حول المعسكر كما لو كانوا هم من تسبب فى جلب النصر لنا. والقيادة العليا تستمع الآن، هكذا قالوا. يتباهون أمام بعض رجال البوليس الحربى الذين قدموا للتو من بريطانيا لكى يستمعوا فقط إلى شكوانا. لقد

أخبروا الجميع بأن ذلك كان جديرًا بالاهتمام. ينبغى الإسراع فى إرسال المجموعات إلى الوطن، والشكر يعود إليهم. احتسينا الجعة نخب ذلك - كلما كان ذلك جيدًا ، كان ذاك أيضًا جيدًا . وقد صدقته أنا كذلك، لبعض الوقت، وما تم، أنهم قاموا بإرسالنا جميعًا إلى كلكتا .

الفصل الثامن والثلاثون

برنارد

كانت فى العادة متعةً قضاء بضعة أيام فى كلكوتا. الابتعاد عن بريستول للنوم نومًا هانئًا فى فراش بشراشف قطنية. ودائمًا كان مطعم ليدلو لتناول الوجبات. وأوانيه الخزفية الممتازة (بعد كؤوس الصفيح الباعثة على الأسى) تسمع لها رنين التحضر. وقليل من التسوق، ربما ــ فى محلات الجيش والبحرية أو حتى فى سوق هوج. مشاهدة فيلم فى جلوب أو ريجال. أو جعة باردة فى حانة نيب. ولمن يستطيع، هناك الرقص فى مطعم فيربو. أو مجرد التسكع فى الميدان، كالشباب، ومشاهدة الفتيات وهن يتبخترن.

لكن قد كانت الرحلة إلى كلكتا من أكثر الرحلات التى لا تنسى التى قمت بها.

بدا الرجال مرتبكين فى حيرة لما خرجنا نحن عمال سلاح الجو المهرة وبندقية فى يد كل منا. "**ثبتوا حرابكم**" قال ضابط صف متبرمًا. ماذا عن الذخيرة؟ رغبنا جميعنا فى أن نعرف. "**لا ذخيرة**"

قال لنا. وجمعنا كالقطيع فى شاحنتين. وأمرنا بالوقوف صفًا. ثم غادرنا المكان وسرنا بين الشوارع.

ظهرت أطلال المحالِ أولا. محترقة عن آخرها. ينبعث منها دخان كثيف. وهبات من الرماد تطير مع الريح تعصف مثل الثلوج المدارية. والبضائع متناثرة فى كل مكان. والمواد التى كان من المفترض وجودها بالداخل مبعثرة فى الشارع. بعد نهبها. جمعت حسب قيمتها، ثم ألقوها. ولكن لا أثر لأى من السكان المحليين على مرمى البصر. ولم نر طفلاً واحدًا يشحذ فى الطريق. كانت هذه الشوارع المقفرة من المناظر الغريبة فى الهند حتى لأولئك الذين لم يزوروا كلكوتا من قبل.

أسرع أكثر من شخص لاهثًا إلى هذا المكان قبلنا فى الشارع الذى يليه. نفس المتاجر المحترقة والرماد العاصف. جثث الموتى تظهر من بين تلك الأطلال. كانت مسجاة على الأرض فى كل الشوارع التى مررنا بها. بعضهم قد تظنه ثيابًا رثة أو خرقًا بالية لا أجساد بشر. أو قمامة مهملة. والأخرى أجساد بشر لا تخطئها الأعين. تراهم فى أوضاع مؤسفة. ذراع إلى أعلى، قدم مرفوعة. ومعظمهم تعلو على وجوههم نظرات الدهشة. أفواههم فاغرة. وأجسادهم جميعًا متصلبة أو متيبسة دليل على موتهم فجأة بغتة. نظر الرجال إلى بعضهم البعض. "**ياللجحيم**،" غمغم أكثر من واحد بينهم. كان تلك المشاهد من أكثر المشاهد التى شاهدتها وحشية أثناء الحرب. كانت الوجوه شاحبة، والأعين جاحظة شاخصة على بعض هذه المشاهد. والكلاب الضالة تنبش فى الملابس المدماة للموتى. وأفواهها ملطخة بالدماء كرضيع يحاول تناول الشيكولاتة. وأسراب من النسور (خدام الموتى) تندفع إلى الأمام معًا لتتنازع على أشلاء الموتى. تنتزع العضلات وتنقر وتلتقط الأعين.

لا علم لى مطلقًا ما دواعى شن هذا الهجوم. بيد أن ذلك لم يكن له علاقة بنا، وقد اتفقنا جميعًا على ذلك فى صمت. يثير السكان أعمال الشغب. والعمال يمسكون فى خناق بعضهم بعضًا لسبب ما. الهندوس ضد المسلمين. والمسلمون ضد الهندوس. حتى إن السيخ الملعونين كان لهم يد فيما يحدث فى مكان ما. تشاهدهم يحملون السيوف ينفخون صليل صخب من أبواق الصدف التى يحملونها. ظهر كل شىء جليًا بعد ذلك. إن حمولة الشاحنة من عمال سلاح الجو البريطانى البائسين وصلوا هناك ليفرقوا بينهم.

كانت الرائحة النتنة حادة عنيفة كريهة لا تطاق تمامًا كألم الأسنان. ولم يكن ثمة رياح شمالية أو جنوبية. لم يكن هناك أى مخرج ليريحنا من تلك الرائحة. خائفون من التنفس خشية دخول تلك الرائحة فى رئة حية. مزَّق بعض الرجال قماشًا من قمصانهم القديمة ليضعوه على أنوفهم وأفواههم. يفضل أن يشم رائحة عرق عامل بدلاً منها. وسرعان ما جعلهم ضابط الصف ينزعون هذه الأقنعة. "**انزعوا ذلك من على وجوهكم، تبدون كقطاع طرق وحشيين،**" قال الضابط.

فقد الكثير منا توازنه لما مالت عجلات الشاحنة. فتوقفنا. نظر السائق وراءه، خارج النافذة. لقد دهس جسد شخص. كانت ذراعه لا تزال محشورة تحت عجلة الشاحنة. "**أنت وأنت، التقطا هذا،**" أمر ضابط الصف رجلين برفع الجسد الذى كنا دهسناه توًا. أحدهما (كان مثيرًا للمتاعب، أو مصدر إزعاج لزملائه)، واقفًا فى المقدمة مباشرة، ينظر إلى ضابط الصف هذا. وضع يده على صديقه ليمنعه من إطاعة الأوامر.

"هيا، تعاليا لتحملاه، أنتما الاثنان" كرر ضابط الصف كلماته، ثم ابتعد. مسح بيربوينت عرقه من خلف عنقه. كان صديقه يشاهده. مرتبكًا. ثم عاد ضابط الصف إليهما. صرخ: **"احملاه."**

قال بيربوينت: **"لمَ؟"**

تسارعت أنفاس ضابط الصف، كان مدهوشًا كمعظم الرجال.

"ماذا، يا طيار؟"

"لماذا، أيها الضابط؟"

"لأن هذا أمر" كان ضابط الصف يعرق بشدة حتى إنه بدا كما لو كان يلمع بفعل الطلاء. **"احمله."**

طوح بيربوينت بذراعيه واسعًا. **"ثمة الكثير من الأجساد - لماذا اخترنا أن نحمل هذا الجسد دونًا عن غيره."**

اعتقد الجميع بأنه رأىٌ يستحق المناقشة. لديه بعض الحق، وجهة نظر.

" هل هذا الكلام موجه إلىّ، يا طيار"؟

"آسف، أيها الرقيب، ولكن بماذا يتميز هذا ... يا رقيب؟"

"ما اسمك، يا طيار" لم يجب

"اسمك" صرخ فى وجهه.

"بيربوينت، أيها الرقيب."

"حسنًا، يا بيربوينت، بإمكانى أن أعينك فى مهمة الإغاثة. تستطيع أن تمضى يومك مع السود تجمعهم جميعًا إن شئت. والآن، انزل وارفع هذا الجسد." رفع قماشًا من الخيش وقذف به

إلى بيربوينت ليلف الجسد به. بيد أن بيربوينت تركه حتى سقط عند قدمه. ثم أوقف صديقه الذى انثنى حتى يأخذ القماش الملقى أرضًا.

همس ماكسى: "**يا إلهى، إنه يسبب المتاعب.**"

واحتقنت وجنتا ضابط الصف وقال وهو يبتلع ريقه فى مرارة. "**هل تعصى أمرى؟**"

ردَّ على الطريقة العسكرية. بصوت عال. "**نعم، يا رقيب.**"

"**حسنًا، انت موقوف، أنتما الاثنان.**" قال ضابط الصف.

هز بيربوينت كتفيه بلا مبالاة. كان شريكه قليل الحظ البائس مندهشًا للغاية.

"**خذ هاتين البندقيتين منهما. واربط يديهما. أنتما متهمان بعدم تنفيذ الأوامر.**"

بدا بيربوينت مرتاحًا. جلس حيث كان يقف على أرض الشاحنة، لحق به الآن صديقه الأحمق وهو يختال فى تحد. لم يكن ثمة شىء تقيد به أيديهما، قيدا حماقتهما بالضغط على معصميهما معًا كما لو كان ثمة رباط خفى يقيدهما.

علم الجميع بما سيحدث بعد ذلك. فنظرت العيون إلى أسفل فحملقت العيون على الأرض تجنبًا لنظرات الرقيب. شعرت به يشير إلىَّ أنا وماكسى من أعلى رأسى.

"**هيا، أنتما الاثنان، ارفعاه على الفور**".

ألقى ماكسى بنظرة سريعة إلىَّ. هل الأمر يستحق هذا العناء؟ هل يجدر بنا أن نفعل ذلك؟ كان يريد أن يعرف. وعرف إجابتى.

قد نعود سريعًا إلى الوطن. والأمر هو الأمر. الأمر مهما ثقل هو أمر فى النهاية.

"**هل كانوا هندوسًا أم مسلمين؟**" صرخ بعض الظرفاء من الشاحنة. وكيف لنا أن نعرف الفرق؟ كانت كيفية معرفة أولئك العمال الهنود غير المهرة عدوهم من صديقهم أمرًا غامضًا بالنسبة إلينا جميعًا. بعد قضاء سنتين فى الهند، كان الجميع متشابهين بالنسبة إلىَّ. باستثناء هؤلاء السيخ نظرًا للعمامة التى يعتمرونها.

كان الجسد دافئًا، حتى إن ماكسى شعر بالفزع. "**هل لا يزال حيًا؟**" قال هامسًا. كان حلقه مشقوقًا شقًا طوليًا. ورقبته مفتوحة على هيئة ابتسامة تغطيها الدماء المحتقنة المتخثرة الجافة. متصلبة كلوح مكواة. رائحة نتنة قوية تكفى لتملأ فمك. كانت الشاحنة قد سحقت ذراعه وقطعتها قطعًا متعرجة. كانت إحدى أذنيه متدلية. وجدتها فى يدى. أمسكت بها فى راحة يدى. رقيقة واهية كأنها قطعة جلد من حذاء. "**الق بها يا أخى،**" صرخ ماكسى.

ابتعدت عن الشاحنة. كان علىَّ أن أتقيأ.

"**هل أنت على ما يرام،**" قال ماكسى. أبعدته عنى. لم أرغب فى أن يرانى أحد.

شرع ماكسى فى تغطية الجثة. واضعًا قطعة الخيش تحتها كالفراش. مستعدًا لرفعها. وفجأة وقع إطلاق رصاص. صرخ ضابط الصف قائلاً: "**تعاليا، أنتما الاثنان.**"

رفع ماكسى جثته. أما أنا فلم أستطع. كان الدوتى(*) البالى على الجثة لا يزال محشورًا تحت عجلة الشاحنة. "**إنه ملتصق،**"

(*) "dhoti" - الدوتى هو سروال رجالى من القطن يلبس فى الهند وسيرلانكا والباكستان وبعض الدول الآسيوية الأخرى. (المترجمة)

صرخت. ألقى ماكسى بالجثة. التى ارتطمت ارتطاما شديدًا على الأرض فصدر صوت مكتوم.

"**اتركها**،" قال ضابط الصف. "**عودا، الآن.**" بدأت الشاحنة فى التمايل. استطعنا الصعود فى الوقت المناسب تمامًا، حيث جذبنا الآخرون. حماقة، إلا أن الجثة تركت فى نهاية المطاف حيث وقعت.

جاءوا مهرولين عبر الشارع. يتدفقون نحونا كطوفان فيضان مفاجئ. حشودٌ من الرجال. يقفزون من نوافذ ومداخل متهالكة. من الأزقة من بين البنايات المتداعية التى بدت وكأنها مصنوعة من الورق المقوى. يقلبون عربات الريكشا. صاعدين على قمة أكشاك. يسقطون الفاكهة. يسحقونها تحت أقدامهم. كلهم يلوحون بشىء ـ بقبضتهم، أو بعصى، أو وميض نصل السيوف. كان صخب كمباريات الكرة، لا يمكن وقفه. منطلقين خلف شاحنتنا الوحيدة. صرخ فينا ضابط الصف: "**احتفظوا بهدوئكم! احتفظوا بهدوئكم!**" لم أكن قد ثبت حربتى فى البندقية بعد. يداى ترتعشان، أسقطتها. بحثت عنها. ووجدها ماكسى وسلمها لى. ثم وقعت منى مرة أخرى. مئات من العمال البلداء الهنود بعيونهم السوداء البائسة ـ ربما آلاف ـ يتجهون صوبنا. اندفعنا للأمام ونحن نمتشق حرابنا. صارخين جميعنا نقول شيئًا ما. ارجع. اللعنة. صرخ ضابط الصف: "**ابقوا فى صفوفكم. احتفظوا برباطة جأشكم.**" وكانت أصابعى التى تعمل فى الميكانيكا ـ التى اعتادت العمل غير المتقن والعبث بالأدوات ـ ترتعش. أسحب زناد البندقية. لكن لا ذخيرة. ولا رصاصة واحدة بيننا.

"**بانج، بانج**،" قالها صارخًا أحد الشباب. يائس لكن دون أن يفقد الأمل. أحاطوا بنا كالماء. تتمايل وجوههم السوداء صعودًا

وهبوطًا فى كل ناحية. بيد أن، للغرابة، عندما يصعدون لأعلى يهدءون. يتزاحمون حول الشاحنة كما لو كانوا لا يعلمون ماذا يفعلون. "**يبدون وحشيين**،" قال ضابط الصف هامسًا بصوت عال. أحد الرجال أصيب بالإغماء. مما أفقد العديد من الرجال توازنهم وهو يقع؛ وتُرك حيث وقع. كانت ثمة مواجهة ـ ننظر إليهم، وهم ينظرون إلينا. بدا الأمر وكأنها ساعات طوال مرت. ولكن قد تكون هذه المواجهة لم تستغرق سوى ثوان معدودة. وببطء بدأت الشاحنة فى التأرجح. بدأنا فى فقد توازننا، ونحن نتشبث بجوانب الشاحنة وببعضنا البعض.

كانت يد ماكسى تعتصر كتفى. أما أنا فأمسكت بتلابيب قميص أحدهم. باعد الجميع أرجلهم استعدادًا للوقوف ثابتين. يدفعون بحرابهم خارج جوانب الشاحنة. "**اصمدوا. أمسكوا بأى شىء**،" صاح ضابط الصف.

صرخ ماكسى قائلاً: "**إن أعدادهم بالمئات مقابل واحد هنا. ماذا سنفعل، أيها الضابط؟**" كان الجميع يعلم بأنه إذا تحركنا بالشاحنة سنسقط تحت أقدام الرعاع وسنُسحق ونُعجن لتأكلنا النسور. كان ضابط الصف يقرع جانب الشاحنة بمؤخرة بندقيته، مستهدفًا الأيادى والأنامل السوداء التى ترجرج الشاحنة. لحق به الجميع. حتى بيربوينت وقف، متمسكًا بجانب الشاحنة، يهاجمهم بقبضتيه. وصديقه البائس يمسك بساقيه. إلا أننا كنا نتأرجح ونتخبط كمركب فى مهب الريح.

ثم فجأة وقع إطلاق رصاص. جاءت شاحنة تابعة للشرطة من إحدى الزوايا وهى تطلق عدة دفعات من الرصاص فى الهواء. استعادت الشاحنة توازنها واستقرت وسط سحابة من الغبار. تفرق

الرعاع كالقوارض، منطلقين إلى الشوارع الجانبية. وعادوا أدراجهم عبر النوافذ والأبواب. يطاردهم أزيز طلقات رصاص حقيقية. سقط واحد هنا، اثنان سقطا هناك، يتعثرون، يقبضون على جرح أصابهم، فى حين أن الأشخاص الذين وقعوا سُحبوا على عجالة. فرح الرجال وهم يشاهدونهم يسقطون. يرتطمون بالأرض كما لو كان ذلك إطلاق النار على البط فى عرض.

"انتظر لحظة، هل كانوا هندوسًا أم مسلمين؟" سأل أحد الظرفاء. تنفسنا الصعداء، قلة منهم أجابت صارخة، **"ومن يأبه بحق الجحيم؟"**

الفصل التاسع والثلاثون

برنارد

قُتل الآلاف فى كلكوتا، رجالاً، ونساء، وأطفالاً، وحتى الأطفال الرضع، فلم يكن نوع الضحية يهم. لا يهم من. أسموها أعمال شغب. بيد أننا نحن الذين كنا هناك فى خضم المعركة مع أولئك الرجال صغار البنية المتعطشين للدماء ندرك أن المسألة كانت أكبر من ذلك بكثير. المسلمون يذبحون الهندوس. والهندوس يوسعون المسلمين قتلاً وذبحًا. ولا أحد يدرى فى أى جانب يقف السيخ؟ قالت الإشاعات بأن أعداد الجرحى كان من الكثرة التى يصعب إحصاؤها. وأعداد القتلى لا تجد مكانًا لدفنها من عظم عددها. كانوا يتقاتلون ليكون لأحدهم الغلبة عندما تتأسس الهند المستقلة الجديدة. ابتسمتُ لفكرة أن قلة من الأميين رثى الهيئة يريدون حكم وطنهم. هل يخرج البريطانيون من الهند؟ إنها الجيوش البريطانية وحسب من تستطيع إبقاء هؤلاء العمال الهنود البلهاء تحت السيطرة. وبذلك سيتم إتقان المهام والأعمال ـ الكل أجمع على

ذلك. بالنسبة إلى وحدة الإشراف على الطائرات التى ننتمى إليها كان ذلك يعنى العودة إلى المطار. كان الجميع حاضرًا وإن لم يكن كلنا على ما يرام. تركوا للهنود الآخرين (وللنسور) تنظيف الشوارع من كل تلك النفايات المأساوية.

بيد أن الجميع كان مغتاظًا بعد تغيير المهام فى كلكوتا. بعضهم كان غاضبًا أكثر من الآخرين. يتذمرون. وحشد من الرجال. عم يتحدثون؟ الرحلة فى قيظ الحر. وكان القطار الذى كان من المفترض أن يسرع بنا إلى هناك مباشرة يقضى الرحلة المضنية فى إضاعة الوقت على تحويلات القضبان. الحر. الزحام. كثير من عمال الطاقم الطيارين ناموا معًا على أسرة ضيقة فى المتحف لأربعة أيام. وسُمح لهم فقط بالخروج فى قوافل رسمية لكن دون ذخيرة. عروض عسكرية لا تنتهى فى الشوارع. والأوامر بالظهور بمظهر عنيف. والشائعات التى تروج بأن السمك الذى عُرض علينا لنتناوله يأتى من نهر هوجلى، حيث عثر على جثث متعفنة نتنة لموتى. وكانت ثمة أيام لم يكن فيها شىء يؤكل سوى البيض المسلوق. (ليس من السهل نسيان، التجشؤ الكبريتى لمئات من العساكر) ثم ها هو بيريوينت وصديقه، غادرا للمحاكمة العسكرية التى تنتظرهما لعصيان هذا الأمر الطائش المتهور.

كان من المقرر أن نجتمع فى خيمة. اقترح ماكسى وآخرون هذا الاجتماع. كان يريد مناقشة موضوع بيريوينت والتهمة الملحقة به. لم أفهم لماذا يريد ماكسى أن يتدخل فى هذا الأمر. كان فى العادة حساسًا أكثر من الجميع. وكان من المقرر أن يعود إلى الوطن سريعا، يعود إلى برايتون ليطلب نصف لتر من الجعة فى حانة. وقد يتحول بيريوينت وغرائب سلوكه إلى ذكرى سيئة.

"لا نستطيع أن نراهم وهم متهمون لما حدث فى كلكوتا،" أخبرنى.

"لماذا، بحق السماء، لا يحاكم. الأمر هو أمر، بكل تأكيد."

"يا إلهى، لا داعى للاستعلاء، يا أخى. ابق فقط خارج الموضوع إن شئت."

كان الود مفقودًا بينى وبين بيريوينت. كان مشاكسًا لزملائه، وجنديًا لوالدته. كنا قد تقاسمنا المبيت فى الباشا. وقد أفسد علىّ حياتى. كنت أكبر سنًا، كما ترى، من معظم الرجال. كنت أحاول أن أوجه كل اهتمامى إلى عملى. كان لدى عمل أؤديه. وكنت فقط أحاول أن أنجزه بهدوء. معتبرًا بأنى أملك تأثيرًا متحضرًا. ولكن كان ذلك عسيرًا عندما يكون جميع من حولك شبابًا مثل الجندى بيريوينت. كان رجلاً نحيفًا وضامرًا. وذراعه فى طول ذراع قرد، وإحدى عينيه تطرف (دون إنذار) فى كثير من الأحيان.

"إذن، أنت متزوج، يا أخى؟ كنت أفكر فى الزواج لكن لم ترق لى الساعات." أظن أنها كانت بمثابة دعابة سخيفة بالنسبة إليه أن يشركنى فى تصرفاته الغريبة. كان يظن أن بإمكانه أن يجعل حمرة الخجل تعلو وجهى (مستحيل). ووجد سبايك(*) هذا الأمر مضحكًا للغاية أن فتاتى الوحيدة هى زوجتى.

"يا أخى، ماذا كنت تفعل مع أصحابك الرجال طيلة هذه السنوات؟"

كان هذا المشاكس يتباهى بما كان يفعله مع النساء. وكم منهن تركنه يأخذ منهن، وماذا سمحن له بأن يفعل معهن. **"اثنتان معًا -**

(*) "Spike" أى مشاكس أو عنيد، واستخدمتها الشخصية لتدعوه بها. (المترجمة).

شقيقتان توءم. أقسم والله شاهد على ما أقول." جعل الجميع يشاركون فى الحديث. وأصبحت كالمنافسة، مقارنة الأوضاع الجنسية المختلفة أثناء المضاجعة (التى كانت فى الغالب أفكار يتمنى تحقيقها) **"هل سبق أن فعلت ذلك من الخلف يا صاح؟"**طريقة الكلاب؟ قلت له بأن ذلك شأنى الخاص ولن أتناقش معه فيها. **"سأعتبر أن هذه إجابة بكلا، إذن،"** قال. **"لكن جربه المرة القادمة."** ورغبة فى مساعدتى انثنى على الأرض فى الخيمة ليبين لى الوضع. (طبعًا، كانت كوينى لترتعب من هذا الاقتراح. كانت ستضع عليها رداءها المنزلى السميك مثل المعطف وتزرره بأزرار مثل الأقفال، وتجعلنى أنام فى غرفة أخرى.)

"بإمكانك أن تمتطيها كالحصان كما تعلم." واستمر سبايك فى إخبارى. ووضعية الوقوف ـ وساقاها حول وسطه ـ كان وضع آخر يفضله سبايك. بعضهم كان سخيفًا للغاية. وأثار الوضع الذى أسماه التاسع والستين ضحكاتى. (انتصار صغير، جعل بعض من الرجال الآخرين يبتهجون). أثنيت عليه لخياله الواسع. ولكنه أصر أنه فعل ذلك مرارًا. ولا يوجد ما لا يستطيع ألا يفعله بلسانه، كما قال.

كانت الخيمة مظلمة معتمة، تمامًا مثل الاجتماعات الأخرى المزعجة. كان ثمة كثير من الرجال ينضح منهم العرق فى مساحة صغيرة. ونفس الرائحة العفنة كلوح من ألواح بائع السمك. أمسكتْ يدٌ بقميصى، جذبتنى وأقفلت الباب. **"احشر نفسك هناك، يا صاح،"** قال.

"بدون ذكر أسماء." صرخ أحدهم، لكنى كنت أعلم أنه كيرلى. إنها الباشا الخاصة به المعدَّة على عجالة، السوداء كسواد باطن الجفون. كان الرجال فى كل مكان. يجلسون على الأرض، وعلى

أسرةّ الشاربوىّ، ويقفون حول الجدران. لم أستطع أن أرى أحدا لكنى شعرت بأنهم زمرة من الرجال بمشيهم المتثاقل ونقص الأوكسجين من الزحام. وعندما كنت أتحسس طريقى، تبينت أننى أربت على وجه. فضرب أحدهم يدى مبعدًا إياها فورًا. شعرت بأنامل تحت قدمى لما مشيت فوقها. **"أى، انتبه، يا ربى!"** اتخذت جلسة مناسبة حيث أقف. كان الرجال فى كل زاوية من الخيمة لزجين ومبتلين مثل البطاطس المحمصة الساخنة. كان الرجل الذى يتكلم يحاول إخفاء صوته بوضع قلم رصاص فى فمه. حيلة قديمة. بيد أنه بدا كما لو كان يطلق فقاعات من تحت الماء. لم أفهم كلمة واحدة مما يقول. وسرعان ما تبينت أنه ماكسى، وفى الحال صاح الجميع مطالبين بإبعاد هذا القلم السخيف.

"أقترح، إرسال وفد إلى ضابط القيادة. وشرح الظروف له ـ كانت أوامر غير مناسبة، صدرت بلا تفكير من الضابط. ونطلب بإسقاط التهمة عن سبايك." انطلقت بعض الهمهمات فى الحجرة. ضرب بلوك الذى يجلس بجوارى قبضته فى الهواء. خبط رأسى بكوعه وهو ينطلق يضرب بيده. كانت الحجرة شديدة الظلام، لا أحد يستطيع أن يرى تلك الضربة. يا له من أحمق.

"وماذا إذا كان لا يريد أن يعرف؟" سأل أحدهم.

فصاح أحد الرجال بجوارى، **"إضراب!"** داخل أذنى تمامًا. حركت رأسى بعيدًا على الفور. خبطت جمجمة رأسى فى عضمة كتف الرجل بجوارى. عاود الرجل قول: **"يجب أن نضرب عن العمل."** شعرت برذاذ لعابه هذه المرة. تذمر الجميع. حاولت أن أحك رأسى لكن ذراعى كانت مضغوطة وملتصقة فى جانبى. سمعت نقر غليون

على أسنان أحدهم. عرفت أنه ماكسى ـ كان يفعل ذلك عندما يكون عصبيًا. رغم أنه لم يدخن الغليون لفترة طويلة كانت أسنانه قد اعتادت خشب الغليون.

"**إنهم يستغلوننا الآن،**" قال أحد الرجال بجوارى. "**دعم للإمبراطورية البريطانية.**" كان وجهه قريبًا منى للغاية لدرجة أنى شممت رائحة أنفاسه، حلوة كزهرات الجنطيانا البنفسجية. وكان هناك واحد من أصدقاء العم جو ستالين يطنطن فى أذنى. كان قريبًا منى للغاية حتى إنى عرفت أنه لم يحلق. "**الجيش يستغلنا الآن.**" أكمل حديثه. كانت أنفاسه الحلوة زاعقة واضحة فى هذه الحرارة الخانقة. وقال فى أذنى، إذ كان يريد أن يعرف إذا فقدنا أرواحنا فى كلكوتا هل سيعد ذلك "**قتلاً فى مهمة فعلية**". بالرغم من أن الحرب قد تم إعلان انتهائها منذ سنة؟ جلس فى استقامة وكان علىَّ أن أعدل جلستى معه، فالتصق كتفانا معًا بسبب الزحام. وتحدث بإسهاب: "**بعض الأمهات، من الممكن أن تفقد ابنها، وقد تفقد سيدة متزوجة زوجها فى الحصار وسط ذلك الصراع المحتدم بين الهندوس والمسلمين.**" وأطرق الصمت على الحجرة السخيفة لسماعه. أحد أتباع العم جو! لم أقتنع بالتفاهات التى قالها.

"**ماكسى،**" قلت، لألفت انتباهه. كنت أعرف أين يقف لكن كان هذا محض تخيل.

"**لا تذكر أسماء.**" صاح الجميع.

كان الاجتماع برمته سخيفًا. أستطيع الشعور بصدر أحد الرجال يرتفع ويلامس مؤخرة رأسى. وركبتيه تنخزان كليتى. "**االأستاذ متحدث،**" قال ماكسى من مسافة بعيدة، **فقط نادنى، بالأستاذ المتحدث.** "

هذا لا شىء. "يا سيد متحدث،" قلت: "**ما هدف هذا الاجتماع؟ لننتقد وطننا؟**" شعرت بأنفاس أحدهم خلفى. رجل ينظف حنجرته، يبتلع بلغمه. "**أنا واحد فخور بأننى جزء من الإمبراطورية البريطانية، وفخور بأنى أمثل اللياقة والأخلاق.**"

شرع الجميع فى التهكم والسخرية.

"**أنا أثق بك يا صاح.**" صاح بصوت عال أحدهم من الجانب الأعلى ناحية ماكسى.

"**لا تذكر أسماء،**" قال ماكسى. "**لا أريد أن يعاقب أى شخص حضر هذا الاجتماع.**"

"**إذن لماذا عقدته؟**" سألته. لكز أحدهم إصبعه بشدة فى ضلعى. صددتها بخشونة. "**حسنًا، سنعود جميعًا إلى الوطن فى القريب العاجل. لا نريد أن نلغى هذا الاجتماع بسبب شخص مثل جونى بيريوينت.**"

"**لماذا لا تخرس؟**" همس أحدهم فى أذنى وكان قريبًا منى حتى بدا وكأنها فكرة راودتنى.

وضع الرجل بجوارى ركبته على أصابعى. "**انت تسحق يدى،**" قلت. إلا أنه لم يتحرك. فسحبتها بقوة من تحته، وعن دون قصد ارتطمت بأحدهم وكان جسده منحنيًا بشدة ولم يستطع الصراخ. أستطيع سماع ماكسى وهو يهمهم بشىء ما. وسرعان ما ضجت الحجرة بأكملها كما لو كانوا تلاميذ فى فصل تركه المدرس.

لن يكون هناك أى منطق يُسمع فى تلك الحالة من الهيجان والغليان. شاهدت أطراف سيجارتين مشتعلتين، تتحركان فى الهواء

مثل شرارة الألعاب النارية. أشكال، وظلال، ولا شىء آخر. كانت أصابعى تؤلمنى ألمًا شديدًا. ولم يكن ثمة هواء نتنفسه سوى رائحة كريهة نتنة منبعثة.

"**سنوسعك ضربًا، يا صاح**" هذا ما سمعته، مصحوبًا بنفحات من أزهار الجنطيانا البنفسجية أو "**اذهب إلى الجحيم.**" ركلتْ ركبةُ أحدهم ظهرى فأدارتنى. واعتذر المذنب. لكن سرعان ما أدركت بأننى أجلس فى الزاوية الحمراء بين الشيوعيين. كنت لأتجنبهم إذا قدر لى أن أرى وجوههم.

لم يكن ثمة هدف من بقائى. "**المعذرة، أريد الانصراف.**"

صاح العديد من الرجال حولى فى استهجان. دفعت نفسى دفعًا محاولاً الوقوف على قدمى. وتم دفعى بخشونة إلى الوراء. أمسك أحدهم بكاحلى قائلاً "**انتبه إلى موضع قدمك عليك اللعنة.**" تحسست طريقى إلى الباب كالأعمى. وأنا أحشر نفسى بين صدور رطبة وأجساد ضخمة لزجة مُوحلة. أتشبث بأى شىء لكى لا أفقد توازنى. تمنيت أن يخرج معى ماكسى. بعيدًا عن هؤلاء الرعاع.

شعرت ببعض الأصابع مرة أخرى، "**اللعنة**" صرخ أحد الرجال. وجد كيرلى بعض الصعوبة فى فتح الباب. دفعه دفعًا حتى إن الجدران كادت أن تهوى. بيد أن هواء الليل الرطب سرعان ما سحرنى ــ لفحتنى نسمة من النسمات الجبلية العليلة.

الفصل الأربعون

برنارد

كان علىّ أن أعمل فى نوبة حراسة فى تلك الليلة لذا كان لا بد لى من مغادرة الاجتماع على كل حال. كانت الدورية تستغرق ثلاث ساعات فى حظيرة الطائرات فى الخارج عند أطراف الحقل، أحرس طائرات شراعية كانت لا تزال مكدسة فى صناديقها. ومن المضحك أنه، أثناء الحرب، المرشحات المصفاة، والمولدات المغناطيسية، حتى الغسالات البسيطة يمكنك أن تحصل عليها جديدة دون أى أمنية أو صلاة. لم يكن عليك سوى البحث فى جميع النفايات من أماكن أخرى. جناح طائرة سليم يُوضع فى طائرة أخرى. وتستخدم الطائرة المحطمة كقطع غيار.

معظم التدريبات التى حصلنا عليها فى الوطن لم تكن ذات نفع. نخلع كل شىء أو ننزع جميع القطع من المحركات حتى الصواميل والمسامير اللولبية. ونجرى اختبارات لا تنتهى للتثبت وللتحقق من

كفاءتها. وهناك إذا لم تعمل، نقوم بفكها وتغييرها. محركات، مراوح، عجل، أى شىء.

كان علينا سلب طائرة يابانية من طراز أوسكار ٢ بعد هبوطها سليمة على الأرض. قال ماكسى ساخطًا إنه كان لا بد أن نتدرب على أيدى لصوص. أى عامل هندى عديم الأخلاق كان يمكن أن يعلمنا المهارات التى نحتاجها ـ كيف نفكك الطائرات ونحملها فى أسرع وقت ممكن. غير معقول، أعلم، لكنه كان لديه بعض الحق. لقد رقعنا قماش هيكل الطائرة بقميص رجل وعجناه بخمر الأرز ـ لم أتعلم هذا قط فى بلاكبوول. الأمريكيون بالطبع لديهم كل شىء. جميع طائراتهم المقوسة المحدبة يقومون بإصلاحها ويعتنون بها فى ورشهم المجهزة تجهيزًا جيدًا.

إلا أنه وبالرغم من انتهاء الحرب ـ واستسلام اليابانيين منذ زمن طويل ـ ما فتئت الإمدادات تأتينا. الأشياء التى حلمنا بها أثناء المعارك. تفسير ذلك: كانت السفن فى طريقها إلينا ولا يمكن إعادتها من حيث قدمت. تذمر واحتج أغلب الرجال، بالطبع. لم تعرف صناديق اللحم المشوى وحلوى يوركشاير البودنج سبيلها إلينا. ولم تمتلئ حظائر الطائرات بشطائر لحم الخنزير المملح فى خبز أبيض مقرمش. ولا براميل من حلوى الكعك والفواكه المجففة وكريمة الكاسترد. فقط الذخيرة التى كان يستجدى قائد الوحدة الحصول عليها. الطائرات، والشاحنات، والصواميل، والمسامير اللولبية، وقطع الغيار التى يتمناها كل عامل ليريت عليها بأسنانه الخلفية ـ جاءت من الخارج، وكانت المشكلة أنها جميعا تحتاج إلى حراسة. لتحفظ بعيدًا عن أيادى اللصوص السوداء الصغيرة التى كانت تتسلل خفية حولنا.

يستطيع هؤلاء العمال الهنود معدمو الخلق سرقة أى شىء. سرقوا حافظة نقود رجل أكثر من مرة، حيث كان يضعها تحت رأسه وهو نائم. لم يعلم أى شىء عنها حتى الصباح. أزيل الزجاج الشفاف من مخزن ممتلئ عن آخره بالطائرات، بينما الحارسان فى الخارج شاهران بندقياتهما إلى الأشباح. ثم نقلت الغنائم إلى الغابة تاركة قوات صاحب الجلالة يحكون رؤوسهم من الحيرة. وفقد قس كنيسته بأكملها: الخيمة التى كانت يعلوها الناقوس، مذبح الكنيسة، والمقاعد. وفى إحدى الليالى هناك، عُثر على حفرة خبيثة. قال الرجال فى تهكم إن الرب نفسه لم ير هؤلاء اللصوص قادمين.

لكن العصابات المسلحة كانت الأكثر سوءًا. كانوا قتلة، وليسوا لصوصًا متسللين. سفاحون وقطاع طرق. لا يتورعون عن الطعن بالخناجر أو إطلاق الرصاص أو ضرب حارس بالهراوات ليحصلوا على غنائمهم. على درجة عالية من الاحتراف. وقد اشتكى الجميع. "**والآن وقد انتهت الحرب**،" قالوا، "**علينا محاربة تلك العصابات الصعاليك**." كانت عصابات اللصوص منتشرة فى كل مكان. تلك المعاناة الشاقة أجبرتنا على استخدام ذخيرتنا لتمزيق الإمبراطورية البريطانية. العصبية والقلق أصاب الجميع. إنهم أكثر سوءًا من اليابانيين، اتفق الجميع على ذلك، لأننا لم نكن نستطيع أن نفرق بينهم وبين العمال الهنود.

وكان ثمة أناس يتبعون معسكرنا فى كل مكان نذهب إليه. هؤلاء الهنود الداكنون صغار البنية لا يتورعون عن عمل أى شىء فى سبيل حصولهم على البقشيش الثمين العزيز عليهم. والخادمون الذين يزودوننا بالشاى (أتريد بعض الشاى، يا سيدى) تراهم كلما أدرت رأسك بأوعيتهم وشايهم الردىء. يغسل عمال الغسيل الملابس

كالنساء. تلقى بالنقود المعدنية للحلاقين، وتحصل على حلاقة، ويستطيعون الحلاقة حتى وأنت نائم. إن كل ما يحيط بنا ما هو إلا طاعون من الطبقة الدون المنبوذة فى الهند ـ يسعدهم تنظيف مقاعد الغائط بأيديهم العارية. مخلوقات بائسة. حتى الهنود الآخرون يبغضونهم. لقد شاهد العديد من الجنود نساء هنديات يعتصرن أثداءهن ليتدفق الحليب لقاء روبيات معدودة. كان المشهد صادمًا لأكثر الرجال حنكة فى هذه الحياة.

كان يشاركنى فى مهمة الحراسة رجل هندى. عامل فى الجيش. كان مجندًا بالجيش وليس حمالاً. عملت مع هذا الشخص مرات عديدة من قبل. وأمضيت شهورًا عدة معه نأخذ الإطارات من الطائرات المطوية المنحنية المقوسة ونضعها فى طائرات أخرى. كان حريصًا على التعلم. تواقًا لمعرفة ما عليه فعله. ينفذ التعليمات على أحسن وجه. دائمًا ما كانت عيناه السوداوان تنظران إلىَّ فى تساؤل. من النادر أن أرشده إلى الطرق السليمة لإتمام الأشياء. كان آرون هو الاسم الذى يُدعى به. وكان اسم عائلته غريبًا (صعب النطق). حاول مرة أن يكتبه لى، ببطء وبتركيز بالغ، ولكنها كانت فوضى من الحروف بلا ترتيب معلوم. كان رجلاً ضئيل الجسم لكنه قوى العضل على نحو غير مألوف لدى الهنود. وسعيدًا. لا يبدو تعيسًا كالأغلبية منهم. لفت نظرى عندما رأيته للمرة الأولى. كان يقف خارج خيمة نومى عندما كان الاجتماع معقودًا. كان يقف على مسافة ليست بالبعيدة وكان يراقب ما يحدث. ذهب إليه أحد الرجال، وسأله عما يفعله هنا:

"رجاء، اتسكع" قال. كانت إنجليزيته سيئة ميؤوسًا منها. اضطررت للوثوب فى حالة لطم هذا الرجل له على وجنته.

وسرعان ما عين هندى آخر فى حراستنا. كان يدعى أشوك. كان جديدًا فى المعسكر، إلا أنه أمضى بعض الوقت فى معسكر كونبور وكوكس بازار بنجلاديش. كان الحراس فى مهامهم يمشون فى دوريات معًا. يجمعون بنادقهم، ثم يخرجون ليستريحوا من مهمة الحراسة الأخيرة. إذا كنت وحيدًا فى ورديتك لكان التقطك رجال عصابات اللصوص. يقتلونك ـ أو، الأسوأ من ذلك أن تجوب الغابة مرتديًا ملابسك الداخلية.

كنت فى العادة أقضى نوبات حراسة هادئة مع آرون. كان من الضرورة أن أبقى يقظًا (بالطبع)، ولكن فى الحقيقة لم يكن ثمة مجال لتبادل الأحاديث مع رجل بنغالى الأصل. ولم يكن ذلك هو الحال مع أشوك. فلم نكد نستقر نحن الثلاثة فى أماكننا حتى بدأ الحديث: "**أخبرنى، يا سيد بيرنارد، ما رأيك فى الهند؟**"

هؤلاء البشر لا يستطيعون البتة إجادة نطق أسمائنا. ولكنى لم آبه. "**حارة**" أخبرته. "**كثير من البعوض. لا تجد تلك الأشياء فى إيرلز كورت.**"

"**إيرلز كورت؟**"

"**فى لندن، حيث أقطن.**"

"**هل تفتقد لندن؟**"

"**بالطبع. من منا لا يشتاق إليها، ونحن بعيدون جداً عن الوطن.**"

"**جميع الإنجليز يقولون الشىء نفسه. أتعجب عما يجعلكم تبقون فى الهند بينما أنتم فى شدة الاشتياق إلى بلادكم؟**"

"حسناً، أخشى أنه ليس لدى خيار فى هذا الموضوع."

"طبعاً، سامحنى، هل تريد العودة إلى الوطن؟"

"نحن جميعاً نريد العودة إلى الوطن."

"لكن مثل الرجال الآخرين ـ أولئك المضربون لأنهم لم يُسرحوا من الجيش."

كان من الغريب أن يقول هذا الهندى الضئيل ذلك. "ماذا تعرف فى هذا الشأن؟" سألته.

"أوه، لا شىء. كل ما هنالك أن العديد من الرجال، مثل جونى بيربوينت وآخرين، ألم ينزعجوا ويغضبوا؟ يريدون العودة إلى ديارهم أليس كذلك؟ إلى بريطانيا. أغنية المنحدرات البيضاء، المطرية فيرا لين، وقدح طيب من الشاى."

"ماذا تعنى؟"

"إنه ما أسمعه بأن الرجال ضاقوا ذرعًا بالهند. ومع انتهاء الحرب الآن."

"الجميع يريدون العودة إلى الوطن، بالطبع، ليروا أحباءهم."

"تماماً، أحباءهم."

"ماذا تعرف عن كل هذا؟" لدى الإحساس بأنه فتى وقح.

"ليس لى علم بأى شىء، يا سيد بيرنارد، أرجوك سامحنى. إنجليزيتى ليست جيدة. ليست على درجة جيدة من الإتقان."

"أنت تتحدث الإنجليزية جيداً."

"هل يدهشك ذلك؟"

أعرف الكثير منهم الذى حصل على تعليم جيد. "تعلمت على أيدى المبشرين، أليس كذلك؟"

"كلا."

"وأين تعلمت؟ فى الجيش؟"

"كلا، كنت محظوظاً بتعلم اللغة فى المدرسة. كانوا يطلقون على هناك الرجل الإنجليزى الأسمر الضئيل. علمنى الإنجليز الكثير من الأشياء النافعة."

كنت مسرورًا بسماع عرفانه لهم.

"ترى ما الذى كنا سنفعله نحن الهنود الفقراء من دونكم أيها الإنجليز؟ قلت ذلك لآرون. "آرون،" قلت "جميع الأشياء التى يمنحها لنا الإنجليز فى الهند." تاج محل؟" قال، همس لى أشوك ورائحة الثوم تنبعث من أنفاسه. "آرون رجل بسيط، ليس متعلماً" ثم قال: بصوت أعلى، "كان علىّ أن أخبره بأن تاج محل بنى قبل مجىء الإنجليز." من بناه؟ سألنى. "الهنود". قلت له. فبدا مندهشاً. كلا، قلت له. ليست هذه الأعجوبة. لكن دعنا نفكر ـ آه، أجل، الضرائب ولعبة الكريكيت..."

"لعبة عادلة،" أضاف آرون، وهو يبتسم كالمغفل.

"اللعب النظيف، يا رفاق، دعنا نلعب الرجل الأبيض،" كان أشوك يصيح. يالهم من قوم متحمسين.

"اخفض صوتك،" قلت له.

"عفواً. أسعد عندما أتحدث إلى البريطانيين. مثل الملك. ياله من رجل عظيم. بعضهم يقول بأنه يُتأتئ مثل الشيطان فهو يمسك

لسانه. لكنى قلت لا. إنه رجل نبيل." أبدى إعجابه وهو يهمهم ويفكر. ثم ضرب رأسه ـ الحركة الهندية المضحكة. "سكك القطار! كيف لى أن أنسى؟ هدية من الإنجليز لقوم جهلاء. تمامًا مثل ملابسك المصنوعة فى لانكشاير. أفضل من الملابس المنسوجة بالبيت، أمى تقول. أفضل."

تناهى إلى سمعى بعض الصيحات آتية من قريب. رفعت بندقيتى. "هل تسمع ذلك؟" قلت.

"لم أسمع شيئًا."

استرقت السمع، وأمرته بالصمت. كانت مهمتنا عبارة عن الحراسة ليس الثرثرة. ولكن كان كل شىء ساكنًا. لم أكد أرتاح قليلاً حتى شرع أشوك هذا فى الثرثرة من جديد. "والآن عم كنت أتحدث؟ أوه، نعم. الإنجليز. سيادة القانون ـ دعنا لا ننس سيادة القانون. انظر هنا ـ ألا ندافع عن السلع البريطانية المتميزة من اللصوص الهنود؟ دون سيادة القانون التى تتمتعون بها ماذا كنا سنفعل؟"

أثناء حديثه لاحظت دخانا ينبعث قرب المعسكر. كنت أشم الرائحة أكثر نفاذًا من العادى فى هواء الليل.

لكنه واصل حديثه: "لست من أولئك الذين يتمنون أن يخرج الإنجليز من الهند. أنا أحبكم. ألم تحمونا طيلة هذا الوقت من اليابانيين القذرين ذوى الأعين المشقوقة؟ إن كلابكم البولدوج الإنجليزية تعرف أنه لا يوجد أسوأ من أن يحتل الأجانب أرضك. انظر كيف قاتلتم أنتم يا معشر الإنجليز الألمان. لا مقانق ولغة الجنود الألمان للإنجليز. "اتركونا" وإلا نهشتكم كلابنا البولدوج."

شىء بغيض أن ترى أحذية نعال الأجانب الطينية تخطو على كل مكان من تراب بلدك. ألا تعتقد ذلك؟"

بدأ الأفق فى التوهج باللون البرتقالى. كانت الشمس قد غربت منذ ساعات لكنها بدت وكأنها عاودت الظهور فى كبد السماء. ثمة شىء يجرى هناك.

"لقد رأيت ماذا يفعل الهنود عندما يُتركون لحالهم. الهندوس يكرهون المسلمين، والمسلمون يكرهون بدورهم الهندوس. إنهم يتقاتلون طيلة الوقت. يتقاتلون على الدوام. كنت فى كلكوتا. أعلم، يا سيد بيرنارد. كان الواقع صادمًا، أليس كذلك؟ يجب أن نتعلم أن نعيش فى سلام - مثلكم أيها الإنجليز عندما لا تكونون فى حرب مع جيرانكم."

عاد الصياح من جديد. لا يمكن أن تخطئه الأذن هذه المرة. ثمة شىء يحدث فى المعسكر.

"لكن، أخبرنى، هل سألت نفسك يومًا لماذا جاء الإنجليز هنا فى الهند؟"

سيهتم الرجال بهذا الأمر، فكرت. الصياح، الدخان، لا علاقة لهذا الأمر بنوبتى فى الحراسة.

من الجلى أن أشوك هذا قد سألنى سؤالاً. كنت أتمنى لو صمت هذا المزعج. لكن كان لازمًا علينا أن نكون على وفاق. **"هل سألتنى شيئًا؟"**

"كنت فقط أتساءل لماذا جاء الإنجليز إلى الهند؟"

"هل أنت جاد؟ ثمة حرب كانت تدور رحاها، يا رجل!"

"إن السيد بيرنارد غاضب، كما أرى. أرجوك سامحنى."

"لست غاضبًا. الا يمكن ان نلتزم الهدوء الآن؟ ثمة أمر مثير للقلق يجرى الآن وأحتاج أن .. لا مزيد من الأسئلة."

"طبعًا، طبعًا. أسمع تلك الجلبة أنا أيضًا. لكنى متأكد بأن ذلك لا يعدو أن يكون صخبكم ولهوكم البريطانى المعهود."

"حقًا، أفضل ألا تتحدث معى."

"كما تشاء،" قال أشوك. التفت إلى آرون. نقل مكانه، حرك جسمه بعيدًا عنى ليتحدث فى حميمية معه. ظن أننى لا أفهم ما يدور بينهما لكنى فهمت ما قاله بالبنغالية إلى آرون: **"إذًا هذا هو الرجل الذى ادعيت أنه صديقك؟"**

هز آرون رأسه تلك الحركات الملتوية التى يتميزون بها. تبدو وكأنها إجابة بالنفى لمن ليس لديه سابق معرفة بهم ـ كان جميع الطيارين الجدد ذوى الركب البيضاء التى لم تلوحها الشمس بعد يتحيرون من هذه الإيماءة. لكنها إجابة بنعم. طفق الاثنان فى الثرثرة بعيدًا عنى. لم أستطع فهم كلمة واحدة من حديثهما الآن. إلا أن آرون ظل يختلس النظر ناحيتى خجلان، محرجًا. ثم سمعت كلمة **"صابونة لايفبوى"** أثناء الثرثرة. كان آرون يلمس جسده بذراعه كما لو كان يغتسل. وأصابعه البنية تنقر فى الهواء لتتحسس الأمطار. وكان أشوك ينصت باهتمام، فاتحًا عينيه على اتساعها، كما لو كان يستمع لقصص تروى فى المدرسة. واتضح لى أخيرًا إذ فهمت ما يخبره به.

كان ذلك اليوم الذى هبت فيه الرياح الموسمية الممطرة. كانت رائحة عبق الأرض المبتلة مثل العطر فى أنوفنا التى أزكمتها الرمال.

كان الارتياح الذى بعثه التخلص من الحرارة المخلوطة بالغبار مغريًا لخروج جميع الرجال. أخذ الماء يتقاطر منا بينما هى تمطر. أحبوا ذلك. قال لنا فرنشى ـ وكلود وينترز فى رسالة إلى أسرته —إنه شُفى من الطفح الجلدى بسبب الحر. صابونة لايفبوى وماء المطر. اغتسل بالصابون تحت مطر الرياح الموسمية المنهمر، هكذا نصح. جعل الجميع يفعلون بالمثل. ينزعون ملابسهم. يغتسلون بالرغوة. يمررون الصابونة بين العديد من الأيادى الزلقة. سرعان ما انزعج فرنشى ـ كانت صابونته لايفبوى الثمينة تقل وتصغر. كان يصرخ فى الجميع طالبًا منهم أن يقتصدوا فى استخدامها.

"هيا" قال الشباب، **"دورك، يا صاح"** لكننى كنت مترددًا. عاريا تحت المطر ـ هذا جدير بأن يفعله الشباب. لكن فكرة رائعة كونها علاجًا جيدًا للحكة. وماكسى، الذى كان أكثر رشدًا من أغلبهم، كان يفعل الشىء نفسه. إنه فعال، أخبرنى. **"تكاد الصابونة أن تختفى. هيا يا صاح"** كان الجميع يدعوننى. هذا شىء لا غبار عليه. نزعت عنى ملابسى. رائع. المطر المنعش يتقاطر على جسمى العارى. وخزات صغيرة من النشوة والبهجة. أرغى، فقاعات كحمام هوليودى. كنت على وشك أن أغتسل عندما توقف هطول المطر بغتة. توقف سريعًا مثلما بدأ. (تفعل الرياح الموسمية الممطرة ذلك) تركتنى واقفًا هناك عاريًا كآدم ورغوة الصابون تغطينى بالكامل ولا نقطة واحدة من المطر تسقط من السماء. ضحك جميع الرجال (طبعًا). كان المشهد مثيرًا للضحك، كما أعتقد. رفعوا كفوفهم. عمت الحيرة. وكنت أنا أقف مغطى بفقاعات الصابون كأنى إسفنجة.

لم ألحظ أن آرون شاهد ذلك ونسج منه قصة يرويها لأصدقائه. ضحك أشوك هذا فى نهاية تلك القصة الصغيرة، وتخطى حدوده

وقام بطبطبة على ظهرى. "سامحنى، بدأ حديثه "ارجو معذرة. أنت لا تتحدث لغتنا، أليس كذلك؟ يقول لى آرون إن..."

"أعرف ما يقوله لك،" قلت بحدة.

"حقًا، إنها قصة مضحكة."

"الرياح الموسمية لا يمكن التنبؤ بها."

"الحق ما تقول. لكن ... يا صاح، ما الاسم الذى يدعونك به؟ .. كيف حال ... بماذا يصاب البريطانى عندما يكون بعيداً عن دياره؟ طفح جلدى بسبب الحر؟"

انتفضت واقفًا فى هذه اللحظة. هل ظن أنه بمقدورى سماع ذلك وأنا جالس؟ كنت مثار ضحك وسخرية العمال الهنود. "هيا، قفوا على أقدامكم، أنتما الاثنان. جاء أحدهم. بسرعة وفوراً. هيا، انتقلوا."

أصبح الدخان ينبعث بكثافة. كان شىء ما يحدث وكنت أتوق لمعرفة ماذا هناك. وسرعان ما ظهر رجلان من الظلام. يركضان. شاهرين بنادقهما. لم أستطع تبين من هما حتى اقتربا من مكانى.

"انتظرا هنا." قلت للعمال.

ظهر فرنشى وفيدو. يلهثان لهاثًا أقرب للخوار. "الباشا تحترق،" أخبرانى. باشتى. الباشا التى عقد فيها الاجتماع. الخيمة المظلمة، المزدحمة التى تنوء برجال يجلسون على الأرض، وعلى الشاربوىّ ويقفون مستندين على كل الجدران. الحقيقة أننى لم أفكر فى ذلك عندما صاحا: "ماكسى هناك. هيا، يا صاح." لم يسعنى سوى الركض.

الفصل الحادى الأربعون

برنارد

كان كل شبر من الباشا يحترق بالنيران. بدت ظلال الرجال فى وهج الحريق كأقزام يطعمون وحشًا من الوحوش الضارية. يقذفون دلاء الماء، وبراميل من التراب التى كانت تتبدد وتختفى كبصاق على صاج الخبز. كان الجميع يصرخون. دفع أحد الرجال فى يدى دلو ماء. ووجهه يتلوى من الرعب. ويدفع ذراعه تجاه نار السعير المشتعلة. جريت تجاه اللهب. ضربتنى الحرارة كما لو كانت جدارًا. قشطت جفونى وأصبحت كأسلاك شائكة عندما طرفت أمام الدخان الحارق. أختنق. أنحنى. علىَّ التوقف خطوات إلى الوراء جنبًا إلى جنب مع الجميع. ألقى المحتويات من هناك. بلا أمل. لكن إن اقتربت فقد يأكلنى هذا الوحش نيئًا.

كنا نحتاج إلى النظام. كان ذلك واضحًا لى. بديهيًا. صف. نكون سلسلة لتمرير الدلاء من رجل إلى آخر فسيخبو اللهب ثم نقترب أكثر.

"سلسلة،" صرخت. "**تجمعوا في سلسلة.**" لا أحد يسمع. الجميع يعدو في كل اتجاه بلا ضابط أو رابط. بلا قائد لهم. "**هيا، أنتم أيها الأغبياء، قفوا في سلسلة.**" أمسكت برجل بنية أن أحتفظ به. لأريه فكرتي. ألقى بدلوه على قدمي. تدفق الماء حول نعلي.

"**ماذا تفعل؟ عليك اللعنة،**" قال.

"**نقف في سلسلة،**" قلت صارخًا، لكنه كان قد ابتعد. وفعل الرجل الآخر تمامًا مثله. وقد وجدت نفسي في النهاية دون أن أدري على الأرض. لا شيء في ذلك، أمسكت بأحدهم من ساقه. وأوقعته أرضًا. لفت انتباهه. نظر إلى عيني ونظرت إلى عينه. قلت له وأنا ألهث "**نحن في حاجة إلى التعقل ونعمل...**" لكمني في وجهي، وصرخ ليحتفظ برباطة جأشه. في حين انهار سقف الباشا المشتعل بالنيران بصوت أشبه بزفير غليظ. أومض وهجه الأخضر عينيّ. توقعت أن يفر أي شخص لا يزال بالداخل من الباشا مثل الخنازير الصغيرة، التي فرت لتختبئ في بيت آخر من القش.

سقطت الجدران بعد ذلك، نافثة ألعابًا نارية براقة تكاد تكون جميلة في الليل البهيم. ثم تسقط على سقف باشا أخرى فيشبُّ فيها الحريق هي أيضًا. وفي فوضى كان لا يزال الجميع يحولون دلاءهم إلى هذا الحريق. سلسلة ـ كان ماكسي ليجعل الجميع يتجمعون في سلسلة.

جاءت عربة الإطفاء. ترتج وتتخبط على الأرض. بطيئة في بطء العسل الأسود. انطلقت شائعات تقول بأن الرجال في هذه السيارة ليسوا عمالها الحقيقيين. سُرح رجال الإطفاء التابعين للنقل العسكري منذ شهور مضت. وكان جليًا للجميع، أن الأغبياء الذين

يقودون السيارة لا يعلمون ماذا يفعلون. سرعان ما قفزت إلى السيارة لمساعدتهم فى حمل خرطوم المياه. لأريهم كيف يعمل. رأيته من قبل مئات المرات على الطائرات المحطمة. جذبت الخرطوم بعيدًا عن العربة. شرعت فى دحرجته على الأرض. ثمة رجل يصيح، **"اتركه ياهذا ـ ليس بعد"**، لم أبال. **"ماذا تفعل، يا عامل المهبط الغبى؟"** لكن الأحمق لم يتركنى أريه كيف يعمل. دفعنى بعيدًا. انتزع الخرطوم منى وركض تجاه النيران. كان يجب أن يستمع إلىَّ. سال الماء فى قطرات. فى نهاية الخرطوم سال الماء قطرات بمثل القوة التى يفرز بها الرضيع لعابه. حك رأسه (أقسم بذلك) محاولاً تشغيل هذا الشىء الذى لا علم له به. فى حين تكاد النيران التى تلتهم الباشا تنتقل لأشياء أخرى لتحرقها.

"ثمة عقدة فى الخرطوم"، صحت قائلاً له. لم يأبه لكلامى ـ شققت طريقى إليه. كان هناك رجل يقف على الصنبور قليل الحيلة، ينظر إليه متحيرًا كما لو كان وجده فى لعبة من ألعاب الكريسماس. لا يريد أن يتزحزح، رغم ذلك.

أخبرته بأنى أعلم كيف يعمل، بيد أنه ضربنى بمرفقه فى أضلاعى. أمرهم صارخًا: **"أخرجوه من هنا وإلا سأضربه"** أمسك بى رجلان. وجذبانى بعيدًا. سحبانى جرًا. رجل على كل جانب منى. لا يسمعانى، فقط يصرخان **"اتركه، اتركه."**

أعلم ماذا أفعل، وما الذى نحتاجه. **"هذا الشىء قديم، كما ترى"**، أخبرتهما. وعندما بدأ الماء فى التدفق أخيرًا صوبوا الخرطوم تجاه الباشا التى لا تحترق. يا لها من عبثية. **"ليست هذه هى الباشا"**، صحت. أحاول المقاومة لأبتعد عن هذين الأحمقين القابضين علىَّ.

"صوبها إلى الباشا التى يوجد بها ماكسى."

"فات الوقت لإطفائها." صاح أحد الرجال.

"هراء." قلت له. لكن الأبله لم يبال. كانت لغته بذيئة ونتنة كنتانة المجارى. دفعنى بقسوة فسقطت على الأرض. تحيط بى الشرطة الآن. أحدهم يحمل بندقية. وقفت على قدمى لكنه يأمرنى بالبقاء فى الخلف أو ما شابه. دفعنى بقوة. ويصدنى. لم يبال بتعثرى وهو يدفعنى. **"ارجع إلى الوراء،"** قال. إنه لا يعدو أن يكون فتى فوضويًا رثًا. كل ما يريدنى أن أفعله هو أن أغلق فمى. **"توقف عن الصياح."** قال لى. لا أستطيع أن أجعله يستمع لصوت العقل.

وضع أحدهم يده على ذراعى. **"هيا، يا صاح، اتركهم لهذه المهمة."** إنه كيرلى. كيرلى الذى كان يقف على الباب أثناء الاجتماع. كيرلى من الباشا. خرج. تمكن من الخروج. سررت للغاية من رؤيته فحضنته. لكنه أجفل. كان وجهه يجفل من ألم جلى. أرانى الحروق على ظهره وكتفه. سألته عن ماكسى. هل نجح فى الخروج؟ قال: **"لا أظن."** أخبرنى بأن الحريق اشتعل خارج الباب. خرج فى الوقت المناسب بالركض بين اللهيب مع بعض الرجال الآخرين. لكن الحريق انتشر فى لمح البصر. **"كنا قرابة ثمانية رجال، أو عشرة لا أعلم. كنت أظن أنهم سيلحقونا لكن .."**

"لعلهم خرجوا من الجهة الخلفية،" قلت.

"ماذا تقصد بالاتجاه الخلفى، يا صاح؟"

ضخت عربة الإطفاء (عديمة النفع) مياهها على الباشا فى الوقت المناسب تمامًا فتحول رماد الدخان إلى طين وحل. لم يكن مسموحًا لنا أن نقترب. كانت شرطة القوات الجوية الملكية تبقينا

فى الخلف. كان الرعب يلفح الوجوه القذرة لجميع المتفرجين. كانت الرجال عراة حتى خصورهم. والصدور لا تزال تعلو وتهبط من المجهود. يتدفق العرق منهم مثل ماء الاستحمام. الجميع يتأملون المنظر باستسلام ويأس. باستثناء هؤلاء العمال الهنود، وقف هؤلاء الذين يتبعون المعسكر يثرثرون فى هدوء كما لو كان ذلك يوم السوق. لم يركضوا بدلاء الماء. ولا واحد فيهم. هل رآهم أحد يحاولون المساعدة؟ أنا شخصيًا لم أرهم. بعضهم كان يبتسم الآن بعد انتهاء الحريق. حتى إن أحدهم وجده أمرًا مضحكًا مما جعله يضحك مقهقهًا. واجهته قائلاً: **"ماذا تعرف، ماذا تعرف؟"** تراجع هذا العامل إلى الخلف مبتعدًا كالكلب الذليل. ولكنى طاردته. أستطيع أن أراه على وجهه. الشعور بالذنب. ربما يكون هو من أشعل الحريق ـ أعتقد أنها كانت مزحة. أمسكت بالرجل المزعج من ردائه الدوتى الرث. تمزقت تلك الخرقة كريهة الرائحة فى يدى. **"من فعل ذلك؟ ماذا تعرف؟"**

"أرجوك يا سيدى، لا علم لى، يا سيدى، أرجوك."

لكنى لم أصدق كلمة مما قاله. لم أنخدع بمسلكهم الجبان الدنىء. ربما رجل من رجال العصابات. قطاع الطرق القتلة لا يتورعون عن خنق أمهاتهم لقاء المال. يطلقون علينا الرصاص، يجعلوننا نجرى فى كل مكان وليسوا أوائل الرجال الذين يهرعون لإطفاء حريق. هم أسوأ من اليابانيين. نحن الرجال جميعًا نعلم ذلك. العمال الهنود المتوحشون. يريدون أن نخرج من الهند أحياء أو أموات. هذا البائس الصعلوك الحقير الذى يبتسم ابتسامة حمقاء. الرجل الأسود الضئيل الجاثم مرتعدًا مثل فتاة. بيد أن أحدهم منعنى مما كنت سأقدم عليه. عاقنى، وقف فى طريقى. أمسك

بقبضتى بكلتا يديه. والعامل التافه جاثم أمامى على ركبتيه يبكى. تخلصت منه. فسحبنى بعيدًا ثلاثة رجال. الحمقى المغفلون، سألتهم ماذا يفعلون؟ منعونى عندما كان هذا التافه الماكر الضئيل على وشك الحديث.

الفصل الثانى والأربعون

برنارد

قال لى الرقيب: **"أنت فى ورطة، يا بلاى."** ظننت أنه يقصد بذلك ضربى لعامل هندى. **"كلا، كان عليك أن تؤدى نوبة الحراسة المنوطة بك."**

سألته الإذن لأشرح له. ظننت أن ذلك كان أفضل. **"ركضت فقط للمساعدة، أيها الرقيب. كانت باشاتى، كما ترى. وأعرف الرجال المجتمعين فيها."**

لم يبال بكلامى، وكنت على استعداد أن آخذ نصيبى من العقاب. ترك موقع مهمتى. لم يكن ليجدر بى أبدًا أن أتركه، مهما تكن العواقب. كان يجب إخبار قائد الوحدة. لكن الوضع كان أسوأ من ذلك.

سألنى الرقيب: **"أين بندقيتك؟"**

مسدسى. البندقية. لقد ثبت ونصبت الحربة على حد ما أتذكر، عندما سمعت الرجال يركضون. صوبتها على ما أظن، أثناء المرة

الأخيرة التى استخدمتها فى التدريب الأساسى. خمس جولات تركت فى أذنى طنينًا لا ينقطع. تمنيت ألا أحتاج إلى رصاص هذه المرة لأنى لم أكن متأكدًا إن كان لدى واحدة منها. وضعتها جانبًا عندما رأيت فرنشى وفيدو. ثم ماذا؟ ثم ركضت. أتذكر دلاء الماء، خرطوم إطفاء الحريق. لا تزال آثارها تثير الحكة فى يدى وأصابعى. أما البندقية؟

"بندقيتى، يا رقيب؟"

"اجل، يا بلاى، بندقيتك. لا تقل لى بأنك فقدت بندقيتك أيضاً؟"

جعلونى أمثل فى الحال أمام الملازم الطيار موون. وقفت منتصبًا أمامه فى انتباه. الرقيب يقف على جانبى وحارس على الجانب الآخر. أُحضر كل من آرون وأشوك. كلا، قالا. لم أترك بندقيتى خلفى عندما تخليت عن مهمتى. لم يشاهدا بندقيتى سوى عندما كنت أحملها فى يدى. فى الواقع، تذكر أشوك، بشكل مفيد، أننى أخذت البندقية معى. أخبر قائد الوحدة عن الحربة، وعيناه مثبتتان للأمام ووجهه منتصب. كان قلقًا، قال، بأنه فى خضم اضطرابى أثناء مساعدة أصدقائى بأنى قد أجرح أحد الرجال من دون قصد بالحربة. وأضاف الرجل الوقح بأن البائعين فى العادة لا يجيدون استخدام البنادق. بدا أن قائد الوحدة يوافقه على ما يقول. لم يستجوبه. لم يسأله ماذا يعرف. وما إن كان متواطئًا معهم. هل أخفى البندقية لكى يبيعها فيما بعد بثمن جيد لرجل من بنى جلدته البائسين ليطعن بها بطن أحد المسلمين؟ اكتفى بأن أومأ برأسه.

كان فى ريعان الشباب، ذلك القائد للوحدة. جاء حديثًا من الوطن. فاتته الحرب بأسرها. كان صبيًا عندما نشبت. ولم تكن

شواربه الشقراء قد نمت بعد عندما وضعت الحرب أوزارها. ولم تكن شواربه الشقراء قد غلظت بعد. ولم يقضِ فى الشرق ما يكفى من الوقت ليعتاد الحر. كانت ركبتاه بيضاوين ناصعتين، وبشرته بها طفح جلدى وردى اللون مثل لحم البقر. صرف آرون وأشوك دون أن يراوده أى شك من جانبه. خرجا وهما يلوحان بذراعيهما. دهاء. ممشوقى الظهر كعساكر الدمى المعدن. أرجلهما متصلبة جامدة كالخشب. إنه المكر. لم يكن ليعلم سوى الرجال ذوى الخبرة بأن هذين الوغدين كانا يسخران من خدمات جلالة الملك.

"**تضيع بندقيتك وتترك مهمة واجبك فى الحراسة. ما هى أقوالك أيها الطيار؟**"

تحدث الرقيب نيابة عنى. "**سيدى، كانت الباشا الخاصة ببلاى هى التى انهارت بفعل الحريق.**"

"**هل تقول بأن ثمة أسب.. أسب ..تبرر..**" أخذتنى الدهشة ـ كان يتلعثم. كان يطرف بعينيه كما لو كان يتأقلم على ضوء ساطع. رفع يده عاليًا ليغطى فمه. ثم نظر إلى أسفل على مكتبه بارمًا قلمًا بين أنامله، لا يزال يحاول أن يخرج الكلمة من حلقه. نظرت إلى الرقيب، الذى هز رأسه ليجعلنى أنظر إلى الأمام مرة أخرى. "أسباب،" قالها قائد الوحدة أخيرًا. "**هل تقول بأنه ثمة أسباب تبرر إهماله لواجبه؟**"

"**أجل، يا سيدى.**"

"**الكلام ليس لك، يا رقيب، أود أن أسمع بلاى.**"

"**أعرف الرجال الذين كانوا فى الباشا، يا سيدى. لكن كان على البقاء فى مهمتى، يا سيدى.**"

"والمسد ـ المسد، البندقية؟"

"كان يجب علىّ أن أحتفظ بها معى طوال الوقت، يا سيدى. إنها مسؤوليتى."

"يعتبر فقدان بندقية جريمة تستوجب المحاكمة العسكرية. تعلم ذلك، أليس كذلك؟"

"أجل، يا سيدى."

"هل كنت فى باشتك قبل أن تذهب إلى الحراسة؟"

"أجل، يا سيدى."

"مع الرجال الآخرين. هل أنت صديق لهؤلاء الرجال؟"

"أجل، يا سيدى."

"مسلك سيئ. لكنك تركت المكان قبل وقت قصير من اندلاع الحريق؟"

"أجل، يا سيدى."

"ماذا كنت تفعل فى الحياة المدنية، يا بلاى، قبل الحرب؟"

"قبل الحرب، يا سيدى؟ كنت موظفاً فى بنك".

"موظف فى بنك. إنها وظيفة تتطلب تحمل المسؤولية."

"أجل، يا سيدى."

"هل تخطط للعودة لهذا العمل؟ أن تكون مو ـ بنك مو ـ بنك موظف بنك؟"

"أجل، يا سيدى."

"إذن، ستحتاج أن يكون لك سجل لحسن السيرة في الخدمة، على ما أعتقد؟ لن ترغب في ... أن تلطخ سجلك." ابتسم قائد الوحدة مع نفسه، كما لو كانت تلك المزحة أعجبته. نظر إلى الرقيب الذى شجعه بشبح ابتسامة. "حسنًا، يا بلاى."

"سيدى؟"

بدا وكأن حبل أفكاره انقطع. لوى قلمه بينما شد نصب وجهه فى استقامة. "لن تسمح القوات الجوية الملكية لكم يا عمال مهبط الطائرات بأن تفقدوا أسلحتكم. فى هذا الوقت الحرج. قد يصل إلى أيدى أحد غير مرغوب فيه." وبالكاد توقف قبل أن يسأل: "ما الذى تستطيع أن تخبرنى به عن الرجال فى الباشا فى ذلك المساء؟"

"كان جورج ماكسيميليان هناك، يا سيدى. لقى حتفه مع سبعة آخرين ..." وحان دورى فى التلعثم ... مع سبعة آخرين.

"ماذا كان يفعل؟"

"من يا سيدى؟"

"هذا الماكسى ... الطيار." لم يتلعثم وهو ينطق اسم ماكسى، لم يكلف نفسه عناء تذكر هذه الحالة.

"كان متزوجاً ولديه ولدان. ربما كان يكتب رسالة إلى أهله، يا سيدى."

"رسالة إلى أهله. إذن أنتم أيها الرجال لم يكن لديكم ..." لم يبدأ كلمة. فقط عينه التى تطرف وأنفاسه المتلاحقة. أعلم أنه كان يبحث ... اجتماع؟"

أثارت الكلمة دهشتى وقلقى (أعترف). لم أكن أتوقع ذلك.

"اجتماع، يا سيدى؟"

"هيا، كان ثمة اجتماع. أليس كذلك، يعقد فى تلك الباشا؟"

"لا علم لى بهذا الاجتماع، يا سيدى." كان أى رجل منهم سيقول بالمثل. روح الفريق، كما ترى.

"أنت فى و - و .. ورطة خطيرة كبيرة، يا بلاى. ألا تعلم؟"

"أجل، يا سيدى."

"هل تظننى أحمق؟ ثمانية رجال توفوا فى حريق الباشا. هل لديك تفسير لذلك؟"

لم أكن متأكدًا أنه كان يرغب فى إجابة عن سؤاله، ولكن حان الوقت للإجابة لأجل مصلحة ماكسى. "تخريب، يا سيدى. قطاع الطرق، والعمال الهنود."

"هل تقول بأن أحدهم أشعل الحريق عن عمد؟"

"الهنود، يا سيدى. يريدون أن نخرج من ديارهم. اشتعل الحريق فى الباب. دون وجود أى فرصة فى الهروب ، يا سيدى".

"لا يا بلاى. الوضع دقيق بالفعل. لا أحد هنا يقول بأن الحريق اشتعل عن عمد. هل تفهمنى؟ كان حادثًا مؤسفًا. اتفق الجميع على ذلك. ماذا كان ذلك، يا بلاى؟".

"سيدى؟"

"الحريق، كيف حدث؟"

"حادث، يا سيدى"

"حادث مؤسف، يا بلاى"

"مؤسف. أجل، يا سيدى"

"جيد، اتضح الأمر. مع ذلك، لكن ما الذى يعنينى هو الاجتماع الذى عقد فى الباشا فى تلك الأثناء."

حادث مؤسف ـ لقد احترقوا أحياء! "لا علم لى بهذا الاجتماع، يا سيدى."

"ستفقد نجمة بورما إذا حوكمت محاكمة عسكرية، يا بلاى."

"سيدى؟"

"هيا يا بلاى، ماذا كان يحدث؟" كان مهتاجًا. ألقى القلم أرضًا. ثم ضرب بقبضته على المكتب. عيناه تدوران فى وجهه كما لو كان يبحث عن شىء ضخم ليلقيه فى وجهى. "فقدت بندقيتك بعدما تركت موقع مهمتك كحارس. ستعرض على المحكمة العسكرية. عقوبتك السجن، يا رجل. إلا إذا تعاونت معى فى هذا الموضوع. لا تريد القيادة العليا ترديد ما حدث مؤخراً. لا يمكننا تحمل إضرابات. لن أسمح بإضراب. لابد أن نحافظ على الانضباط."

"لا أعلم شيئًا، يا سيدى."

"أراهن أنك كنت حاضراً فى المرة الأخيرة، إيه؟ هذا التمرد. موظف بنك لعين، لابد أنك متورط فى هذا الموضوع حتى أذنيك." ذهب تلعثمه مع غضبه.

"كلا، يا سيدى."

"انظر هنا، يا بلاى، علىَّ كتابة ثمانى رسائل. ثمانى عائلات أخبرها عن هذه الوفيات. وأرغب فى معرفة إذا كنت أتحدث عن رجال مثيرى للمتاعب أم محترمين. والآن هل ستساعدنى أم لا؟"

الفصل الثالث والأربعون

برنارد

لا شك أن أولاد ماكسى قد اعتزوا بالرسالة التى بعثها الملازم الطيار موون. بالتأكيد قد تبلغهم بأن والدهم تقريبًا توفى وهو يحارب. عمل كعريف فى القوات الجوية الملكية. رجلٌ يرتدى الزىّ الأزرق. وسيظل الناس يتذكرونه على هذا النحو. صورة فى إطار توضع على رف المدفأة. ونجمة بورما فى صندوق. توفى والدهم وهو يحارب لأجل بلده أثناء الحرب فى الهند. هل هناك ما هو أفضل من تلك الكلمات ليعتز بها الأبناء؟ بإمكانهم أن يفتخروا بوالدهم.

ثمة أوقات تمنيت فيها أن أكون أنا من مات معه فى تلك الباشا. كنت الإنجليزى الوحيد الذى ترك فى السجن. معظمهم عاد إلى الديار أو انتقل إلى مكان أكثر أمنًا. سرعان ما سينتهى الأسبوعان اللذان فرضا علىَّ كعقوبة، كما قال العريف. اقض العقوبة، ثم انسها. ستعود سريعًا إلى الديار، فكر فى هذا الأمر فقط. أسبوعان فحسب، هذا كل شىء.

عندئذ حبستنى القوات الجوية الملكية فى زنزانة مع أربعة هنود. عمال هنود تافهون. يُحبس عامل مهبط الطائرات المهم ـ هذا الرجل الإنجليزى ـ مع عمال هنود لا أخلاق لهم، اللصوص، الأوغاد الذين تتجشم القوات الجوية الملكية عناء حراستهم. كان كل رجل من زملائى فى الزنزانة مجرمًا عتيدًا، أمسك به وفى يده الضئيلة السمراء شىء ما. قد يكون من بينهم الرجل الذى قتل ماكسى.

كان لدى نفس الفراش الذى ينامون عليه، بُسط على أرض حجرية تشبه فى صلابتها مؤن البسكوت. نفس القدح المصنوع من الصفيح ونفس الطبق. ونفس الملعقة الوحيدة. لم يكن السجن بمثابة معاناة وضنك للعمال الهنود. الوجبات تقدم بانتظام. ولا عمل على الإطلاق. كانوا ينامون طوال اليوم. يزيحون بأيديهم البقِ الذى يتسلق أو يزحف على أجسادهم. يثرثرون بلغتهم. لم يكن الحر القائظ فى تلك الزنزانة يزعج هؤلاء المحليين. ولا حتى الغبار الذى يدور فى هواء نتن الرائحة مثل العاصفة الترابية. فلقد اعتادوا على ذلك. لكن لشخص إنجليزى ... كان العرق المخلوط المشبع بالغبار يتصبب منى ليلا ونهارا. يلسع عينى. ويسقط أجاجًا فى فمى. يدفعنى لأن أحك جلدى بلا وعى منى. ويتسرب إلى فراشى حتى غدًا مشبعًا بالماء مثل بسكوت غُمر فى الشاى.

كان علىَّ البقاء يقظًا وسط هؤلاء اللصوص. فلم يكن بمقدورى غلق عينى أثناء نومى، ولا حتى أن أغفو. كان لدى قلم ورسالة لى أن أبعثها بالبريد الجوى، كما ترى. والحارس، الذى يُدعى تومى، عندما علم بأنى فقدت جميع أمتعتى فى الحريق، جلبها لى. احتفظت بالاثنين اللذين أصبحا من ممتلكاتى على الأرض أسفل حاشيتى. بعيدًا عن تلك الأيادى الثمانى السارقة والعيون السوداء الحاسدة التى لا تكف عن مراقبتى. فكرت فى كتابة الرسالة تلك إلى كوينى.

لا شىء فى ذلك ـ كان علىَّ أن أختلق لأجمِّل حقيقة ما يحدث: انتقلت إلى موضع لطيف، انتقلت إلى مكان أفضل، وتمنيت أن أعود إلى المنزل بحلول أعياد الميلاد، أشياء من هذا القبيل. لا حاجة لذكر المحاكمة العسكرية أو الملازم طيار moon الذى جعل منى عبرة. أو الضابط الذى بعثوه للتحدث نيابة عنى ولم يجد ما يقوله عن سجلى فى الخدمة قد يُغير من رأى قضاة المحكمة. وتجنبت ذكر الحكم المخجل الذى صدر ضدى ـ أسبوعين فى السجن بين رفقاء زنزانة لا يمكن لرجل متحضر أن يتخيل من هم أكثر إجرامًا منهم.

كيف أضع الرسالة على الأرض لأكتبها. رغم أننى أدرت ظهرى للعمال إلا أننى ما زلت أشعر بهم يجاهدون لمعرفة ما الذى يفعله الإنجليزى. بدأت بكتابة، "عزيزتى كوينى" كما هى العادة. ثم توقفت. فكر قبل أن تكتب، حثتنى الورقة ـ طبعت عليها عاليًا هذه الكلمة مع علامتى تعجب. فكر!!.

كان أبى مجندًا فى الجماعة الأخيرة فى الجيش، الحرب العظمى، هكذا يدعونها. كان فى فرنسا. شابًا يافعًا، تقترب سنوات عمره من التاسعة عشرة، لديه زوجة وطفل صغير فى وطنه. كان فى رسائله يخبر أجنس، زوجته، ووالدتى، أنه يقضى وقتًا طيبًا. كانت تتخيله يرتشف كؤوس الخمر مع السكان المحليين ويتذوق أرغفة الخبز فى طول ذراعه. ويحارب الألمان، بكل تأكيد ـ طلقة رصاص من هنا، وفرقعة عالية من هناك. "إنه فى إلسوم." قالتها. أخبرتهم وهى تقف على عتبة الباب، كأنه ظهر فى الشارع عند البيت من أجل امتحان سريع لنصف العام. لم تكن تتخيل أنه عاش لثلاث سنوات فى الطين فى شق متهدم فى الأرض. كان ذلك كل شىء، حتى أعادوه إلى المنزل. لم يأت بنفسه، ولكن أوصلوه

بشاحنة. كان مشهدًا استرعى انتباه المارة فى الشارع (كان الجميع خارج منازلهم يحدقون فيه) كطرد أُرسل إلى المنزل رقم واحد وعشرين. رجلان، على جانبيه، أعاناه على ارتقاء درجات السلم وطرقا الباب. أجابت والدتى. وهى تحل أزرار مئزرها، تبتسم فى وجه بطلها العائد من الحرب.

تعين عليهما دفعه دفعًا خفيفًا ليدخل المنزل.

تسلمت جسده ـ قطعة واحدة، كاملة، بالكاد يلمسه أحد. جسد يتبول كلما صفق الباب بعنف. كان فى الليل يهتز، وهو جالس على الفراش مرتديًا بيجامته المقلمة وقد زررت حتى عنقه. وعند النوم كان يصرخ كما لو كان أحدهم ينزع أسنانه ـ وأزرار بيجامته ترن فى الحجرة كشظايا قنبلة. وكلما نبح كلب كانت أمى تخرجه بلطف من تحت الفراش. قالت لى: **"لقد فقد أبوك عقله."** وأنا، البالغ من العمر ثمانية أعوام آنذاك، تمنيت لو أن يعثر أحدهم على عقله ويرسله إليه فى منزله.

تحسن تدريجيًا (قليلاً)، باللطف الذى تبديه أمى نحوه. كانت تطعمه وتضع له صدرية أطفال مربوطة فى عنقه. تنظف برازه من الأرض. وتبدل سراويله. وتم إقناعه بلطف بالخروج من المنزل. ألبسته قبعة ومعطفًا من قماش الجبردين واصطحبته معنا إلى المتاجر. فتاة شابة، أقرب إلى طفلة منها لامرأة، أعطته ريشة بيضاء. طفق يتسلى بها كاللعبة، يمسح بنعومتها على وجنته. حتى شاهدته أمى. تشاجرت مع الفتاة وكانت لتجرحها جرحًا بليغًا إذا لم يتم استدعاء أحد رجال الشرطة. صرخت فى كل من جاء ليحدق فيهما: **"لقد أدى ما عليه."**

جعلتنى أمسك بيده طوال سيرنا عائدين إلى المنزل.

حفر خندقًا فى الحديقة. شاهدته وهو يحفره (خطًا مستقيمًا). كان ذلك أول خندق يحفره (حفر أربعة أُخر) أعطته أمى نباتات إبرة الراعى ليزرعها. أرته كيف يجرف الأرض ليغطى الخنادق مرة أخرى. كان يراقبها وهى تنمو، يجلس لساعات أحيانًا، مسندًا وجهه على يديه، ينتظر البراعم لتخرج إلى النور. عند ظهور أول أزهارها الرائعة، بكى. على الملأ.

إلا أنه لم يعد والدى الذى أعرفه مرة أخرى. ففى كل مرة ينظر إلىَّ وكأنه يرانى للمرة الأولى. لا يهم إن كنت تركت الحجرة وعدت، ففى كل مرة كان يرانى غريبًا عنه. اعتاد أن يحملنى فى الماضى على ظهره. يعلمنى كيف ألقى الكرة، برفع ذراعى فوق كتفى، كلاعب الكريكيت. "**ضربة جيدة يا برنى. أنت تتعلم يا بنى، تتعلم.**" اشترى لى كتاب الأولاد السنوى حتى قبل أن أتمكن من القراءة دون مساعدة. عندما كان يعود إلى المنزل بعد انتهاء عمله (فى البنك) كنت أجلس على ركبتيه وأطلب منه قراءة قصة من قصص المغامرات (السيف والمهماز أو خادم الشيخ الأبيض). عندما ذهب إلى الحرب كنت أود أن أعرف إلى أين ذهب. كانت كلماته الأخيرة لى قبل أن يرحل هى، "**قصص المغامرات يا برناردى، أبوك سيرحل ليعيش قصة من قصص المغامرات.**"

بدت أمى فى الستين من عمرها خلال العشر سنوات التى غاب فيها. ضعفت وذبلت. كانت تحب أن يكون لها أسرة كبيرة، ليس مجرد ابن واحد مثلى. لكن زوجها لم يعد يستطيع أن يحقق لها هذه الرغبة. على الأقل عندما كانت هناك. كانت البقع البيضاء القشرية على الشراشف وعلى سراويله هى كل ما كانت تراه. كانت تشيح بوجهها عنها، وتنادينى لكى أمسحها.

كان تمتلك بيتا ضخمًا ومعاشًا ضئيلاً. اختفى الإبريق الزجاجى الذى ورثته عن أسرتها والذى كان موضوعًا على طاولة فى قاعة الاستقبال، قطعة واحدة حينئذ. ثم تلته الخواتم فى أصابعها. باستثناء خاتم زواجها الذى كانت تلفه بإصبعها كلما تأملت والدى فى حديقته.

أجرت الحجرات فى منزلها للغرباء. أنفقت وقتها تطالبهم بالإيجار وتحافظ على الأخلاق أعلى وأسفل سلم منزلها. تصيخ السمع خلف باب حجرة الاستقبال فى حالة مجىء الشر إلى منزلها. عندما تركت المدرسة وضعت قبعتها وارتدت أفضل معاطفها (أنقذته مرتين من المرابين والمسترهنين) وزارت المصرف الذى كان يعمل فيه أبى موظفًا. وعادت بوظيفة لى، تبدأ من اليوم الذى يليه. "**إنهم مدينون له كثيراً**،" كان ذلك كل ما قالته.

توفيت فى الثانية والأربعين من عمرها. سرطان، همسوا فى أذنى. ورم فى إحدى الرئتين صال وجال فيها من الداخل. قبل أن تموت استطاعت أن توجه هذا السؤال: "**من سيرعاه**"؟ لم أتفوه بكلمة. ما الذى يمكن أن يقال؟ من سيرعاه بعد وفاته.

أنا سأفعل.

اتسم أبى بالهدوء عندما انتقلت كوينى للسكنى معنا. يعتنى بحديقته، يجلس على مقعده (دون متاعب). كان يعلم بأنها شىء مختلف. يتبعها أينما تذهب بعينيه. كانت تنظف المنزل. قالت إنها تضيف لمسة أنثوية فى المنزل. زهورًا، وأبسطة موشاة على الصوان. بدأ أبى فى الابتسام، يدق بقدمه على أنغام الجرامفون. يدندن أغنية "أرنى طريق العودة إلى الوطن". كانت ترقص معه، خطوة تلو

الخطوة، أمام المدفأة. ثم جاءت الحرب والقنابل. عاودت فضلات جسمه أن تخرج منه بحرية تامة. ثم ظهرت صدرية الأطفال أثناء تناول الطعام. لم نستطع أن نقنعه بالذهاب إلى المخبأ. كان يبقى دائمًا أسفل الفراش، يرتجف ويرتعد كفتاة.

"**سيكون من الأفضل له أن يرحل،**" قالت كوينى مرة. كانت المرة الأولى التى أدرك فيها بأنها قد تكون بلا قلب.

بعد غارة من الغارات كان علىَّ أن ألاطف أبى ليخرج من أسفل الفراش بالخبز والمربى ـ كان صوت المذياع عاليًا جدًا وكأننا فى صالة للرقص. كان أحيانًا يرقص حول الغرفة ويرفع ذراعيه لأعلى متخيلاً سيدة تشاركه الرقص عندما يعتقد بأن ليس هناك من ينظر إليه.

كان ينفد منهم الشباب اليافع فى هذه الحرب الجديدة. فاتجهوا إلى تجنيد رجال أكبر عمرًا ثم أكبر منهم كل أسبوع. لم يكن لديهم خيار آخر. لم تكف مراقبة الحرائق وإطفاء الأنوار أثناء الغارات الجوية. وكونى موظفًا فى مصرف يقضى كل يومه يكتب أرقامًا فى دفاتر الحسابات لم يكن مهمًا فى جبهة الوطن. لقد حان دورى للاشتراك فى قصص المغامرات.

كل ما كنت أعلمه أننى سأرحل إلى ما وراء البحار. إجازة قبل الإبحار ـ قضاء أسبوع مع الأحباء، ثم الرحيل. بالطبع لم يكن لدى أدنى علم بالمكان الذى سأرحل إليه، لكن كوينى لم تكف عن السؤال. "**حتمًا فى بلد حار إذا أعطوك زيًا استوائيًا.**" قالت. سخر الرجال الذين تدربوا معى من هذا الرأى ـ زىّ استوائى قد يعنى الرحيل إلى أيسلندا أو سيبريا. "**عليك أن تعرف إلى أين تذهب. ألا**

تستطيع سؤالهم؟" ظننت أننى أريد أن أحتفظ بذلك لنفسى. طبعًا لن يخبرونا وإلا سينتشر الخبر فى كل المراقص التى يتواجد بها رجال يرتدون زيهم الأزرق المفضل. "لن يخبرونى." أخبرتها. صرخت مخبرًا إياها فى النهاية وبصوت عال.

لم أكن أرغب فى أن أقضى آخر يوم لى معها على هذا النحو. كان حرى بنا أن نقضيه فى عناق وقُبل. دعتنى أعتليها، بالطبع، ولكن لأننى فقط زوجها وسأرحل بعيدًا إلى حيث لا أحد يعلم. دعتنى ولكن استلقت هناك كخرقة رخوة. لم تتجشم عناء وضع يدها حول ظهرى. وبالنسبة للقُبل ـ أشاحت بوجهها بعيدًا. كان علىَّ تقبيل وجنتها. أعنى، أمى كانت تدعنى أفعل ذلك. لما لوحت لى مودعة قالت: "اعتن بنفسك وكن واثقًا واكتب لى." ولكنها صفقت الباب الأمامى خلفى قبل نزولى من آخر درجة فى السلم.

كانت ليفربول تعد من مدن أعالى البحار فى تلك الأيام قبل الرحيل. سماء تمطر كأفواه القرب. أيام ممطرة رطبة فى نهاية الأسبوع فى ويجان ، كانت كوينى لتقول ذلك. تركتها وقلبى مثقل بالهموم (سأكون صادقًا) كنت أود لو أننى افترقت عن كوينى فى ظروف أحسن. كنت أسمع الباب الذى صفقته خلفى فى كل مكان أذهب إليه، أبواب القطار، صوت إطلاق الرصاص من بعيد ـ جعلنى أشعر وكأنى أرجع للبداية. بالطبع، هراء.

وأنا جالس على سطح المركب الذى أغرقه المطْر طفقت أتأمل الساحل وهو يختفى تدريجيًا قليلاً قليلاً فى البحر. لم أترك إنجلترا قط من قبل. مرة واحدة أتذكر أننى عاودت النظر إلى الأرض. ركبت البدال وأبحرت به بعيدًا جدًا فى ديمتشريش.انفزعت عندما أدركت بأنى بعدتُ جدًا. أمى تقف على

الشاطئ وجهها ضئيل أستطيع تبينه بصعوبة، تناديني لأرجع. وأبى يخوض فى الماء، ويرفعنى عاليًا بأمان بذراعيه.

اختفت إنجلترا سريعًا عن ناظرى. سرعان ما اختفى كل شىء عدا منظر البحر. فقدت توازنى وسيطرتى على نفسى. جلست لأتأمل البقعة حيث ذابت بلدى عندها. كانت بلدى هناك، طبعت فى عينى كما تفعل أشعة الشمس. أرى ظهر أبى وهو يعتنى بخضراواته. كوينى تلوح لى وهى تقف على الباب قبل أن تصفقه. مشاهد من الصعب أن تمحى من ذاكرتى.

أمسكت بقلمى فوق تلك الورقة الزرقاء الرديئة النوع فى ذلك السجن جالسًا على الأرض. أمسكت به مدة طويلة حتى إن العرق سال على ذراعى ثم تقاطر على سن القلم مثل الدموع. سرعان ما تشبعت الورقة بالعرق مما لا يسمح بالكتابة عليها. وطمست "عزيزتى كوينى" وتحولت إلى بقعة زرقاء حتى أصبحت فى النهاية مجرد لطخة.

الفصل الرابع والأربعون

برنارد

قالها كما لو أنى فزت بالتسريح من الجيش فى اليانصيب. لم تعرف الرجل الذى زج بك فى السجن فى المقام الأول. نظر مباشرة فى عينى. سعيدًا بإطلاعى على الأخبار. لا شك بأن شخصًا له مثل سجلى هذا سيعتبره شرفًا له أن يخبره قائد الوحدة شخصيا. **"بلاى، رقمك يتصاعد. اجمع أمتعتك من كلكوتا. أمامك أسبوع لتصل إلى بومباى. أنت عائد إلى الديار."**

سرت إشاعات تقول بأن وحدتنا كانت الوحدة الأخيرة التى تترحل من الهند. وبفضل قائد الوحدة، كنت أنا الأخير متأخرًا عن معظم زملائى. أحد الرجال أصبح وكأنه من أهل البلاد المحليين، رفض أن يستقل سفينة للعودة إلى الوطن ـ وتم تسريحه فى كلكوتا. بيد أن عددًا قليلاً من سيئى الحظ تركوا يحصون الأيام التى تفصلهم عن الرحيل. يأمر الملازم الطيار موون، الذى يجلس أعلى

الشاحنة، سائقه بمواصلة السير، بيد أنه تلعثم وهو يعطيه الأوامر: "كا ـ كا ـ كا " قال، قبل أن يومئ بإشارة بيده.

لم يتبق شىء فى الباشا. محت شرطة القوات الجوية الملكية أى أثر لها. باستثناء أثر الحريق حيث كانت مشيدة. مربع سخامى مرتسم على التراب. كان بالغ الصغر. لا تتعدى مساحته صندوقًا. من الصعب تخيل أين وضعت الشاربوىّ، ناهيك عن الرجال الثمانية الذين قضوا نحبهم. آلف لامب، بيل بالمر، نوبى بلومفيلد، أعرفهم جميعًا. وخاصة نوبى. كنا معًا فى عملية إنقاذ نهرية. تطوع للغطس فى المياه، سبح تحت حطام طائرة ليربط الحبال حولها. كنت من الفريق الذى رفع طائرة الويلينجتون. وأعتقد، أن آلف أيضًا كان بيننا. ولم يتطلب الأمر سوى إشارة خفيفة لجعل جوك دافيدسون يعيد حكى قصة النمر الذى قتله لبعض السكان المحليين. ربط خنزيرًا فى شجرة على نحو ظاهر. وجلس طيلة الليل ينتظر بين أغصانها. قتله برصاصة واحدة بين عينيه. كان بطلا محليًا لفترة قصيرة من الزمن.

لم أتعرف على جوردون بينك أو جاك بارك ـ لم يقضوا وقتًا طويلاً فى وحدتنا. كان رون سيمبسون سيئ الحظ حتى دون الحريق الذى اندلع فى سجله الجيد. كان فى نورماندى يوم بدأ فيه الحلفاء غزوهم لأوربا بمهاجمة الساحل الشمالى لفرنسا. هبط بالمظلة. وشاهد معظم أعضاء وحدته يطلق عليهم الرصاص قبل أن يهبطوا على الأرض. لقد جرح مرتين. ظن أنه سيعود إلى الوطن يوم النصر فى أوربا. ثمل كالعمال. تسلق عمود إنارة و"اليونين" جاك مرسوم على مؤخرته العارية. وفى الأسبوع التالى خرج فى

مركب ترحل إلى الشرق. والاسم الثامن فى هذه القائمة البشعة، بالطبع، كان صديقى جورج ماكسيميليان.

مرت شاحنة قائد الوحدة المراهق عبر بقايا الحطام المحترقة للباشا. طفقت أتأمل وأنا أقف هناك أقدم التحية العسكرية لهذا الضابط فى عفرة غبار شاحنته عندما انحرف بمسار عجلتين على قبر ثمانية طيارين. الباشا لم تعد قائمة هناك، كانت بالنسبة إليه طريقًا مختصرًا. كان علىَّ أن أبصق على الأرض عندما رحل ـ لأتخلص من الغبار والأوساخ التى علقت بفمى، كما ترى.

وهكذا وجدت نفسى مرة أخرى فى كلكوتا. والنسور لا تزال تجلس مثل العفاريت الحدباء الهزيلة تنظر لأسفل من أسطح المنازل. كانت تراقبنى وأنا أسير. هراء، ولكن من حملقتهم فىَّ باهتمام تخيلت أنها عرفتنى من المرة الأخيرة التى كنت فيها هنا. كانت الأشلاء التى انقضت لالتهامها آنئذ أزيلت. طبعًا. أكوام من النفايات والقمامة العفنة ـ الأجساد التى نقرتها الطيور وقضمتها ـ ذهبت جميعًا. لكن تبدو تلك الوحوش البشعة وكأنها تلهو صابرة وهى تنتظر المرة القادمة. لملمت أحزانى من مركز المحفوظات. كنت قد تركت جزءًا من أمتعتى. جعلتنى قبعة العلف أبدو كرجل هرم. كأحد هؤلاء الرجال المتطوعين فى الدفاع المحلى عن البلاد، الجنود اللاهون. كان السروال واسعًا، والسترة أكبر قليلاً من مقاسى. تركتهما هنا قبل سنوات، كما ترى، عندما كان جسدى أكثر امتلاء.

كنت فى الميدان عندما رأيته سائرًا. جونى بيربوينت، وسبايكى أغبى أصدقائه. لم أكن لأصدق أنه هو. مستهتر إلى أقصى حد. متسكع. يخطو بخفة. ومع ذلك استوقفنى. وضع يده على ذراعى. وشدنى للخلف. وكنت واثقًا، بأنه سعد لرؤيتى.

"حسنًا، حسنًا، حسنا يا صاح. ألا زلت هنا؟ كنت أظن بأنهم وضعوك على سفينة من قبل. ماذا كنت تفعل؟"

لا شيء. كان عليَّ أن أخبره بأننى فى طريقى إلى بومباى.

"إذن، ماذا تفعل فى كلكوتا؟" قال. ثم قاطع إجابتى بقوله. **"لا تقل لى. بأنك استمعت أخيرا إلى نصيحتى. إيه، يا صاح؟ تعال لتحصل على فتاة هنا، لترى إذا كنت ستتعلم بعض الأشياء لتريها لزوجتك قبل أن تعود للمنزل؟"**

أخرستنى المفاجأة. الوغد كان ينبغى أن يكون محبوسًا فى مكان ما لا أن يقف فى هذه المدينة لاهبة الحرارة يسبنى بقوله **"يمكننى أن أوصى بعضاً منهن. ليس فى شارع المدرسة الحرة، مع ذلك. دعنى أعطيك عنوانًا. سيرون أنك على ما يرام. إنهن جميعًا نظيفات للغاية. يافعات. جميلات. كما تعلم".**

"كلا، شكراً لك،" قلت.

"يا صاح، اصنع معروفًا فى نفسك. صدقنى الرجال المهذبون فى حاجة حقاً إلى نزهة. إن المرء ليذبل ويضعف هنا."

الرجل السوقى البذىء! كان يجب أن يوضع فى السجن وقد قلت له ذلك.

"سجن! لمَ؟ عم تتحدث"؟ قال.

"من أجل كل ما تفعله."

"ماذا؟ لقضاء وقت طيب مع امرأة؟"

"يا إلهى، يا رجل، ألا تستطيع التفكير فى شىء آخر؟"

"بلى بإمكانى، ولكنى لا أرغب فى ذلك." ثم شرع فى الضحك. يغمز بعينه، يطرف بسرعة كمصباح معيب. وضع ورقة فى يدى. وعندما لم آخذها دفسها فى جيبى. ربت عليها مرتين، قال، **"ثق بى، ولن تندم. اسأل صديقك، ماكسى."**

"وما شأن ماكسى فى هذا؟"

"لم يندم. وجاء بضع مرات ليحصل على المزيد."

"هراء!" قلت له.

"لا تصدقنى، اسأله."

"ماكسى مات." قلت. نزل عليه الخبر كالضربة على وجهه المختال.

"مات!"

"مات فى حريق شب فى الباشا. هو وسبعة آخرون."

"يا إلهى، حادث سيئ. مات. كيف حدث ذلك؟"

كان خطأك." قلت.

نظر إلىَّ، كعامل هندى غبى. فاغرًا فاه. وعيناه جاحظة. من سيطرف بعينه أولا، أنا أم هو. **"هيا، ماذا؟"** قال أخيرًا.

"كان خطأك. الحريق. النار التى حرقتهم كانت بسببك."

"لم أكن على معرفة جيدة به. لم أره منذ أن قابلته فى كلكوتا." عقف حاجبيه الداكنين على شكل ٧ عابسة. شعرت بالأسف لأجله. سيعانى الكثير وسيتحمل الكثير ـ وفاة ثمانية رجال فى عنقه. ثم ظهر على شفتيه شبح ابتسامة. سرعان ما كشفت عن سنتين

أماميتين، مصبوغتين بآثار النيكوتين وتبدوان وكأنهما من الخشب. **"لم أقترب بأى حال من وحدتكما العسكرية منذ زمن بعيد. ما الذى ستقوله الآن يا صاح؟"**

"كانوا يريدون إسقاط التهمة عنك. عقدوا مجلساً فى الباشا. واحترقت وهم بالداخل."

"أى تهمة؟"

"هذا الأمر."

"أى أمر؟"

"عصيان الأوامر."

"آووه، لهذا. ألم تسمعوا بذلك. لقد أسقطوا عنى جميع التهم بعد بضعة أيام. ونقلونى إلى وحدة أخرى. لم يكن قائد الوحدة ليزعج نفسه بذلك. قال بأن الحرب انتهت منذ زمن طويل. أنا وجوردى. كان من المفترض أن نكون جميعاً فى الوطن على كل حال. قال. سجلى فى الخدمة العسكرية كان حسناً. لم يفعل شيئاً سوى أن حذرنا تحذيراً طفيفاً هيناً. الانضباط. وما شابه. ووعدته بأن أغدو فتى مؤدباً من الآن فصاعداً ونسى الأمر برمته." أخبرنى بقصته كما لو كنت سأسعد لما حدث له. كان الرجل أحمق. **"ولكن ما جرى لماكسى كان شنيعاً بشعاً."**

"كان رجلاً مهذباً."

"بلى، لكن كان يعرف كيف يسعد نفسه يمتع نفسه." عاودت نظراته الشهوانية. كما هو شأنه دائماً، تسيطر عليه غرائز عضوه الذكرى.

"آوه، بحق الرب! الا تتحلى بأى خلق؟ مات الرجال، محاولين إنقاذ رأسك."

"انظر، يا صاح، لقد كانوا زملاء وحدتك، أعلم ذلك. أنت غاضب ومستاء. ومن لا ينتابه مثل هذا الشعور؟ لكن لا شأن لى إطلاقاً بهذا الأمر."

"لا شأن لك بهذا الأمر؟ بل كنت أنت محور الموضوع ومن هم على شاكلتك."

حملق فىَّ هنيهة. لا يدرى بم يجيب. نظر فوق كتفى. عض شفته. ثم أسفل نحو قدمه. ثم عاد بناظريه إلى وجهى، **"عليك اللعنة يا صاح."** ولَّى ظهره لى. ومشى خطوتين مبتعداً. ثم توقف، واستدار على كعبه ليواجهنى مرة أخرى. **"هيا لنولى الموضوع بعض التفكير. هيا لندرس الأمر. ألم تقل لى العصفورة شيئاً عنك. ألم تكن فى ورطة؟ ألم يزج بك فى السجن؟"**

لم أشعر بالرغبة فى إجابته. اتخذت مسلك جندى فى الساحة. رفعت رأسى ونفخت صدرى.

"كنت فى السجن، أليس كذلك؟ ولمَ كان ذلك؟ لأنك نذل بائس؟ لأنك كنت العامل الأكثر تفاهة للفائدة فى وحدتنا"

أمسكت عنقه. وطوقت بكلتا يدى تفاحة آدم البارزة فيها. شعرت بأظافرى تغرز فيها. ولكنه دفعنى جانبًا ـ رجل يصغرنى سنًا، كما ترى. وشرع فى السير بعيدًا عنى. وطاردته. وجريت وراءه. ولم أكن قد سددت لكمة لأحد فى حياتى من قبل ولكن، بمشيئة الرب، كنت مستعدًا لأجرب حظى. تفادانى وأنا أهم بضربه رافعًا يدى فى الهواء. فقدت توازنى. فضحك الأحمق ساخرًا منى. فدنوت منه.

رفع ذراعًا واحدة طائشة نحيلة وسددها علىَّ ضاربًا جبهتى. ذراعًا طويلة بطول ذراع قرد ـ ولم تفلح لكماتى فى أن تصل إليه. جعلنى أصارع جاهدًا، بلا جدوى، كالمغفل يتصارع مع فتوة. أسدد الضربات فى الهواء الذى يفصلنا. بدا المارة مستمتعين بهذا المنظر. ظنوا أن هذين الجنديين يحتفلان احتفالاً كبيرًا ويلهوان. لكنه كان من البراعة بحيث لم أقدر أن أمسك به. لم أستطع السيطرة على هذا الوحش. اندفعت نحوه عندما كف عن المراوغة. ولكنه أمسك بى ولف ذراعى خلف ظهرى. ظننت أنه سيقتلعه من كتفى. دنا فمه من أذنى وبصق كلماته: **"يا إلهى، يا صاح، أنت شخص غبى تتظاهر بالجدية، أتعلم ذلك؟ الجميع يردد ذلك. كان ماكسى الوحيد الذى استطاع أن يتحملك. اذهب ومتع نفسك كما ينبغى، يا صاح، أر زوجتك المسكينة أنك فعلت شيئًا نافعًا عندما كنت هنا."**

كانت بالكاد تتحدث الإنجليزية كانت تتحدث الإنجليزية بصعوبة بالغة. فقط بعض الكلمات التى تعلمتها من كثرة ترددها على ألسنة الرجال الآخرين الذين يترددون عليها.

"يا تومى، هل أعجبك أنا، فتاة لطيفة نظيفة."

أمرتها بأن تخرس.

استلقت على ظهرها على الفراش. مستندة على كوعيها. تفحصتنى بينما أحل أزرار سروالى. **"اديرى راسك،"** قلت لها مرتين. لم تفعل الفتاة الغبية شيئًا سوى النظر إلىَّ مبتسمة. يبدو جليًا إنها لم تسمع قط تلك الكلمات تخرج من فم جنود بريطانيين من قبل. استمرت فى النظر إلىَّ. أطرفت بجفنيها كالنائمة. وليت ظهرى لها.

"أى الأوضاع تشتهى؟" سألتنى.

"**وضعية الكلب.**" قلت لها وأنا أنظر إليها من فوق كتفى.

أتت من خلفى، وشرعت فى الربت بيدها على ظهرى. لم يكن لديها أى فكرة عما أعنى. "**وضعية الكلب**،" قلت مجدداً. بيدها مست صدرى برفق. أخذت أرقب أناملها السمراء الصغيرة تضغط على حلمتى. فألقيت بها بعيداً وأنا أستدير. "**وضعية الكلاب. استلقى على يديك وركبتيك.**"

قطبت حاجبيها.

"**على هذا النحو**،" أريتها الوضع تماماً كما فعل سبايكى أمامى. فى النهاية اعتلت الفراش على أربع. ووجنتا مؤخرتها تتقوسان بشدة. ملساء كالرخام. نهداها يتدليان كأضراع بقرة. نظرت بفضول خلفها لترى ما إن كانت اتخذت الوضع الصحيح. انتصب قضيبى بقوة. واستلقيت على الفراش من ورائها. وعلى ركبتى، أمسكت بها من حيث استطعت. ودفعتها نحوى. صاحت بصوت عال "**شى تومى. شى** "**اخرسى**،" قلت لها. ثم أخذت تتلوى على كل جانب كراقصة فى سوق. "**لا تتحركى**،" قلت صارخاً.

أخذت تتأوه لاهثة: "آه آه." وتتثنى وتلتوى على النحو الذى يستمتع به مريدوها من الجنود فى العادة.

لم يعجبنى، جذبت خصلات شعرها. وقبضت عليه بإحكام فى يدى لأمنع الغانية عن التلوى وأنا أقذف متعتى نحوها. ممتطياً إياها بقوة ـ كما ذكروا لى.

لم يستغرق الأمر كثيراً. صرخت (أعترف) كان التدفق مبعثاً لارتياح عارم، كان كما لو كنت غمرت نفسى فى الماء البارد. اتكأت

رأسى للوراء. أغمضت عينى، وأنا ألهث. مرت لحظات من السلام والسكينة قبل أن أتبين أننى مازلت ألف شعر الفتاة بإحكام حول قبضتى. ورأسها ملتو إلى الوراء. يكشف عن أسنانها فى فمها الفاغر المتجهم. سرعان ما أطلقتها فاندفعت سريعًا مبتعدة عنى. نهضت من الفراش. وثبت مبتعدة عن متناول يدى. وهنا فقط أدركت بأنها لا تعدو أن تكون صبية صغيرة. بالتأكيد لا تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها. كلا أصغر. فى الرابعة أو حتى الثالثة عشرة. فتاة صغيرة. لم ألاحظ ذلك من قبل. حتى تأملت حجرة الغانية. الأضواء الملونة، حليات رخيصة معلقة على الحوائط، رائحة الياسمين القوية. والهمس اللاهث "**أهلاً، يا تومى.**" رداؤها الضئيل، نهداها المكشوفان، وظهرها العارى. واحتياجى المثير للشفقة لكل هذا. لكن الخوف الجاثم الآن فى عينيها السوداوين ـ البريئتين كعيون الأطفال ـ كانتا تتهمانى بالانحراف. ما الذى أفعله؟

ما عساها كوينى أن تظن بزوجها الآن؟ سروالى حول كاحلى فى بيت للبغاء، أدنس ابنة أحدهم. كانت لتقول "**هل هذا ما فعلته الحرب بك؟**". لم تصنع منك هذه الحرب بطلاً. بل لقد دُمرت، وهزمتك هذه الحرب.

"**أنا شديد الأسف**" قلت للفتاة. لم تفهم ما أقوله. وضعت يدى عليها. "**أنا فى غاية الأسف**" لكنها انكمشت خوفًا ورعبًا. حاولت تغطية جسدها بقدر ما أمكنها ـ بذراعيها، ويديها. "**لم أفعل مثل تلك الأشياء من قبل. لا أدرى ماذا اعترانى.**" كانت تتحسس رداءها، وكان من الواضح أنها من شدة رعبها منى لا تحول عنى ناظريها. "**أرجوك سامحينى.**" وعند تحركى مرة أخرى، حركة بسيطة من ركبتى للجلوس على الفراش، راحت تلتقط أنفاسها فزعًا. "**لن**

المسك،" أخبرتها. ألقت نفسها على الأرض منكمشة مثل حيوان ملتف حول نفسه. "**أنا إنجليزى،**" قلت لها شارحًا. "**فى القوات الجوية الملكية. أعمل موظفًا فى مصرف فى بلدى. إنها وظيفة أتولى فيها مسؤولية عظيمة. أنا رجل متزوج، كما ترين. إنجليزى ... إنجليزى**" لكننى شعرت بأنى وحش كاسر. حينئذ، لا أدرى من أين جاء ذلك، غرقت فى نشيج عارم كما لو كان هناك طفل صغير يقبع داخلى. أخذت أشهق. منفرج الفم ـ ووقفة طويلة بلا تنفس جعلتنى أعوى من العذاب. نوبة من التقلصات والتشنجات هزتنى واعترتنى. ارتعشت يداى. غطيت وجهى. أحاول أن ألتقط أنفاسى. الذى جاء فى صورة دفعات قصيرة من نشيج مثيرٍ للرثاء.

جاءت ووقفت أمامى. ولان وجهها حتى عاد لعذوبة الفتيات اليانعات، تساءلت ما إن كانت قد رأت جنديًا إنجليزيًا يبكى من قبل. رفعت يدها لتلمس وجنتى. لتمسح دمعة فرت من عينى. آلمنى حنو لمستها. صدمنى كصاعقة. "**أنا فى غاية الأسف،**" عاودت إخبارها، بينما أنفاسى تخرج فى لهاث سريع متقطع. مسحت وجهى قدر استطاعتى. ربتتْ على ذراعى. كانت يداها صغيرتين فى حجم قدم قرد. ثم قالت "**جونى، جونى لا تبك يا جونى.**"

لمس الاسم أوتار قلبى. لم يدر فى خلدى أنها تنطق اسم جونى بيربوينت الذى ربما زارها فى وقت سابق. كانت الطريقة التى تلفظت بها الاسم. مما أثار حنقى. مثلما كان اليابانيون ينادونى أنا وماكسى: "**جونى، ساعدنى، يا جونى.**" سرعان ما استعدت رباطة جأشى. "**لا تنادينى بهذا الاسم، لا أُدْعَى جونى.**" أخبرتها، مما جعلها تخطو بذكاء إلى الوراء مبتعدة عنى مرة أخرى.

لم أبال، ألقيت بالنقود على الغانية البائسة، ثم غادرت الغرفة.

الفصل الخامس والأربعون

برنارد

ليس هناك الكثير لنفعله فى رحلة عودتنا البحرية للديار. المئات من رجال الخدمة يتجولون بلا هدف على متن السفن. ياله من تغير فى منحنى المغامرة فى هذه الرحلة. تدور السفن الحربية فى حلقات. تدريبات على زوارق النجاة كل يوم. الغواصات الألمانية تراقب. دوريات تتكون من غلامين على متن السفينة يقفان اثنين اثنين يحملقان فى البحر ويراقبانه فى حال حدوث أى شىء غريب. ليس هناك أدنى فكرة عما نبحث عنه، فلم يكن أغلبنا على دراية سوى بالبرك التى نركب فيها القوارب. والآن، ونحن عائدون، لم أكن وحدى من يتطلع نحو الأفق بنظرة حالمة من عينين بليدتين عندما نفكر فى الديار.

هل يمكن أن أعود للبنك بعد ما مررت به من تجارب فى الحرب؟ يالها من سخافة، أنا أعلم ذلك، ولكننى كنت أفكر فى قاذفة القنابل ولنجتون. ستة وثلاثون ألفًا وخمسمائة رطل من

المعدن والزجاج والنسيج. لها أجنحة بامتداد ست وثمانين قدمًا. ويبلغ طولها من مقدمتها إلى ذيلها أربعًا وستين قدمًا. محركان وغرفة تتسع لستة من الطاقم على متنها. براغى تضاهى فى الحجم قبضة يدى فى بعض الأجزاء. مراوح أبدو بجانبها كالقزم. عجلات تفوق الذراع عرضًا. وعندما تطير، تدور مراوحها الضخمة بسرعة كبيرة حتى إنه لا يمكن أن ترى بعد ذلك من السرعة أثناء دورانها. بإمكانها أن تسير زاحفة على الأرض حتى ترتفع الستة والثلاثون ألفًا والخمسمائة رطل من المعدن والزجاج والنسيج كطائرة فى الهواء بخفة كالمنديل.

ما الذى يضاهى هذا المشهد جمالاً لدى الآن؟ دراجتى القديمة ذات السلسلة المعطلة التى كنت أدأب على تصليحها والتذمر عليها فى فناء المنزل الخلفى؟ أم الحافلة؟ ذلك الشىء ضئيل الحجم. أم مترو الأنفاق؟ بإمكانك أن تستقل المترو بقفزة واحدة صغيرة بقدم واحدة. فلست بحاجة أن تتسلق سبع عشرة قدمًا للأعلى ورأسك تدور أثناء ذلك لتصل إليها. أم سيارة؟ أو شاحنة؟ والآن كل هذه الأشياء جميعها تبدو كالألعاب المعدنية بجانب تلك الطائرة.

قضيت ليلتى نائمًا فى قارب النجاة تحت النجوم. ليس فى الفراش الشبكى أسفل السفينة تحت مستوى البحر مع المئات من الآخرين. يتزاحمون ويتدافعون من أجل إفساح مساحة أكبر لأنفسهم. مشاجرات ومشادات كلامية. لغة مثيرة للاشمئزاز. حديث لا ينتهى عن أساليب ـ جونى بيريبوينت ـ فى مضاجعة النساء: ما الذى بمقدورهم فعله معهن وما الذى سيفعلونه لهن ساعة أن تطأ أقدامهم أرض الوطن.

أعطيت سجائرى لجندى محنك يعمل على تنظيف السفينة، فى مقابل إيقاظى عند عودته بالطرق على قارب النجاة قبل أن تُمسَح الأرضيات، محذرًا إياى قبل أن يقبض علىَّ أحدهم أو أُجرف من على سطح السفينة إثر التنظيف. صديقى سوارثى. إنه قادم من الأرجنتين.لا يتكلم الإنجليزية. وكنا نتحاور بالكامل ونتفاعل معًا بالإيماءات والحركات الجسدية. تمامًا على هذه السفينة منذ أعوام مضت، بعد مضى يومين لى فقط على متنها، أصيب الجميع بدوار البحر. حالة غثيان بائسة. رأسى كالإسفنجة. ومعدتى ساقطة فى حذائى. نكهة حادة دائمة وسخيفة من الملح على شفتى. ولا أجد مكانًا أصلح فيه من مظهرى. مصاب بالدوار. أصلى من أجل لحظة واحدة فى ثبات. من أجل دقيقة أقف فيها ثابتًا بلا اهتزاز. ولكن لا شىء يظل ساكنًا. حتى الطعام فى معدتى. كان ذلك الجندى المحنك يسخر منى. وكان يصفعنى على قفاى ويستعين بالأوشام على جسده لإهانتى. فقد كان يشير إلى وشم على ذراعه اليسرى ـ كان رسما رديئًا لطائر من نوع ما. ففهمت مغزى ما يريد أن يقول لى. أنا لا أستطيع لومه؛ إذ كنت فى مشهد مثير للشفقة حيث أتقيأ طوال النهارعلى حاجز السفينة كنت.

لم ألقِ لها بالاً فى أول الأمر. فقد كنت مشغولاً بحالة الغثيان التى انتابتنى عن أن أقلق لأى شىء آخر. إنها لسعة، ربما، من ناموسة متوحشة. استطعت الشعور بها تحت أصابعى عندما أتبول. إنها مجرد نتوء صغير. ولكن فى اليوم التالى كبر حجمها بشكل ملحوظ. استعرت مصباحًا يدويًا من أحد الفتيان. حيث كنت بحاجة لنظرة فاحصة واضحة. ولكنى لم أحصل من ذلك المصباح عديم الفائدة إلا على ومضات تضىء ثم تنطفئ. وتحت إضاءة

الستروبوسكوب(*) هذا وفى عتمة الظلمة فى قارب النجاة بدت هذه الكتلة أصغر قليلاً من عملة النصف سنت.

أقنعتُ نفسى بأن ضوء المصباح المتقطع هو ما أعطى لها هذه الأبعاد. وفى ضوء النهار، بعدما أغلقت على نفسى باب الحمام، وجدت أن هذه القرحة الهائلة التى تنبض بالألم قد كونت رأسًا من الصديد. وشعرت بها بارزة كحبة من العنب فى بنطالى بينما كنت أجلس أمام وجبة أخرى من السجق والبطاطس. كانت محاطة بدائرة زرقاء واضحة وكأنها رسمت بقلم رصاص. تقيأت مرتين. المرة الأولى عندما رأيت الصديد يسيل من هذه القرحة ويمتد إلى شعر عانتى. والمرة الثانية عندما غطيت هذه القرحة بضمادة. فقد كانت لزجة ومثيرة للحكة بشكل يفوق الاحتمال داخل هذه الضمادة. وكانت بلا نفع - سرعان ما نضحت الضمادة ببقع من القذارة الصفراء والبنية. وفى نهاية المطاف عندما كشفت الغطاء عنها، كانت الضمادة ملتصقة وكأنها ورقة على قطعة من حلوى الطوفى. عضضت جلد حزامى لأمنع الصراخ أن يخرج من فمى. لا حل لها. ينبغى علىَّ أن أواجه تلك المشكلة. فقد كنت أعلم ماهية هذا الدمل الغاضب على قضيبى.

حذرنا الطبيب الضابط، نحن مجندى القوات الجوية الملكية عندما كنا على المركب عندما قدمنا إلى الشرق لأول مرة، من القرح، والالتهابات، والإفرازات الملونة، والانتفاخات. وكلها أعراض لأمراض تنتج عن العلاقات الجنسية مع أشخاص من نوع خطأ. وألقى علينا هذا الطبيب محاضرات. ومُرِّرت علينا صور ملونة.

(*) stroboscope جهاز كشف الفتل والاهتزاز (المترجمة).

كانت صورًا فوتوغرافية فظيعة ورهيبة. صادمة للغاية. فقد كانت تعرض أجزاء من الجسم لا يمكن وصفها بأنها بشرية. هذه الصور كان لها من الوقع فى نفوس الشباب بحيث حولت وجوه البعض منهم إلى اللون الرمادى من الأسف. وجعلتهم يشعرون بالقلق. ويتجهمون. ويعيدون حساباتهم. حيث أوقفوا تفاخرهم وتبجحهم بانضمامهم للجيش لوهلة. واحد منهم، على ما أذكر، أغمى عليه ـ وعندما أفاق ألقى باللوم على دوار البحر. "**دائمًا استعملوا هذه**" قال الطبيب الضابط هذه الجملة وهو يسحب ضمادة مطاطية كانت قابعة فى جيب قميصه أعلى صدره. ولوح بها فى الهواء.

عندئذ صاح أحد الشباب مازحاً "**ألا يوجد غير هذه الواحدة فقط، سيدى؟**" فاندفع الجميع فى الضحك.

سكتة دماغية، تخلف عقلى، الأمراض العصبية، فقدان البصر. وبالطبع، الموت فى آخر الأمر. مرض الزهرى!

كان هو النتيجة الحتمية لعلاقاتى الجنسية مع أشخاص من نوع خطأ. فتاة صغيرة ذات عينين سوداوين بريئتين كعيون الأطفال. عاهرة لعينة فى كلكوتا ـ مازالت تترك آثارها متشبثة فىَّ. مرض الزهرى! فى النهار، كان شعورى بوجود هذه القرحة وكأن هناك نبضًا يعدو بسرعة الخيل فيها. وفى المساء كان كلانا ينتحب. الزهرى! لم يكن بمقدورى تخيل ما قد تقوله كوينى عن ذلك. وكنت أحاول تخيل واستحضار لومها وعتابها لى. تخيلت إصبعًا موبخًا، أو لساناً مستهجنًا، أو ربما، ظهرًا مدارًا فى وجهى. وكل ذلك يفقد جدواه فى مقابل عار زوج كثرت فيه الثقوب من شدة الصفعات.

نظرت للأسفل متشبثًا بجدار السفينة ناحية البحر. ما هى إلا خطوة واحدة. خطوة كبيرة. لأقفز من على الجدار بعيدًا عن جسد

السفينة الجانبى. قد تمر أيام قبل أن يلاحظ أحد اختفائى. فلن يرى أحد جسدى الهزيل ينساق تحت أثر الرغاوى التى تكونها السفينة خلفها. وإن حدث أن لاحظونى فسوف يطرفون عيونهم مرتين، معتقدين أنهم انخدعوا بالنور الذى ينعكس على مياه المحيط. كان ذلك هو الشىء الوحيد المشرف الذى يمكن لرجل فى مكانى أن يفعله. سيكون عليهم أن يعلنوا فقدانى. وكوينى، ستفعل كما فعل أبناء ماكسى الاثنان، ستتذكرنى كما كنت. موظف بنك فى منتصف العمر كان يظن أن حياته استقرت على هذا النحو. رجلٌ بدأ يصفر لحظة أن صار فردًا فى فريق. طيارٌ فى القوات الجوية الملكية يقاتل فى حرب عادلة مبررة. رجلٌ إنجليزى فخور ببلده، سواء كان أمر الحرب على صواب أم على خطأ. فى الوقت الذى جلست فيه هنالك على جدار السفينة كان القمر ساطعًا فى السماء أشد سطوعًا من قمر فى سماء إنجليزية فى شهر فبراير. وأنا وطوال الليل كنت فى انتظار شجاعة لتغزونى أو يأس ليغمرنى. فأدفع بنفسى إلى البحر. ولكنى لم أستحضر أيًا منهما.

هل سيتوجب على الجيش أن يعيدنى إلى المنزل بشاحنة؟ ياله من مشهد سيكون فى الشارع (سيحدق جميع من فيه). طرد يتم تسليمه للمنزل رقم واحد وعشرين. هل سيقودنى رجلان فى مشية عسكرية وهما يخطوان تلك الخطوات نحو المنزل ثم يقرعان الباب؟ ستحل كوينى مريلتها، هل ستتبسم فرحًا بعودة بطلها؟ هل سيخبرونها أن مرض الزهرى جعلنى أفقد عقلى؟ والآن هل سألتقى أبى الذى ستكون أمنيته أن يعثر أى شخص على عقلى ويحضره إلى المنزل من أجلى؟ وهل سيكون عليهم إعطائى دفعة صغيرة لأدخل المنزل؟

١٩٤٨

الفصل السادس والأربعون

برنارد

توقعت أن تُصْدَم كوينى. لم يكن فى مقدورى لومها على ذلك. فزوجها قد عاد من بين الأموات. ولكننى لم أتنبأ بذلك "الفزع" الذى استمر وقتًا طويلاً حول زوايا فمها. جلست هناك وهى تقبض بشدة على معدتها. فاقدة القدرة على النطق. شاحبة. مرتجفة. وقد احمرت حافتا عينيها. لقد بدت متقدمة فى السن. مثقلة بالهموم. اكتسبت بعض الوزن. كنت قد شاهدتها وهى تذوى وتذبل فى الفترة التى عاصرت أول الحرب. يومًا بعد يوم. لم أكن الزوج الوحيد الذى فقد قدرته الجنسية إزاء هذا الوضع. مما كان له الأثر الواضح فى زيادة شحوم جسمها.

سألتها: **"كيف حال أبى؟"**

فانطلقت فجأة فى البكاء. وأخذت تنتحب وهى تضع يديها على وجهها. فمددت ذراعى لأحتوى رأسها بمودة وحب. ولكنها بارحت مكانها. ثم مسحت أنفها بكمها، لم تكن لتعلم أبدًا أننى كنت أحاول

تهدئتها وإراحتها. كنت معتقداً أنه سؤال برىء. ولكن ما كان منها إلا أن أخذت تمشى عبر الغرفة مهتاجة كالمجنونة.

"آوه، برنارد. لقد كتبت لك ..."

ضلَّت الرسائل طريقها. تقدم العديد من الشباب بشكاوى رسمية. كنا نتنقل بكثرة، كما تعلم. كان من الممكن أن يستغرق الأمر شهوراً، فى الهند، لكى تتمكن الرسالة من أن تلتحق بوحدة الإنقاذ والدعم التى كنا فيها. بعض الرسائل لم تتمكن من الوصول. وكانت حالات من سوء الفهم بسبب الرسائل المجهولة عبر البريد. سؤال ساذج (أعلم ذلك)، ولايستحق الطرح بالمرة، ولكنى سألتها: **"هل حدث له أى مكروه؟"**

"برنارد، لقد تغيبت لفترة طويلة ..."

من له القدرة أن يشك فى أنى أدين لكوينى بتفسير لما حدث؟ إلا أن الوضع كوصف الثلج لساكن الصحراء. أو كوصف اللون الأزرق لرجل كفيف. من المستحيل تقريباً أن تُجمل الكلمات. من أين البداية؟ لقد مضى من الزمن ما يزيد عن عامين منذ أن عادت سفينتى ورست فى ساوثامبتون. مضى وقت طويل، أعترف بذلك، لأنتقل من هناك إلى هنا. فبعد تسريحى من الجيش، توجهت فى طريقى إلى برايتون. ووجدت مأوى فى فندق صغير مطل على البحر. مجرد غرفة. كانت مالكة الفندق تسمى مدام جوى بليس. سيدة بائسة. ولكنها حريصة. أو كانت، على الأقل، من الفظاظة بأن تطرح الكثير من الأسئلة. كنت أذهب وأعود متى أشاء فحسب.

انكمشت إنجلترا. صارت مكاناً أصغر من ذلك الذى غادرته. الشوارع، والمحلات، والخيول تتدافع للأمام تماماً مثل الحشود، كان

الجميع يختنق، حتى ذلك الضوء الخافت الذى يتخللهم. كان علىَّ أن أحدق كثيرًا باتجاه البحر فقط لكى أستطيع أن ألتقط أنفاسى. وخلف كل وجه أراه ترقد ذكريات الحرب حبيسة. محروسة بابتسامة. ومكفنة فى تقطيبة جبين. ولكن كانت لكل واحد ذكرياته. نزاعات خاصة. الخوف أينما يلمسك أحد. لا فائدة من أن تعيش على ذكرى قصتك المثيرة للشفقة التى عشتها أثناء الحرب. فالشاب الذى بالجوار قصته أسوأ. والرجل الجالس هناك قصته أكثر مأساوية. الصمت هو البلسم الوحيد الذى يمكن به مداواة الجروح.

لم تراودنى الشكوك مطلقًا فى أننى كنت أفعل الصواب. حتى فى الأيام التى كان فيها الشوق والحاجة الملحة للعائلة شيئًا أساسيًا تمامًا مثله مثل الحاجة للطعام. الحاجة للرقود مع زوجتى كوينى. وللجلوس مع أبى. للنظر للأشياء الحميمة التى ترقد فى ذاكرتى. لم تكن لدى أية فكرة كم سيطول بى الوقت وذلك المرض البغيض يلاحقنى. لم أفكر أبدًا فى اللجوء إلى الأطباء أو الأدوية. كنت أرى أن ذلك من العار والخزى. وكان همى الوحيد هو أننى قد أفقد عقلى وأجن. فهل يمكن أن يصيبنى طفح جلدى ما دون أن يمس سلامة عقلى؟

لكنى وأنا فى انتظار الموت شعرت بأننى فى صحة جيدة. وعثرت على وظيفة، تنظيف الطاولات فى مقهى. وببقائى مطأطئ الرأس، وجدت وظيفة لأشغرها، واستطعت الاستمرار بها. صاحب المقهى، كان شخصًا بطىء الفهم، وكان بحاجة لمن يساعده فى إدارة حساباته. توردت خدوده ابتهاجًا عندما اكتشف أن نادله عديم الجدوى صار ذا منفعة له. قمت بمساعدته. وأخبر هو جميع

أصحابه بذلك. وسرعان ما راح يطلب البعض منهم الاستعانة بخدماتى. وصارت لى أعمال صغيرة نسبيًا. كانت جميعها ودية جدًا وغير رسمية ولكنها منتظمة. توقفت عن عملى بالمقهى كنادل. فقد وفر لى عملى فى إدارة الحسابات والقيد المزدوج ما يكفى لأجرة المأكل والمسكن.

وبالطبع، عثرت على منزل ماكسى. فى أعلى المدينة قرب محطة القطار. منزل متواضع. مطلى بالأزرق الفاتح، نافذته الأمامية المقوسة مغطاة بستائر صفراء سميكة. كثيرًا ما كنت أمر فى شارعه، تركت آثار أقدامى على الرصيف الذى من المؤكد أن قدمَىّ ماكسى كانتا تمشيان عليه لأداء أشغاله، وهو متعجل للذهاب إلى العمل. وربما يعرج على الحانة لاحتساء كوب أو كوبين من الجعة. أو يلعب كرة القدم فى المتنزه. أو الكريكيت. أو حتى قد يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد مع أسرته.

على مقربة كانت توجد مدافن. جلست على مقعد هناك. ورأيت ولديه الاثنين يخرجان من المنزل. كانت زوجته تربط على رأسها وشاحًا بسبب الرياح، وكانت تنادى على الصبيين أن ينتظراها. إلا أن الولدين المشاغبين كانا يجريان فى عرض الشارع. ويتسلقان الجدران ليمشيا على حرفها وهما يحفظان توازنهما على امتدادها. وبينما كان الولد الأصغر يمر بجانبى سقطت منه سيارته اللعبة. فالتقطتها من على الأرض لأعطيها له. وأنا أبتسم له ابتسامة خفيفة. حدّق إلى الغلام الصغير. نسخة من أبيه. وريث طبيعى له. التقط السيارة من يدى وجرى. لم ير ماكسى ابنه الصغير أبدًا. شعرت وكأننى لص، يسرق مشهدًا كان من الواجب أن يكون ملكًا له.

وسريعًا ما اعتادوا رؤيتى جالسًا فى المدافن. كانت زوجته تطأطئ رأسها تحية لى. وكانت فى بعض الأيام ترفع عينيها البنيتين فىّ وتقول: "**يوم جميل.**" امرأة جذابة، كان شعرها الأسود مخبأ تحت الوشاح على الدوام.

كان شعرها قصيرًا، لم يكن أطول كثيرًا من شعر الصبيين. كان كلامى معها يقتصر على التحية المهذبة. أعرف أنها سذاجة منى، ولكنى كنت حريصًا على ألا تتطور العلاقة للصداقة، كنت فقط أريد مشاهدتهم. فأنا لم أخبرهم أبدًا بأننى كنت أعرف ماكسى. وكنت خائفًا من أنها قد تسألنى ما لا أستطيع الإجابة عنه. ستريد معرفة ما حل بنا هناك فى الشرق. ومع انتهاء الحرب، حتى الحقيقة ستبدو دنيئة. الذكريات الجميلة كانت هى أفضل مستقر ليرقد فيه جورج ماكسيميليان.

كانت مدام بليس هى من استدعت الطبيب. حرارتى مرتفعة للغاية. وكان عرقى يبلل الملاءات وكأنها فوط حمام مستخدمة للتو. كان بمقدورى الشعور بكل عظمة فى جسدى تتألم. حتى أصغر عظمة فىّ. أيّة حركة ـ أن أتقلّب فى السرير، أو حتى أن أغلق جفنى ـ كانت مرهقة بشكل لا يعقل. أخبرت مدام بليس بأن لا تهتم ولكنها ضربت بكلامى عرض الحائط قائلة: "**هراء.**" لم أستطع لومها. فلابد أن منظرى كان مثيرًا للشفقة.

قال الدكتور بعدما فحصنى، إننى أعانى الإنفلونزا. فسحبته إلى جانبى. بعيدًا عن سمع مدام بليس الحاد. وهمست فى أذنيه: "**أخشى أنه أكثر بكثير من مجرد الإنفلونزا،**" دفع تصرفى هذا مدام بليس إلى مغادرة الغرفة وذلك قبل أن أخبره: "**إنه مرض الزهرى.**"

فقال مكررًا وهو منزعج : "مرض الزهرى؟"

"اصبت به فى الهند." كان يريد معرفة ما الذى جعلنى أظن أنه مرض الزهرى. فقصصت عليه ما فعلته من حماقات وقصة ذلك الدمل المقرف.

سألنى: " كم من الوقت استمرت هذه السخونة؟"

"اسبوعاً، ربما اثنين."

لاحظت عليه نفورًا واضحًا وهو يقول: "وبعد؟"

فلم أفهم بالضبط ما يريد.

"وما هى الأعراض الأخرى؟"

"وهذه، يا دكتور، ... هذه ... الإنفلونزا."

فأجابنى: "حسنًا." وشرع فى كتابة الملاحظات. ثم سألنى بينما كان يبحث عن شىء فى حقيبته: "كم مضى عليك من الوقت منذ عودتك من الهند؟"

فأجبته: "عامان."

فتوقف عن البحث. واستدار ببطء متقدمًا نحوى من جديد. "عامان؟"

"اجل."

"أنت تعنى أنه مضى عليك عامان منذ اكتشافك لهذه الآفة على أعضائك الخاصة؟ عامان مضيا منذ هذه الـ ... حماقة؟"

فترددت فى إجابته للمرة الثانية بأجل. حيث شعرت بأنها قد تكون إجابة خاطئة.

فشرع فى طى كراسته استعداداً للرحيل. وقال باقتضاب: **"إنها إنفلونزا ـ كما قلت، يا سيد بلاى."**

"ولكن ... الهند ..."

"أستطيع القيام بعمل تحليل لك إن كنت تريد ـ أرح رأسك من التفكير. ولكنك ستهدر وقت الجميع. عامان! كان يجب أن تكون مجنوناً أو ميتاً إن كنت مصاباً به منذ ذلك الحين حتى الآن. لا إنها إنفلونزا. هذا كل ما تشتكى منه، يا سيد بلاى. مجرد إنفلونزا حقيرة وفظيعة. ولكنك بحاجة للرعاية. سأتحدث لمالكة الفندق وأنا فى طريقى للخارج."

فقلت له صائحاً: **"هل أنت متأكد؟"**

"إنفلونزا، سيد بلاى. ثق بى. إنفلونزا. وفى يومين اثنين ستكون بصلابة أوتار الكمان."

وفعلاً ذلك ما حدث.

ألم تكن هذه معجزة. أنى لم أصب أبداً بهذا المرض. قد أكون أصبت بالدمل بسبب حشرة هائمة على أية حال. أو قد أكون أصبت بالعدوى من أى شىء. لم يكن هناك ما أفعله حيال هذا الجنون فى الهند. لم يكن هناك أحد لأخبره بخطئى الساذج، بالطبع. سألتنى مدام بليس: **"هل تشعر بأنك أفضل الآن؟"** كان هذا كل ما تستطيع السؤال عنه.

وكان كل ما أستطيع الإجابة به: **"كثيراً"** وهى إجابة مريحة، أنا على دراية بذلك.

عودة من عالم الأموات. ولكن كان علىَّ الاعتراف بأننى أطلق سراح نفسى من موت وشيك الحدوث ـ جعلنى أشعر بأننى عابر

سبيل، ضيف على الحياة. أما الآن فقد استرددت حياتى على نحو غير متوقع. طهرتنى الحرب فعدت كالوليد. كنت على استعداد لأن أبدأ من جديد. على استعداد لأن أعود من جديد إلى الناس. وأدركت فجأة أن إنجلترا التى مزقتها الحرب هى وطنى المرحب به. رب كريم!

انتقلت عائلة ماكسى من المنزل. واختفت الستائر الصفراء. كان المنزل فارغًا. لم يفدنى الجيران بأى معلومة عنهم، وكانوا ينظرون إلىَّ بارتياب. لماذا كنت مهتمًا بمعرفة أين ذهبوا؟ من أكون أنا بالنسبة لهم؟ كان علىَّ أن أمشى مبتعدًا. لم أكد أحزم أمرى فى العودة إلى لندن، إلا وجدت نفسى على متن قطار. كما لو كنت أسير أثناء النوم، وسرعان ما استيقظت عند ناصية شارعنا. من الصعوبة أن أصدق أن ذلك المنزل كان منزلى لأغلب فترات حياتى. لم يكن فيه أى شىء مألوف. هل كان شكله دائمًا منهكًا هكذا؟ فى غاية الهشاشة؟ مبنى متهالك ومستهلك. نوافذ مسوَّسة. وجبس مشروخ. أصبح هناك فجوات ظاهرة وعارية حيث كانت توجد المبانى. قمت بزيارة المكان عدة مرات قليلة أخرى، وأكون فى كل زيارة أقل دهشةً وفزعًا من المكان من الزيارة التى سبقتها.

لقد تمنيت أن يكتشف أحد ما وصولى (أعترف بذلك). فيهرع أبى لتحيتى. وتضحك كوينى بسعادة غامرة. كنت أقترب أكثر فأكثر. ولكنى مازلت أتقدم وأقترب وكأننى غريب.

كان أول ما رأيته هو سيدة سمراء. ياله من مشهد! فى شارعنا! لم أشهد هذا أبدًا من قبل. كنت مصعوقًا عندما رأيت أن المرأة التى كانت بصحبتها هى كوينى. ما الذى كان يحدث؟ كنت واقفاً أمامهما حتى قبل أن أدرك ذلك. ثم عدت إلى دارنا حتى قبل أن أستوعب ما يحدث.

كان علىّ أن أعاود سؤال كوينى: **"هل حدث شىء ما لأبى؟"**

"أين كنت؟ لِمَ لمْ تعد مباشرةً إلى المنزل؟"

كانت عيناها المرعوبتان تطالباننى بإجابةٍ عاجلة.

رددت قائلاً: **"فقدت عقلى لبعض الوقت."**

"ماذا تعنى؟ هل فقدت ذاكرتك؟"

"نعم، شىء من هذا القبيل."

"أين كنت؟"

"فى الساحل الجنوبى."

"فى إنجلترا؟"

"برايتون."

"برايتون!" كانت تصيح وهى تقول هذه الكلمة. "سحقاً. برايتون! ماذا كنت تفعل فى برايتون اللعينة؟"

"لم تخبرينى ما الذى حلّ بأبى. هل حدث له خطب ما؟"

"أريد إجابة فى البداية، يا برنارد. من حقى أن أعرف. فأنا زوجتك. لقد اعتقدت أنك قد لقيت حتفك. لقد مضت أعوام. ثم تظهر هكذا وتقول: "برايتون!" هل كنت تقضى عطلة لعينة مع جردل وجاروف؟ لماذا برايتون؟"

لقد غيرت مكان المنضدة التى فى مدخل البيت. هذه القطعة كانت فى العادة موضوعة فى غرفة فى الطابق العلوى. فقد قامت أمى وسحبتها من مكانها. فقد كانت ترى أنها كبيرة جداً على هذه الغرفة. لم يعد كرسى أبى موضوعًا بجانب المدفأة.

"كوينى، أرجوكِ، أخبرينى إن كان هناك ما يستحق القول."

فجلست من جديد، وهى تلوح بيديها. صوت فرك الجلد الجاف كان كالوخز فى مؤخرة قفاى. **"لقد مات أبوك"**، قالت ذلك بطريقة سريعة إلى حد ما.

لقد كنت أعلم ذلك، بالطبع. بمجرد ما ولجت إلى المنزل. شعرت برحيله عن الحياة.

قلت: "أووه."

"أووه. هل هذا كل ما تستطيع قوله؟ أووه؟"

كان هذا هو ما فعلته بى الحرب. فقد جعلت الموت بالنسبة لى شيئاً معقولاً. ولكنها كانت فى حالة هيستيريّة للغاية.

"ألا تريد أن تعرف كيف مات؟ ألا يوجد لديك أيّة أسئلة؟ هل تعلم أنه أصيب بطلق نارى؟ هنا ـ اخترقت فكه. كان رأسه يشبه اللحم عند الجزار." قد يكون رجلاً متوحشًا قاسى القلب من يطلب منها أن تمسك أعصابها. وأن تعود إلى رشدها. أو حتى أن تخرس لسانها. **"أطلق عليه النار من قبل اليانكيز. ضربه يانكى بالرصاص. ولكن ذهب كل هذا أدراج الرياح. حتى لم يستجوب أى شخص عن سبب ما حدث. لم تكن هناك محاكمة. لا شىء. كان مُخّه مبعثراً على طول الرصيف. ولم يقوموا سوى بتنظيف الرصيف، وأعطونى أجزاء جسده ثم واصلوا حياتهم كأن شيئاً لم يكن."**

كانت العظام فى رقبتها منتصبةً وكأنها سقّالة. كانت تصرخ فى وجهى. سمعت بعدها طرقًا عاليًا على الباب. حتى إننى اعتقدت أن الذى يطرق على الباب سوف يكسره. فذهبت لأفتحه لأجد رجلاً

أسود واقفًا هناك. فنظر إلىَّ مباشرةً، وهو ينادى: "**كوينى، كوينى، هل أنت بخير؟**" ثم نظر إلىَّ ذلك الوضيع الوقح وقال: "**من أنت؟**"

فقلت له بصرامة: "**من أنت؟**" **هو السؤال المناسب لك.**".

فلم يبدِ أيّة استجابة. ثم أخذ ينادى من جديد: "**كوينى**"، وهو يحاول دفعى من طريقه. فسددت الباب. محاولاً إغلاقه. ولكنه أبقاه مفتوحًا.

فقلت: "**من أنت بحق الجحيم؟ هذا بيتى.**"

فرد قائلاً: "**لا تستفزنى، يا رجل، يجب أن أطمئن على كوينى.**"

وسرعان ما أتت كوينى من خلفى. وهى هادئة ثابتة. ثم قالت لهذا الأسود: "**كل شىء على ما يرام، يا جلبرت**"

فسألتها: "**من هذا الرجل؟**"

فردت: "**نزيل عندنا.**"

وبينما كان هذا الأسود يثرثر، قلت: "**هل هو معتاد أن يأتى إلى هنا؟.**"

"**من أنت؟ ما كل هذه الجلبة؟**"

"**هذا زوجى، يا جلبرت. إنه برنارد.**"

أخرسته هذه الإجابة. وجعلت عينيه تبرزان من رأسه كما لو كان دمية سوداء بشعة المنظر. وأخذ ينظر إلىَّ من الأعلى للأسفل. وتأخر خطوات ليحصل على رؤية أوضح، ثم قال: "**حسنًا، حسنًا...**" ثم مدّ ذلك الوضيع الوقح يده إلىَّ ليحيينى.

ما كان منى إلا أن أغلقت الباب اللعين خلفه.

الفصل السابع والأربعون

كوينى

بالطبع كان يجب أن أسأل برنارد إن كان سيظل معنا. ولكنه لا ينبغى عليه أن ينظر إلىَّ بهذه الطريقة. كبالون يفرغ هواءه، ويتدلى ببطء من على الجدار بعد الحفلة. لم أكن ألقى به إلى الخارج. وكيف يتسنى لى ذلك؟ كان هذا بيته. أنا لم أنس ذلك. إن هذا المكان اللعين يتثاءب فى وجهى فى كل صباح.

قلت له: "سأعد لك سريراً فى الغرفة الإضافية... فى غرفة آرثر القديمة."

كل يوم فى الصحف كانت هناك قصص عن عودة أشخاص كانوا فى عداد الأموات. أشخاصٌ أعزاء أقيم عليهم حداد بالفعل ثم عادوا لأعتاب بيوتهم بعد مرور سنين. وصار أغلبهم، عندما جاء الوقت الذى شقّوا فيه طريق العودة للمنزل، غير محبوبين عند أهلهم.

قال: **"إننى كنت آمل أن أنام فى سريرنا."**

فقلت: **"حسنًا."**

فابتسم ساعتها فى وجهى. وأخذ رشفةً أخرى من مشروب الشاى الخاص به. كان الفنجان يرتعش بينما كان يضعه على شفتيه.

قلت: **"سأنام أنا فى غرفة آرثر. ونم أنت على السرير القديم."**

فتعجل فى الكلام قائلا: **"كوينى . . ."**، ولكننى كنت قد خرجت من الباب لأفرش الملاءات لنفسى ولأحضر فوطة له من الدولاب.

سرعان ما التقطتنى مرآة طاولة التزين الخاصة بى. مئات ومئات من كوينى المذعورة. كانت كل منهن جثة خائفة. وتصرخ بأعلى صوتها ولكن بصمت، ما الذى يمكن بحق الجحيم أن يحدث الآن؟ دخل الغرفة خلفى.

فقلت: **"هل هناك شىء ما؟"**

"كنت فقط أتساءل..."

"نعم، عن ماذا... عن ماذا؟ ما الموضوع، يا برنارد؟" كنت أقول ذلك وأنا أحاول ألا يكون صوتى عاليًا.

"...أتساءل إن كنت أستطيع مساعدتك، فى فرش السرير؟"

"لا، لن يستغرق الأمر منى سوى دقيقة. اذهب وأكمل شرب شايك."

وانصرفت الكلاب المنهزمة وبها السرور. ومجددًا التقطتهم عيناى من جديد ـ صور كوينى الكثيرة المذعورة، ويتساءل جميعهن الآن عما إذا كان برنارد يستحق ترحيبًا بالعودة إلى المنزل أحسن

من ذلك. قبلة وحضنًا مثل جابل ولاى فى السينما. فأجبتهن: "أغربن عن وجهى." إنه ليس من شأنهن.

وبصمت ينتابه الارتباك قدمت له الشاى فى كل مرة. وأخذه منى. يا ترى كم من الأكواب احتسينا؟ عشرين، ثلاثين، أو ما يقارب ذلك. حتى نفد الحليب من عندى وصار لدى القليل من السكر. كان دقيقًا جدًا تمامًا كعهده فى السابق قبل أن يغادر. فهو يحمل السكر فى الملعقة ليضعه فى الشاى كما لو كان ذهبًا، ويقلبه بشكل يكفى لأن يحدث حفرة فى قاع فنجان الشاى. وينقر بالملعقة على طرف الفنجان ليسقط القطرات المتبقية فيها كقارع الجرس. وبعد ذلك، وبالطبع، ينفخ فى الشاى قبل أن يشربه. كنت أظن أنه سوف يشربه ساخنًا مثل الرجال بصفته كان ملتحقًا بالقوات الجوية الملكية لفترة طويلة من الزمن. ولكنه كان يشرب الشاى محدثا صوتًا وضجيجًا، يقشعرنى ذلك الصوت كما لو أن شوكة تخدش فى طبق.

كان الشعر المجاور لصدغه على الجوانب رماديًا ويعطى إحساسًا بالنحافة. وبشكل يفوق الخيال، أصبح نحيلاً، لدرجة أن التجويفات فى خده كانت تبرز جمجمة رأسه من تحتها. وكان لا يزال يقوم بتلك الحركة الغريبة بأنفه، فقد كان يلويه مثل الأرنب قبل أن يرفع منديله الأبيض ليمسح فتحتى أنفه الواحدة تلو الأخرى. وتبعثرت فتات بسكويته حول شفتيه كالبودرة لوقت طويل قبل أن يلعقه.

راح يحدق لساعات إلى قصاصات ورق الجرائد التى تحكى عن وفاة آرثر. كان يقرؤها الواحدة تلو الأخرى. ممررًا إصبعه تحت الكلمات. كنت صامتة لا أقول شيئًا وأنا أشاهده. ثم أشار إلى الصورة التى ظهرت فيها مفزوعة ومرتاعة. كنت كامرأة مجنونة فى

احتياج شديد لشخص ما لتخنقه. قلت له: "**كنت حزينة جداً. لقد كان أفظع شيء حدث لى فى حياتى.**"

فرد قائلاً: "**فعلاً.**"

انتظرت. ظننت أنه سيريد أن يطرح علىّ أسئلة. مثل: هل أقيمت له جنازة؟ أين دفن؟ هل قال أى شىء قبل وفاته؟ هل كان سعيدًا؟ هل كان حزينًا؟ ولكن برنارد لم يقل شيئًا. واكتفى بقراءة القصاصات بتمعن وبعرق نابضٍ فى جانبى رقبته كما لو كان يمضغ.

قلت: "**لقد دفن فى مانسفيلد.**"

فلم يرد علىّ واكتفى بطأطأة رأسه.

كان يجب أن يسأل: "**لم مانسفيلد بحق الجحيم. لم لم يدفن فى رويال بوروج فى كينجستون وشيلسا؟**" ولكنه لم يفعل. إنه حتى لم يسأل ماذا كنا نفعل فى مزرعة باكستون.

قلت: "**كنت أحاول البحث عن حجر.**"

فطأطأ رأسه من جديد.

عندئذ فكرت، أنه قد حان الوقت للمزيد من الشاى يا كوينى.

كانت لدى ساعة حائط موضوعة فى غرفة آرثر القديمة. وكانت أول شىء تراه عندما تفتح الباب. وتبدو كأنها شبح فى الظلام. لم أدخل الغرفة منذ وقت طويل. لم أدخلها إلا عندما أشعر بأنه يتوجب علىّ أن أجول سريعًا حولها بمنفضة للتراب فى يوم مشمس. كانت عفنة من الرطوبة والكتمة. فذهبت لأفتح النافذة، ولكن إطارها التوى وأبى أن يتزحزح. وكان ما حدث بعد ذلك بالتأكيد، أننى وجدت برنارد خلفى مرة أخرى. ثم قال: "**دعينى أساعدك فى فتحه، فهو يحتاج لبراعة فى التعامل معه.**"

فقلت له: "**أعلم ذلك.**" وجه إليها ثلاث لكمات ثم سحبها إلى الأسفل. فهب الهواء حول الغرفة، حادًا مثل الليمون. قلت: "**شكراً.**"

سألني: "**هل أنت متأكدة من أنك ستكونين بخير هنا؟**"

"**أوه، نعم. حقًا. خذ أنت السرير الآخر. سأكون بخير حال.**"

بعد ذلك ذهب إلى ساعة الحائط. ثم نظر إلى ساعة يده ثم إلى وجه الساعة.

فقلت: "**لم يتم تعبئتها ... منذ ذلك الوقت**"، قلت ذلك ثم ندمت على ما قلت. غضب مني غضبًا شديدًا، إن لم يفتحها ثم يبدأ بتعبئتها. ثم يتذمر على هذا وذاك. فقلت بسرعة: "**لا حاجة لذلك.**" إلا أن قولي جاء متأخرًا جدًا. تيك ـ توك، تيك ـ توك. اعتقد أنه يصنع بي معروفًا بعدم إخباري.

ثم قال برضا: "**ها هي اشتغلت.**"

كان من الكياسة أن اشكره وحسب.

"**حسناً، إن كان لديك كل ما تحتاجه ولا تريد شيئاً، يا برنارد، فإنني سوف أخلد للنوم.**"

فقال: "**حسنًا، حسنًا، بالطبع.**" ولكنه لم ينصرف أو يتحرك. وظل واقفاً هناك يتفحص الغرفة بقدرٍ من الاستغراب ـ وفمه شاغر ـ وكأنه لم يدخل أبداً هنا من قبل.

فقلت: "**تصبح على خير، إذن.**" وذهبت إلى الباب لأريه الطريق إلى الخارج. فمشى باتجاهي ثم وقف ساكنًا. قبلة عمت مساءً، هذا ما كان يريده وينتظره. قبلة خاطفة كنقرة من منقار دجاجة. ولكن لم يملك أيًا منا الشجاعة لفعل ذلك. فعوضًا عن ذلك قال كلانا: "**نومًا هنيئًا.**"

أغلقت الباب بالمفتاح بعد مغادرته. أدرت المفتاح القديم، الصدئ والمتخشب فى القفل. وحاولت بهدوء ولطف أن أحرك مقبض الباب لأتأكد من أنه يعمل. عندما، بحق الجحيم، بدأت ساعة الحائط هذه اللعينة بالدق والرنين.

وفى الصباح الباكر كان واقفًا هو والسيد تود على عتبة المنزل. كان صوتهما مبهمًا بسبب المسافة التى تفصلنى عنهما ـ فلم أستطع تبين ما كانا يقولان. ولكن المفاجأة والسعادة كانتا ظاهرتين فى صوت السيد تود الذى كان يضحك عاليًا بصوت رفيع كصوت الفتيات. وكانا كل بضع دقائق يقهقهان وكأنهما يتبادلان أفضل ثرثرة والقيل والقال. مر القليل من الوقت الظريف قبل أن يتحول ويصير أكثر هدوءًا. وهما يتهامسان ويخفضان من صوتهما لا يرغبان فى أن يسمعهما أحد. ودامت هذه الهمسات الحذرة لقدر كبير من الوقت.

قام برنارد بتحريك بعض الأشياء من أماكنها فى مدخل البيت. فقد غيَّر مكان تمثال الكلب الصينى من على المنضدة الجانبية إلى رف المدفأة كما كان دائمًا من قبل. وأعاد الكرسى ذا الذراعين بضع خطوات فى مواجهة المدفأة. كان متورد الوجه وهو يدخل من الخارج. كانت أكمام قميصه مثنية للأعلى. والزرار العلوى من قميصه مفتوحًا بدون تكلف. مشى عبر الغرفة بنشاط واضح، وهو يمسح على ذراعيه طلبًا للدفء.

ثم قال: "استغرقت وقتًا لأجد براد الشاى، فلم يكن فى مكانه المعتاد."

فرددت: "**لا.**"

" هل نمت جيداً ؟"

"نعم ، شكراً لك. وأنت؟"

ثم نظر للأعلى ـ كأنما يكلم السقف، **"كان من الجميل جداً أن أعود للنوم في سريري."**

أعدَّ خبزًا محمصًا. فمّر بجانبي مسرعًا ليحضره. لم يفعل أبدًا ذلك من قبل. وأقصد بذلك، مروره مسرعًا. ثم أحضره على طبق فضّي. بعد أن قطعه إلى مثلثات ثم وضعها بترتيب في صف.

"من أين أحضرتِ طبق الخبز المعدني هذا ؟"

"أوه، لقد كان ملكًا لأمي."

"وأين كان؟"

"في مائدة السفرة" لم أقل ذلك ـ**"لا، اللعنة، لم يكن هناك"** ـ ولكني أردت ذلك.

وعلى مائدة الطعام سحب الكرسي لي لأجلس عليه. ثم أدخله بعدما جلست عليه، وسحب منديلاً تحت ذقنه كما لو كنا في أرقى المطاعم. ثم مرر إلىَّ الخبز المحمص. كنت قد قضمت قضمة عندما سألني: **"كم نزيلاً عندنا ؟"**

"عندنا" ـ لقد قال **"عندنا"** أي نحن. وضعت الخبز على الطبق. وأخذت منديلي لأربت ماسحة جوانب فمي. وربما أكون قد أخذت وقتًا طويلاً في ذلك. **"لنَرَ. "لدينا وينستون وجين يسكنان في وسط المنزل، وجلبرت وزوجته في أعلاه."** كان هناك صمت جميل يغلف المكان فشجعني أن أكمل، **"وصلت زوجة جلبرت إلى هنا مؤخراً."** زحفت تقطيبة إلى جبينه تدريجيًا وكأنها رمال متحركة. عندئذ عرفت ماذا سيكون السؤال التالي.

"هل كلهم من الملونين؟"

"لا، جين ليست كذلك. إنها ممرضة."

"ليس هذا ما يقوله السيد تود عنها."

"انا أجرؤ على قول ذلك، إنها ممرضة."

فضرب براحة يده على الطاولة، بطريقة أفزعتنى إلى حد ما، ثم قال: "عاهرة وملونون. بماذا كنت تفكرين يا كوينى؟"

لم أكن أريد أن أصيح به، ليس من جديد. "اسمعنى، يا برنارد، كان يجب ان اجد نزلاء. فلم تكن لدىَ أية فكرة عن مكانك. ولم يكن هناك أحد ليرعانى. ولذلك اضطررت لإحضار الناس إلى هنا."

"ليس لدىّ شك فى ذلك، يا كوينى، ولكن هل كان يجب أن يكونوا ملونين؟ ألم تستطيعى الحصول على نزلاء مهذبين للمنزل؟ اناس محترمين؟"

"إنهم يدفعون الأجرة، وفى موعدها. كان جلبرت فى القوات الجوية الملكية أثناء الحرب."

لم يتأثر بهذه المعلومة.

"أنا آسفة لأن علىً أن أقول لك، يا برنارد، أنّ هذا البيت ليس قصراً. فلقد تبهدل فعلاً أثناء الحرب. ولم يكن فى استطاعتى إصلاحه، ولم يكن لدى من أذهب إليه لأقيم عنده. وكانوا هم قادرين على دفع أجرة جيدة فى مقابل أن يقيموا فى هذه الغرف الحقيرة القذرة. لم يكن لدى فرصة للاختيار. أعنى، أين كنت؟ لم تخبرنى عن ذلك حتى الآن!"

ثم بدأ المضغ من جديد قبل أن يقول بهدوء: "**حسنًا، سيكون عليهم الرحيل من الآن، فقد عدت.**" صار خبزى خشنًا كأنه ورق للصنفرة. فلم يكن عندى لعاب لأبلع به هذا الخبز الجاف. فقال برنارد مواصلاً كلامه: "**هل تعلمين أن السيد تود يستعد للانتقال من منزله؟**"

قلت: "**فعلاً؟**" لم تكن مفاجأة بالنسبة لى وكذلك لم تكن خسارة أن أفقده.

"**لقد وجد هو وأخته منزلاً صغيراً فى أوربينجتون.**" لم أشك فى ذلك. وضعت المزيد من الزبد على الخبز ولكنه مازال لا ينزل من حلقى."**إنه يقول إن الشوارع صارت للكلاب. مع كل هؤلاء الملونين الذين يغمرون المكان وكأنه مستنقع. لم يعد المكان يشبه بلدنا.**" ثم صبّ الشاى ـ وناولنى فنجانًا، كان يهتز فى طبقه.

قلت: "**تلومنى على ذلك، كما أتوقع.**"

هدأ الفنجان المهتز لدقيقة. قال مواصلاً كلامه: "**كانت تدور فى رأسى بعض الأفكار، يجب أن ننتقل من هنا. ونتخلص من كل هؤلاء الخدم .... أعنى هؤلاء النزلاء. فليجدوا مكانًا ما أكثر ملاءمة لنوعهم على أى حال. سنبيع المكان. وننتقل إلى مكان ما أكثر رقيًا. ربما، كنْت. سمعت أن خارج أشفورد لطيف.**" كان مرحًا نشيطًا من جديد. كان جريئًا حتى، وهو يثب قليلاً على كرسيه. عندما قال فجأة أغرب شىء: "**أعتقد أننى قد أبدأ فى إنشاء مزرعة للأرانب.**"

لم أسمعه جيدًا، لم أكن واثقة مما سمعته. "**إنشاء ماذا؟**"

"**مزرعة أرانب. سنحتاج فقط إلى أرنبين فى البداية. ذكر وأنثى.**"

"**عن ماذا تتحدث؟**"

"الأرانب، هل تعلمين كيف تتناسل؟"

"هل جننت، يا برنارد؟"

"كالأرانب." وأقسم أنه كان يضحك بخفة.

"ماذا؟"

"إنها نكتة. ألم تفهميها؟ إنه تتناسل كالأرانب، الأرانب."

"عن ماذا تتكلم؟"

"عن تربية أرانب فى مزرعة. يمكننا أن نبدأ هذا المشروع معًا. سأقوم بكل العمل. أما انت فسوف تهتمين برأس المال. أعرف أنه سيكون شيئاً جديداً. ولا أشك أنه سيكون هناك الكثير من العمل. ولكن سيعود كل شيء كما كان قريبًا. تمامًا كما كان الحال فى السابق. يمكننا أن نبدأ من جديد مع الأرانب."

كانت كل كلمة سخيفة يتفوه بها تمتص الهواء من الغرفة تمامًا وكأنه كان يشفطه. حتى إنه لم يترك لى حتى نسمة لأتنفسها. ابتلعت ريقى ـ وأنا أقبض على حنجرتى.

قال: "هل أنت بخير؟"

ظننت أن قطعة الخبز المحمصة تسلك طريقًا خطأ ولكنها لم تكن كذلك. لا، كنت متأكدة من أننى كنت أختنق.

الفصل الثامن والأربعون

برنارد

حلم عجيب. غريب.

حلمتُ أننى فى السرير مع كوينى فى المنزل. كانت مستلقية بجوارى. نائمة. فى أمان. متدثرة متدفئة. وفجأة سمعت صوت طائرة. طائرة واحدة. بمحرك واحد. والطنين. يشبه قليلاً صوت الذبابة الزرقاء الطنّانة. كنت أشاهد مسار الطائرة من أعلى رأسى. أتبع صوتها. وكنت أمرر بصرى فوق سقف غرفة نومنا. عبر الصدع الذى يشبه القوس فى نهر التايمز. مروراً بالثقب الذى سقطت منه قطعة كبيرة من الجبس متأثرة بالاقتراب الشديد للطائرة. وفى الأعلى فى قمة السقف بدأ المصباح العارى فى التأرجح من أثر الاهتزاز الذى تسببت به الطائرة. بطريقة ما علمت أنها طائرة يابانية. طيار مقاتل يابانى يطير فوق إيرلز كورت. على الأرجح مقاتلة يابانية طراز زيرو. وأعرف أنه قد لا يحدث ذلك أبدًا، ولكن كان هذا حلمًا.

توقف فجأة ضجيج الطائرة. وكنت على علم بأنه كان قادمًا من أجلى. بدأ باب غرفة النوم ينفتح ببطء. لكننى لم أتحرك. كنت مشلولاً. حتى عينى كانتا ثابتتين ـ فقد تسمرت على الباب وهو يتحرك ويفتح بوصة بوصة. ثم ها هو هناك. ذلك اليابانى. رأيت رأسه أولاً، ثم بقية جسده محاطًا بعدها بإطار الباب المفتوح. وكان يشبه تمامًا الرسوم الكارتونية التى تصورهم. ضئيلاً. نظّارات كبيرة. عينان منحرفتان، أسنان متقدمة للأمام. أُذنان كأذن الإبريق. كان مرتديًا قبعة مدبّبة ـ التى اعتادوا جميعهم ارتداءها. يبدو هذا اليابانى كوميديًا ولكننى أعرف أنه لا شىء مضحك فى اليابانى. الشىء الغريب هو: أنه كان يبتسم لى بود.

أردت أن أطلق عليه الرصاص. أصوب واحدة ناحيته. وأقفز إليه. لأحطم وجهه على الأرض. ولكنه مازال يبتسم ثم بدأت أفكر، أوه، حسن، لعله ليس بهذا السوء. حتى رأيت سيفه يلمع. والضوء ينعكس وينكسر عليه محدثًا وميضًا. كنت أعلم أننا فى خطر. وفجأة جلست كوينى على السرير، ثم توجهتْ إلى الباب، ونظرتْ إلى اليابانى مباشرة فى عينيه ثم قالت: "مرحبًا." تمامًا بهذه الطريقة. مرحبًا. وكأنها تتحدث إلى جار. مرحبًا. كما لو أنها تعرفه طوال حياتها. "أهلاً. تفضل." وكان ذلك عندما أفقت من النوم.

الفصل التاسع والأربعون

جلبرت

"وينستون،" قلت: "هل هذا أنت؟"

"أوه، نعم، نعم ـ وينستون. دعنى أدخل، يا رجل."

حتى من وراء خشب الباب عرفت أن الرجل كان غاضبًا ومهتاجًا. ياه، عدت متعبًا من العمل أحلم ببعض الراحة. ولكن كل جامايكى (وحتى أولئك من هم من الجزر الصغيرة) وجدوا أنفسهم مجبرين على تعلم الحكمة التى تقول: الكل للواحد والواحد للكل، فى الوطن الأم هذا. كانت هورتنس تجلس القرفصاء على الأرض أمام مقلاة على موقد الغاز الحقير. لم يكن يتوجب أن ينثنى ظهرها الشاب مثل ظهر العجوز المسنة ـ كان يجب أن يكون شامخاً منتصباً أمام موقد فاخر. ولكن، ما حدث، كشخص أيمن يستخدم اليد اليسرى، كانت تجعل كل حركاتها كمشاهدة العذاب بعينه، أثناء طهيها الطعام.

يبدو أن وينستون يقف أمامى عند الباب. ولكننى لكى أتأكد سألت: "**هل أنت وينستون؟**"

فقال مبتسماً: "**نعم، يا رجل، وينستون.**"

فدعوته للدخول. وما هى إلا ثانية واحدة حتى أثيرت شكوكى. قدمت له هورتنس وما كان منه إلا أن قال: "**نعم يا رجل،**" قبل أن يواصل حديثه بوابل من الكلمات والتى تقريبًا صدمتنى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى.

"**سيلقى بى الرجل خارجًا، يا جلبرت. هذا الغبى الأحمق المتخلف قال إنه يجب علىّ أن أرحل. وفى الصباح وإلا سوف يستدعى الشرطة. الشرطة، فقلت له - لماذا تحتاج لأن تشكو للقانون؟ فأنا ملتزم كما ينبغى. فأطلق علىّ أسماء كالأسود والركون، فأخبرته بأنه يجب عليه أن يحترم نفسه. فقال لى بأنه يريد الاحترام. وأن هذا منزله، وصرخ فىّ حتى أصم صراخه أذنىّ.**"

فقلت له: "**آووه! هدئ من روعك، يا رجل. لمن كنت تتحدث؟**"

"**إلى زوج صاحبة المكان الذى لم يستطع شق طريق عودته للمنزل.**" ثم جلس بعجرفة على الكرسى، متجاهلاً النظرات الغاضبة التى أرسلتها له هورتنس لأنه لوث أذنيها بلغته البذيئة.

"**وينستون؟**" فسألته من جديد.

"**بلى، بلى، وينستون،**" قال، فعلمت عندئذ أنه كينيث.

"**أنت كينيث، يا رجل**"

"**لا، وينستون، انظر.**" ثم أرانى ظهر كفه كما لو أن هناك ما سوف يثبت ذلك.

"ماذا كنت تفعل فى غرفة وينستون؟ هل ألقت بك نورين إلى الخارج من جديد؟"

"لا تغير الموضوع، يا رجل. سيلقى بى إلى الخارج."

فقلت له: "هل وينستون هو من سيُلقى به إلى الخارج؟ إذًا من المفروض أن تكون قد رحلت الآن."

"أنت يا رجل هل تسمع قصتى أم لا؟ أنا كنت أعمل، يا جلبرت. فى حراسة المخازن والمستودعات."

لم يستطع عقلى أن يصدق ما كانت تسمعه أذنى. فهل هناك من رجل إنجليزى بقدر من الغباء أنه ينظر إلى عينى كينيث الضعيفتين وأصابعه المنزلقة التى توقع كل شىء، ثم يصل إلى نتيجة مفادها أن هذا الرجل سوف يصلح لأن يكون عامل مخازن يعتمد عليه؟ الكثير من الأشياء تفاجئنى فى إنجلترا ولكن هذه المعلومة ـ جعلتنى أخرُّ ساقطًا على الكرسى وفمى مفتوح. "انتظر لحظة، أنت تقول لى إن أحدهم وظفك لرعاية متجره؟"

"دعنى أخبرك شيئًا، يا رجل، إنى أقوم بعمل جيد. فأنا أحسب وأرعى المكان ولا أحد يسرق منه. ورئيسى سعيد مبتسم. لا أحد يعبث معى. ولكن اليوم هو يوم قبض المرتب. وأنا أفرك يدى استعداداً للقبض. فقد قمت بكل صنوف العمل الشاقة التى تستحق المال التى يجب أن أقوم بها. تسلمت راتبى فى كيس بنى صغير. يا رجل، هذا الظرف كان خفيفًا جداً حتى إنه يمكنه أن يطفو فى الهواء لو لم تمسكه يدى. فيمكنك بصعوبة أن تجد فيه القليل من المال. إنهم هم من سرقونى وليس غيرهم من فعل ذلك. فذهبت إلى المكتب لأتكلم معهم. وقلت لهم: "أين مالى؟ لم أجد

أغلب مرتبى"، "جلبرت، هل لديك أياً من مشروب الرَوم لأن أعصابى أرهقت كثيراً اليوم، يا رجل؟"

ثم بدأت هورتنس تثير الجلبة وهى تغطى كل قدر وجدته فى الغرفة بغطائه بعنف. فقد كان هذا الرجل يزعجها. وما كان من كينيث إلا أن نظر إلى هذه الجلبة ثم قال: "أنت محظوظ بأن لديك من يطبخ لك شيئاً لطيفاً هنا."

فرددت عليه بنصف قلبى: "فعلاً" فمنحتنى هورتنس نظرة جعلتنى أنكمش فى جلدى. "تعال، يا كينيث، هيه - فأنا متعب. عليك أن توضح لى شيئًا فى موضوعك، يا رجل؟"

"أنا وينستون."

"لا، لست كذلك."

"حسنًا. أنت محق هنا، يا رجل. ولكن نورين ألقت بى خارجًا والأخ لا يزال أخًا. والآن اين كنت أنا؟ أوه، نعم. هل تعلم ماذا أخبرونى عندما نظروا إلى ذلك الظرف الضئيل الذى أعطونى إياه؟ الضرائب. أنا أقول إنهم سارقون. وهم يقولون إنها الضرائب. جلبرت، مازلنا بالنهار ورجل أبيض قام بسرقتى. ما رأيك؟"

"أعتقد، يا كينيث، أنك دفعت ضريبة"

"ماذا؟ لا، يا رجل، لقد أخذوا مالى. لقد أخبرونى أننى سأتقاضى راتبًا قدره كذا، ثم أعطونى غيره. إنهم يعتقدون أننى غبى يستطيعون أن يأخذوا ماله وعيناى واسعتان مفتوحتان. وهم يقولون: "رجل هندى غربى أبله قادم خاماً من المركب. لن يعلم بأنه يتم سرقته."

"هل تقول لى ، يا رجل، إنك لم تقم بدفع الضريبة أبداً من قبل؟ يا كينيث، كل فرد يقوم بدفع الضريبة."

"كل فرد؟ والرجل الأبيض أيضاً؟"

"كل فرد يقوم بدفع الضريبة. والحكومة تأخذها."

"لم تأخذها؟"

"من أجل أن تدير البلاد."

فقال لى: "لا، لقد سرقونى. أقول لك إنهم اعتدوا على مالى وسرقوه. ولكن، يا رجل، هل تعرف؟" ثم دعانى لأن نتهامس ولكنه وجد نفسه مضطرًا للزعيق حتى يعلو صوته فوق القعقعة التى تصدرها هورتنس. "مازالت لدى مفاتيح ..."

فقلت له: "لا، يا رجل - لا أريد أن أسمع ذلك!" ثم انتفضت لأريه الطريق إلى الباب.

"انتظر، يا رجل، اصمت. فلم أخبرك بعد عن الرجل الغبى فى الطابق الأسفل. يجب عليك أن تستمع لى ـ فأنت التالى."

فعدت للجلوس على مقعدى وأسندت ذقنى على يدى.

"تعال، ولا تنظر إلى بغرابة، فأنا لدى سبب وجيه لأخبرك بهذا، يا رجل. يجب أن تعلم كيف كان مزاجى وأنا أدخل من باب المنزل. فقد سُرقت للتو! دخلت عبر الباب واصطدمت بهذا الرجل. زوج كوينى أو هكذا يقول. وأنا غاضب. من المحتمل أنى قلت له إننى آسف لطرقى على الباب قليلاً. أو ربما قد لا أكون تأسفت. قد أكون أخبرت الرجل بأن ينتبه لطريقة سيره. لا أدرى ما قلته له حيث كنت متكدراً فلا أتذكر كلَ الأشياء الصغيرة التى أفعلها. كان ما

حدث بعد ذلك أن الرجل كان سيكسر باب غرفتى من شراسة طرقه عليه. ثم قال لى: "يجب عليك أن تغادر"، فقلت له: "لماذا؟ هل يحترق المنزل؟" فقال لى ألا أحاول أن أكون مضحكًا وظريفاً معه. فقلت له أن ينصرف لكى أستريح. فمسك الباب محاولاً منعى من إغلاقه ثم قال إنه يحتاج إلى الغرفة. أنا مهذب، يا جلبرت، أقسم بقبر والدتى. سألته ما الذى يجعله محتاجًا إلى الغرفة بهذه العجلة والتى من أجلها يتوجب عليه طردى. فانفتح فمه قليلاً ولكن لم يخرج شىء عبره. فقلت له تصبح على خير. وبدأ ، الرجل، يتغير لونه إلى الأحمر. لم أرَ أبداً من قبل وجهًا بشريًا يتحول إلى هذا اللون. هل رأيت ذلك من قبل، يا جلبرت، رجل أبيض يتحول لونه إلى الأحمر؟ إنه مشهد غريب. فجأة وجدته قد بدأ فى الصراخ قائلاً إنه سيبيع المنزل. فسألته: "الآن؟ هل ستبيع المنزل فى هذه اللحظة؟" فصرخ قائلاً: "غداً"، يريدنى أن أذهب غداً. كان هذا الرجل غاضبًا وملتهبًا لدرجة أننى طلبت منه أن يهدأ من أجل صالحه. ولكنه أخبرنى بأنه لن يهدأ. ففعلت به معروفًا بأن قمت بإغلاق الباب فى وجهه. دقيقة واحدة وينفجر. ولكنه بدأ فى إصدار الجلبة من جديد. وهو يصيح عبر الباب أنه لن يقف هنا من هذا الهراء. ففتحت الباب و أخبرته أن عليه الذهاب إلى مكان آخر ليزنى ـ ليفرغ طاقته الجنسية. وبرغم ذلك، يا جلبرت، ولأن هنا سيدة حاضرة معنا فأنا لم أخبرك بالكلمة التى قلتها فعلاً. ثم أخذ هذا الرجل النحيل ينفخ نفسه. وقبض يديه ليلكُم بها. سأقتل الرجل بنفخة إن لكمته. فصنعت به معروفًا ـ ودفعته بعيداً. ولكن، يا رجل، ولأنه نحيل جداً سقط على الأرض. ولكننى لست رجلاً قاسى القلب ـ فتأكدت أنه بخير. ووقفت بجانبه. أسود، زفت،

زنجى - بدأ فى استخدام كل هذه الكلمات وهو يقول لى إنه يريدنى أن أرحل. أجبرت اللغة البذيئة جين على الخروج من بابها. ولدقيقة أخذ ينظر إليها بدلاً منى. كان مشهدها غريبًا. كانت عيناها محلقتين بالأسود وتسيلان بالدموع كأنها أصابع على خدها، وكان شعرها منتصبًا من الخوف، وكانت تقف بملابسها الداخلية نصف عارية. فانطلقت فى الضحك على هذا الرجل الضئيل وهو منبطح على الأرض. عندئذ قام الرجل واقفًا ولكن هذه المرة بهدوء. وقلت فى نفسى، لقد انتهى كل شىء الآن. سأعود إلى غرفتى وأغلق الباب."

أنهى كينيث قصته، ونظر إلىَّ ينتظر منى ردة فعل ما. أوه، يا ولد. رفعت رأسى من على يدى و فكرت أن ألقى طرفة وقلت له: **"هل هذا كل شىء؟"**

وقع قلبى فى قدمىّ عندما قال لى: **"حسنًا، ربما قلت له يبدو أن زوجته تحب صحبة الرجال السود. ربما. لا أستطيع التذكر. فقد قيل الكثير من الكلام فى خضم الموقف المشتعل."**

كنت أعلم أن هناك مشاكل. فعندما تدخل من الباب، تقبض بيدها على الجزء الحساس وتعصره. يا رجل، كان علىَّ أن أنزل ساقى من على الأخرى حتى أقلل من توترى. **"لماذا فعلت ذلك، يا كينيث؟"**

"ما الذى فعلته؟"

كان هناك شىء أدركته فى وجه برنارد بلاى. لمحته منذ المقابلة الأولى لى معه منذ الوهلة الأولى، أو الثانية. إلا أننى علمت أنه سيكون خصمًا لى. هكذا، رأيت ذلك ينعكس من كل مرآة فى

جزيرتى العزيزة جامايكا. رأيت ذلك وهو يحدّق فىّ وينظر إلىّ من خلال لون وجهى. رأيت ذلك ساكنًا فى بياض العين، وفى عقفة الفم، وفى حركة الذقن. كانت روحًا حائرة مرتبكة. ما رأيته كان كثيرًا جدًا حتى إننى لا يمكننى تجاهله. وما تغير بداخلى كان كثيرًا جدًا حتى إننى لم أعلم أى طريق أسلكه. ولكننى علمت أنه بعودة هذا الرجل المثيرة للقلق والمشاكل قد وصلت أيام إقامتى الهادئة فى هذا المنزل إلى نهايتها.

سألت كينيث: "ماذا تريد منى ان افعل؟"

"حسناً، لقد فكرت فى المشكلة كثيراً، يا جلبرت. وتوصلت إلى هذا الحل. نحضر بعض الأولاد ونعطيه علقة ساخنة، لنريه انه يجب عليه الا يعبث مع الجامايكيين."

"كينيث، أنا لن أضرب الرجل بدون سبب."

"ماذا تقول، يا رجل؟ لقد وصفنى بالزنجى الأسود. إنه يحتاج إلى درس فى الأخلاق. ستكون أنت التالى، يا رجل. اسمع كلامى. وأنت لديك زوجة جميلة تطبخ لك شيئاً جميلاً. عليك التزامات."

فقلت له: "لا داعى للعنف. اتركنى لأتحدث مع كوينى."

"هكذا، أنت لا تخاف من ذلك الرجل النحيل؟"

"سأناقش كل شىء مع كوينى. هيا، اذهب أنت الآن، يا رجل. فعشائى جاهز واريد تناوله."

ثم قال كينيث لهورتنس وهو يرسل لها ابتسامات عريضة لطيفة: "ماذا تطبخين هناك، يا سيدتى؟ فرائحته جميلة." فنظرت إليه شزرًا كأنها تعصر ليمونة مُرّة عليه. فواصل كلامه دون أدنى اهتمام

لنظراتها. "أنت رجل محظوظ. ماذا ستأكل؟ أرزًا وبازلاء، ولحم الماعز بالكارى؟ أما أنا فلا أعلم إن كان لدى طعام لليلة."

سألته: "أين وينستون؟ هل يعلم بعد أنك تسببت فى طرده من غرفته؟"

"سأحل هذه المشكلة. سأحضر بعض الأولاد ..."

"لا، يا كينيث! لا أريد مشاكل. أخبرتك من قبل أننى سأتكلم مع كوينى. أنت حتى لا تسكن هنا. هل نسيت أن كوينى طردتك من شهور مضت؟"

وجدته يتنفس بصوت عالٍ. وهو يشمُّ رائحة الطعام فقد صار كل رجل هندى غربى يحب فى هذه البلاد الطعام المجانى. "الرائحة جميلة جداً. هل لديك القليل من أجلى؟"

فوجهت إليه هورتنس نظرة يمكنها أن تجعل أى رجل مرهف الحس يختفى بنفخة دخان. وعلى أى حال فقد فهم كينيث هذه النظرة على أنها إشارة جيدة واستجابة لمطلبه. ثم قام من كرسيه ليقف أمام هورتنس. ولكن الأمر لم يستغرق سوى برهة قليلة من الوقت وهو يحدق من خلف كتف هورتنس على الطعام المطبوخ قبل أن يقول: "الآن طرأ لى خاطر، فقد تذكرت أننى رتبت للقاء بعض الأصحاب." ثم خرج بسرعة من الباب وصفعه بشدة من خلفه حتى إن أحدًا قد يعتقد أن هورتنس كانت تلاحقه ليتذوق شيئًا من ملعقتها.

ولم يمر الكثير من الوقت حتى عرفت سبب تصرفه. فقد وضعت هورتنس فى يدى طبقًا فيه كتلة من اللخبطة. فلم أتعرف

فيه على شىء واحد لأبدأ بأكله. وتقريبًا تبعت كينيث وأنا أنادى عليه طالبًا منه الانتظار. ولكن هورتنس كانت تنظر إلىَّ استعدادًا لتوبيخى على عدم تقديرى لها. ولذلك نظرت إلى الطعام وقلت لها: "جميل."

قالت: "إنه أخرق، ذلك الرجل. كيف سمحت له بالدخول إلى الغرفة؟"

ظننت أن هناك أرزًا ولكنى لا أظن أنه تم سلقه جيدًا. فقد كان يقرمش بين أسنانى وأنا أقول: "لقد أخبرنى أنه وينستون."

فقالت: "أنا أشك أن يكون وينستون هذا أفضل منه؟"

"أنت لم تقابلى وينستون."

"إن كان أخوه يشبهه بأى شكل، فأنا لا أرغب برؤيته."

"كينيث ليس بهذا السوء."

"كيف تقول ذلك؟ الرجل عنيف وأخرق. هل سمعت اللغة التى يتكلم بها؟"

"إنه غاضب."

"إنه من الأشخاص الهمج الذين يجعلوننى أخجل من أننى من نفس الجزيرة التى ينتمون إليها."

"طيب، إنه ليس سيئًا للغاية. إنه فقط يحاول تدبر أمره فى إنجلترا."

فقالت: "هاه."

كان هناك شىء يمضغ كثيرًا فى فمى حتى إننى شككت فى أنه

علكة. كان كلانا يمضغ فى صمت وكأننا أبقار فى الحقل. هيا، كان صمتًا لطيفًا ولذلك قلت: **"ليس هناك حاجة لأن تقلقى؟"**

قالت: **"على ماذا أقلق ؟"**

"على ما قاله كينيث للتو."

"إن الرجل مهرج."

"ربما. ولكن لا داعى للقلق على طردنا من هذا المكان."

فتوقفت شوكتها فى منتصف الطريق إلى فمها. ثم تحولت الابتسامة الصغيرة التى ارتسمت على شفاهها بالتدريج إلى بسمة مقززة متكلفة. وقالت لى: **"لم ألق لكلامه بالاً."**

فقلت: "جيد." ولكنها لم تكن قد أنهت كلامها بعد.

"لقد نسيت" بدأت فى الحديث: **"إننى سأحصل قريبًا على وظيفة معُلمة فى مدرسة جيدة. لا تقلق على. سيفعل بى الرجل الذى بالطابق الأسفل معروفًا إن طردنى من هذا المكان المتهالك. فغرفة كهذه لن تليق بمعلمة مثلى."**

وصلت الشوكة إلى فمها فى نهاية الأمر. ورحت أحدق بصعوبة إلى هذه المخلوقة التى لا تطاق، فى حين كانت تنظر إلى السقف وهى تمضغ بأناقة هذا الطعام المقزز.

الفصل الخمسون

هورتنس

نظر جلبرت جوزيف إلىَّ بعينين واسعتين ثم قال متعجبًا: **"انتظرى، هل هذا هو فستان زفافك الذى ترتدينه؟"**

فأخبرته: **"أخيراً وجدت مناسبة تستحق هذا الفستان الجميل."**

اختفت قسمات وجهه المرحة التى لا تحمل للدنيا همًا وارتطمت بقوة شديدة بالأرض. لدرجة أنه جعلنى أندم على ما قلته. وبرزت شفته السفلية بغلظتها. وأفصحت عيناه عن الأسى والحزن. حتى إننى فكرت فى الاعتذار عن هذا اللسان المتسرع. ولكنه بدأ يشتم بعد ذلك وهو يمصّ أسنانه، كما لو كنت شخصية بليدة. فبالتالى لم ألق له بالاً أو أعطه اهتمامًا.

آه، برغم أن الشمس كانت ساطعة. إلا أن ضوءًا خافتًا فقط هو ما كان يدخل الغرفة ولكنه كان كافيًا لرفع معنوياتى أعلى من مخاوف هذا الرجل الغبى. كانت رسالتَى التوصية خاصتى تحتويان

من الكلمات ما هو كفيل بأن تفتح أى مدرسة أبوابها لى. ورغم البداية البطيئة التى عانيت منها مع هؤلاء الطلبة الأوغاد فى مدرسة هاف وآى ثرى، فقد وجد مدير المدرسة أنه من الملائم أن يطلق اسم ماهرة على مهاراتى فى التدريس. وبعدما بحثت عن معنى هذه الكلمة فى القاموس الإنجليزى، شعرت بالشرف والفخر أن مديرى يعتقد أننى خبيرة فى مجال التدريس.

لقد أقرت مدام مورجان، مديرتى المرعبة فى الكلية، أننى مؤهلة بدرجة مرتفعة. وأنا شعرت بأننى خبيرة مؤهلة بدرجة مرتفعة. كان ذلك فى اليوم الذى كنت ذاهبة فيه لأقدم نفسى فى وظيفة معلمة فى مكاتب سلطات التعليم، ولم يكن هناك رجل غبى بوجه متأفف سيعترض فرحتى وابتهاجى بنفسى.

استغرقت توضيحات جلبرت أكثر من ساعة وهو يصف لى كيف يمكننى أن أصل إلى هذا المكان الذى يسمى آيسلينجتون. وأصر الرجل أن آخذ مذكرة، ثم واصل إعطاء توجيهاته بإيقاع وثرثرة واحدة عن انعطفى ـ يسارًا ـ انعطفى ـ يمينًا -لا- انتظرى ـ اذهبى- مباشرة على طول الطريق. فترة الهدوء الوحيدة فى هذه التلاوة اللاهثة كانت عندما سألنى: **"هل كتبت ما قلته؟"** أنا لست آلة كاتبة. هل كان ذلك مثيرًا للعجب قليلا أنه عندما انتهى الرجل أخيرًا من كلامه كانت الملاحظة الوحيدة التى دونتها على الورق كانت كلمة **"الحافلة"؟**

سألنى: **"هل هذا هو الشىء الوحيد الذى كتبته؟"**

فقلت: **"أنت تتحدث بسرعة كبيرة."**

وفى نفس واحد هائج طويل ألقى الكلمة التى كتبتها فى وجهى ثم قال لى: **"تعالى، سوف أذهب معك.**

أى فرد يسمع جلبرت جوزيف يتكلم سيعرف بدون تردد أن هذا الرجل ليس إنجليزيًا. فليس مهمًا أنه يرتدى أحسن بدلة لديه، أو أن شعره مدهون، أو أظافره نظيفة، فقد كان يتكلم ويمشى بطريقة جامايكية فظة. بينما أنا، منذ وصولى إلى هذه البلاد، قد قررت أن أتكلم مثل الإنجليز. لم يكن مجديًا أن أحاكى طريقة تحدث أولئك الذين يتكلمون عنى، ذلك لأن العديد ممن قابلتهم كانوا يتكلمون بأسلوب عامى شعبى مثل أهل لندن الفقراء. كل لغة الخطابة والإلقاء الراقية ضاعت فى خضم تشويش لغة الطبقة الدنيا التى لا تكاد تتبين نهايات كلماتها. لا، لكى تتكلم الإنجليزية بشكل لائق كالطبقة الراقية، اعتزمت الاستماع إلى اللغة كأرقى ما تكون. وفى كل يوم كان مذياعى مفتوحًا على أكثر القنوات الإنجليزية النموذجية المعروفة فى العالم. البى بى سى (شركة الإذاعة البريطانية). البرنامج الخفيف ـ ساعة للمرأة، مذكرات مدام ديل، الموسيقى وأنت فى عملك، وبالطبع الأخبار. استمعت. وأعدت النطق. ثم استمعت مرة أخرى. ولكى أبرهن أن التدريب كان يؤدى إلى نتيجة ممتازة، فى مناسبتين أحضر لى البائع فى الدكان شيئًا طلبته بدون أن يحتاج منى أن أكرر طلبى منه حتى يفهم كلامى. وبفضل تلك اللغة الإنجليزية المنزهة عن الأخطاء والمقدمة على مذياعى، كان كلامى مفهومًا وسلسًا.

ولكن جلبرت كان لا يزال يمص أسنانه. وكل هنيهة كان الرجل يقول: "هيه، طيب" ولم يستطع، مهما حاولت معه، أن يمنع نفسه من الصياح بصوت عال قائلاً: "**لا، يارجل**" ـ مع كل قول يتفوه به. كنت قلقة من أنه قد ينظر إلىَّ العاملون المهذبون والمتعلمون فى مكاتب سلطات التعليم باستغراب إذا كان جلبرت جوزيف بأى مكان

قربى. ولكن كان علىَّ أن أعترف أمام نفسى: "**هورتنس، كلمة (الحافلة) ليست توجيهًا كفيلاً وحده لأن يوصلنى بأمان.**" ولذلك وافقت على طلبه، وقلت له: "**موافقة، أسمح لك بمرافقتى.**"

لقد كانت منشأة راقية رائعة. مشيدة بالطوب البنى وعريقة فى القدم بكل معانى وكرامة التعليم. فرض المبنى نفسه رسميًا على هذا الشارع المتهالك بنفس نهج الفخامة والاستبداد، اللذين كانت تقف بهما مدام مورجن أمامنا نحن الفتيات. بكل خوف وذعر كان قلبى يدق كالأجنحة المرفرفة. كان جلبرت يمشى أمامى ثم أسند يده على النحاس الأصفر للباب.

قلت له: "**بإمكانك أن تذهب الآن.**"

"**ماذا؟ الا تريدين منى أن أدخل معك؟**" نظر إلىَّ الرجل بنفس ذلك السلوك المتألم.

"**لا، شكراً، سأكون بخير.**"

"**سأنتظرك هنا، إذن.**"

"**لا حاجة لوجودك حتى تُظلم المكان. أستطيع أن أجد طريقى الآن.**"

"**ما الذى هناك لتجديه؟ سألاقيك هنا.**" كان يستنفد صبرى. ولذلك فقد أخبرته بأدب أنه يحتمل أن ترغب سلطات التعليم فى أن ترينى المدرسة التى سأعمل بها. وأن ذلك قد يستغرق وقتًا وأنا لا أود أن أعكر يومه أكثر من ذلك. فنظر إلىَّ الرجل لوهلة طويلة من الوقت. ثم، بهدوء، قال لى: "**هورتنس، الأمور لا تسير بهذه الطريقة هنا فى إنجلترا.**" فأبلغته بعدها بعد ذلك أن معلمة مثلى ليست شخصًا يمكن أن يُعامل بنفس الطريقة التى يُعامل بها

شخص فى وظيفة دنيوية. لم يكن منه إلا هز رأسه وقال: "**أنت لا تستمعى إلىَّ، أليس كذلك؟ سأنتظرك.**" لم تكن هناك وسيلة لإقناع هذا الرجل أن يتزحزح من مكانه. كان بمقدورى أن أراه وهو يشرب سيجارته عبر زجاج الباب وأنا أقترب من السيد الذى يجلس على المكتب. فهو لم يقم بأى محاولة لإخفاء نفسه. وعندما التقت عيناه بعينى بينما كنت أنتظر السيد حتى ينهى ما كان يقرؤه، رفع جلبرت إبهامه إلىَّ وهو يبتسم ابتسامة عريضة كالمهرج. كان هذا الرجل الحقير يحط من منزلتى.

كنت سعيدة من كل قلبى عندما فهم السيد المحترم الجالس على المكتب طلبى من أول مرة سألته فيها. وكانت إجابته أن أمشى فى خط مستقيم. ولسوء حظى بدأ وصفه للاتجاهات إلى المكتب الصحيح بنفس طريقة جلبرت. يسار ـ يمين ـ يسار ـ يمين ـ فوق ـ تحت ـ و ـ حول. ولم تكن هناك مهلة واحدة حتى أفهم. وعندما أنهى كلامه عاد لمطالعة جريدته. ولم تكن لى سوى فرصة ضئيلة لأسأله: "**لو سمحت، هل يمكنك أن تتفضل وتعيد تعليماتك لى؟**"

عندئذ أصدر هذا السيد صوت استهجان ثم لف عينيه فى مقلتيهما قبل أن يصيح عاليًا كأنما ينادى بالشارع: "**سايمور.**" فظهر صبى طويل هزيل. فاضطررت أن أحول بصرى إليه، ذلك أن وجه هذا الشاب كان غاضبًا جدًا ومليئًا بالبثور المجروحة والدمامل فبدا كأنه كان يصارع هرًا.

أمره السيد الجالس على المكتب: "**خذها إلى الاستعلامات.**"

فقلت له: "**شكرًا على مساعدتك.**" ولكنه كان قد عاد بالفعل إلى متابعة قراءته، وكان علىّ أن أجرى لألحق بهذا الصبى ذى الوجه الذى يشبه اللحم الأحمر.

ثلاث سيدات يجلسن بأناقة على مكاتبهن تفحصنني وأنا أدخل عبر الباب. نظرن إلى بعضهن بسرعة ثم عاودن التحديق بى كأنهن فى رقصة للدمى المتحركة فى مسرح للعرائس.

قلت: "**نهار سعيد.**"

فطأطأت اثنتان منهما رأسيهما عائدتين إلى ممارسة عملهما وكأننى لم أقل شيئًا، تاركتين فقط أكبرهن لتسألنى: "**نعم، هل تريدين شيئًا ما؟**" كانت هذه السيدة تبتسم لى ـ كانت قسمات وجهها تتلألأ بقدر كبير من البهجة حتى إننى لم يكن بمقدورى إلا أن أرد لها التحية. كانت ابتسامتها المشعة عريضة جدًا لدرجة أننى وجدت مشقة فى مد شفتى لأجاريها فى سرورها. فسايرتنى هى فى هذه التحية لعدة دقائق قبل أن تتنفس بعمق كاف انتظارًا لرد منى على سؤالها.

فقلت: "**انا معلمة.**" وأنا أنوى أن أواصل الحديث بالمزيد من التوضيح. ولكننى ذهلت من نفسى حيث وجدتنى فاقدة للثقة فى حضرة هذه السيدة الودود. وتلعثم صوتى حتى صار صريرًا رفيعًا. أخذت دقيقة لأسعل فى يدى. وبعد أن هيأت نفسى بدأت من جديد: "**انا معلمة واعتقد ان هذا هو المكان المناسب الذى يجب ان اتقدم فيه بنفسى لمثل هذه الوظيفة.**" تنبأت عبر الابتسامة الدافئة لهذه المرأة بقدر ضئيل من الارتباك. وكانت حسنة التربية جدًا لتقول: "**ماذا؟**" كانت تنظر بعينين محتارتين إلىَّ تصرخان بنفس الكلمة بنفس علو صوتها. فأعدت ما قلته بوضوح هذه المرة ولكن قبل أن أتمم كلامى سألتنى السيدة بلطف: "**هل قلت إنك معلمة؟**"

فقلت: "**نعم.**" سببت لى ابتسامتى بعض الألم خلف أذنىّ، ولكننى واصلت محاولة الاستجابة بشكل صحيح لرحابة صدرها.

وناولتها رسالتَى التزكية اللتين أخرجتهما من حقيبتى متوقعة منها أن تجيب مطالبهما. فمدّت إلىَّ يدها النحيلة، وأخذتهما منى، ثم أشارت لى بالجلوس. إلا أنها، وبدلاً من تفحص الرسالتين فإنها بالكاد أمسكت بهما فى يدها دون حتى أن تختلس النظر فى محتواهما.

وسألتنى بضحكة خفيفة تشوب كلماتها: **"ما هذه؟"**

"هذه رسائل التزكية. سترين فى واحدة منهما أنها من مدير ال..."

قاطعتنى، ارتاحت شفتاها لدقيقة واحدة قبل أن تبتسم من جديد ثم سألتنى: **"من أين أنت؟"**

كانت الرسالتان لا تزالان محمولتين معلقتين بالهواء حيث وضعتهما. فأخبرتها: **"من جامايكا."**

كانت صامتة، وكانت كلتانا تبتسم ابتسامات عريضة للأخرى بلطف.

ففكرت أن أثير انتباهها مرة أخرى للرسالتين. **"واحدة من الرسالتين اللتين أعطيتهما لك من وظيفتى السابقة. كتبها المدير بنفسه. سترين أن ...**

ولكنها قاطعتنى مرة أخرى قائلة: **"أين؟"**

فتساءلت فى نفسى إن كان من الأدب أن أقول لهذه السيدة التى تسألنى أن تقرأ الرسائل التى فى يدها فلربما تجد إجابة كل أسئلتها فيها. فختمت تفكيرى بأن قلت لها: **"فى مدرسة أبرشية هاف واى ترى."**

"أين هذه؟"

"فى كينجستون، فى جامايكا."

ثم عادت للتمدد فى كرسيها وبدلاً من أن تفتح الرسائل بدأت تلعب بهما ـ وهى تنقلهما بين أصابعها. ثم سألتنى: **"وأين تدربت لتصبحى معلمة؟"**

كانت ابتسامتها الآتية منها تناقض وقاحة لهجتها. ولم أستطع أن أمنع نفسى إلا أن الاحظ أن السرور غادر عينيها وظل فقط متلبسًا فى فمها. **"تلقيت تدريبى فى كلية تدريب المعلمين فى كونستانت سبرينج، تحت تعليم وإشراف مدام مورجان."**

"هل هى فى جامايكا؟"

"نعم."

كانت هناك فترة من السكينة والهدوء بعد هذا الضغط عندما أمالت رأسها إلى جانب واحد وهى تخرج نفسًا عميقًا. وهونت الأمر على نفسى باعتقادى أن كل شىء الآن صار واضحًا بيننا. حتى، قامت هى بإمالة جسدها الممتلئ الساحر للأمام، ثم قالت لى: **"حسنًا، أخشى أن لا يمكنك التدريس هنا."** ثم أعادت الرسائل التى لم تفتح إلىَّ. كنت متأكدة أن هناك سوء تفاهم، رغم أننى لم أعلم من أين أتى. ربما لم أجعل نفسى مفهومة كما ينبغى. فقلت: **"إن قرأت الرسائل، ستخبرك واحدة منهما أننى تلقيت تدريباً لمدة ثلاث سنوات فى جامايكا، بينما تتحدث الرسالة الأخرى عن الوظيفة التى شغلتها كمعلمة فى..."**

لم تدعنى أنهى كلامى. وقالت لى: **"الرسائل لا تهم، لا يمكنك التدريس فى هذه البلاد. فأنت لست مؤهلة للتدريس هنا فى إنجلترا."**

"ولكن..." كان هذا هو الصوت الوحيد الذى صدر منى.

فقد واصلت كلامها قائلة: **"لا يهم أنك كنت معلمة فى جامايكا. فلن يسمح لك بالتدريس هنا."** كانت تهز الرسائل أمامى. **"خذى هذه. فليس لها قيمة."** وعندما لم آخذها من يدها هزتها بقوة أكثر وقالت لى بصوت عال، تقريبًا كانت تصرخ فى: **"خذيها."** كانت ابتسامتها واهنة بلا طعم كالتماثيل. كانت يدى ترتعش وهى تمتد لأخذ الرسائل.

وكان كل ما استطعت نطقه هو: **"ولكن..."**

ثم قالت وهى تضحك باستهزاء: **"سيدتى، أخشى أنه لا جدوى فعلاً من جلوسك هنا لتجادلينى."** جعلت قهقهاتها التى فى غير محلها فمى ينفتح من التعجب. **"ليس ذلك فى يدى. إنه قرار سلطات التعليم. وليس بمقدورى أن افعل شيئًا لأغير منه. وأخشى، أنه ليس بمقدورك انت أيضًا. والآن، لا اقصد أن أستعجلك ولكن لدى عمل كثير جداً لأقوم به. شكراً على حضورك."**

كان كل عضو فى جسدى يصرخ فى هذه السيدة: **"ما هذا الذى تقولينه لى؟"**

لقد عادت لمتابعة عملها. وبعدما عاد وجهها الآن إلى استجابته الطبيعية بدت حادة مثل مديرتى فى الكلية. التقطت عاليًا قطعة من الورق، وكتبت شيئًا فى أعلاها. ثم نظرت إلى قطعة أخرى من الورق ثم توقفت، وهى تعلم أننى مازلت هناك.

سألتها: **"كم هى مدة التدريب فى إنجلترا؟"**

فقالت وهى توجه إصبعها نحو الباب: **"مع السلامة."**

"هل يجب على أن أعود للكلية؟"

"فى الحقيقة، يا سيدتى، لقد أوضحت للتو كل شىء لك. هل تتكلمين الإنجليزية؟ هل فهمت ما قلته لك؟ إنه بغاية البساطة. ليس هناك جدوى من سؤالى عن أى شىء آخر. والآن، لو سمحت، لدى الكثير من العمل. شكراً."

ثم ابتسمت لى ـ من جديد! ما هذا الاصطناع البارع. لم أستطع الوقوف على قدمى. فقد كانت ضعيفة جدًا أسفل منى. فجلست قليلاً لأستعيد رباطة جأشى وأسترد قواى. وعندما وجدت أخيرًا القوة لأسحب نفسى للأعلى، أخبرت هذه السيدة: **"سأعود من جديد عندما أكون مؤهلة للتدريس فى هذه البلاد."**

قالت: **"نعم، افعلى ذلك. مع السلامة."**

بينما كنت أقف كانت تقلب عينيها هى وبقية السيدات بالغرفة. ولكننى لم ألق لهن بالاً. فوضعت قبعتى مستقيمة على رأسى وعدلت من قفازاتى. ثم قلت لهن وأنا أفتح الباب لأغادر: **"شكرًا ونهار سعيد."** فردت كل منهن هذه التحية التمثيلية كما لو أننى أعنيها. فتحت الباب وعبرت من خلاله. وفجأة كان كل شىء مظلمًا. كنت أحدق فى سلم خشبى، وممسحة ومكنسة. ومددت يدى ولمست الأرفف المكدسة برزم الأوراق. ولبرهة، سألت نفسى كيف سأجد طريقى للخارج عبر هذه الرَّبكة. ولم أدرك قط أننى دخلت فى خزانة إلا عندما ركلت قدمى دلوًا. دخلت إلى هنا بكل الثقة التى استطعت استجماعها، بينما كانت أولئك السيدات تشاهدننى.

وكانت ثلاثتهن يقهقهن عندما برزت من عتمة الخزانة. واحدة تضحك خلف يدها، والأخرى خلف ورقة رفعتها على فمها حتى لا

أراهـا. والكبـرى كانت، بـالطبـع، تبتسم ولـكن الشـفقـة كانت تغلف نـظـرتهـا. وقـالت وهى تشيـر بإصـبـعـهـا المدبب إلى بـاب خشبى آخـر مفتوح: "**إنه ذلك الباب.**" شكرتها، وودعتهم متمنية لهم نهاراً سعيداً مرة أخرى، ثم عبرت عبـر المخـرج الصحيح، غيـر منـزعـجـة بصوت ضحكاتهم المتزايد.

الفصل الحادى والخمسون

جلبرت

كان أمرًا يثير الدهشة والحيرة أن خرجت هورتنس من المكان. تمسك بحقيبتها، ورأسها شامخ عاليًا. لقد خطت أربع خطوات حادة وعنيفة قبل أن تقف متفحصة حولها. تقف، وهى واقعة فى حيرة مفزوعة، أصابعها ترتعش على فمها. غيرت وجهتها ثم مشت خطوتين. ثم توقفت من جديد. نظرت إلى الشارع فى اتجاه، ثم نظرت لآخر الشارع فى الاتجاه المعاكس. وقعت ورقة من يدها على الأرض. فانحنت للأسفل لتلتقطها. فاصطدمت برجل ضخم الذى زعق فيها قائلاً: "آى، انتبهى إلى أين تذهبين." فانزلقت الورقة منها من جديد. فطاردتها. أمسكتها وهى تناضل ممسكة بحقيبة يدها وزجت بها إلى داخل الحقيبة قبل أن تنزلق من جديد. ثم أخذت تهرول ماشية أربع خطوات هنا ثم خطوتين هنالك.

ناديت عليها، فرأتنى. وفجأة عرفت هذه المرأة أى طريق ستسلك. أى مكان بعيد عنى. كنت أحاول وهى تمشى بسرعة على طول الطريق أن أحافظ على مسار ثابت لى بجانبها.

سألتها: "ماذا فعلت؟" فتفادتنى حتى تكمل مسيرها. "هل أخبروك أنك حظيت بالوظيفة؟" فتظاهرت بالصمم. إنها، ياه يا رجل، تمشى بسرعة تفوق سرعة مشى أى جامايكى على الإطلاق إلا وهو يجرى. اضطررت أن أنادى عليها: "هورتنس،" حيث لم أتمكن من ملاحقتها. "ماذا قالوا لك؟" لازالت هذه المرأة لا ترد علىَّ. أوف، أتبعها مثل الكلب الأعرج. فناديت: "انتظرى، ياه." فسارعت من خطواتها. ولذلك، كما علمتنى عمّتى كورين عندما كنت أطارد دجاجة حول الفناء، قمتُ بقفزة لأقبض على هذه المرأة. استخدمت يدىّ لأمسك بها ثم لألفها حتى تواجهنى. "انتظرى،" قلت. كانت متخشبة وصلبة مثل قضيب من الحديد، والتوى عنقها بطريقة شاذة لتبعد بصرها عنى. "حسنًا ماذا قالوا لك؟"سألتها. فنظرت إلىَّ فجأة، وأنفها شامخ عاليًا فى الهواء، يا رجل، استعددت لأنحى رأسى بسرعة، آآه، فأنا أعرف هذه النظرة.

"لماذا تسألنى كل هذه الأسئلة؟ ما الذى يخصك بالأمر؟"

أرهقتنى وجعلتنى أزفر أنفاسى. حسنًا، كان هذا سؤالاً وجيهًا. لماذا أسأل هذه الحقيرة سليطة اللسان عن أى شىء؟ كنت مستعدًا لأن أمشى بعيدًا. فالكثير من الرجال سيطاردون الآن أول زوج من السيقان الجميلة يمر أمام أعينهم، ولن يضيعوا وقتهم فى الاستماع إلى لسان كالسوط. فلذلك لم أشغل نفسى بأن أجيبها قائلاً: "انت زوجتى،" فقط لتنظر إلى وكأنها معلومة موجعة تستحق الندم عليها.

"من فضلك اتركنى بمفردى. أستطيع رعاية نفسى. فقد كنت أفعل ذلك لسنين كثيرة قبل أن تأتى..."

ثم ما كان ذلك؟ أنفاس سريعة؟ أكتاف متمردة ومتهورة تعلن العصيان؟ بروز شفتيها بلطف للأمام؟ من بإمكانه أن يضع ذلك فى كلمات؟ ولكن شيئًا ما كان يترجانى لكى أبقى. "**هورتنس، لا توجهى إلى مزيداً من الكلام المزعج. أخبرينى ما الذى حدث؟**"

زمّت شفتيها بشدة. هيه، لم أجد بُدًا من أن أهزها. ليس بقوة، فأنا لست جلفًا متوحشًا. ولكنى كنت أهز عظمها. كانت تلك الدمعة التى انتثرت على شفاهى، دافئة مملحة، هى ما جعلتنى أتوقف. كانت تبكى. بثبات كوابل من المطر، كانت كريستالات الماء تنهمر من عينيها. ثم بدأت تلوى جسدها من جديد لتخفى وجهها عنى. بدأت امرأة مارة بنا فى التحديق إلينا. لم يكن يشغلنى ذلك عن الاهتمام بأمر هورتنس، أما هى فكانت على استعداد لأن تلف حولنا فى دائرة نحن الاثنين.

"**ما الذى حدث؟**" سألتها.

فقالت: "**لا شىء.**"

فقلت لها: "**لا شىء تعنى ابتسامة.. هورتنس، أنت لن تبكى من أجل لا شىء.**"

فصرخت تلك المرأة فىَّ من جديد قائلة: "**لا شىء.**"

يا رجل، دعها لتحترق. هيا، يحتمل أن تكون هذه هى المرة الأولى التى يشعر فيها خدها بالدموع. كانت امرأة لا تطاق. مشيت مبتعداً عنها. خطوتين. ثم خطوت خطوة ثالثة مترددة قبل أن ألتفت لأنظر إليها. كانت تتنهد وتتشنج وكانت تحاول بكل جهدها ألا تمسح أنفها بقفازها الأبيض الجميل.

كنت أفكر فى الابتسام عندما سمعت بالأمر: هورتنس تترنح مجروحة بعد صفعة قوية من يد الوطن الأم. يا رجل، كنت مستعداً لأن أخبرها بأنه بسبب غرورها وثقتها المبالغ فيها فى نفسها، سيحدث لها أمر يثبت لها بأنها ليست كما تخيلت. وأن أندفع حولها وأنا أثب وأفرك يدىّ قائلاً: **"الآن انت ترين... كما أخبرتك... هل تستمعين الآن إلىّ."**

إلا أن صوت أنفاسها علا فى لهثات، يائسة، وهى تتمتم مكررة: **"إنهم يقولون إننى لا أستطيع التدريس."**

حسنًا، ليس هناك من شىء يمكنه بالتأكيد أن يذيب قلبًا قاسيًا أكثر من بكاء مثير للشفقة من طفل أُوقِظ بفجاجة من حلم جميل.

أرشدتها إلى مقعد فى ميدان صغير، فتبعتنى طائعة. وكذلك تبعنى ولد صغير قذر الذى لاحقتنا عيناه الواسعتان طوال الطريق. وبرقة همست هورتنس فى أذنى، بأنه مطلوب منها أن تتدرب من جديد لتدرس للأطفال الإنجليز. فتذكرت آخر مرة رأيت فيها تشارلى دنتون. زميلى القديم فى القوات الجوية الملكية الذى كان يبتسم مِلء فِيْه سعادة أنه قال، أوه، إن خده تورد فرحًا عندما صار مدرسًا للتاريخ. والآن، دعنى أخبرك، هذا الرجل ذات مرة جادلنى أن ولينجتون انتصر فى معركة ميدان ترافالجار. وهذا ما قد كان، بعد سنة واحدة من التدريب، قالوا له إنه يمكنه أن يقف أمام فصل من الأولاد المشاغبين ليدرسهم تفاهاته.

من المؤكد أن هورتنس كانت تصرخ من الألم المبرر فى أذنى ولم تكن تهمس باكية. والولد الأحمق مازال يحدّق فينا. فقلت له: "هِش، انصرف." فأخرج لسانه ثم شدَّ أذنيه الكبيرتين ساخرًا منى، ثم

جرى بعيدًا. ولكن سرعان ما أخذت عيون أخرى مكانه. شيخ كبير كان مشغولاً وملهيًا جدًا بهورتنس لدرجة أنه، عندما كان يحدّق بنا فاغرًا فاه، مالت عصاه ودخلت فى مصرف المياه فوقع بجانبها. وكانت هناك امرأة بشعر مجعد ترمقنا ببصرها بشدة حتى إنها داخت من جهدها فى متابعتنا وهى فاغرة فاها. وكان هناك أيضًا رجل سمين يشير إلينا، بينما آخر مع كلبه كان يتمتم بالكلام ويهز رأسه استياء.

حسنًا، دعنى أخبرك، أردت أن أغرى هذه الكائنات الفضولية المتدخلة فى شئون الغير بالاقتراب أكثر. مشيرًا إليهم لكى يتقدموا خطوات ليحصلوا على مشاهدة أفضل. ربما يتسنى لى عندئذ أن أمسك بيدى واحدة من رقابهم البيضاء الهزيلة تلك لأعصرها. فلن يرانا أحد نبكى وننتحب فى هذه البلاد.

صرخت فيهم: "**إلى ماذا تنظرون جميعكم؟ هش، اغربوا بعيداً.**"

انزلقت قبعة هورتنس بيأس على رأسها، قليلاً فحسب، ولكن ذلك كان كافيًا لأن يُظهر هذه المرأة الجامايكية المتغطرسة فى شكل كوميدى مضحك. فضبطتها لها. فجعلت ترتب من حالها، وتربت على عينها بطرف إصبع قفازها الأبيض. فأخرجت منديلى حتى تمسح به وجهها. برغم، أن هذا الشىء لم يكن نظيفًا كما ينبغى له. حيث كنت أنوى منذ عدة أيام أن أقوم بغسله ولكن... أمسكته هورتنس عاليًا على أطراف سبابتها وإبهامها لتعيده إلىَّ. فى حين أخرجت هى منديلها الخاص من حقيبتها، فرأيت قطعة من القماش بيضاء جميلة مطرزة بتطريز يوم الأحد عليها. فقلت لها: "**يوجد عليها اليوم غير المناسب.**" ثم، أوه، يا رجل، عصفت بأنفها فى هذا

المنديل المسكين بقوة الإعصار، قبل أن تقول لى بهدوء: **"لقد دخلت وانا امشى فى خزانة."**

سألتها: **"لماذا فعلت ذلك؟"**

"ظننت أنها الباب الذى سأخرج منه."

فقلت: **"أوه يا عزيزتى."**

"ولكنها كانت خزانة، وكل السيدات ضحكن وسخرن منى."

تخيلت فى عقلى المنظر ولكن بدلاً من أن أضحك من قلبى على نكتة إذلال هذه المرأة المتكبرة، انشق قلبى حزنًا إلى شطرين. فقلت لها: **"واخبرينى، ماذا كان شكل هذه الخزانة؟"**

كانت تعابير وجهها تنطق وتقول: **"ماذا يقول هذا الرجل الأحمق؟"** ولكنها جاوبتنى قائلة: **"كان فيها جردل وربما ممسحة أيضًا."**

"آه، الآن، كانت تلك خزانة لأدوات التنظيف. لقد دخلت أنا إلى العديد من خزائن التنظيف." فتركزت عيناها علىّ، وهما حمراوان مملوءتان بالدموع. وأظن أن هذه هى المرة الأولى التى تنظر بهما إلىّ بدون ازدراء. أخذت نفسى مرتين قبل أن أستطيع مواصلة كلامى. **"إنها الحقيقة! لقد دخلت فى خزانة أدوات تنظيف، وخزانة أدوات مكتبية...**

"هذه الخزانة كان بها ورق أيضًا."

قلت لها: **"خزانة مثيرة، أنت تقولين إن بها أدوات تنظيف وورق."**

ثم حدث حادث بعد ذلك.

لقد ابتسمت.

كنت أظن بشكل قاطع أن هورتنس لديها أسنان حادة مسنونة لدرجة أنها تشبة صفًا من الأظافر. ولكنها لم تكن كذلك. كانت أسنانها صغيرة، ناصعة البياض بفرق صغير بين السنتين الأماميتين. حسنًا، هل صحيح أننى لم أرها تبتسم أبدًا من قبل؟ فكرت بحذر ما الذى يجب أن أقوله بعد ذلك - إذ كنت أخشى أن تصدر منى كلمة فظة قد تضيع هذا المشهد الخلاّب. سألتها: **"كم من الوقت تعتقدين أنك أمضيت فى هذه الخزانة؟"** أوه، يا رجل، وصار لهذه الابتسامة صوت - إنها تقهقه.

"وقت كافٍ بالنسبة إلى لأعرف أننى لم أكن ميتة بل بالكاد فى خزانة."

"إنه وقت طويل إذًا."

ضحكت وأقسم أن السماء، انخفضت فوق رأسينا، وانفتح شعاع ثاقب من ضوء الشمس. **"وقت كافٍ لأن يظنوا أننى حمقاء."**

"آه، حسن، لم يمض وقت طويل إذن." يا رجل، لقد تماديت جدًا. فلم يمض وقت طويل منذ أن لفظت تلك الكلمات حتى أردت أن أشفطها ثانية وأحشرها فى فمى الكبير. وكالشبح اختفت وتبخرت كل آثار الضحك والابتسام.

قالت: **"هل تغيظنى، يا جلبرت جوزيف؟"** كنت مستعدًا لأن ألقى نفسى على الأرض وأن أجعلها تمشى فوقى. ولكن انقشعت الغمة. وقامت هى مداعبة، بضرب ذراعى.

ثم واصلتُ بحذر: **"ماذا فعلت عندما خرجت من الخزانة؟"**

"غادرت الغرفة."

"ألم تقولى أى شىء للسيدات اللاتى كن يضحكن عليك؟"

" ماذا كان هناك ليقال؟"

"كان عليكِ أن تخبريهن أنها كانت خزانة مثيرة."

"أنت أحمق."

"هذا ما كنت سأقوله إن كنت مكانك."

"ذلك لأنك أحمق. لا. كان علىّ أن أخبرهن أن خزانتهن كانت عاراً عليهن."

"نعم، جميل."

"لأنها كانت كذلك. فقد كانت بحاجة للتنظيف والترتيب. لقد جُرحت قدمى فى الجردل."

"انتظرى، هاه! هل تقولين لى إنك جرحت قدمك لأن هؤلاء القوم لم يكن بمقدورهم الحفاظ على خزانتهم فى وضع مرتب؟ كان عليك أن تخبريهن أنك معتادة على الخزائن النظيفة فى المكان الذى أتيت منه."

"لكننى معتادة فعلاً على ذلك."

"أوه، أنا لا أشك فيك فى ذلك الأمر، يا ذات القدم المتسخة."

كان وجهها رائع الجمال مكسوًا بالسعادة، حتى إننى رغبت فى تقبيله. ولكن لا، لا، لا، لا. لا تسرح بخيالك بعيدًا يا رجل. فنفحة هواء دافئة ليست هى الصيف. قلت: **"أقول لك شيئًا،"** حيث طرأت لدىّ فكرة قد تطيل عمر هذا الجو المبتهج، **"هل تودين رؤية الملك؟"**

بينما كانت هورتنس تنظر خارج الحافلة على المدينة حولها، كنت أنظر إليها متفحصًا. كانت تتوهج وتسعد بكل موقع تمر به الحافلة، حتى إن قوامها الممشوق الجميل لم يتمكن من أن يمنع صوتها من الصياح: **"انظر، هذا ميدان بيكاديلى. لقد رأيته فى الكتب. هذا التمثال اسمه إيروس."** وبسعادة، راحت تلتفت برأسها لرؤية ما بالخارج. وكل شىء استقرت عليه عيناها السعيدتان كانت تشير به إلىَّ. **"جلبرت، هل ترى؟ هذا هو مقر البرلمان، وهذه الساعة الكبيرة تسمى بيج بن."**

وبرغم أننى رأيت هذه الأماكن مرات عديدة من قبل، فقد كنت أمط برأسى عاليًا لأتظاهر بالابتهاج. كانت مسرورة للغاية بمكانها فى أعلى الحافلة، حتى إنها وضعت يديها كما لو أنها على عجلة القيادة، وهى تقول: **"تستطيع أن تتظاهر بأنك سائق الحافلة من هنا."** ورغم، أننى لم أتمكن من الشعور بإثارة هذه التجربة. سائق الحافلة - أوه، يالله! - بحظى هذا، يحتمل أن أكون ذلك فى يوم من الأيام.

أسقطت حمامة وقحة فى ميدان ترافلجار فضلاتها على كم معطفها. فسألتنى: **"هلا تعطينى منديلك؟"**

قلت: **"عذرًا، سيدتى، ولكن ما الذى حدث لمنديل يوم الأحد خاصتك؟"**

فقالت: **"ولكن منديلى جميل بينما منديلك خرقة قذرة."** لقد أصابت فى قولها. كانت تمسح القذارة وهى تصرخ عندما حطّت حمامتين على قبعتها. **"أبعدها عنى - أنا لا أحبها."** ركضت فى دائرة صغيرة وهى ترفرف بيديها لتخيف الطيور وتبعدها عن رأسها.

"ها، أنت الآن فى حاجة إلى مساعدتى؟"

"جلبرت، لو سمحت. "فأبعدتها عنها. "ما رأيك فى نيلسون؟"

قالت: "لديه الكثير من الطيور."

وقفت بوقار كما لو أنها ناسك أمام مذبح الكنيسة، وشهقت، مبهورة ومذهولة بقصر باكينجهام. قالت: "إنه رائع وأخّاذ." لمست فتاة صغيرة تمسك بعروستها ذراع هورتنس ثم ركضت بعيدًا. ولم تلبث أن ذهبت حتى تبعها ولد صغير. شعرت هورتنس بلمسته، فنظرت حولها ثم سألت الولد الصغير: "نعم؟"

فحملق فى وجهها بنفس تعبير الدهشة الذى شعرت به هورتنس وهى تقف أمام القصر الملكى. ثم قال لها: "أنت سوداء،" قبل أن يركض بعيدًا. وما كان من هورتنس، ساعة أن شعرت بالناس حولها، أن عدّلت من قبعتها وقفازيها.

"هل أعجبك القصر؟" سألتها.

فأجابت وهى هادئة جامدة: "لقد رأيته فى الكتب."

قلت: "الناس دائمًا ما تحملق فينا، يا هورتنس."

فردت علىَّ بأسلوب لاذع: "وأنا لا ألقى لهم بالاً."

"جيد، هل تعلمين لماذا؟ لأن الملك لديه نفس المشكلة." إلا أن أنفها كان يشمخ فى الهواء عاليًا وخشيت أن أفقدها من جديد. فمددتُ لها كوعى حتى تمسكه وقلت: "تعالى، دعينا نتمشى مثل الملك والملكة فى شارع المول(*). ولكنها مصت أسنانها وأشاحت بعينيها بعيدًا عنى.

(*) فى الأصل: "Mall" وهو الشارع الذى يمشى فيه الملك أو الأسرة المالكة أثناء المناسبات التى يحضرها الشعب (المترجمة).

اشتريت لها فنجانًا من الشاى وكعكة فى كافيه. سألتنى: "**لماذا تهدر مالك على الكعك، سوف يفسد شهيتك نحو الطعام الذى سأعِدُه.**"

أوه، أتمنى ذلك، ذلك ما فكرت فيه. بالطبع لم أنطق بهذه الكلمات لأنها ستؤدى إلى قلب مزاج هذه المرأة ليصير من جديد مثل الضباب المعتم البارد الذى أشاهده عبر نافذة المقهى. من يعلم إلى متى جلسنا هناك فى صمت نأكل كعكنا، ونحتسى شاينا؟ لست أنا، ذلك أن ثلاثة رجال أتوا لتحيتى بإيماءة رأس مبتهجة، وهم ينظرون إلى هورتنس ويغمزون لى: "**تمام كده، يا رجل ـ لديك سيدة ملونة جميلة.**"

سألتنى هورتنس: "**هل تعرف هؤلاء الرجال؟**"

فأخبرتها: "**إنهم من الوطن.**"

"**وهل تعرفهم جميعاً؟**"

"**أعرف أنهم من الوطن.**"

"**ولكنك لا تعرفهم؟**"

"**لا، ولكن أعرف أنهم من الوطن.**" لم أخبرها أننى فى بعض الأيام كانت تغمرنى السعادة عندما أرى وجهًا أسود لدرجة أننى كنت أشعر برغبة فى أن أجرى وأحتضن هذا الغريب المألوف. خلعت قفازًا أبيض سخيفًا لتمسح بعض الفتات من على شفتيها فشعرت وكأنى أذوب. أنا لست رجلاً مغامرًا ولكننى رجل يائس. فسألتها: "**وبعد، كيف وجدت لندن؟**"

قالت: "**لقد حلمت أن آتى إلى لندن.**" لم تكن عيناها علىَّ بل كانت مركزة على الشاى الذى كان يهتز فى فنجانها.

"حسنًا، كما ترين، لا تصبح أحلام الكثير من الناس حقيقة."

واسمع ذلك ـ بلا سابق إنذار أجهشت فى البكاء من جديد. اللعنة ـ كنت أفقد تأثيرى عليها. الدموع تتساقط فى شايها. فخرج منديل يوم الأحد. وبيدٍ مرتعشة كانت تربت من جديد على عينيها. فكرت أن أعتذر ولكننى خشيت أن تتساقط كلمات بلهاء من فمى المهمل. كانت تلك يدًا خجولة مترددة التى مددتها عبر الطاولة لأضعها على يدها. وكنت منتظرًا منها أن تقوم هى بصفعها بعيدًا. ولكنها لم تفعل.

ثم قالت بنعومة وهدوء: **"ماذا سأفعل الآن؟ كنت أظن أننى سآتى إلى هنا وأدرس."**

فأخبرتها: **"لا تقلقى، أستطيع أن أتولى رعايتك."**

وكما توقعت، سقطت منى كلمة عابثة. فسحبت يدها بعنف شديد من تحت يدى، حتى إن يدى صفعت الطاولة. ها، لا، يا رجل، فلن تخدعنى هذه المرأة أكثر من ذلك. بدأت كلامى: **"أنا زوجك ..."** قلت ذلك بصرامة شديدة، أعرف هذا. وأنا أنظر إلى شفتها التى برزت غضبًا غيرت بسرعة من كلامى: **"حسنًا، تعالى، دعينى أرى. ماذا نستطيع أن نفعل أيضًا؟"**

فهزت كتفها فى استهجان.

"هل يمكنك الخياطة؟"

فقالت لى: **"بالطبع."**

"هل هذه "بالطبع" مثل يمكنك الطبخ؟ أم إنها "بالطبع" لأنك تستطيعين بالفعل الخياطة؟"

"أستطيع الخياطة. كنت أخيط منذ أن كنت طفلة."

فقلت: "جيد، إذن، أعرف أين يمكن أن أجد لك عملاً ما."

"فى الخياطة؟" قالت ذلك وهى تصرخ، وقد اختفت كل الدموع من الغضب. "ولكن أنا معلمة."

"وستكونين معلمة حتى وأنت تخيطين."

فقامت بمص أسنانها فى أكثر سلوك غير ملائم بالمرة بالسيدات. ولذلك أخبرتها: "هورتنس، ألم تخبرك أمك أبداً أن: عندما تيأسين ما باليد حيلة؟" انظرى إلىَّ، لوقت طويل وأنا أقود الشاحنات ولكن فى يومٍ ما..." ترددت.

قالت متسائلة: "ماذا؟"

"فى يوم ما سأقوم بدراسة القانون." يا رجل، بدت هذه الكلمات فى غاية الحماقة. قلت ذلك فى الهواء البارد فى ليلة من ليالى لندن، حتى إن ذلك الحلم الذى لا أمل فيه حلّق بعيداً عن متناولى حتى إننى سمعت الملائكة تضحك عليه. كان ذلك دورى لأن أشيح بوجهى. ذلك أننى كنت مهرجًا يتكلم بكلام كبير. فجأة يدها، برقة وحنان، بلطف وُضعت على يدى. لم أجرؤ على النظر لأتأكد أن لمستها كانت حقيقية. فقد يذيبها ارتيابى. استقرت يدها على يدى لدقيقة قبل أن تقول: "أستطيع الطبخ."

"كلا، لا تستطيعين."

"معلمتى، مدام بلمترى قالت إن كعكتى كانت الأفضل خارج محلات الشاى فى جنوب إنجلترا."

"هل تذوقتها معلمتك؟"

"طبعاً."

"ومع ذلك ظلّت تقول إنها أفضل من تلك التى أكلتها فى محل الشاى."

"نعم."

"هل قالت لك أين محل الشاى هذا، لأننا يجب علينا أن نتأكد من أننا لن نذهب هناك فى يوم ما؟"

"هل تغيظنى، يا جلبرت جوزيف؟" وبمجرد أن قالت ذلك حتى جاء رجل آخر إلى طاولتنا. كان كبيرًا فى السن يشعر بالبرد. كانت هناك كوفِيّتان حول رأسه وقبعة بنية مُطبّقة عند مقدمة رأسه.

"يوم بارد، صح؟" قال ذلك وهو يبتسم، بالأسنان القليلة التى تبقت لديه.

فقلت: **"نعم، يا رجل."**

لم تكن رائحته جيدة، كانت بشرته البنية مغبرة باللون الرمادى من الأوساخ. كانت معاناة بالنسبة له أن يميل قبعته لهورتنس حيث إنها كانت مدفوعة للخلف كثيرًا. ولكنه فى النهاية خلعها. ثم قال لها: **"يا له من طقس بارد هذا اليوم، يا سيدتى."**

نظرت إليه، من أول رأسه الملفوف بالكوفيات، مرورًا ببنطاله الفضفاض المتسخ، حتى حذائه القذر. نظرت بسرعة حولها وفى غمضة عين، عادت إلى هذا الرجل. وأجابته: **"لقد اكتشفت أن جو هذا البلد بارد للغاية."**

فخلع الرجل قبعته من جديد. **"آه، باردة جداً، ياسيدتى،"** وتمتم، وهو يواصل مشيه: **"بارد جداً."**

الفصل الثانى والخمسون

برنارد

شعرت وكأننى لص، أعلم. إلا أن الرجل لا يسرق بيته. ولكن استدارة المفتاح فى القفل. وأشياء غير مألوفة فى الغرفة. والرائحة الغريبة. كل هذا جعل الأمر يبدو بشكل ما وكأنها عملية سريّة. أعلم أنهم قد خرجوا. فلقد رأيتهم يغادرون فى الصباح. وهم يرتدون أبهى حُللهم. بصعوبة قد تتصور مدى غرابة وشذوذ مظهرهم. سيكون ذلك صعباً، أنا أعرف، ولكنهم لم يحاولوا بالمرة أن ينسقوا ملابسهم. فبدلته أنيقة ولكنها فضفاضة كصعلوك متشرد. أما هى فكانت ترتدى الكثير جدا من الملابس ـ فقد كانت ترتدى قفازات بيضاء فى يوم عادى من أيام الأسبوع. ومع ذلك، طرقت الباب بضع مرات ـ للحيطة. فمن يعلم كم من المزيد منهم قد يكون بالداخل؟ كان مجرد للحذر. وليس خوفًا أو رهبة. كائنات متقلبة سريعة الانفعال. ليس هناك من حاجة لأن تستفزهم أكثر من اللازم.

كان هناك صندوق ملابس ضخم يسد الطريق إلى الباب. بصعوبة كانت هناك مساحة لأن ألتف. جرحت قصبة ساقى وأنا أحاول التحرك بين السرير والكرسى. كانت هناك رائحة غاز غريبة. أتساءل إن كانوا يعرفون كيف يستخدمونه بالشكل الملائم. فلا يمكن أن يكونوا شديدى الحذر. تحققت من المحبس ولكننى وجدته مقفولاً بشدة. كانت الرائحة العفنة تتشبث بالغرفة مثل الأتربة. وتمددت قطعة قماش قذرة مهلهلة على السرير. أما الكرسى ذو الذراعين فكان أعرج مقطوعًا ـ ملىء بالثقوب كالغربال. أزهار ميتة فى برطمان مربى. كان المكان كارثيًا.

اعتادت أمى على استخدام هذه الغرفة. فى الخياطة، والتصليح، والقراءة وأشياء من هذا القبيل. دائمًا عندما كنت أفتقدها، وأنا طفل صغير، كنت أصعد السلالم. إن كان الباب مغلقًا، أعرف أنها بالداخل. كنت أنقر على الباب ثلاث مرات، بهدوء.

كانت تقول: "**كيف يتصرف الأولاد الصغار المؤدبون؟**"

وكنت أجيبها: "**نراهم ولكن لا نسمعهم.**" عندها فقط كانت تسمح لى بالدخول. وكانت تغرينى بالجلوس بجانبها على كرسيها. وكنت أشاهد أصابعها فى ضوء النار الخافت وهى ترتق برشاقة الجوارب على فطر عيش الغراب. أو وهى تطرز شيئًا رائع الجمال. وأى خطوات أقدام أخرى تسمعها على السلالم كانت تتوقف عن عملها. وتستمع. وشفتاها تعد بصمت السلمات التى يُصعد عليها. ثم يغلق باب وتقول عندئذ (ليس لى، ولكنها ضوضاء بالخارج) إنه فلان. ويكون ذلك نزيلاً قد وصل للتو إلى المنزل أو غادر للتو إلى الخارج.

نادرًا ما كان أبى يصعد إلى هنا. على الأقل لم يكن يقطع كل هذا الطريق لينضم إلينا وأمى على قيد الحياة. كانت تعرف وقع خطواته، كما ترى. كان يصعد ثم يخرج، مهتمًا بأن يعرف ما الذى أراده قبل أن يذهب بعيدًا. ولِد أبى فى هذه الغرفة. وكذلك والده واثنتان من عماته. غرفة للنساء. هكذا أطلقت أمى عليها. ليس فقط بسبب عدد الولادات التى حدثت فيها. ولكن بسبب المنظر الذى يطل عليه شباك الغرفة. فقد كانت تتجسس على كل الشارع بدون أن يلحظها أحد، كما كانت تقول. كانت تلك قمة العالم.

فى برايتون (وكذلك فى الشرق)، كنت كثيرًا أسرح بفكرى مشتاقًا إلى السلالم الخشبية بصريرها، والغرف الفارغة التى تُماثل الكهوف اتساعًا، والشبابيك الصعبة الفتح لهذا البَيت العتيق الوقور. أحيانًا كنت أفكر فيه أكثر من كوينى، أعترف بذلك. ولكن الشىء الغريب، كان أننى شعرت بأننى خذلت أمى، وليس أبى. فقد كان البيت مشرفًا على الخراب.

بالطبع، لم تكن الحرب مفيدة فى هذا الشأن. محظوظ أنا - كما سيقول البعض - أن بيتى مازال قائمًا بطوبه وبلاطه لأدّعى أنه بيتى. ولكننى كنت مضيفًا فقيرًا ليس أكثر من ذلك. لم أتمكن من رؤية أى شىء من خلال النافذة الآن. كانت الستائر ممزقة متسخة. هؤلاء الملونون ليس لديهم نفس معايير حياتنا. لقد رأيت ذلك هناك فى الشرق. ليسوا معتادين على أسلوب حياتنا.

عندما كنت فى روما... تُهت بين المهاجرين. لم يكونوا يعرفون حياة أفضل، تمامًا مِثل الأطفال، كما يعتقد السيد تود. ولكننى لم أتفق معه فى وجهة نظره. فلم يسبق له أبدًا أن ذهب إلى الشرق. ولم ير مطلقًا كم أن هذه الأصناف المُستعمرة يمكنها أن تكون

محتالة ماكرة. أطفال؟ كلام فارغ. كان علىَّ أن أصحح له الأمور. فأنا أكثر منه خبرة، كما تعلم. فالوصفة لحياة هادئة هى نفسها الوصفة لحياة هادئة لهم. قامت هذه الحرب من أجل أنه ربما يتمكن الناس من أن يعيشوا بين الشعوب التى ينتمون إليها.

بمنتهى البساطة، كل فرد لديه مكانه فى العالم. إنجلترا للإنجليز وبلاد الهند الغربية لهؤلاء الشعوب من الملونين. انظر إلى الهند. تعلم الإنجليز معنى الإنصاف. فقد تركوا الهند للهنود. كان هذا ما فعلناه. (بدون النظر إلى الطريقة السيئة التى فعلوا بها ذلك.) كل واحد كان يحاول الرجوع إلى الوطن بعد الحرب ليعود إلى أهله وذَويه. باستثناء مستعمرات الملونين هذه. فليس لدىّ أى مشاعر ضدهم وهم هناك فى أماكنهم. ولكن مكانهم ليس هنا. يعتقد السيد تود أنهم لن يتحملوا سوى شتاء واحد من فصول شتاء إنجلترا. تمنيت أن يكون على صواب. فهؤلاء المتسكعون ذوو البشرة البنية لم يمثلوا شيئًا سوى المتاعب.

لم أسمع وقع خطوات أقدامهما على السلالم. فلم تعد حاسة السمع لدى حادة منذ كنت فى الهند. (والفضل يرجع إلى الرصاص والقنابل فى ذلك.) على أية حال أنا أقف على أرضى. لم أقم بشىء خطأ. كانا يبدوان فى حالة مزرية عندما دخلا إلى الغرفة. كزوجين مبللين من مغنى العصور الوسطى المتجولين البلهاء بعد انتهاء عرضهما المرح. تزينا كلاهما بألوان ساحلية. كانت ملابسهما إلى حد بعيد مهلهلة ورقيقة بالنسبة للطقس عندنا، كما كانت مُتدلية ومتراخية بفعل البلل. هؤلاء الناس ينتمون للأجواء الحارة. سيكون من اللطف والطيبة أن يعيدهم المرء إلى المكان الأصلىّ الذى جاءوا منه.

نظرنا إلى بعضنا البعض لوهلة طويلة، نفكر مليًا ما الذى سيحدث بعد ذلك. ضاعت الكلمات من كلينا قبل أن يتسنى ذلك الشخص الأسود بسؤالى عما أفعله فى الغرفة.

"**كنت أتجول فى المكان.**" قلت له.

يخبرنى هذا الوقح الوضيع أن هذه الغرفة ـ التى هى فى أعلى منزلى ـ تعد فى الحقيقة غرفته.

"**عذرًا أختلف معك.**" قلت.

بدا محتارًا فى فهم هذه الجملة. وحملق فىّ كما لو كنت أنا الغريب.

"**هذا بيتى.**" قلت هذه الجملة بحذر لكى يتمكن ذلك الأحمق من فهمها. ولكن ذلك لم يجد نفعًا.

وطبقًا لرأى هذا الأسود فليس بمقدورى الدخول إلى غرفته هكذا بكل بساطة. فأنا بشكل ما أحتاج إلى إذنه. أنا لا أعتقد هذا.

"**أستطيع أن أتجول فى أى مكان يعجبنى فى بيتى.**" استفزه ما قلته وجعله يبدأ فى الغضب.

فصرخ قائلاً، الإيجار. قال إنه يدفع الكثير من أموال الإيجار.

"**أنا لست مهتمًا بما دفعته،**" أخبرته، "**فهذا بيتى.**"

انتهت المناقشة بخصوص ما يهمنى إبلاغه. أما هو، بالطبع، فكان له رأى آخر. فقد كان يملك من قوة الأعصاب ما جعله يسألنى كيف دخلت إلى الغرفة.

فقلت له: "**ليس هذا من شأنك.**" ولكننى مع ذلك أريته المفاتيح. وتركته يدرك بلا أدنى شك من هو صاحب اليد العليا فى هذا

البيت. ولكن لم يبد أن ذلك قد حظى بقدر من الاهتمام لدى هذا الرجل الأسود. حيث ظل يأمرنى بأن أخرج من الغرفة. رافعًا صوته. لم يكن هناك ضرورة لذلك، بالطبع. ولكنى كنت قد تعلمت درسًا قاسيًا بالفعل من هؤلاء القوم ـ تعلمته على يد صاحبه ذى الفم الأحمق بالطابق السفلى. ليس هناك عقلانية ومنطق فى التعامل معهم. ولم أكن أريد المزيد من العنف. ولكننى قاتلت فى الحرب حتى أحمى بيتى والوطن. ليس من أجل أن يغزونى المتسللون.

"هذا بيتى، وسادخل إلى اى غرفة أريدها." أبلغته.

كان التالى هى خصوصيته التى كان يزعق ويصيح عنها. وقال إنه يدفع الإيجار ولذلك فهو يستحق ـ أجل، يستحق ـ قدرًا من الخصوصية.

جعلنى ذلك الأحمق الوضيع لا أجد الكلمات لأرد عليه. **"أنت تستحق. . أنت تستحق!"** كان ما يستحقه هو أن يلقى به فى الشارع. هو وكل من تبقى منهم أولئك الخنازير الجاحدين. تقدم بعد ذلك نحوى. وعيناه بارزتان كالمتوحشين. فاضطررت أن أقول له بحزم: **"ساشكوك إلى الشرطة إن حدثت اى مشكلة."** كانت كفَّاه قد رُفعتا إلى أعلى لى. بخضوع وخنوع. أخبرنى أنه لم يكن يريد أية استفزازات. وقال لى إن كل ما كان يهمه هو أن يعرف ما الذى كنت أريده. ولكننى رأيت كل حيلهم هناك فى الهند. ففردت قامتى عاليًا ـ فقد كنت أطول منه، كما تعلم. وأخبرته: **"سيتوجب عليك مغادرة المنزل."**

سألنى أربع مرات عن السبب. واقفًا على مقربة شديدة منى حتى إننى كنت مضطرًا لأن أتنفس هواءه. لم ينفع معه أى شىء.

فأعلمته فى النهاية: "**أنا أبيع المنزل.**" والشىء الغريب، أنه جاهر لى بأن كوينى لم تذكر له أبدًا شيئًا بخصوص ذلك الأمر. كما لو أنها كانت ستفعل. كوينى، دعاها كذلك. قلت له: "**هذا بيتى، وليس بيت زوجتى. وليس عليها أن تخبرك أى شىء.**" وكأننى ضربت عرقًا حساسًا لديه. فقد بدأ صوته فعلاً يعلو بعد ذلك. كانت كوينى من دفع لها الإيجار. كانت كوينى هى من سمحت له بالإقامة هنا. كانت كوينى هى من تجيبه على أى شىء.

فقلت لذلك الأحمق الوضيع: "**سأكون ممتنًا إن دعوتها مدام بلاى.**"

فلم يبد أية اهتمام. وانطلق فى الزعيق من جديد. يريد أن يعرف إن كانت كوينى (قالها ليضايقنى) تريده هى الأخرى أن يذهب. ولكننى سرعان ما أخرسته.

"**أنا أكون لكوينى...أنا زوج مدام بلاى. وهذا بيتى وأتمنى منك أن تغادره.**" كنت أظن أن ما قلته كان واضحًا كفاية ولكن هذا الغبى بليد الفهم سأل نفس السؤال من جديد. فقلت: "**أووه، يا إلهى، يا رجل. ألا تفهم الإنجليزية؟ لقد قمت باستغلال طيبة طبعها. ولكننى قد عدت الآن ونحن ننوى أن نعيش باحترام من جديد. هذا ما خضت الحرب من أجله.**"

كنت أظن أنه يهدئ من روعه. فلقد أخذ نفسًا عميقًا. ونظر إلى قدميه. وعض شفته الكبيرة. ثم ذكر، بهدوء شديد، أنه، أيضًا، قد قاتل فى هذه الحرب. لم يكن لدى شك فى ذلك. فلقد رأيت قوات من المستعمرات هناك فى بلاكبول. تم إحضارهم من أجل الأعمال المكتبية وأشياء من هذا القبيل. كانوا مفيدين، بالطبع، ولكن كان

صعبًا أن يكونوا رجالاً مقاتلين. وكان ظاهر أن كل ما كان يريده الآن هو فرصة فى حياة كريمة. أخبرته: "**اقدر ان اقول ذلك.**" وكنت بالكاد أحتاج لأن أشير نحو الغرفة المثيرة للشفقة التى يسكنها وقد فعلت ذلك. "**ولكن انظر إلى هذا المكان - إنه عار، إنه كارثة.**"

بدأت السيدة فى التحدث عندئذ. ولكننى لم أستطع فهم كلمة منها. كان ما فهمته فقط شيئًا عن محاولة جعل الغرفة تبدو لطيفة. ماذا، لطيفة؟ تقريبًا ضحكت. هذه الأوقات الجميلة فى الأعلى هنا التى قضيتها مع أمى. كرسى أمام نار المدفأة. وإبريق من الشاى، ولكل واحد منا قطعة من كيك المافن. كان ذلك هو الشىء اللطيف. النظر إلى تلك الغرفة الآن يجعل دمى يغلى.

قلت: "**حسنًا، عزيزتى. عليك أن تحاولى بشكل اكثر.**" لم أره وهو يأتى، فقد حدث ذلك بسرعة شديدة. دفعنى بشدة من عند كتفى. وصرخ فىّ، هذا الأسود اللعين، آمرًا إياى بالخروج، لم يكن هناك بُد من ذلك. فدفعته فى ساعتها. هذا الفرق فى الطول، كما تعلم. فلفَّ حول نفسه. حاولت أن أبقى هادئًا. ثم أبلغته: "**كلا، بل انت من عليه ان يذهب خارجًا.**" حمقى حادو الطباع، أولئك المهاجرون السود. مجرد أن يتم إيقاظهم يصعب جدًا وضعهم فى القمقم من جديد. عاد متجهًا ناحيتى. وأخبرنى أن المكان ينهار. قلت: "هراء." حتى هتلر تركه فقط فى حالة رثة بعض الشىء. لا شىء يشبه الأحياء الفقيرة القذرة التى كان أولئك الناس يعيشون فيها. ثم انهارت جرأته الوقحة. لمّح بكلامه بأنه كان صديقًا لزوجتى. قلت: "**كيف تجرؤ؟ صديق؟ مع أمثالك؟**" يا لهم من سريعى الغضب، أولئك السود. إنهم أسوأ من الهنود الخدم. بدأ فى القفز للأعلى والأسفل فى رقصة ما لعينة للحرب وهو يقول شيئًا ما عن الجلطة الدموية.

قال لى إنه سوف يفجر رأسى. ويجب علىَّ أن أحترس من كلامى وإلا سيجعلنى كالهريسة. يجب علىَّ أن أحترس لما سوف أقوله بعد ذلك. سلوك يصدم. كنت سعيدًا برؤية كوينى تسرع فى الدخول من الباب، أقر بذلك.

"ما الذى يحدث؟" صاحت. كانت تلهث مثل كلب البولدوج. **"ما كل هذه الجلبة؟"**

"كنت فقط أقول لهؤلاء - هؤلاء القوم إن عليهم أن يغادروا."

لم يدعها حتى تأخذ أنفاسها حتى كان عندها. يطالبها بأن يعرف ما الذى كان يحدث. يستعطف امرأة. بدون حياء.

فقلت له بحزم: **"سأكون شاكراً لك إن وجهت أسئلتك إلىَّ."**

فصرخت كوينى: **"اخرس."** قالت ذلك لى! سحبت الهواء منى، أعترف بذلك. ثم قالت: **"دعنى أتحدث إليهم."** لا يجب عليك أن تسمع ذلك من زوجتك خاصة أمام الملونين.. **"والآن ما الذى يحدث هنا فى العلية؟" "على هؤلاء الناس أن يرحلوا. فلن يكون لدىّ نزلاء سود فى منزلى."**

فرفع إصبعه إلى عندئذ. وأخبرنى أنه قد حذرنى من قبل أن أحترس من كلامى. فقلت له: **"سأقول ما يعجبنى"**.

ولكن كوينى بدأت فى الصراخ. تريد منى أن أهدأ، هذا ما قالته. ضع جوربًا فى فمك. أغلق فمك. اهدأ. آه يا ربى الكريم، أين كان إخلاصها وولاؤها؟ فقد أخذت جانب ذلك الأسود أمام عينى زوجها. لقد رأى ذلك، بالطبع. ثم أصدر صوت سخرية وتهكم منى وهو يستمع لزوجتى. فقالت له: **"جلبرت، هل يمكنك أن تخرس أنت أيضاً"**. ولكننى لم أنتظر وقلت: **"نعم. اخرج من البيت."**

فهاج من جديد. كما لو أننى لم أوضح الأمر بشكل قاطع. وأخذ فى الصياح مرة أخرى. إنها غرفته وأنه أنا من يجب عليه أن يخرج منها. الوضيع. رمت كلتا السيدتين نفسيهما بيننا. ولكننى تمكنت من إخراج ذراعى. ثم لكمته. وصحت عندئذ: **"هل هذه السيدة زوجتك أم أنك تقضى معها بعض الوقت الحميمى؟"** فأغاظه ذلك أكثر من أى لكمة. وبدأت كل الكلمات البذيئة تندفع من خادم ملون أحمق. حاولت السيدة السمراء بأن تمسكه بعيدًا. كان الموقف بالكاد مسليًا. غير أن كوينى أمسكت بغتة بمعدتها بشدة. كانت تتألم. ووجهها شاحب متورد كأنه تلون بلون التوت البرى. فمها مفتوح باتساع كالكهف. صرخت بقوة وكأنها كائن متوحش. تجمد الجميع فى مكانه وكأننا فى تابلوه مضحك ساخر.

كانت تئن وتشكو باكية: **"يا يسوع المسيح."** وتلوّت مرتين من الألم وهى تقول: **"أوه، يا إلهى."** وهى تقبض بشدة على بطنها ثم التقطت قبضة يد السيدة السمراء.

القلق جعلنى أقول بقلق: **"ماذا هنالك، يا كوينى؟"**

كانت تلهث، ولسانها منتفخ كشريحة لحم مشوية. حاولت السيدة السمراء أن تساعدها للجلوس على كرسى. ولكنها لم تجلس، رغم ذلك. كانت قبضتها متشبثة بمعطف السيدة. فمد الرجل الأسود يده ليسندها. فقلت له: **"أوه، لا، لا تفعل."** ودفعت كلاهما بعيدًا (بعنف، أعترف). **"هيا، دعينا نأخذك لغرفتنا."** حاولت أن أتحمل وزنها ولكنها كانت ثقيلة على نحو غير طبيعى. وكدتُ أوقعها. فقفز هو إلى الأمام، بالطبع، على استعداد لأن يمسك بها. وبالكاد تبينت اللهفة فى عينيه. كانت أصابعه مفلطحة، ثم وضع كلتا يديه عليها. فصرخت: **"أبعد يدك القذرة عن زوجتى."**

فصرخت هى بهستيرية: "**ابعد عنى!**"

هدوء.

ولكن كنت أنا من أبعدَته. جعلتنى قوة صراخها أتعثر وأقع على صندوق الملابس. كان ذلك غريبًا وسخيفًا.

قالت كوينى: "**هورتنس، ساعدينى.**"

"**لا تكونى سخيفة.**" قلت لها.

قامت الفتاة السوداء بليدة الفهم فقط بالإشارة إلى نفسها. وهى متحيرة تمامًا. "**أنا؟**"

فقلت: "**أنت تحتاجين إلى طبيب، يا كوينى.**"

ذهبت لمساعدتها من جديد ولكنها صرخت فىَّ حتى قبل أن تلمسها أطراف أصابعى.

"**هورتنس. تعالى. ساعدينى فى النزول إلى الطابق السفلى. لو سمحت.**"

كان علىَّ أن أدفع الرجل الأسود من جديد. كان مندفعًا للأمام، حتى يشعر بلمسة أخرى. قبض على يده. لم يكن هناك مفر من ذلك ـ فقبضت يدىّ الاثنتين. وأغريته بالدخول فى معركة. بهذا الفارق القليل فى الطول، سترى.

فصرخت كوينى: "**توقفا عن ذلك.**" وهى تفرد قامتها للأعلى، أخذت السيدة السمراء ذراعها. أنزل ذلك الجبان بنى اللون قبضتها التى أخذها كالدرع. قمت بحركة أخيرة لمساعدة كوينى. ولكنها رفضت أية مساعدة منى. كانت فى حالة من الهدوء. ثم قالت مستعطفة: "**برنارد أرجوك، ابعد عنى فحسب.**" ثم خرجت كلتاهما من الغرفة يترنّحن كجرحى المعركة.

الفصل الثالث والخمسون

هورتنس

لم يكن كافيًا أن أدير المفتاح فى القفل لأغلق الباب. فقد طلبت منى مدام بلاى أن آخذ كرسيًا لأقف عليه حتى أتمكن من غلق الترباس. فقلت لها: **"سيحبس زوجك خارج منزله."** ولكن تسببت احتجاجاتى فى جعلها فقط تقول: **"جيد."**

فى الحقيقة لم يكن قلقى على كونه سيحبس بالخارج، وإنما أننى سأحبس نفسى مع هذه السيدة التى تتلوى من الألم. كنت خائفة، لأن الألم راح يلوى وجهها فجعله قبيحًا. قلت لها وأنا أستعطفها: **"يجب أن نستدعى طبيبًا. أرجوك دعينى أنادى على زوجك لأخبره بأن يحضر طبيباً."**

ولكنها كانت مُصرّة ـ إذا اتبعت تعليماتها عندئذ فقط ستخف آلامها.

"هل يمكنك مساعدتى فى إيصالى لغرفة النوم؟"

"مدام بلاى، أرجوك، دعينى أطلب بعض المساعدة."

"آووه، بحق الله ـ افعلى فقط ما آمرك به، يا هورتنس."

لفّت ذراعيها حول رقبتى فى عناق قوى. جاهدت حتى أظل واقفة على كلتا قدمىَّ وأنا أسير بها نحو الغرفة المنشودة. حطّت بصعوبة على السرير. ولوقت وجيز فقط ظهرت الراحة على وجهها قبل أن تصرخ من الألم من جديد. كنت أفكر فى الانضمام إليها ـ وأصرخ معها فى البيت حتى تتمكن كلتانا من الخروج من هذه المأساة.

"مدام بلاى، انا قلقة عليك، ارجوك."

وكاستجابة لما أقوله ابتسمت لى ابتسامة واهنة. ولو لم تكن فعلت ذلك ربما كنت سقطت على ركبتىَّ لأرجوها أن تفك أسرى من هذه الورطة. ولكنها أخذت يدى، وأغلقت أصابعى ثم قالت: "**انا اعرف ما بى.**" عندئذ عصرت أصابعى كلها معًا كما لو أنها تستخرج منها العصير. وهذه المرة لم تكن هى وحدها من تصرخ من شدة الألم. وبعدما أطلقت يدى التى تأذت بشدة، أخذت تتصارع وتتلوى فى السرير كأنها وحش هائج. كانت لا تلهث فحسب بل كانت أيضًا تقف على يديها وركبتيها. ثم بدأت تفك أزرار سترتها. وأخذت تهز كتفيها لتخلعها بصعوبة. ومزقت تقريبًا بلوزتها من على صدرها، ففقدت كثيرًا من أزرارها. كانت تتلوى وأنا أساعدها فى خلع تنورتها. وكان سروالها الداخلى الوردى مشدودًا بقوة حولها. سحبته لأعلى إلى صدرها، لدرجة أن الخيط على جانبى القماش كانت تبرز منه قطع من اللحم الأبيض الذى بظّ من العديد من الفتحات. فكرت أن أشيح بناظرى لأن هذه المرأة ستكون عما قريب عارية.

ولكن ما فاجأنى أنى رأيت ذلك، أن جلدها مازال بعيدًا عن التكشف، فقد كانت ملفوفة عند منتصف جسدها بلفافة ضمادة طويلة من القماش. وبينما كانت تفك عقدة الضمادة خشيت من أن الجرح سينكشف ويفتضح أمره. ذلك لأن زوجها لم يبد فى مظهر الرجل العنيف الذى قد يتسبب فى جرح غائر يسيل دمه من طعنة سكين. أو قطع ينتج من عضة شريرة قاسية.

"أرجوك دعينى أحضر الطبيب. فقد يحتاج جرحك غيارًا جديداً." وبالرغم من أننى لم أكن مرهفة الحس والطباع، إلا أننى مازلت أخشى أنه قد يُغشى علىَّ. ولكنها لم تلق لى بالاً أو تهتم لأمرى. وبحرص كانت تفك قطعة القماش التى حولها. أبعدت عينى حتى لا تختلس النظر. ولكن لم يكن هناك قطع، ولا دم، ولا جرح. وكعجينة الخبز المتخمرة التى ترتفع فى صفيحة كانت معدتها، غير مجروحة، تنتفخ بثبات أمامى.

"مدام بلاى، هل أنت حامل؟"

بمجرد أن انحلت الضمادة بالكامل صار ذلك واضحًا جليًا كوضوح الشمس. كانت معدتها البصلية الشكل منتفخة، مرتاحة من أنه كان قد تم إطلاقها من قيدها. تمددت على السرير وهى تطالبنى بإصبع تشير إلىَّ به أن أحضر الوسائد والمخدات حتى تسندها إلى الأعلى. وبعد أن أسندت نفسها، تعرضت لتقلصات أخرى. وهذه البطن تنشد وتلتف حيث كان يحارب الطفل فى داخلها للخلاص. **"أووه، يا إلهى، أظن أنه سيخرج!"**

كيف تمكنت من أن تحتفظ بمثل هذا السر الكبير ملتفًا بشدة حولها؟

"ارجوك، دعينى احضر لك الطبيب، يا مدام بلاى. يجب أن تذهبى إلى المستشفى."

"لا، ليس هناك وقت، فأنا اعانى هذه الآلام منذ البارحة. وهى أسوأ الآن. اعلم أنه سيخرج." ومرة أخرى من جديد كان الألم يجعل وجهها يشيط باللون الأحمر القرمزى. لم يكن من ضمن خبراتى، أن أقوم بتوليد النساء. كنت أرى الدجاج، بالطبع، يضعن بيضهن، ولكن لم تطلب أيًا منهن أبدًا مساعدتى. مسكت يدها وربّت عليها برفق، كان ذهنى مرعوبًا خائفًا يتساءل ما الذى يجب أن يفعل غير ذلك بينما كنت أسمح لعينى أن تخفى دموع خوفها.

وعندما خمد ألمها، تكلمت بأنفاس لاهثة: **"لا تقلقى، انا أعرف ما الذى ينبغى عمله."** ثم حاولت منهكة مواصلة كلامها بقهقهة بسيطة: **"سيكون ذلك مثل ما حدث فى فيلم ذهب مع الريح. أنت تعرفين المشهد..."** قبل أن تُشوه التقلصات كلماتها وتحولها إلى صرخات ذعر وألم. كنت أعرف المشهد جيدًا ولم أهتم بالمقارنة بينه وبين ما يحدث الآن. ما هى الريبة التى يمكن أن تكون هناك فى أن تمثل السيدة البيضاء المرفّهة؟ ولذلك، هيا، هل تعتقد أننى أمثل تلك الفتاة الخادمة الغبية؟ التى ترقص من الرعب عند أطراف سريرها. لا، هيا، أنا امرأة متعلمة. كنت أعلم أن هذه الولادة ستحدث. كان يمكن أن أخبرها: **"ضعى ساقك على الأخرى وابدئى الحياكة، يا سيدة بلاى،"** ولكن الطفل سينزل منها عما قريب. كل ما سيكون علىَّ عمله هو أن ألتقطه. ذهب مع الريح! أغلقت فمى حيث كان فاغرًا من شدة الدهشة وقررت أن أثبت لهذه المرأة الوقحة ما الذى يعنيه أن أنشأ فى جامايكا تحت عناية المحترمة مدام جويل. فخلعت معطفى وقبعتى. ثم ثنيت أكمامى الواحد تلو الآخر. وقلت: **"هيا، يا هورتنس، من الأفضل ان اقوم بغلى بعض الماء."**

كان زوجها يصرخ وهو يقول: "**كوينى، افتحى الباب ـ ما الذى يحدث؟ أنا أطالب بمعرفة ما يجرى**"، صار دوىّ قرعه للباب منتظمًا جدًا حتى إن طرقه لم يعد يفزعنى بعد ذلك ولكنه صار الإيقاع الذى أعمل على وقعه. وضعت الغلاية على الموقد، وجمعت الفوط والملاءات من الدرج، ونقعت قماشًا للكمادات الباردة، وحملت إناء من الماء المنعش، كل ذلك قمت به على وقع ضجيج هذا الرجل.

"**إنها مجرد مسألة نسائية، يا سيد بلاى. سريعاً ما ستنتهى. لا تقلق.**" كنت أقول له ذلك من وراء الباب فى كل مرة أمرٌ فيها من أمامه. فليس هناك حاجة لرجل أثناء الولادة، ولكن أى أحمق يمكنه أن يرى لِم قد يُعتبر السيد بلاى شخصًا دخيلاً. لم يكن الرجل الجاهل حتى عارفًا بماهية علة زوجته. وحتى أغبى التلاميذ فى مدرسة أبرشية هاف وآى ترى ـ نعم، حتى وإن كان بركيفال برون الشرير، الذى يستخدم أصابعه فى العدّ ـ سيكون قادرًا على أن يقول إن السيد بلاى الزوج الذى حضر مؤخرًا لم يكن هو والد الطفل الذى على وشك الولادة.

نادت مدام بلاى علىَّ بصيحة عاجلة للغاية حتى إن نبرتها العالية المجلجلة بدت وكأنها صادرة من الشيطان نفسه. وبالمقارنة، كانت تصدر اعتراضات السيد بلاى، كأزيز هزيل من كائن مثل الفأر.

"**ماذا تفعلين؟**" سألتنى.

كنت على وشك إخبارها بأنه بينما كان كل ما هو مطلوب منها أن تستلقى وتدفع الطفل إلى الخارج، كان مطلوبًا منى أن أقوم بدور الخادمة والقابلة والطبيب، وكلهم فى جسد امرأة واحدة. ولكنها

رفعت يدها، وهى تنادى علىَّ برفق ـ كان كل ما تحتاجه هو أنا. وضعت الفوطة المبللة على رأسها. فأمسكت بها فى ذلك المكان ـ فمها مفتوح فى صرخة مكتومة بلا صوت. كانت الغرفة كريهة الرائحة، عطنة ومكتومة. ولكن أبت النافذة عديمة النفع أن تتفتح.

"دعيها، فقط أخبرينى ما الذى يحصل. هل يخرج؟ أشعر به يخرج." ثم أشارت بإصبع مُصرٍّ إلى المنطقة فى جسدها التى ترغب منى أن أركز عليها. حتى ذلك الوقت كنت قد عمدت إلى تجنب النظر إلى أعضاء مدام بلاى الخاصة. ولأننى كنت غير مدربة على عملية التوليد هذه، فلم أكن على علم مطلقًا أنه فى نهاية الأمر ستكون هذه المنطقة هى المكان الذى يحتاج لأن يتوجه كلُّ انتباهى إليه. حاولت فتح أصابعها بالقوة حتى لا تسحق يدى المواسية مرة أخرى، وعرضت عليها أن تمسك بأحد أعمدة السرير بدلاً منها. ظننت أن حديدة السرير سوف تنثنى وهى تصرخ بأعلى صرخاتها. حدث ذلك بأدب ـ سيكون من الخطأ أن أقول غير ذلك ـ وبتردد، سألتها: **"لو سمحت هل بإمكانك أن تفتحى رجليك أوسع قليلاً، يا مدام بلاى؟"**

فصرخت قائلة: **"نادينى بكوينى اللعينة، بحق الرب،"** كان ذلك بالضبط قبل أن تبدأ فى البكاء.

فقلت لها: **"حاضر، سأدعوك بكوينى، يا مدام بلاى. ليس هناك داع للبكاء."**

"أنا أبكى لأن ذلك يؤلم بشدة!" صرخت.

كنت أتعلم أن السيدات الإنجليزيات يمكن أن يتعاملن فى سلوكهن بطريقة منمقة متميزة إلى حد غريب. ولكن هذه السيدة كانت ـ كانت أغرب امرأة قابلتها قط. وفجأة ابتسمت من جديد:

"أووه، ما الذى يحصل، يا هورتنس؟ هيا أخبرينى." وكان واضحًا لكل العالم أنها كانت سعيدة أنها ستنجب هذا الطفل.

لهذا ألقيت نظرة. ياله من مشهد! مشهد عجيب ربما ـ حيث كان هناك رأس مدور بشعر أجعد أسود بالكامل ملطخ بالدم يندفع إلى خارجها من بين أعضائها. حياة جديدة ستقدم إلى هذا العالم. ولكنه كان تقريبًا أقبح منظر شهدته فى حياتى. منذ أيام قلائل فقط كانت هذه السيدة البيضاء الجميلة تقوم بأعمالها ـ من شراء احتياجاتها، ونشر الغسيل على الحبل، وقضاء النهار مع الجيران ـ أما الآن، فهى مصابة بالإعياء حيث أنهكتها الطبيعة، فقد كانت ببساطة الوعاء الذى يقوم فيه الرب بإظهار عظمته.

لقد فقدت أعضاء هذه السيدة الخاصة كل مظهر من المظاهر التى توحى بأنها بشرية. بالتأكيد إنها لا تستطيع أن تتمدد باتساع كاف يسمح بعبور هذا المخلوق. حسنًا، كل هذا الإرهاق، والالتواء، والضغط، والصراخ. لا أظن أن أقول للرب كيف يتصرف، إلا أن، حسنًا، إن وضع الدجاجة للبيض هو، بلا شك، أمر أيسر وأرقى كثيرًا من الولادة. كنت أشعر بالوخز فى كل مكان فى جسدى من شدة الاشمئزاز والنفور. ولكن من أجل الحفاظ على صحة واستقرار حالة هذه المرأة، ولا حتى الممثل على خشبة المسرح يمكنه أن يواصل التحديق فى ذهول عميق بطريقة أكثر ثباتًا مما أنا فيه.

"الطفل فى طريقه للخروج، الرأس ظاهر هنا." أخبرتها.

"بدأ رأسه يظهر" قالت، "هل يمكنك رؤيته؟" الجلبة التى أصدرتها بعد إذ جعلتنى أستحضر فى عقلى حالة الراحة بعد الإمساك. كنت أرتدى فستان زفافى الأبيض الجميل. ياله من ذهول ألمَّ بى عندما تبينت أننى لن تتوفر لى أية فرصة لأغطى نفسى.

لأن هذا الطفل، الذى يشبه الدمل المتفجر، كان يخرج أكثر فأكثر. وسرعان ما كانت عيناه ترمشان فى الضوء الخافت. مددت أصابعى برفق إلى رأسه الدافئ الزلق.

فقلت: **"يجب أن تدفعيه، يا مدام بلاى."**

وبصرخة حانقة صرخت فىّ قائلة: **"كوينى، نادينى كوينى اللعينة،"** خرجت رأس الوليد بالكامل.

فقلت لها: **"صار رأسه فى يدى."** لأنه كان هناك، موضوعًا على يدى، فى هذا المكان البذىء. كان رأسه مكرمشًا كالورقة المرمية. شعر أسود، أنف بفتحتين، وشفتان مرسومتان فى شكل قوس رائع. فجأة هذا الفم اندفع منفتحًا ليطلق صرخة قوية حادة.

رفعت رأسى لأقول لها: **"دفعة أخرى، يا مدام بلاى."**

عندئذ بدأ رأس الطفل فى الالتفاف ـ كان يلتف بدون مساعدة منى. لم تكن هناك أية ضرورة للتدخل، وفى دفعة واحدة زلقة، وجدت نفسى أحمل الطفل بأكمله.

قلت: **"إنه هنا، إنه معى. إنه معى هنا."** ولكنها سقطت للخلف على وسائدها. **"لقد وُلد، يا مدام بلاى ـ إنه هنا."**

رفعت الطفل بحرص حتى تتمكن من رؤيته. فمدت ذراعيها. كان الطفل كدودة مفتولة لزقة ومتسخة باللون الوردى الغامق، ببشرة ملطخة بالدماء ومجعدة كاليوم الذى ستموت فيه، ومع ذلك ظلّت عينا مدام بلاى مركزة على هذا الطفل ذى الوجه المتذمر وتراه وكأنه شخص يمكنها أن تحبه. كانت تلك بحق معجزة أشهدها. مالت للأمام وأحاطت هذا الوليد بيدين ممتنتين. **"أووه، يا إلهى، أووه، يا إلهى."** ولحسن الحظ ظلّ فستانى نظيفًا.

قلت لها: "**يجب أن ندفئه.**" كان هناك حبل نابض بلون أزرق فضى لامع لا يزال يربط الأم بالطفل. أحضرت فوطة لأنظفه وأمسحه، ولكن ذلك الحبل الحقير جعل كل حركاتنا عسيرة.

قالت مدام بلاى: "**يجب أن نقطعه، أحضرى المقص ـ إنه فى طاولة الزينة.**"

كنت أظن أن مهمتى انتهت، ولكن ها هى من جديد تطلب منى شيئًا آخر أحضره. غسلت الأداة فى وعاء الماء المغلى. ثم جففته بحذر ثم مددت يدى لأناولها إياه.

"**لا، سيكون عليك أن تقومى بذلك، يا هورتنس.**"

وسرعان ما بان الاعتراض على شفتى: "**أنا؟**" أدركت على مضض أننى وحدى من أستطيع أن أقوم بهذه المهمة المقززة.

وضعت الحبل السرى بين شفرتى المقص. هل كنت أشيح بعينى أم أغلقهما؟ لا أذكر ذلك لأن مدام بلاى فجأة كانت تصرخ. "**لا، انتظرى، أحضرى خيطًا.**" أعلمتنى أنه يجب علىَّ أن أعقد عقدتين فى الحبل السرى ــ واحدة قرب الطفل، وواحدة قربها ـ ثم أقطع ما بينهما. كانت مصرة على هذا العمل الغريب، وكانت تراقبنى وأنا أعقد العقد كالمدرس الحازم فى المدرسة. "**جيد، والآن يمكنك أن تقطعيه.**" أخيرًا منحتنى الإذن. لقد قطع المقص ذلك الحبل الغضروفى بسهولة أذهلتنى. وفى النهاية، أخذتٌ الوليد بين ذراعيها، واحتضنته عند صدرها. ثم أخذت بعد ذلك تعاينه وتفحصه مثل صاحب محل مدقق يقوم بمراجعة بضائعه. رفعت ذراعيه لتعدّ بلطف أصابعه. ثم عدّت أصابع قدميه. ثم نفخت برقة تحت كل فتحة فى أنفه. ومسحت عينيه. ثم، بحثت بحذر فى المنطقة بين رجليه ، وقالت: "**إنه ولد. إنه ولد جميل سليم.**"

لم يكن لدىّ وقت للحظات الحالمة هذه ذلك لأن الغرفة كانت باردة، والأم فقدت عقلها، والوليد مازال عاريًا. تزحلقت كل البطاطين على الأرض أثناء تلك الربكة. وأنا أنحنى لأستعيدها وأضعها على السرير، وجدت نفسى مضطربة الحركة بسبب قدمى مدام بلاى. عندما، وفجأة، أصدرت الأعضاء الخاصة لمدام بلاى تجشؤًا ثم طردت للخارج فى حِجر فستان زفافى الأبيض الجميل كتلة غارقة فى الدماء من أحشائها. كانت تشبه قطعة من أحسن قطع من كبد اندفعت تجاهى، كما لو كنت أنا مركز تصويب لهدف ما فى لعبة. جعلت صرختى الحزينة مدام بلاى تحاول جاهدة النظر بين ركبتيها على هذه الفوضى.

فقالت لى: "**آووه، جيد، كان ذلك المشيمة التى تخرج بعد الولادة. لا تقلقي، إن ذلك طبيعى تماماً.**"

انتحب فستانى المسكين الغارق فى اللون الوردى بسبب الأنسجة الدموية المرشوشة عليه. التقطتُ هذه المشيمة الزلقة وغطستها فى وعاء الماء المغلى (وأنا لا أشك أبدًا فى عقلى أن هذه السيدة الإنجليزية ستغسل خضراواتها فى نفس الوعاء غدًا). تفوهت مدام بلاى بشىء عندما شاهدت منظر فستانى المتضرر، ثم قالت بعد ذلك: "**تعالى وانظرى إليه، يا هورتنس.**" كانت تبكى من جديد، "**إنه طفل صغير جميل.**"

قلت لنفسى، يا هورتنس، حسنًا، إنه هدية من الرب ـ حياة جديدة. يا لذلك من ثمن! قليل من القرف على أفضل فستان لديك. ثم قررتُ ألا أعير ما حدث لفستانى أى اهتمام.

كانت قد مسحت كل الدم والقذارة الصفراء من على وجه الطفل، ولفته بإحكام فى الفوطة المتسخة. سحبتُ قطعة القماش

للأسفل، بعيدًا عن ذقنه، حتى أتمكن من الحصول على رؤية أفضل. نظرتُ إلى الطفل. ثم توجهت عينى مباشرة إلى مدام بلاى، التى كانت تغمغم بكلمات غير مفهومة لشخص ناضج تمامًا. نظرتُ مجددًا للطفل لأتأكد أن ما رأته عيناى ما هو إلا حقيقى. ثم إلى مدام بلاى مرة أخرى، تفحصتُ وجهها لأبحث عن علامة تشير إلى أن ما استطعت رؤيته أنا رأته هى الأخرى. ولكن استجابتها الوحيدة كانت ابتسامة محبة وهى تمسح بحنان الشعر الأسود على رأسه. هل من الممكن ألا تكون هذه السيدة لاحظت ذلك؟

فقلت لها: "**طفلك أسود البشرة.**" إذ سرعان ما اختفى ذلك اللون الوردى الغامق، وتبين أن بشرته اغمقت لتصير أغمق من لون بشرتى. "**مدام بلاى، هل تعرفين أن وليدك طفل أسود.**" وبلهجة حالمة أخبرتنى بأن أدعوها كوينى. "**مدام بلاى هل تستطيعين سماعى؟ لقد انجبت طفلاً أسود.**" بدت بشرة هذا الطفل غامقة للغاية وهى تقبع هنالك بجانب بشرة أمه الشديدة البياض الباهتة تلك. لوهلة، تساءلت إن كانت هذه المرأة الشقراء قد بدلت طفلها بآخر، ولكننى كنت حاضرة أثناء الولادة. إذن، بأى طريقة قد يتم ذلك؟ "**مدام بلاى، هل ترين أن طفلك ليس أبيض اللون؟**" ولكنها لم تهتم لما أقول، وبدأت فى عدهم من جديد ـ عشر أصابع. عشر أصابع فى القدمين. تقول لى. نعم ـ وكل واحد منهم أسود اللون!

قد فقدت هذه السيدة أى صوت للمنطق، عندها سمعت صوت جلبرت جوزيف عند الباب. "**هورتنس، ما الذى يحدث بالداخل؟**" هل كان ذلك الله يتدخل مشيرًا بإصبعه؟ بعدما تكلم جلبرت، كان السيد بلاى بصوت صاخب، يُعلم جلبرت أنه يجب أن يبعد نفسه

عن الباب ويغادر، حيث إن، على كل حال، كان ذلك بيته. فى الخارج كان كلاهما موجوداً، وكانا لا يزالان يتعاركان. نظرتُ إلى مدام بلاى وطفلها، كانت هادئة صافية كمريم العذراء فى السرير المبعثر. وبان أنه وقاحة قاسية أن أسألها: **"هل يمكن أن أدعهم يدخلون الآن؟"**

الفصل الرابع والخمسون

جلبرت

الآن حسنًا، دعنى أفكر من أين أبدأ. يجب أن أبدأ بهورتنس. كالسفاح الملطخ بالدماء، خرجتْ من باب شقة السيدة بلاى بالطابق السفلى. لُطخ فستانها الجميل الأبيض كليًا بالدم من الأمام. وكانت يداها لُطخت ببقع من الدم المختثر القرمزى مثل جزار منحوس، ومع ذلك، أمسكتْ بمعطفها وقبعتها برقة.

"**تستطيع أن ترى زوجتك الآن، يا سيد بلاى.**" كان هذا هو كل التوضيح الذى خرج من بين شفتيها. وعندما مرَّتْ من جانبى لتصعد على سلالم الدرج إلى غرفتنا، شمخت بأنفها عاليًا فى الهواء، ومن العجيب أن رقبتها لم تتكسر. حسنًا، كان هذا ما تصوره ذهنى. ألا وهو أن كوينى بطريقة ما قد أهانت زوجتى صاحبة الكبرياء العالى. قبعتها موضة قديمة؟ أو لغتها الإنجليزية ليست جيدة؟ من يدرى؟ أى شىء مهين عن ذلك قد تعتبره هورتنس إهانة بالغة لا تغتفر. وتبعًا لسياسة الرد بالمثل والانتقام قامت هورتنس ـ

بسكين، ربما، أو ببلطة ـ بقتلها. ولم يتبين الأمر جليًا لمخى الفارغ، عندما كنت أقف وراء السيد بلاى، حريصًا ألا يصدر منى أى صوت لكى لا أزعجه بوجودى، إلا وأنا أنظر إلى السرير الذى تنام عليه كوينى وبجانبها مولود جديد ذو بشرة بنية داكنة للغاية، ياه، يا رجل، كلا، إن المشكلة أكبر وأخطر من ذلك!

لم أشعر بصمت فظيع مثل هذا الصمت المطبق من قبل. نحن الثلاثة ـ لا، نحن الأربعة ـ قد عُلقنا فى مشهد يتحدى أى تعليق عقلانى. وكوينى تُدلّل خلف أذن رضيعها الذى مازال واضحًا عليه البلل. والرضيع الطاهر يتلوى بين يديها، غير مدرك للوضع الملعون الذى خرج إليه. ومسح زوجها ـ محدقًا بهما راجعًا فى خطوات ثابتة كما لو كان يرجع أثناء الموكب الاستعراضى ـ رأسه بيده للأمام والخلف يفكر فى أى رجل أسود تسنى له معاشرة زوجته سيتهمه بالضبط. أما أنا فقطبتُ حاجبى. لأنى أعلم بأن كوينى خسرت القليل من الوزن لكن الأمر المدهش هو أن تجد ذلك الوزن الذى خسرته من النوع الذى تلبسه قلنسوة الرضيع. بعض الكلمات ينبغى أن تقال لكسر برودة تلك الورطة الباردة. ولهذا كنت أنا من بدأ الكلام قائلاً: "**هلا أحضرنا الطبيب؟**" ثم أدار الزوج المخدوع ببصره ناحيتى. تسود علامات الذهول ملامح وجهه، كادت تكون مضحكة. لكن الجانب المضحك لم يكن من المؤكد المشكلة التى يواجهها فى تلك اللحظة. ركزتْ عيناه فى عينى. وفى تلك النظرات الثابتة يكمن الألم الحقيقى. فى حاجة ملحة ضرورية بدأ لسانى فى التحرك فى فمى لتخرج الكلمات لتوضح قائلاً: "**كلا، يا رجل، لا علاقة لى بهذا الموضوع،**" عندما صرخ بى بغضب شديد.

أطبقت قبضة كفيه على تلابيب سترتى. لقد تم رفعى من على الأرض. تعثرت قدماى وهما تحاولان أن تجدا لهما موقع قدم حينما دفعنى بعنف خارجًا من غرفة النوم إلى البهو. انخلعت فردة حذاء. ياه، لقد كنت أرتجف مثل صبية. لست خائفًا ولكن من شدة الذهول. ولأول مرة أنتبه بأنَ هذا الرجل أطول منى. نحيف؟ لقد انتفخ هذا الرجل أمامى، وانفجر من شدة الغضب. لم يكن لدى القوة لكى أكبح هذا الغضب. خبط ظهرى بالحائط بشدة. كل عضلة فى جسمه وكل سنّة فى وجهه كانت تعبر كم هو مستشاط من الغضب. وعلى بعد بوصة واحدة منى لفحنى نفسه الذى يتنفسه، معقود اللسان.

وقفت ضعيفًا أمام ذلك، خائفًا من سخط شمشون الجبار. رفعت يدى فقط لأحمى وجهى لأنه ركلنى مثل كلب معه دمية. أخبرته بسرعة: "**لا علاقة لى بهذا الموضوع، يا رجل. إنه ليس طفلى.**" ثم بدأ يلعن ويشتم بألفاظ لم أعرف قط بأن الرجال البيض يعرفونها. "**لست أنا، يا رجل.**" أدارنى بقوة، هذا الرجل الضئيل. لكنى تمكنت من أن أضع قدمىَّ على الأرض، بما يكفى لكى أدفعه بعيدًا. ولكن، مثل دفع صخرة صلبة، وقف ثابتًا فى مكانه أمامى، وجاءت قبضته لتكسر أنفى. وتدفق الدم بشدة، وبدا عليه الصدمة مثلما بدت علىَّ تمامًا. فصحت قائلاً: "**ماذا فعلت، يارجل؟**" الألم الوحيد الذى شعرت به هو شدة رغبتى فى أن أزيح هذا الرجل من علىَّ. خطا بعض الخطوات المشؤومة للخلف خوفًا من أن يلطخ بالدم. فضربته فى رأسه. فتعرقل بكرسى وسقط، مترنحًا، مرفرفًا بيديه، على الأرض. "**هذا جيد،**" قلت صارخًا له. "**هل تأذيت، يا رجل؟ أحسن.**"

ياه، يندفع الدم على ذقنى بشدة، ومسحت أنفى فى كم بدلتى الوحيدة الجميلة. شربت البدلة ذلك السائل الذى يتعذر محوه مثل الإسفنجة. هممتُ بالذهاب. تاركًا هؤلاء القوم البيض ليحلوا مشاكلهم بعيدًا عنى. أدرك بأن لدى مشاكلى الخاصة ناظرًا إلى بدلتى المبقعة، والممزقة، التالفة تلك. العديد من المشاكل.

لكنه لم ينته بعد. لقد وثب ليقفز على ظهرى. كان هذا الرجل متشبثًا بى كأغصان الكرمة. تأرجحت يمينًا ويسارًا حتى أطرحه من على ظهرى. كانت أظافره تخربش وجهى. وبالتالى لكزته بكوعى بقوة فى معدته. انكمش وتقلص بسرعة بالضبط مثل البالون المثقوب، إلا أنه لم يزنزن عاليًا فى الغرفة: انزلق بسلاسة تقريبًا من علىَّ واقعًا على الأرض ـ ضامًا ركبتيه إليه بشدة. أخيرًا، لقد قضيتُ عليه! وبقى على هذه الوضعية هناك. يتنفس بصعوبة مثل طفل يبكى، معصوبًا من شدة الألم على الأرض. حسنًا، أنا لم أضربه بهذه القوة. "**هل انت بخير، يا رجل؟**" سألته، بعد فترة وجيزة. لم أتلق أى إجابة ما عدا نفَسه الذى يشوبه الألم والحسرة. ولهذا قلت له مرة أخرى: "**ياه، يا رجل، أشعر بالأسف لك. لكن لا علاقة لى بهذا الموضوع.**"

وسمعته يتمتم بصوت منخفض قائلاً: "**الموضوع كله له علاقة بك. بك أنت وبنو جلدتك.**"

واسمع ما سأقوله لك، كونى رجلاً رقيق القلب، ذهبت لأساعده لينهض. شعورٌ من الأسف عليه انتابنى بغتة مثل موجة بحر. لا يتمالك أى رجل ـ لا يهم مدى غباء الرجل الأبيض الذى يوصف بكل الكلمات البذيئة ـ النظر إلى زوجته وهى ترضع رضيعًا لم يأت منه هو. فقلت: "**دعنى أساعدك لتنهض، يا رجل؟**" لكنه، نتر يدى

بعيدًا. ثم، وببطء، رفع رأسه، وزنهر بعينه إلى وجهى بحقد واضح لا يخطئه أحد. تهجم الرجل علىَّ، وتساقط الدم من أنفى، متهمنى بكل الأشياء التى لم تتح لى الفرصة أن أفعلها مع زوجته. حسنًا، دعنى أخبرك، فى تلك اللحظة شعرت بالسعادة بأن هذا الإنجليزى النذل قاسى القلب يعانى الكثير والكثير فوق طاقته ليتحمله.

ياه، صعدت الدرجات وأنا أعرج متجهًا إلى غرفتى ـ إحدى القدمين حافية، والأخرى بالحذاء ـ بدلاً من أن أبحث عن فردة الحذاء المخلوعة. دعهم يحتفظون بذلك الحذاء اللعين، لأنى لا أريد المزيد من كوينى ومن حيرة زوجها المعتوه. لقد طفح بى الكيل. ربما إلوود كان على حق. بالطبع هو على حق. بخصوص ماذا؟ لا أستطيع التذكر. لكنه يشعر بالدفء فى جامايكا وأنا هنا أعانى، أنزف دمًا وحافى القدمين. حسنًا، هذا يجعل من ابن خالتى الأذكى من كلينا. وعندما وصلت إلى باب الغرفة وجدته قد تُربس.

ناديت: "**هورتنس، هيا، دعينى أدخل، ياه؟**" كم من الوقت انتظرت قبل أن ألاحظ أنها لن تفتح الباب؟ ناديت مرة أخرى وأنا أرتعش وأحجل على قدمى التى ترتدى الحذاء: "**هورتنس.**" انتابنى القلق من أن تكون قد نامت حيث إنى لا أسمع أى صوت بالداخل. حاولت تحريك الترباس. "**هل أنت بالداخل؟ هيا، أنا أتجمد من شدة البرد هنا. بسرعة.**" وفتح الباب فجأة ووقفت هناك مرتدية قبعتها، ومعطفها وقفازها الأبيض بعناية. وقبل أن يتسنى لى دخول الغرفة قالت لى: "**سأطلب صندوق ملابسى عندما أستقر.**"

"**أين ستستقرين؟**" سألتها. لكنها لم ترد واكتفت بأن تشمخ بأنفها مجددًا عاليًا فى الهواء قبل أن تزيحنى جانبًا لكى تمر. "**انتظرى، ياه.**"

عزمت على اللحاق بها إلا أن قدمى الحافية داست على مسمار. وعندما غُرز المسمار المعدن الحاد فى قدمى خطر ببالى صورة الشوكة وهى تغرز فى البصل المخلل. صرخت عاليًا من شدة الألم. أستطيع سماع هورتنس وهى توجه الكلام لى فى حين كنت أحجل على بسطة الدرج. "**أنت تصيبنى بالقرف، يا جلبرت جوزيف.**"

حسنًا، أخيرًا فهمتُ. لقد محصت الأدلة فى نفسها ووصلتُ لنفس نتيجة ذلك الزوج المعتوه. الطفل البنى الذى فى حضن كوينى يجب أنها رزقت به منى أنا. ياه، وهل أنا الرجل الأسود الوحيد فى العالم؟ لماذا ينظر الجميع إلىَّ؟ لقد عدتُ إلى إنجلترا منذ سبعة أشهر فقط. لماذا لا يفكر أى أحد فى استخدام أصابعه للعد قبل أن يصدر الأحكام؟

يا هورتنس، دعينى أوضح لك،" ناديتُ عليها. ياه يا رجل، وما إن تلفظت بذلك إلا وشعرت بأنى أريد أن أُعيد تلك الكلمات لفمى الكبير هذا. لم يكن أمرًا مقبولاً. ليس لدى أى تفسيرات لما حدث. الرجال المذنبون هم فقط لديهم ما يفسرونه. كنت أقول لها: "**لم يكن طفلى، يا هورتنس. مضى على سبعة شهور فقط هنا مع...**" قبل أن يوخزنى ذلك المسمار اللعين مجددًا وأفقد باقى الكلمات من شدة صراخى من الألم. "**انتظرى،**" صرخت.

وما إن وصلتُ إلى بسطة الدَّرج عند غرفة جين، إلا وخرجتْ جين من باب غرفتها. الوقت متأخر ـ لقد ارتدت ملابسها للذهاب للعمل. تزينت بالبودرة والألوان فبدت كالدمية القبيحة. نظرت إلى هورتنس، التى قالت لها بأدب، "**مساء الخير،**" وهى تمر من أمامها. ثم أدارت جين بنظرها إلىَّ، متمعنة النظر فىَّ بفضول، ثم انخرطتْ فى الضحك وهى ترمى برأسها للخلف. سمعتُ الباب الأمامى وهو

يغلق. إلى أين قد تكون هورتنس ذاهبة؟ إنها لا تعرف أى أحد، والأسوأ، هى لا تغرف أى شىء.

كم من الوقت استغرقتُ لأجد فردة الحذاء الأخرى؟ الحذاء الوحيد الذى كان أمامى كان غير مناسب. أسرعت النزول على الدَّرج خلف هورتنس وأنا أرتدى حذاءين أيسرين. لم أستطع رؤيتها فى الشارع. فالطريق أمامى غشاه الضباب الخفيف من نفسى من البرد اللافح. يمينًا أم يسارًا؟ ياه، اتبعت ما أملاه علىَّ حذائى - وإذا كانت قد سلكت هى الاتجاه الآخر فكنت مستعدًا بأن ألقى اللوم على حذائى. أخذت أحجل باتجاه الميدان مثل شخص مصاب بالعرج. اقترب منى رجل يمشى مع كلبه. وعندما رأيت نظرة الخوف فى عينيه وقتها فقط أدركتُ مدى رعبه. رجلٌ أسود، مغطى كليًا بالدم، يمشى مشية رفلاء فى حذاءين أيسرين. يا رجل، أقسم أن ذلك الكلب الصغير قفز بين يد صاحبه خوفًا من منظرى. فكرت أن أقول: "**مساء الخير**" لكنى كنت متأكدًا من أن هذا الرجل سيصرخ عندما يدرك بأنى بالفعل إنسان حقيقى. من يقدر أن يلومه؟ فقد كنت قبيحًا كالقرحة وسط هذه الأرض الخضراء جميلة المنظر. إذا لم أجد هورتنس فى الحال ثم آخذها وأرجع للبيت فبالتأكيد سينادى أحدهم على رجل الشرطة. حسنًا، فأنا أبدو كالمشتبه به. فى أى جريمة؟ آوه، أى جريمة ستؤدى الغرض.

إلا أنه بعد قليل رأيتها. أراها بكل وضوح برغم بعد المسافة. إنها نفس المشية المتغطرسة والقفازات البيضاء التى تتحرك كما لو كانت حشرة سراج الليل تطير فى الظلام. لكنها كانت تائهة. وقفت عند الزاوية عند حافة الرصيف تنظر حولها وكأن هذه البقعة المظلمة الباردة هى بالتحديد المنطقة التى تركت جامايكا من أجل

أن تكون بها. لكنها، مثلما حدث وقت الظهيرة، نظرت يمينًا ثم يسارًا. أى الاتجاهين يحمل لها خير البشرى؟

تلك المرأة ليس لها أى خطط. ولا حتى مكان تذهب إليه. لا أم، ولا أخ، ولا صديق، ولا قريب بالجوار قد يمد لها ذراعيه للمساعدة. هذه لندن، ليست كنزهة فى الهواء الطلق مساءً فى كونستنت سبرينغ. هيا، دعنى أواجه الحقيقة وهى، أن تكون بعيدة عنى قد تهوى تلك المرأة من جرفٍ عالٍ.

فكرتُ بأن أنادى عليها لكن سماعها لصوتى عبر نسيم المساء قد يجعلها تهرب. فبالتالى مشيت ببطء باتجاهها، مختبئًا فى ظل أعمدة الإضاءة فى الشارع. وفى تلك اللحظة رأيت ضوء المصباح الأمامى لسيارة قادمة. ووقفت أمام هورتنس. راقبت باب الراكب وهو يُفتح. ومالت هورتنس، التى كانت فى منتهى الأدب مع الغرباء وفى منتهى البراءة أكثر من مولود جديد، لتتحدث مع سائق العربة. كانت بضع ثوان، تغيّر من وضعية رأسها بالتناوب من ألم الانحناء، تنصت بلطف للسائق. أسرعت من إيقاع خطواتى وأخذت ألعن الحذاء الغريب الذى يبطئ من خطواتى. وفجأة استقامت فى وقفتها. ووثبت للخلف مبتعدة عن السيارة قائلة: "**كلا!**"

ومع خطواتها الثانية كانت تندفع بين ذراعى. أخذت تصرخ بصوت عال إلى أن قلت لها: "**هذا أنا.**" ولأول مرة نظرت إلى وجهى بسعادة كسعادة رؤية الأهل. تعلقت بى ـ استكانت رأسها بالقرب من رقبتى مثل الطفل المعاقب. وفى نفس الوقت صفعت سقف السيارة. وقبضت على الباب الذى اندفع السائق لإغلاقه وصحتُ به قائلاً: "**تبًا لك يا رجل. هذه المرأة ليست عاهرتك.**"

الفصل الخامس والخمسون

كوينى

هناك بعض الكلمات التى إذا ما قيلت تقسم العالم إلى قسمين. ستكون هناك الحياة التى كانت قبل أن تتلفظ بها، ثم الوجه الآخر للحياة البديلة بعد أن تُلفظ تلك الكلمات. يستغرق الوقت الكثير ليجد المرء الكلمات المناسبة. تكون مترددًا. يجب اختيار الكلمات بعناية. والإبقاء عليها ولا يفصح عنها قدر ما يستطيع المرء لكى تبقى حياتك سليمة متماسكة. لكن من كل النواحى فأنا أدين لبرنارد بالتفسير.

انتظرته طويلاً حتى يرجع. واصطبرت على هذا الوضع واستسلمت له ـ كان علىَّ البدء من جديد. لم أكن الوحيدة التى أمارس الحب مع أحد على سريرى وكنت مستعدة للقليل من المضاجعة. (نمتُ فقط على ناحيتى لسنوات لكى لا تحولنى أى عادة سيئة لإنسانة شريرة وقذرة عندما يرجع للبيت.) لقد مضى الوقت الطويل وأنا أضيع وقتى سدى بفتل إبهامىّ من شدة الملل. فخرجت

لأبحث على وظيفة. لكن امرأة متزوجة تعمل بينما هناك رجال يستحقون ويستطيعون أن يؤدوا العمل بطريقة أفضل؟ يقولون لى، ارجعى بيتك، وجربى فتل إبهاميك بالاتجاه المعاكس، يا ست. لم أشعر بمرارة الوحدة كالتى أشعر بها الآن. (حسنًا، ربما، شعرت بها فقط بعد وفاة خالتى دوروثى.) أستيقظ كل صباح، أنعم لثوان بالنسيان عندما فقط أستطيع أن أكون أى شخص آخر، قبل أن تثقلنى تلك الرغبة الملحة وتستقر فىَّ مجددًا.

كان الوقت متأخرًا، وهناك من يدق على الباب فناديت على آرثر ليفتح الباب. لقد توفى منذ ثلاث سنوات. لكن كلما دق الباب بالليل أنادى على اسمه. كان أمرًا أحمق، أعرف ذلك. أنادى، ثم أصيح قائلة: "**آوه، لا يهم سأفتح أنا، يا آرثر.**" هذا الأمر جعلنى أشعر بالأمان. فتحت الباب فتحة صغيرة. لكن حتى بعين واحدة وفى الضوء المعتم تعرفت عليه مباشرة. كانت طريقة وقفته مثل وقفة رعاة البقر الذين لا يكترثون لأى شىء. معطفٌ على كتفٍ، معلق بإصبع. وحينما فتحت الباب على مصراعيه التفت بكامل وجهه لى. قلت: "**الرقيب مايكل روبرتس.**" لم يكن يرتدى زيه الرسمى، بل ارتدى حلة سوداء ذات صفين من الأزرار ووضع قبعة بطريقة أنيقة على رأسه.

رد قائلاً: "**كلا، مجرد مايكل روبرتس الآن.**"

بالطبع دعوته ليدخل. لم أفكر فى أى شىء، بالرغم من أنه دخل بشكل خجول، فاحصًا حوله كما لو كان هناك أحد قد يظهر فجأة ويصرخ قائلاً: "**بووو.**" لم يمت، كما، أحيانًا، تساءلت. كلا، لا شىء من هذا القبيل ـ ملأ البهو، كل شبر فيه، بالحياة.

قال: "**انت وحدِك؟**"

"أجل."

"أظن أنى سمعتك تنادين بصوت عال - على حماك؟"

"كلا،" أدرت وجهى خوفًا من ناحيته؛ كى لا يظهر احمرار خدى خجلاً من الكذب.

"زوجك؟"

"كلا."

وببطء ظهرت ابتسامته العريضة مثل نجوم السينما وأضاءت وجهه مثل أضواء المسرح.

وها هى قد رحلت. السيدة بلاى تلك. تلك الكادحة التى تشغل وقتها بالتوافه والتى للتو انتهت من غسل الصحون. ويداها مازالتا خشنتين من أثر مسحوق إزالة الأوساخ. تلك المرأة النكدة كثيرة التذمر التى لم تضع مساحيق الزينة أو تتعطر لأسابيع. خلعتْ من عليها المئزرة الرثة وانطلقت معه مسرعة. لأن هذه المرأة ـ تلك المرأة التى ينظر إليها وكأنها طبق لذيذ ليُلتهم ـ كانت جميلة. كانت مستثارة. أكثر امرأة شهية مرغوب فيها قد رآها على الإطلاق. بدأ بطريقة غاية فى الروعة ونادرة لم يغمض له طرف لئلا تختفى من أمامه.

لقد كان يطير بطائرة لانكستر فى غارة جوية فوق سماء ألمانيا. وأُطلق النار عليه فوق فرنسا. أضرمت النار فى الطائرة. وبارتباك جاهدوا للخروج من الطائرة. وأثناء هبوطهم بالمظلات انشق هو عن بقية الطاقم. سقط كيب، الملاح، مع الطائرة. ولم يعثروا على أى أحد إطلاقًا. (أخت فرانى انهارت عند سماع خبر وفاته.) جنجر انتهى أمره. رآه مايكل وهو يتهاوى إلى الأرض مثل عقب سيجارة

صغير جدًا مختفيًا فى الظلام. فلقد أُضرمت فى أحبال مظلته الحريرية النيران. ولم يره من بعدها مطلقًا. أما مايكل فقد كان محظوظًا. فلقد كان هبوطه على الأرض بسلام. أصابه خلع فى مفصل القدم، هذا كل شىء.

قضى الأيام القليلة فى قطف اللفت من الأرض وأكله نيئًا. وتم العثور عليه فى النهاية من قبل مزارع. المضحك فى الأمر، أن بشرته السوداء هى التى كانت السبب فى إنقاذ حياته. اعتبروه شخصًا غريب الأطوار أكثر من كونه تهديدًا، وبعض القرويين المحليين أتوا حوله ليفركوا اللون الأسود من عليه. وقاموا بتخبئته، ثم سلموه للقوات الأمريكية الذين بدورهم سلموه للبريطانيين فى النهاية. وعاد للديار. حسنًا، عاد إلى إنجلترا. ولم يطر بعدها قط.

جأشت نفسه من الخروج لتلك الغارة لأنه فقد تعويذته التى تجلب الحظ الخاصة به. لم يكن يحب الطيران بدونها. لقد أخبرنى بأن كل طاقمه لديهم تعويذاتهم الخاصة بهم ـ شريطة من شعر حبيبة القلب، أو سنّة من كلبٍ عجوز. كان كيب بطريقة واضحة يحمل معه دائمًا لحم بقر معلب. وحمل مايكل معه، كما اعتقدت، تلك المحفظة الجلد الصغيرة. تلك المحفظة الصغيرة التى بها الصورة لرجل محترم عجوز ملون وبجواره زوجته جالسة. وتلك البنت الصغيرة.

كنت متحمسة لأقول له بأنى وجدتها، وأننى احتفظت بها له. ارتجفت شفتاه وهو يأخذ محفظة الصور هذه منى. بدا كما لو كان طفلاً سيجهش بالبكاء. لكنه لم يذرف الدمع. لكنه حملها بطريقة مبجلة تمامًا مثل الكتاب المقدس. فتحها بحرص شديد وكأن ما بها من محتويات قد ينتفض عاليًا. وتنفستُ الصعداء عندما حدَّق فى

كل صورة من الصور بشوق يشوبه الحزن. والسبب الحقيقى هو، أنى قمتُ بإخراج الصور عدة مرات من المحفظة. ولم أتخلص من ذلك الشىء الرث لأنه حُشر وراء الدُّرج وبقى هناك. فكرت فى إخباره بأنى ذهبت إلى المحطة لأجده ومعى المحفظة. لكى أعطيها له قبل رحيل قطاره. إلا أن الانفجار منعنى. لكن بدت روايتى سخيفة مهلهلة مقارنة بقصصه عن أعماله البطولية، فلم أحكها.

"**هل هى صور لعائلتك؟**" سألته.

لم يجب عن سؤالى لفترة. جلس هناك يشرب حزينًا يتأمل الصور. فلم أكرر سؤالى لأنى أعلم بأنه قد سمعنى. وفجأة قال برقة: "**لقد فقدتهم جميعًا فى الإعصار.**" وإذا سألته سؤالاً آخر، أنا متأكدة من أنه سيجهش بالبكاء.

إلا أنه استجمع مرحه وشجاعته على حين غرة ـ مما جعلنى أقفز فى مكانى. بدت نظرات عينيه التى تأملت كل تضاريس جسمى تلتهمنى. وضع يده الكبيرة على يدى. "**أخبرينى، هل شعرتِ يومًا بقوة الإعصار؟**" وخطوة خطوة تسللت أنامله بين أناملى، باعدها عن بعض وهو يزيد برقة فى الضغط عليها.

"**كلا.**" قلت.

وضع شفتيه بالقرب من أذنى ولحس بلسانه بخفة شحمة أذنى. "**هل تحبين أن تعرفى؟**" ثم عضنى.

ثم قلت له: "**فى هيرفوردشير، وهيرتفوردشير، وهامبشير يصعب أن يصيبهم الإعصار.**"

مكث معى ثلاثة أيام وثلاث ليال. مكثنا بالداخل، نعيش مثل الفئران. كنت أسرع بخطوات قصيرة لأعد شيئًا نأكله ـ محاولة

تجنب النوافذ وضوئها الفضولي. وآتى به بعد ذلك إليه فى صينية. وكان فى أغلب الأوقات عبارة عن الخبز والمربى. كنا نأكل فى السرير مثل العرسان الجدد. نُطعم بعضنا بعضًا، قبل أن نلحس زوايا فمنا اللزجة ونتلوى حتى نزيح الفتات.

لكنى كنت أعلم بأن ذلك الوضع لن يدوم (ليس فقط لأن المربى فرغت). كان سيرحل إلى كندا. تورونتو. لقد تلقى تدريبه هناك وتحدث عنها، فاتحًا ذراعيه ليبين السماء الفسيحة، والمشاهد التى لا تنتهى من الأماكن الرائعة الواسعة. ليست تلك الجزيرة الصغيرة، التى كل ما يحتاجه هو كمّ إصبع وكف على شكل كوب ليصفها. لا يريد الرجوع إلى جامايكا التى أتى منها. وفى كل مرة أسأله عن السبب، يتهرب من السؤال بالقبلات. إلى أن قال لى بحدة: "لماذا **انت مهتمة لهذا القدر؟ اهتمى بشؤونك أنت، ياه؟**" ثم قطب حاجبيه رافضًا الكلام ـ مربعًا ذراعيه، مغمضًا عينيه. كان علىَّ أن أدغدغ أصابع قدميه بشعرى حتى أراه يبتسم من جديد.

تمنيت أن يترجانى أن أذهب معه إلى كندا (ليس فقط أنا وحدى، بل كل كوينى التى بداخلى). فأنا أعرف ما هو جوابهن ـ كنت سأوافق على الذهاب. أغلق المنزل، وأودع الجيران ملوحة بيدى وأبدأ حياة جديدة. إلا أنه لم يسألنى قط. وكذلك أنا لم أسأله. رحل فى صباح الاثنين فى الساعة التاسعة. راقبته وهو يغادر مبتعدًا، آملة بنفحة تردد من ناحيته ـ أو حتى نظرة سريعة عبر الكتفين يُصدر معها تنهيدة. لكن مع معطفه مرميًا على كتفيه بلا اكتراث، وقبعته الأنيقة، كانت مشيته السريعة ثابتة العزم مثل لصٍ هارب.

لم أخدع نفسى بأن مايكل يحبنى، أو أنى أعتبر صديقته العزيزة أو أى شىء سخيف عاطفى من هذا القبيل. الأمر هو أنه لم يكن

لديه أى مكان يذهب إليه فى لندن أثناء انتظار إبحار باخرته. كنت جزءًا من الحظ بالنسبة له ـ لا أكثر ولا أقل. امرأة وحيدة جميلة بالكاد أرملة سيقضى معها آخر أوقاته. لكنى لا أهتم إطلاقًا. وأعرف بأنى حبلى. إذا كان ذلك الطبيب الفظيع الذى قابلته قبل الحرب على صواب، فأنا كذلك. قد تكون ليست علاقة زوجية حميمية لكن، أقسم بالله، أنى استمتعت بتلك العلاقة اللعينة أيما استمتاع.

كنت أشعر بالغثيان بشدة، مع أن معدل ذهابى للحمام لأتقيأ كان كل صباح وكل مساء. أردت التخلص من الحمل فى البداية. ربطت جسمى ببكرة ضمامات قديمة وجدتها فى الدُّرج. كنت أكتم نفسى لأحكم شدة الرباط على ذلك الورم غير المرحب به. قمت بإحكام اللف كأنى مومياء، لفات فوق لفات، لدرجة أنى أقضى الصباح كله فى لبس الحذاء. كما كنت أحاول أن أخفى نهدى، بمجرد أن أصبحا فى حجم السد المطاطى. أردت أن أخبئهما من عيون الأشخاص الفضوليين كثيرى الأسئلة ـ مثل السيد تود وأخته الرهيبة. الغمز، واللمز، والهمس. "**ما هى الطريقة التى فعلت بها فعلتك؟ يا لبرنارد المسكين، ماذا فعل هذا الرجل الطيب ليستحق واحدة مثلها؟ السود شر بما فيه الكفاية، لكن الآن ابن غير شرعى؟! ما الشىء التالى سيئ السمعة الذى سيظهر من هذا البيت؟**" لم أشعر بالخزى، كنت فقط لا أريد العيون الفضولية أن تجعلنى أبدو كامرأة قذرة.

أخذت أكوم الأشياء فى البيت ـ خزانة الملابس بأدراج من جانب إلى جانب آخر فى الغرفة، أو دولاب الملابس الذى بكل بساطة ينبغى أن ينتقل طابقين لأعلى. كلما كان أثقل كان أفضل. وبين ذلك كنت أقفز على سلالم الدرج ـ ثلاث سلالم لأعلى وسلمتين إلى

أسفل. ومع كل مرة أستحم كان الاستحمام شديد السخونة، خفت من أن يلتهب جلدى. لكن دون جدوى. لعنت كل الزوجات اللعينات ـ الا يستطعن أن يقدمن أى شىء صحيح؟ إلى أن جاء يوم بينما أنا أضع نفسى فيه مرة أخرى فى ماء مغلى، شعرت برفصة خفيفة. وثبة ضعيفة بداخلى.

قدمٌ صغيرة تعترض على شدة سخونة ماء استحمامنا. لكزة خفيفة بكوع صغير يسأل عن ماذا أفعل. استخدمت الصنبور البارد وأنا مفزوعة. ثم وضعت جسمى فى الماء البارد. أقسم بأنى سمعته يتنهد. لقد أصابنى الغثيان من التفكير بأن ذلك الصغير يشعر بالرعب منى. من فى هذه الحياة يستطيع أن يحميه؟ كنت شديدة الندم وتأسفت له مرات ومرات.

كنت محظوظة ـ فلم يكبر حجمى على الإطلاق. لم أكن أتحرك بتثاقل مثل البعض الذين رأيتهم، أشهق لآخذ النفس مستندة على عمود النور أو أفرك على موضع ألم فى ظهرى. فى الليل أحلُّ الرباط ـ سامحةً لذلك الصغير بالتنفس ـ فتنتفخ بطنى وتصبح مثل كرش الرجال. وأتكلم معه، أحكى له عن خططى. ربما نذهب إلى كندا بالمال الذى ادخرته من الإيجار. أستطيع أن أنسج له قصة من الخيال عن موت والده البطولى فى الحرب. ما الذى سيمنعنا؟ الحرب كانت عبارة عن سيل من الانفجارات الرهيبة. كل شىء يتناثر، وينهار، ويتبعثر ويطير عاليًا فى الهواء. والآن وقد انتهت الحرب؛ أعداد غفيرة ترجع لأرض الوطن. وهذه هى أم مع طفل وحيد ـ قد نبدو عائلة صغيرة غريبة الأطوار، لكننا لسنا بأشرار.

ومع هذا، مع وصول برنارد للأرض قريبًا وضع نهاية لكل تخيلاتى.

بعض الكلمات التى إذا قيلت تقسم العالم إلى نصفين. النصف الأول قبل أن تلفظ الكلمات، والنصف الثانى بعد أن تقال تلك الكلمات.

استمع إلى بإنصات. لم يتفوه بكلمة. لم يقاطعنى ولم يطلب أى توضيح. لم يتأفف، أو يهز رأسه. لم يعترض قائلاً: "**آوه، يا كوينى، كيف أمكنك فعل ذلك؟**" جلس قبالى على المائدة يدخن سيجارة، وبرقة يخبط عليها لينفض الرماد. إلا أن عينه لم ترتفع لتنظر إلى عينى، ولا حتى نظرة خاطفة. وعندما انتهيت ـ ولم يكن هناك شىء ذو قيمة لأضيفه ـ دفع بكرسيه للخلف ساقطًا على مشمع الأرضية، نهض تاركًا الغرفة. ولأول مرة كنت ممتنة لتمكنى من أن أركن إلى برنارد حيث لم يكن لديه ما يقوله.

الفصل السادس والخمسون

جلبرت

وصل بى الحال أنى أصبحت أنزعج للغاية من أى دق على الباب. أهذه هى طريقة الحياة التى ينبغى على الرجل أن يعيشها فى إنجلترا؟ إذا لم يكن هذا المغفل الساكن فى الطابق الأسفل يأتى ليتعارك معى عند هذه الغرفة أو يضرب أنفى فتنزف مجددًا، فمن يفعل ذلك إذن؟

كينيث. واقفًا أمامى يفرك يديه، يخبرنى وهو متحمس، آووه، لديه عرض لعمل صغير. ثنيتُ ذراعى وأغلقت الباب حتى لا تدفعه عيناه الفضوليتان إلى داخل الغرفة. "هل تسمعنى يا رجل؟" قال:

"آوه، بلى، يا كينيث، أسمعك."

"كلا، يا رجل، أنا لست كينيث، أنا وينستون."

وضعت لسانى داخل فمى واستمعت للسخافة التى أتى بها هذا الرجل لى هذه المرة. تبدأ قصته بإخبارى بأنه حصل على بعض

المال. كيف تلقى هذا المال؟ أقام بعض الشباب من مقاطعته هناك فى وطنه مشروع مشاركة. وكان لديه بعض المال المدخر فشاركهم به. وتسلم حصته على الفور. وبهذا المال وبعض النقود التى أرسلتها له جدته من بيع بيتها لنجم سينمائى كبير، وجد نفسه معه المال الكافى لشراء منزل. هنا، فى لندن، المكان بالتحديد هو فينسبيرى بارك، الذى كما أخبرنى، مشيرًا بإصبع مثل إبرة البوصلة، يقع فى شمال لندن. وأكمل حديثه وأخبرنى بأن المكان يحتاج إلى بعض التصليحات، وكان هذا هو السبب الذى مكنه من شرائه بهذا السعر المميز.

"**اترمى إلى شىء معين، يا رجل؟**" سألته. كنت مضجرًا منتظرًا للحظة التى تسمح لى بإغلاق الباب دون أن أشكره على هذا العرض. لكن، كان هناك ما يحيرينى. وببطء بان لى ما هى هذه الحيرة. الرجل الذى يقف أمامى بالفعل يقول كلامًا معقولاً. فأوقفته. وقلت: "**انتظر، انت كينيث؟**"

"**كلا، يا رجل، أنا وينستون. هيا، مازلت لا تعرف الفرق بيننا؟**" ثم أرانى ظهر كفه ليثبت ذلك. لم أر أى شىء على يده.

"**لماذا ترينى هذا؟ إلى ماذا انظر هنا؟**" سألته.

"**كينيث ليس لديه تلك البقعتان اللتان على ظهر يدى. انتظر؟ هنا واحدة وواحدة أخرى هنا.**" رفع يده بالقرب من أنفى وأشار إلى البقع التى لا يستطيع أن يراها أحد إلا أمه.

أخبرته أن يكمل حديثه. الطريقة الوحيدة الأكيدة التى سأعرف بها ـ فإذا طلب مالاً فهو كينيث، وإذا لم يطلب فهو بالفعل وينستون.

"**اريدك أن تأتى لتصلح المكان، يا جلبرت. تستطيع العيش هناك مع زوجتك الجديدة. هناك بعض الغرف التى سنسكن الناس فيها**

من الديار. وليس بسعر المرأة الإنجليزية. إيجار عادل تستطيع أن تحوشه. وأنت تأخذ حرصك على أن يكون المكان فى حالة جيدة."

"ولماذا تريدنى؟ لماذا لا تفعل ذلك بنفسك؟"

"أنا رجل أعمال، يا جلبرت. اهتمامى مصبوب فى مكان آخر. وأنا أفعل نفس الشىء هناك. ولا أستطيع أن أكون فى كل الأماكن."

هل أستطيع أن أرى الشعاع ينطلق من عينيه اللتين أشرقتا. "إذن تريدنى أن أدفع لك نقوداً؟"

"يا جلبرت، أنت ستساعدنى فى إصلاح المكان - عطلة نهاية الأسبوع، والمساء. لكن لن أدفع لك شيئاً. ستعتنى بالمكان. ومع هذا لن أدفع لك مقابل ذلك. وستعطينى مبلغاً ضئيلاً للإيجار. نستطيع أن نتفق على هذا؟" كانت نظرته ثابتة علىَّ. لم يبد عليه إطلاقًا الخجل من كونه شديد السواد أو من القذارة التى تحت أظافره. "ياه، لماذا لا تثق فى، يا رجل؟" سألنى.

"حسنًا أين أخوك؟"

"يا عم، ألم تسمع، لقد انتقل كينيث للعيش فى ميدلاندز."

"لماذا؟"

"يطارده شابٌ من أجل دين عليه."

"ألست قلقًا من أن يجدك هذا الشاب بدلاً منه؟"

"كلا، لأنى أنا الشاب الذى أطارده. لكن، يا جلبرت، أخبرنى ماذا ترى، يا رجل. ما هو ردك على عرضى؟"

"لماذا أنا؟"

مص أسنانه. "أنا أثق فيك. من بين كل الشباب الذين قابلتهم، أنت الوحيد الذى أثق فيه. بحثت عنى. ووجدت لى هذه الغرفة."

"هل تريد أن أعطيك نقوداً؟"

"يوه، ياه، يا رجل، أنا لا أريد نقودك! إنه عمل بسيط وصفقة صغيرة. لكن إذا كنت لا تريد..." وهم بالانصراف.

إلا أنى أمسكت بكمه وصحتُ قائلاً: "أوه، يا وينستون! أين كنت يا صاح؟" ثم حضنته بقوة أمام الباب، وهو فى كامل أناقته.

"ياه، انتبه لبدلتى. لقد كويتها للتو." قال.

كان وينستون بمثابة فارسى ذى الجواد، كونى غير مرحب بى فى بيت كوينى. دخل علىَّ فى ساعة الحاجة. (ساعة! فأنا لست الشاب الوحيد الذى لاحظت أن وقت ضيافته يمتد إلى أكثر من ساعة واحده فقط فى الوطن الأم.) ذهبت فى لفة بشاحنة مكتب البريد حيث كنت متشوقًا لرؤية المكان الذى أخبرنى عنه وينستون. (حسنًا، الكل يعرف أننا رجال البريد السود السخفاء نضل الطريق دائمًا.) كان منزلاً رائعًا، أستطيع قول ذلك لحظة ما فتحت بالمفتاح ودفعت الباب.

يا لها من مساحة! أربعة طوابق من الغرف الكبيرة. الأسقف عالية للغاية لدرجة أن صدى صوتى يتردد بين حوائطها. تمتد الحديقة على مدى البصر يغطيها الضباب الرقيق. الشقة فى الطابق السفلى للمنزل فيها غرفتان للنوم، مطبخ به بالفعل حوض وفرن وحمام خاص به وحده. غرفة الجلوس بها نوافذ طويلة جدًا تصل من الأرض إلى السقف. يا رجل، فبعد العيش فى غرفة واحدة فى إيرلز كورت، ما أراه أمامى يعتبر قصرًا.

إلا أن قلبى بدأ يخفق بعنف شعرت به فى حذائى ذى الرقبة العالية. لماذا؟ كيف سأقنع هورتنس بأن هذا المنزل هو المكان الذى تستطيع العيش فيه؟ من المؤكد أنها ستنظر إليه بخيبة أمل. ستسخر منى المرة تلو المرة بتلك الكلمات: "**هذا هو فقط؟**" تقولها عابسةً فى وجهى، مقتنعة بأن الله قد وضعنى على وجه الأرض فقط لأجرها إلى أسفل وأهبط بها فى بالوعة إنجليزية.

حسنًا، لقد اقتنعتُ بأنى أنا لست والد طفل كوينى. وينستون لم يكذب ـ يحتاج المكان إلى بعض التصليحات، هذا ما قاله. وياه، يا ولد! فعلاً بعض التصليحات هو ما يحتاجه. بالتأكيد سترى فقط أن النوافذ التى تمتد من الأرض إلى السقف لديها درف قديمة الطراز التى تدلت ملتوية ومكسورة بمفاصل صدئة. وكل غرفة من الغرف كئيبة مثل الكابوس. طلاءٌ بنى داكن تقشر، أرضياتٌ عارية تناثر عليها ورق الجرائد وفتحاتٌ عميقة جدًا فى الجص فظهرت الشرائح الخشبية للهيكل البنائى للبيت. وستلاحظ بكل تأكيد الرائحة النتنة فى المطبخ. وكذلك البلل من الأرض أو من بول قطة شاردة ـ هل ستستطيع أن تحدد المصدر؟ وبالطبع سترى الحمام الميت فى إحدى غرف النوم. لكن بعد أن تلاحظ أن كل زجاج النوافذ مكسور. "**هل هذه هى حياة الإنجليز؟**" ستسألنى. تتنهد بحسرة وحزن على كل شىء وإلى كل شىء قد تراه. وأيضًا المكان قذر؟ ما إن تلوح بقفازاتها البيضاء فى الهواء حتى تراها تتسخ.

لكن هورتنس لم تطق الانتظار لترى المكان فى فينزبيرى بارك. كانت تتلهف لفكرة مغادرة تلك الغرفة فى إيرلى كورت. متشوقة لرؤية أكتاف السيدة كوينى بلاى وتبتعد عن كل الارتباك الذى يقطن هنا. وشعلة الغاز تلك ـ كم تتوق هى لتوديع شعلة الغاز

المزعجة تلك. من شدة شوقها للرحيل، وآمالها لحياة أفضل، كنت مجبرًا أن أتذمر باستمرار حتى تتذكر بأن المكان يحتاج إلى تصليحات كثيرة.

أرشدتها إلى الغرفة الأولى وهى ترتدى معطفها، وقبعتها الخضراء على رأسها والقفازان الأبيضان. كنت عصبيًا كما لو كنت رجلاً يقدم حبيبته إلى أمه المفزعة ـ واسمع ما سأقول ـ اشتريت باقة من الزهور. وضعت الزهور الشتوية فى إناء على رف المدفأة فى الظهيرة. كنستُ ونظفتُ ورق الجرائد المبعثر وكدَّسته جانبًا. كما أننى، يارجل، قد قمت بدفن الحمامة. خيل لى تفكيرى الضعيف بأن بعض الترتيب والتهيئة السخيفة تلك قد يقلل من احتقار هورتنس للمكان. ولكن، بدلاً من أن يضيف جوًا من الدفء والبهجة للمكان، جعلت تلك الزهور الغرفة تبدو مهجورة وكئيبة.

أمعنَتْ النظر، باهتمام، فى رف المدفأة، والأرض، والسقف، والدلف الخشبية المهملة. ومن النافذة نظرَتْ بفضول إلى المنظر بالخارج. فركت بإصبعها وهو فى القفاز على لوح زجاج النافذة. تفحصته ولكنها لم تقل أى شىء وهى تنفض التراب من على إصبعها. لكن، يا رجل، كنت متأهبًا لها. دعها تقول بأن المكان خرب ومدمر تمامًا. دعها تسأل لماذا أحضرتها إلى هذا المكان الكئيب. وذلك لأن كل الإجابات حاضرة على طرف لسانى. تدربت عليها ومستعد لإطلاقها. لقد كانت هناك حرب مندلعة. ونعم، هذه هى الحياة التى يعيشها الإنجليز ـ بل العديد يعيش حياة أسوأ من هذا. ماذا؟ تعتقد أنها أميرة لتشمخ بأنفها عاليًا تكبرًا على هذا البيت الجميل؟ إنها محظوظة، لأصرخ فى وجهها، محظوظة جدًا حيث توفر لديك مكان تعيشين فيه.

تتبعتها عيناى وهى تلف فى الغرفة فى صمت من شدة الصدمة. وبعد أن انتهت من تفتيشها الدقيق، التفتت ببصرها إلىَّ. وفتحت شفتيها وقالت بتنهيدة وذقنها عالٍ، وأنفها شامخ تكبرًا فى الهواء: **"هذا كل شىء؟"**

ها هى، قالتها كما توقعت منها. إنها نفس النغمة المحبطة التى صدرت منها عندما خطت أول مرة الغرفة التى سعيت بجد لأعثر عليها فى إيرلى كورت. أهذا كل شىء؟ وفى الحال ستتحسر وتقول وعيناها مغتمتان: **"هل هذه هى الحياة التى يعيشها الإنجليز؟"** كما فعلت عندما رأت البالوعة التى صممت أن أجرها وأهبط بها فيها. أخذتُ نفسًا عميقًا لأهدأ.

"ماذا تقصدين؟" قلت. ياه، بدأت هذا المرأة المزعجة تدق على الحائط بمفاصل أصابعها لتسمع بأذن حادة.

"أقصد،" قالت، **"هل هذا كل شىء؟"**

"ماذا تعنين بالتحديد؟" سألتها. نظرتْ إلىَّ حائرة، هل كان السبب هو الصوت الصادر من الحائط سبب حيرتها تلك؟

"هل هذا كل شىء؟" ومددت ذراعيها على مصراعيها. حسنًا، إنها غرفة واسعة للغاية وتريد أن تزيد وسعها. كان الجو باردًا إلا أن ذرات العرق تناثرت على جبينى. وكررت قائلة: **"هل هذا كل شىء؟"** كنت مستعدًا. كنت مشتاطًا غضبًا. إلا أنها سألتنى بهدوء: **"هل هذه الغرفة فقط التى سنعيش فيها أم هناك غرف أخرى؟"**

"ماذا تقصدين بكلامك؟" سألتها.

"جلبرت، ماذا دهاك؟ إنه سؤال واضح. إنها غرفة جيدة لكن هل هى الغرفة الوحيدة التى سنسكن فيها؟"

"انتظرى، أعجبتك الغرفة؟"

"نعم، إنها غرفة جيدة."

"إنها خربة ومدمرة للغاية." قلت.

"نستطيع إصلاحها."

"لكن انظرى" أخبرتها، "ألا ترين الطلاء المقشور على الحوائط؟ وهذه النوافذ؟ كل نافذة محطمة."

"كل هذه الأشياء يمكن إصلاحها."

"سيكون عملاً كثيراً ومرهقاً."

"جلبرت، ما هذا، أتخاف من بعض العمل القليل المرهق. أستطيع مساعدتك." ودارت حول نفسها فى الغرفة. ثم أكملت قائلة: "بعض الطلاء هنا، وسجادة هناك." وذهبت إلى إحدى زوايا الغرفة ومالت قليلاً لتمد يدها على مصراعيها وهى تقول: "ومنضدة وكراسى هنا،" قبل أن تندفع ناحية المدفأة مقترحة، "وكرسيان بذراعين هنا أمام مدفأة إنجليزية مفتوحة. سترى ـ سنجعل المكان يبدو جميلاً."

تجمدت كل الكلمات فى فمى. وذلك إذ فجأة أرى أمامى أروع امرأة فى العالم. مغرورة، ومتغطرسة ــ حسنًا، دعنا نعترف، وثقيلة الدم والظل. إلا أنه كل الذى وددتُ فعله هو تقبيلها. وأن أضمها إلى، هنا فى وسط هذه الغرفة المدمرة. أن أشعر بنفَسها، وبطراوة شفتيها على شفتى.

"لكن ما أريد أن أعرفه، يا جلبرت،" كانت تسألنى، "هل، هذه هى الغرفة الوحيدة أم هناك غرف أخرى؟"

هذه المرأة الرائعة لا تطلب إلا الأفضل. لن أُجبرها أن تسكن فى أى مكان. وبشكلها الجميل فى قبعتها وقفازاتها البيضاء سأجعل الحياة حولها حياة كريمة بما يليق بهذا المظهر الحسن. سأرفعها عاليًا حتى تبدو تلك الغرفة فى إيرلز كورت كالذكريات القديمة وكأنها كانت حلمًا. بكل الحب ابتسمت لها. "اوو، **كلا، يا آنسة صاحبة القدم اللزجة،" قلت: "فهناك العديد من الغرف غير هذه الغرفة، تعالى، إذا أمسكت بيدى سأريها لك كلها."**

اعتدتُ أن أطوى نفسى على الكرسى ذى الذراعين لأخلد للنوم. أصبحت أطرافى قابلة للطىّ والبسط. لا يوجد أى مخلوق مجنح يستطيع أن يثنى ويكوع نفسه بإتقان مثلى أنا. قد أخرج من شرنقتى كل صباح مثل فراشة العثة، ولكن مع بزوغ النور، ينفجر الدم فى أوصالى لأتحول إلى رجل من جديد. وتحت بطانيتى كنت أستكن فى الدفء مثل البرغوث. وكما هو الحال كل ليلة، أطفأت النور وتمنيت لهورتنس أحلامًا سعيدة. إلا أنه فى هذه الليلة، عندما حلَّ الظلام والسكون، سمعتها تقول بصوتٍ هادئ ورقيق: "**جلبرت.**"

يوه، ماذا الآن؟ قلت لنفسى. الفئران، أم الحنفية تنقط، أم رائحة الغاز؟ "**أنا متعب، يا هورتنس - انتظرى حتى الصباح، هاه؟**"

"**جلبرت.**"

أخرجت أصوات النوم وصوت شخير كاذب.

"**جلبرت، أتريد أن تنام على السرير؟**"

لم أجب. لماذا؟ حسنًا، ظننت أنى نمت وهذه الكلمات أسمعها فى أحلامى. كنت مقتنعًا بأنى إذا تكلمتُ ستستيقظ وتوبخنى على إزعاجها بكلامى.

"**جلبرت،**" نادت مرة أخرى، بصوت عال هذه المرة.

قلت خائفًا بشدة وخجلاً: "**نعم، يا هورتنس؟**"

"**ألا تسمعنى، هاه؟**" سألت. وتأكدت من أنى مستيقظ. حسنًا، لم ينتبه كل جزء من جسمى بهذا الانتباه.

"**لست متأكداً.**" قلت.

"**ماذا تعتقد أنى قلت؟**"

"**لست متأكداً.**"

"**قلتُ، هل تريد أن تنام على السرير بجوارى؟ المكان فسيح.**"

رفعتَ الغطاء. وشعرتُ بنفحة الهواء وهى ترفعه من على السرير لى. تحركتُ على الكرسى ـ ليس لأنهض من عليه، لكن لأصدر بعض الأصوات لأرى ما إذا كانت تعبث بى. هل ستقول إنها غيرت رأيها؟ أو ستضحك وتصرخ بأنها نكتة ـ نكتة ظريفة تجعلها تضحك، ها ها ها؟ وضعتُ رجلاً واحدة مستعداً لسحبها للحفاظ على كرامتى. لكنها قالت: "**هل ستأتى لأنى أشعر بالبرد؟**"

الآن، لا يوجد رجل على وجه الأرض سيرفض. وإذا كان موجوداً، فدعنى أؤكد بأنه ليس جامايكيًا. نهضتُ من على هذا الكرسى فى لمح البصر. وما إن لمست قدماى الأرض الباردة إلا وقد كانتا تفركان تحت غطاءين. ثم وضعت بقية جسمى المقر بالجميل، واستقر فى أدفأ الأماكن على وجه الأرض. وفى تلك اللحظة، إذا أشرقت علىَّ أشعة الشمس الكاريبية، والبنات العرايا يروحن علىَّ بورق الموز، فلن أشعر بسعادة أكثر من هذه السعادة. ومن كل النواحى كنت محاطًا برائحة هورتنس. رائحة الصابون الخاص بها،

وعطرها، وياه، حتى رائحة عرقها. لكن هذا التهور المذهل لن يخدعنى ويجعلنى أحمق. أدرت لها ظهرى، تصلبتُ فى نومى كالعصا. خائفًا من أن أى جزء من جسدى، بفظاظة أو ببراءة، قد يلمسها وتبدأ فى الصراخ. أحكمت الغطاء حولى، بعناية كالأم. وشعرت بقدميها تضغطان على ساقى بخفة. حركت قدمىَّ بعيدًا. ولكن سريعًا ما لحقتنى القدمان الباردتان.

"هل أنت مرتاح؟" سألتنى. لم يكن هناك أى نفس معقول يسمح لى بالكلام. فإذا فتحت فمى للكلام ستسمعنى ألهث مثل الكلب. ووضعتْ وجهها بالقرب من نهاية رقبتى. وقالت ونفسها ينفخ برقة فى أذنى وكأنه قبلة: **"قل لى يا جلبرت، هل سيكون هناك جرس للباب فى بيتنا الجديد؟ وهل سيقرع الجرس دينج - دانج، دينج - دانج"** فى حين بدأت قدماها ـ اللزجة ـ بالتحرك على ساقى إلى أعلى وأسفل.

الفصل السابع والخمسون

برنارد

وضعته كوينى فى دُرج. يا لها من طريقة غريبة الأطوار لبدء الحياة. فى الدُّرج الأخير. الدُّرج الأكبر فى خزينة الملابس الخاصة بأمى (التى احتفظت فيه بالملاءات غير النظيفة.) لقد أخفت ملابس الأطفال الرضع. لقد رأيتها وهى تجاهد على الكرسى لإحضارها من حقيبة فوق دولاب الملابس. كل الملابس حيكت. شىء مضحك، لقد عرفت الصوف المغزول. رأيته وهى تحيكه عدة مرات قبل أن تندلع الحرب. كان عبارة عن سترة من الصوف المحبوك وبلوزات قبل أن تكون جوارب أطفال أو قلنسوة. كما أنها أيضًا ادخرت الحفاضات للاستعداد. سحبتْ العديد منها من صندوق الملابس من تحت السرير. ووضعتْ الدبابيس كبيرة الحجم على المنضدة الجانبية للعيان. ولم يخطر ببالى أبدًا أن أعتبرها دلالات لشىء ما.

أمضيت الوقت الكثير فى غرفة أبى. راضيًا بالراحة التى تجلبها لى جدرانها الأربعة. كل شىء بخصوص العودة للوطن تبدو منحرفة

ومائلة الحال. لا يوجد أى منطق فى الحياة التى تسير أمامى. شعرت وكأنى تعثرت فى حياة شخص آخر بالخطأ ومهموم لكى أجد لى مكانًا ودورًا فيها. ولكن لأى مدى يستطيع الإنسان أن ينظر فاغرًا فمه من الذهول لظروفه؟ وأن يطرف بعينه لا إراديًا من شدة وهج الأشياء غير الطبيعية حوله؟ أعرف أنه أمر سخيف، لكنى أحسد أبى. غلبت الصدمة على أمره. جعلته معقود اللسان وعديم النفع. كم أتوق للنهوض من النوم غير قادر على الصراع من أجل البقاء، وأن لا أملك خيارًا إلا أن أستسلم. فأجلس على الكرسى ويسيل لعابى عندما تطعمنى كوينى، ثم تنظف الفوضى التى أحدثتها. لكن للأسف صفعة الحرب ـ الصدمة التى أصبت بها ـ كانت أكثر احتمالاً.

أتحرك فى المكان عندما أعتقد أنها تنال قسطًا من الراحة. تقريبًا، فى الليل. سخافة، أعلم، لكنى أخشى اللقاء بها. أذهب إلى المطبخ، عابرًا البهو. ليس بسبب الفزع من رؤيتها وهى ترضع ذلك الطفل المخادع. أو الخوف من الغضب الذى قد يعترينى. أو الأسى الذى قد يجعلنى أبكى بطريقة غير لائقة. بل الدافع هو توقعاتها. لمحته فى نظرة الفضول، رمقة بطرف العين. أرادت أن أستبدل صمتى بكلمات. لكن الحقيقة هى أننى فاقد الإحساس. كنت أتشوق إلى شىء يحفز فىّ تكوين رأى ما. غضب، أو ألم، أو رفض. كان أمرًا يثير الشفقة. كنت فارغًا كورقة بيضاء. ليس لدى أدنى فكرة عن كيف أشعر حيال ذلك.

سمعته يبدأ تغيير حركاته عندما مررت من عنده لأخلد للنوم. بعض النفخات الخفيفة التى أعرف أنها تنذر ببداية العويل. (فهو يبكى كل ليلة ومعظم النهار.) فتحتُ الباب بهدوء. كانت كوينى

نائمة. غطت فى نوم عميق بما سمح لها أن تشخر. هى تحتاج إلى ذلك. طلبْ منها الطبيب أن ترتاح بعد الولادة. وكان يأتى لزيارتها للاطمئنان عليها. ويفحص الطفل ليتأكد بأن كل شىء سليم وطبيعى. وأمرها بالراحة وطلب مضاعفة التموين. ورافقته عند الذهاب. وأخذنى على جنب وهو ينصرف ليسأل عن مكان وجود زوجها. "**ماثل أمامك**" أخبرته. ومن شدة دهشته حدق فىَّ كما لو كنت أمزح. ولمدة طويلة. وبعد ذلك دردش لفترة طويلة عن الحرب اعتقادًا منه أنه موضوع باعث للهدوء. أومأتُ له برأسى. ولماذا لا؟ الحرب. لقد انتهت منذ ثلاثة أعوام. إلا أنه، نعم، ربما مازالت خيوط ذلك الثوب المهلهل معقدة بعضها ببعض.

دخلت الغرفة على أطراف أصابعى. لا حاجة فى إيقاظها. فقط أريد الاطمئنان بأن ليس هناك أى شىء غير متوقع يحدث. وضع الدرج على كرسيين بالقرب من السرير. نظرت بداخله. تلوت قسمات وجهه فتحرك فمه إلى الأسفل. هناك شىء ما يجعله حزينًا. والكل يستطيع أن يرى ذلك بوضوح على وجهه. بدون مكر، فقط مقطب الحاجبين. عقف فمه إلى أسفل على شكل Uتشبه مسودة فنان الكاريكاتير. ظننتُ أن حضورى سيسكته. لكن تعالت أصوات أنينه. وتحركت كوينى. كنت مستعدًا للجرى هربًا. غضنت شفتاه، معربةً عن عويلٍ وشيك. أنزلت يدى إلى أسفل. ووضعتها برفق على بطنه. (رأيت مرة امرأة تفعل ذلك مع طفلها.) كانت بطنه دافئة نفس دفء قارورة الماء الساخن. ثم قمتُ بالتمليس عليها قليلاً، وتغيرت تعبيرات وجهه. فهو ليس حزينًا الآن. وارتخى فمه. لا داعى للبكاء. فتح عينيه، باحثًا عنى لينظر إلىَّ.

بشرته السوداء زاهية مثل الحذاء الذى لُمع للتو. له أنف مفلطح، وفتحتا أنفه كانتا مثل الثقبين. شفتاه منمقتان وكأنهما

مرسومتان. وقبضتان صغيرتان تتأرجحان أمام فمه. ورجلان ترفّصان تحت البطانية. ولسانه يلحس شفتيه. ناولته إصبعى الصغير ليمسكه. حزم عليه بإحكام. أصابع صغيرة التفتت حوله. سكت الصوت. ثم كان هناك شد لإصبعى ناحية فمه المفتوح. وفى الحال كان يمص إصبعى. وراح يقمطه بلثته المبللة والرطبة . دافئة. مصه كما لو كان عسلاً. راضٍ تمامًا. حقيقة، كان شيئًا صغيرًا غاية فى الروعة.

كان يقاوم النوم. عيناه ما إن تغلقان حتى تفتحا من جديد. تبحث عنى مجددًا. قلَّ مصه لإصبعى، فأزحته. وعادتْ تلك القسمات الملتوية على وجهه صافية النية ـ ذلك الأنين المتقطع. "حسنًا،" قلت له. بدا وكأن صوتى هدأه. ركزتْ الأعين على الضجيج. "هيا، هيا،" همستُ له. فكرت فى أغنية. اعتادت أمى أن تغنى واحدة. صوتى كان يطقطق، ويشذ. لم يكن غناء مطلقًا. إلا أنه ما إن بدأتُ حتى نامت عيناه تقريبًا. "**هوه يا نونو هوه، تصبح على خير، هيا نام.**" لا أستطيع تذكر كل كلماتها. لآ ـ لآ ـ لآ أين ينبغى أن أكون. لكن نامت عيناه. خطان تحت جبهة مجعدة. وضغط مصه اختفى، فأزحتُ إصبعى. وأعدتُ عليه الغطاء. تمت المهمة. ودرت لأنصرف.

كانت كوينى جالسة على السرير، تحدق فىّ، فمها فاغر من الذهول. تحرك الطفل الصغير من جديد. انحنيت ناحيته، أتلفظ مثل الأطفال الرضع، هيا، هيا، وقت النوم. أتلفظ أى كلام. لكن لا شك أن صوتى كان مصدر تهدئة له. يا للسخافة، لكن بينما كوينى تستمع قلت فجأة: "**كنت فى السجن، هل تعرفين؟**"

بدت وكأنها تصرخ وهى تقول وعلى رتيبة ثابتة: "**ماذا؟ متى؟**"

أسكتها بأن وضعتُ إصبعى على شفتى. فأنا لا أريده أن يصحو. نعست عيناه مجددًا. خرجت منه همهمة رقيقة. كان يشبه كوينى. ابنها، لا شك فى ذلك ـ بالرغم من لون بشرته. قلت له تلك الكلمات برقة. مجرد الحقيقة. لا داعى للتنميق. لكن القصة المحزنة هى ليست أقل من السبب وراء عدم عودتى. فقدان سلاحى. محكمة عسكرية. ارتخت قبضته تدريجيًا عندما غلبه النعاس.

"لماذا لم تخبرنى قبل الآن؟ تكتب لى أو أى حاجة؟ أى حاجة؟" سألتنى.

اضطررت أن أسكتها مجددًا. كان صوتها عاليًا للغاية. ولم أنته بعد. رفرفت عيناه مرة أخرى. **"آوه، كلا، لقد استيقظ."** همستُ، قبل أن أحكى لها قصة مكوثى فى بريجتون كاملة بكل صدق. فى الهدوء أستطيع أن أسمع صوت تنفسها. كل نفس محمل باستفسارات مرتبكة تريد أن تسأل. أستطيع أن أشعر بصدمتها. فإشراقة وجهها عرت وجهى.

"برنارد، كان ينبغى عليك إخبارى من قبل؟"

"كلا، لم أستطع." قلت.

"ولماذا لم يكن فى أى وقت من الأوقات؟"

وتركتُ السؤال معلقًا بدون إجابة. لهذا الحد، أعرف، ينبغى أن يتجلى ما وراء المفردات. بدأ الرضيع الصغير فى التحرك. وفى الحال رفض الغطاء مرة أخرى. اليد عادت إلى فمه المفتوح. وقلت: **"أنا آسف بشدة."** هناك ضوء خافت يأتى من البهو لألمح وجهها من بين شعاعه. لم تبد أجمل من ذلك. ممتلئة ومتوردة من الأمومة. كنت دائمًا أعلم هذا: كانت أكثر من رائعة من أن تكون لى.

"كان ينبغى عليك إخبارى من قبل، يا برنارد. كان يجب أن تقول لى من قبل."

"انتهى الأمر. انتهى." فتح الصغير فمه يريد أن يأكل شيئًا. أعطيته إصبعى من جديد. لكنه لم يمصه. من المؤكد أنه سمع صوت أمه. بدأ فمه يعقف. مستعدًا للصياح فى أى لحظة. فقلت: "أعتقد أن إصبعى **لن ينفع معه الآن.**" أرادت أن تنزل من على السرير. لكنى قلت لها أن تبقى. وانحنيت، لففت ذراعى حول الصغير. ورفعته من الدُّرج. إنه ممتلئ البنية. بشكل واضح. وكانت كوينى مستعدة. ذراعاها ممدودتان لى. باهتمام.

"أنا آسف لم أكن زوجًا صالحًا لك،" قلت. وأعطيتها طفل شخص آخر. أخذته منى. ووضعتْ وجهها فى وجهه. **"سأتركك،"** قلت لها.

وبينما أنا أخرج من الغرفة قالت لى بصوت عال: **"أشكرك، يا برنارد."**

الفصل الثامن والخمسون

كوينى

لقد كانوا يستعدون للرحيل. جلبرت أخبر برنارد بذلك. وبالطبع، هناك جلبة على سلالم الدّرج. حدث شجار جعل جلبرت يصيح فى برنارد بأن يلصق بيته حيث لا تشرق الشمس. "**لقد وجد النزلاء بالطابق الأعلى مكانًا آخر ليعيشوا فيه.**" وبهذه الجدية أخبرنى برنارد تلك المعلومة.

"**أعلم،**" قلت له، "**سمعت، وكذلك سمع كل الشارع.**"

إلا أنه بدا عليه السعادة. أراد برنارد أن ننتقل للعيش فى الضاحية. منزل جميل، جدرانه مشتركة مع الجيران، له حديقة زهور أمامية، وخلفية المنزل مغطاة بالعشب. "**مقدور عليه،**" كانت هذه هى العبارات التى كان يستخدمها. فهو ليس مثل هذا المنزل بكل ما فيه من ذكريات، الفرصة المحتملة من بيعه سيطرت على تفكيره. فهو يتطلع إلى بداية جديدة. أليس كلهم، المحاربون؟ أقصد، انتصروا فى الحرب. وبالتأكيد، هم استحقوا بجدارة أن ينالوا منها

شيئًا ما؟ ولماذا يكون النصر، إذن؟ لم يكن برنارد أبدًا مهتمًا بهذه الدرجة ولا حتى نصف الاهتمام عندما كان يخوض حربه. هو يعتقد أنى أجد قصته ـ قصة السجن وكل ما حدث له هنا فى الشرق ـ شيئًا يندى له الجبين. لا، ليس لذلك. لقد أردت الضحك. أردت أن أصرخ عاليًا وأهنئه لإخفاقه أن يكون مملاً ومتبلد الحس ولو لمرة فى حياته. أعلم جيدًا بأن الخطأ الأول لا يحق الخطأ الثانى، لكن على الأقل كلانا الآن يستطيع أن يصبر على مرافقة الحياة مع الآخر. حتى ولو كانت تلك الصحبة أُحكمتْ روابطها بإخفاء هذين السرين المحرجين المنكرين. آوه، برنارد بلاى، من قد يعتقد ذلك؟ لكنه عندما قالها، بداية حياة جديدة، لم يكن ينظر إلى الطفل، كان يعطيه ظهره وقالها همسًا.

وبينما هما، جلبرت وهورتنس، يصعدان درجات المدخل الأمامية، كانا يقهقهان. كنت أستمع قدومهما منذ ساعات، رغبة فى إدراكهما قبل أن يشرعا فى الصعود. وقفت فى البهو قبل أن يغلقا الباب الرئيسى. ارتعد كلاهما عند رؤيتى فى البداية وما لبث أن اختفت الابتسامة من على وجهيهما، وحال نظراتهما تقول: "**آوو، ياللإزعاج، لقد أدركتنا من جديد.**" أصبح حضورى يسبب هذا الإزعاج الآن. لقد كان هناك وقتٌ جلبرت يبتسم فيه عندما يرى وجهى ـ ابتسامة عريضة كلها شقاوة تجعلنى أشعر بأنى مميزة. ولكنها لم تعد موجودة. لم تلتق أعيننا منذ فترة لا أدرى منذ متى.

سألتهما: "**هل تودان أن تشربا كوبًا من الشاى؟**" كانا مبهوتين من شدة المفاجأة، قد تظن أنى عرضت عليهما الدخول ومشاهدتى وأنا أرقص عارية مقابل سعر معين. تبادلا النظر إلى بعضهما كما لو كنت أقوم بخدعة ما. لم يعودا يثقان بى. ولماذا لا؟ اللعنة! ما

الذى تسبب فى هذا التغيير؟ كان كلاهما صامتًا، لا يريد أى أحد منهم الرد حتى لا يغضب الآخر من إجابة غير مرضية له.

اضطررت أن أقول: "**لمجرد عدة دقائق.**" (كنت أستطيع أن أقول لهم: "**لن أعض.**" كان ينبغى علىَّ القول: "**ألم نكن أصدقاء من قبل؟**") "**إنه كوب من الشاى واحد، ولدى بعض الكيك أيضًا. أعلم بأنكما راحلان. ظننت أنه سيكون أمرًا لطيفًا إذا فعلنا ذلك.**" وكنت أعنى ما أقول عندما أضفت: "**بحق ما كان بيننا.**" ارتخى كتفى جلبرت عندما أدرك، كلاهما، أنها ليست مكيدة بل مجرد كوب من الشاى. "**لا بأس،**" قال، لكن هورتنس بالكاد أخفت تجهمها.

ألقى برنارد بنظرة واحدة إليهما وقال: "**لماذا كل هذا؟**" أردتُ أن يرحل من هنا. تمنيت أن يذهب فى تمشية أو يذهب ليرى السيد تود. حقيقة إلى أى مكان ماعدا المكوث هناك ــ جالسًا على المائدة يقرأ الصحيفة.

وقال جلبرت بتأفف: "**زوجتك هى من دعتنا.**"

تأهب له برنارد، باحثًا عن تعليق ساخر يقوله له. كانا على وشك أن يتناطحا من جديد مثل التيوس.

"**آووه، توقفا، من فضلكما، كليكما. برنارد، لقد دعوتهما لشرب قدح من الشاى.**"

وكانت نظرته لى تقول، لماذا بحق السماء، امرأة مثلك تريد ذلك؟

فأخبرته: "**لا أريدهم يرحلون دون أن أشكرهم.**"

ضحك برنارد ضحكة فاترة متشككًا قبل أن يرجع لجريدته. كان يجلس عند الزاوية يرعد له ويتوعده بالشر. لم أكن أريد هذا الوضع. فهو يجعل الوضع أكثر إحراجًا.

"**نستطيع أن ننصرف، يا كوينى،**" قال جلبرت.

"**كلا، اجلسا، اجلسا.**"

جلس كلاهما بتردد على المقعد، لدرجة أن وسائد المقعد بالكاد شعرت بحملهما عليها. كانا متأهبين للفرار. لم أستطع تركهما وحدهما مع برنارد وغضبه المكتوم. قد يغادران فى عجالة أو أن يقع شجار بينهم. وآه، يا رب، أنا لا أريد ذلك.

فقلت: "**برنارد، هل، من فضلك، أعدت إبريق الشاى؟ واحضرت لنا شرائح من الكيك؟**" الرجل المسكين كان مصدومًا لدرجة أنه لم يستطع الاعتراض. فمه فاغر، عيناه تربشان، استغلق عليه الكلام، فلم يكن لديه سبب وجيه لماذا لا يستطيع. وعندما ترك الغرفة ـ كاشطًا بكرسيه للخلف، طاويًا الجريدة فى حركة مثيرة مفاجئة ـ حلَّت البركة، كأنها الشمس أشرقت.

تعجبت لنفسى حيث كنت معقودة اللسان، أحقق النظر فيهما عبر الغرفة. كنت محبطة لقول أى شىء مناسب. "**لم يتسن لى شكركما.**" بدأت كلامى، "**من اجل، كما تعرفان... مساعدتى.**" وجهت كلامى لهورتنس: كان وجهها قاسيًا منقبض الملامح مثل شخص من الطبقة الأرستقراطية. رفعت يدها ملوحة لى فى الهواء قليلاً. كانت إما تعنى: "**كلا إنه حقًا شىء لا يذكر،**" أو تعنى "**رجاءً، اشدد بأن لا تذكرينى بما حدث، يا مدام.**" ـ كان لهذه الدرجة من الحيرة لتحديد ماذا تقصد. وعمَّ الصمت قبل أن أسأل: "**إلى أين ستنتقلان؟**"

قال جلبرت: "**فينزبيرى بارك.**"

"**هل المنزل جميل؟**"

"يحتاج لبعض التصليحات."

"هل يوجد فيه أثاث؟"

"ليس بعد إلا..."

"يا جلبرت، لماذا لا تأخذ أثاثًا من الغرفة فى الطابق العلوى؟ إذا أحببت ذلك. لن نكون فى حاجة إليه."

"كلا، شكرًا - هذا لطفٌ منك لكن سنكون على ما يرام، يا كوينى."

"كلا، خذه، يا جلبرت. بأمانة، خذه."

"لا أستطيع أخذ الأثاث الخاص بزوجك،" قال بتصميم وهدوء.

"انظر، أعطنا جنيهًا استرلينيًا لمجموعة الأثاث. وبهذا سأكون بعته لك."

غيَّر جلبرت جلسته على الكرسى. ولم ينظر فى عينى أيضًا. قد أكون قلت شيئًا غير مناسب، لكن ماذا؟ لم أره مرتبكًا بهذه الطريقة من قبل.أردتُ أن أصيح: **"دعنا نبدأ هذا الحوار من جديد - دعنا فقط نعيد هذا المشهد من جديد."** لكن سبق السيف العذل. اعتدنا أنا وجلبرت أن نضحك معًا، ما غير كل هذا؟ رشح العرق من تحت ذراعى مثل ينبوع ماء. **حسنًا، قرر كما تشاء، لكن أنت مرحب إذا كان الأمر فى متناول يدك."**

عمّ الهدوء مرة أخرى عندما أنَّ الرضيع. كانت أذناى شديدة الحساسية مثل الوطواط فيما يخصه. لا أستطيع سماع الراديو فى الحجرة المجاورة لكن إذا كان يستنشق بصوت عالٍ أسمعه. أستشعر بذلك على جلدى كما لو كنا مازلنا متصلين. سألتهما: **"أتودان رؤية**

الـرضـيـع؟ لم تـريـاه مـنـذ الـولادة. لم يـعـد شـكـلـه مـخـيـفًـا الآن. فـالحقـيـقـة هـو جـمـيل. سـأذهـب لأحـضـره." نهـضتُ بسـرعـة. لم أكن مستعدة بأن يقول لى أى منهما بأنه لا داعى لذلك. إلا أنى لمحتهما وهما ينظران لبعضهما نظرة متحفظة وكأنهما يقولان: "كيف، بحق الله، يمكن ان ننصرف من هنا الآن؟"

كان الطفل الصغير يفرك النوم من عينيه. وتثاءب بملء فمه قبل أن يتجعد وجهه استعدادًا للصياح. ثم رآنى أنظر إليه فبدأ يرفص بقدميه. أزحتُ الشال من عليه ـ الشال الذى تم تعميدى به فى كنيستنا المحلية الجرداء. ألفه بالموسلين وهو نائم فى الدُّرج. مكث هذا النسيج القطنى الرقيق فى الدُّرج لفترة طويلة حتى أصبح من الصعب التخلص من رائحة النفتالين العالقة به. لقد غسلته خمس مرات. يبدو ناصع البياض الآن ـ نظيفًا وجديدًا بالمقارنة لبشرته البنية.

"هـا هـو" قلت وأنـا أنـاول، تلك اللـفـة المزركشـة بـالـدنـتـلا، إلى هـورتـنس. لم أعط لـهـا الـفـرصـة لأن تقـول لى بـأنـهـا مـتـوتـرة من أن تحمله. كانت مرتبكة تعبث فى قفازاتها، وتعدل معطفها. ومع هذا، أخذته. لكن، يارب، لقد كانت منزعجة! حملته كما لو كان لفَّة من القماش أخذتها لتقيسها. "دعينى اساعدك" قلت لها. كنت مضطرة أن أمسكه مرة أخرى تحسبًا من أن يسقط من يدها ـ لقد بدت غير واثقة من نفسها. "كل ما عليك هو فقط ثنى ذراعيك وحمله فيهما." أخبرتها. كانت تجد فى ذلك صعوبة بالغة، كنت مختصرة ومباشرة معها لما قلت: "الم تحملى رضيعاً من قبل؟"

"بالطبع" قالت.

لقد أهنتها بكلامى هذا، الأمر الذى لم يكن قاسيًا، إلا أن الحيلة أصابت. عدلتُ جلستها، ووضعته بين ثنية ذراعيها حتى استقر كما ينبغى للرضيع أن يكون مع المرأة.

"**إنه طفلٌ جميل**،" أخبرتهما. "**بصفاء الذهب. لا يسبب أى إزعاج.**"

مازال وجهها، ناظرة للأسفل إليه، يحمل علامات الاستياء. لكن ما لبث وأن صار لينًا. يُستطيع أن يؤثر فى أى شخص بهذه الطريقة. فلا يمكن رؤية وجهه الجذاب على شكل قلب، وعينيه البراقتين وفمه المرسوم بإحكام لفترة دون أن يدفئ أكثر النفوس برودة. أحنت بوجهها إليه بعض الشىء وقالت بصوت هادئ: "**مرحبًا.**" كانت بداية لا بأس بها. رفعت ببصرها إلىَّ لتناوله لى.

"**آووه، كلا**،" قلت. "**إنه معجب بك. اسمعى، هل تستطيعين سماع الأصوات التى يصدرها؟ إنها تعنى أنه مسرور.**" فى الحقيقة كنت قلقة بأن يكون على وشك البكاء. "**أمسكيه لبعض الوقت.**" قلت، قبل ملاحظة أن جلبرت لا يستطيع رؤيته. "**أريه لجلبرت. اقترب يا جلبرت إلى هنا.**" مطَّ بجسمه وهو على المقعد لينظر ما بداخل الشال. أزحتُ بعض أجزاء القماش لكى يستطيع الرؤية أفضل. أجبرتنى هورتنس لتحريك الرضيع قليلاً.

"**ماذا سميته؟**" سأل جلبرت.

"**مايكل**،" قلت.

أجفلت هورتنس. رفعت ببصرها بسرعة لدرجة أنها أفزعت الطفل. وبدأ يتنفس ويئن بأنفاس سريعة. "**آووه، انتبهى**،" قلت. عيناها الواسعتان مازالتا مثبتتان علىَّ. فسألتها: "**هل أنت على ما يرام؟**"

"**أووه، حسنًا.**" قامت بتهدئته برقة. وهدهدته قليلاً. فاختفى أنينه. وتأكدت من أنه مرتاح قبل أن تكمل كلامها معى: "**مايكل اسم شخص عزيز لدى.**"

"هل لديك أخ اسمه مايكل؟" سألها جلبرت.

"نعم، أخى. لقد قتل فى الحرب، كما ترى."

"أووه، آسفة بشأن أخيك،" قلت لها. **"لكنه اسم جميل. يعجبنى للغاية."**

"أجل، هو اسمى المفضل كذلك." قالت.

"انتظرى، هل تقولين ان جلبرت ليس باسمك المفضل؟" قال جلبرت. ورجعت ابتسامتها الفاترة مع غمزة ضعيفة.

نظرت لأسفل إلى الطفل الصغير وكررتْ: **"مايكل"** بنعومة، مرتين كما لو كانت تعمده بهذا الاسم. أردت أن أحضنها، وأن أشكرها للاهتمام بمعرفة اسمه. لكنى لم أستطع. وكل ما فعلته أن نظرتُ حولى فقط كالبلهاء ودردشت فى كلام فارغ حول الشاى.

بدأ مايكل فى الأنين بأنفاس سريعة. وكانت على استعداد أن تناوله لى. ماذا يا ترى اعتقدت فىّ وأنا أقفز للوراء بعيداً عنها بخفة تماماً مثل البرغوث؟ كلاهما بدا عليه الحيرة. **"الشاى - يجب علىّ أن أساعد برنارد فى تحضير الشاى."** وانصرفت. بالرغم من أنى لم أذهب للمطبخ، ذهبت خلف الباب وراقبتها من وراء فتحة الباب. كانت تتصرف معه بطريقة سليمة. تؤرجحه بلطف بين ذراعيها فى حضنها، فى حين أعطاه جلبرت إصبعه بحرص، وهو ينظر إليه، ليعضعض فيه. قال له شيئًا فى أذنه. همس به بالقرب من أذنه ولم أستطع سماعه. وقامت هى بثنىْ شفتيها لمايكل تداعبه، ثم ابتسمت. وفعل جلبرت نفس الشىء. بدوا يحسنان التصرف معه.

"ما هذا الذى تفعلينه؟" سألنى برنارد. ضبطنى وأنا أتجسس عليهما، ماطة رقبتى لأنظر من بين فتحات الباب.

"دعنى أساعدك فى حمل صينية الشاى؟" قلت. لم يتركها ودخلنا الحجرة ونحن مازلنا نتنازع على حملها. وضع برنارد الصينية على المنضدة محدثًا ضجة مما أدى إلى سكب اللبن من الدورق. ورجع إلى جريدته غير عابئ لمسح اللبن المسكوب. يا له من رجل حاد الطبع. صببتُ الشاى، وسألتهما عن السكر واللبن. ملعقتان لهورتنس. وثلاث لجلبرت، مما جعل برنارد يتأفف من وراء الجريدة. أعطيت جلبرت قدح الشاى الخاص به. وهورتنس كانت تحمل مايكل بين ذراعيها فلم تستطع أن تأخذ قدحها. وكنت أرفعه لها ليس لدى فكرة كيف أضعه على فمها. وبدأتْ تتحرك فى المقعد بارتباك. لم يتبق من الوقت شىء ـ يجب علىَّ أن أقول إذن.

"هل تأخذينه؟" سألتها.

بدا عليها الحيرة مها قلته. **"أعتقد"** وبدأت تتحدث، **"عليك أخذ الطفل حتى أتمكن من شرب الشاى."**

"هل تأخذينه؟" كررت سؤالى.

"لكنه بين يدى، يا سيدة بلاى."

"كلا، أنت لا تفهمينى، أنصتى." كنت ما أزال أحمل كوب الشاى اللعين الذى يطقطق فى صحنه حيث كانت يداى ترتعشان.

وضعته على المنضدة وأكملتُ حديثى: **"هلا أخذته انتِ وجلبرت وأنتما تغادران؟"**

"تغادر إلى أين؟" قال جلبرت.

"إلى المنزل. عندما تغادران. هلا أخذتماه معكما؟"

لم أر فى حياتى عبوسًا عميقًا بهذه الدرجة. كلاهما بهتا وهما ينظران إلىَّ، يحاولان العثور على معنى لما أقول أو روح الدعابة

على وجهى. ركعت على ركبتى. وأمسكتُ بيد كل من جلبرت وهورتنس. سحب جلبرت يده للخلف لكنى أمسكت بها مرة أخرى. "جلبرت،" قلت. عصرتُ على يديه. **"هلا أخذته معك؟ ترعاه بدلاً منى. هلا أخذته ورعيته؟"**

كانت لحظة صمت عمت الغرفة قبل أن تُحبط مثل مفرقعة حيّة، وإذ فجاة ينتبه كلاهما لما أعنيه. وكلاهما، تساءلا فى نفس اللحظة: **"ماذا تقولين؟...ماذا تعنين؟...ماذا تريدين بالضبط؟"**

ترجيت هورتنس، حيث التفت إليها. كنت أركع على كلا ركبتى. **"خذوه معكما ورباه كما لو كان ابنكما، لو سمحتما، لو سمحتما، رجاء؟"**

"يا سيدة بلاى..." هذا كل ما قالته.

"رجاء، يا هورتنس. انا اثق فيك انت وفى جلبرت. انا أعرفكما. أنتما شخصان طيبان." كنت أترجاهما، أعلم بأنى أترجاهما، لكنى لم أبال. كانت تحاول أن تناولنى الطفل. لكنى دفعته ناحيتها مجدداً. لقد صددتُ الطفل الصغير ودفعته إلى ذراعيها.

فى تلك اللحظة سمعتُ صوت برنارد. **"كوينى، ماذا تفعلين بحق الله؟"** كان واقفاً على قدميه فوق رأسى.

"أريدهما أن يأخذاه، يا برنارد."

"إنه ابنك. ماذا تقولين؟"

"اسمع، يا برنارد، هو بحاجة إلى منزل. منزل رائع."

"هو لديه منزل."

عن ماذا يتحدث ذلك الرجل الغبى؟ أريده فقط أن يخرس. أن يغلق فمه اللعين هذا. ما خصه بالموضوع؟ صحتُ فيه: **"لا تتحدث، يا برنارد. هل تسمعنى؟ فقط لا تتكلم،"**.

"فى ماذا تفكرين؟" احمر لونه مثل التوت، كأنه الغضب الخام ينظر للأسفل إلىَّ. إلا أنى كنت أريد أن أترجى هورتنس وجلبرت، وهو عليه اللعنة يتدخل فى الموضوع، أمسكنى بقوة. ورفعنى من على الأرض. وبدأ مايكل بالبكاء. وجلبرت هبَّ على قدميه متوعدًا برنارد بأن يتركنى.

واجهتُ برنارد. أخذت نفسًا عميقًا. **"أحتاج إلى شخص ليعتنى به."**

"أنت أمه."

"أعلم ذلك، لكن لن أستطيع أن أعتنى به جيداً. يا برنارد لن نتمكن من العناية به. ألا ترى؟" أفلتُّ من قبضته. جلس جلبرت وركعتُ أنا مجددًا على ركبتى. ومازال مايكل يبكى لكن هورتنس تحاول إسكاته برقة.

ثم سمعت برنارد يقول: **"ولماذا لا؟"**

لُفظت بطريقة كلها إحباط فحدجنا جميعًا النظر إليه. سُئلت بطريقة كلها جدية. هل حقيقة ليس لديه أى فكرة لماذا نحن، زوجين أبيضين، لا نستطيع أن نربى طفلا ملونًا؟ انسحبتْ أنفاسى. لم أتوقع ذلك ــ برنارد يجادل فى شىء جلى.

"لا نستطيع أن نعتنى به،" هذا كل ما استطعت أن أفكر فيه.

"ولِمَ لا؟" سأل برنارد.

اعتقدت أن نقاشى سيكون-مع هورتنس أو جلبرت. لا استطيع أن أصدق ما أسمع. **"لأنى لا اعرف كيف أسرح شعره، يا برنارد."** قلت.

"لكن هذه سخافة. نستطيع أن نجد حلاً لذلك."

"يا برنارد، ماذا تقول؟"

"نحن سنربيه."

"آوه، صحيح؟ وماذا ستقول له عندما يسأل؟ إننا تركناه فى الشمس لمدة طويلة فى يوم من الأيام فأصبح أسود اللون."

"كانت هناك حرب، وكل الأمور الغريبة تحدث. تبنيناه، هذا ما سنقوله. هو يتيم. بكل بساطة."

ليس لبرنارد أى حق فى أن يكون بهذه الحساسية. أن يكون شديد العدل. شديد الاهتمام. كلمات. قد يستطيع أن يجدها ولكن ليس من شأنه أن يحاول استخدامها الآن لإقناعى. حاول أن تجعلنى أقتنع بأنى على خطأ. لأنى لست كذلك ـ متأكدة بأنى لست مخطئة. ويا للمفاجأة، أنى لم أشاهد أبدًا الطائر الرنان من قبل! ولا حتى فى كتاب. من سيخبر مايكل عن كيف يبدو؟

"إنه طفل ملون، يا برنارد." كنت أبكى. تدخل فمى دموع مالحة تجرى على خدى. **"و... وهو ليس ابنك."** أخرسه ما قلت. وارتمى على المقعد. **"تعتقد أنه باستطاعتك فعل ذلك."** أخبرته، **"بينما هو صغير لا يتكلم. لكن ماذا عندما يكبر؟ ولدٌ كبير ملون. والناس تكتم ضحكاتها عليك فى الشارع وتسألك كل الأسئلة المحرجة. هل ستقاومهم من أجله؟ كل هؤلاء الجيران...هؤلاء الجيران**

المحترمون فى الضاحية. هل ستخبرهم بأن يعتنوا بشؤونهم فقط؟ هل ستضرب الآباء الآخرين لأن أولادهم يشتمونه؟ هل ستشعر بالفخر به؟ سعيد بأنه ولدك؟"

قال بصوت منخفض للغاية: "تبنيناه، هذا ما نستطيع أن نقوله." إنها لسخافة.

"يا برنارد، فى يوم ما سيرتكب شقاوة وستنظر إليه وتقول، هذا الأسود الوغد، لأنك ستكون غضبان. وسيراها هو فى عينيك. ستكون حانقًا منه ليس فقط من أجل هذا. لكن لأن الجيران لا يقومون بدعوتك مطلقًا. لأنهم يتغامزون عليك عندما تمر من عندهم. ولأنهم لم يعتقدوا بأنك رجل محترم مثلهم. لأنهم يعتقدونك أنت وعائلتك أشخاصًا غريبى الأطوار. وكل ذلك بسبب أن لديك ابنًا أسود." كان سيقول كلامًا آخر. فتح فمه لكن لم يتلفظ بأى شىء. "سأقتلك، يا برنارد،" قلت. "هل فكرت فى كل هذا؟ لأنى فكرت. لم أفعل أى شىء إلا التفكير فى هذا الموضوع. أتعلم ماذا؟ لا أمتلك الجراة لكل هذا. اعتقدتُ بأنى أملكها. ينبغى لى لكن لا أملك تلك الصلابة. ربما ليس لهذه المعركة. أعترف بذلك. لا أستطيع مواجهتها، وأنا أمه."

وأخيرًا استطعت أن ألتفتِ إلى جلبرت وهورتنس. وأخبرتهما: "علىَّ أن أتخلص منه، كما ترون، إلى ملجأ الأطفال." أمسكت بيد جلبرت من جديد. فى هذه المرة تركنى أمسكه. "وهم لا يريدونهم، كما تعلم - أقصد الملونين." ينبغى أن أكف عن البكاء - يجب علىَّ أن أوضح الموضوع بدقة. لقد أوقفت دموعى. "قالوا فى الصحيفة إنهم سيرسلون كل الأطفال الرضع من أعراق مختلفة الذين ولدوا

أثنـاء الحـرب ـ فى الأغـلب، أبنـاء، وبنـات الجنـود الملـونـين ـ سيرسلونهم للعيش فى أمريكا." ضحكت، لكن الله وحده يعلم لماذا ضحكت. "يا جلبرت، أتتخيل؟ هل تتذكر، أليس كذلك؟ الأمريكان. قد يرغبون فى إرسال مايكل للجلوس فى مؤخرة دار السينما."

برنارد تركنا وحدنا. وأنا أعلم لماذا. إنه بسبب منظر ركوعى على ركبتى أمام هؤلاء السود. تنهد، أو على الأقل هكذا سُمعت.

"إذا أرسلته للملجأ،" أكملت: "لن أعرف عنه اى شىء. أبداً. ولن يعرف مدى حبى له. وأن يعرف أن كل ما أردته هو ان أكون أماً جيدة له." كانا يحدقان فىّ من شدة الدهشة. من المؤكد أنى كنت أبدو ـ كلا، أنا كنت بالفعل، مثيرة للشفقة. "أنتما ستعلمانى كيف هو حاله. ممكن تكتبان لى وتخبرانى عنه. أعلم أن ما أطلبه كثير."

عينا جلبرت المرتبكتان مليئتان بكل أنواع الأسئلة.

"أستطيع أن أعطيكما المال، إذا كانت هذه هى المشكلة." قلت.

"مطلقاً،" انتفض جلبرت بقوة، "لا تبيعى ابنك، يا كوينى."

"كلا، كلا، أنت على صواب. أنا فقط أريده أن يكون مع أشخاص تفهم. ألا ترى؟ هو من بنى جلدتكم. سأتصرف بأى طريقة تريدونها. بأى طريقة. لكن يجب أن تقولا إنكما ستأخذانه." بدأ مايكل فى البكاء. ضغطتُ بيدى الاثنتين. "كما تريان أننى أترجاكما. لكنه ليس من أجلى. بحق الله، ليس من أجلى. أعلم بأنكما تستطيعان أن تقدما له حياة كريمة أفضل منى أنا. لا تفعلا ذلك من أجلى ـ رجاء، افعلاه من أجله هو. من أجل ذلك أنا أركع على ركبتى ـ من أجل مستقبل ابنى العزيز الصغير."

الفصل التاسع والخمسون

هورتنس

لم أتخيل فى أحلامى أن الحياة فى إنجلترا ستكون بهذا الشكل. حسنًا، فى أى حلم يقظة مجنون أتصور فيه امرأة إنجليزية راكعة أمامى تحترق قلقًا لكى آخذ ابنها الأسود؟ لا يوجد أى حلم سأحلمه بهذا الوهم. إلا أنه كانت هناك السيدة بلاى بالفعل راكعة أمام جلبرت وأمامى، وعيناها الجميلتان ذبلتا من الدموع الغزيرة المنهمرة، وهى تحملق ببصرها علينا نحن الجامايكيين، منتظرة بقلق لترى ما إذا كنا سنرفع إبهامنا للموافقة أو للرفض. هل نستطيع أخذ مولودها الجديد وننسبه إلينا؟ ولا حتى سيليا لانجلى، وأنفها الشامخ عاليًا فى الهواء ورأسها المرفوع تكبرًا للسحاب، قد تتخيل فكرة كهذه مستحيلة للغاية فى الوطن الأم.

.صمم جلبرت أن تنهض السيدة بلاى من على ركبتيها. ساعدها فى النهوض، وهى لاتزال تجهش بالبكاء، من على الأرض، داعمًا إياها بوضع يده على خصرها. وأجلسها على المقعد بجوارى. ولم

يكن من المناسب التحدث عن تلك الأمور لكن مؤخرة الطفل كانت مبللة تحت يدى. لم أعرها أى اهتمام. حاول جلبرت أن يحشر نفسه بين السيدة بلاى وبينى أنا إلا أنه لا يوجد مكان كافٍ له. فجلس أمامنا آخذًا وضعية الركوع على ركبتيه.

"كوينى،" قال بصوت رقيق كرقة صوت المرأة، **"لماذا تريدين أن تتخلى عن ابنك؟"** تلك الكلمات الرقيقة التى لُفظت جعلت السيدة بلاى تنخرط بشدة فى البكاء، فاستيقظ الطفل النائم مرة أخرى. لكن نظرات جلبرت عبرت عن التعاطف والاهتمام مما جعلنى أغفر له هذا الكلام. **"كيف تعتقدين بأننا سنكون أفضل لمستقبل ابنك من أمه نفسها؟ نحن غرباء بالنسبة له."** لكن كانت الأسئلة عديمة الجدوى معها، لأن حُرقة هذه المرأة أعجزتها عن الكلام. وانتظرها بصبر حتى تهدأ من البكاء. وعندما لم يقف بكاؤها، معج بيننا ليجلس على المقعد ليتمكن من وضع ذراعيه حول كتفيها لمواساتها. ورفعت السيدة بلاى يدها ووضعتها على ذراع جلبرت، فى ردة فعل للمواساة. ومن شدة الغضب، كانت تلك اللمسة الرقيقة كافية لجعل السيد بلاى يهب على قدميه وينفجر قائلاً: **"ابعد يديك القذرتين السوداوين من على زوجتى!"**

تصدى جلبرت بثبات لهذا الرجل الطويل. ووقف الرجلان فى مواجهة لبعضهما البعض. وقال جلبرت: **"ما مشكلتك، يا رجل؟"**

"مشكلتى هى أنت، ويداك على زوجتى."

"هل أنت متأكد من أن يدىّ السوداوين على زوجتك هى مشكلتك، يا رجل؟"

"كيف تجرؤ، يا همجى؟"

وفى تلك اللحظة، خرجت السيدة بلاى، التى كانت مرهقة من كل هذا العنف، مسرعة من الغرفة. تركتنى وحدى أهدئ الطفل الذى يبكى.

"**الآن انظر ماذا فعلت.**" أشار السيد بلاى بإصبعه تقريبًا داخل فتحة أنف جلبرت. وضربها جلبرت ليبعدها عنه. فى حين قمت أنا بالنظر إلى فجوة فم الطفل، حيث تتأرجح اللهاة فى آخر حلقه بسبب الهواء الصادر من عويله.

فكرت فى تهدئة الوضع فقلت: "**راعوا هذا الطفل.**" لكن القليل من الانتباه لقيناه سواء أنا أو الطفل. فكرت مع نفسى، سأشارك هذا الطفل الجميل الصغير فى العويل، لأن الوضع ينعطف انعطافة سيئة.

مطَّ جلبرت نفسه لدرجة، أقسم، بأنه أصبح يناطح السيد بلاى. "**اسمع، يا رجل، زوجتك تسألنا أن نأخذ ابنها، وكل ما يضايقك هو أن رجلاً أسود قد يفكر فى تهدئتها.**"

"**لا أريد سماع المزيد منك. فقط اخرس!**"

"**حسنًا، سوف؛ سوف تسمع منى الكثير.**"

خطا السيد بلاى خطوة واحدة للخلف، ليس خوفًا من جلبرت لكن ليتمكن أن يبين له نظرات ازدراء من رأسه لقدميه. "**لماذا، بحق الله، تضع كوينى ثقتها فى تربية الطفل لأشخاص مثلكما؟ هذا الطفل خليفة الاختلاط العرقى سيكون الأفضل له الشحاذة بالقرب من بالوعة.**"

مصَّ جلبرت أسنانه غضبًا كرد فعل على إهانته. "**أتعلم ما هى مشكلتك، يا رجل؟**" قال جلبرت، "**بشرتك البيضاء، تظن أنها**

تجعلك أفضل منى. تظن أنها تجعل منك سيداً على الرجل الأسود. لكن أتعرف ماذا تجعلك؟ أتريد أن تعرف ماذا تجعل منك بشرتك البيضاء، يا رجل؟ تجعلك رجلاً أبيض. هذا كل شىء، يا رجل. رجلاً أبيض فقط." رفع السيد بلاى ببصره ليحدق فى السقف. **"أنصت لى، يا رجل، كلانا انتهى من خوض الحرب - حرب دامية - من أجل عالم أفضل نبتغيه. معًا فى نفس الجبهة - أنت وأنا. كلانا ننظر إلى الرجال الآخرين لنرى العدو. حاربنا من أجل الإمبراطورية، حاربنا من أجل السلام. لكن مازال، رغم كل ما عانيناه سويًا، تريد أن تقول بأنى عديم المنفعة بينما انت جدير المنفعة. علىّ أن أكون أنا العبد وأنت السيد طوال الوقت؟ كلا. امتنع عن ذلك. نستطيع العمل سويًا، يا سيد بلاى، الا تستطيع رؤية ذلك؟ إنه إلزام علينا. أو سيكون عليك محاريتى إلى ما لا نهاية."**

أسكتَ جلبرت الغرفة كلها. لم يكن السيد بلاى وحده الذى فغر فمه من شدة الدهشة. حتى الطفل الرضيع أطبق عليه السكوت. وللحظات بينما جلبرت واقف، صدره ينهج من انفعال الكلمات، أدركت أن جلبرت جوزيف، زوجى، رجل راق، رجل ذو شخصية قوية، رجل ذو ذكاء. نبيل بطريقة ما ستجعله أسطورة فى يومٍ من الأيام. **جلبرت جوزيف،** سيصيح كل فرد باسمه. **"هل سمعت عن جلبرت جوزيف؟"**

وقال السيد بلاى بصوت منخفض، والذى كان يرمش مباشرة فى عينى جلبرت مجددًا، "آسف،" بالطبع، فكرت مع نفسى، طبعًا. ومن الذى لن يفتن بتلك الكلمات التى قالها زوجى الذكى، والوسيم، والنبيل؟ إلا أن هذا الرجل الإنجليزى أكمل كلامه: "آسف... **لكنى لا افهم أى كلمة من الذى قلته."**

انسحبت تعبيرات وجه جلبرت الجليلة وتكسرت لقطع صغيرة على الأرض من خيبة الأمل. انحنى إلى أسفل إلى وأخذ منى الطفل من بين ذراعى. ثم استقام فى وقفته وأعطى الطفل الملفوف بالقماش إلى السيد بلاى. وبعدها أمسك يدى وقادنى فى صمت إلى الحجرة.

صعد جلبرت سلالم الدَّرج بغضب عارم. فى أول بسطتين قفز ثلاث درجات فى المرة الواحدة، وخبطت قدماه بصوت عال كما لو كانا أقدام عملاق. وقررت عدم اللحاق به، لأن مازالت السلالم تبدو مثل أرفف المكتبة أمامى. وعند البسطة الثالثة، سواء بسبب التعب والاهتمام بى أبطأ من خطواته. ومن خلال البهو الكئيب يمكن سماع صوت السيدة بلاى تصيح فى حسرة، "**كلا.**" وعند البسطة الرابعة توقف جلبرت. كان الطفل يبكى. الصوت الذى أحاط بى بدأ يعلو أكثر وأنا أصعد حيث وقف جلبرت. كلتا يديه تضغطان بشدة لسدٍّ أذنيه. وعندما وصلتُ عنده هبَّ بغتة ولكم الحائط. ثم تفجع من الألم، آملاً أن يصرف الألم بهرس الحائط عديم النفع، فقال: "اللعنة، اللعنة." جلس بعنف على الدرج. واسترحتُ أنا بجواره وأخذت يده المصابة فى يدى.

"**ألم تعلمك أمك أن الحائط صلب؟**"

وللحظات قصيرة نظر فى وجهى قبل أن يسند برأسه ناظرًا إلى حذائه ذى الرقبة العالية. "**هورتنس**" قال، "**ماذا ممكن أن نفعل، ماذا ممكن أن نفعل؟ لا يمكن أن أرحل هكذا، أن أترك هذا الطفل الملون الصغير فى هذا البلد، الملىء برجال أمثال السيد بلاى. هو وبنو جلدته. أى مستقبل لهذا الرجل الصغير منتظره؟ اللعنة.**"

شددتُ على يده تلطفًا لكن كان عليَّ أن أتوقف عندما قال: "آخ." هذا الرجل مازال مهرجًا. ومع ذلك بدأت الكلام. **"هل تريد أن تسمع ماذا أعرفه عن أمى؟ تنورة ترفرف، وقدمان حافيتان تحجلان فوق الصخور، ورائحة اللبن المغلى، وأغنية رقيقة تهمس فى أذنى "يا غصن زهرتى،" إلى أن لا تقدر عيناى أن تقاوم النعاس. هذا كل ما أتذكره عنها. وأنا طفلة صغيرة تُخُلِّىَ عنى أيضًا ـ وتربيت فى بيت أعمامى لأنى ولدتُ ببشرة ذهبية."** وضع يديه على يدىَّ ورفع ذقنى ليقبل خدى.

وسألنى: **"ومن مايكل هذا؟"**

"آوو، مايكل روبرتس، كان ابن عمى، ترعرعنا سويًا."

"هل تحبينه؟"

"بالطبع."

فتحت جين باب غرفتها. بما يكفى لأن تحشر أنفها، تشمشم السود من على السلالم. ثم أغلقته مرة أخرى لتضحك.

"أخذونى من أمى لأن، ببشرتى الذهبية، الجميع ظن بأنه سيكون لى مستقبل مشرق مثل الذهب."

"طيب، إذن، المستقبل الذهبى هو ما ينبغى أن تناليه، يا آنسة صاحبة القدم اللزجة "

"أنا أعزم على ذلك، يا جلبرت جوزيف. هذا بالضبط ما أعزم عليه." أحاط بنا بكاء الطفل مجددًا. سألته: **"هل تريدنا أن نأخذ الطفل، يا جلبرت؟"**

لم يكن التردد هو الذى أسكته ـ بل النفس العميق الذى مرة أخرى ملأ رئتيه. **"آوو، يا هورتنس، ربما أنت على صواب ـ أنا أحمق.**

هل تريدين أن تعرفى لماذا؟ هيا، حقيقة، أنا أؤمن بأنه ليس هناك خيار آخر."

أخذت السيدة بلاى تقبل كل قميص وهى تطويه، عندما جمعت كل أغراض الطفل من الدُّرج. ثم ضمته إلى صدرها بشدة مما جعله يئن، قبل أن تناوله لى بحذر. مايكل جوزيف سيتعرف على أمه ليس من رائحة اللبن المغلى، أو من أغنية تهمس له، أو من أقدام حافية، لكن من تذكر طعم الدموع المملحة. تلك الدموع التى تساقطت فى ذلك اليوم، كلها مرة واحدة، من عينيها، إلى شفتيه ومن ثم إلى لسانه.

أثارا بعض الجلبة مع صندوق سفرى. "**هل تمانعين فقط أن نرمى ذلك الشىء اللعين خارجاً من الشباك؟**" سألنى جلبرت. لقد تمكن من حمله كل هذه الدرجات إلى أعلى فى الأسابيع القليلة الماضية إلا أنه يجد من الصعب جداً إنزاله. وفتحت فمى لأسبه عندها قال: "**ماذا، أمازلت لا تعرفين النكتة؟**"

"**بلى**،" قلت له، "**النكتة هى الشىء المضحك.**"

كان ونستون من نادى على جلبرت لمحاولة رفع الصندوق مرة أخرى.

"**ماذا تضعين فيه، على أية حال؟**" أراد جلبْرت أن يعرف.

"**فيه كل شىء سأحتاجه، يا جلبرت جوزيف، كل شىء سأحتاجه.**"

آوه، كم من التعب والإرهاق لحق بهما، وهما يدقان بصندوقى الجميل ضد إطار الباب، يرطمانه على أرضية البسطة، ويخبطانه

على كل درجة للسلّم. كان الرضيع يرتج فى سريره بسبب تلك الضجة. يرتد الدُّرج الذى كان مهده فى الغرفة مع كل ارتطامة. حملته حيث ينام وأسكته وهمست له ببعض الكلمات. غلبه النعاس، ونظر إلى وجهى بعينين مرتخيتين قبل أن تمط ابتسامة قصيرة شفتيه. فى يوم من الأيام سيريد هذا الطفل أن يشاهد عش العصفور وسأرفعه أنا لأريه إياه. وسيعذب العناكب ويلبس مثل الهرة. "**يا غصن زهرتى**،" قلت، وقبلته على جبينه.

عند إرجاعى له فى مكانه لمست يدى شيئًا ناحية ظهره. ظننت أن فرشته تحتاج أن تنظم فحاولت أن أفردها. لكنها لم تنفرد. وبينما أحاول وضعه فى مكانه وجدتُ شيئًا مخبوءًا فى ملابسه، حقيبة مطرزة. ولكى أفك الحقيبة كان علىَّ أن أبحث عن مقص لكى أقص الرباط. كان الطفل هادئًا كما وعدت السيدة بلاى بأن سيكون. خلد للنوم عندما تحسست الحقيبة بارتباك. وعند فتحها وجدت حزمة من النقود مربوطة برباط زهرى صوف ومحكم بربطة أنيقة. ثلاثمائة جنيه من الورقات القذرة. لم أدلل أصابعى بكل هذه النقود من قبل. وفى أسفل هذه الحزمة كانت هناك صورة فوتوغرافية. إنها صورة للسيدة بلاى أخذت، أنا كنت متأكدة، فى أسعد أوقاتها. الرأس والأكتاف، وعيناها توجهت بزاوية للمصور، تنظر بابتسامة رقيقة. لم أفكر مطلقًا أن أستفسر عن والد ابن السيدة بلاى. من يكون؟ إنه جامايكى أحمق وغبى معجب بساقين ممتلئتين لامرأة بيضاء. أين يكون؟ هاربًا بعيدًا عنها قدر ما يستطيع. فكرت أن أنادى جلبرت لأريه هذه المكافأة. إلا أن كرامة هذا الرجل بالتأكيد ستجعله يصمم على ردِّ المال إليها. وأنا لدى فكرة فى ذهنى. حسنًا، سأحسن استخدامه عند وقت الحاجة.

وضعته فى حقيبتى وقررت بأن أحتفظ بكلا السرين، سر النقود وسر الصورة الفوتوغرافية.

حملت الطفل بارتباك عندما أخيرًا وصلت لباب هذه الغرفة الكئيبة. لم يكن هناك وخز فى ضميرى لكى أنظر إلى الغرفة فى اشتياق لها. ولا يوجد هناك آسى جعلنى أحزن لفقدان شعلة الغاز، والحوض المكسور، أو حتى الطلاء البالى. وعند باب السيدة بلاى توقفت. دققت الباب ثلاثًا. لم يكن هناك رد. طرقتُ مرة أخرى، ناديت على اسمها هذه المرة. ومع ذلك لم يجب أحد. إلا أنه مع تلك القطعة الرقيقة من لوح الخشب بيننا أستطيع أن أشعر بها على الجانب المقابل من الباب. الغم مع توقف النفس. يدٌ شديدة الخوف والتردد تلمس مقبض الباب. كانت هناك ـ أعلم ذلك. "**مع السلامة، يا كوينى**،" قلت بصوت عال، ومع ذلك لم تخرج.

خبط جلبرت قدمى تقريبًا حينما اندفع ناحيتى. قميصه خارج بنطلونه وزرّر بطريقة سيئة، يلهث مثل الكلب. "**وضعت الصندوق فى الشاحنة**،" قال، "**هيا، أسرعى، ياه.**" أخذ منى الطفل. أحكمت قبعتى تحسبًا من أن تسقط من الهواء الرطب وأبدو مضحكة. تحركت ستارة من خلف الشباك ـ بعض الشىء لكن كافٍ بأن أقول بأنه ليس بسبب الهواء. إلا أنى لم أعرها أى انتباه حيث استقمت بظهرى وشددت على معطفى من البرد.

يـُدين الوطن كله فى الصراع البشرى

بالكثير لمجموعة صغيرة.

وينستون تشرشل

سلسلة
الجوائز
106

تدور رواية "جزيرة صغيرة" بين "جامايكا" والعاصمة البريطانية "لندن"، وتتناول أحداثها رحلات هجرة العديد من جيل والد الكاتبة، هؤلاء الذين هاجروا خلال الحرب العالمية الثانية والذين تركوا حياتهم الهادئة للبحث عن حياةٍ جديدة فى البلد الذى لم تكن الشمس تغيب عن إمبراطوريته.

وبعد أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، تظهر التغييرات على الجميع، وتحاول الثقافتان التعرف على بعضهما البعض، ويحاول مهاجرو "جامايكا" الذوبان في مجتمعهم الجديد على الرغم من حنينهم إلى جذورهم، وتحاول "لندن" أن تعترف بأهمية اكتشافهم.

إن رواية "جزيرة صغيرة" تكاد تطرح هنا فكرة أن الحرب العالمية الثانية هي الحافز الأكبر الذي أنتج مجتمعًا متعدد الثقافات ظلّ بعد ذلك ملمحًا من ملامح بريطانيا، وأن الطرفين أسهما مساهمة فعّالة واضطلعا بدورهما للقضاء على العنصرية وتغيير المجتمع نحو الأفضل والتطلع إلى المضي قدمًا لتحقيق غدٍ أكثر إشراقًا للشعوب.

الروائية: أندريا ليفى، الروائية البريطانية من جذور جامايكية.
الجائزة: جائزة الأورانج 2004.

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774488382

6 221149 033009

35 جنيهًا

تصميم الغلاف: هند سمير